المن بالإمامة

تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين

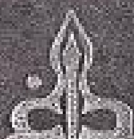
تأليف

عبد الملك بن صاحب الصلاة

(594 هـ - 1198 م)

تحقيق

الدكتور عبد الهادي التازي



دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى 1964
الطبعة الثانية 1979
الطبعة الثالثة 1987



دار الغرب الإسلامي
ص. ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان

تقديم

عبد الهادي التازي

كان في صدر الذين نعوا على المغاربة إهمالهم تاريخ أعلامهم ومعالمهم وإغفالهم تخليد مفاخرهم ومآثرهم، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي من رجال القرن السادس الهجري.. ونعتقد أن ذلك الشعور منه كان بمناسبة عزمه على تأليف موسوعته المشهورة: «الذيل والتكملة»، فعندئذ أحس بالفراغ المهول حول الموضوع، ومن هنا نقل عنه صاحب كتاب «مفاخر البربر» هذه الكلمات: «ولقد كان بفاس من الفقهاء الأعلام الأجلة أعيان الأنام ما ليس في غيرها من بلدان الإسلام، إذ هي قاعدة المغرب ودار العلم والأدب، لكن أهلها أهملوا ذكر محاسن علمائهم وأغفلوا تخليد مفاخر فقهائهم»[1].

وربما كان - أي عبد الملك - هو المقصود عندما ردد العلامة سيدي العربي الفاسي في كتابه مرآة المحاسن قوله عن جماعة من العلماء «وسموا المغاربة بالإهمال، ويدفنهم فضلاءهم في قبري تراب وإخمال، فكم فيهم - يقول صاحب المرآة: - من فاضل نبيه، طوى ذكره عدم التنبيه، فصار اسمه مهجوراً، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً»[2]، وقد شعر بصدق هذا العتاب وإدراك دواعيه سائر الذين قدر لهم أن يتحدثوا عن المغرب، وهكذا قرأنا لأبي علي اليوسي في محاضراته بعد نصف قرن ترديداً لكلام شيخه سيدي العربي مضيفاً

(1) نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول الاسم ألف سنة 712 - نشر ليفي بروفنصال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء 3، الرباط 1352 — 1934.

(2) المرآة ص 4.

الى ذلك « أن الاعتناء بالأخبار والوقائع والمسانيد ضعيف جداً في المغاربة إذ غلب عليهم الاعتناء بالدراية دون الرواية »[1] ثم قرأنا للكتاني في « السلوة » : « أنه لقلة اعتناء أهل هذا المغرب بالتاريخ ضاع أكثرهم وخفي على كثير من الناس جمهورهم ومعظمهم » وقد عزز صاحب السلوة هذه الفكرة بنقول عن سيدي عبد السلام القادري في تقييده حول التعرف بابن أبي زرع ، وبكلام صاحب « كتاب التنبيه على من لم يقع به من فضلاء فاس تنويه »[2] .

ثم كانت هذه لازمة الذين عنوا بالبحث في مصادر التاريخ المغربي سواء من الأساتذة المغاربة أو المستشرقين على السواء[3] . . . والحقيقة أنها رواية من صاحب المرآة ، مبعثها إحساسه وقلبه اللذان كانا يتوقان إلى الاطلاع على أخبار الماضين من هذا المغرب . . . لكن المزيد من المرارة التي كان يشعر بها أولئك العلماء في ذلك التاريخ قد خفت وطأتها على عهدنا فيما نظن ، فلو أتيح لهم أن يطلعوا على ما نشر لحد الآن عن تاريخ المغرب وبأيد مغربية لكان عتابهم أخف وألطف . فلقد انكشفت بالفعل عيون جديدة أروت إلى حد ما ظمأ المتعطشين ، وظهرت منذ فجر هذا القرن وثائق تاريخية جعلت تبعة المؤرخين المغاربة أقل مما كان يتصور ، وقد تأكد فعلاً أنهم كانوا « يعتنون ويهتمون » وأنهم أصحاب « دراية ورواية » وأنهم بالرغم مما يعوق المؤرخ أحياناً عن تسجيل انطباعاته لداع ما[4] من الدواعي ، بالرغم من كل ذلك ظهرت وتظهر مخطوطات هنا وهناك ، كانت الى الأمس القريب في حكم المعدوم ، وبفضل همة رجال البحث أمست اليوم في متناول الجميع وربما بلغات أخرى غير اللغة العربية .

---

(1) المحاضرات ص 59 .

(2) السلوة أول ص 5 .

(3) أقرأ مقدمة الأستاذ محمد الفاسي عن كتاب المعجب ، واقرأ مقدمة الأستاذ بروفنسال لكتابه بالفرنسية (مؤرخو الشرفاء Les Historiens des Chorfa) . ترجمة عبد القادر الخلادي مطبعة الرباط 1397-1977 ص 37 .

(4) لاننسى أن المرابطين كانوا يفرضون رقابة صارمة على المؤلفات ، كما لا ننسى ما قد يستهدف له المؤرخ من « معوقات » تحول بينه وبين الكلام . . أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ص 261 .

وإن في أولئك الذين شعروا بتبعتهم هذا المؤرخ الكبير الذي نقدمه اليوم :

عبد الملك بن صاحب الصلاة

عرفت التعاليم الإسلامية في الشرق والغرب نظاماً دقيقاً لضبط سير البلاد الاجتماعي ، وهكذا أنشئت وظائف عديدة كان في أهمها خطة الشورى والأحكام[1] ، كما كان من بينها صاحب الأحباس ، وصاحب السوق ، وصاحب الرد ، وصاحب الشرطة ، وصاحب الخُمس[2] ، وصاحب الصلاة والخطبة ، وصاحب المظلة[3] ، ولقد عرف إلى الآن نظام الدولة المغربية صاحب الوضوء ، وصاحب السجادة[4] ، وإن أقدم تاريخ ردد فيه هذا اللقب ـ فيما

---

(1) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة نشر كوديرا رقم 891- 936- 984- 1057- 1381- 1565- 1755- 536- 753 .

حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين 1957 صفحة 368 — 369 .

(2) ذكر القاضي عياض في الغنية في ترجمة حجزة خلف بن خلف بن محمد الأنصاري ، المعروف بابن العربي من أهل المرية (508) إن من شيوخه ابن صاحب الأحباس ، وذكر في ترجمة أبي جعفر أحمد بن سعيد اللَّخمي الوريقي المتوفى سنة 516 . إنه سمع ابن صاحب الأحباس وقال في ترجمة الحافظ أبي بكر غالب بن عطية (518) إنه سمع بالأندلس من أبي بكر ابن صاحب الأحباس ، كما ذكر في ترجمة شيخه أبي القاسم عبد الرحمن العاقري السبتي (502) إنه لقي ابن صاحب الخمس بصقلية ، ولقد تكلم شراح الزقاقية ومحشوها في أوقفا على بعض أصحاب الخطة كصاحب المظالم وصاحب السوق وصاحب الرد وصاحب الشرطة . الغنية ص 25 . الزقاقية ص 8 .

(3) ابن خاقان : أخبار ملوك بني عبيد صفحة 24 — 51 .

(4) يوجد في النظام المغربي صاحب الوضوء وصاحب السجادة وقد أدركنا من وظائف أصحاب الوضوء أنهم يخبرون الوزراء بخروج الملك من داخل قصره ، الى قبة النصر أو الى مكتبه بالمشور ، وهم الذين يبعثون من لدن العاهل لطلب الوزراء والكبراء . كما أنهم هم الذين يحملون اليه الرسائل والتقارير من مختلف ...ات الوزراء ، وأخيراً بواسطتهم أيضاً يعلم سرادقي القصر أن السلطان قد رجع الى قصره ، أما صاحب السجادة فهو الذي يحمل السجادة التي يصلي عليها السلطان ويفرشها في المسجد عند أوقات الصلاة ، وغالباً ما يكون أفراد هذه المهنة من أحفاد الفضلاء .

ابن زيدان ـ الاتحاف جزء 2 صفحة 529 — 537 — 530 ، العز والصولة لنفس المؤلف 1 ـ صفحة 128 — 129 .

تعلم ـ : صاحب الصلاة ، يرجع لأواسط القرن الثالث الهجري [1] ، وانتشر بعد ذلك سواء في الأندلس أو أفريقية والمغرب [2] ، ويعني به بكل وضوح الذي يؤم بالناس في صلواتهم [3] ، ولعلهم عدلوا عن لقب الإمام المعهود حتى لا يشتبه بالإمام الحاكم . وليس من الصواب في شيء أن تدّعي أن مدلول صاحب الصلاة يعني شخصاً ألف كتاباً يحمل اسم الصلاة [4] ، كما أنه ليس صحيحاً ضبط الصلاة بكسر الصاد مع التشديد وحذف الألف كما وقع فيه بعض المستشرقين [5] .

وعبد الملك هو ابن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي المكنى أبا مروان ، وأبا محمد [6] كذلك والمعروف بابن صاحب الصلاة ، ونظراً لكونه ينتسب لمدينة باجة فإن أصل أسرته ـ كما يظهر ـ كان باجة التي كانت تضم نخبة

(1) ورد عند ابن الخشني : بينما محمد بن سحنون (ت 4255) يمشي يوماً مع جماعة من أصحابه لقيه ابن صاحب الصلاة في ذلك الوقت المعروف بابن العواجب ، فلوما إلى أن قال ابن سحنون : « يا (أي) بابن الزانية ! إلى آخر القصة » .

ابن الخشني : قضاة قرطبة وعلماء أفريقية صفحة 180 .

ابن الأبار : التكملة نشر العطار الترجمة رقم 1029 .

(2) ابن بشكوال : الصلة (نشر العطار) رقم 434 — 501 — 515 — ابن الأبار : التكملة نشر كوديرا رقم 907 — 914 — 916 — 979 — 1291 . ونشر العطار رقم 162 — 136 — 1029 . ابن عذاري : البيان المغرب (مخطوط) صفحة 92 . ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، الثاني صفحة 134 . الحلل الموشية . . ابن خلدون سادس ص 467 . عباس بن إبراهيم : الإعلام ثالث صفحة 68 .

(3) المصدر السابق رقم 140 — 157 .

(4) هكذا يترجم الأستاذ الأسباني كوندي (Conde) .

Pons Boigues : Ensayo Biobibliografico Sobre los Historiadores, y, Geografos arabi-go — Espanoles, ed, Madrid 1898, pp. 245 — 246 N : 199 .

(5) هكذا قرأها الأستاذ فلوجيل Fluegel في ترجمته اللاتينية لكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة معتقداً فيما يظهر أنها كتاب يحمل اسم الصلاة . ولعل مصدر الخطأ ما يوجد من تحريف في بعض نسخ القرطاس وتفح الطيب . ابن أبي زرع : الأنيس المطرب طبعة فاس 2 . صفحة 127-128 . المقري : النفح الطبعة الجديدة 3 . صفحة 100 .

(6) يذكر كنايالكوس أن المؤلف قال أكثر من مرة : « قال المؤلف أبو عبد الله محمد بن صاحب الصلاة » وهكذا ـ يقول كنايالكوس ـ يظهر أن اسمه محمد لا عبد الملك . بيد أننا نؤكد أنه لا يوجد أثر لهذا التعبير في النسخة التي بين أيدينا من كتاب المن بالإمامة .

لامعة ممن حملوا هذا اللقب الشريف [1] ، وقد نعته ابن الأبار أحياناً بالأشبيلي نظراً ـ فيما يلوح ـ لكونه استوطن اشبيلية بعد [2] ثم لا يدري أي شيء عن أوليته ولا كذلك عن نشأته وتربيته ، فإن معاجم رجال العصر الموحدي فقدت صاحبنا اللهم إلا ما كان من ابن الأبار الذي ترجم له في كلمة لا تتجاوز سطرين فقط لم يضف فيهما شيئاً زائداً على اسمه وكنيته ولقبه ، وإلا ما كان أيضاً من ابن عبد الملك المراكشي الذي أضاف إلى هذا أنه روى عن أبي بكر بن هرون وأبي . . ابن مالك ، وأبي عبد الله بن عميرة وأبي علي بن الأشيري ، وهكذا لم يعرفنا لتاريخ ميلاده ، ولا كذلك لتاريخ وفاته ولا لحياته العملية . . وقد اقتصر الأول على التذكير بأنه صاحب التاريخ » ، بينما ذكر الثاني أنه صنّف تاريخ ثورة المريدين بالأندلس ودولة عبد المؤمن ومن أدرك بحياته من بنيه [3] .

غير أن دراسة كتاب المن بالإمامة على المستضعفين ، أو بالحري دراسة السفر الثاني من هذا الكتاب تضفي بعض الضوء على حياة هذا المؤرخ الكبير ، ومن حسن الحظ أن هذا المجلد ـ الذي بين أيدينا الآن ـ هو الذي يصادف طموح ابن صاحب الصلاة ودخوله الميدان ، ولذلك فهو من هذه الناحية ذو فائدة كبرى ، ومن المؤكد أن كلاً من السفر الأول والثاني كانا يتضمنان شيئاً عن حياته ، فقد تضمن كتاب البيان المغرب [4] معلومات إضافية عن حياة هذا

(1) ابن عذاري : البيان المغرب ص 93 — 94 — 95 .

(2) ابن الأبار : الحلة السيراء نشر الأستاذ دوزي ص 235 .

(3) ابن الأبار : التكملة ـ كوديرا ـ رقم 1726 ، ابن عبد الملك : الذيل والتكملة (مخطوط) الخزانة العامة ـ الرباط رقم 2048 (د) ورقة 14 ، تحقيق د. محمد بن شريفة ـ 9 أكاديمية المملكة المغربية 1984 ، ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى صفحة 135 - 136 .

(4) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذاري كان معروفاً ـ قبل توفق رجال البحث لمعرفة حقيقته ـ تحت اسم : التاريخ المغفل La Chronique Anonyme أو (مخطوط مدريد كوبنهاجن) وهذا المخطوط جاهز الآن للطبع بمعهد مولاي الحسن بتطوان ، ويقوم بنشره السيد امبروسيو هويسي ميرانده بمساعدة الأستاذين محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني .
Dozy: Recherches sur L'histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le moyen age . page 310 ; provençal : Documents inéd . p 93 ; Basset — Terrasse : Hes. 1924, t.IV, p . 17 — 28 ; Provençal : Hes. t.X, 1930, p. 49, Melchor Antuna : Sevilla y sus monumentos, pp.25 — 38

المؤرخ كانت مستمدة فعلاً من السفر الأول والثالث ، هذا بالإضافة الى بعض المعلومات التي أمكن تصيدها من خلال بعض المراجع التي اعتمدت ابن صاحب الصلاة في نقولها .

حياته :

لقد ظهر عبد الملك أول ما ظهر في كتابه المن بالإمامة أوائل المحرم من سنة ٥٥٧ (أواخر دجنبر ١١٦١) في مدينة قرمونة على مقربة من أشبيلية ، وكان ذلك لما فتحها الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص شهيد موقعة مرج الرقاد ، فعندما دخل الشيخ عبد الله هذا مسجد المدينة وأمر بغسله بعد أن تخلص من الأسر ، وبينما هو جالس مستند الى الحائط الشرقي من جامع قرمونة والرجال يغسلون الجامع برأى منه ، تقدم اليه عبد الملك بن صاحب الصلاة وهنّأه بالفتح [1] ، فهل في امكاننا أن نستشف من خلال هذا الخبر تاريخ ميلاده ؟ إن جل المثقفين في الأندلس والمغرب كان ممن نبغ وهو لم يتجاوز العشرين كما يدل لذلك تاريخ كثير منهم ، فهل يكون ميلاد ابن صاحب الصلاة حوالي سنة سبع وثلاثين وخمس مائة ؟ ثم بعد هذا أليس من حقنا أن نفترض أن الشاب كان آنذاك من سكان أشبيلية [2] وشارك في حروب قرمونة صحبة الجيش الذي ذهب تحت إشارة والي أشبيلية بالنيابة : أبي محمد عبد الله بن أبي حفص ؟

ولقد ظهر ابن صاحب الصلاة في هذه السنة مرة أخرى عندما صدر الأمر باتخاذ قرطبة (موسطة الأندلس) مركزاً للحكم على نهج ما كان في عهد بني أمية ، وذلك على إثر المحنة التي استهدفت لها قرطبة من قبل الثوار فلقد استدعيت بهذه المناسبة جماعة كبيرة مشهورة من أعيان اشبيلية وأعيان جهاتها لملء الأطر التي يتطلبها تعمير قرطبة ، وكان ابن صاحب الصلاة في جملة من عين للأشغال [3] ورشح للكتابة بدوائر الحكم ، غير أنه استعفى واعتذر في حين قبل فيه غيره التزام العمل ، ولكنه ـ مع هذا الاستعفاء ـ أقام في قرطبة معدوداً

(1) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة صفحة 49 .
(2) لا ننسى ان ابن الأبار نعته بالاشبيلي في الحلة السيراء .
(3) أنظر المن بالإمامة ص 44 .

في جملة الكتاب المرموقين ولما قدم على قرطبة السيدان أبو يعقوب وأبو سعيد ضحوة يوم الأحد الثاني عشر من شوال ٥٥٧ (٢٤ شتنبير ١١٦٢) صحبة الشيخ أبي يعقوب كان في عداد وفد كتّاب اشبيلية الذين خرجوا للتبرك [1] بمقدم السادة .

ويختفي عنا نشاط عبد الملك ابن صاحب الصلاة منذ سنة ٥٥٧ لنجده في سنة ٥٦٠ يصحب موكب السيد أبي سعيد والي قرطبة لينزل جبل طارق حيث تم هناك الاجتماع العظيم بين السيد أبي سعيد ، وأخيه السيد أبي حفص الذي ورد لإحياء وشائج «التعاون والتواصل» بعد أن كان طرأ بعض الفتور على العلاقات بين أبي سعيد والخليفة أبي يعقوب على أثر تنصيب هذا الأخير أميراً على البلاد بعد وفاة والده الخليفة عبد المؤمن ، لقد ورد ابن صاحب الصلاة في جملة الواردين مع طلبة الحضر للتيمن بطلعة السيد ابي حفص ، وقد تقدّم ـ ضمن الشعراء الذين هنأوا ـ بقطعة شعره ، وكان الذي تولى تقديمه للسيد أبي حفص هو الكاتب أبو الحسن بن عياش الذي «بين عند السيد الأعلى مسألة وفود عبد الملك وقصوده ، فوعد السيد الأعلى في شأنه بعدة جميلة وبآمال كفيلة» [1] وما من شك في أنه يسرت لابن صاحب الصلاة وسائل النزول للعدوة لزيارة الحضرة العلية صحبة السيد أبي حفص . سيما وقد كان التبع بنصيحة القاضي ابن العربي بصحبة أولياء الأمر !

ومن مدينة سبتة أخذوا طريقهم على مدينة فاس حيث كانت له دون ريب اتصالات ببعض الشيوخ من سكان فاس [3] . . . ومن هنا اتجه نحو مدينة

(1) انظر ص 63 من المن بالإمامة .
(2) أنظر صفحة 104 — 106 — 110 — 111 .
(3) يذكر صاحب الحلل الموشية ان ابن صاحب الصلاة حكى عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقي أحد شيوخ فاس قال : كنت بمقعد بمدرسة الغزالي فدخل عليه رجل فقال أبو حامد : من الرجل؟ قال : من المغرب الى آخر الحكاية ، فيظهر أن ابن صاحب الصلاة سمع هذه الحكاية مباشرة وأن هذا السماع تم هذه السنة 560 ، هنا يعتقد هوزي أن عبد الملك بن صاحب الصلاة كان ورد على العدوة منذ سنة 542 صحبة الوفد الذي ورد برئاسة أبي بكر بن العربي لمبايعة عبد المؤمن وبيته لكن الذي نجزم به أن الذي تقدم آنذاك هو أبو الحسن أو أبو بكر بن صاحب الصلاة لا أبو مروان أو أبو محمد ، وإن كان كل منها مؤرخاً .

مراكش حيث تم اللقاء بين الأمير أبي يعقوب ، والأخوين السيدين أبي حفص وأبي سعيد خارج المدينة فاتح رجب من سنة ستين وخمس مائة (14 مايه 1165) على أكمل غاية الظهور والبروز[1] ، وقد أقام بالحضرة العلية ردحاً من الزمان ومكنه ذلك من الاستفادة من بعض كبار العلماء الذين يعملون في البلاط الموحدي من أمثال الفقيه الخطيب أبي الحسن علي بن الأشبيلي[2] ، لقد سمع عليه قراءة عقيدة التوحيد[3] ، والعقيدة المباركة المسماة بالطهارة[4] ، وكتاب أعز ما يطلب[5] ، وقد كان أبو الحسن يخص عبد الملك من بين الطلبة بالسؤال ويقبل به غاية الاقبال ، وإذا سمع يذكره ثم عليه بأحسن تنبيه ، وتنوه به غاية التنويه[6] .

وقد استمر ابن صاحب الصلاة مقيماً بمدينة مراكش بعد أن غادرها كل من السيد أبي حفص والسيد أبي سعيد إلى جزيرة الأندلس أوائل رمضان 560 (12 يوليه 1165) حيث شاهدا موقعة الجلاب[7] ، وقد ظل مرتبطاً بالقصر

* عباس بن إبراهيم : الأعلام ثالث ص 68 . ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ثان ص 143 (التعليق) .
ابن خلدون سادس : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول نشر الاستاذ بسوع علوش 1936 ص 85 — 86 — 122
Dozy : Recherches p 112
Huici : H . Es — Tamuda, Vol II, Fasc 1961 . p . 111

(1) المن بالإمامة ص 112 .
(2) هو علي بن عبد بن خليل المكي بأبي الحسن ، كان من المبرزين في علم الأصول إلى جانب أنه كان يعد من الخطباء الموهوبين . ابن الأبار : التكملة ، كوديرا ، ص 668 — 669 رقم 1882 .
(3) هي المسماة بالمرشدة وهي مكتوبة باللسان العربي . بروفنصال : رسائل موحدية ص 132 . الحلل الموشية ص 89 . الاستقصا ثان 73 — 77 .
(4) مجموعة أحاديث مختارة ضمنها المهدي كتابه الطهارة . المعجب : المراكشي ، نشر سعيد العريان ص 239 .
(5) تحتوي أول رسالة من هذا الكتاب بقول المؤلف : « أعز ما يطلب » وقد نشر سنة 1903 ، وقدم له بالألمانية العالم المجري جولد زيهر . الحلل الموشية ص 125 . أحمد بلافريج ، محمد الفاسي . أزهار البساتين ص 109 — 110 .
(6) انظر صفحة 88 من المن بالإمامة .
(7) المن بالإمامة ص 125 .

يلازم « السقائف » التي خصصت للكتاب والأشياخ ، ويذكر ابن صاحب الصلاة أنه حضر وصول البشرى بانتصار الموحدين على ابن مردنيش في هذه الموقعة صباح الأحد 23 ذي الحجة 560 (31 أكتوبر 1165) ، ويحكي أنه تنبأ في هذا اليوم بالذات بهذا النصر ، فلقد رأى قطاً على سقف دار الخليفة يمشي وفي فمه فرخ حمام قد افترسه ، فقال لمن معه من أشياخ أهل الأندلس : الله أكبر ! هزم والله ابن مردنيش ! فقالوا : بم تقول هذا ؟ فقال لهم : « هذا القط هو شبه الأسد ، والأسد عدوي والحمام عجمي ! فقد غلبت الموحدون العجم وافترسوهم كافتراس هذا القط للفرخ[1] ! » .

ولا نعلم بعد هذا شيئاً عن مقام ابن صاحب الصلاة في مدينة مراكش ، ولكنا نعلم أن أمير المؤمنين قرر أن ينصب والياً على مدينة أشبيلية ، ولما لهذه المدينة من الأهمية فقد وقع اختياره على الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم[2] نظراً لبلائه الحسن في الجهاد والدين ، ونظراً كذلك لمكانته العلمية الكبيرة ومشاركته في علوم الآداب والتاريخ ، وهمته العليا في اقتناء الكتب ، وقع اختياره على هذه الشخصية فنصب يوم الجمعة الحادي والعشرين من جمادي الأولى 561 (25 مارس 1166) في احتفال بهيج عظيم ، وتوجه غرة جمادي الأخير من مراكش وقد عقدت له الرايات وبرز لوداعه سائر الأعيان ، وصحبه إلى أشبيلية عدد من « أهل حسين »[3] وجملة مهمة من الكتاب كان في بينهم دون شك عبد الملك ابن صاحب الصلاة الذي سبق له أن تعرف بالشيخ في مسجد قرمونة[4] . . نعم ظهر ابن صاحب الصلاة مرة أخرى بالأندلس سنة 564 (1169) بقرناطة المدينة التي أسندت ولايتها إلى الشيخ محمد بن أبي إبراهيم

(1) انظر صفحة 127 — 128 من المن بالإمامة .
(2) يعتبر محمد بن أبي إبراهيم من أصدقاء ابن صاحب الصلاة الذين كان لهم تأثير على حياته . كان من المتضلعين من كتب التواريخ والمشاركين في علوم الأدب ، هذا إلى هواية زائدة في اقتناء الكتب حتى اعتبر من أصحاب الخزائن العظيمة التي تضم شتى الفنون . المن بالإمامة ص 132 .
(3) البيذق : أخبار المهدي 29-32 . المراكشي : المعجب طبعة مصر ص 188 . ابن القطان : نظم الجمان (مخطوط) . الحلل الموشية ص 88-89 . الناصري : الاستقصا ثان ص 86 . Hésperis t. IV, 1924, p.28 .
(4) المن بالإمامة : ص 49 .

بعد أن تولى باشبيلية السيد أبو إبراهيم إسماعيل ، لقد كان ابن صاحب الصلاة من الجلساء المقربين للشيخ محمد بن أبي إبراهيم إلا لم يكن كاتم سره ، وهو يحكي أنه وجد في نفسه غصة الفراق عندما دعي للشيخ ابن أبي إبراهيم لمراكش من قبل أمير المؤمنين في هذه السنة بالذات ، ولذلك فقد خرج ذات يوم إلى ضواحي مدينة غرناطة ، إلى مكان تُربه وجداول كالصلال ، ولا تكاد ترمقه الشمس من تكاثف الظلال». كان هذا المكان مجلساً للشيخ ابن أبي إبراهيم ، فتحركت نوازع شوقه ، وأنشد شعراً في الموضوع يذكر فيه أيام الصلة بالشيخ ويتمنى أن تسمح الأيام بلقاء قريب[3] .

ويختفي ابن صاحب الصلاة مرة أخرى لنسمع به أوائل سنة 566 (1170) بحضرة مراكش عندما أنعم الله بالشفاء على أمير المؤمنين ، وفي أغلب الظن أنه أي ابن صاحب الصلاة ورد على العاصمة في مهمة خاصة من رجال الحكم بالجزيرة ، قد يكون ورد ليقدم التهاني بشفاء أمير المؤمنين ، وهكذا نراه يمثل بين يدي أبي يعقوب يوم الأثنين 19ربيع الأول (30 نوفمبر 1170) ، وقد تولى تقديمه هذه المرة لأمير المؤمنين الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع ، والفقيه أبو محمد عبد الله المالقي ، ويصف ابن صاحب الصلاة مجلس أمير المؤمنين وصفاً دقيقاً وهو « متكيء على مخاد كثيرة وثيرة قد فرشت تحته وحواليه تحيته على القعود[1] » .

وكانت هذه مناسبة للاعتراف بخدمات ابن صاحب الصلاة الكاتب المجاهد وللوفاء له «بالعدات الجميلة والآمال الكفيلة » ، وهكذا خص من بين المتقدمين من طلبة الحضر «بظهير كريم بإسهام ومواساة» أعانته على الزمان وأغنته عن الناس ، ووسم في هذا الظهير «بميسم الأولياء للأمر العزيز[2] » . . وقد ظل ابن صاحب الصلاة بمراكش طيلة أيام الأفراح التي أعقبت شفاء أمير المؤمنين وكان يتحدث عنها حديث المهتم بالأمور المتتبع للأحوال ، فوصف

(1) المن بالإمامة ص 152 — 153 .
(2) المن بالإمامة ص 288 .
(3) راجع ص 289 من كتاب المن بالإمامة .

مبايعة أشياخ العرب وعمائهم وحضر الإطعام الذي قدم للوافدين بالبحيرة[1] خارج مراكش ، ثم رأى رؤيا عين مشهد «تمييز»[2] العرب والموحدين بقصر الخليفة بدار الحجر[3] داخل مراكش ، وتحدث عن تهافت العرب على الثياب والآلات وتسامح الخليفة وتكرمه .

ولما كان الاستعداد قد تم للغزو ، تحرك أمير المؤمنين من الحضرة بمراكش صباح السبت الرابع من شهر رجب من سنة 566 (13 مارس 1171) ، ومن دون ريب كان ابن صاحب الصلاة في ركب أبي يعقوب ، فهو يعد المراحل الواحدة تلو الأخرى ، ويسجل أدق الملاحظات في طريقه ، ويصف مصحف عثمان بن عفان وما يحمله من ياقوت وجوهر بل ويدفعه الاستطلاع إلى أن يسأل الناظمين للجواهر عن أصولها وقيمتها ، وهو بالاضافة الى هذا لا يغفل ذكر حالات السعر التي تتعرض لها «السوق المتنقلة » مع الركب الأميري ، وعندما نزلت المحلة بالمهدية ـ رباط الفتح ـ حكى ابن صاحب الصلاة عن البذل السخي الذي نال كل قبيل من لدن أمير المؤمنين فحكى عن رؤيته لشيخ من أهل بطليوس استمنح الخليفة فأعطاه مائتي دينار وثلاثمائة[4] مثقال .

ويصل ابن صاحب الصلاة الى الأندلس ، ويستمر صحبة أمير المؤمنين ويحضر تنقلاته واستقبالاته واحتفالاته وتشييده وتدشينه للمباني التاريخية بإشبيلية[5] ، ولما تقررت مناهضة مدينة (وبذة)[6] ارضاء لاقتراح أصحاب

(1) عرفت البحيرة في مراكش منذ أواخر أيام المرابطين ، لكن الموحدين عنوا بها كامل العناية واتخذوا منها مكاناً لتجمعهم .
البيذق ، أخبار المهدي نشر بروفنصال (الترجمة الفرنسية تعليق رقم 2 ص 232 — 233) .
المراكشي : المعجب ص 192 .
Gaston Deverdun : Marrakech des Origines a 1912, Texte, pp. 194 — 196.
(2) التمييز في اصطلاح الخلفاء الموحدين يعني استعراض القوم فرقة فرقة وقبيلة قبيلة .
(3) يعني بها القصبة المعروفة بقصر الحجر أو دار الحجر ـ الادريسي : نزهة المشتاق ص 69 ـ الحلل الموشية ص 114 . Deverdun : Marrakech, 198 .
(4) المن بالإمامة ص 300 — 301 — 303 — 305 — 308 .
(5) المصدر السابق ص 320 — 321 .
(6) وبذة (Huete) حصن يقع على وادي على مقربة من أقليش في الشمال الغربي لمدينة قونكة على

هلال ابن مردنيش الذي استسلم للموحدين ، كان ابن صاحب الصلاة في جملة من له «اسم ورسم في الزمام»[1] في هذا الركب العظيم وقد حضر جميع مراحل هذه الوقعة وشاهد ظروفها جميعاً، وصادفه عيد الأضحى من سنة 567 (3 غشت 1172) ـ أثناء رجوع الجيش من وبذة ـ بقنطرة أغربالة[2] حيث قضوا هناك صباح العيد في حالة مضنية ، وفي ثالث عشر ذي الحجة كان ابن صاحب الصلاة فيمن تقدم الى حصن بنيول[3] طلباً للقوت لكنه لم يجد غير تين أخضر تساوي الحبة الواحدة منه درهماً كاملاً وكان ممن استطاع ان يشتريها ، لكنها لم تغنه من الجوع الذي كان يعض على شرسوفه فتقدم نحو بلنسية حيث انتعش وتزود والتحق بالمحلة[4] بعد ثلاثة أيام ووصل أمير المؤمنين الى مرسية أواخر ذي الحجة ، وبالرغم من أن كثيراً ممن كان يضمهم الجيش قد أذن له في الانصراف فقد ظل هو بمرسية صحبة الركب الخليفي . . ثم انصرف الأمير من مرسية الى اشبيلية حيث وصلها في الثامن عشر من ربيع الأول سنة 568 (7 نونبر 1173) . ويقيم ابن صاحب الصلاة هنا حيث يحكي اهتمام أمير المؤمنين بمتابعة بناء الجامع الكبير ، والقصور الموحدية خارج باب جهور ، ولما ذهب الجيش لمنازلة شانت[5] منوس عظيم النصارى بآبلة[6] ورجع يحيى بن أبي العلى[7] برأس هذا «العظيم» أواخر شعبان سنة 568 (15 أبريل 1173) ، كان ابن صاحب

* بعد خمسين كيلو متراً غرب المدينة جنوب شنتمرية. الحميري : الروض المعطار ص 194 .
(1) انظر صفحة 370 من المن بالإمامة .
(2) قنطرة أغربالة (El Puente de Gabril) المن بالإمامة ـ 256. Huici : Historia , p.
(3) حصن بنيول (Bunol) صفحة 370 من المن بالإمامة .
(4) يعني بها في الاصطلاح المغربي كتائب الجيش المتنقلة لقضاء الأغراض الرسمية برئاسة الأمراء ولده أو ولي عهده أو أحد ولاته وقواده . ص 370 — 371 من المن بالإمامة .
(5) شانت منوس (Jimeno Sancho) يعرف أحياناً بالفرس الأحدب وأحياناً بعلي بوحفة . وأحياناً باسم شانت منوس ، وقد كثر الحديث المعرف بهذا الاسم وتحدثت بعض المخطوطات المسيحية عن هذا القائد الأبلي أيام الموحدين . المن بالإمامة ص 377 ـ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ثالث ص 187 ـ ابن خلدون سادس ص 500 — 501 .
(6) آبلة (A vila) تقع شمال غربي مدريد .
(7) هو يحيى ابن الوزير أبي العلاء ادريس بن أبي إسحاق إبراهيم ابن جامع . راجع صفحة 384 من المن بالإمامة .

الصلاة حاضراً عندما كان يحيى يشرح لأمير المؤمنين ظروف الحملة الموحدية ويصف كيف تم النصر على خصوم الدولة ، الأمر الذي يدل على أنه أمسى ملازماً لمجلس الخليفة بل يظهر أن ابن صاحب الصلاة غدا ينعم بمركز مرموق في البلاط الموحدي فإننا نراه بعد ثماني سنوات من هذا التاريخ يقف الى جانب ابن الجد[1] مهنئاً للسيد أبي إسحاق والي أشبيلية بالنصر الذي أحرز عليه أمير المؤمنين سنة 576 (1181) في أفريقية ، وذلك بقصيدة ميمية[2] . . . ويختفي ابن صاحب الصلاة هنا سنتين لنجده ببلاد المغرب مرة أخرى في حملة الخليفة أبي يعقوب الى بلاد السوس لحماية المدن من سيطرة المتمردين سنة 578[3] (1182) مما يؤكد أنه ظل ـ منذ تسلمه لظهير الولاية ـ ملازماً لركاب الموحدين سواء في الأندلس أو العدوة ، وليس فقط هذا ، ولكنه اكتسب منزلة سامية لا تقل عن مكانة الطبيب أبي بكر بن زهر ، والفيلسوف أبي الوليد بن رشد فلقد زار بصحبتهما ـ عند الإياب من حملة السوس ورفقة الخليفة ـ زاروا قبر المهدي ، وقبر عبد المؤمن بتينمل ثم يرجع ابن صاحب الصلاة الى أشبيلية ليستقبل الخليفة عندما برز هذا الأخير إليها[4] يوم الجمعة 13 صفر سنة 580 (26 مايه 1184) ولعله كان يحاول أن يقول شعراً بهذه المناسبة لكن ازدحام الناس حال دون ذلك[5] ، وبعد هذا نراه يرافق الخليفة مرافقةً في حملته الشهيرة على شنترين[6] بالبرتغال وقد كان يتحدث في هذه المرة أيضاً في دقة عن انطباعاته وعن الأسعار في أثناء هذه الوقعة كما ينقل ابن عذاري[7] .

(1) هو محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرج بن الجد الفهري سمع ببلده لبلة كتاب سيبويه ، ولقي بقرطبة أبا الوليد بن رشد ، نال حظوة عند الملوك وكان حافظ المغرب لمذهب مالك ، توفي بإشبيلية سنة 586 . ابن الأبار ، التكملة كوديرا ، رقم 823 ـ الحلل الموشية ص 34 — 122 ـ البستاني ، دائرة المعارف ثالث ص 403
(2) ابن عذاري : البيان المغرب (مخطوط) ص 108 .
(3) المصدر السابق ص 113 — 118.
(4) المصدر السابق 126 .
(5) المصدر السابق الصفحة السابقة .
(6) شنترين (Santaren) وتقع شمال لشبونة . الحميري : الروض المعطار ص 113 — 114 .
(7) ابن عذاري 127 — 128 .

وبفضل استطراد عابر ـ وربما كان أجلّه ـ استطعنا أن نعرف من خلال كتاب المن بالإمامة أنه استمر على صلة ببلاط الموحدين حتى بعد استشهاد أبي يعقوب ، ولذلك فهو يتتبع بناء مسجد أشبيلية وبناء صومعته الشهيرة ثم تركيب التفافيح بأعلى المنار بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور وبمحضر ولي عهده سنة 594[1] (1198) ، وأخيراً نراه وأبا مروان ـ وهو نظراً ـ فيما يظهر ـ لكبر سنه من جهة ، وتقديراً لمركزه كعالم مجاهد من جهة أخرى نرى الخليفة أبا يوسف المنصور يشركه في الخطبة مع أبي الحكم عبد الرحمن ابن حجاج[2] بالجامع الأعظم من أشبيلية في هذه السنة نفسها[3] .

وفاته :

ولم يستطع ابن الأبار ولا كذلك ابن عبد الملك أن يذكر تاريخاً محدداً لوفاة ابن صاحب الصلاة كما سلف أن قلت لكن الأول ذكره بين ترجمة عبد الملك بن أحمد بن نبيك الزهري الذي حدث وأخذ عنه في سنة 580 وبين ترجمة عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الذي أجيز سنة 608 ، الأمر الذي يفيد أنه كان بين هذين التاريخين [4] ، فمتى توفي ؟ نقل سائر رجال الاستشراق ممن عنوا بتاريخ ابن صاحب الصلاة من أمثال بروكلمان[5] ، وأماري[6] ، وبونس بويكس[7] ،

(1) كتاب المن بالإمامة ص 329 — 332 — 334 — 336 — 33 — 339 .

(2) هو عبد الرحمن بن عمرو بن أحمد بن حجاج اللخمي من أهل اشبيلية ، أخذ عن أبيه وجده ، كما أخذ أيضاً عن أبي مروان الباجي وغيره ، ميرما المحتوت عليه غزاته ، وقد كان خطيباً بجامع اشبيلية القديم سنين طويلة ثم استعفي فأعفي ، وكان له حظ من النظم ورغبة في مجالسة الأدباء ، ولد سنة 522 ، وتوفي سنة 601 .

ابن الأبار : التكملة ـ كوديرا ـ رقم 1626 ورقم 1723 . ابن عذاري البيان المغرب صفحة 201 Melchor Antuna Religion et Cultura p. 23 — 38 .

(3) المصدرات السابقات .

(4) محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين طبعة معهد مولاي الحسن صفحة 72 .

(5) (Brockelmann : G.A.L. Supll. Ip, p. 554)

(6) (Amari : Biblioteca Arabo Sicula I.p. X L I V)

(7) (pons Boigues : Ensayo biobibliografico — 1898 pp.245 — 246)

وبروفنصال[1] ، أنه توفي سنة 578 (1182) وقد اعتمدت هذا التاريخ بعض الوثائق المنشورة حديثاً بالمغرب[2] ، والمشرق[3] ، لكن الذي يلوح أنه افتراض خطأ بل إنه ليخيل الي أنه التبس عليهم عبد الله بن صاحب الصلاة[4] ، بعبد الملك بن صاحب الصلاة ! والحقيقة أن عبد الملك امتد به العمر الى ما بعد سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فإن ابن الأبار ينقل عنه تحقيقاً حول وفاة نجبة التي كانت سنة 591 [5] بل إن المقري ينقل عنه ثناء على محمد بن عبد الملك بن سعيد صاحب أعمال غرناطة وأشبيلية الذي تعرض عام ثلاثة وتسعين وخمسمائة لامتحان مؤقت من طرف المنصور الموحدي[6] .

وأدق من هذا وأقوى أن ابن صاحب الصلاة . . . بفضل الاستطراد الذي ركبه في ثنايا هذا الكتاب ـ يؤرخ لحوادث وقعت سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وذلك كتركيب تفافيح الصومعة المتقدم قريباً[7] ، فهل بعد هذا يصح أن نتمسك بالقول الذي يدعي أنه توفي سنة 578؟

إن أقرب الاحتمالات لدي أن يكون توفي أواخر المائة السادسة نظراً لصنيع ابن الأبار عند ترجمته ونظراً من جهة أخرى لكون النقل عنه انتهى

(1) بالبالنا : تاريخ الفكر الأندلسي 242 (Provençal : Documents, p.69) .

(2) قائمة لنوادر المخطوطات العربية المعروضة في مكتبة جامعة القرويين بفاس بمناسبة مرور مائة وألف سنة على تأسيس هذه الجامعة . إصدار الخزانة العامة بالرباط سنة 1960 .

(3) عبد الله الطباع : كتاب الحلة السيراء ، دار النشر للجامعيين (بيروت 1962) .

(4) هو أبو محمد عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فرج بن عبد الله الحضرمي المعروف بابن صاحب الصلاة ، درس الأدب والنحو زماناً ثم نقله السلطان الى بلنسية لبنيه ، وكان مشاركاً في الفقه والشعر محفوظ في معاجم الأدباء المتقدمين ، وقد توفي سنة 578 . ابن الأبار التكملة (كوديرا) صفحة 489 .

(5) ابن الأبار : التكملة : نشر العطار 1955 ، الترجمة رقم 1879 .

(6) المقري : نفح الطيب، إحسان عباس، ج 2، ص 336، وقد وقفت بمكتبة سمو الأمير المولى عبد الله تغمده الله برحمته على أصل ما نقل صاحب النفح بخطه في مخطوطة نادرة على مؤلفات أبي علي بن موسى بن سعيد المغربي المتوفى بتونس سنة 685، غير كتاب (المغرب في حلى المغرب) الذي نشره الدكتور شوقي ضيف سنة 1953-1955 .

(7) يذكر المؤرخ الأثاني يوسف أشباخ أن أبا مروان عاش في القرن الثالث عشر الميلادي ، وأنت ترى أنه عاش في القرن الثاني عشر . أشباخ : تاريخ الأندلس ترجمة عبد الله عنان ، طبعة ثانية صفحة 305 .

أواخر القرن السادس[1] ، وأعلت تعرضه تقول عن أبي الحجاج يوسف بن عمر مؤرخ البلاط الموحدي الجديد[2] .

ومن دون شك فقد كان لابن صاحب الصلاة تلامذة رووا عنه ، فإن شخصية كشخصيته لا يمكن أن تنصرف ، دون أن تكون لها مدرسة ، وقد عرفنا في جملة الذين أخذوا عن أبي مروان الباجي أبو محمد عبد الله بن مغيث الأنصاري القرطبي المعروف بابن الصفار[3] (516 — 576) وكذا أبو الحكم عبد الرحمن بن حجاج[4] .

ويظهر من خلال الكتاب أن ابن صاحب الصلاة كان يتصف بأخلاق كريمة طيبة وهو في الأغلب[5] لا يتناول الدول التي سبقت حكم الموحدين بمثالب أو نقائص ، وطبيعي أن يكون هذا نتيجة تدينه وتقواه ، أما عقائده فيتأكد أنه كان يعتنق مذهب الموحدين في الاعتماد على الأصول من الكتاب والسنة ونبذ كتب الفروع[6] ، ولم يخف عنا حفظه لمدونات المهدي ، وروايته لكتاب « أعز ما يطلب » .

---

(1) لقد كنت حررت كل هذا ، ثم وقفت على مقالة للأب ملشئور المطريا حول ابن صاحب الصلاة ، وقد شجعني جداً أن الأب ملشئور ـ وقد اطلع على الكتاب ـ زيف ما صدر عن جل رجال الاستشراق . Melchor : Sevilla p. 25 — 38 .

(2) راجع النبذة اليسيرة في تواريخ المغرب التي كتبها الأستاذ عبد الكريم ابن الحسني تصديراً لأنساب النقيب ابن زيدان المطبوع بالرباط سنة 1342 صفحة 1 — 8 ، وقد أثنى على هذه النبذة الأمير شكيب أرسلان وخصصها بمقال في تقريظه لهذا الكتاب ، كان نشره بجريدة كوكب الشرق ، والشيء بالشيء يذكر ، فلقد وجدت بالصفحة النسخة التي أهداها النقيب ابن زيدان بخطه عام 1349 للأمير شكيب أرسلان عند الأستاذ قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد عندما حللت بها ، وتتميماً للحديث عن أبي الحجاج الأشبيلي ، أذكر أنني وقفت على لائحة في معرض المخطوطات بغرناطة (25 — 10 — 62) تضمنت مؤلفات تاريخية هامة وكان من بينها تاريخ الموحدين لأبي الحجاج هذا .

(3) ابن الأبار : التكملة . . . سنة 1962 رقم 23 — 17 .

(4) ابن عذاري : البيان المغرب صفحة 201 ـ التنبكتي : نيل الابتهاج .

(5) نقول في الأغلب لأنه ـ وهذا قليل ـ لم يفته أن عرض بكاهل الأولين ونالهم في الذات . راجع صفحة 320 — 331 .

(6) المعجب ص 278 — 279 ـ القرطاس ثان ص 154 ـ ابن خلدون سادس 471 الاستقصا ثان ص 112 .

ثم إلى جانب آثاره النثرية ـ التي سنعرض لها ـ له آثار في الشعر ، وهو يتحدث في صراحة عن مذهبه في الشعر وأنه دخل رأي عمر بن الخطاب ،[1] في أنه : « لا يتبع حوشي الكلام ولا يعاظل من المنطق ولا يقول إلا ما يعرف ، ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه » . وقد ذكر هذا بمناسبة تقدمه ـ ضمن الشعراء ـ بقصيدة في جبل طارق عند اجتماع السيد أبي حفص بأخيه أبي سعيد سنة 560 .

وهو ـ وإن لم يثبت هذا الشعر مع الأسف ـ قد احتفظ لنا بنموذج من نظمه ، وذلك عندما غادر غرناطة الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي إبراهيم إلى مراكش فقد نطق بقطعة شعر يحن فيها إلى الأيام التي كانت تجمعه بموالي غرناطة . وهي ليست طويلة إذ لا تتعدى تسعة أبيات[2] ، ولذلك فإن الحكم على شاعرية الرجل من خلالها يكون حكماً غير صواب ، ومع هذا فهو يعتبر من الشعراء الذين يتأثرون بموازين ديوان الحماسة ، ونفس شعرائها كذلك ، ولقد لحب الصمة[3] بن عبد الله حينما يقول في هذه القطعة :

طمعتُ بنفسي أن أرد دموعها فمهما زجرتُ العين أسبلنا معا !

ويظهر أنه استمر في إنشاء الشعر ولو أن بضاعته فيه مزجاة بل إن شعره أخذ يُقدَّم مع شعر ابن طفيل وانتاج ابن الجد ، وقد ساق له ابن عذاري طرفاً من قطعة شعر قيمة بالنسبة لشعره المتقدم في تهنئة السيد أبي إسحاق بمناسبة فتح قفصة سنة 576[4] ، لكنها هي الأخرى ليست مما يجعلنا نعتبر ابن صاحب

---

(1) أنظر صفحة 180 من المن بالإمامة .

الأصفهاني : الأغاني طبعة بيروت جزء 9 ص 293 .

(2) راجع صفحة 153 من المن بالإمامة .

(3) يقول الصمة بن عبد الله في باب النسيب من الحماسة :

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معاً !

(4) قال أبو مروان في مطلعها :

فتح يفوت مدارك الأوهام ويحجز الأحصاء ، بالأقلام

إلى أن يقول :

وأتت كما ابتسم الأباد لخائف وأبلّ إثر المحل سكب غمام

الصلاة في عداد الشعراء المبرزين على أننا لا ننسى أن ابن الأبار في الحلة السيراء لم يفته أن ينتقد[1] الذوق الأدبي لدى ابن صاحب الصلاة .

مؤلفاته :

وإذا كانت قيمة المرء رهينة بآثاره فإن آثار عبد الملك كانت ـ على قلتها ـ في منتهى ما يأمله الإنسان من شخص تمكن من الاستراع بصانعي تاريخ الغرب الإسلامي في القرون الوسطى ، وقد رددت المصادر القديمة أن له كتابين يتناولان معاً موضوع التاريخ الأول ثورة المريدين ، والثاني : المن بالإمامة[2] .

ثورة المريدين :

في كثير من مقاطع السفر الثاني من كتاب (المن بالإمامة)، وخاصة عندما يتعلق الأمر بحديث حول المتمردين على الحكم، أقول في سبع[3] مرات متتابعة أشار لكتاب له ألفه قبل (المن بالإمامة) ذلك كتاب (ثورة المريدين)، وقد نقرأ في المخطوط (تاريخ المريدين)[4] أو (ثورة المريدين) فما هو كتاب ثورة المريدين؟

---

(1) قال ابن الأبار في الحلة السيراء لدى سرقة لبيتين من الشعر :

(وزنجيٌّ أتى بمخضي نور ... وقد زفت لنا بنت الكروم)

(فقال فتى من الندماء: صفه ... فقلت الليل أقبل بالنجوم!)

قال : وغلط أبو مروان ابن صاحب الصلاة فزعم أن بعض الأمراء قالهما في حبشي بيده شمعة ولا يليق هذا التشبيه بذلك . انظر ص 233 من الحلة السيراء .

(2) ينقل المقري مرة عن ابن صاحب الصلاة في كتاب (تاريخ الموحدين) ويذكر مرة أخرى أن لابن صاحب الصلاة تاريخاً في الدولة المهدية ، ودل على مثل البيان من أن المقصود بهذا الكتاب الثاني هو (ثورة المريدين) وإنه تحريفاً وقع للناسخين بدليل أن أحداً من المؤرخين ممن استفادوا من ابن صاحب الصلاة لم ينقل عنه في تاريخ المتمردين وكيف وهو يتحدث بالمجسمة الهلل الموثية صفحة 85 . المقري : نفح الطيب مطبعة السعادة ثالث ص 100 ورابع ص 172 .

(3) انظر صفحة 3-20-54-230-249-271 من المن بالإمامة.

(4) يرى بعض الباحثين أن الصواب ربما كان هو المرتدين بالتاء بدل الياء ، نظراً لكون المؤلف يتحدث عن قوم خرجوا عن (الأمر العزيز) و (ارتدوا) عن دعوة الموحدين ، هذا إلى ما ورد في ثنايا الكتاب (صفحة 6 — 13 — 14 — 46 — 167 — 223 — 278) مما يفهم منه نعته =

لقد شاهدنا في أعقاب دولة المرابطين نشوب الفتن في كل الجهات ، لكن أبرز ما يلفت أنظار المتتبعين للتاريخ ظهور (طائفة دينية) خاصة تستشعر التقشف والتزهد ، وقد كان زعيم هذه الطائفة أبا العباس أحمد بن قسي[1] الذي استطاع بفضل دهائه وذكائه أن يجمع حوله أنصاراً آمنوا بأفكاره ، ولم يلبث أن أخذ يزاول تدريس كتب أبي حامد الغزالي بأشبيلية نفسها واتخذ من تلاميذه ورواده هيئة جعلها أركان حزبه ، وتسمى بالإمام ، ولما أهلت سنة تسع وثلاثين وخمس مائة (4 يوليه 1144) أشار على أصحابه والمريدين[2] أن يسيروا مع ابن

= الخارجين عن الطاعة بالردة والمروق ، سيما أيضاً وقد ورد في رسائل المهدي في حق خصومه هذا النعت : المرتدين والمجسمين ، وقد شجع على اعتقاد هذا إغفال الناسخ ـ أو مطبوط ـ لنقيط الحرف الذي يلي الراء في صفحة 13 من كتاب ابن صاحب الصلاة . وإن الذي يجعلني أجنح إلى أن المقصود هو المريدون لا المرتدون هو :

أولاً : ما يوجد في باقي أجزاء الكتاب من تنقيط الحرف الذي يلي الراء من تحت .

ثانياً: أن المصدرين الموحديين اللذين ورد ذكر هذا الكتاب وهما الحلة السيراء لابن الأبار ، والذيل والتكملة لابن عبد الملك ، كل منهما نجده يذكر المريدين وليس المرتدين ، وليس يكفي موقف الموحدين من المرابطين حجة لقراءته على النحو الذي يراه أولئك الفضلاء ، فقد يكون ابن صاحب الصلاة ، وهذا قريب من الواقع ـ ألف كتابه (ثورة المريدين) في ظروف متقدمة كان فيها بعيداً عن كل مؤثر ، وإنه كان يحكي فعلاً عن طائفة المريدين التي يتزعمها ابن قسي ، وليس بغريب أن يتعرض المؤلف في أثناء حديثه عن هؤلاء المريدين لبعض الثائرين والانتهازيين من أمثال ابن همشك وابن مردنيش .

البيان : صفحة (2) ـ الحلة السيراء مخطوط بالاسكوريال رقم 1654 ـ ورقة 147 ب 163 أ ـ ابن عبد الملك : الذيل والتكملة مخطوط مصور في الخزانة العامة الرباط رقم 2648 D ورقة 14 .

الطباع : الحلة السيراء ص 70 .

(1) نعت المراكشي أبا العباس هذا بأنه « صاحب حيل ورب شعوذة » وإنه إلى جانب هذا كان يتعاطى صنعة البيان ، وينتحل طريق البلاغة لكن ابن خلدون لم يضف شيئاً على الإخبار بأنه أبي ابن قسي انحاز إلى المغرب عند ظهور الموحدين لتقديم طاعته ، وينقل أشباخ إن ابن قسي من أصل قوطي وإنه كان أول الأمر تاجراً ثم حدثته نفسه بالتشبه بالرسول فوهب أملاكه واعتزل مخيلة .. . البيان ص 325 ، المراكشي : المعجب طبعة مصر ص 212 — 213 . ابن خلدون سادس ص 485 ، أشباخ : تاريخ الأندلس ص 206 — 208 .

(2) قبل أن يعطي ابن قسي لقب (المريدين) لأتباعه نجد أن اللفظ في القديم استعمل لتعيين الصوفية الذين كانوا يلقبون بأهل الإرادة وفي كتبهم باب لآداب المريدين .

القبابة [1] كاتبه الخاص إلى قلعة ميرتلة [2] في وقت خاص رسمه لهم ، ثم سقطت في يده يابرة [3]، وشلب [4] . . وكان أن توالت الحال بابن قسي إلى أن هاجر إلى الموحدين ووصلهم بمدينة سلا مثيراً من دعاويه [5] وتالياً مما قدمت يداه ثم انصرف في شهر المحرم من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة (يونيه 1146) صحبة الجيش الموحدي الذي افتتح طريف [6]، ولما فتحت مدينة شلب من جديد شرك ابن قسي عليها والياً بيد أنه لم يلبث أن تنكر لعهوده للموحدين وواصل ابن الرنك (Enriquez) [7] صاحب قلمرية ، وهنا ثار عليه أهل شلب وفتكوا به في قصر الشراجيب في « قصة طويلة [8] وأعلنوا بدعوة المريدين ، وقد كان من كتابه أبو عمر أحمد بن حربون [9]، وكان من أنصاره كذلك أبو محمد سيد راي بن وزير الشالر [10] بيابرة وغير هؤلاء ممن نصبوا أنفسهم ولاة هنا

Dozy : Recherche : P. 376.
Asin Palacios : Aben Masarra y Sucescuela pp. 109 — 110

(1) هو محمد بن يحيى الشلطيشي، وقد كان يسميه أبو العباس بالمصطفى لاختصاصه بكتابته واطلاعه على أموره لكنه فتك به بعد ذلك . ـ ابن الأبار : الحلة السيراء نشر دوزي ص 119 ـ أشباخ ص 207 .

(2) ميرتلة (Mértola) قال عنها ياقوت : إنها أمنع الحصون وأمتنها وتقع على نهر آنة . المعجم .

(3) يابرة (Evora) تقع شمال باجة . الروض المعطار ص 197 .

(4) شلب Silves تقع على مقربة من شاطئ المحيط الأطلسي غربي جنوب باجة ، الروض المعطار ص 106 .

(5) مثل هذا فعل ابن خلدون (سادس) ص 485 .

(6) جزيرة طريف (Tarifa) أول نقطة من جزيرة الأندلس تسامت قصر مصمودة من العدوة الغربية . 225 — 224 , Huici .

(7) هو ألفونسو هنريكيز (Alfonso Enriquez) وقد تسميه بعض المصادر ابن الريق أو صاحب قلمرية (Coimbra) عاصمة البرتغال . المعجب ص 320 ابن الخطيب : الأعمال ص 251 . أشباخ : تاريخ الأندلس ص 242 .

(8) ابن الأبار : الحلة السيراء ص 200 .

(9) يعتبر ابن حربون هذا من الشعراء الذين أورد لهم ابن صاحب الصلاة عدة قصائد . ابن الأبار ـ التكملة كوديرا ـ رقم 1427 . الحلة السيراء ص 200 — 201 ـ صفوان ابن ادريس : زاد المسافر ص 89 ـ المراكشي : المعجب ص 293 — 295 ـ ابن عذاري ص 46 .

(10) يعتبر ابن وزير هذا من الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة في كتابه المن بالإمامة وقد

وهناك ، فهذه المرحلة « القلقة » من تاريخ الأندلس هي التي عالجها ابن صاحب الصلاة في كتابه (ثورة المريدين) . وأغلب ظننا أن المؤلف كان في بداية الأمر ينوي أن يقصر حديثه على هذا الكتاب ، لكنه وقد تمكنت قدمه واتسعت آفاقه طمع إلى تدوين تاريخ شامل عام للدولة الموحدية ـ وخاصة أبا يعقوب ـ فأمسى (ثورة المريدين) كمقدمة وطليعة . . . ومن المؤسف حقاً أن يلقى (ثورة المريدين) نفس المصير الذي لقيه السفر الأول والثالث من كتاب المن بالإمامة ومع أننا كنا نعلم من خلال السطور التي ردد فيها ابن صاحب الصلاة اسم كتابه (ثورة المريدين) ، كنا نعلم فحوى الكتاب وموضوعه لكنها كانت معرفة قاصرة رغم كل حدس ، وأن الفضل كل الفضل يرجع لابن الأبار في كتابه (الحلة السيراء) وابن عبد الملك في كتابه (الذيل والتكملة) كما تقدم ، فهما اللذان أماطا اللثام عن الكتاب المفقود وأعطيا وخاصة الأول فكرة تقريبية [1] عن محتواه وإن كان هذا يُحيلُ عليه في بعض التفصيلات التي كان يعتقدها غير ضرورية . . . ومن دون ما شك فإن كتاب (ثورة المريدين) [2] تضمن عدة آثار أدبية مما صدر عن المريدين سواء في النصرة لمذهبهم أو في موضوع تبادل العواطف فيما بينهم أو في أدابهم كذلك [3] .

لكن الكتاب الذي لمسنا مواضيعه ، واستطعنا أن نقف على أساليبه

* استنام إلى الموحدين وحضر معهم عدة حملات . الحلة السيراء 202 — 230 ـ أشباخ 207 .

(1) نقول تقريبية لأن هناك عناصر أخرى عالجها تاريخ ثورة المريدين ولم يعرض لها ابن الأبار ، فقد تحدث الكتاب عن كتاب مفصل من سيد راي بن وزير كتبه كل من القاضي أصبغ بن ادريس ووالي قرطبة عبد الرحمن بن تحجيت حينما حاصر ابن مردنيش قرطبة سنة 554، وتحدث عن غدر أصحاب ابن همشك بمدينة قرمونة سنة 555 ، كما تحدث عن موقعة مرج الرقاد على مقربة من غرناطة وأسر الموحدين من قبل ابن همشك ، وتحدث تاريخ المريدين عن حصار بطليوس من قبل الموحدين سنة 563 . وأخيراً عن قتل ابن مردنيش لأخ صاحب الصلاة الغرناطي جوعاً . انظر صفحة 3 — 20 — 54 — 230 — 249 — 271 من المن بالإمامة .

(2) لا ننسى أن نتذكر أن هناك كتاباً بعنوان (ثورة المريدين) بتقديم الراء على الواو لأبي الوليد إسماعيل بن عمر الملقب بالشواش ، المتوفى بمراكش سنة 569 . السيوطي بغية الوعاة طبعة 1326 ص 16 .

(3) الحلة السيراء ص 200 — 201 — 205 — 206 — 207 — 223 .

ومناهجه هو السفر الثاني من كتاب (المن بالإمامة) الذي عالج فيه فترة هامة من تاريخ الموحدين من سنة 554 الى سنة 659 [1].

وأغلب الظن أن ابن الأبار في «التكملة لكتاب الصلة» يعني بقوله: «صاحب التاريخ» بالإضافة الى «كتاب ثورة المريدين» (كتاب المن بالإمامة)[2] كذلك.

وقد صرح ابن أبي زرع في بعض المقاطع مع القرطاس بتعيين اسم الكتاب ذاكراً أنه (كتاب المن بالإمامة)[3]. أما المقري في حديثه عن ابن صاحب الصلاة فقد سماه تارة باسم (تاريخ الموحدين) ولكنه في معرض الحديث عن التواريخ ذكره باسم (تاريخ الدولة اللمتونية)[4].

وإذا كنا نجهل الأسباب التي دعته الى تأليف كتاب «ثورة المريدين» فإننا على علم من الحافز الذي جعله يقوم بتدوين كتاب المن بالإمامة ... فقد شعر بمناسبة حديثه عن أحد الاستقبالات التي شرفه بها الخليفة أبو يعقوب والتي أغدق فيها عليه من خيراته وعداته شعر بأن الواجب يفرض عليه أن «يدوّن أخبار أبي يعقوب الخليفة الهمام»[5]. وأنت تشعر من خلال هذا السفر الذي بين أيدينا وبما بقي من حياة أبي يعقوب في السفر الثالث أن الأسفار الثلاثة كانت في الواقع على شرف أبي يعقوب[6].

---

(1) يذكر كاياتكوس أن الكتاب يستمر في سرد الأحداث الى سنة 580 وهو تساهل منه.

(2) ابن الأبار: كتاب التكملة، المجلد الثاني ص 620 رقم 1726.

(3) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، نشر محمد الهاشمي الفيلالي طبعة الرباط 1936 (ثاني) ص 122 - عندما قال: والصحيح في بيعة المهدي ووفاته ما ذكره ابن صاحب الصلاة في كتاب (المن بالإمامة) وكذا في طبعة فاس ص 127.

(4) سلف أن ذكرت أن ابن صاحب الصلاة ليس له مؤلف في تاريخ الدولة اللمتونية، وإنما - كما أعتقد - وقع تحريف النساخين ولربما عوض أن يقولوا الدولة الموحدية، أو (المريدين) مثلاً قالوا (اللمتونية) اللهم إلا كان المقري يقصد حديث ابن صاحب الصلاة عن آخر أيام اللمتونيين الذي أتى - دون شك - عرضاً فقط في مؤلفه ثورة المريدين.

(5) انظر المن بالإمامة صفحة 289.

(6) يذكر ابن عبد الملك أن ابن صاحب الصلاة صنف تاريخ دولة عبد المؤمن ومن أدرك بحياته من بنيه.

وإن أبرز ما يلفت النظر هذا العنوان الطويل الذي اختاره المؤلف لكتابه بعد ذلك العنوان القصير والخفيف الذي عرفنا به (ثورة المريدين) فهو: «كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، وظهور الإمام المهدي بالموحدين على الملثمين، وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وأخير[1] الخلفاء الراشدين».

هكذا بهذا الطول يعنون الكتاب، وهو لذلك يعطي نظرة على محتوياته كلها، ولا يحتاج الى التنبيه على ما في هذه التسمية من تلميح صريح الى الآية الشريفة: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾، وما في هذا الاقتباس من إشارة للمنقبية[2] التي يُضفيها أنصار الموحدين على دولتهم، ومن هذا العنوان يتأكد أن السفر الأول من كتاب المن كان مقدمة فقط تناول فيها المؤلف ظهور الإمام المهدي كما يتأكد أن السفر الثالث تناول فيه خاتمة حياة أبي يعقوب ...

المخطوط في أكسفورد:

وهذا السفر لا توجد منه - على ما في علمنا - إلا نسخة تعتبر الوحيدة في العالم كله، وهي ضمن المخطوطات النفيسة التي تضمُّها مكتبة البودليان بأكسفورد: وقفت عليها بنفسها أثناء رحلة خاصة[3] وهي تحمل اسم ورقم

---

(1) هنا كتبت في أصل المخطوط والراجح أن الأصل: (وأخير) ويعني بالخلفاء الراشدين الحكام من بني عبد المؤمن لا الخلفاء الراشدين الأولين.

(2) إن الذي يدرس تاريخ الموحدين سيقف دون شك وبصفة مستمرة على ما يشعر بالقداسة التي يريد رجال الدولة أن تكون لحكومتهم، فهم كثيراً ما يتشبهون بالرسول في تصرفاته وفي أعماله، وكثيراً ما يحاولون في بعض الآيات والأحاديث أن تكون مصداقاً عليهم وهم في نظام الموحدات لم يخرجوا كذلك عن نظام أصحاب رسول الله عليه السلام، ثم أن الذين يخلفون منهم خلفاء يحملون لقب أمراء المؤمنين، لقب سادة.

(3) توجد بالخزانة العامة بالرباط نسخة مصورة من هذا المخطوط تحت رقم 2697 (د) وقد كتب عنها في السجل المحفوظ بالخزانة بخط الأستاذ ابراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات: «عن ميكرو فيلم الأستاذ هويسي الأسباني الأجور عن النسخة الفريدة بأكسفورد، وقد أخذت صور الميكرو فيلم المشار اليه بتاريخ 20 يناير 1960». وقد أخبرني الأستاذ هويسي أنه بعث بهذا الشريط سوالي

(Marsh 433; catal d'uri No 758)، وتتألف من عشرين كراسة طبقاً للرقم المرسوم على اللوحة الأولى بالخط الفاسي[1]: ست عشرة كراسة من عشرة أوراق، والكراسة الخامسة والسابعة من ثمانية أوراق، والسادسة من اثنتي عشرة ورقة، والعشرون من ست: تلك أربع وتسعون ومائة ورقة (388 صفحة) التي يتألف منها المخطوط[2]، وهذا العدد قد رسم أيضاً على اللوحة الأخيرة بالقلم الفاسي وإن كان قد كشط جله، بيد أنه في استطاعتك أن تقرأ بدايته (بر لح ص) وهو مكتوب على الورق وبنفس المداد الذي كتبت به مخطوطات العصر الوسيط[3]، مسطرة الورقة 29 على 19 سانتيمتراً وتحتوي الورقة على تسعة عشر سطراً متى لم تتضمن عنواناً بارزاً أو طويلاً[4]، والمخطوط يتمتع بسلامة

= سنة 1956 ـ 1957 استجابة لرغبة أبداها الأستاذ ليفي بروفنصال الأستاذ آنذاك بمعهد الدروس العليا وذلك لتزويد بها خزانة المعهد المذكور، فمثل هذا الشريط، وتلك النسخة المصورة اعتمدتُ في عملي الأول، بيد أني تأكدت أن الاعتماد عليهما لا يكفي، ولذلك رحلت إلى أكسفورد والاسكوريال في شهر مارس وأبريل من سنة 1962.

وأغتنم هذه الفرصة لأجدد الشكر لسمو الأمير مولاي الحسن بن المهدي سفير المغرب بانجلترا، وسعادة الدكتور مولاي أحمد العراقي سفيرنا في إسبانيا.

(1) يعني بالخط الفاسي أشكالاً عليها اصطلح عليه ناس فاس لكتابة الأرقام بين الأوساط المثقفة حتى لا يستطيع أحد التدليس فيها، وقد كثر استعمالها في الوثائق الوقفية بالمغرب، وخاصة بفاس وتصدى للتأليف فيها جماعة من الباحثين.

سكيرج: إرشاد المتعلم والناسي في أشكال القلم الفاسي:

E. Viala : le Mécanisme du partage des successions en droit musulman.

Dr. Renaud : L'enseignement Des Sciences Exactes au Maroc; Hespéris 1932. tome XIV, p.7

التازي: الأرقام العربية: مجلة التربية الوطنية أبريل 1961 صفحة 45 - 46 - 47 - 48، دعوة الحق: نونبر 1971.

(2) كتب عن المخطوط المصور أنه يحتوي على 417 ورقة، والحقيقة أن بعض الصفحات المصورة فيه مكررة. راجع نسخة الخزانة العامة وما كتب عليها.

(3) يذكر كاتالكوس أن هذه النسخة كتبت أواسط القرن السادس عشر (حوالي 956 هـ) ولا أدري مستنده في ذلك، وفي اعتقادي أنه مجرد اجتهاد.

(4) يمتاز ابن صاحب الصلاة بعناوينه البارزة والطويلة وقد تصل أحياناً إلى بضعة سطور. أنظر مثلاً صفحة 79، وصفحة 202، 206.

جيدة ويحتفظ به غاية الاحتفاظ باستثناء الورقة الأولى كما هي العادة في المخطوطات، وباستثناء ص 23 (الورقة 12 آ) المتآكلة من يمينها وص 24 (الورقة 12 ب) المتآكلة من شمالها، وباستثناء الخروم المقلقة التي لحقت بعض الورقات فكانت ـ في الأشرطة المصورة بصفة خاصة ـ تدلس على القارئ: لأخذها بالتصوير ورقة مخرومة على ورقة أخرى ـ دون حاجز ـ فتملأ حروف السفلى فراغ التي قبلها ويقع اللبس والالتباس[1].

ولا يفوتنا أن ننبه إلى أنه وقع عند تجليد المخطوط تساهل يستحق التعقيب، فقد تقدم عن محله من الكراسة السابعة ـ وهي ذات ثمان ورقات كما علمنا ـ تحول تقدمت الورقات الست الأولى: 61 - 62 - 63 - 64 - 65 - 66 التي أصبحت تحمل رقم 56 - 57 - 58 - 59 - 60 - 61، وهكذا احتلت هذه الستة مكان الورقات الخمس المكملة للكراسة السادسة، ووردت هذه والخمس، مباشرة بعد الستة المسرعة، ولكنها بعد أن كانت تحمل في الحقيقة رقم 56-57-58-59-60 أمست ذات رقم 62-63-64-65-66. ثم بعد هذا تأتي الورقتان الباقيتان من الكراسة السابعة اللتان تحملان طبعاً رقم 67-68 ومن هنا يسترجع المخطوط صوابه، ودليلنا على العطب أن كنا نحتاج إلى دليل أكثر من تنافر المعنى والسياق واختلال توقيت التاريخ ـ أن جل[2] الكراسات تحول في أعلاها بخط ـ قد يصعب تمييزه ـ ما يشير إلى عدد الكراسات.

ومن العجب أن بعض المستشرقين كدوزي[3] ووريسي[4] من علّقوا على

(1) كما وقع مثلاً بصفحة 17 و 18 وكما وقع كذلك في صفحة 429 حيث يقرأ عرض حصن قطيانه: قطنيانه بإضافة النون التي هي في الواقع نقبة وقعت على صفحة أخرى فخيل أنها نون!

(2) أغلب ظني أن الكراسات كلها كانت تحمل على رأسها رقم الكراسة، لكن عند تجليد الكتاب وتقطيع الأوراق اعتدي على الطرر المطرفة، وهذا تساهل آخر يضاف إلى التساهل في تخييط الكتاب على غير صواب.

(3) انظر ترجمة دوزي الجملة للفصل الذي يبتدئ من صفحة 58 إلى 61 من ابن صاحب الصلاة في كتاب: Recherches sur L'histoire et la Littérature de L'espagne pendant le moyen âge. p.380

(4) انظر وريسي عند نقله عن صفحة 62 من ابن صاحب الصلاة التي تحمل بعد التجليد رقم 57. =

بعض فصول الكتاب غمر بهم التجليد الخاطئ ، فراحوا يرقمون تبعاً لما هو موجود ، وقد يكون هذا « القلق » في الكتاب مما « زهد »[1] في أسلوبه والابتعاد عن دراسته .

ولكثرة العناية بالكتاب تصدى بعض المتقدمين لاختصاره إذ كان يرى أن الكتاب في استطراداته وإحالاته يخرج أحياناً عن الموضوعية المنشودة . وكان الذي تولى هذا قدوة البلغاء وعمدة العلماء وصدر الجلة الفضلاء أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي مؤرخ ميورقة وقاضي الرباط ومكناس (ت 658) فقد حرر اختصاراً نبيلاً لتاريخ ابن صاحب الصلاة ، لكنه ضاع في جملة ما ضاع من تراث[2] .

وإن إلقاء نظرات على الكتاب لمغرية حقاً بمحاولة الاشتغال به ، فهو زاخر بما يرضي كل الهوايات ، فقد ذكر الأستاذ بلنثيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي ، أن المن بالإمامة مهيأ للطبع من قبل الأستاذ غارسيا غوميث بيد أن اضطلاع هذا السيد بمهامه الدبلوماسية ، حالت دون تحقيق هذه البغية ، فيما بلغني . . وقد ذكر لي الأستاذ جيبس المستشرق الأنجليزي المشهور « أنه كان ينوي هو الآخر نشر الكتاب وأنه انتسخه بالفعل ، ولكنه على حد تعبير هذا الأستاذ الجليل - لم يرض أن يكتفي بنشر الكتاب للناس دون تقديم ولا تعليق ، وحيث أن تحقيق الكتاب كان يتطلب منه استنفاد وقت كبير ، فقد عدل عن الفكرة ، وقد علمت أن الأستاذ دي جياكمو كان يعتزم نشره كذلك وأنه قد استنسخه لكن ظروفاً خاصة ذهبت بآمال دي جياكمو . . ، ثم بلغني أن بعض السادة تحركت همتهم لنشر المخطوط[3] .

* Historia politica del imperio almohade, pp.225 - 226

(1) Dozy : Recherches , p. 372

(2) المقري : نفح الطيب مطبعة القاهرة 1949 جزء أول صفحة 293

بوجندار : الاغتباط (مخطوط) الخزانة العامة رقم 1287 .

Pons Boigues : No 250 , Melchor Antuna , pp. 25 - 38

(3) كنت أمام كل هذا مترددا في الاشتغال بالمخطوط ولذا فقد كنت أستشير بعض الزملاء ممن يهتمون بالتاريخ ، وقد تلقيت رسائل في هذا الصدد من مختلف الجهات وكلها حث وتشجيع ، ولقد جاء في رسالة للأستاذ ويبي مراسلة ، « إنك بمبادرتك إلى نشر هذا المخطوط ستسد فراغاً كبيراً في المكتبة

أما عن وقت تبييض الكتاب من طرف المؤلف فيتأكد أنه لم يتم في وقت واحد ، ولكنه - بعد سنة 571 ،[1] أخذ يكتب في كل مناسبة طرفاً منه ثم بعيد سنة 594 لما فرغ الإمامة والخطبة بالجامع الكبير جمعه الجمع النهائي ، ونعتقد أن ذلك تم بإشبيلية . . أما عن النسخة التي وقفت عليها بأكسفورد فيترجح لدي أنها نسخت بالمغرب[2] . وقد كانت ملكاً بالشراء لأحد الفضلاء ممن يحمل اسم « علي بن عبد الله بن علي » كما يوجد ذلك بسطرة في آخر الكتاب . . . ثم أمست ملكاً للأسقف مارش[3] الذي وهبها ضمن كتبه لخزانة البودليان ، وقد ذكر لي البروفيسور بيشرن Beeston الأستاذ بجامعة أكسفورد أن الأسقف

* العربية . فقد أبحت لي الفرصة - يقول الأستاذ ويبي - لأن استفيد من هذا الكتاب كثيراً في تأليفي . (التاريخ السياسي للامبراطورية الموحدية) » .

وجاء في رسالة للأستاذ الكبير محمد العابد الفاسي حافظ خزانة جامع القرويين : « وبالكتاب المشار إليه في طليعة القائمة الجديرة بالنشر والتحقيق ، ومن لنا غير الأستاذ عبد الهادي التازي المحقق صاحب القلم السيال ، ولقد وجدته كتاباً غريباً في بابه خاصة من ناحية الأدب والوقائع . . من أجل هذا لا أزال ألح على أخويكم في القيام بهذه المهمة وأخشى أن يتسارع إليها من لا يحسن ولا يتقن » .

بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة حسين مؤنس صفحة 242 .

وانظر ما قلته لدى حديثنا عن بواعث الرحلة إلى أكسفورد ص 35 - 36 .

(1) الذي جعلنا نفترض أنه لم يبدأ بتبييض كتابه إلا بعد هذا التاريخ أنه ينعت أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي بالمرحوم من أول الكتاب (ص 80 . ومعلوم أن هذا توفي سنة 571 . ابن عذاري : البيان المغرب ص 103 . وانظر كذلك ص 289 - 337 - 345 - 382 . من المن بالإمامة .

(2) ذلك لأنها مكتوبة بنفس الشكل الذي كتبت عليه سائر المخطوطات المغربية التي وقفنا عليها ، وإن أبرز ما يطبع هذا الشكل أن نجد ضبط الحروف فيه يخالف قليلاً ما عهدناه . فمثلاً نعهد الآن نقاط الحروف توجد مباشرة فوق أو تحت الحروف وفوق النقاط الشكلة من فتحة أو كسرة لكن الأمر في المخطوطات المغربية على عهد العصور الوسطى يخالف هذا فالشكلة تباشر الحرف والنقطة فوق الشكلة هذا علاوة على وجود أشكال « الخط الفاسي » على الصفحة الأولى والأخيرة . أرجوزة ابن طفيل في الطب بخزانة جامع القرويين تحت رقم 3158 / 40 ل . البعقيلي : سلك فرائد اليواقيت الطبعة الحجرية فاس ص 28 .

(3) هو نارسيوس مارش (Narcissus Marsh) المولود سنة 1638 وقد كان من الباحثين في الشؤون الشرقية .

Richard Bagwell Marsh (Dictionary of National Bigraphy) .

اشترى بعض مخطوطاته من مكتبة المستشرق الهولاندي كوليوس (Golius) ، وقد عاش هذا بالمغرب عام 1032 — 1623 ضمن بعثة دبلوماسية هولاندية برئاسة ألبير رويل (Albert Ruyl)[1].

ومن المحقق ان الكتاب لم ينسخ بخط المؤلف نفسه لأن الخط الذي كتب به العنوان وكتبت به بعض الطرر هو نفس الخط الذي كتب به باقي الكتاب ، وورقة العنوان تدعو للمؤلف برحمة الله مما يؤكد انها كتبت بعد وفاته ، ومع هذا فإن الذي انتسخها ليس ناسخاً عادياً ، ولكنه يحتاط في أغلب الأحيان : تارة بتصحيح الكلمة المحرفة بطرة[2] الورقة ، وأحياناً بترك المكان شاغراً إذ لم يتأكد من اللفظ الذي[3] ينقله ، وفي بعض المرات يعلق تعليقاً مفيداً ولكن خفيفاً على بعض المقاطع الشعرية[4] . والناسخ مع هذا وقع ـ ولكن نادراً ـ في بعض أخطاء الرسم [5] أو هفوات تبدو في مخالفة مذهب الجمهور في النحو أو في بعض الأسماء أو في تكرار السطور .

---

(1) كانت للعاهل المغربي زيدان بن المنصور السعدي علاقات جد وثيقة بالولايات المتحدة (هولاندا) وبحكم المغرب في صدر الدول التي ساعدتها على بناء استقلالها عن أسبانيا ، ونتيجة هذا الإتصال تعرضت الثغور المغربية لحملات موجهة من طرف هذه الأخيرة ، وقد اتجه تفكير زيدان لبناء ميناء بقصبة شمال مدينة الجديدة، على مقربة من (الوليدية) التي تنسب لابنه الوليد . . . فكان هدف السفارة درس الموضوع في عين المكان ، وهكذا وجدنا (جاكوب فان كوول) أو كوليوس الذي كان يقرأ العربية ويكتبها والذي نال حظوة لدى زيدان والكثير من المثقفين فيما يبدو ، وكانت المهام بالنسبة اليه فرصة للحصول على بعض المخطوطات العربية التي كان يستعين بها لتلقين تلامذته العربية في جامعة ليدن . . . وقد كان عالما به كخطيط تصميم للقصر الملكي بفاس وإتاحة لنا الشعب على نحو ما كان يوجد بقصر البديع في مراكش.

Windus : a Journey to Mequinez, p. 219.

Les Sources Inédites de L'Histoire du Maroc (Saadiens (I) I ; T. 3 p. 227

Jacques Caillé : Ambassade et missions marocaines au pays - Bas. Hespéris - Tamuda , vol IV , fasc 1.

ـ عبد الهادي التازي التاريخ الدبلوماسي للمغرب وطبعة فضالة 1406 – 1986 ج 8 ص 215 .

(2) ص 1280 من متن الرق بالإحالة .

(3) انظر صفحة 45 - 49 - 51 - 296 - 331 .

(4) انظر صفحة 29 من الرق بالإحالة .

(5) من أخطاء الرسم : كتابة أربعة وسبعين عوض أربعة وستين ص 80 - 81 ودينر عوض دينار ، .

أسلوبه ومنهاجه :

وقد استطاع ابن صاحب الصلاة أن يبرهن في مقاطع كتابه على أنه المؤرخ والأديب معاً[1] ، فقد اتى بالبديع من القول ، لكن تعابير البلاغيين تجرفه في كثير من الأحيان ولذلك فهو يسجع ويقتبس ويلمح، وقد يتم هذا غالباً[2] دون تكلف ولا تعنت، والمؤلف ـ وهو متضلع من علوم الأولين ـ كثيراً ما يعنى بضرب مثل أو تاريخ لحادثة ، أو تاريخ قديم[3] حتى يعطي الدليل على أنه قدير بالحاق هذا بذاك والمقارنة بين الأشباه ، والحكم عليها ، وبذلك يبرهن على هذه الهواية الأدبية التي تطغى عليه في تاريخه، وهو لايلبث هاتماً بإيراد الشعر في كل مناسبة تسنح ، ثم هو ينتقي ـ أحياناً ـ منه ما يراه سائغاً عذباً ويتفق مع ميوله ، ويلاحظ المتتبع لمضمون الكتاب أن ابن صاحب الصلاة ضابط جداً لما قال ولما يقول وسيقول في مؤلفاته ، ولذلك فما ينفك مثبتاً في كلامه ، يحكي الحقيقة التاريخية في هذا الفصل ولا يتردد أن يعزز كلامه بقوله مثلاً : « على ما ذكرته » أو على « على ما أذكره » . إن هذه اللازمة قد تكثر في بعض الأحيان لقد بلغت في هذا السفر الثاني بالذات زهاء الخمسين إحالة[4]! ومع هذا فإن هذه

- (النزل) عوض النزال (ص 210) . والمصحف عوض المصحفيين ص 305 ، ورمضان عوض شعبان (ص 327) ومما خولف به مذهب الجمهور : قوله « استولوا الموحدون » (ص 159) و « ولا طالت سلامته » (ص 84) باستعمال لا على الماضي والقصد غير دعاء . ومن تحريف الأسماء أبو إسحاق إبراهيم عوض أبي إبراهيم إسماعيل ص 334. ومن التكرار ما ورد في صفحة 228-346.

(1) ينعته ابن عبد الملك بأنه « الأديب الكاتب المحسن ، وبأنه ممن يحفظ التواريخ وتقييدها » .

(2) نقول غالباً لأنه في بعض الأحيان لم يسلم من الإفراط في استهلاك الكلمات المختلفة التي لا تشعر بأي داع لاختيارها سوى أن لها قافية استهوته . راجع الورقة 60-90-164-171-173-175-232

Dozy : Recherches Page 372 .

(3) راجع صفحة 38 - 92 - 94 - 96 - 129 - 215 - 304 - 322 - 341 - 384

(4) أنظر مثلاً صفحة 22، 39، 41، 43، 47، 49، 50، 53، 61، 64، 65، 69، 77، 80، 91، 92، 99، 110، 111، 117، 123، 144، 154، 161، 187، 214، 215، 232، 234، 235، 244، 245، 246، 250، 257، 259، 268، 269، 270، 272، 300، 306، 311، 329، 334، 337، 338، 375، 377، 379، 386.

الإحالات ـ سواء منها ما كان إحالة على كتابه ثورة المريدين ، أو كتابه المن بالإمامة ـ أحياناً تميط اللثام عن بعض الأسرار التي ظلت غائبة عنا ، فقد كان في أوائل السفر الثاني يشير الى بعض الأحداث ويذكر بأن الكلام عنها قد سبق فاستفدنا بذلك بعض محتويات السفر الأول مما جرى قبل سنة 554 ، وكذا كان الشأن في آخر السفر المذكور عندما أخذ يستعجل ذكر بعض المسائل ويطمئن القارىء بأن تفصيلها سيأتي . فبالتتبع عرفنا أيضاً بعض محتويات السفر الثالث مما حدث بعد سنة 569 . هذا الى تصيدنا لبعض العناصر التي احتواها كتاب ثورة المريدين[1] .

والمعلومات التي يتضمنها كتاب (المن بالإمامة) على أقسام ثلاثة : معلومات استقاها من الرواة الذين تحدثوا اليه ، وهؤلاء طائفتان فيهم من ذكر اسمه كأبي القاسم بن أبي هرون ، وأبي محمد سيد راي ابن وزير ، وأبي العلاء بن عزون[2] ، بيد أن في رواته من ظل مجهول الاسم ، ففي ثماني[3] عشرة موضعاً نقل عن « الراوي » ، ومن المرجح أن الراوية في الثماني عشرة مرة كان متعدداً ، ففي كل حادثة كان يروي عمن يوليه ثقته[4] .

أما القسم الثاني من معلوماته ـ وهذا أهم ـ فإنه شاهد له هو بنفسه ، ولذلك فهو يقول بين الحين والآخر : « قال المؤلف . . . أو قال المؤلف عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة » وكثيراً ما يكون في هذه الحالة قد عاش الظروف التي يحكي عنها سواء في العدوة أو الجزيرة وهو عندما يحكي نلاحظ الأمانة في قوله ، والنزاهة في أحكامه ، ويكفي أن نسجل عليه أنه كان في بعض

(1) راجع صفحة : 3 - 20 - 54 - 230 - 249 - من المن بالإمامة .

(2) انظر صفحة 38 - 78 - 139 - 236 - 252 من المن بالإمامة .

(3) ص 5 - 21 - 29 - 39 - 44 - 74 - 76 - 79 - 81 - 83 هذا وقد ذكر ابن عبد الملك في الذيل والتكملة أن ابن صاحب الصلاة روى عن أبي عبد الله بن عميد وأبي علي الأشيري.

(4) ذكر من شيوخ ابن صاحب الصلاة على ما قاله ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة أبو القاسم محمد بن شراية الاشبيلي الذي يمكن أن يكون من المقصودين بكلمة الراوي . الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ـ تقديم الدكتور بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سنة 1984. صفحة 79.

المقالات يقف موقف المنتقد الذي لا يخشى اللوم ولا يتهيب المصير[1] ، ولقد اعتمد في ثلاث عشرة مرة[2] على مشاهداته الخاصة ، وكان في هذه المرات كلها دقيق الملاحظة ضابطاً للحوادث . أما القسم الثالث فهو ما ينقله عن بعض المؤلفين المعروفين كابن حيان[3] وابن العربي[4] أو عن بعض الوثائق الرسمية للدولة مما استأثر به على سائر المؤرخين[5] .

ويظهر أن عبد الملك كان يحاول أن يكتب تاريخه مرتباً سنة سنة على طريقة الطبري[6] ، ولهذا نراه في كثير من الأحيان يعنون هكذا : (وفي سنة كذا . . .) لكنه ـ وقد اصطدم أحياناً بـ«ساوى» طريقة السنويات ـ وجد نفسه مضطراً لتناسي هذه الترتيبات ، وذلك في حالة ما إذا كان هناك قطع للحوادث قد يسيء الى الغرض التشويقي من تسلسلها . ولهذا نلاحظ أنه في أوائل هذا السفر الثاني مثلاً لم يلتزم هذه الطريقة إذا كان من شأن ذلك أن يحمل القارىء قطعات ـ قد تضنيه ـ في سبيل الإتيان على تمام الحادثة .

ولم يسلم المؤلف مما يقع فيه كثير من المؤلفين القدامى ممن يستسلمون لتداعي الأفكار فيستطردون بذكر بعض الأشياء في غير مكانها لمناسبة ما من المناسبات ، وقد شعر في أغلب هذه الاستطرادات بأنه يأتي شيئاً قد لا يغتفره

(1) يعتقد الأستاذ هويزي أن ابن صاحب الصلاة كان يغدق الاطراء على الموحدين دائماً ، لكن بعض مقاطع الكتاب لا تسمح بقبول هذا الاعتقاد . راجع ص 351 - 352 .

(2) ص 21 - 102 - 121 - 137 - 145 - 182 - 197 - 229 - 249 - 271 - 308 - 334 - 336 ـ من المن بالإمامة .

(3) راجع صفحة 63 من المن بالإمامة .

(4) راجع صفحة ص 111 من المن بالإمامة .

(5) استأثر ابن صاحب الصلاة بذكر رسائل موحدية لـ (يوجد لها ذكر في غير كتابه كتبا مستحدث من ذلك)، ولا تخفى قيمة هذه الرسائل من الوجهة التاريخية لأنها الشيء الوحيد الذي كتب مجرداً عن « الغرض » الذي قد يؤثر على المؤرخ . . .

(6) توفي الإمام الطبري سنة 310 (923) وقد اشتهر بأسلوبه الذي يتبع فيه طريقة السنويات . أنظر كتابه (تاريخ الرسل والملوك) .

القارئ» ، ولذلك فهو ـ أكثر من مرة ـ يقول كالمعتذر : « قال المؤلف : وفي المثل الحديث شجون[1] . . . » ومع كل هذا فقد كان لاستطراده فائدة ، إذ أنه ألقى الضوء على معلومات ظل المؤرخون يتعطشون اليها منذ القدم[2] ، ولا ينسى ابن صاحب الصلاة عندما يستيقظ من استطراده أو استرساله أن ينبه القراء باللازمة السائرة في مثل هذه الأحوال : « رجع الخبر » « فلنرجع الى ذكر . . . » وقد « رجع » إلى أصول حديثه في عشر مرات[3] .

(وكتاب المن) ـ تقليداً لبعض من سبقه من المؤرخين ـ حرص على أن يذكر التاريخ القمري مقروناً ـ في كثير من المرات ـ بالتاريخ الجولياني ، فهو في أوائل الكتاب يذكر أن الجمعة 10 محرم 557 ، توافق 26 يناير العجمي ويستمر في ذكر الموافقات الى أواخر الكتاب إلا أن ابن صاحب الصلاة في جل هذه الموافقات لا يتفق مع الجداول الموضوعة في هذا الصدد[4] وقد حاولت بشتى الطرق أن أصل الى « تعزيز » أرقامه ، لكنه كان بالفعل متساهلاً في كثير هذه الموافقات .

والتتبع للغة ابن صاحب الصلاة سيعثر أحياناً على بعض الألفاظ الأجنبية كالببوج[5] والقومس أو القمط[6] والمركطال[7] ، وسيجد مرات أخرى ألفاظاً

(1) راجع صفحة 334 - 335

(2) راجع مثلاً الاستطراد الخاص بذكر تاريخ مدينة الرباط وتاريخ مسجد ابن عديس باشبيلية .

(3) راجع صفحة 8 - 39 - 45 - 66 - 93 - 104 - 234 - 269 - 324 - 342

(4) أبرز هذه الجداول وأكثرها رواجاً ما وضعه الدكتور كاطنوز .

H . G. Cattenoz : Tables de concordance de eres chrétienne et Hégirienne .

(5) أصلها بالأسباني (El Baboso) يعني الكثير اللعاب ، وقد كان لقباً لفرناندو الثاني (Fernando II de Leon)

(6) القومس كلمة مشتقة من اللاتينيا Comes وهي الكونت ، وأحياناً يعبر عنها بالقمط وتجمع على قوامس . أنظر : ترجمة عبد الله عنان ص 61 - 71 - 127 .

(7) المركطال : أصله باللاتيني Mercatellum وهو السوق التي تباع فيه الثياب المستعملة .

«بربرية» كالزوار والغفارة «ومنتيقيمي»[1] ، على أنه يردد ألفاظاً مغربيةً ما تزال إلى الآن محتفظة بجدتها في الاستعمال المغربي كالظهير والمخزن والرقاص والمحلة[2] .

* * *

ونظراً للقيمة التي يتمتع بها الكتاب فقد كان مرجعاً لجل المؤرخين المتقدمين منهم والمتأخرين ، وهكذا نرى كلاً من ابن القطان في نظم الجمان[3] وابن عذاري في البيان المغرب[4] ، وابن الأبار[5] ، وابن عبد الملك في الذيل والتكملة[6] ، وابن أبي زرع في الأنيس المطرب[7] والجزنائي في زهرة الآس[8] ، وابن الخطيب في الإحاطة[9] ، وابن خلدون في العبر[10] ، والمقري في نفح

(1) الزوار : رئيس فرقة ، والغفارة : نوع من الكساء ، ومنتيقيمي تعني : باب الدار .
Dozy : sup. aux dic. I page 613 II, page 218 Laoust : Note et choses berbères page I .

(2) الظهير يعني المرسوم الملكي ، والمخزن يعني الحكومة ، والرقاص يعني ساعي البريد والمحلة يعني الجيش . راجع صفحة 9 - 19 - 64 - 107 - 288 من المن بالإمامة . ابن زيدان : كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة . الأول مطبوعات القصر الملكي 1961 .

(3) منظم الجمان لابن القطان نشر الدكتور محمود علي مكي ص 29 وما بعدها .

(4) يعتبر ابن عذاري أكثر المصادر استمداداً من ابن صاحب الصلاة ، فقد ذكره عند الصفحة الأولى من « اختصاره » منذ أحداث سنة 534 ، واستمر ينقل عنه ، ويكاد في بعض المقاطع يذكر بالحروف ما حبّره ابن صاحب الصلاة دون ذكر اسمه كأنه كان يخجل من كثرة ترديده ، ولذا فإننا نرجح أن ابن صاحب الصلاة كان العمدة الأولى لصاحب البيان المغرب في جل ما ذكر عن أيام الموحدين .

(5) نقل ابن الأبار في بعض التراجم عن ابن صاحب الصلاة في الحلة السيراء ، وفي (التكملة) رقم 1394 نشر كوديرا ورقم 182 (سقط) ورقم 1879 نشر العطار .

(6) السفر الرابع ، مخطوط الخزانة العامة . الرباط رقم 2646 . الورقة رقم 15 .

(7) الأنيس المطرب (الرباط 1936) ص 122 - 155 . وطبعة فاس ص 127 - 138 .

(8) زهرة الآس طبعة الجزائر نشر بل ص 74 .

(9) مخطوطة الاسكوريال رقم 1673 ورقة 158 آ . السفر الثاني : وذلك عند ترجمة محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد ، وقد أضاف ابن الخطيب قائلاً « ذكره ابن صاحب الصلاة في تاريخه في الموحدين » وقد كان هذا المخطوط متملكاً للعاهل المغربي زيدان ابن أمير المؤمنين أحمد المنصور الذهبي وأمسى كما نرى في الاسكوريال . .

(10) بالرغم من أن ابن خلدون لم يذكر ابن صاحب الصلاة كراو من الرواة الذين اعتمدهم لكنه ـ

الطيب[1]، وصاحب الحلل الموشية[2] كذلك ، وغير هؤلاء[3] ، تراهم يعتمدونه ويذكرونه كمرجع من مراجعهم ، وبالرغم من أنه لم يصل لنا إلا السفر الثاني فإنه من المؤكد أن في المؤرخين المتقدمين من رأى السفر الأول والثالث بدليل ما ينقلونه عن ابن صاحب الصلاة* مما لا يوجد له أثر في السفر الثاني[4] .

وإلى جانب أولئك الذين رجعوا إليه من المتقدمين نرى طائفة هامة من المستشرقين ينتبهون إليه ويولونه كبير عنايتهم تارة بمحاولة التعريف بالكتاب ومؤلفه ، وتارة بترجمة بعض مقاطعه ، وهكذا نرى أولئك من المستشرقين الهولاندي دوزي[5] (Dozy)، والمستشرق البرتغالي دافيد لوبيس[6] (David Lopez)، وكوديرا[7] (Codera)، وميشيل أماري[8] (Amari)،

* بعض المعلومات التي استأثر بذكرها ابن صاحب الصلاة فيما نقله القرطاس خاصة حول وفاة المهدي – ابن خلدون سادس ص 472 .

Gayangos p. 411 .

(1) المقري : نفح الطيب (ثالث) مطبعة السعادة 1949 ص 100 .

(2) الحلل الموشية نشر علوش ص - 85 - 95 - 118 .

(3) ليس صحيحاً أن ابن مرزوق استمد منه في « المسند الصحيح الحسن » (مخطوط رقم 666) فقد وقفت عليه في الاسكوريال ووجدت انه ينقل عن ابن عبد الملك وليس عبد الملك ، كما وليس صحيحاً أن الروض المعطار استفاد منه لأن حديثه حول بعض الأشياء ، كمدينة جبل طارق ، حديث من لم يقف على المخطوط .

(4) راجع التكملة لابن الأبار ، وابن عذاري والأنيس المطرب لابن أبي زرع والحلل الموشية والنفح في الصفحات الآنفة .

(5) ترجم دوزي قطعة من المخطوط في كتابه :
Recherches : sur ce qui se passa a Grenade en 1162, pp. 364 - 388,

(6) وذلك في كتابه :
Os Arabes nas obras de Alexandre Herculano, p. 123.

(7) وذلك في كتابه عن انحلال الدولة المرابطية :
Decadencia y desaparicion de los almorvides en Espana.

(8) وذلك في المكتبة العربية الصقلية Biblioteca Arabo Sicula I, XLIV.

ودو كايانكوس[1] (de Gayangos)، والأب ميلشور انطونيا[2] (Melchor Antuna)، وبالباس[3] (Babas)، وكارسيا كوميز[4] (Garcia Gomez)، وويسي ميراندا[5] (Huici Miranda).

المن بالإمامة والمؤلفات المعاصرة :

ولا بد للباحث أن يلتفت إلى ما حوالي ابن صاحب الصلاة من مؤرخين أو جغرافيين عاشوا نفس الظروف التي عاشها ليتأكد – بعد المقارنات والمفارقات – من قيمة الكتاب التاريخية والجغرافية .

وأول ما نريد المقارنة به كتاب نزهة المشتاق للشريف الادريسي ، فقد ذكر صاحب النزهة في معرض حديثه عن شبكة الطرق التي كانت تربط بين أجزاء المغرب وأفريقية والأندلس في العصر الوسيط ، أقول ذكر أسماء أمكنة كانت غريبة بالنسبة إلى الذين يهتمون اليوم بدراسة المدن الأثرية ، لكن (المن بالإمامة) ردد نفس تلك الأسماء فاستطاع بهذا أن يؤكد حقائق جغرافية فريدة[6]

(1) في ترجمته الانجليزية لنفح الطيب المجلد الثاني صفحة 519

(2) وذلك في كتابه (حملات الموحدين في اسبانيا) و (أشبيلية وآثارها العربية):
Campanas de los Almohades, en Espana - Sevilla y Sus monu mentos arabes 1930, p.160

(3) (Al - Andalus) vol VII 1942 p. 74

(4) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد عدد 1953 ص 25 - 32 .

(5) كان ويسي أكثر من استفاد من ابن صاحب الصلاة استفادة جيدة وذلك في كتابه الذي صدر مؤخراً بعنوان : Historia Politica del imperio Almohade

هذا وقد استفاد من المن بالإمامة باحثون آخرون بواسطة هؤلاء، وذلك كالأستاذ بروفنصال في حديثه عن ابن عبدون المنشور في (Journal Asiatique) عدد أبريل 1934 صفحة 185 - 186 والأستاذ هنري طراس في تاريخه عن المغرب ، وبوفردان في تاريخه عن مراكش .
Deverdun : p. 202

(6) راجع مثلاً ما يتعلق بالطريق التي تربط بين مدينة مراكش ومدينة سلا فستجد من بين الأمكنة تونت وتوقطين والجبيل وقرية مكول ، مما لم يوجد سوى في ابن صاحب الصلاة والأمر كذلك فيما يتعلق ببعض الأقاليم الأندلسية وبعض الحصون والقرى هناك . الادريسي : النزهة ص 69 — 70 — 173 — 177 .

تأكيد من سلك المراحل على قدميه ، وبعد هذا نتناول أخبار المهدي عند البيذق لنجد أن سائر المعلومات التي التقى فيها بابن صاحب الصلاة كلها كانت كأنها مكتوبة بمداد واحد وقلم واحد[1] ، وبعد هذا نتناول كتاب الاستبصار المكتوب حوالي سنة 587 فسنجد أن الأوصاف التي أعطاها لبعض الأمكنة تتفق تماماً مع ما يحكيه ابن صاحب الصلاة ونذكر على الخصوص ما يتعلق بمدينة مراكش وقنطرة سلا والرباط[2] ، ولو أنك أيضاً قارنت بين المعلومات التي تضمنتها الرسائل الموحدية التي نشرها بروفنصال ، والتي عالجت نفس الموضوع الذي تحدث عنه ابن صاحب الصلاة لوثقت بأنه كان يطلع عليها قبل ان يتناول قلمه لتدوين تاريخه[3] .

لكن الذي نعجب له حقيقة هو وجود بعض الخلاف في الرواية التاريخية بين المراكشي في (المعجب) وبين ابن صاحب الصلاة في (المن بالإمامة) مع أنهما متقاربان كما لا يخفى ، ومن أمثلة ذلك ما يتعلق بأمر القضاء محمد بن عبد المؤمن عن ولاية العهد . فقد نص ابن صاحب الصلاة على أن عزله عن الولاية كان في حياة أبيه وبأمر منه[4] لما ضبط عليه من سلوك لا يليق ومقام الخلافة ، وهكذا « أسقط من الخطبة » ابتداء من يوم الجمعة الثاني من جمادى الأخيرة من عام 558 ، لكن المعجب ينص على أنه ولما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه اختلافاً كبيراً . فاتفقوا على خلعه في شهر شعبان من هذه

(1) راجع مثلاً ما يتعلق بمعاملة قراءة المرابطين والتبيين ، وبناء جبل طارق . البيذق 48-114-116-121 المن بالإمامة 17-18-88-145 .

(2) راجع صفحة 140-241-208-209 من الاستبصار وص 143-209 من المن بالإمامة .

(3) راجع مثلاً الحملة ضد شنان منيوس ابي مردنيش التي تمت سنة 568 والتي وصفها كل من ابن صاحب الصلاة وابي القاسم القالمي منتي، الرسالة الثانية والعشرين ص 121 - 122 - 123 من الرسائل ، وص 179 - 378 من المن بالإمامة وكذا راجع التعريف بالشيطان ابن العصارى كذلك ص 71 - 75 - 77 من الرسائل ، وص 230 من المن بالإمامة ، هذا ولا يفوت التنبيه على ان الأستاذ بروفنصال قدّم الرسالة عن علها إذ جعلها في أحداث سنة 555 ، وقد علمت ان الحملة على عظيم ابلة بالكتابة كانت سنة 568 .

(4) وهذه هي الرواية التي اعتمدها القرطاس وابن الأثير . ابن صاحب الصلاة ص 97-80-81 .

السنة[1] ، هذا إلى مخالفة المعجب لابن صاحب الصلاة في نسبة بعض الشعر للخليفة ، وعند تعديد أولاد الخليفة[2] كذلك .

وقد فضلنا أن لا نترل في المقارنة بين المن بالإمامة ونظم الجمان ، والبيان المغرب ، والأنيس المطرب ، ومسالك الأبصار والحلل الموشية بالرغم من وجود بعض الفروق البسيطة في بعضها[3] وذلك حرصاً على التزامات المقارنة مع المعاصرين أو الذين أوشكوا أن يكونوا مقاربين .

جهاز الدولة ونظامها من خلال الكتاب :

والمتصفح لكتاب المن بالإمامة سيلمس نواحي جد هامة من تاريخ دولة الموحدين ظلت في معظمها مجهولة أو تكاد من لدن الذين يتطلعون لأخبار بني عبد المؤمن ، فمن خلال الكتاب نقف على « نظام » المخزن »[4] على ذلك العهد ، فنظام المراتب والهيرارشية (Hierarcjie) استمر عرفاً معمولاً به عند الخلفاء المتعاقبين ، فالسادة - وهم أعضاء الأسرة الحاكمة - يُحْرِزُون[5] في ولاياتهم دائماً بالشيوخ[6] والحفاظ[7] ، وأهل الخمسين[8] ، وأبناء الجماعة[9]

(1) وهي الرواية التي اعتمدها ابن خلكان . المراكشي ص 226 - 243 .

(2) ينقص المراكشي من العدد واحداً ويزيد بعض الأسماء كما انه ينسب قصيدة لعبد المؤمن مع ان قائلها ابن عياش في ايام ابي يعقوب المعجب 225 - 226 المن بالإمامة 276 - 278 ومعنى ان ابن صاحب الصلاة يجب ان يعتبر هو العمدة نظراً لكون المراكشي كتب مؤلفه خارج المغرب الأمر الذي استهدف به الى الغفلة والنسيان .

(3) يحكي ابن صاحب الصلاة مثلاً عند الحديث عن مسجد اشبيلية ان زنة العمود مائة وأربعون رطلا بينما يذكر ابن ابي زرع اربعين رطلاً ، وكما يحكي صاحب الحلل مثلاً ان مسجد اشبيلية شيد سنة 572 لا سنة 567 كما يؤكده ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ص 339 ، القرطاس 186 ، الحلل 131 - 132 .

(4) أنظر صفحة 305 من المن بالإمامة .

(5) صفحة 255 - 256 - 257

(6) صفحة 13 - 58 - 144 - 147

(7) صفحة 4 - 41 - 145 - 146 - 147

(8) صفحة 146 - 256 - 261 - 248

(9) صفحة 22 - 260 - 313 - 314

وأهل الدار[1] وطلبة الحضر[2] وطلبة الموحدين[3] ، وكلٌّ من هاته الطبقات لها مركزها الخاص بها ، ومن هؤلاء تتكون إطارات والمملكة الخلافية »[4] ، في شتى الميادين فمنهم في الأغلب الكتاب على اختلاف درجاتهم ، والعمال والقضاة والأمناء والسدنة والمزاوير والمشارف ، والمقدمون وأصحاب الزمام[5] . وقد كانت ولاية العهد لا تخضع عندهم إلا لشرطين اثنين : الكفاءة والصلاح ، ولهذا فمن الممكن ان لا يحجم الخليفة في إقصاء ولي عهده وتبديله بآخر متى ظهر أنه غير مصيب في ترشيحه الأول[6] .

وكانت الدولة تعتمد في مداخيلها على الزكوات التي يؤديها المسلمون عن طواعية سواء على حرثهم أو ماشيتهم[7] ، وكذا على الجبايات والخراجات والأعشار ، وعلى الغنائم الحربية والجزية والمصادرات[8] .

ونتيجة لهذا كانت أسلاك الموظفين - وجلهم جند - تتقاضى « بركة » كل رأس شهر[9] وعند كل مناسبة[10] . وكانت هذه البركة كريمة في كثير من الأحيان ، فلقد بلغ عطاؤه ذات مرة لجنده زهاء نصف المليون من الدنانير الموحدية[11] ونتيجة لهذا وذاك انتشر الأمن في البلاد فأصبح المرء لا يخاف إلا الله أو الذيب[12] .

(1) صفحة 308
(2) صفحة 64 - 79 - 213
(3) صفحة 21 ، 22 .
(4) صفحة 328
(5) صفحة 64 - 91 - 164 - 279 - 297 - 309 - 358 - 371 - 373
(6) صفحة 77
(7) صفحة 64 - 139 - 214 - 280
(8) صفحة 41 - 61 - 90 - 130 - 148 - 219 - 341 - 361 - 383 .
(9) صفحة 290
(10) صفحة 280 - 299
(11) من المعلوم أن وزن الدينار الموحدي ذهباً أربعة غرامات و 720 ميلي كرام ، فإذا ضربت هذا العدد في نصف مليون دينار وجدت الوزن الذهبي الذي تكشف لنا قيمته اليوم بالعملة المتداولة « البركة » الممنوحة ومقدارها 2362 ثلاثة عشر مليوناً ومائة وثلاثة وتسعون ألفاً وتسعمائة وعشرة دراهم مغربية . راجع صفحة 280-299 مع صفحة 309 .
(12) صفحة 139

وكان في أبرز ما يُعرف به الموحدون التكثير من « القناة والطبول »[1] ولا يتعلق الأمر في نظرنا باستعمالها للإيذان بنشوب الملاحم فقط لصك أسماع الخصوم[2] ، ولكن أيضاً ، كما تدل على ذلك نصوص الكتاب باستعمالها عند أوقات البشرى والمسرات والطرب[3] ، وقد اتخذت الطبول مختلف الأحجام والأشكال ففيها المربع الذي يرجع لعهد المهدي[4] ، وفيها المستدير الكبير[5] كذلك .

وقد كان اللون السياسي والأساسي للأمبراطورية الموحدية هو البياض[6] بيد أنهم اتخذوا اللون الأحمر للقبة التي يقيم فيها الخليفة[7] كما أنهم عمدوا الى اتخاذ اعلام ثانوية أربعة ملونة بالأحمر والأبيض والأصفر ، وجعلوا بها أركان عمارة المصحف العثماني[8] عند الدخول الى مدينة الرباط . وقد كانت أدوات الحرب المستعملة إذ ذاك تتمثل في السيوف والقسي والرماح والترسة ، والبيضات[9] ، كما أن اللباس الشائع للجند يقتصر على الأكسية والغفائر والبرانس والقبطيات والعمائم والقواطع ، أما العبيد فيلبسون ثياباً مختلفة الألوان[10] ، وللعسكرية بما فيها من جند نظامي أو حرس وعبيد ديوان في منتهى الضبط يسهر على إحصاء الجند ومعرفة حاجاته المتجددة[11] .

ومن عادة رجال الحكم في الأمبراطورية الموحدية أنهم لا يأتون عملاً مهما إلا إذا جمعوا « الطبقات » و « الهيئات » من أجل الاستشارة ، وهكذا فهم لا

(1) صفحة 112 - 143 - 147 - 348 - 351 - 367
(2) صفحة 134
(3) كما وقع مثلاً عند استقبال بعض السادة وعند الإعجاب بإنجاز عمران ما، بإشبيلية ص 143 - 144 - 324 - 361
(4) راجع صفحة 290 .
(5) صفحة 399
(6) صفحة 301 .
(7) صفحة 348 - 358
(8) صفحة 304
(9) صفحة 63 - 75 - 102 - 143 - 243
(10) صفحة 144 - 242 - 299 - 308
(11) صفحة 208 - 298 - 311

يقدمون على غزوة إلا بعد أن يقرر المجلس العشري ذلك ، كما أنهم لا يقومون بتشييد منشآت في الدولة إلا بعد أخذ رأي الأعيان في ذلك[1] ، وكانت مواقف الشعب على القرارات المتخذة من طرف الدولة تتجلى في شكل رسائل تحررها الطبقة الواعية في البلاد وتبعث بها إلى السادة[2] .

ومن عادة الموحدين دائماً في حركاتهم ان يخصص الخليفة يوماً او اياماً يقوم فيها باستعراض سائر القبائل المتقدمة للغزو سواء من العرب أو من الموحدين ، ويخصون هذه العملية باسم « التمييز » تتقدم قبيلة هرغة وتينملل وهنتاتة وكدميوه وجنفيسة ، ويتقدم من العرب بنو زغبة والقلاليون والرياحيون والجشميون[3] .

كما أن من عادة البلاد أن تجتمع لاستقبال الخليفة أو توديعه إظهاراً للطاعة وتعبيراً عن المحبة وكثيراً ما يسمون هذا بالتبريز ، لا يبقى من أعيان البلاد وأدبائها وشعرائها من لا « يبرز » للتملي والتبرك[4] .

وإذا كان الباحثون قد تلقفوا بإعجاب المعلومات التي أعطاها المراكشي في المعجب عن عادات الموحدين في إقامة الجمعة[5] والمعلومات التي أعطاها صاحب الحلل الموشية عن ترتيب السفر فإنهم سيشعرون بمتعة زائدة وهم يقرأون عند ابن صاحب الصلاة « التشريفات » الخاصة بمناسبة الأعياد[6] ، والحفلات[7] وبمناسبة تنصيب العمال الجدد ، وعند خروجه للغزو وتلقي البيعة ، وعند أداء اليمين من الأنصار الجدد .. وكذا جلوس الخليفة في الصباح المبكر مجلس التهنئة ، وتقديم الوزير الحاجب للأشياخ والكبراء وأبناء الجماعة وطلبة الحضر والفقهاء والقضاة والكتاب والولاة والشعراء وكذا عند الضيافات الخليفية

(1) انظر صفحة 17 - 74 - 79 - 122 - 142 - 142 - 261 - 353 - 365 - 379
(2) انظر صفحة 379
(3) ص 151 - 307
(4) ص 309
(5) المراكشي : المعجب ، طبعة القاهرة ، ص 343 - 344 . الحلل ص 127-128.
(6) ص 313 - 314
(7) ص 292 - 301

الفخمة التي كانت تجري في بحيرة مراكش بل والعادات عند ما يلازم الخليفة الفراش .

إن الخليفة في استقبالاته للعرب الوافدين من أفريقية ، خرج وتتقدمه زهاء مائة طبل ، وقد ركب على صهوة فرسه الأشقر وحاجبه ووزيره يمشي على قدميه بين يديه ، وعلى مقربة من فرس الخليفة أخوه الأكبر وإلى جانب الأخ الأكبر سائر الأخوة ، ثم الأمراء الصغار وفي ساقته ست عشرة راية من كبار البنود . . . وتدوم الضيافات نحواً من نصف الشهر يتهالك فيها الواردون على شراب الرب ، أما عند تعب الخليفة فإن الاستقبالات تمنع ويقتصر على الأتصال به حاجبه ووزيره الأول بالأضافة إلى هيئة الأطباء التي تسهر على صحته[1] .

وكان من عادة الدولة كلما ظهرت مناسبة جديدة أن تشعر سائر المواطنين بظروف الحادث ولذلك فهي تقوم بإطلاق سراح جل المعتقلين والخالفين ، وتغدق من خيراتها على الضعفاء والمحتاجين ، والخليفة بمناسبة شفائه ، وبمناسبة قدوم العرب من أفريقية منح « البركة » الموحدين والعرب وسائر الأجناد بما فيهم الرماة والرجالة[2] .

والخلفاء الى جانب هذا أخذوا على عاتقهم أن يقصوا بشدة كل وال أو مسؤول يبدو عليه التعنت والأنحراف والزيغ ولو كان هذا الوالي أقرب الناس اليهم ، وقد يلجأ الخليفة الى تحويل الولاة من مكان إلى مكان ، ويسمح لكل من له شكاية أن يعلن ذلك على مرأى ومسمع من الناس بمحضر الخليفة إثر صلاة الجمعة وذلك ليتمكن الخليفة من متابعة قضيته وإنصافه إن كان يستحق الأنصاف[3] .

ومن ثنايا الموضوعات التي عرض لها الكتاب نقف على ناحية أخرى من حياتهم ، تلك سياستهم حيال الثوار الأندلسيين ، وحيال القادة كذلك من

(1) صفحة - 5 - 21 - 142 - 147 - 280 - 281 - 291 - 292 - 294 - 304 - 313 - 314 - 328 - 329 - 385
(2) صفحة 308 - 309 - 311 - 311 - 213 - 214 - 218 - 283 - 293
(3) صفحة 43 - 281 - 255 - 256

الأسبانيين ثم معاملتهم لعرب أفريقية ، لقد كانوا في طابعهم العام أصدقاء حلفاء لمن يعرض عليهم صداقته ووفاءه ، كما أنهم كانوا يناصبون العداء لكل من يحاول أن يمس من مركزهم ، وإذا ما عفوا أو صادقوا فإنهم ينسون كل ما مر بالأمس القريب[1] . وورد عليهم فرناندو رودريكيز (Fernando Rodriguez) صاحب ترجالة يعرض عليهم السلم والصلح فرحبوا به بل واستضافوه في العاصمة : مراكش نحواً من خمسة أشهر[2] ، وورد عليهم فرناندو الثاني صاحب ليون (Fernando II) يطلب النجدة ضد ابن أخيه فأجابه الخليفة لطلبه وبعث معه بأفضل عناصر الجيش الموحدي[3] ، وارتضى كذلك رغبة إبراهيم بن همشك ، الذي أمسى صديقاً مقرباً للدولة[4] ، وتطارح هلال بن مردنيش فاستقبله بل وأنزله في القصور الخليفية وقبل منه هداياه[5] ، وبالإضافة الى هؤلاء نيل عاقبة القومس نونيه (Nuno) صاحب طليطلة ، ثم ابن المرتك[6] (Enriquez) وقد كان يستفيد من حلف هؤلاء في الدلالة على نقاط الضعف في الجهات التي لم تستسلم بعد[7] .

أما موقفهم مع أعراب أفريقية ، فقد ظلوا - على العموم - حريصين على معاملتهم ومشيدين بأواصر « القربى » التي تجمعهم في قيس عيلان ، وبالرغم من بعض المؤاخذات التي يسجلها ابن صاحب الصلاة على العرب في بعض المواقف[8] فإننا نجد الخليفة يخرج بنفسه لاستقبالهم بظاهر المدينة في يوم مشهود

(1) صفحة 223 - 325

(2) أنظر صفحة 230 من المن بالإمامة .

(3) راجع صفحة - 231 - 233

(4) صفحة 249 - 250

(5) ص 327 - 373 - 376

(6) ص 387 من المخطوط .

(7) صفحة 265

(8) لم يفت ابن صاحب الصلاة أن يسجل بعض « الملاحظات » التي بدت من العرب ، بل وانه ليتهمهم منه أحياناً ويسمهم بالفوضى والاستهتار : فلقد عتب على « الجهال من الأعراب المزيم بالأعراب » كما يسجل عليهم أيام « التمييز » أنهم كانوا لا يهابون أحداً ولا أمراً وإنهم كانوا يتهافتون على الثياب دون احترام للنظام ، هذا الى ما اتسم به يومهم عندما أرادوا اجتياز قنطرة

على أفضل تمييز ، ونراه كذلك يقدمهم عند التمييز ويؤثرهم بأجل العطاء[1] .

وكان الموحدون أكثر الناس استعمالاً للحيل الحربية ، فقد يختلقون « الرسائل » وقد يتجاهلون بعض الأشياء حرصاً على الوصول الى الحقيقة[2] ومن مناهجهم الاعتماد على « الجواسيس » الذين يختلطون بالأصدقاء والأعداء على السواء ليتقلوا أو يبثوا ما فيه المصلحة للدولة علاوة على سلك التراجمة الذين لا تخلو منهم أجهزة الحكومة[3] ولكثر ما كانوا « يتحيلون » فلقت بعض المواقف الحربية منهم غير مفهومة للغزى[4] وكانوا - وهم يغارون على سمعة الدولة - لا يترددون في فكاك أسراهم أو المحاصرين من أنصارهم مهما كان الثمن وقد وصلت قيمة فداء الشخص الواحد الى ثلاثمائة دينار[5] كما بلغ الإمداد لبلدة واحدة في مرة واحدة خمسة آلاف دابة[6] ، والمعتاد عند الموحدين في كل غزوة يقررونها انهم يمهدون لوصول الجيش بإرسال كتائب للاستطلاع والمناورة[7] .

النشاط الفكري :

وإذا كانت الحياة الأدبية على عهد المرابطين قد استهدفت بتهجمات بعض رجالات الاستشراق[8] ، فإن ما يوجد ضمن هذا المخطوط من منظوم ومنثور

- لم الربيع من « تراجمهم وتقاتل وقتة . . . » ثم ما ظهر على العرب عند قصد (وبيلة) « من ورائع وبيل » وما ظهر عليهم عند الانصراف منها من « جبن عن اللقاء والدعوى بأن حريمهم تحتاج الى التساح في الأرض » ! راجع صفحة 294 - 296 - 297 - 304 - 347 - 365

(1) صفحة 202 وصفحة 257 - 259

(2) أنظر صفحة 3 - 124 - 243 - 264

(3) أنظر صفحة 3 - 266

(4) لقد دعى الموحدون للصلح في مرحلة وبلة في ظروف عصيبة بالنسبة لهم بحيث لم يكن من المتوقع ان يرفضوا العرض أولاً وثانياً وثالثاً ولكنهم فعلاً أبوا وتأكد انهم كانوا يحشدون على « حيلة » في هذا الرفض . راجع صفحة 3 - 126 - 333 - 357

(5) ص 91 - 254 - 308 .

(6) ص 238

(7) أنظر صفحة : 121 - 187 - 260 - 236 - 346

(8) Provençal : Conférences sur L'Espagne Musulmane , Caire 1951 , pp.17-18

أيام الموحدين لما يؤكد أن تلك «التهجمات» كانت خاطئة حيث أن هذا التراث - كما نعتقد - ليس إلا «استمراراً» لازدهار أدبي عرف الحياة في أحضان الدولة الذاهبة.

وقبل كل شيء نستعرض قليلاً هذه المجموعة الجديدة من «الرسائل الموحدية» التي استأثر بها[1] كتاب المن، فعلاوة على قيمتها التاريخية، فإنها تعتبر بحق من أجمل الآثار الأدبية المغربية الرفيعة، وهذه الرسائل وإن كانت في مجموعها لا تخرج عن الوصف الذي أعطاه لها صبح الأعشى[2] لكنها أحياناً تخالف القاعدة ببعض المخالفة[3]، ولقد اسهم في هذا التراث: تراث الرسائل، عبد المؤمن نفسه وابنه أبو يعقوب، ثم الكاتب عبد الملك بن عياش وأبو القاسم المراخبي وأحمد بن محمد والكاتب ابن مصادق[4].

وإلى جانب هذا الأثر الأدبي المنثور يتضمن المن بالإمامة ديواناً من الشعر المتين السليم شارك فيه كل من عبد المؤمن وابن حبوس وابن سيد اللالقي، وابن المنخل الشلبي وأبي العباس اللص والشاعر الطليق وأبي الحسين ابن صاحب الصلاة وأبي الوليد الشواش، وابن المنيفر وابن ميمون والبكي وابن حربونة وأبي عبد الله الشاطبي وأبي مروان بن صاحب الصلاة والمراخبي وابن طفيل

- أحمد بلا فريج عبد الجليل ... : الأدب الأندلسي ص 70 - 72 محمد رضا الشبيبي : أدب المغاربة والأندلسيين. دكتور جودت الركابي : في الأدب الأندلسي.

(1) نشر الأستاذ بروفنصال مجموعة رسائل موحدية عثر عليها في المغرب وأضاف إليها رسالة نقلها من صبح الأعشى للقلقشندي.

(2) يذكر القلقشندي أن الرسائل الموحدية على اسلوبين: الأول أن تفتتح الكتابة بلفظ من فلان إلى فلان، والثاني أن تفتتح بلفظ أما بعد. أما الأول فكان الرسم في المكاتبة أن يقال: (من أمير المؤمنين) ويدعى له بما يليق به ثم يؤتى بالسلام ويؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي ﷺ والترضية على أصحابه ثم على امامهم المهدي ثم يؤتى بالمقصود ويختم بالسلام، والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وبميم الجمع عن المكتوب إليه، هذا وكثيراً ما تذكر في صلب الرسالة الجهة التي صدرت منها كما أنه كثيراً ما لا يخلو من ذكر التاريخ. صبح الأعشى مجلد سادس ص 443. بروفنصال: رسائل موحدية صفحة جـ، د.

(3) انظر صفحة 10 - 15 - 198 - 201 - 251

(4) انظر صفحة 4 - 8 - 128 - 154 - 164 - 180 - 183 - 198 - 201 - 204 - 207 - 215 - 219 - 222 - 237 - 251

وابن عياش وأبي الحكم البلنسي[1]، وأكثر هذا «الشعر الرسمي» متأثر بالأسلوب والوزن المعروفين في المشرق على عهد أبي تمام والمتنبي، فجلُّه من بحر الكامل والطويل والبسيط، ومع هذا ففيه أوزان أخرى كالوافر والمتقارب والخفيف، وجلها كذلك يدور حول الشعر السياسي والمدح وإن كان فيه كذلك - بقلة - التغزل والتشوق والهجاء، والفرق الوحيد بين قصائد المدح لدى المتنبي مثلاً وقصائد هؤلاء الشعراء أن هؤلاء يتجنبون بداية مدائحهم بالتشبيب وذلك تأثراً بالظروف التي تعيشها «الدولة المهدية». وقد كانت الدولة تغدق على الأدباء والشعراء والمؤرخين من أموالها وكان يخصص لهم من الجوائز السنية والهبات الجزلة ما كان يذكي من حماسهم ويقوي من نشاطهم[2] علاوة على مساهمة الحاكمين أنفسهم في النقد والتوجيه[3]، ولكثر الأتباع نجد أن الوقت يضيق في بعض الأحيان عن سماع الكل وأن الجوائز المعطاة تقسم على ثلاث طبقات[4].

وإذا انتقلنا من ميدان الرسائل والقصائد إلى الميادين الأخرى حول النشاط الفكري فستجد أن الامبراطورية كانت تنعم بسلك هام من الأطباء والصيادلة[5] والفلاسفة والفقهاء والفنانين والمهندسين والموسيقيين[6] فقد عاش ابن رشد وابن زهر وابن طفيل وأضرابهم من العلماء يترددون على المجالس سواء داخل القصر أو خارجه بل إنهم كانوا يشاركون في المغازي والحملات[7].

(1) انظر صفحة 5 - 6 - 9 - 12 - 24 - 12 - 24 - 27 - 30 - 33 - 36 - 64 - 71 - 83 - 95 - 98 - 101 - 107 - 109 - 112 - 115 - 117 - 118 - 136 - 141 - 153 - 154 - 158 - 188 - 191 - 193 - 194 - 201 - 212 - 215 - 223 - 226 - 245 - 274 - 284 - 311 - 314

(2) صفحة 8 - 38 - 111 - 140

(3) انظر صفحة 29 - 33 - 100 - 226

(4) صفحة 385 - 386

(5) إقرأ صفحة 45 مادة (المجموعة)

(6) كانت الطبول تضرب على المسرات وعلى الطرب كما يوجد في النص ومن غير المعقول أن تكون المسرة مجرد نقرات موجهة. راجع تعليق رقم 20 صفحة 24، راجع صفحات 7 - 292 - 348 من المن بالإمامة.

(7) انظر صفحة 79 - 273 - 280 - 359 - 360

وقد كثرت المجالس العلمية على عهد الموحدين ، ومن الطريف أن نتعرف على حلقة من حلقات الدرس في ذلك العهد حيث يتلو السادة فقرات من المتن ثم يردفها الشيخ بشرح لما غمض من النصوص[1] ، وكثيراً ما نقف على أن الخليفة كان يقف بنفسه على اختبار التلاميذ وامتحانهم[2] وقد عرف المشايخ أياماً للعطلة يستروحون بها ويتخلصون من عناء الكد بحيث كان لهم يوم خاص بالنزهة والراحة[3] .

وازدهرت على هذا العهد الخزانات العلمية وكثر اقتناء الكتب وانتساخها وسواء في ذلك الخزانات الخاصة أو خزانات الدولة[4] وقد كثر كذلك الاشتغال بالتنجيم وعلم الهيئة ، الأمر الذي ينبىء عنه تلاعب الشعراء والناثرين بالعبارات الفنية الخاصة بعلم الفلك[5] ، وكانت اللغة المستعملة طبعاً كما تشهد بذلك الرسائل الديوانية وما أثر من شعر هي اللغة العربية لكن الموحدين - وهم يحبون إيثار الفائدة العاجلة - كانوا لا يتحرجون الاستعانة باللسان الغربي - كما يسميه المؤرخون القدامى - من أجل إفهام القوم في الوقت المناسب بما يروج في الدنيا[6] . .

وكان من رأي الموحدين - على العموم - ألا يحجروا على الناس في تفكيرهم ، ولذلك فقد ازدهرت الفلسفة وارتفعت رؤوس المفكرين في كل

---

(1) انظر صفحة 85

(2) انظر صفحة 146 .

(3) راجع صفحة 152-153 .

(4) ص 152 . وص 335 . محمد العابد الفاسي : الخزانة العلمية بالمغرب ص 12 .

(5) ص 18 - 97 - 139 - 185 - 192 - 209 - 212 - 336

(6) يخيل لي أنهم كانوا يعيشون تقريباً نفس الظروف التي نعيشها نحن في مشروعات التعريب ، فإننا عوض ما ننتظر تعلم الناس كلمة ، الهاتف ، لا بد أن نقول كلمة التليفون .. وهكذا فإنه بالنسبة للموحدين وجهتهم كما اتخذنا نحن ، كان من غير اللائق أن يتأخروا في ساحات الوعظ أو في مقامات العلم بلغة لم يتعلموها بعد ، فكان استعمال اللسان البربري الذي يرمي إلى إرادة الفائدة العاجلة . انظر صفحة 143 - 387 .

زاوية[1] ، بل إن الخليفة كان لا يضيق عن سماع النقد[2] ، وهم مع هذا يحرصون كل الحرص على أن يجلوا رجال الفكر والعلم ، يستقبلونهم في صدر ما يستقبلون ، ويؤثرونهم على غيرهم في الولايات والتكريمات والظهائر السامية[3] .

الازدهار الاقتصادي والمعماري :

والتتبع للكتاب سيمكنه أن يقف على المنشآت الاقتصادية على العهد الموحدي ، وإن في أول ما نقرأه في هذا السفر الثاني الوصف الدقيق والفريد كذلك لمدينة جبل طارق التي كانت مضرب المثل وفاقت كما يقول ابن صاحب الصلاة قصور الخورنق والسدير ، لقد تضافرت عليه جهود المهندسين المعماريين سواء منهم من ورد من المغرب أو الأندلس كالحاج يعيش وبُزاز ، ابن باسة[4] ، واستنفروا جميع العملة من البنائين والنجارين والعرفاء والاختصاصيين في الفلاحة ، وهكذا أمسى الجبل بعد بضعة شهور فقط جنة فيحاء تشتمل على جميع الفواكه « : التين ، والعنب والتفاح والكمثرى والسفرجل والمشمش والإجاص والأترج والموز وغير ذلك الى ماء عذب زلال سلسال » . لكن الذي يلفت النظر أكثر من كل هذا إن المهندس الحاج يعيش ، صنع في أعلى الجبل رحى تسير بالهواء لطحن الأقوات فأعطى بذلك مظهراً من مظاهر النهضة الميكانيكية[5] ، وبعد جبل طارق كان بناء مدينة « المهدية »[6] (رباط الفتح) وما تزال آثارها الى الآن شاهدة بعظمة الموحدين واستطاعوا أن يجلبوا اليها الماء من مكان بعيد حتى تتوفر فيها شروط الراحة وزودوا المدينة بقنطرة هامة ربطت الصلة بينها وبين

---

(1) نقل كل من ابن رشد وابن زهر وابن طفيل متنقلاً بين الأندلس وفاس ومراكش وظلوا في مجلس الخليفة يثيرون أسمى النظرات وأدق المشاكل . المعجب طبعة القاهرة ص 242 . الدكتور محمد عزيز الحبابي : مفكرو الإسلام ص 186 ، 187

(2) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص 351

(3) صفحات 257 - 288 - 375

(4) Dr . Renaud : Les Ibn Baso p.1 , Hespéris . Tome XXIV, Année 1937

(5) صفحة 18 - 19 .

(6) صفحة 305

مدينة سلا ، أما مراكش العاصمة فقد نالت من عنايتهم الشيء الكثير نظراً لكون الاستقبالات و « التمييزات » الرسمية كانت تجري في قصر دار الحجر ، والمدينة الثانية وفي البحيرات التي كانت تسع أزيد من ثلاثة آلاف[1] ، وفي الأندلس أعادوا الحياة من جديد إلى مدينة قرطبة وجندوا البنائين والفعلة لبنيان قصورها ودورها[2] ، ثم اتجهوا نحو أشبيلية فشيدوا فيها معالمهم الأثرية التي طبقت شهرتها الآفاق ، فالقصور الموحدية هناك ، والجسر العظيم ذو القنطرة العظيمة المنشأة الممسوكة بالمراكز والتي كانت تربط بين المدينة وقرية الشرف المجاورة لها ، وقصبة أشبيلية الداخلية « والبرانية » وبناء الأسواق المختلفة كل هذا نقرأ عنها الكثير في المخطوط[3] ، لكن المعلومات التي انفرد بها ابن صاحب الصلاة بحق هي المعلومات الدقيقة المتعلقة بالمسجد العظيم باشبيلية بما يحتويه من منبر ومقصورة[4] وصومعة فلقد ظل مجهولاً اسم ابن باسة المهندس العبقري الذي أشرف على بناء المنارة ذات السمعة العالية حتى كشفت عنه صفحات المن بالإمامة ، وظل مجهولاً كذلك أن مدينة فاس ومراكش اسهمت كل منهما في بناء جامع أشبيلية .

وبصرف النظر عن مبانيهم وصناعة الغراسة[5] وتسريب المياه وبناء[6]

(1) صفحة 143 - 209 - 294

(2) صفحة 64 - 65 - 66 - 68

(3) ص 89 - 90 - 91 - 318 - 120 - 336 - 337 - 340

(4) لم يتحدث المؤرخون عن وصف المقصورة ومن المؤكد انها كانت على نحو المقصورة بالمغرب التي كانت تسع نحو ألف شخص وكانت تتحرك بواسطة محركات تثبت في أسفلها وقد صنعت هذه المحركات بحيث لا يترتب عليها عند تحريكها أقل صوت بل تدور جميعها في أتم سكون وتنظمت الحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعها في وقت واحد متى رفع الستار عن أحد البابين اللذين يدخل منها أمير المؤمنين إلى المسجد وكانت المقصورة تبرز من جانب ويبرز المنبر من الجانب الثاني وتختفي الجوانب في نفس الوقت حول مجلس أمير المؤمنين ...
المن بالإمامة ص 333 - 336 الشوي ص 107 .

(5) جاء في أحد المقاطع : انهم جلبوا من أنواع الزيتون المختارة من الألوان نحواً من عشرة آلاف وغرست على نسق عاماً بعد عام .

(6) انظر صفحة 18 - 90 - 224 - 253 - 306 - 307 - 332 .

الغزوات لديهم ، نراهم يهتمون اهتماماً عظيماً بالأسطول ، فالموحدون وهم مضطرون للاتصال كل لحظة وحين لربط الصلة بين أفريقية والأندلس ونقل الكتائب من الجند بين الفترة والأخرى ، ولهذا فإن الكتاب يصور القوة البحرية الهائلة التي كان ينعم بها المغرب في العصور الوسطى ، لقد كانت « القطائع » من مختلف الضروب والأشكال ، وفيها الغراب الطيار وفيها المراكب الثقيلة ، ونتيجة لهذا كانت المصانع منتشرة في كل جهة من جهات المغرب والأندلس[1] وثمت ناحية تشهد حقيقة بحرصهم على العمل على ازدهار الحركة في بلادهم فبالإضافة الى شبكة الطرق التي تضمن المواصلات بين مختلف أجزاء الأمبراطورية في ظروف يسيرة[2] ، وبالإضافة إلى عمليات الاحصاء[3] التي اعتادوها لكل مدينة وقرية ، بالإضافة الى ذلك فقد ضمنوا البريد بشكل بديع وسريع معاً وفي الليل والنهار كذلك وفي البر والبحار[4] ، وإذا كان ابن صاحب الصلاة اكتفى بالإشارة الى القانون الذي يحدد مسؤولية المكلفين بالبريد فإننا نعلم ان الدولة كانت تتحرى جداً في اختيار هؤلاء « الرقاصين » وكانت تمنع عليهم منعاً باتاً الإساءة الى سمعة وظيفتهم الذي يعتبر من أشرف الوظائف[5] .

ولكثرة ما عم الرخاء مرافق الحياة نرى بأن القواعد الحربية الكبرى كقاعدة المعمورة مثلاً تتوفر على جميع ما يمكن ان تحتاج اليه الأساطيل المغربية بل إن المواد الغذائية المخزونة فيها قد تفي دون الحاجة اليها[6] ، ويمكنك أن تلاحظ الترف الذي كانت تعيشه البلاد عندما نقرأ عن وصف المصحف العثماني وما

(1) أنظر صفحة - 19 - 20 - 40 - 106 - 110 - 147 - 337

(2) ص 302 - 303 - 304

(3) صفحة 363

(4) كان الرقاص يأخذ مركبه من مدينة بجاية صباحاً في البحر فيخرج في العشية « في أقرب تاريخ دون تعب في مرساه » وربما كان هنالك رقاص استثنائي لحمل الأنباء الهامة ، فقد قطع هذا الرقاص في ظرف 30 ساعة المسافة بين كركوري (جنوب طليطلة) واشبيلية . انظر صفحة 9 - 10 - 52 .

(5) يشير ابن صاحب الصلاة الى رسالة موحدية هامة كان في جملة ما عالجته قضية الرقاصين ، وقد وقفت على نص الرسالة في نظم الجمان لابن القطان بين ورقة 56 (ب) و 65 (أ) انظر المن بالإمامة ص 361 .

(6) انظر صفحة 75 - 209

احتواه من جوهر نفيس وزمرد وياقوت أحمر وأصفر وأخضر[1] .

وقد كان أساس العملة الموحدية الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي ، وربما أستعمل المثقال الذي له نفس وزن الدينار ، وأستعملت الأوقية التي لها نفس وزن الدرهم[2] ، وإن أهم ما يعطي فكرة عن الرخاء الذي كان يعم البلاد أن نقرأ أن « البركة » التي نفح بها الجنود ذات يوم فاقت بكثير مليار من الفرنكات المغربية الحالية[3] .

الحياة الدينية :

وفي كل فصل من فصول الكتاب تشعر بالروح الدينية التي كانت تهيمن على دولة « الطلبة » فهم جميعهم يتزمون بالشعائر الدينية في وقتها المعين ، لا يمنعهم سفر أو غزو[4] واعتادوا منذ الأيام الأولى ان يوزعوا القرآن أحزاباً ليقرأوا منه يومياً حصة معينة[5] ، وقد قاموا في كل مكان بتشييد المؤسسات الدينية وترددت كثيراً الألفاظ التي تقترن عادة بشعائر الحج الأمر الذي يدل على امتزاج العقيدة بالناس[6] ولكن فكرة التقشف التي ظهر بها الموحدون أول الأمر والتي أضطرت فقهاء فاس لطمس معالم المرابطين في جامع القرويين[7] ، ذهبت بموت المهدي ، وأمست المساجد آية من آيات الفن المعماري لا يترددون في الإنفاق على ذلك مهما كان الثمن ، وقد عهدوا بالإشراف على فنون جامع أشبيلية للطبيب ابن زهر[8] ، كما أنهم جملوا بعض المساجد بالنواقيس التي غنموها في

(1) أنظر صفحة 301

(2) 299 - 339 - 363 - 374 - 367

(3) راجع التعليق رقم 16 ص 24 من المقدمة .

(4) صفحة 43 - 87 - 280 - 341 - 383 - 325

(5) أنظر صفحة 88 - 349

(6) أنظر صفحة 117 - 120 - 141 - 191 - 195 - 210 - 211

(7) يذكر ابن أبي زرع ان فقهاء فاس خافوا من انتقاد الموحدين على النقش والزخرف الذي يوجد فوق محراب جامع القرويين ولذلك فإنهم طمسوا معالمه . ابن أبي زرع : الأنيس المطرب طبعة الرباط أول ص 87 التازي : تاريخ جامع القرويين طبعة بيروت 1972 ، 3 مجلدات.

(8) صفحة 238 من المن بالإمامة .

بعض حروبهم بعد أن أدخلوا عليها بعض التحويرات الفنية[1] ، وكتاب المن وثيقة تنفع المهتمين بتاريخ التشريع الإسلامي ، فإذا كنا لم نجد أثراً لذكر إحراق كتب الفروع ، فإننا نقف ، على أن الموحدين كانوا لا يأبهون إلا بالكتابين : القرآن والسنة[2] ، وقد كانت العلوم الدينية التي يزاولها الطلبة على ذلك العهد في أنحاء الأمبراطورية علاوة على علوم المهدي : عقيدة التوحيد ، وكتاب الطهارة وأعز ما يطلب[3] ، بالإضافة الى ذلك يدرس علم الأصول بما فيه الناسخ والمنسوخ[4] وعلوم القراءات[5] وعلوم الحديث[6] وكتاب الموطأ للإمام[7] مالك ، وكتب الفقه بما فيها فصول المعاملات والدماء[8] ، ومذاهب الأئمة بمنطوقها ومفهومها[9] ، هذا طبعاً الى كتب الأدب[10] العربي التي يعتبرونها المفتاح الحقيقي لمعرفة أسرار كتاب الله ، وبهذا يتأكد أن الدولة كانت حريصة على إشاعة الثقافة الدينية بمعناها الصحيح ، وقد ظلت « العصمة المهدية »[11] مسيطرة في كل الرسائل الرسمية التي توجه بها الحكام لأطراف البلاد . وقد حرص الموحدون حتى في تصرفاتهم السياسية على أن يظلوا دائماً مقتدين بعمل السلف الصالح ولذلك نراهم عندما يقررون تسمية الخليفة بأمير المؤمنين يبررونا

(1) يذكر بعض المؤرخين ان « النواقيس » التي توجد بجامع القرويين حول بعضها عن صورين لكنا نعلم على اليقين من أن بعضها منذ أيام الموحدين .
ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص 43 - 46
التازي : القرويين في أحد عشر قرناً طبعة فضالة 1960 فضالة 18 - 19 - 20

(2) أثر عن الحافظ ابن الجد ان ابا يعقوب قال له : « ليس إلا هذا وهذا أو السيف » يعني القرآن والسنة وإلا السيف . المعجب : طبعة القاهرة ص 279 . الاستقصا ثان ص 112

(3) أقرأ صفحة 85 المن بالإمامة

(4) صفحة 88 - 99

(5) صفحة 88 - 152

(6) صفحة 99

(7) صفحة 156

(8) صفحة 159

(9) صفحة 257

(10) صفحة 152

(11) أنظر صفحة 61 - 201 - 204 - 207 - 220

ذلك بأنه عمل كان اقتداءً بصنيع عمر بن الخطاب[1].

واظهاراً منهم لاحترام الدين وتقديسه نجد أن كل المراسيم التي تصدر عن الدولة لا بد لكي تأخذ طريق التنفيذ ان تتلى على منابر المساجد وبين أساطينها[2]، وكانت حدود الله تقام على العاصين والمخالفين فقد كانوا يتشددون في ضرب أهل الفسق، وكانوا يكسرون الخمور مما يتأذى به ويشتكى[3] منه، وقد كان الفقهاء رجال دين وعمل معاً وهي ظاهرة ممتازة نلاحظها عندما نقرأ أن الفقهاء كانوا يشرفون بأنفسهم على التكسير والفلاحة والمساحة[4]، ولكثرة ما سيطرت الروحيات عليهم نرى أن القادة كانوا لا يأتون عملاً مهماً إلا بعد أن يقوموا بشعار الاستخارة[5] المأثور في سنة الرسول، ومع كل هذا فإننا نلاحظ أن « التكرة » التي دشن بها المهدي دولته أخذت سورتها تقل مع الزمان فالخليفة يستطيب إهداء الجواري الكعاب والسراري ذوات الحسن والشباب[6]، والنساء اللاتي كن في مذهب المهدي ملازمات لعقر البيت أمسين « يبدين أصواتهن بالفرح وينطقن بألسنتهن بكل لفظ منشرح »[7].

* * *

إن كتاب المن بالإمامة يضيف إلى مصادر التاريخ الموحدي القليلة والقليلة جداً مادة خصبة ثرية، فإلى جانب أخبار المهدي للبيذق و « رسائل موحدية » وكتاب الاستبصار، ونظم الجمان لابن القطان، والمعجب للمراكشي والبيان المغرب لابن عذاري .. إلى جانب كل هذا نستطيع أن نعد هذا المجلد الثاني في أبرز الوثائق التي تتحدث عن التاريخ الموحدي حديث معاينة ومشاهدة ..

(1) صفحة 199-200.

(2) صفحة 148.

(3) انظر صفحة 40 - 41 - 87 - 281.

(4) انظر صفحة ص 321.

(5) انظر صفحة 261.

(6) راجع صفحة 373.

(7) راجع صفحة 514.

فلعل نشره اليوم يكون عاملاً على استكمال العناصر لبحث المدرسة الموحدية وعاملاً في الوقت نفسه على سد الفراغ الذي شعرنا به في بعض النواحي، ولعل هواة التاريخ، وهواة الآثار، وهواة الشعر والترسل يجدون فيه ما كنا نؤمل أن يجدوا فيه من المتعة. إن هذا هو الرجاء الذي كان يساورنا في الانقطاع الى تحقيقه وجعله في متناول المهتمين بالتاريخ.

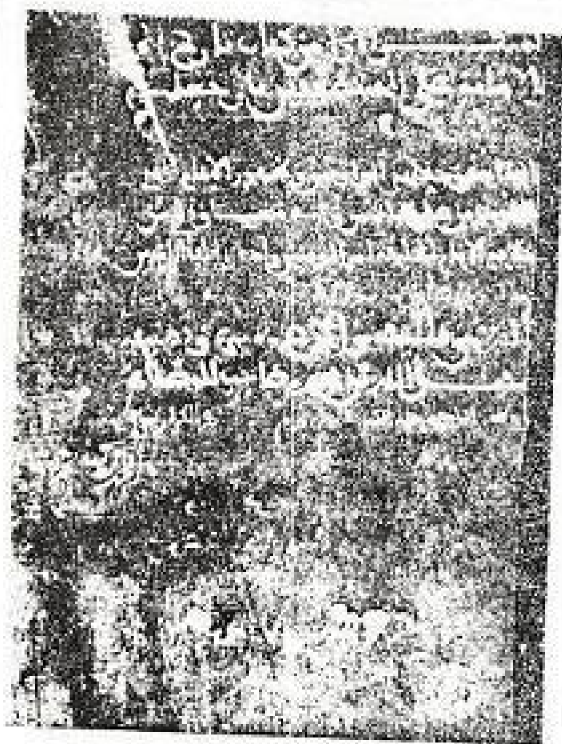
السفر الثاني من كتاب

تاريخ المن بالامامة على المستضعفين
بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين،
وظهور الامام المهدي بالموحدين على الملثمين
وما في مساق ذلك من خلافة الامام
الخليفة امير المومنين وآخر الخلفاء الراشدين

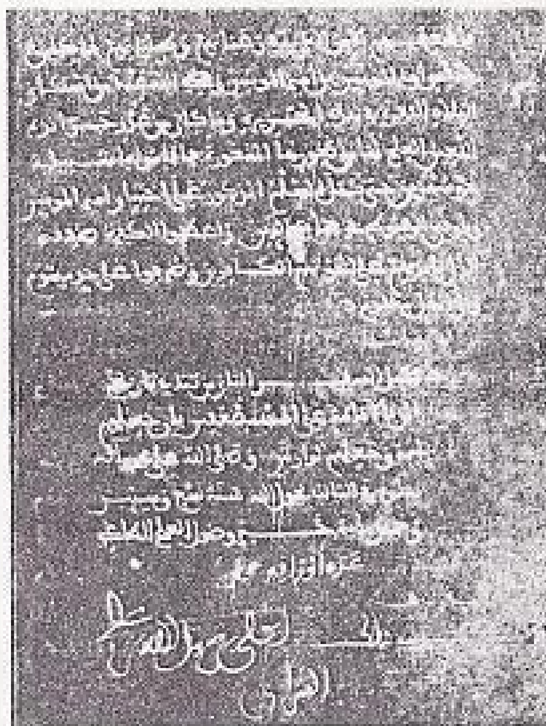
انتهى تاليفه وابدع تحبيره وتصنيفه
عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي
رحمه الله



الصفحة الأولى من المخطوط



صورة لعنوان الكتاب



الصفحة الاخيرة من المخطوط

[illegible]

DEPARTMENT OF ORIENTAL BOOKS
BODLEIAN LIBRARY
OXFORD

25 April, 1963.

Dear Sir,

I am sorry not to have replied earlier to your letter of 21 March 1963 in reference to MS. Marsh 433, of which you obtained photographs from us some time ago.

We gladly give you permission to use this manuscript for your forthcoming edition of the work. We should, however, be very grateful if you would refer to it in your edition by the full reference MS. Marsh 433. You should also at some suitable point in the edition make acknowledgments to the Curators of the Bodleian Library.

We look forward to receiving from you in due course the copies of the publication which you promise us.

Yours truly,

N.C. Sainsbury

Keeper of Oriental Books

Monsieur Tazi Abdelhadi,
Chef division Affaires Culturelles,
Le Ministere de l'Education Nationale,
RABAT,
Morocco.

صورة إذن مكتبة البودليان (اوكسفورد) بالنشر

تنبيـــه

الأرقام التي سترد بارزة، وبين حاصرتين [ ] ابتداءً من صفحة 65 تشير لأرقام ورقات المخطوط في الأصل . وقد نحيل عليها في التعاليق .

[2] بسم الله الرّحمن الرّحيم صلّى الله على محمّد وآله

(منازلة ابن مردنيش لمدينة جيان ومحاصرته لقرطبة سنة 554)

وفي هذه السنة وهي سنة أربع وخمسين وخمسمائة خرج محمد بن سعد بن مردنيش[1] من مدينة مرسية[2] بعسكره ومع أصحابه النصارى أهلكهم الله بجيشه المفسد متهزاً الفرصة في ظنه ومتخيلاً بما أفسدته الخمر من ذهنه، أنه بمغيب[3] أمير المؤمنين يتغلب على الموحدين ـ أعانهم الله ـ بجزيرة

---

(1) أحد الثائرين الذين ظهروا بالأندلس في أعقاب دولة المرابطين عن لم يترددوا في طلب العون من المسيحيين ضد الموحدين، وقد أنكر بعض الباحثين نسبه في العرب وأرجعوه لأصل اسباني ذاكرين أن جده الأعلى (مردنيش) عرف بـ: Martinez. وتسميه المراجع النصرانية بالملك لوبو El Rey Lobo وقد منحه البابا لقب صاحب الذكر الحميد، توفي سنة 567 ـ ابن الأبار، الحلة السيراء ص220 ، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، نشر بروفنصال، طبعة لبنان 1954 ص 259.

Dozy: **Recherches sur l'Histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge. T. I 198, page 365 - 66.**

Melchor - Antuna: **Campanas de los Almohades en Espana, Fasc. I (Religion y cultura)** P. 13, Note 5.

(2) مرسية (Murcia) بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة 216 لا تبعد إلا يسيراً عن شاطئ المتوسط شمال قرطاجنة تبعد عنها بـ 48 ك.م.

الحميري: الروض المعطار، نشر بروفنصال - 1937 طبعة القاهرة ص 181-182-183.

شكيب أرسلان، الحلل السندسية، جزء ثالث، طبعة 1936، ص 535.

(3) تحرك عبد المؤمن من حضرة مراكش في أول شوال من سنة 553 متجهاً نحو رباط الفتح، وبعد أن نظم الأحوال تحرك من سلا في العاشر من شهر صفر من عام أربعة وخمسين وخمسمائة قاصداً المهدية وطرابلس بإفريقية ليملكهما من يد روجي الثاني أو غاليام الذي حاول أن يحتل جزءاً من العدوة بين طرابلس وتونس ضد المؤمن الموحدي. أنظر رحلة الحشتالي ص 36. ابن خلدون:

الأندلس حتى نزل على مدينة (جيان[1])، وفيها محمد بن علي الكومي[2]، فصادف عنده من النكوث بالبيعة قبولاً لمسراده، وأعجله الشؤم من رأيه بارتداده، فظن ابن مردنيش أن سائر البلاد يجد عندها وعند أهلها ما وجد عند محمد بن علي في هذه من الفساد، فوصل قرطبة[3] ونازلها ودمّر زروعها، وعفّى ربوعها، وكان فيها[4] أبو زيد عبد الرحمن بن تيجيت[5] والياً عليها، وحافظاً لديها، فدافعه مدافعة الفرسان الأبطال، أهل الوفاء بالبيعة للأمر العزيز في كل حال، وقاتله أشد قتال، ولاقى عنده ما يلقى من الأساد عند حماية أبنائها الأشبال.

- الذكار نيش ملك طرابلس من الأخبار، ص 38. ابن عذاري: البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (من مخطوطات وزارة الأوقاف) الخزانة العامة، الرباط - مسجل تحت رقم ق: - 200 ص 19-20. وهذا المخطوط مازال الآن للطبع في معهد الأمير مولاي الحسن بن المهدي بتطوان، وذلك بعناية المستشرق الإسباني السيد امبروسيو هويسي ميراندا ومساعدة الأستاذين محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني.

(1) جيان (Jaen) تقع شرقي قرطبة على بعد 108كلم، ومنها من علمائها أبو ذر الخشني أحد رجالات جامع القرويين.
ابن أبي زرع، القرطاس نشر الهاشمي الفيلالي - الرباط 1936. الحميري، الروض المعطار - 70-71-72.

(2) تتضافر المصادر على أن محمداً بن علي الكومي كان والياً على مدينة جيان ولكنها لم تشر لتاريخ توليه هذا المنصب.
ابن عذاري: البيان المغرب ص 22 - ابن خلدون، المجلد السادس طبعة بيروت 1959.
الناصري: الاستقصاء، طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء سنة - 2 - 1954 ص 126.

(3) قرطبة (Cordoba) قاعدة بلاد الأندلس وتمتاز بجامعها الشهير، تقع شرقي مدينة اشبيلية على بعد 138 كلم.
الحميري: الروض المعطار من صفحة 153 إلى 158.

(4) كذا يوجد في الأصل ويظهر أن الصواب (فيها) وفي ابن عذاري (بها) أنظر: البيان المغرب ص 22.

(5) بعض المصادر تكتبه هكذا: ابن يكيت، وبعضها ابن يكيث، وبعضها إفيت، ولد عينه والياً على قرطبة عبد المؤمن سنة 550، وتيجيت كلمة بربرية معناها شجرة صغيرة.
ابن عذاري: البيان المغرب ص 11 - ابن خلدون - 6:492 الناصري: الاستقصاء ثالث، ص 126 - 130.

(التحيل لاقصاء ابن مردنيش عن قرطبة ومقامه على أبواب اشبيلية)

ودام حصاره لها، إلى أن اجتمع القاضي أخيل بن إدريس[1] مع أبي زيد عبد الرحمن المذكور وتحيل[2] [3] بحيلة من حيل الحرب وكتبا كتاباً على لسان سيد راي بن وزير[3] من اشبيلية[4] ودفعاه لرجل زيات على ثيابه أثر الزيت، وكان الرجل من خَوَل القاضي، فأمره أن يخبر لباسه كأنه زيات من أهل الشرف[5]، ويسير بالكتاب إلى ابن مردنيش يحمله ويدفعه له. وفي الكتاب من ابن وزير فصلٌ مستفعل عليه مكتوب أن يعجل بالإقلاع عن قرطبة ويسير إلى اشبيلية فهو ضامن له دخولها، فحين قرأ الكتاب ابن مردنيش أسر بالإقلاع والإسراع، واتفق من قدر الله تعالى أن الموحدين - أعانهم الله - كانوا

---

(1) من كتب المتقدمين ولد اتصل بعد بالوزير ابن عطية فكانت له وظيفة مع الموحدين انظر ص - 82 - 83 من (المن بالامامة)، الحلة السيراء 222. المقري: نفح الطيب، طبعة 1949 خامس ص 19.
الزركلي: الأعلام 1:260.

(2) هناك تشطط في المخطوط والأصل: تحيلا. ابن عذاري، البيان المغرب ص 22.

(3) يكنى أبا محمد وهو من الرواة الذين استخدمهم ابن صاحب الصلاة مراراً، وكان قد خطة سامية في العصر الموحدي، كان من أشياخ الثوار في الأندلس، ثم سكن مراكش، وقد حضر عدة غزوات وذهب في سفارة لرفاقه السيرج وكان يحبه اللسان المخفي، وبعض المصادر تكتب اسمه هكذا (سيداري) و(سيدارن) باللهجة البربرية معناها: عمل رجليه. انظر ص 263 من من ابن صاحب الصلاة، الحلة السيراء ص 200-239. أشباخ: تاريخ الأندلس ص 207، الاستقصا، الجزء ص 107.
وعلى بعد ثلاثة كيلومترات شرق مدينة باجة يوجد جبل سيداري، ويحتمل أن هذا أثر لا جدال فيه لسكنى سيداري، وذلك على ما يرى العالم البرتغالي مارتيم فرتيو (Martin Velho) في الإفادة الخاصة التي أعلى لنا بها مشكوراً بمناسبة زيارتي الأخيرا للبرتغال.

(4) اشبيلية (Sevilla) تقع جنوب غرب قرطبة بينهما 138كلم، مدينة أزلية طلت محل عناية من الفاتحين وخاصة بني عبد المؤمن. الحميري، الروض المعطار من صفحة 18 إلى 22.

(5) الشَّرف (Aljarafe) يقع في الشمال الغربي من اشبيلية على بعد ثلاثة أميال منها ويعرف بزيته الشهير، ويسمى كذلك لأنه مشرف على ناحية اشبيلية. الشريف الادريسي، نزهة المشتاق، طبعة ليدن 1864 ص 173-178. الحميري، الروض المعطار ص 101-102. المقري، النفح، طبعة 1949 جزء 1 ص 103-150-160. علي تصرح الظاهر: شجر الزيتون، طبعة 1947 ص 11-12-164-165.

قد وجّهوا جاسوساً إلى المحلة من اشبيلية تحين علم الخبر، وشاع وانتشر، رجع من ليلته إلى اشبيلية وأعلم بإقلاع المحلة وبخبر كتاب ابن وزير الذي سمع. فصدقوه، وتغيّروا على ابن وزير وسجنوه، فوصل ابن مردنيش بجمعه ونزل على مقربة من اشبيلية بالموضع المعروف بالفونت(1) على ميل منها وقاتلها ببعض من أجناده حتى وصل إلىّ باب قرمونة (2)، وأقام على اشبيلية ثلاثة أيام، فلما لم ير شيئاً مما كان في الكتاب علم أنها خدعة وأقلع خاسراً، وقد شرحت هذا الخبر في (تاريخ المريدين(3)) ولقيت اشبيلية عظيم الخطب، وجماع الرعب، وحل بها وبأهلها كرب وحرب، وضبطها السيد(4) الأعلى أبو يعقوب [4] - رضي الله عنه - بسعده وحزمه وجده وعلو جده وبمن كان عنده من حفاظ(5) الموحدين الكبراء وطلبتهم أعزهم الله وبالأجناد الأولياء

---

(1) الفونت (Al-Fant) على ميل شرقي اشبيلية وقد روى ابن الابار عن بعض أصحابه أنه قال: رأيت مطوقاً في حصير الفونت من خارج اشبيلية:

خلف الخوذ بها شليس والقسم ... ما فيه سوى الوزير لي ازقم
عيلي ما عيلي ثم شاد جيدا ... رحم الله من عليه ترحّم

التكملة، نشر بيل وابن ابي شنب.

Ambrosio Huici Miranda: Historia Política del Imperio Almohade, 1957, page. 196.

(2) باب قرمونة (La puerta de Carmona) تقع في الجنوب الشرقي من اشبيلية في اتجاه مدينة قرمونة.

(3) هذا الكتاب آخر لابن صاحب الصلاة وورد (كوسمرا)، وقد اتفق الناسخ في هذا الموضع تنقيط الحرف الذي على الراء فاستبدل الياء والتاء لكنه في المواضع التالية: ص 20-54-230-271 وضع الياء، والكتاب في الأرة الأخيرة ورد باسم ثورة المريدين. راجع المقدمة حول هذا الكتاب.

(4) كان بنو عبد المؤمن يُسمون بالسادة، وقد عين أبو يعقوب والياً على مدينة اشبيلية سنة إحدى وخمسين وخمسمائة بافتراح من اللفاقي ابن الخلد الذي ورد على الحضرة العلية ضمن شيوخ اشبيلية. ابن عذاري: ص 13-14 المقري: نفح الطيب طبعة مصر 1949-1-420. الناصري: الاستقصاء 2-100.

(5) امتاز نظام الموحدين منذ ظهور المهدي، بارتكازه على (وحدات) معينة، تأخذ كل منها ترتيباً خاصاً، والظاهر أن هذه الطبقات تزايدت وتنوعت بحسب الحاجة والزمن، وقد تعرضت جل مصادر التاريخ الموحدي لهذه الأصناف وتعدادها، بما في ذلك كتاب (البيذق)، والمعجب للمراكشي، والقرطاس، ونظم الجمان، وكتاب العبر، والحلل الموشية، ورقم الحلل إلى آخره...

إلا أن هذه المصادر تختلف قليلاً حول الترتيب المعروف لهذه الفئات وعددها ونوعها. فالبيذق مثلاً،

المحبين كأبي العلاء بن عزوز(1) وأصحابه وكأبي بكر الشافقي(2) وأشياخ

، يكتفي بذكر (أهل الدار): دار المهدي، وأهل الخمسين، الذين هم في عداد صحابته الأولين من أهل القبائل التي تسارعت إلى الاستجابة لدعوته: هرغة وتينملل وهنتاتة وجدميوه، كما يذكر عبيد المخزن والحفاظ وأهل الحزب...

بينما تولى المراكشي الحديث عن (العشرة) الذين يسمون بأهل الجماعة، ثم طبقة أهل الخمسين الذين يسميهم ابن خلدون آيت الخمسين، وذكر المراكشي أن للموحدين خصصوا الطلبة المتعلمين باسم طلبة الحضر، كما أطلقوا على طلبة الطلبة الموحدين. وأن هؤلاء الطالبة هم (الأشياخ) بالذات، وقد أعطى ابن القطان تفسيرات لبعض مهمة الطبقات الموحدية، حيث ذكر أن أهل الدار يحضرون بالخليفة في ليله ونهاره، كما ذكر ابن الخطيب في رقم الحلل أن أهل الجماعة كان إليهم للتفاوض والتشاور، والطلبة والحفاظ لحمل العلم والتلقي، وأهل القبائل لمدافعة العدو.

هذا ويورد في الحلل الموشية ذكر (أهل سبعين) نقلاً عن ابن اليسع، وقد أنكر وجود هذه الطبقة ابن القطان في نظم الجمان، ذاكراً أنه لا يعرف غير العشرة وأهل الخمسين، ويؤيد هذا على البيذق، وابن صاحب الصلاة، وابن خلدون مثلاً من ذكر السبعين. وتمشياً للحديث تشير إلى أن بعض الكتب المذكورة لا تخلو من اضطراب عند محاولة استقصاء عدد الخمسين مثلاً. فقد لا يتجاوز المعدود في بعضها تسعة وثلاثين وقد يتجاوز الخمسة والخمسين.

البيذق: أخبار المهدي بن تومرت، نشر بروفنصال صفحة 29-32-33-34-35.

المراكشي: المعجب طبعة القاهرة سنة 1949 صفحة 188-242.

ابن القطان: نظم الجمان (مخطوط) نشر الدكتور محمود علي مكي، وكيل معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بمساعدة المعهد الجامعي للبحث العلمي الرباط.

ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، طبعة الرباط صفحة 113-114-116.

ابن خلدون: العبر، طبعة بيروت، الجزء السادس صفحة 470.

الحلل الموشية: نشر الأستاذ علوش: الرباط 1936 صفحة 87-88-89.

ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول صفحة 57.

الناصري: الاستقصاء صفحة 86.

Basset et Terrasse: Sanctuaires et forteresses. Almohades. Hespéris, t. IV, 1924, p.26 - 27 - 28.

(1) شيخ الرؤساء بالأندلس والمستشار الناصح لعبد المؤمن ولابنه من بعده، وقد انتدب لعدة مهمات لما كان يمتد بالمسلح الدولة المهدية، وقد حضر غزوة (وبذة) مع الخليفة أبي يعقوب وهو من الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة. أنظر ص 251 من كتاب (المن بالإمامة).

(2) هو قاضي مدينة اشبيلية من الذين كان يحتذهم أيضاً عبد المؤمن وقد كان في صدر الذين يتحاورن عليه، وقد كان من أهل العلم والنباهة، وكان أحد الوافدين على الخليفة سنة 555 وقد ولي بعده قضاء اشبيلية أبو القاسم الحوفي. توفي في نحو السبعين وخمسمائة. التكملة - المعطار رقم 192.

اشبيلية، وأعيانها المحبين المخلصين لهذا الأمر العزيز، يسهرون طول ليلهم على الأسوار ويثقفون أبواب المدينة بالثقاف طول النهار ويتعوذ الجار من شر الجار، وساء ظن الموحدين - أعانهم الله - بالناس فسجن منهم من اتهم، وأمضى السيف والنكال على من صح عليه أنه غش الأمر وأجرم، وسلم من لازم الطاعة والسلم، ودام ذلك كله حتى طلع الفجر الصادق بالفتوح والبشائر بكل جذل، فجدع أنف الكفر وأرغم بالكتب الواردة عليه بالفتوح المتصلة المتناسقة المشتملة فمنها:

ذكر ورود الكتابين العزيزين المبشرين بالفتوح الماضية والمستقبلة

الواحد منها مؤرخ بالثاني من ذي الحجة من عام أربعة وخمسين بظاهر المهدية[1] يعلم فيه بكل سرور[2] وجذل، ومنال إقبال وأمل والكتاب الثاني، الجامع لجميع أشتات [5] الفتوح والأماني، مبشراً بفتح[3] مدينة المهدية في يوم عاشوراء من عام خمسة وخمسين وخمسمائة، وتاريخه بيوم عاشوراء.

قال الراوية [4]: ولما فتح الله تعالى مدينة المهدية بتيسيره الغريب

(1) منسوبة إلى عبيد الله المهدي الذي بناها على شاطئ، شرقي القيروان سنة 300 (916م) وكانت تسمى جزيرة الفار: وفيها يقول الشاعر ابن حبوس الفاسي في الخليفة الموحدي:

بمطالع الأسد احتط الميمنة بها ... لكنك الأسد الذي الأشعر
بباب حديد وأبراج لسماتية ... تسخر المعقل له في تسخير

البكري: المسالك والممالك ص 29. نشر البارون دوسلان، الجزائر 1857.
الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد طبعة الاسكندرية 1958 ص 117. ابن حماد: أخبار ملوك بني عُبيد وسيرتهم ص 109.

(2) اكتفى ابن صاحب الصلاة بالإشارة فقط إلى موضوع هذه الرسالة وإنها كانت بشرية من غير أن يورد نصها الكامل.

(3) يقتصر أيضاً ابن صاحب الصلاة في الكتاب الثاني على وصف «فصول الكتاب الرفيعة» ومقارنته بأساليب البلاغيين المشهورين. وإذا ما اعتمدنا ما ورد في صفحة 7 فإنه من إنشاء الخليفة. ولا بد من التقدم إلى صفحة 40 للوقوف على مزيد التفصيل لأخبار المهدية.

(4) لم نهتد إلى معرفة اسم راوية ابن صاحب الصلاة وأغلب الظن أنه كان يستقي أخباره في كل

واليمن القريب، ونزل النصارى - أهلكهم الله - عنها، وصفت للإسلام بسعد سيدنا الخليفة الإمام جلس أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه للموحدين أجمعين مجلس التهنئة والشكر لله تعالى على ذلك ودخل إليه الفقيه العلامة أبو محمد المالقي[1] شيخ طلبة الحضر فقبل يده وهنأه على ذلك، فقال الخليفة له رضي الله عنه يا أبا محمد: هل قال أحدٌ في هذا الفتح شيئاً؟ قال: فيه... [2]ابن حبوس[3] قصيداً حسناً أوله: (كامل)

وشُدَّت إليكَ على الرِّياحِ سُروجُ ... أينَ الفِرارُ بأهلِكم ياجوجُ[4]

قال الخليفة: يكتب هذا البيت وأمر له بجائزة.

- مناسبة من الشخص المختص، على أنه ذكر أيضاً اسم الذين حضروا، كتاب محمد منيه رأي (ص 236) ورأي العلامة ابن عزوز ص 302.

(1) هو عبد الله بن محمد بن عيسى الأنصاري المالقي، أخذ في صغره عن أبي الحكم بن برجان، وانتقل إليه بقربه من نظر طالعه من شرف اشبيلية، كان فقيهاً نظاراً خطيباً متوسعاً في حظ من الأدب وافر، وقد نال مركزاً مهماً لدى الخليفة إذ كان أمينه ووزيره وكان شيخ طلبة الحضر عنده. توفي بمراكش سنة 574. ابن الأبار: التكملة كوديرا رقم 1394... المراكشي، المعجب طبعة 1949 ص 200-245.

(2) هنا بياض. التنبكتي: نيل الابتهاج صفحة 134، ولعل الأصل هكذا: «فيه قال ابن حبوس».

(3) هو محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس بالياء الموحدة المخففة. كان يسكن بدرب الصراجين من فاس. كان عالماً وشاعراً مفلقاً يتقدم في ذلك أهل زمانه ولد سنة 500 وتوفي سنة 570.
ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة رقم 1055 طبع كوديرا.
المعجب، طبعة القاهرة 1949 ص 213-214.
Pérès: La poesie - Fès sous les Almoravides et les Almohades Hespéris. T. (XVI) 1934 page 18 - 33.
محمد الفاسي: الشاعر ابن حبوس (مجلة الثقافة المغربية) نونبر - دجنبر 1941 ص 153-162.

(4) بيت من قصيدة نظمت في بجاية، ونعرف منها بيتين أوردهما صفوان بن ادريس:

عصفت بدعوتك الرياح الفيح ... وسطا بأمرك نابل ورشيح
وتسابقت إلى العدو صهوباته ... يشكي بها إلى سده ياجوج

والقصيدة كما نرى خطاب لعبد المؤمن وليست خطاباً لأبي يعقوب يوسف.
انظر صفوان بن ادريس، زاد المسافر، نشر عبد القادر محداد، طبعة بيروت 1939، ص 1، 2، سنة 1934. المجلد 18 ص 32. الجراري، دعوة الحق مارس 1963 ص 36. ثم لا يخفى ما في البيتين من التلميح لتاريخ الاسكندر الأكبر وياجوج وماجوج، المذكور في القرآن السورة 18 آية 90-91. ابن جزي، كتاب التسهيل المجلد الأول، الجزء الثاني ص 194-195.

وفي الكتاب من وصف الفتوح والجدل الممنوع بما أربى على وصف الصاحب بن عباد[1] أو البليغ عبد الحميد[2]، وأطب وطرب النفوس بسجاجات مسرات أعجزت في النثر كتابة أبي الفضل بن العميد[3]. فيا له من كتاب أشبل والنفوس من علل الفتنة تشوق، وأحيى بربيع طيبة الظفر خالفه[4]، من ربيع النصر خلوق، مسرح باتصال فتح إفريقية[5] وطوع [6] العرب ثم ارتدادهم. ثم تيسير الفتح الأعظم في هزيمتهم وغنيمتهم، وتغلغلت فصول الكتاب العزيز في فصوله الرفيعة، وأوصافه البديعة، في آثار الوقائع بالسيوف الحداد، في ذكر الخبيث المخبث جرثومة الضلالة والعناد، الكذوب الطاعة والانقياد، المتسمى بمحرز بن زياد[6]، وأمثاله وأقياله بما أعجز الأسماع، وملأ بالسحر الحلال الرقاع.

وفي آخر الكتاب قطعة شعر أعلنت بقضاء الله تعالى بالبيعة في بلوغ الأوطار، وفتح المشارق، وإتمام مراد الله في غلبة الكفار، والمرتدين الأشقياء

---

(1) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة للدكتور عبد الحليم النجار، طبعة دار المعارف مصر 1961، المصدر السابق جزء أول ص 261.

(2) بروكلمان، المصدر السابق جزء أول ص 260.

(3) بروكلمان، المصدر السابق جزء ثالث ص 119.

(4) هكذا في الأصل، ويظهر أن الصواب خالطها لأن الربيع لفظ مؤنث أو أن هناك لفظة (الذي) محذوفة: الظفر الذي خالطه.

(5) يذكر صاحب الاستبصار - وهو ما يقوله أبو عبيد الله البكري الأندلسي - أن حد إفريقية طولاً من برقة شرقاً إلى مدينة طنجة غرباً، وأن عرضها من البحر إلى الرمال التي هي حاجز بين بلاد إفريقية وبلاد السودان، لكن ياقوت في معجمه يحد إفريقيا من طرابلس الغرب إلى بجاية، ويؤخذ من ابن صاحب الصلاة أن إفريقية تشمل طرابلس الغرب، وهو ما تؤيده المصادر التاريخية القديمة.

الاستبصار ص 111-112، معجم البلدان: طبعة بيروت 1955 أول صفحة 228، المن بالإمامة ص 43 - 300 - 302 جلاء الكرب عن طرابلس الغرب: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق الطاهر الزاوي، ص 58-59.

(6) هو محرز بن زياد الفادغي أو الفاداغي أمير بني علي من بطون رياح ابن خلدون - 6-44 - 332، 336 - 404 . التجاني: الرحلة، ص 341. ابن غلبون: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ص 53.

الفجار، ونيل الغلبة لأولياء الله الموحدين الأبرار، وعدًا بنصر معجل، وفتح قريب في يوم أغر محجل، وهي[1]: (طويل)

وَلَمَّا قَضَيْنَا بِالمَشَارِقِ أَمْرَنَا ... وَتَمَّ مُرَادُ اللهِ فِي كُلِّ مَطْلَبِ
وأشرقتِ الشمسُ المنيرة موهناً[2] ... وأصبح وجهُ الحق غيرَ محجَّبِ
وطُهِّرَ هذا الشَّقْعُ[3] من كل كافرٍ ... وعادَ بها الإسلامُ بعدَ تغيُّبِ
وكُسِّرتِ الصُّلبانُ في كل بيعةٍ ... ونادى منادي الحق في كلِّ مرقبِ
أشرنا بأعناق المطيِّ إليكمُ ... فطارَ بها شأوُ السُّرور بمغربِ[4]
فأبشر أبا حفص[5] بنصرٍ مؤزَّرٍ ... كفيلٍ بما تبغيه في كلِّ مذهبِ
ولا بدَّ من يومٍ أغرَّ محجَّلٍ ... يُسيل دماءَ الكفر في كلِّ مذنبِ
وتَشفى صدورُ المؤمنين بغزوةٍ ... تكون على حكم الحُسام المدرَّبِ
[7] ويغزو بلادَ الروم جيشٌ عرمرمٌ ... تُخُيِّرَ من قيسٍ[6] وأبناءِ يعرُبِ[7]

---

(1) القصيدة - إلا ما اختصرنا ما ورد هنا في صفحة 8 وما في ص الكامل ابن عذاري - من شعر الخليفة عبد المؤمن، وقد كان بالفعل شاعراً. الحلل ص 131.

(2) قرئ في ابن عذاري هكذا (موهنا) الظر ص 23.

(3) يكتب الشقع وأنا عنده بالسين وهي - وإن كانت لغة - لكنها غير مشهورة.

(4) فيه إشارة إلى قول الشاعر:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

(5) هو السيد عمر ولد عبد المؤمن من زوجته صفية بنت أبي عمران، حاكم تلمسان ثم حاكم اشبيلية.

(6) يعني قيس بن عيلان، ويذكر بعض النسابة أن البربر ينحدرون منه، وفي ذلك ينشد عليه البربر لعبيدة بن قيس العقيلي:

أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى ... له عيرمة تلقي عليل المحارب
وقيس قوام الدين في كل بلدة ... وخير معد عند حفظ المناسب
وقيس لنا المجد الذي يشتكى به ... وقيس لنا سيف حديد المضارب

وما ينسب أيضاً ليزيد بن خالد:

أيها السائل عنا أصلنا ... قيس عيلان بنو العز الأول
إن قيساً قيس عيلان هم ... معدن الحق على الخير دلل

لكن المحققين من المؤرخين يعتبرون هذا النسب منكراً من القول، على حد تعبير ابن خلدون.

ابن خلدون 6: 186-187-190-191 . الناصري: الاستقصاء 1: 62-63.

(7) يعني يعرب بن قحطان وقد كان من أعظم ملوك العرب، ويقال إن العرب إنما سميت عرباً به.

تصول به من عصبة الحق مُقشَرٌ   نخيلة(1) ما أبقاه غير مجرِّب
فيدمغ بالصمصام كلَّ مُشاجرٍ   ويقطع بالبرهان كلَّ مُشغِّب
فطوبى لأهل الغرب(2) ملذا يرونه   من النصر والفتح المبين المقرَّب

(الاحتفالات في اشبيلية ببشائر النصر في المهدية)

وكان وصول هذا الكتاب الكريم إلى اشبيلية والأبيات المعجزة المبشرة النيرة، التي تركت ألباب المنافقين متحيرة، في شهر صفر من عام خمسة وخمسين وخمسمائة، فأمر سيدنا الأمير الأجل أبو يعقوب - أمير المؤمنين بعدُ - أن يكتبها الناس والطلبة باشبيلية ويحفظونها ويسردونها على ألسنتهم. وذكر أنها من إنشاء الأمر العزيز فامتثل الناس ذلك، ودعوا إلى الله أن يخلد لأمير المؤمنين الأوامر العزيزة والممالك، وقرئت الرسالة والأبيات الواصلة وتليت، وارتقيت بها ذوائب المنابر، واسمع بها الحاضر والبادي بجميع هذه البشائر، وبث مسراتها في الرعايا والعشاير، وطارت الركبان بأبياتها العذبة المبشرة مطارها إلى الجهات والعساير، وقرعت أخبارها الصادقة، وأنباؤها المتلاحقة، سمع كل كافر، والحمد لله. وأمر الأمير السيد بقرع الطبول(3) على هذه المسار التي استنارت بها المقل وحمدت غايات الكرى، وتمتعت

* وهو أصل عرب اليمن الذين أقاموا بها وتناسلوا.
عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب: 3 ص 1266.
(1) يرجح ابن عذاري: مجملة ما يلقاه غير مجربه وعلى هذا يكون المعنى أن هذا المظفر غير مجرب لكل ما يلقاه.
(2) يعني بالغرب هنا البلاد التي تقع غرب المشارق التي أنجز الله فيها وعده، فتشمل الآن بلاد المغرب والأندلس...
(3) جرت عادة استعمال الطبول عند الموحدين سواء عند البشرى أو الإيذان بالحرب، والحقيقة أنها عادة عرفت منذ أيام المرابطين فقد استعملها يوسف بن تاشفين منذ سنة 454، ويظهر أن الطبول، نقلت في أغلب الظن من افريقيا، وأن الذي يزور دول افريقيا اليوم يمكنه أن يتأكد من هذا الافتراض.
الاستبصار ص - 220 الحلل الموشية ص 41. أشباخ: تاريخ الأندلس ص 103.
الناصري، الاستقصا: - 2 ص 45. دكتور أحمد مختار عبادي: دراسة حول كتاب الحلل الموشية مجلة تطوان عدد 1960 ص 153.

بها الأذان بنعيم [8] البشرى. وأطعم الموحدين والناس كافة وخاصة من أهل إشبيلية والأجناد مدة ثلاثين يوماً، وقرع الطبول مع الأطعام متصل، والبشر مشتمل، والشعراء ينشدون أشعارهم بالتهاني ويتمسون(1) الثلج بصحيح الأماني.

(استشهاد عبد الرحمن بن تيجيت بضواحي قرطبة)

وفي هذه الأيام ورد خبر كارث من قرطبة أن إبراهيم بن همشك(2) صهر ابن مردنيش نازل قرطبة ودمّر زروعها وقطانيها وأن أبا زيد عبد الرحمن بن تيجيت حافظها وشيخها استشهد عليها، وذلك أن ابن همشك لما أقلع من منازلتها وانتساف ما كان بخارجها أكمن بخيله ورجاله على مقربة منها بقرية (الطابة(3)) وهي تقرة، فخرج أبو زيد عبد الرحمن في جملة من فرسانه ليتطلع الحال فخرج عليه الكمين، فقاتل حتى استشهد على مقربة من قرطبة في الموضع المعروف «بالدَّارات(4)». رجع الخبر.

(استنجاد والي اشبيلية بأبيه عبد المؤمن واستعجاله في القدوم)

فجاوب السيد الأمير الأعلى أبو يعقوب، حضرة أبيه الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه على الكتاب العزيز الواصل بما اقتضاه الشكر، واستوجبه من الدعاء والتأميل الأمر، ووصف الفتنة واستغاث إلى الحضرة

(1) هكذا في الأصل: ويتمسون الثلج، وفي البيان المغرب: ويلمون الثلج ص 42. والمعجب نفسه - كدخل وخرب -: المثلث...
(2) إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك، وهمشك جده نصراني أسلم على يد بني هود بسرقسطة، كان في جملة الثوار الذين كانوا يطمحون في انتصاء الموحدين عن الجزيرة، وقد بالغل ابن مردنيش حتى زوّجه بنته ثم اختلفا فيما بعد. وقتله بعض العساكر عبد الله. المراكشي: المعجب، طبعة سلا سنة 1938، نشر محمد الفاسي ص 136. Dozy: Recherches. T. IP. 366 — 68.
(3) الطابة: قرية قريبة من قرطبة، وقد النص يعني بنقل اللفظ هكذا (Atiba).
(4) الدارات: موضع قريب من قرطبة وقد نقل به يعني ما قبله بالسابق (Al - Darat).

العلية أن يستعجل منها النصر، وكان عنده بإشبيلية الأستاذ أبو العباس ابن سيد المالقي(1) فأمره الأمير السيد الأجل [9] المذكور أن يجاوب بشعر على معنى الشعر الواصل، ويذكر حال الفتنة، وبعث بهذا الشعر مع الجواب الذي يشرح فيه أحوال ابن مردنيش والحاج فتنه فقال: (طويل).

خُسر الأمرُ أمرُ الله ليس له ردُّ ... مؤيدهُ أبدٌ ويسمو به مجدُ

وقد وضحت آياته وأياته ... وقد انبعثت رغماً به المنُّ لُبدُ

وما اشتبهت مُذ خُمْ إلا لزائغ ... عقيدته كفرٌ وإقراره جحدُ

لمن يبغ فيها الغيَّ بعد اجتلائه ... فإن حسام الهند فيه له رَصْدُ

وهلي(2) رياح ريحه عصفت بهم ... فعادوا كعاد(3) حين جلّلها الرعدُ

ولم يُنجهم حصنٌ حصينٌ إذا انزووا ... ولم يُنجهم ذاك العديدُ ولا العَدُّ

ولم يجدوا النَّصْر العتيد بزعمهم ... من اللات بل رُدّوا حديثاً كما أُردوا

وكانت سبيل الرُّشْد واضحة لهم ... فما منهم فيها وسيمٌ ولا وَغْدُ

ولا سلكوا فيها سلوك مُعطّلٍ ... ولا اتضحت فيها الشكائمُ والكُبْدُ

ولكنهم مالوا إلى الكفر ميلةً ... فصالت بهم منكم يدٌ ولها الأيدُ

بكم أمير المؤمنين توجّهت ... بنا الرُّغبات الجمّ يحثّها جهدُ

لعلّ عباداً منكم لعبيدكم ... وقرباً لكم منهم يُبدّل به البُعدُ!

فقد عظمهم تابَ من الكفر معضلٌ ... وكانوا بكم ذعراً وآيابه دُرْدُ!

بكم يعصم الله العليّ جميعهم ... بكم تعظم الآمالُ بل يكثرُ الرِّفْدُ

(1) أحد الأدباء الذين عاشوا في البلاط الموحدي، وهو أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي، درس النحو والأدب كثيراً وكان شاعراً كاتباً بليغاً، وقد انتقل من مالقة إلى قرطبة... ثم صار إلى مراكش فاتصل ببني عبد المؤمن وجاوز بعد الستين وخمسمائة، وليس هذا بابن سيد اللص لي 3 ليس هو أحمد الجراوي. انظر ص 311 من (الذيل والتكملة). نفح الطيب: طبعة 1949م، ج 3، ص 246. عباس بن إبراهيم: الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام طبعة فاس 1936 ص 226- 227. محمد المنوني: شاعر الخلافة الموحدية، ص 3.

(2) من القبائل العربية التي زحفت إلى إفريقية وهي فيما ذكره ابن الكلبي رياح ابن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر. ابن خلدون ج6 ص 69-70-71... الناصري: الاستقصا 2:151.

(3) من قبيلة نبي الله هود، وقد أرسل الله عليها ريحاً صرصراً عاتية تدمر كل شيء فيها. والرعد: هلاك. عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، طبعة ثانية ص 69-78.

بكم يعتلي الإسلامُ شرقاً ومغرباً ... فلله فيها دائباً ولك الحمدُ!

ونهض الرقاص(1) بالجواب وبهذا الشعر وطال أمد السُّفر في الورود [10] والصَّدَر، والعدو يلح بالفتنة والضرر، ويستعين بإخوانه النصارى وبالمنافقين أصحابه الأخر، وإشبيلية في مثل الحلقة من الفتن، قد نهل بالغصص ساكنها، وذهل خوفاً من الفتن متحركها وساكنها، وينتظر الفرج من الله - تعالى - ومن عدة منجزة في كتاب، ويستمطر الغيث بأن يرفع الله الغيث بآيات الله المتلوّة في الكتاب، إلى أن منّ الله وصول الجواب من الخليفة أمير المؤمنين - رضي الله عنه - من مضرب محلته المنصورة على مقربة من القسنطينية(2) بتاريخ ربيع الأول من عام خمسة وخمسين وخمسمائة يُعرّف فيه بصحيح الإياب، وما شئ فيه من أمنة حيل الله لهذه الأصقاع، وحماية ذلكم الجناب. وفيه فتح الله قفصة(3) ومخاطبة بني سُلَيم(4) بالتوحيد،

(1) الرقاص: لفظ معروف منذ القدم إلى الآن في المغرب، ويطلق على الشخص الذي يقوم بالبريد، والرقاصة أمين يسهر على الفرقة، وقد كانت تسند لرجال أقوياء صابرين على الركض والعدو، وكان فيهم الرقاص العادي، ورقاص الشرط، وهذا هو ساعي البريد المستعجل بنقله بين المدن على الخيل والبغال بتناوب السرعة، وكان يعد في كل محطة حصاناً مسرجاً يمتطيه إلى المحطة التي تليها... وقد حددت بعض الرسائل الموحدية منذ سنة 543 واجبات الرقاصة تحديداً دقيقاً حتى لا يسيئوا استعمال قوتهم، وهذا ورد في ظهير لعبد المؤمن الموحدي مؤرخ في شهر ربيع الأول سنة 543 بهذا الشأن ما يلي: «... وتخيروا لرسائلكم ارسالا، وانتقوا من أهل القدرة على ذلك والثقة رجالا واعطوا إليهم زاداً يقوم بهم في المضي والانصراف، ويقطع شأنهم في التكاليف والاخلاق، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد، معلومة الأمد لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم ويوزعوها على مسافات مراحلهم ويطردوهم من تكاليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة...» انظر ابن القطان، نظم الجمان، نشر الدكتور محمود علي مكي بمساعدة المعهد الجامعي للبحث العلمي، ص 151- 152.

(2) القسنطينية: وتسمى قسنطينة، مدينة جبلية، تقع جنوب مدينة سكيكدة، وشرقي مدينة بجاية، وهي قديمة حصينة لا يعرف بإفريقية أمنع منها...
الاستبصار: ص 127-165-168.

(3) تقع قفصة غربي مدينة صفاقس الساحلية، وشمال قابس وجنوب القيروان وهي مدينة كبيرة قديمة أزلية كان لها سور حصين من صخر جليل بأحكم صناعة، وكان اسمها مدينة الحية.
الاستبصار: ص 150-151-152.

(4) بنو سليم: بطن متسع من أوسع بطون مضر وأكثرهم جموعاً وكانت منازلهم بنجد وهم بنو

وركب الرقاص بالجواب المذكور مركباً من مدينة بجاية(1) سابحاً في البحر في طريق غير يَبَس، ويسر الله له ـ بسعد الأمر العزيز ـ أن ساعدت الريح بنفس، وسار أسرع من كوكب إذا خنس، وخرج في (ألمرية(2)) مرساه، وحمد سُبْحه في غدوه وممساه، ووصل إشبيلية وغرناطة(3) في أقرب تاريخ دون تعب في مسراه، وفي الكتاب الكريم الواصل في طيه مدرج نصّه هنا(4) مع الشعر المجاوب به على شعر الأستاذ ابن سيد المتقدم:

[11] بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده (5)، أعزكم الله، وجعلنا وإياكم من الشاكرين لنعماه، إن من الواجب

---

* سليم بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان بن مضر، وفيهم شعوب كثيرة. ابن خلدون: 6-141-142-143-144-145. الاستقصاء 146:2.

(1) بجاية: مدينة عظيمة على ضفة البحر المتوسط في الشمال الغربي من القسطنطينية وهي عتيقة من بناء ملوك صنهاجة، بناها المنصور بن حماد على إثر عيث العرب في افريقية والقيروان وقد سماها المنصورية، وأحاط بها الجبال والبحر منها في ثلاث جهات، فما طريق إلى جهة المغرب يسمى بالفحص... الاستبصار ص 128 - 129. ابن خلدون 6: 357-358. وفي علمائها في المائة السابعة ألف الغبريني كتابه عنوان الدراية.

(2) المرية: (Al Meria) تقع على شاطئ المتوسط جنوب شرقي غرناطة، وفيها ألف أبو جعفر بن عمالة (مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية) وفي فاجعتها ألف أبو المطرف بن عميرة.

(3) غرناطة: (Granada) يقال غرناطة كما يقال اغرناطة، وكلاهما أعجمي، تقع جنوب مدينة جيان، وشمال مدينة مالقة، فيها يقول وزيرها الشاعر ابن زمرك:

مشتاقة لساجعها المسكة ... تعلق بالمرقب المنيف

كأنها قرقه ميليكة ... كرسيها جنة العريف

ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة ـ المجلد الأول نشر محمد عبد الله عنان ص 99.

(4) يلاحظ من الآن أن جميع الرسائل التي بعثتها (كتاب المن بالإمامة) لم يذكرها الأستاذ ليفي بروفنصال في مجموع رسائل موحدية، الذي نشره برباط الفتح سنة 1941.

(5) ستري في صفحة 90 أن الموحدين اتفقوا على وضع علامة والحمد لله وحده منذ رمضان 561، وذلك ـ على ما يقول ابن خلدون ـ اقتداء بالإمام المهدي إذ وجدوها في بعض مخاطباته ولعل إثبات العلامة هنا ـ ونحن في سنة ـ 555 كان تمهيداً لذلك الاتفاق ـ وهنا قالت الأديبة الغرناطية حفصة الركونية تخاطب عبد المؤمن:

يا سيد الناس يا من ... يؤمل الناس رفده

امنن علي بطرس ... يكون للدهر عده

تخط يمناك فيه ... (الحمد لله وحده) *

الختم، والمفترض الجزم، على من لزمه شكر النعم لمسديها ممهد الآلاء لمهديها أن يقدر أولاً النعمة بكمالها، ويعمّر خاطره بتفصيل إجمالها، ويحضر في ذهنه بهجة جمالها، ويسرح عين اعتباره في مناقل أحوالها، حتى يفيض على باطنه نور إشراقها، وتهمي بأباريح عقوله بهاطل غيداقها، وتتبارى له نفحات الشكر في ميدان استباقها، وهو الفتح الذي يبرز في الأعجام والأعراب، وأضحى نسيج وحده في الأشباه والأتراب، وعظم عن مثله الزمن السالف، وخلت عن وصف نظير له الكتب والصحائف، تأكد بمحله وجوه الاعتبار، ولا يزال موقعه يعظم بزيادة الاستجلاء والاستبصار (1)، وقد أبرزت لكم صوره، وتليت عليكم آياته وسوره، ووراء ذلك من تفاصيله معقلات لا تنتهي إليها الأوصاف، وغايات لا تحيط ببعضها الأكناف، فاجعلوا لأنفسكم حظاً من الاعتمال في وزنه لميزانه، وقدره على حقيقة كنهه وكيانه، واعلموا أن هذه الجمرة التي أطفأ الله تعالى لهيبها، والجمهرة التي أبادها الله وأذهبها، وقطع بحبله القوي وسببه المتين حولها ومنتهيها، هي شوكة الأمة التي لم تزل [12] للأمم صائلة بنيرانها، والجن والأنس مستعيذين من شيطانها، ومردة كل طائفة متحيرة من تمردها وطغيانها، قد دوّخت الملوك والممالك، واستخفت المسارح والمسالك، واقتحمت بيأسها المتالف والمهالك، ومرت عليها قرون لم يهض لها جناح، ولا ريع لها صباح، ولا قارنها في مطالبها القوية إنجاح، حتى ظنت أن الحتوف تهابها، وأمر الله لا يطرقها ولا ينتابها، اغتراراً بعددها وعديدها، وثقة بأن الأيام لا تنتقل فيهم عن معهودها، وقد خبأ الله لأوليائه الموحدين من الفتح فيهم صنعاً اختصهم به من بين الأنام، وأجراه عدة لهم

---

* ابن خلدون: العبر: سادس 498. عبد الله كنون ـ العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين، ترجمة محمد مولاي الحسن تطوان ص 34.

Luis de Giacomo: une poétesse Andalouse du temps des Almohades Hespéris TXXXIV - 1947, P. 49.

(1) أورد ابن عذاري بعض الرسالة معتذراً عن ذكر باقيها للاختصار، وقد ساقها قبل التاريخ الذي أوردها فيه ابن صاحب الصلاة، أي أنه ذكرها في أحداث سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة. ابن عذاري: المخطوط ص 21.

في مأثور كلام نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام [1]. فلما حقت عليهم كلمة عذابه، وأراد الله إنفاذ حكمه فيهم بما تقدم من أسبابه. (طويل).

تَتِمُّ لأهل الحقِّ نيلُ مُرادِهم ... وطاب لهم فيها بما يرومونه الوِرْدُ

ويُسِّرت الأسبابُ فاختيرت المُنى ... وأُحكِمتِ الآمالُ فانتقض الجَحْدُ

ودُمِّر رأيٌ فانثنت عزماته ... على حُكمِ ما قد أُحكِمت ضربةُ الهِنْدُ

فسار بنصر الله جيشٌ عرمرمٌ ... يفوزُ به سعْدٌ ويحدو به مَجْدُ

بكلِّ سبط الشأوِ منقبض الشَّا ... يصولُ عليه في الوغى أسدٌ وَرْدُ

شُرواه، ورياحُ النَّصر تحدوُ بينهم ... فأضحت رياحٌ ما لها منهم حَرْدُ

بضرب يزيل الهام عن سكناته ... وطعن شتيتات القلوب به مَسْرَدُ

[13] شفى كلَّ صدرٍ نوَّر الله قلبه ... والنفي صُدوراً ما لها بالهُدى عَهْدُ

وطُهِّرت الآفاقُ من كلِّ كافرٍ ... فحصحص حقُّ الله واستحكم العَقْدُ

ولما طغت جهلاً رياحٌ وصرصرت ... دهتها بنصر الله داهيةٌ إدُّ

فلم تُغنِ عنها اللاتُ شيئاً ولا حمى ... نفوسهم عنا سُواعٌ، ولا وَدُّ

وقد مُزِّقوا في الأرض كلَّ ممزَّقٍ ... فمن فاته قدٌّ أحاط به قِدُّ!

وهذا هو الفتحُ الذي بكماله ... تكامل أمرُ الله وانجزَ الوَعْدُ

به تفتح الدنيا به يبلغ المنى ... به يسجع العاصي به يقرب البُعْدُ

لقد جلَّ قدراً أن يحيط بوصفه ... لسانٌ وأن يُحصي محاسنَه عَدُّ

ولله سرٌّ فيه لا بدَّ ينجلي ... بآثاره في كلِّ مفتتحٍ بَعْدُ

ستلقى بلادُ الرُّوم منه حتوفها ... ويخشى أُولي الإلحاد من ذكره جُهْدُ

وما كان هذا الغزو إلا من اجله ... فلمّا تجلّى سُحْبُه كَمُلَ القصدُ

(1) يقصد دون شك الحديث الشريف: «لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله» وقد تضافرت روايات المؤرخين على الإشادة بشهامة الأفارقة وإقدامهم، فقد روي أيضا عن الرسول (ص) أنه «ينقطع الجهاد من جميع الجهات ولا يبقى إلا ببلاد افريقية...». والحديث أخرجه مسلم في صحيحه وعبد الواحد المراكشي في المعجب وطريقه عن سعد بن أبي وقاص مرفوعا بلفظ «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة». كتاب أعز ما يطلب نشر جولدزيهر سنة 1903. الجزائر صفحة 209. الاستبصار 112.

وقد صُرفت نحو المغارب عزمةٌ ... يبين لها في كلِّ ناحيةٍ رُشْدُ

معوَّدةٌ ألا تُنهنهَ بمطلبٍ ... فيُلفى له من دونها أبداً بُدُّ

وجِدٌّ لأهل الحقِّ أرْبٌ معجَّلٌ ... فلله ذاك الرأيُ والمذهبُ الجِدُّ

وحاجاتهم بالشَّرق قد قُضيت لهم ... فآمالُهم نحوَ المغارب تشتدُّ

إلى الأفق الغربي ضُمَّرنا صدورها ... خفافاً كما طارت بجرعائها الرُّبْدُ

فيا معشرَ الأشياخ من كلِّ طالبٍ ... ومن حافظٍ للذِّكرِ ألفاظه سَرْدُ

نبشركم أنا اعتمدنا بأمركم ... فلبّتكم منا المسوَّمةُ الجُرْدُ

ونقتخبنا من خالص العُرْب معشرٌ ... أتوا فما ذَدُّوا ونابوا فما ارتدُّوا!

[14] رأوا في ذويهم غيرةً فتنقلوا ... وكان لهم في غيِّ غيرهم رُشْدُ

سنغزو بلاد الرُّوم منهم عصائبٌ ... وتحمي حمى التَّوحيد من خيلهم جُنْدُ

تطير لأهل الحرب منا بمزونةٍ ... لقد جلَّ قدراً أن يُحيط به حَدُّ

جيوش بنصر الله تهمي عليكمُ ... بروقٌ بها تخفى، ويزهى بها نَجْدُ

ويشجي بمرآها الأعادي كأنما ... عليكم بها صمُّ الشوامخ تنهدُّ

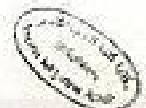
ستعلم أرضُ الروم أيُّ فوارسٍ ... على ظهرها منهم إذا وقد الوَقْدُ

وأيُّ رجالٍ للحروب إذا بدت ... أسود شرى يخشى ترائبها الأُسْدُ!

وإنا وإياهم لحشمٌ علائنا ... لهم وكلام الوحي ليس له ردّ!

وإنا لنرجو الله في كلِّ حالةٍ ... ليوسعنا فضلاً له الشُّكْرُ والحَمْدُ

وهذه الفتوح التي تفتحت لها السماء، وأشرقت بأنوارها دياجير الظلماء، إنما ضُلي بنيران سيوفها، ودارت أرحية حتوفها، على الرياحين ومن انضاف إليهم من الذين خلعوا عن أعناقهم ربقة الإيمان، ونبذوا وراء ظهورهم أسباب الأمان، وآثروا ناعق الشيطان، على داعي الرحمن، وأما سائر الأعراب فالرجاء فيهم متمكِّن، وطريق إحدى الخطتين لهم متبيِّن، والقصد إليهم بحسب نفيرهم أو نفورهم متعيِّن، لا محيص لهم عن إحدى السبيلين، ولا بدَّ لهم من ركوب إحدى الطريقتين، فأما من ظلم نفسه، واعتزل الحق وأهله، فسيذوق من العذاب الأدنى مراً، ثم يُرد إلى ربه فيعذبه عذاباً [15] نكراً، وأما



من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يُسراً. الوعد بفتحهم وملكهم سابق، وخبر الوحي لا محالة صادق، والنظر في أمرهم متدارك متلاحق، والعمل على شاكلة الصواب بحسب ما يكون منهم متناسق. فاستبشروا وفقكم الله لما تستقبلونه من المواهب الجسمية، والفتوح العميمة، فإنها لهذه التي بين اليد - وإن عظم خطرها، وجلّ في النفوس أثرها - بمنزلة الجملة للعنوان، أو الروح من الجثمان والله تعالى يجعلنا وإياكم ممّن شكر النعمه، وآثر العمل الصالح وقدمه بمنه والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

(وصول جواب عبد المؤمن لابنه)

وعند وصول المدرج وهذا الشعر المبشر انشرحت صدور الموحدين، وتحققوا نصر الله وفتحه القريب بأوفى اليقين، وقرئ على المنابر، وتكررت المسارّ في الرعايا والعشاير، وانتسخ الناس والطلبة والموحدون والعامة نُسخاً من الشعر المبشر المدرج المذكور فحفظوه، وصانوه وحفظوه ودوّنوه، واستقبلت السيد الأجل المعظم أبا يعقوب - رضي الله عنه - وجميع الموحدين - أعانهم الله - بإشبيلية وأنظارها هذه البشائر بخيرها، وجليت لديه محاسن صورها، وتليت على التمام والكمال آيات سورها وعرضت [16] على الأفكار والبصائر أشتات غررها، واتخذ الجميع التحدث ببركاتها أسمارهم وذهبوا إلى النزهة[1] في أنفسهم سرحة أبهجت بها أزهارهم، وأيقنوا أمنهم من المخاوف وقرارهم، ثم ترادف الكتاب العزيز الثاني لهذا المدرج من أحواز «بجاية» مبشراً بتمادي السير والانصراف، وقرع الظنابيب[2] للصراخ والغوث

(1) هذا اللفظ يقرب كثيراً إلى كلمة: النزهة.

(2) جمع ظنبوب حرف الساق، يقال قرع لذلك الأمر ظنبوبه: تهيأ له، قال سلامة ابن جندل:
(كنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الظنابيب)
«لسان العرب»

بالانعطاف، فارتدفت المسار الموذنة ببسطة الأرجاء والأكناف.

ولما وصل تلمسان[1] أوقع بوزيره عبد السلام الكومي[2] ثم تلى أثر ذلك الأمر بناء[3] جبل طارق على ما أذكره.

(1) تلمسان تقع في الشمال الشرقي من مدينة وجدة، وهي مدينة أزلية عظيمة فيها آثار كثيرة، كانت دار مملكة زناتة. هذا ومن الغريب أن لا يخبر ابن صاحب الصلاة شدينة وصلة مع أنها كانت طريق القار والصادر من بلاد المشرق إلى المغرب وسجلماسة وغيرها. ولعل ما استهدفت إليه من غريب منشر كان من بواعث عدم التصريح عليها. وفي رجال تلمسان ألف ابن أبي مريم كتاب «البستان». . . الاستبصار ص 176-177.

(2) كان عبد السلام من أقرب الناس إلى الخليفة بعد مقتل الوزير ابن عطية، وقد كانت له مصاهرة مع الأسرة المالكة حيث أن والد عبد المؤمن تزوج من أم عبد السلام وكانت له معها بنت اسمها (بيتة) وعلى هذه القرابة كان يعتمد في «تصرفاته» الأمر الذي استوجب الإيقاع به بعد فتح المهدية والوصول إلى تلمسان بطريقة مذكورة - وهو في السجن - مسهلاً أهلكه فمات وحتى لم يبق فيه إلا عين بناء، على حد تعبير ابن صاحب الصلاة. انظر ورقة 43 - 45 من المن بالإمامة. (المخطوط)

(3) يفهم من هذا النص أن الأمر ببناء جبل طارق تم بعد الرجوع من المهدية وبعد الوصول إلى تلمسان والإيقاع بالوزير عبد السلام الكومي وذلك في الرسالة المؤرخة بالتاسع من ربيع الأول عام خمسة وخمسين وخمسمائة على ما يأتي قريباً، بيد أن هناك رسالة موحدية - نقل الأستاذ بروفنصال عنها أنها من إنشاء أبي جعفر بن عطية الثاني سنة ـــ 553 مكتوبة في العشرين من ذي القعدة سنة أربع وخمسين وخمسمائة تفيد أن الأمر المشار إليه ورد الغرناطة من ظاهر المهدية بعد فتح المهدية، ونذكر أن الرية انصرفت إلى «اختطاط مدينة حصينة بجبل طارق» والجمع بين رواية ابن صاحب الصلاة والرسالة الموجودة تعتقد أنه كانت هناك رسالتان متلاحقتان في معنى واحد، إحداهما صدرت أواخر سنة 554، والثانية مؤرخة أوائل 555. وعلى ذكر الرسالتين نرجح أن منشئها أحد شخصين إما ابن الرخي أو الثاني فقد كانا معاً منشئين في هذه الفترة. هذا وغير صحيح أن الأمر بالبناء صادر من أحد عقلاء بني عبد المؤمن ولكنه كما يتأكد كان أولاً وثانياً من عبد المؤمن نفسه. وبهذا تكون رواية الحميري في الروض المعطار محتاجاً إلى شيء من التحرير والتحليل. ليفي بروفنصال: رسائل موحدية ص 95. الحميري: الروض المعطار نشر وترجمة بروفنصال ص 121.

C. F. Seybold Encyclopédie de L'Islam Tome II: Gibraltar p. 179.

(ذكر الأمر العزيز في الكتاب الكريم، الواصل بما ألهم الله تعالى به الخواطر، ونوّر له الضمائر، ببناء مدينة كبرى[1] في جبل طارق ومؤرخ بالتاسع من ربيع الأول عام خمسة وخمسين وخمسمائة)

ووصل الأمر العزيز ببناء مدينة كبرى بـأكل (؟) بـإذن الله تعالى ومعونته من نـاشئها من المدن والقرى بـالجبل الميمـون القديم[2] البركة على جزيرة الأندلس السامق الشامخ[3]: جبل طارق المفتتح منه دانيها وقاصيها وطائعها وعاصيها، تكون هذه المدينة منزلاً للأمر عند إجازة العساكر المنصورة ومحلاً[4] ريثما تتقدّم الرايات المظفرة والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم [17]

(1) يظهر من النص «كبرى» وأنه كانت بالجبل مدينة سابقة لكنها لم تكن «كبرى» وقد ذكر ابن جزي، مسجل رحلات ابن بطوطة أنه شاهد بقايا السور الذي بناه طارق وأنها كانت تحمل اسم «سور العرب» ثم ذكر أيضاً أنه كان هنالك برج صغير قبل مجيء أبي الحسن المريني إلى الجبل وإن هذا البرج بني بأحجار الجاهلية إلا أنه لم يذكر على هذا البرج وأثر عربي أو أثر موحدي، وإذا ذكرنا إلى التقدير الأخير، فإن ما استهدف له الجبل من تغييرات جوهرية يعطنا نعتقد أنه لم يبق به من آثار طارق ما يستحق الذكر، وقد كان في الإمكان أن تتبين من خلية الأمر أن النقوش العربية التي كانت بالجبل احتفظت بهيئتها، فلقد كان هناك نقشان الأول على الباب الحربي للقصبة، والثاني على جدار مبني صغير قريب من «القلعة الحرة» لكن هذه النقوش بين محطم القراءة ودون ملامح خالع، وفيهما ما يحمل القصيد أمير المسلمين وفيهما ما يحمل عبارة «الملك لله» الباقية. رحلة ابن بطوطة ترجمة Sanguinetti. Defremery المجلد الرابع ص 356. الاستقصا الجزء 3، ص 122.
Norris: The Early Islamic Settlement in Gibraltar - (Reprinted from the journal of the Royal Anthropological Institute vol 90 part 2 1960 page 40. 45).

(2) يشير إلى أنه منه كان فتح بلاد الأندلس لأول مرة من قبل طارق بن زياد.
(3) يبلغ علو جبل طارق عن سطح البحر 425 متراً.

La Grande Encyclopédie To 18 page 999.

(4) صريح جداً في الباعث الذي جعل عبد المؤمن يقدم على بناء هذه المدينة في الجبل، وقد كان الموحدون فعلاً أول من أدرك الأهمية الكبرى للجبل كموقع حربي هام للاحتفاظ ببلاد «الروم» وضبط الصلة بين المغرب والأندلس.

وكان في الكتاب الكريم أمر جـزم إلى السيد الأجل أبي سعيد عثمان[1] ابن الخليفة أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ بالمشي من غرناطة بنفسه وأصحابه وجملة عسكره إلى جبل طارق المذكور والاجتماع فيه مع الطلبة الذين بإشبيلية، للالتقاء والاجتماع فيه بالشيخ الأجل أبي حفص[2] إن أمكنه[3]، وبأبي اسحق براز بن محمد[4]، وبالحاج يعيش[5] وبالقائد عبد الله بن خيار الجياني[6] والمشاورة معهم، والتراوض حيث يكون البناء المذكور المأمور به من الجبل وأمره في الكتاب الكريم وكذلك للسيد الأجل أبي يعقوب بإشبيلية

(1) أبو سعيد عثمان والي غرناطة أحد أبناء عبد المؤمن الثمانية عشر، من الذين اتفقت عليهم رواية ابن صاحب الصلاة، وعبد الواحد المراكشي، وابن أبي زرع.
(2) هو أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي من أبرز خاصة المهدي بن تومرت، وقد خصه بقيادة كتيبة الدرقة (Adarga) وإليه يرجع الفضل في كثير من مراكز الدولة الموحدية واستقرار سلطانها، وهو بطل موقعة البسيطة سنة 588 ربما(؟) الملوك الصنهاجيين أصحاب تونس وإفريقيا، توفي عند منصرفه من غزوة في طريقه من رباط الفتح من سلا سنة 571 وبها دفن.
البيذق: أخبار المهدي 32-33. ابن صاحب الصلاة: 384. ابن عذاري: البيان المغرب ص 101. ابن أبي زرع: الأنيس ثان ص 133. الاستقصا 2:77-99-100.
(3) ورد في نص الرسالة الموحدية: «وقد خاطبنا الشيخ الأجل أبا حفص ـ أعزه الله ـ ليصل إلى ذلك المكان إن أمكن له...» وهو يدل على المركز الذي كان يتمتع به الشيخ أبو حفص حيث أنه لم يؤمر بالالتحاق بالجبل إلا إذا كان ذلك لا يزعجه... بروفنصال: رسائل موحدية ص 98.
(4) الشيخ أبو اسحاق هذا ورد ذكره في «الرسالة الموحدية» مرتين، وقد توفي متأثراً بعلة النقرس La goutte عام 559. بروفنصال: رسائل موحدية ص 97 - 98. ابن صاحب الصلاة ص 65.
(5) الحاج يعيش المالقي من ألمع وأشهر المهندسين الذين كان يحتجهم على عهد الموحدين وقد كانوا يتجاوزون إليه في كل المشاريع الهامة، فهو الذي صنع بأمر من عبد المؤمن بمدينة مراكش مقصورة المسجد الجامع التي حيّر وصفها سائر المهتمين بالآثار الموحدية وخاصة منهم الذين يعنون بالنهضة الميكانيكية على ذلك العهد، فلقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة وتنقبض لدخوله... وهو الذي قام سنة 567 في إشبيلية بعملية تسريب الماء لسقي البحيرة الملكية، وتوصيله إلى داخل إشبيلية من قلعة جابر، كما قام ببناء عزلات الماء داخل المدينة، مع كان الله يتوزع على مختلف أحيائها. الحلل الموشية نشر الأستاذ علوش 1936 ص 119 - 120. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 323 - 324.
(6) يكنى أبا محمد، وينحدر في عداد الثائرين، وقد كان مشرفاً على مدينة فاس أيام اللمتونيين، وكان الصحراوي واليها، لكنه ـ وقد شب بينهما خصام ـ ثأر على الصحراوي في ليلة العروبة بامرأة من قبيله، ودعا للموحدين سنة 540. البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص 146. ابن عذاري: ص 19 - 20.

أن يستنفروا جميع الفعلة من البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء من جميع بلاد الأندلس، التي تحت نظر الموحدين - أعانهم الله - ويستعجلوا بالوصول إلى الجبل لامتثال الأمر الكريم، فاحتفل النظر واحتفل البشر لذلك من الأجناد والقواد والكتاب وأهل الحساب لتقييد الأشغال، والإنفاق على الأعمال، والتعجيل في ذلك والكمال.

وتقدم السيد الأجل أبو سعيد على ما أمر به من موضعه بغرناطة إليه، ومشى من اشبيلية العريف أحمد بن باسه[1] بجميع البنائين ومن يشاكلهم، ومن يعاونهم من الرجال وعمالهم، ونزلوا فيه وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع الجمع عليه والاتفاق من نواحيه، بسيف البحر مما يلاصقه ويليه، [18] وزادت آمال أهل الأندلس إلى ما تقدم إليهم من الأمل، وتحققوا اليمن والسعد والفتح في بنيان هذا الجبل، وكان من اشتغال السيد الأعلى أبي يعقوب رضي الله عنه باشبيلية في إزعاج الفعلة والرجال للبناء المذكور.

وأحكم البناؤون فيه بناء من القصور المشيدة والديار[2]، واخترعوا في أسسها طيقاناً والحنايا لتعتدل بها الأرض مبنية بالحجر المنجور والجيار، مما هو عجيب في الآثار، وكما قيل: والملوك تبني على قدرها من الأقدار[3] وبما

(1) يعتبر ابن باسه من أبرز الخبراء الذين استخدمهم الموحدون في مشاريعهم المعمارية الكبرى، وقد استفاد من خبرته بالإضافة إلى ما اشتهر به الحاج الفراز بصقلية وقرطبة منذ العصور الأولى، وعند صدور الأمر ببناء القصور الملكية باشبيلية، وقد كان شيخ العرفاء، وهو الذي قام بتشييد جامع اشبيلية الأعظم وأخر البناء، وما تزال هذه الأسرة معروفة إلى الآن بالمغرب وإليها تنتسب فيما سمعت أسرة باسة العريقة بالمغرب ناحية تادلة ويوجد منها إلى الآن عدة أناس بعض البنائين الماهرين يستخدمهم القصر الملكي في بنائه ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 46-322-330.

أنظر: P.J. Renoud. Notes critiques d'histoire des sciences chez les musulmans-I. Les Ibn Basso. p 1 HESPERIS. Tome XXIV Année 1937.

(2) تنص بعض المصادر على أنه بالإضافة إلى القصر الخاص الذي شيد للخليفة عبد المؤمن شيدت قصور أخرى في جوار قصر الخليفة الملاصقة به، وأنه كذلك أقطع أعيان وجوه البلاد دياراً ومنازل في الجبل بالإضافة إلى الجامع الذي تقام به الصلوات. الحميري: الروض المعطار ص 121.

(3) تشبيه لقول الناصر الرواني على الزهراء:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان *

لو عاينها المتقدمون من آل عاد بن[1] شداد، لأقروا لهم بالعجز وفضلوهم على الذين بنوا القصر من سنداد[2].

وجبل طارق هذا شريف البقعة، كريم التربة، عظيم المنعة، باسق مع أعنان السماء، يكاد في المسامتة إلى الجوزاء[3]، وكلما استودع في أرضه من البطحة المنبسطة من بعضه، نما وزكا وفضل، وجل والتمر عن قرب لغرسه وأكمل،- واستقل من جميع الفواكه كشجر التين والعنب والتفاح والكمثري والسفرجل والمشمش والاجاص[4] والأترج والموز وغير ذلك على ضيق ضفته

* إن البناء إذا تعاظم قدره   أضحى يدل على عظيم الشان

المقري: نفح الطيب 2/62.

(1) كذا في نص المخطوط: وعاد بن شداد، وهو دون شك سبق قلم من الناسخ والصواب شداد بن عاد، ويذكر المفسرون من أمثال الطبري والثعالبي والزمخشري أنه كان لعاد من عوص ابنان هما شديد وشداد، وأن الملك خلص لشداد من بعد ودانت له الملوك وسمع وصف الجنة فقال: «لأبنين مثلها» فبنى إرم في صحاري عدن، وإنها كانت مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة. ومعلوم موقف العلامة ابن خلدون من أساطير إرم ذات العماد. ابن خلدون، 1/20-21-22. ابن جزي: التفسير جزء 4 ص 197. النجار: قصص الأنبياء: ص 70-71.

(2) سنداد نهر فيما بين الحيرة إلى الأبلة، به كانت منازل اياد، وكان عليه قصر عظيم تحج العرب إليه وهو القصر الذي ذكره الأسود بن يعفر في شعره:

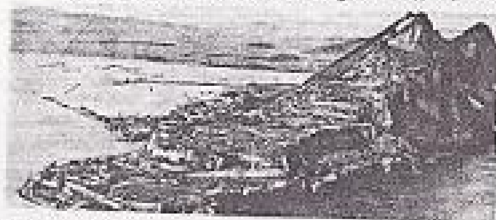
ماذا أومل بعد آل محرق   تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق   والقصر ذي الشرفات من سنداد

ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت 1957 مجلد ثالث ص 266.

(3) الجوزاء: نجم يعترض في جوز السماء، ويظهر أن هنا كلمة سقطت للناسخ والأصل: يكاد في المسامتة يصل إلى الجوزاء، وقد علمنا أن ارتفاعه عن سطح البحر يصل إلى 425م.

(4) يذكر ابن صاحب الصلاة الاجاص على أنه شيء غير الكمثري، وذلك في موضع آخر من الكتاب أن الاجاص فيه ضروب، منها النوع المعروف عند الأطباء بالكمثري، ومنها الاجاص المعروف بالعطر، والنوع المعروف عند أهل بلنسية بالأزرد، وقد ذكر ابن العشاء أن الاجاص هو المعروف بالمغرب بعين البقر، ويبدو أن الإجاص هنا يقصد به العنبر الذي هو تعريب لكلمة عين البقر، وقد ذكرت بعض المصادر أن الإجاص عند الأطباء يشمل البرقوق. ابن صاحب الصلاة ص 322، ابن العوام، كتاب الفلاحة: الجزء 1 ص 302، مفردة ص 260-263. أنظر ص 181 من كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس لمؤلف مجهول، نشر ويشي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 9-10 السنة 1961-1962.

المشيدة كالجبل، المستمدة من الطل والوبل، وماؤه عذب[1] زلال، مروق سلسال، وكان الحاج يعيش المهندس مدة إقامته للبناء على ما ذكرته فيه قد صنع في أعلاه رحى تطحن الأقوات بالريح[2] عاينها الثقات مدة البناء المذكور، فلما رجع إلى مراكش[3] [19] عند إكمال ما أمر به فسدت الرحى لعدم الاعتناء بها. واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور



(1) تحدثت بعض المصادر العربية عن تزويد الجبل بالمياه الجارية الكافية، وفيها ما يذكر أن المهندسين حفروا في سفح الجبل مواضع تنبع فيها المياه. ورجع بعضها إلى بعض حتى سال منها جدول عم المدينة كلها، من أعذب الماء وأطيبه، يصب في صحن عظيم اتخذ له وأجري إلى الجنات المغترسة بالجبل... الخ. الادريسي: نزهة المشتاق ص 177. الحميري: الروض المعطار ص 121.

(2) قد يكون هذا هو المصدر الوحيد الذي ينص على وجود رحى ريح تطحن الأقوات بجبل طارق في تلك العصور القديمة وقد تحدث عن هذا الرحى (De Gayangos) دو كاينكوس نقلا عن ابن صاحب الصلاة كما تحدث عن رحى الريح هذه: (Balbas) بالباس نقلا كذلك، ويضيف الأستاذ توريس... وقد صح أن أقدم رحى ريح أحدثت في هذا ترجع للقرن الثاني، وأن أقدم رحى ريح توجد بالجهة الغربية هي... فيما نعلم... هذه.

Grande Encyclopédie Tome 27 P. 823 Al Maqqari Adpt Pascual de Gayangos T II. P. 314-315. Torres Balbas (Al Andalus) Vol VII Gibraltar llave y Guarda de Espana 1: 1942 P. 174.

(3) مراكش مدينة عظيمة تقع جنوب المغرب أسست سنة ثلاث وستين وأربعمائة 463، وقد اتخذها المرابطون ثم المصامدة من بعدهم كرسياً للمملكة نظراً لقربها من صحراء لمتونة وجبال المصامدة.

الاستبصار ص 208-209-210. المراكشي: المعجب، نشر القاهرة 1936 ص 221-222. ابن خلدون سادس ص 377. العباس بن ابراهيم: تاريخ مراكش (أول) ص 63.

Provençal: la Fondation de Marrakech (Melange d'Histoire et d'archéologie de l'occident Musulman. Tome II. Page 117.

بناء السور[1] والباب المسمى بباب الفتوح[2] في الفرجة التي كانت يدخل منها إلى الجبل بين البحر المحدق به من كلا جانبيه، فجاء فرداً في المعاقل التي لا يتمكن لطامع فيه طمع، ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع من بر ولا بحر، إذ هو معقل أشيب، ومنزل للسماك متسبب.

واشتغل السيد الأعلى أبو يعقوب رضي الله عنه بإشبيلية مدة شهور في هذه الأوامر العلية، النافذة من الحضرة الإمامية، ولازم فيها الاجتهاد، وقاوم في ذلك الجهاد، يطلع مع الساعات مبلغ أحوال المباني، وكيف التعاون في جميع المعاني، والفَعَلة يجتهدون في أعمالهم، ويتصحون في الأشغال لقدر طاقتهم من أحوالهم، فظهر البناء في أقرب مدة، وأبدى العامل عليه جهده، وأظهر نصحه بأعظم قدرة ما عنده.

والسيد الأعلى مع ذلك يرتقب وصول الأخبار بقرب الخليفة من هذه الأقطار، فوصله الرقاص بالتحقيق، من إيابه والتصديق، أنه في أحواز

(1) كثر الحديث عن مصير هذا السور الموحدي، كما كثر الحديث عن ما آل إليه مصير العريف، ويقول الماجور جرال كيبر (1938) أن ثمة أطلالاً مهدمة قائمة إلى الآن على الصخرة العلوية تهبط متدرجة إلى القمة الوسطى وتنتهي عند حافة الهاوية المطلة على الرمال، بيد أن البروفسور توريس يشك في هذه الأقوال، ويرى أن طارقاً لم يكن هو الذي بنى السور وإنما هو من عمل الموحدين الذين كانوا يهتمون بإحاطة المدن بالأسوار كما فعلوا في سور فاس والرباط وأصيلا، لكن هذا السور الموحدي تلاشى بدوره وحل محله سور أبي الحسن المريني، ويتأكد أن آثار البناء الموجودة الآن حوالي القصر كالمعقل: (Castle Moorish) أو القلعة الحرة (La Calahorra) هي مزيج بين عمل الموحدين وعمل بني مرين كما تدل على ذلك تحليلات مواد البناء التي أجريت من طرف بعض الخبراء. ويأسف لعدم احتفاظ الأيام بالصورة المجسمة (الماكيط) التي صنعها السلطان أبو عنان لتشكل الجبل بأبراجه ومخازنه ومساجده، فلو احتفظت بها لصور بني مرين بفاس لأوقفتنا على معلومات دقيقة عن الجبل. الحميري: ص 121. ابن بطوطة مجلد رابع ص 355 - 360. محمد الكانوني: آسفي وما إليه ص 79.

(2) باب الفتوح: تجمع المصادر على أنه لم يكن هناك مدخل لمدينة جبل طارق إلا من موضع واحد، وهذا المدخل هو الذي يسميه ابن صاحب الصلاة بباب الفتوح، وهذا ونعرف أن القائد جوهر حصن للقاهرة أربعة أبواب منها باب الفتوح... ولا نعرف أن لمدينة فاس باباً يحمل هذا الاسم، وكذا القاهرة أو المنصورية باب الفتوح.

ابن عذاري: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم صفحة 23-37.

فاس [1]، وقد اشتاق في أتباعه من العرب بني رياح وبني جشم [2] وبني عدي [3] وقبائلهم ما يضيق بهم الفضاء، على عدد الذباب وعدد الحصى، فاستخار الله تعالى على النداء والحركة إلى التبرك بلقياه، وتخيل يمناه والتيمن بمحياه وعزم على السفر في قطعة [20] من قطع البحر [4] ليعاين في مسيره أحوال البناء بجبل طارق، ويعبر البحر الزقاق [5] إلى العدوة [6]، ويكون في لقاء الأمر العزيز قد سابق السباق، وأدى البيعة والميثاق، واجتنى اليمن الحلو المذاق.

(غدر ابن همشك بمدينة قرمونة)

فلما كان يوم الجمعة من اليوم الذي عزم فيه بعد الصلاة أن يسير، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول وبموافقة اليوم الثاني والعشرين من مارس

---

(1) تقع فاس على مقربة من وادي سبو شمال الأطلس المتوسط، وقد ظلت الطريق الطبيعي الذي يربط بين العاصمة الموحدية وجزيرة الأندلس من جهة وبين إفريقية وباقي أطراف الامبراطورية من جهة أخرى. . . ولقد كان عبد المؤمن يعتمد التعريج عليها جيئاً وذهاباً بالرغم من وجود طرق ثانوية أخرى لأنه كان من طلبة العلم بها أيام شبابه. الإدريسي: نزهة المشتاق 64.
الاستبصار ص 181 . ابن عذاري: البيان المغرب، المخطوط ص 37-125-126. الاستقصاء: ثان ص 67.
Celerier: L'Atlas et la Circulation au Maroc Hes 1927 T. VII P. 442 عبد المختار السوسي: سوس العالمة ص 10-11.

(2) كان أصل دخول بني جشم إلى المغرب أن الموحدين ـ كما ترى ـ لما غلبوا على إفريقية أنقلوهم منها، بالطوع والكراهية كذلك. ومن أصلهم ونسبهم، أنظر ابن خلدون، المجلد السادس ص 58 - 68. الاستقصا ثان ص 146.

(3) من بني هلال. ابن خلدون سادس ص 355-356-357-913.

(4) اشتهر المسلمون في العصور الوسطى بقوة أساطيلهم ووفرها، وكان لهم كما يحكي التاريخ في كل جهة (دار صنعة) للقطائع البحرية، والكثير ما ذاع ملك يرى بعض الباحثين أن كلمة ارسنال (Arsenal) تحريف فقط عن (دار الصناعة) المعهودة لدى المسلمين لصنع الأساطيل البحرية.

(5) البحر الزقاق، هو البحر المتوسط وربما سمي بحر الشام، وبحر الروم وبحر الاسكندرية وبحر القسطنطينية، وبحر الأفرنج، ويذكر بعض الأخبار أنه كانت هناك قنطرة بين ساحل الأندلس وطنجة من بناء ذي القرنين طولها اثنا عشر ميلاً. معجم البلدان أول ص 345. الروض المعطار ص 83.

(6) يعني عدوة المغرب.

العجمي [1] عام خمسة وخمسين وخمسمائة خرج من الصلاة من الجامع فحين انفتل منها، ودخل في القطعة المذكورة، ووصله الخبر بغدر الفسقة أصحاب ابن همشك مدينة قرمونة [2] بتدليس الشقي عبد الله بن شراحيل [3] إليها، وبأن الموحدين الذين بها احتضروا وامتنعوا بقبتها، فخرج السيد الأعلى المذكور من القطعة في تلك الساعة وكان باقي ذلك اليوم باشبيلية يوماً عصيباً.

أحدث هذا الخبر فيها حوادث سوء وخطوباً، وفتناً وحروباً، وورد الوقت الآن من عظيم الأزمات شيئاً، وامتنع السيد الأعلى من سفره، ورجع إلى مقره وحضره، ووجه عسكراً إليها على ما ذكرته في (التاريخ [4])، وتكدرت الأحوال بهذا الطارئ من الخبر وكدره، ونظر السيد الأعلى ـ أعلا الله أمره ـ في مقابلة هذا العدوّ بما وعد الله تعالى هذا الأمر العزيز في العاجل والأجل من عواقب

---

(1) اعتاد ابن صاحب الصلاة غالباً بحظر من سبقه من المؤرخين القدامى، أن يوفق بين التاريخ القمري والسنوات الجوليانية، لكنه في أغلب الأحيان لا يوافق الجداول الجاري بها العمل من أمثال جداول الدكتور: Cattenoz والموافق هنا هو 25 مارس 1160. هذا ويلوح من النص أن السيد أبا يعقوب كان يريد أن ينزل كما نزل أخوه إلى جبل طارق لولا غدر أصحاب ابن همشك مدينة قرمونة، كما نستفيد من النص السرعة الفائقة التي أنجز بها مشروع بناء المدينة الكبرى على جبل طارق فإن الرسالة الثانية أرخت في التاسع من ربيع الأول 555 وجعلت في أقرب تاريخ من طريق البحر، انظر المن بالامامة ص 10-20.

(2) قرمونة (Carmona)، تقع على مقربة من اشبيلية في الشمال الشرقي منها، وهي مدينة كبيرة قديمة في سفح جبل، وحيطانها حصينة منيعة، ومن أبوابها باب برتي، وباب قرطبة وباب قشتالة وباب اشبيلية، وبها جامع من سبع بلاطات على أعمدة رخام وأرجل صخر وبداخلها آثار كثيرة للأول إلا أن جله اندثر . . .
الروض المعطار: ص 158 - 159. أحمد بن المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، نشر الفريد البستاني طبعة تطوان 1941 ص 34.

(3) نفس ما عند ابن عذاري، وابن الخطيب. انظر البيان المغرب ص 29 وكتاب أعمال الأعلام ص 261.

(4) يعني تاريخ الريدين كما سيؤكد بعد سطور، ومن حسن الحظ أن يحتمد ابن صاحب الصلاة على هذه الإحالة وأن يفيد هنا ذكر أخبار قرمونة ص 45 فان المصدرين الوحيدين اللذين ردّدا صدى كتاب (تاريخ الريدين) ـ فيما نعلم ـ هو الحلة السيراء لابن الأبار والذيل والتكملة لابن عبد الملك، ولكن ابن الأبار بالرغم من تعرضه لبعض الثوار نقلاً عن ابن صاحب الصلاة أغفل ذكر أخبار قرمونة في أحداث 555 السابقة: الحلة السيراء 199-202-206-213-223.

المنصر حسب ما قد ذكرته في (تاريخ المريدين) وحسب [21] ما أعيد ذكره في «هذا التاريخ»[1] بعد الفراغ من ذكر الورود السعيد الميمون الطالع بالشامين والفتح المبين: ورود سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه وعبوره البحر الزقاق إلى جبل طارق.

ذكر عبور الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه البحر من سبتة[2] إلى الأندلس ونزوله منها في مرفأ[3] جبل طارق

وذلك في شهر ذي القعدة من عام خمسة وخمسين وخمسمائة الموافق لشهر ينير[4] العجمي من العام المؤرخ به عند إيابه من غزوته المهدية وفتح جميع إفريقية ليجتمع بطلبة الموحدين الذين فيها وينظر كيف يكون غزو الروم والمحاربين في نواحيها.

قال الراوية: وبرز إليه يوم إجازته البحر من الناس النظارة على سيف البحر عالم لا يحصيهم إلا خالقهم، وكان يوماً مذكوراً مشهوراً ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ما لم يتقدم في سالف الأزمان، ولا تخيل مرة في الأذهان.

---

(1) عبارة صريحة في أن لابن صاحب الصلاة كتابين: الأول سابق وهو تاريخ المريدين، والثاني لاحق وهو هذا التاريخ، هذا وسيذكر أخبار قرمونة ص 45 كما سلف قريباً.

(2) سبتة من العدوة المغربية تقع على شاطئ المتوسط يحيط بها البحر من ثلاث جهات وهي قديمة فيها آثار كثيرة، وهي مدرستها تخرج عليها جملة، وعلى مقربة منها تقع قرية بليونش حيث يوجد جبل موسى بن نصير الذي كان منه عبوره لأول مرة إلى ساحل طريف... الإدريسي ص 167. الاستبصار ص 136 - 137.

(3) كذا كتب في الأصل ولعل الصواب مرفأ بالفاء أو المرقى بالياء، هذا وقد تعود الجيش الموحدي أن ينزل غالباً بجبل طارق كلما كان إبحاره من سبتة كما اعتاد أن يقصد طريف كلما تحرك من قصر مصمودة أو القصر الصغير، موكسري، فرنسا السلسلة الأولى، المجلد الأول ص 124، تعليق 3.

(4) ذو القعدة يوافق في الواقع نونبر - دجنبر 1160.

قال المؤلف[1]: ولما أنارت الآفاق بالعدوة والأندلس بالبشائر الواصلة بقرب الخليفة في الإياب من المسير، على أوفى الظفر والتيسير، أنفذ السيد الأجل الأعلى أبو يعقوب [22] عزمه الأول بالإسراع، والوخد والذميل لبركة اللقاء والاجتماع، واستناب باشبيلية من طلبة الموحدين ـ أصاتهم الله ـ من ينوب منابه في محاربة أهل قرمونة الأشقياء أصحاب ابن همشك، على ما أذكره بعد فراغي[2] من ذكر هذا العبور السعيد. وتقدم وواصل سيره للقاء وأبرم بجملة أصحابه من أبناء الجماعة الجلة أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي [3]، وأخيه أبي يحيى [4]، وأبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم[5] وأبي يحيى بن أبي حفص ابن يحيى[6] وأصحابهم الموحدين وشيخ الرؤساء بالأندلس أبي العلاء بن عزون وأشياخ الأجناد والقواد الأندلسيين.

ووفد السيد الأجل أبو سعيد بجميع أشياخه من الموحدين وأبناء الجماعة أصحابه وحفاظه وأشياخ غرناطة وأنظارها ووصل الجبل المذكور يوم وصول السيد الأعلى أبي يعقوب. ونفر الناس عند مشي هذا السيد الفخم

---

(1) أخذ المؤلف يعتمد على ما شاهده هو من أحداث وهو في الأندلس.

(2) ابتداء من صفحة 36.

(3) هذا هو أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي الذي عُيِّنَ والياً على اشبيلية من لدن عبد المؤمن في الوقت الذي عين فيه عبد الرحمن بن تيجيت، وذلك سنة خمس وخمس مائة، وقد استمر في مهمته مجاهداً مخلصاً إلى سنة إحدى وستين وخمسمائة عندما ولاه أشياخ الأندلس ـ وهم من شممهم ـ على الحضرة يتشرحون على الخليفة لتشريفهم بوالٍ من السادة وأتاك ثم تعيين ولده السيد أبي يعقوب يوسف، وقد استشهد أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي في موقعة مرج الرقاد عام 557.

ابن صاحب الصلاة ص 53-54 ابن عذاري ص 11-12-13.

Dozy: Recherches.. Page 378.

(4) أبو يحيى بن أبي حفص بن علي، وقد اختفى ذكره باختفاء أخيه الوالي الشهيد.

(5) يعتبر محمد بن أبي إبراهيم من رفاق ابن صاحب الصلاة الذين كان هو تأثير على حياته، وقد ترجم له ترجمة كاملة صفحة 152.

(6) من الوفد الذي بعث به أبو يعقوب يوسف إلى قرطبة للاتصال بأخيه أبي سعيد عثمان في شأن الحصول على طاعته لأخيه وذلك إثر وفاة عبد المؤمن، ثم رافق الوفد جبل طارق عند مساعيه إصلاح ذات البين.

من أهل اشبيلية من شيوخها وطلبتها وأعيانها وقاضيها أبي بكر الغافقي والشيخ الحافظ أبي بكر بن الجد [1]، وابنيه [2]، وسائر أهل النباهة باشبيلية من الكبراء والشعراء وكذلك أهل قرطبة وجميع الأقطار والأنظار التي تحت طاعة الموحدين أيدهم الله ووفد إلى ذلك أهل غرب [3] اشبيلية من كبرائهم وشيوخهم وطلبتهم وشعرائهم [23] . . . [4] ابدهم وأجنادهم ووصل هذا الجمع على أوفى المعوم إلى الجبل بذلك المشهد المعظم، والمسلك الكريم.

وعلم الخليفة رضي الله عنه بوصولهم وحلولهم وبيدارهم وإسراعهم واجتماعهم فأمر وزيره ابنه السيد الأعلى أبا حفص أن يجمع الوفود من كل البلاد وأن يدخلهم إليه بمجلسه العالي للسلام ولتجديد البيعة الكريمة وتقبيل اليد المباركة منه والاستسلام. فدخلوا على ترتيب وتأدب وسلموا سلام جماعة وتكلموا اقراراً بالطاعة، وتقدم أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي [5] مع القاضي أبي بكر الغافقي لتعيين أهل اشبيلية وتسميتهم وأهل الغرب، وكذلك قاضي قرطبة في تعيين أهل قرطبة ونظرها. وقام الخطيب أبو

---

(1) هو محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرج بن الجد الفهري، سمع ببلده ابلة كتاب سيبويه، وأخذ كتب اللغات، ولقي بقرطبة أبا الوليد بن رشد فناوله هذا كتاب البيان والمقدمات، نال حظوة عند المرابطين، وكان حافظ الغرب لمذهب مالك وقد كان في جملة الوفد الذي قدم على عبد المؤمن صحبة أبي بكر بن العربي. توفي باشبيلية في شوال من سنة 586. ابن الابار: التكملة لكتاب الصلة (كوديرا) رقم 825. الحلل الموشية ص 34 - 122. البستاني: دائرة المعارف مجلد ثالث ص 403.

(2) لعله يعني بهما ولديه عبد الرحمن وأحمد اللذين كانا أول القادمين لمناس من حاشية بني الجد المجيدة، تعرف له ولداً آخر اسمه عبد الملك. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 853. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب. تعليق الهاشمي الفيلالي 2:182 الرباط 1936.

(3) الغرب (Algarve) يعني غرب الأندلس . . . وتعرف به ناحية اشبونة وباجة. انظر خريطة بروفنصال.

(4) الخطوط السبعة التي توجد تحت الكلمات التالية تشير للخط بوجه أوائل السطور السبعة الأولى من الصفحة وقد اجتهدنا في ملئها بكلمات مناسبة.

(5) تقدم في التعليق رقم 3 ص 93 أنه كان والياً على اشبيلية قبل تعيين السيد أبي يعقوب، لكنه ظل على تشريف وظل كاتبه الوالي الشرقي، ولذلك نراه اليوم يقوم - مع قاضي اشبيلية - بمهمة تقديم الوفود للخليفة عبد المؤمن.

الحسين بن الاشبيلي [1] وصاحبه أبو محمد بن جبل [2] وأبو محمد المالقي [3] وخطبوا على الفراد، كل واحد منهم خطبة في حق البيعة ولزومها، وربط الشرع لعهودها ورسومها، وأفصحوا بما خطبوا، وجاؤوا من كلامهم بالسحر الحلال وأطنبوا، ثم أذن لهم بالقرب بتقبيل اليد المباركة على ما بين من البيعة على الإيمان والأمانة، ولزوم الوفاء بالطاعة والديانة، وأذن للشعراء في [4] الانشاد، بذلك المجلس العالي الشريف العماد، فأوردوا ما نظموه من فكرهم بمحضر الوارد والرواد، واحتفال الوفود [24] والاشهاد، فقال أبو بكر بن المنخل الشلبي [5] مهنئاً مادحاً، وفي ذلك الجمع منشداً مادحاً وقال: (طويل)

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا	فهذا نسيم النصر بالفتح قد هبّا [6]
أضرتم إليه الخيل وهي أجادل	فسالت بكم بحراً وطارت بكم ركبا [7]

---

(1) هو علي بن محمد بن عقيل أبو الحسين عرف بابن الاشبيلي، سكن المرية وأخذ عن أبي القاسم بن ورد وقد كان خطيباً مفوهاً، وقد أخذ عنه أبو القاسم بن النحوم وأبو عمرو بن عثمان بن عبد الله وكذا عبد الملك ابن صاحب الصلاة، توفي بمراكش سنة 567. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 1882، المن بالامامة ص 85.

(2) هو عبد الله بن جبل صاحب ابن الاشبيلي والخطيب بعده، من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان. المراكشي: المعجب طبعة 1949 ص 200. المن بالامامة ص 83-86.

(3) انظر التعليق رقم (1) صفحة 71.

(4) يذكر المراكشي أن العادة الجية لدى الخليفة عبد المؤمن في مناسبات التهنئة أن ينشد الشعراء في الانشاد الوفود فهو الذي لم هذه المرة - مناسبة بناء مدينة جبل الفتح - استدعاهم إليه. المراكشي: المعجب، طبعة 1949 ص 213.

(5) محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن المنخل الفهري، يكنى أبا بكر، كان من الأدباء المتقدمين والشعراء المجيدين مشاركاً في علم الكلام، من شعره:

مضت لي ست بعد ستين حجة	ولي حركات بعدها وسكون
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى	يكون الذي لا بد أن سيكون [؟]

وقد توفي في حدود الستين وخمسمائة.

ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 730، ورقم 1427. الحلة السيراء 205.

المقري، النفح، 5:213-254.

(6) الخطوط الأربعة التي توجد تحت الكلمات تشير للخط بوجه أواخر السطور الأربعة الأولى من الصفحة وقد اجتهدنا لملئها على غلب الظن.

(7) في ابن عذاري (شبها) ص 24.

وتشتم بها هامات كل مضلّل ... ولم تتركوا حجماً هناك ولا عَمْرا
وجئتم بها مثل السهام فأصبحت ... كماتهم صرعى وأموالهم نهبا
أتوكم يجرون الحديد سوابغاً ... كأنهم البحر الغطامط قد عبّا
وظنوا - وفي الظن الجهالة - أنهم ... يفلّون من أجنادك الصارم العضبا
فلما تلاقيتم وبثّت الوغى ... تولوا وقد طارت قلوبهم رعبا
أسلمتهم البيض الصوارم والقنا ... فكانت لهم رفعاً وكانوا لها نصبا!
وقادتهم تلك السيوف إلى الردى ... وما غادرت سهل البلاد ولا صعبا!
وراموا فراراً والرماح تنوشهم ... فما قطعوا فجاً ولا سلكوا شعبا
وخرّوا جميعاً هامدين كأنهم ... ندامى تساقوا بينهم أكؤس الصهبا
تغشتهم سود العقاب فأصبحت ... مقابرهم تغشى الجنادل والتربا!
وهبّت عليهم ريح بأسك خرّجفاً ... فما تركت تبعاً عليهم ولا قطبا
لقد حكّمت فيهم ظبى الهند وليها ... تقطّهم ضرباً وتوسعهم سربا
وكانوا لكم جنداً فصاروا غنيمة ... كذلك من يزهى بآرائه عُجْبا
قروكم عتاقاً شزّباً وعواتقاً ... بما قد قراهم جيشك الطعن والضربا
أقيموا إلى ابن الريق[1] بعد صدورها ... وليس عليكم أن ترى ضمّراً قبّا[2]
[25] رعتها القبالي فاستدت جسومها ... بما قد رعت فيها الكلا يابساً رطبا
عليها رجال كالقداح، وإنما ... يكرّون في الهيجاء هندية قضبا
فإن تبدؤوا بالقرب فالفتح واضح ... وإن نجوم الطعن طالعة غربا
ضمان عليكم أن تبيحوا حريمه ... وأن تكسروا فيها الصلائق والصلبا
وأن توردوها نهر (دويرة[3]) صوادياً ... فتأنف أن تسقى بها البارد العذبا.

(1) ابن الريق هنا هو ألفونسو هنريكز (Alfonso Enriquez) وقد تسميه المصادر كذلك ابن الرنك، أو صاحب قلمرية، أي صاحب البرتغال لأن قلمرية كانت عاصمة البرتغال. المراكشي: المعجب 120. ابن الخطيب: الاعلام ص 251. أشباخ: تاريخ الأندلس، ترجمة عبد الله عنان طبعة 1958 ص 242-245-270. - Terrasse: Histoire du Maroc II P. 321
(2) القب: الضامر البطن من الخيول، ويكني الشاعر بها عن عتق الخيل.
(3) نهر دويرة (Duero) من الأودية الأربعة التي تصب في المحيط، والتي منبعه وشاطئه، وتنبه، وهو ينحدر من جبال قشتالة الدنيا ويصب عند البرتغال في بورتو (Porto) غربي الجزيرة، وتسميه «

تعاف غير الماء صفواً، فإن جرى ... به من دم الأعداء ألذته شربا!
ومن تجد الأساد حزبه ... أعدّ مجاجات الكلوم له شربا
يلوذون في الهيجا بأروع ماجد ... إذا دارت الهيجاء كان لها قطبا
وإن عصفت ريح الوغى اعتقلوا به ... فكانوا له جسماً وكان لهم قلبا
مليك كأن الأرض قبضة كفه ... فلا بُعْد فيما يتحيه ولا قربا
لكفيه فضل بان من كل فاضل ... إذا شد عقد السلم أو بعث الحربا!
إذا أجدبت أرض نحاها بجوده ... فما أقرز السقيا وما أكثر الخصبا!
ولو علم الناس الخفيات أمره ... لما قربوا مُصْحَفاً ولا صنفوا كتبا!
وقد كان هذا الدين ولى شبابه ... فلما تولى الدين لم يعد أن شبّا
إذا ما ذكرناه وقد ضاق أمرنا ... تفرج حتى صار متسعاً رحبا!
كذلك من يلقى الخليفة تلقه ... بشائر يستجلي بها السهل والرحبا!
نسينا به أبناءنا وديارنا ... فها نحن لا نرتاح إن ذكروا شلبا[1]
بلاداً قضى فيها الشباب مآربي ... وأبقى لنفسي ما بقيت بها إربا[2]
تبشرنا عنه الصباح بغرة ... إذا طلعت حيّت بهجتها الركبا
[26] فقل لابن زنند[3] تأهب لغزوة ... يسد عليكم جيشها الأفسح السهبا!

• المرب بالواو في الحرف. هنا وضبط الاسم بفتح الدال وتسكين الياء وضم الراء ليستقيم وزن البيت. ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 67. أشباخ: تاريخ الأندلس ص 336. شكيب أرسلان: الحلل السندسية، الأول 28.
(1) شلب (Silves) تقع على مقربة من شاطئ المحيط الأطلسي غربي جنوب مدينة باجة، وشمال غربي شنتمرية، عليها سور حصين ولها غلات وجنات.
الحميري: الروض المعطار ص 106-107-108.
(2) البيت يميل لقول الشاعر:
بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد
ويشير لقول ابن الرومي:
وحبب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنّوا لذلكا
(3) ابن زنند يعني به - والشاعر يتكلم سنة 555 (1160) - ريموند بيرنكير الرابع (Raimundo Berenguer IV) المتولي بعد وفاة أبيه ريموند الثالث سنة 525 (1131)، وقد تلقب بالقمبيطور واتفق مع «

إذا جرَّدتْ فيها السيوفُ حسِبْتها … جداولَ رَوْضٍ، والرماحُ به قُضْبُ

كأنّ نَعامَ الدوِّ باضتْ بأفقه … وقد لقحتْ مَوْجَ الرياحِ به سُحْبا!

وإن عثرتْ أعلامُه لمحاربٍ … جرى دَمُه من نحْبِها وابلاً سَكْبا

وإن لقيت عضْباً حواقرُ خيله … أصارته سَهْلاً لا ترى فوقه عضْبا

إذا جاوزتْ دَرْباً إليكم فإنّما … يجوزُ وشيكُ الموتِ نحوكمُ دَرْبا!

وإن يقضِ نحْباً منهم قُوْمِسالةٌ … فمن نفْسِ جبّارٍ لكم يقْضِ النَّحْبا!

ويَسْتَشْهِدُ البطريقُ[1] في عرصاتكم: … فدَيْناكَ من رَبْعٍ وإن زدتنا كرْبا[2]،

أمرسلَها شُعْثَ النواصي سَوَاهِما … ومُصْدِرها شُقْراً وقد وردتْ شُهْبا

ترفّقْ علينا إنها غيرُ مُكْتَسَبٍ … وأنفسُ مالِ المرءِ أنفسُه كَسْبا

فلو لم تُجِزْها الشُّنُّ نحو عدوِّها … لجازتْ إليه البحرَ تقطعُه وثْبا!

فما أعطتِ الغُرْبُ القيادَ طواعةً … ولا استسمحت وِدّاً، ولا أُلْقِنت حُبّا!

ولكن رأتْ شُهْبَ الهدى مُنتثرةً … تَخافتْ رُجوماً من الشُّهْبِ شُهْبا!

رأوا بك دينَ الله كيف اعتزازُه … وأنتم له حربٌ فكانوا له حَرْبا.

* رامير الثاني ملك أرغون، على أن يتزوج بالأميرة بِتْرُنِيلَة (Petronila) وارثة مملكة أرغون، ثم لما علم رامير نفسه من ملك أرغون واعتزل الرهبانية بايع أهل أرغون ريمند الرابع ملكاً عليهم، فصارت في يده قوة عظيمة وتحالف مع ألفونش ملك قشتالة واستمر ملكاً إلى سنة (1162) 557. هذا وليس يبعد ـ كذلك ـ أن يكون القصد بابن ريمند ألفونش الصغير حفيد ريمند المعروف تحت اسم ألفونسو الثاني (El Rey Chico)، هذا بالإضافة إلى إمكانيةاحتمال الابن الحقيقي لريموند وهو فرناندو المبرج فهي اعتبارات ثلاثة. ترقّب تعليقاً ص 230 من المن لابن الخطيب: أعلام الأعلام ص 337. الحميري: الروض المعطار ص 43 - 42 الترجمة الفرنسية ص 54. أشباخ: تاريخ الأندلس ص 258 - 254. شكيب أرسلان: الحلل السندسية جزء ثالث ص 220.
Melchor Antuna: Al Andalus Vol I 1933 P. 105 - 153.

ابن خلدون: رابع ص 397.
Dozy: Recherches P. 115.

(1) البطريق (Patriarche): رئيس الأساقفة وقبل انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية كان يوجد خمسة بطارقة، وبعد انفصالها بقيت الكنيسة الشرقية تنقسم إدارياً إلى أربعة بطارقة بينما صار لقب البطريق في الكنيسة الغربية لقباً تشريفياً فقط.

(2) فيه من البديع الإبداع وهو من أنواع التضمين، فقد أودع فيه ابن المنخل من شعر المتنبي في مدح سيف الدولة:

فديناك من ربعٍ وإن زدتنا كرباً … فإنك كنت الشرق للشمس والغربا..

وقام محمد بن المدعور وأنشد لأبي العباس الأستاذ بن سيد[1] الإشبيلي ـ عرف باللص ـ هذا أبو العباس يعرف باللص وإنما سمي باللص لقوله:

(مضارع)

[27] خلبْتَ قلبي بطَرْفٍ … أبا الحُسَيْن خَلُوب
لِمَ أُسمّى بلصٍّ؟ … وأنتَ لِصُّ القلوب[2]!

يعني أبا الحسين فنالة[3] في أيام الفتوة، قصيدة بعثها معه إذ كان ضعيفاً عن الوصول بها: (بسيط)

غُضَّ عن الشمس واستقصر مدى زُحَل[4] … وانظر إلى الجبل الراسي على الجبل؟

أنى استقر له أنّى استقلّ به … أنى رأى شخصه العالي ولم يزل[5]؟

أنى أطاق له حملاً وقد عجزت … عنه الصدورُ، وفيها كلُّ مُحتمِل

ومن تكن رحْبُ الأذهان ضيِّقةً … عن حمله لم يَسَعْهُ أرحبُ السُّهُل!

لكن رأى جاره ذا اللجِّ يحمله … فكان ما كان بين العجز والفشل[6]

لينْهضن أنداءٌ أن وازرها مَلِكٌ … أنْحى وأنفَرُ فيها ميِّتَ الأمل

ومن تكن عادةُ الإحياء عادته … هانتْ على راحتيه حملةُ الثقل!

خليفةُ الله ما جاء الزمانُ به … إلا ليرفع ما فيه من الخلل

تغنى بحضرته الأقدارُ مُجليةً … عن حادث جللٍ في الحادث الجلل

(1) هو أحمد بن سيد الإشبيلي، وهو غير ابن سيد اللالي، أقرأ العربية والآداب واللغات، وكان قائماً عليها متحققاً بصناعتها شاعراً مع ذلك مفلقاً، وقد توفي سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمس مائة، التكملة طبعة بيل ـ ابن أبي شنب ص 98 رقم 212. المراكشي: المعجب ص 217 - المقري: النفح 3:17 - 18 - 325. ابن سعيد: المغرب نشر شوقي ضيف أول ص 202.

(2) صفوان بن ادريس: زاد المسافر نشر عبد القادر محداد بيروت 1939 ص 52. انظر نفح الطيب جزء خامس ص 332-333.

(3) المقري: نفح الطيب تحقيق عبد الحميد جزء خامس ص 22.

(4) زحل: كوكب تحيط به منطقة نيرة يضرب به المثل في العلو والبعد كما قال الطغرائي:

وإن علاني من دوني فلا عجب … لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل!

(5) لم يزد المراكشي في المعجب على هذين البيتين ص 217.

(6) أضاف صاحب زاد المسافر هذا البيت على البيتين الأولين ولكن فيه عرض العجز (اللص).

دُونَ الجلالةِ في الجفانِه رَتَعٍ، ... مسلهَبٌ سيفُه لم يُهْدَ في الخلل
فسائلُه قبّـا تُـزكـو لـهُ شُعَل ... تكـادُ تَحْرِقُ دِرْعَ الفـارسِ البطل
كـالبطلةِ النَهِبتْ من كـلِّ نـاحيةٍ ... حتى رمتْ بـالّتي تُرْبي عن الطُّفَل
عجبتُ أن يقتـدي المُنْجِلونَ لـهُ ... ومـا بـأعطافه تَفْسَخُ من البَلَل.

[28] وأن يُقيمَ بنَ الفَيْلَ المُبينِ ولا ... يُقيم مـا بمـرازبٍ من الهَبَـل
مَلكٌ إذا تُشْغِلُ الدُّنْيا أخا تَرَفٍ ... الفَيْنِ بالمعـالي جَـدُّ مُشْتَغِلِ!
وإن نـظرتَ إليـه وهـو مُشْتَفِرةٌ ... رأيتَ فيه جميعَ النّاسِ في رَجُلِ!
ما زالَ يُغضي فيُعطي صـافحا كرما ... والصَّفْحُ لا يُحيلُ العاصي على الزَّلَلِ
حتى إذا خطرَ العاصي بخـاطره ... لم تَرْعَ بقراً لـهُ الأيامُ في الطُّولِ!
وكم لـه وقعـةٌ في كـلِّ غـائبةٍ ... غلّتْ على واقعاتِ الأعصُرِ الأُوَلِ
يمرُّوا المُخْتلفُ في تَرْدادِها نَظَراً ... ما ليس يعْرِفه من صِفِّين[1] والجمل[2]
مَنّا إلى الشرقِ بجنابُ البابِ بهِ ... غَنَّتْ النَهارةُ والمهريةُ الذُّلُلِ
والمُلكُ ليسَ بمُرسَلٍ قواعِدُهُ ... ما لم يخُرْ بين أيدي الخيلِ والإبِلِ!
ويجحفلٍ ليجبَ سُدَّ الفجاجِ بهِ ... وأعثرَ الطَّيرُ منه في ذرى الأسَلِ
تحملو ذكـاءً وفي قد نُهِبتْ ... فتستجدُ لـهُ من مَشى النُّقَلِ
مصاحباً جلّه في اليمِّ مُتَّصلاً ... منه بحزمٍ وعزمٍ غير مُنْفَصِلِ
بِنْ كلِّ عاصفةٍ في شَكلِ طائرةٍ ... تشاكلَ الأمرُ فيها كلُّ مشتكلِ
مِنَ الأساوِدِ إلا أنها خُشُبٌ ... الشِدْا فطالتْ ولولا الأشدُّ لم تَطُلِ
فَـتوزعُ الأرضَ لم يَخْضَعْ لـهُ مَلِكٌ ... إلا وصَيَّرَهُ الغِضى من الطَّلَلِ!
ولا تمنّعَ حِصْنٌ أن يَدينَ لـهُ ... إلا توزَّعَ بين القتلِ والنَّفَلِ
تُزهى بمالكِ تدبيرِ كلِّ مملكةٍ ... وتزدهي ربُّها إنْ عُدَّ في الخولِ!

(1) صِفِّين: موضع بغرب مدينة الرقة تقع غربيها حيث كانت الواقعة الشهيرة بين علي رضي الله عنه ومعاوية سنة 37.
ابن خلدون: المجلد الثاني صفحة 1096-1114.

(2) يعني الواقعة العظمى المعروفة بوقعة الجمل التي كانت سنة 36 في البصرة. ابن خلدون، 2: ص 1061-1090.

حتى إذا اشتوشَ الأمرُ العليُّ لـهُ ... بالشرقِ كرَّ النصرُ الغربَ في عجلِ!
فكان كالنومِ في الأجفانِ ذي سُهُدٍ ... أو كالأمانِ على أحشاءِ ذي وَجَلِ!
[29] أضحى بكرِّه الإسلامُ في جَذَلٍ ... والمشركونَ وأهلُ الكفرِ في جَدَلِ:
كلٌّ يُولّي صريعَ العذلِ صاحِبَه ... والسيفُ يُنبي ما يأتي من العَذَلِ
استأنسوا عندَ مسّاً وغرَّهُمُ ... أن غادروا بين مُشتعلٍ ومشتعلِ!
أبعد القيمِ خيرُ المرءِ لو عقلوا ... أو يُخْمِلَ الشَّكلُ المشقوقُ كالسَّبَلِ[1]
أبلغْ ذوي الشركِ والإلحادِ قاطبةً ... أنْ ما لهم من جنودِ الله من قِبَلِ!
أتاكُم الجيشُ محفوفاً جوانبُه ... بالمشرفيَّة[2] والخطّيَّةِ[3] الذُّبُلِ
يعْنوا إلى السِّلمِ والإسلامِ ويحكم ... لا تحسبوا دولةَ التوحيدِ كالدولِ!
فإن أتيتُم حقنتُم من دمائكم ... وإن أبيتم فخلفوا فُجاءةَ الأجلِ
والله يُخلدُ مولانا وسيدنا ... حتى يبلغَ فيكم غايةَ الأمل!

قال الراوية لما أنشد المنشد هذه القصيدة بين يدي أمير المؤمنين أنكر أمير المؤمنين هذا البدء في قول الشاعر: «غُضّي من الشمس» وقال على مسمع من الناس: «غُضّ! غُضّي» منكراً لها[4] لأنه كان يحب الفـأل

(1) السَّبَل: بقية الماء في الحوض، والسَّبَل: المطر بين السحاب والأرض، وماء مشقوق: كثير الشاربة، كذا في لسان العرب. ولقد كتب الناسخ طرة تعليقاً على هذه المفردات يقول فيها ـ غير أوّلنا ـ وكذا في أصل المؤلف ذكر صاحب العين: والسَّمَل بالميم: الماء القليل، والسَّبَل بالباء: الكثير من الماء. المشقوق: يعني بالشفة ويعني صاحب العين: الخليل الفراهيدي في كتاب السمس والعين (المخطوط). انظر مقدمة كتاب مختصر العين، تحقيق علال الفاسي ومحمد بن تاويت. طبع 1963.

(2) أي السيوف المشرفية نسبة إلى قرى من أرض العرب تدنو من الريف اسمها مشارف الشام ويقال أيضاً أنّ النسبة إلى موضع باليمن.

(3) أي الرماح نسبة إلى الخط: موضع باليمامة، خط هجر، تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تحمل من بلاد الهند فتقوم به، ومنه:

وهل يُنْبِتُ الخطِّيَّ إلا وشيجُه

(4) في المعجب أن عبد المؤمن توجه إلى الشاعر ـ الذي يعتقد المراكشي أنه كان حاضراً بنفسه ـ قائلاً: لقد كفانا يا رجل! فمر به، فاجلس. قال المراكشي: وعلى القصيدة من خيار ما مدح به لولا أنه كثر صنوها بهذه الفاتحة. المعجب، القاهرة ص 237.

الحسن، لكنه أمر له بعشرة دنانير عليه، كما أمر لكل شاعر، وأمر بعشرين مثقالاً لكل من وفد إليه من قاصد لرؤيته وزائر.

وقام القرشي الأمي القرطبي المعروف بالطليق[1] ـ عرف بالطليق بسبب جده الذي أطلقه رسول الله ﷺ[2] ـ فأنشد وأجاد، واستحسن [30] شعره، وكان الكاتب أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي[3] كاتب الخليفة واقفاً يحسن أبياته ويكررها، وأولها: (بسيط)

ما للعدا جُنّةٌ أوقى من الهرب ... كيف المفرُّ وخيلُ الله في الطلب[4]
لو يُمْكنُوا قدماً زلّتْ بقادمه ... لأشبعَ الكلُّ طيّاراً من الرعب
وأين يذهبُ مَنْ في رأس شاهقةٍ ... إذا رَمَتْهُ سماءُ الله بالشُّهُب[4]
قد لاذ بالدُّجى منكم بهاربه ... واكتنَّ ليثُ الشرى في غيله الأشب
حدثتْ عن الروم في أقطار أندلس ... والبحرُ قد ملأ العِبْرين بالعرب[4]
من كلّ من يترك الهيجاء في حالك ... جمْرٍ إذا انغضرتْ الغبراء بالنُّكُب
مقلّب بين مشتاقٍ وهاجرةٍ ... تقلُّبَ السيفِ بين الماء واللهب
يرمي بهم ظَهْر طرف بطن سابحة ... طائر في شُغُلٍ والبحرُ في صخب

---

(1) يسميه المقري بالأصم المرواني، وقد أورد المراكشي بعضاً من القصيدة المذكورة هنا كما فعل المقري. المعجب ص 215. زاد المسافر: الترجمة رقم 39. نفح الطيب جزء خامس ص 130.

(2) نرى أن سبب تسمية هذا الشاعر بالطليق لأن الرسول عليه السلام أطلق جده والمراكشي يعلل التسمية بأن جده كان طليق أبي عامر محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور وأن سبب الأفراج كانت أسطورة تامة فلذلك يعرف بطليق النعامة. المعجب: ص216 - 217.

(3) عبد الملك بن عياش بن فرج بن عبد الملك بن هرون الأزدي القرطبي وأصله من مدينة يابرة بالأندلس، صحب بني حمدين بقرطبة ثم استكتبه الموحدون بعد ذلك في الكتابة، وكان مع تقدمه في الأدب وتصرفه مشاركاً في العلم من أبرع الناس خطاً وكانت له من الولاة منزلة جليلة ومن شعره:

عصيت هوى نفسي صغيراً فعندما ... رماني الليالي بالشيب وبالكبر
أطعتُ الهوى عكس القضية ليتني ... خلقت كبيراً وانتقلت إلى الصغر!

وكانت وفاته سنة 568. ابن الأبار: التكملة (الوزراء) رقم 1721.

(4) الأبيات الثلاثة التي انفرد بها المراكشي (ص 216) واقتصر ابن عذاري على البيتين الأولين. انظر ص 24 ت.

وتخبرُ الماء منهم نارُ غاوية ... يصلى بها عابدُ الأوثان والصُّلُب
وطودُ طارق قد حلّ الإمامُ به ... كالطُّور[1] كان لموسى أيمنَ الرُّتَب[2]!
لَوْ يعرف الطود ما غشاه من كرم ... لم يبسط الغور فيه الكفَّ للسحب[3]
ولو تيقّنَ بأساً حلّ ذروته ... لماذ كالعِهْن من خوف ومن رهب[2]!
بنيه يعاود هذا الفتح ثانيةً ... أضعاف ما خلّدوا في سالف الحِقَب[2]
ويلبسُ الدِّينَ غضاً ثوبَ عزته ... كان أيامَ بدر[3] عنه لم تغب!
تدبير من قارعَ الأيامَ واختلفت ... آراؤه في الوغى بالسُّمْر والقُضُب
إن آبَ من غزوةٍ آبت أعاديه ... كان الإيابُ لأخرى أعظم النُّصُب
سعياً إلى الشرف الأقصى بهمّته ... دون مريحٍ وعزمٍ دائمِ النَّصَب

[31] وحين جلّى تدلّى فوق أندلس ... وصارخُ الطير لا ينفكّ من كثب
ملكٌ إذا ما دعته الحربُ من بُعُد ... طار الشُّفين أمام الجحفل اللجب
ما بين مخضرة الأقطار نازحة ... والغضر في غمار الريح مضطرب
والجيشُ تختطف الأرواحَ راحتُه ... من سابقٍ زبد أو عائم قرب
كتائبٌ صفّها والآلُ أرويةٌ ... بيض فأشبهت الأسطار في الكتب
ذاتُ جبال ديار القيروان[4] فلم ... ينثن الأعنةَ إلا وهي كالكثب
حتى أناخ بأمّ الشرك مرضعةً ... أولادها حلباً جمّاً على حلب
خنساء يقصر للخطّاب مبسمُها ... عن جوهر السيف لا عن مبسم شنب
تيمة من قرى سور تكنّفها ... وزاجر مزبد الأمواج من غضب
تألّقت في عناق الجو صاعدةً ... حتى حسبنا مدار النجم في صبب

---

(1) الطور: الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وقد ذكر بعض العلماء أنه الجبل المشرف على كلس... ياقوت، معجم البلدان.

(2) الأبيات التي تحمل رقم 2 أوردها المقري على المراكشي. الخامس ص 130 من نفح الطيب.

(3) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار - وهو ساحل البحر - ليلة، وبه كانت الوقعة المشهورة.

(4) القيروان: المدينة العظيمة الشهيرة التي مُصّرت في الإسلام على عهد معاوية بن أبي سفيان، الاستبصار ص 113-114.

وجيْنَ عَـامَلَهَـا طـولُ الحِصَـار لَهَـا   كـأنّهـا مـركـبٌ أشفَى عَلى العَطَب
ألقَت إليكَ بـأيْدي الـذلّ طَـائعَـةً   ومكّنتـكَ مِنَ المَسْلُوبِ والسّلَب
ثـار العُلُوج وفي أعنـاقِهِم مِنَن   مِن عَفْـوِ مقتـدِرٍ للغَـزْوِ مُنتـدب
مَدُّوا الأكفَّ لِلَمسِ النَّجْمِ مِن فرحٍ   وشمّروا لرُكُوبِ البَحْرِ مِن طَرب
خفّتْ صِقِلّيةٌ[1] جَهْلاً فَوَقّرَهـا[2]   خَرْقُ الحُسَامِ وطَيْشٌ في القَنا السُّلُب!
وشيّعتْ مُلْكَهـا للحـرْبِ مُحتَفـلاً   لما دَعَتْ أختها بـالوَيْلِ والحرب
وإنّمـا بعثَتْ مِن جَيْشِهـا نَفـلاً   ألقى نفـائسـه في كفّ منتـهب
صدرت بالقُرْبِ الغُرباءِ والقليتُ   عن الحُسَـام (ريـاحٌ) شـرُّ منقلب
فكـان سيفُـكَ نقـاداً لـهُ بَنصرٍ   نَفَى الزُّيوفَ وأبقَى خالِصَ الذَّهَب

[32] وردُّ رأسِ زيـادٍ[3] مالـهُ جَسَـدٌ   من ثـائرٍ بـالدَّمِ الفوّار مختضب
ألقَـتْه عن ظهرها جـرداءَ جـامحـةٌ   لو أنّها سُحِبت من غدْوةِ القُرُب[4]
جَلَى إيـابُكَ عنّـا كـلَّ مظلمـةٍ   وأنَسَ الدِّينَ من إيحاشٍ مُغتَرِب
إنّ الجـزيرةَ مِنْ طُـولِ انتظاركمُ   لهـا بكـلّ طـريقٍ لحظُ مـرتقب
سـائِغٌ بتلكَ اليـدِ البيضاءِ قُبّتُهـا   فـإنّهـا أصبحَتْ مسـودّةَ الـطُّنُب
وأشْبِعْ جزيلَ العطايا خـاليـاً أبـداً   على الحُماةِ خُـزرُ المُشْرِقِ الخَصِب
يـا وافـداً علقت من يُمْنِ مقـدمـه   أيدي الأماني بحَبْلٍ غيرِ منقضب
وثـانيـاً لـلعُـلاء منكِبٌ عَمَمُ   يُزاحِمُ النَّجْمَ في الآفاقِ والحُجُب

(1) صقلية: جزيرة تقع شرقي افريقية يحيط بها البحر اليوني شرقاً والبحر التيريني شمالاً والبحر المتوسط جنوباً وغرباً، عاصمتها بلرم. ماريتو مارسيوميرينو، المسلمون في صقلية ص 1 - 2 - 3، امبرتو ريزيطانو: مجلة المشرق (روما) عدد سبتمبر 1963.
(2) وقّرها: بمعنى رزّنها وثقّلها، وهي تقابل (خفّت) بمعنى خف عقلها وخفت فوزنها خرق السهام.
(3) لم نهتد الشخص الذي يقصد إليه الشاعر، ولعله يشير لمقتل محرز بن زياد الفارغي رئيس الأعراب بافريقية وأحد بني علي من بطون رياح، والفارغ: الرمح الصلب النافذ... فتكون المعنى أن رمح الخليفة أطاح برأس هذا المتمرد.
(4) أي أن مطية هذا المتمرد أسقطته عن ظهرها... ثم يمضي على سبيل التهكم: فيا ليت هذه المطية استطاعت أن تزيح التراب عن خد هذا المتمرد المعفر بالتراب؟!

جمٌّ المَـواهبِ للزُّوّارِ مبتسمٌ   يستقربُ النّاسُ وقتاً فيهِ لمْ يهِب
مـا بَيْنَ راحتِه الطُّولى وخاطِـره   يفيضُ بحرُ النَّدى بالعِلْمِ والأدب
كـأنمـا بِشْرُه والجُـودُ متّصـلٌ   بَرْقٌ تألّقَ فـوْقَ الرّاكِبِ السَّرِب
خليفـةُ الله بـادي العلمِ مبتسمٌ   عن جَوْهَرٍ من بديعِ النَّظْمِ منتخب
قد أشرقت منه أثوابُ العُبابِ أرَجاً   لولاهُ عَرْفُ نَسيمِ الرَّوْضِ لمْ يطِب
ألقتْ غُصنُ النَّوى أشباحُ قرطبة   في منبتِ العِزّ والحاجاتِ والطَّلَب
أتتكَ تَشْكُرُ مـا أولَيتَ من نِعَمٍ   وإنّمـا أرَجُ النُّوّارِ للسُّحُب
تزدادُ نوراً إذا أسودَّ الزَّمـانُ بها   كـأنها سُرُجٌ في حالكِ النُّوَب
والصّبْرُ في كلِّ خطبٍ طعْمُه صبر   لكن عواقبُه أحلى من الضَّرَب
جُمِّرَتْ معارفُكم في النّاسِ كلهم   جَرْيَ الصِّقالِ على الهِنْديّةِ القُضُب
ولَمستم تـاخذُ الأيامُ زينتَهـا   منكم وترفُلُ في أبرادِها القُشُب!

[33] وعند إكمال هذه القصيدة بالإنشاد، تهلّل وجه أمير المؤمنين رضي الله عنه لها ولحسن أغراضها وحرّكته أريحية المعارف بما فيها من الأوصاف وتبلج فلق مجده عن هبّة جزلة للقرشي الطليق، أبدت لقوله القبولَ وسفرت له عن وجه طليق.

وقام الشيخ أبو عبد[1] الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي منشداً تالياً للقرشي المذكور في مجلس أمير المؤمنين رضي الله عنه بالجبل المذكور وقال: (طويل)

تـلألأ من نُـورِ الخلافـة بـارقُ   أضـاءتْ بـه الآفاقُ والليلُ غاسِق
وأشرقتِ الدُّنْيـا بـهِ فكـأنّهـا   من البِشْرِ في كُلِّ الجهاتِ مشارق
وهبَّ بـرَيّـاه النَّسيمِ فجـاءَنـا   يخبّرنـا أنّ الخليفـةَ لاحِق

(1) ذكره كل من ابن عذاري وابن الخطيب أبا عبد الله ثم أورد الأول أربعة أبيات منها، بينما أورد الثاني البيتين الأولين. البيان المغرب ص 240 ـ أعمال الأعلام ص 306.

إلى جبلٍ قد كان للفتح منزلاً ... ولاذ به بالفتح موسى[1] وطارق[2]

سما بأمير المؤمنين إلى العلا ... مخافة أن تسمو إليه العوائق

إذا لم أرغبا للنزول تضوّعت ... مناكبها مسكاً لمن هو ناشق

وإن طالب البيداء قصّر بُعدها ... حديثُ الأماني والرجاء المسارقُ

تكاد الثرى تحظ عند لقائه ... وتشرع نهضاً للقاء الشمالقُ

فلو شاء لم يركب جواداً بجحفلٍ ... ولا حملته في القفار الأيانق

له شرفٌ يسمو به فتخاله ... لذلك بعيداً وهو بالقرب لاحقُ

[34] نجيبٌ لمن ناداه في يوم أزمةٍ ... رفيقٌ لمن قلّت لديه المرافق

جوادٌ إذا ضنّ الغمام بوبله ... وصولٌ إذا صدّ الصديق المصادق

أزاح الردى عن من يلوذ بظلّه ... وبثّ الندى فاسترزقته الخلائق

ففي ظلّه أمنٌ من الخوف سابغٌ ... وفي كفّه بحرٌ من الجود رائق

له شيمةٌ ترتاح للبذل والندى ... وكفٌّ بتفليق الجماجم وامق

تقسّم أجسام العداة سيوفُه ... ولُدْنٌ بأيدي الطاعنين نواسق

وخيلٌ تسوق الأسد فوق متونها ... وتسبق لمح البرق والبرق خافق

تخيّرها التوفيق من كل ضامرٍ ... وأركبها الأبطال شعثٌ مطالقُ

---

(1) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء، المكنى أبا عبد الرحمن فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية، ونشأ موسى في دمشق فخدم بني مروان ونبه شأنه ولما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ولاه إفريقية وما وراءها من المغرب سنة 88 فأقام في القيروان . . . ووجه ابنيه عبد الله ومروان فأخضعا له من بأطراف البلاد من البربر واستعمل مولاه طارق بن زياد الليثي على طنجة، ثم أمره بغزو شواطئ أوربة فزحف طارق واحتل سنة 92 جبل كالبي Calpe الذي سمي بعد ذلك جبل طارق.
الزركلي، الأعلام، الثامن ص 288-289.

(2) هو طارق بن زياد الليثي بالولاء، أصله من البربر وقد أسلم على يد موسى بن نصير، ولما تم لموسى فتح طنجة ولى عليها طارقاً سنة 89 فلما كانت سنة 92 جهز موسى جيشاً معظمه من البربر لغزو الأندلس وولى طارقاً قيادتهم فنزل البحر واستولى على الجبل وفتح حصن قرطاجنة وتغلغل في أرض الأندلس وحاربه الملك رودريك Rodrigo فقتله طارق وافتتح اشبيلية واستجة، وأرسل من استولى على قرطبة ومالقة، ثم احتل طليطلة (العاصمة)... ثم فتح مدينة سرقسطة واحتل طرطوشة وبلنسية وشاطبة ودانية. الزركلي، الأعلام، المجلد الثالث ص 313-314.

رجالٌ ولكن في الحروب ضراغمٌ ... وخيلٌ ولكن في السباق سوابقُ

قد انتخبوا من نخبة العُرْب كلّها ... شبابٌ وخلقٌ كاملٌ وخلائقُ!

إذا عطشت في الحرب أفئدة العدى ... وقد فرغوا للصبر وهو مفارقُ

سقوهم بعضب السيف عضباً كأنما ... له من مروق المرهفات أسارقُ

وللسمر في كفّيه أسمرُ ناسقٌ ... وأبيض في كفّيه أبيض فالقُ

ومنها:

بمجدك يجري السيف ما عزّ قطعه ... ويمضي حدّ السهم ما هو رائق[1]

لولاك لم يقطع حسامٌ لضاربٍ ... ولا فلق الخطيّ ما هو فاتق

ملكت قلوب الناس حبّاً ورهبةً ... فدان بذاك الصنفان برٌّ وفاسق

فلا ذو يدٍ إلا لأمرك ناصرٌ ... ولا ذو فمٍ إلا لشكرك ناطق

إذا همّ أمراً لم يبلغ بحقيقةٍ ... وغاب دليلٌ لشفهم ضائق

[35] بدا من ضياء العقل عندي يدلّه ... عليه ومن نور البصيرة سائق

ومن يجعل التقوى سراجاً لقلبه ... أضاء ولم تحجب لديه الحقائق

ومنها:

فطاف بأرض الكفر حتى أعادها ... إلى الحقّ والقياد الأبيّ المشاقق

وكرّ إلى قصر الجزيرة بعد ما ... أتاه مع الركبان ناعٍ وسابق

بجيشٍ تضيق الأرض عنه بطولها ... وترهبه لو عاينته الخلائق

وأبيض ورديّ القميص كأنما ... تشحّ فوق النصل منه شقائق

تجرّده أيدي الأحبّة في الوغى ... وتغمده هام العدى والمفارق

ومنها:

ولما أنار الفتح ليل عجاجه ... وقد حجبت فيه العيون الروامق

تطلّع من قصرٍ غداةَ تلألأت ... لمطلعه آفاقها والمشارقُ

---

(1) في ابن عذاري: رائق ص 24.

فلاحَ ومن جُنْد المَهابةِ دونه   وقاةٌ ومن حفظ الإله سرادق

تنامُ عيونُ الرّوم عنه وإنّما   تنامُ وسعدٌ للخليفة طارق

تسوّرهم بيضُ الخدود نواعمٌ   وتُوقظُهم سُمرُ القنا والسوابق

كأنّ بهم والسيف يأكل وفرَهم   وما جمعوا للتاليات مُفارق

لما ولدوا للمسلمين غنائمٌ!   وما جمعوا للتاليات(1) طوالق

ولا زال أمر الله للدّين هاديًا   وأنت لدين الكفر ماحٍ وماحق

وقال الأستاذ أبو العباس أحمد بن سيّد [36] الإشبيلي الشاعر(2) ـ عرف باللص ـ يمدح الأمير الكريم ويهنئه بهزيمة العرب المذكورين: (بسيط)

صمّم بفكرك بعدها أو صوّب   ما دون أمر الله من مترقّب

الشمسُ تحجبُ في الطّلوع وبعده   وإذا تطلّع نورها لم تُحجب

هذي الخلافة لا خلافة بعدها   جاءت على الهدي القويم الأوجب

أحنى على مَن خاف من صَرف الرّدى!   أحنى على مَن هاله من عَطف الأب!

أضحى به الشرحان زاهيَ ثلّة   لتنأ وبات الصُّفرُ ضيفَ الثّعلب!

عصفت بأقصى الشرق منه عزمةٌ   حنّت لشرقها بأقصى المغرب!

بما طيّبها معنىً وطيبِ حديثها   والنفسُ يلهجُ بالحديث الطيّب!

فأتت على تبَع الضلال كما أتى   ضوءُ الصباح على سواد الغيهب

ومضت على حدّ الحسام أعاربٌ   نكثوا عهودًا أُبرمت في يثرب

لمّا خداعهم للجهاد مُشمّرٌ   نفثوا من التأويل الخبيث مذهب

فكأنما ألقى الكتابُ إليهم   وأنّ الجهاد عليهم لم يُكتب!

ولوا خماصًا لم يشكّوا خلّةً   في أنّ مسراها لبرق خُلّب

عطفًا على أنصارهم قدرُ الرّدى   فاستنزروها وهي ملأة المشرب

والغيرة بمطمع ما دنت   بيّنة ويُرينه بمنية المطلب!

ولربّما حسب الفتى أطماعه   بالتُّرب وهي منوطة بالكوكب!

(1) هنا فضاء، ولعل محله حرف الباء. هذا وقد كتب في الطرة ما يلي: (وذيل له)؟

(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 99.

ولو انّ عدوّهم لذلّ تنالهم   بتّة لكاد القفرُ صعبَ المركب

لكنّه أرقاهم من جرّة   أعلى المراقي في الجناب الأقرب!

[37] نفروا بطوع كالخيال طيّه   خلف كذاكي برقه المتلهّب

كالروض إلا أنّ في أخشابه   أقصى اليباب استجمعت لتوثّب!

الرأسُ لهم من بطشه قسميّة   أخذ البريء بها بذنب المذنب

قد كان في أولى الوقائع زاجرٌ   فيهم لذي القلب الذكيّ القُلّب

لم لا؟ وما ذكرت رياحُ يومها   إلا أراها الطفل شيبَ الأشيب

هلا اقتدوا بسراة قيس إنّها   جارت بمنتجها كريمَ المنتجب

ترضى إذا رضي الخليفة دائمًا   وكذاك إن يغضب لحقّ تغضب

وربيعة(1) وكفاتها من زغبة(2)   أهل المعالي في الجناب الأقرب

من كلّ أزهر للحياء بوجهه   في السّلم رقراق اللّجين المذهب

يرتاح للموت ارتياح فتاته   للطعن أو صنصانه للمضرب

مرحٌ بمعترك الهياج كأنّه   في فتكه متقلّب في ملعب

أبدًا يهيم من الظبا بأزاهر   ومن الجياد بكلّ ثغر أشنب

تسوقهم الكفار وقع سلاحهم   فتهمّ عن أوطارهم بتغرّب

وتحدّث السراة عن عزماتهم   فتظلّ تحني فوقها بالأذنب

ضربوا القداح على الشقاق سلالة   فإذا بهم ظفروا بقدح أخيب

لا آيبن يا آل الصليب وحزبه   حتى يعمّ القتل كلّ مُصلّب

ويورّث التوحيد عرض بلادكم   من بعد بحث عنكم وتنقّب!

ومنها بعض أبيات:

حتّى تقرّ عيوننا في أرضنا   وتقرّ عين نبيّنا في يثرب

(1) ربيعة من القبائل العربية التي كانت مضاربهم بالصعيد. ـ ابن خلدون، العبر، مجلد سادس ص 30.

(2) تعتبر زغبة في أول القبائل العربية التي تقدم في التشريفات الموحدية عند حفلات التمييز التي تجري بين الحق والأمر عند العرب، وذلك لأنها أول القبائل التي اعتنقت مذهب الإمام المهدي، انظر صفحة 296 من (المن بالإمامة) ابن خلدون 6 صفحة 30.

[38] حدثني الأستاذ أبو القاسم بن أبي هرون(1) قال: كنت واحداً من جميع الوفد الذين بادروا بقصدهم ووفدهم مع أهل إشبيلية ومن كان تحت طاعة التوحيد من أهل الأندلس إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه بجبل طارق وأقمنا معه نحو عشرين يوماً، أمر للناس الوافدين في مدة هذه الأيام، ثلاث مرات بالبركة، ونال جميع الناس معه الإنعام الذي عمره وسلكه وأجاز الشعراء(2). وأنال خيراته الفقهاء والكبراء، والموحدين والأولياء الطهراء، وأقام الوفد المذكور تحت أنعامه إلى أن عيد الخليفة رضي الله عنه عيد الأضحى بالجبل السعيد على أوفق الظهور، وأذن للناس بالانصراف إلى أوطانهم وقد رأوا الأعمال بالتبرك به في زمانهم، وكذلك أنال الفَعَلَة والبنّائين والصناع بركات وخيرات حين استحسن ما صنعوه ووضعوه، وجاءوا فيه على الغرض الذي نفذ به الأمر المطاع بالوصف الذي سمعوه، واستقر في ألهامهم فاستطعموا في بنائه واطمعوا له، وشادوا في ذلك بناء الخورنق(3) والسدير(4) وأبدوه للناظر كالبدر المنير فحسن لهم جهة الأمر العالي ما وفقوا فيه من البناء وحسْن التدبير.

---

(1) أحد رواة ابن صاحب الصلاة، ولم نعثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من معاجم الأدباء الموحدين ولم نتمكن من معرفة شيء عنه من خلال كتاب المن بالإمامة سيما ولم يذكر غير هذه المرة. هذا وقد ذكر ابن عبد الملك في الذيل والتكملة أن ابن صاحب الصلاة روى عن أبي بكر بن هرون، فهل يوجد لابن هرون كنيتان أم أن الرواية كانت عن هذا وذاك أم أن الكنية المذكورة في الذيل خطأ؟ الذيل مخطوط خزانة الرباط 16-2646.

(2) بالإضافة إلى أبي بكر بن الشحل الشلبي، وأبي العباس بن سيد الأشبيلي، والقرشي الطليق، وأبي الحسين بن صاحب الصلاة، بالإضافة إلى هؤلاء أنشد في ندوة جبل طارق الشاعر محمد بن حبوس الفاسي، وأبو عبد الله الرصافي شاعر الأندلس، وأبو جعفر بن سعيد العنسي وأبو العباس الجراوي صاحب الحماسة المغربية في أغلب ظننا. المراكشي، المعجب ص 213 - ص - 217 - 218 - 219. ابن عذاري: البيان المغرب ص 25 - 26. ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص - 166 - 267 - 268. الحلل الموشية ص 130. ابن بطوطة، المجلد الرابع ص 361. أحمد بلافريج، عبد الجليل خليفة. الأدب الأندلسي ص 178.

(3) الخورنق ذكر كثيراً في أشعار العرب وضربت به الأمثال في الأخبار، وهو قصر كان بظاهر الحيرة وقد قيل أن الذي أمر ببناء الخورنق هو النعمان، وأن الذي بناه له رجل من الروم يقال له سنمار وهو الذي قُتل عقابه من قبل النعمان على أثر إنهاء البناء في أسطورة معروفة.
المعجم، المجلد الثاني 401-402-403.

(4) السدير: يذكر بعض الرواة أن السدير قصر قريب من الخورنق كان النعمان الأكبر اتخذه لبعض ـ

(عند سرية وردت لتطلع أخبار الموحدين)

وفي خلال هذه الإقامة المؤيَّدة طرأ فتح في الكثرة بأن وصلت من جهة جبان سرية من النصارى لتطلع الأخبار، فخرج الأمر العزيز باتباعهم فأدركهم [39] الموحدون أنجدهم الله فتزوّهم وسبوهم ووصل الفتح فيهم، فزادت الخيرات والمسرّات والحمد لله. وقضيت مسائل الناس وحوائجهم ومآربهم ومطالبهم وأنصف المظلوم من الظالم. ووعدوا بالنظر العميم في نصرهم على الأعاجم.

وبعد هذا كان انصراف سيدنا أمير المؤمنين رضي الله عنه في أول عام ستة وخمسين وخمس مائة وأجاز البحر(1) منصرفاً إلى حضرة مراكش حرسها الله. ونظر إلى الأندلس بتجهيز العساكر بما أذكره بعد(2) هذا في موضعه إن شاء الله تعالى. واندفع فيها أمير المؤمنين رضي الله عنه سنة ست وخمسين المذكورة متوفراً على تمهيد أمره العزيز وسلطانه، وتألف العرب الذين جلبهم(3)

---

* ملوك العجم وقد ذكره الأسود بن يعفر بقوله:

أهل الخورنق والسدير وبارق	والقصر ذي الشرفات من سنداد

وذكره عبد المسيح بن عمرو عند غلبة خالد بن الوليد على الحيرة في خلافة أبي بكر الصديق:

أبعد المنذرين أرى سواماً	تروّح بالخورنق والسدير

الأبيات، انظر التعليق رقم 2 صفحة 87. المعجم ثالث ص 201 - 202. هذا ويوجد في الجهة الغربية الجنوبية من مدينة كربلا بعيداً عنها بنحو 53 كلم قصر تاريخي يحمل اسم «الأخيضر» وربما كان هو «السدير» أنظر كتاب الأخيضر، مطبعة الحكومة، بغداد صفحة 40 وقد وقفت عليه. لكن هناك من يرى أن فيه لمسات ساسانية، وأنها هي عربية.

(1) يستكثر ابن عذاري هنا بذكر موقعة فحص بالقرب التي حقق فيها الموحدون انتصاراً عظيماً، وقد أنشد أبو العباس الجراوي في هذه المناسبة رائية بديعة يقول في مطلعها:

أصلحت بين الواحد المتهار	بالمشرفية والقنا الخطار

البيان المغرب ص 25-26-27.

(2) إنشاء من ص 45.

(3) يفهم من النص أن عبد المؤمن كان أول من عمل على جلب العرب من الريفية، وقد اقتفى أثره ولده أبو يعقوب يوسف كما سنرى في صفحة 259، هذا وقد أثر عن يعقوب المنصور ولد يوسف وحفيد عبد المؤمن أنه أدخل العرب للمغرب وأنه ندم على ذلك، ومن المهم أن نعرف أن هناك فرقاً بين تصرف عبد المؤمن وولده من جهة، وتصرف الحفيد يعقوب المنصور من جهة أخرى. ـ

لحمايته[1] ورعيه وأن يكونوا من جملة أجناده وأعوانه، لما أمله من غزو الكفر وكسر صلبانه .

رجع الخبر الى ذكر عبد السلام [1] ووفاته

ذكر ما دار من الأوامر العلية في هذه الغزوة المنصورة ، غزوة المهدية وفتح افريقية وأخبار عبد السلام في وزارته الى حين الايقاع به فيها وميتته .

قال الراوية الثقة : لمّا خرج أميرُ المؤمنين رضي الله عنه من حضرته مراكش الى غزوته [40] الحافلة المؤيدة غزوة المهدية ، كان خروجُه في أول شهر شوال من عام ثلاثة وخمسين وخمس مائة على ما ذكرته[2] واستوزر عبد السلام بن محمد الكومي ووصل إلى سلى[3] برباط الفتح[4] بها، وَجّهه منها

* فالأولاد كان حليها المغرب تعرباً وتأقلماً بينما كان عمل الثالث سنة 584 بدافع إزالة تمردهم وعقابهم وذلك لما ضربوه من الخلف وناصروا علي بن إسحاق بن يوسف المعروف بابن غانية أحد أفراد الشين الذين كانوا ملوك المغرب والذي كان عميلاً لقراقوش مولى تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين الأيوبي، فرق إلان بين الطائين. الناصري، الاستقصاء. ثنان 151 - 150، ابن أبي زرع، القرطاس، طبعة فاس، ص 164 . ابن القاضي : جذوة الاقتباس طبعة فاس ص 349، محمد بن عبد السلام السائح : النص المهصور (مخطوط) ورقة 13 - 14. محمد الرشيد ملين: عصر المنصور الموحدي، المطبعة المحمدية، الرباط 1946 ث 242. إقرأ ص 273 وص 67 من التذكار لابن غلبون، وانظر أيضاً الفاشوش في أحكام قراقوش للسيوطي.

(1) يعني به الوزير المقرب عبد السلام الكومي وستقف على ترجمة له وافية ، وانظر مع هذا البيان ، أخبار المهدي ص 143 . الاستقصاء ثان ص 125 .

(2) يعني ورد ذلك في السفر الأول من كتاب المن بالإمامة .

(3) سلى : يذكر ابو القاسم الزياني في الترجمانة الكبرى أن أول بناء بناه البربر لما دخلوا المغرب مدينة سلا ، ويذكر صاحب الاستبصار أن الذي اختطها مدينة هم أرباب البلد المشهورون . وقد كانت شالة تبدو ، في جملة ما تحتوي عليه ، قصراً بديعاً يعرف بدار ابن عشرة بناه أبو العباس أحمد بن القاسم من بني عشرة ، وتقع سلا هذه على شاطئ المحيط الأطلسي يفصلها عن رباط الفتح الوادي الذي يصب في المحيط . البيان 66 . الادريسي 72 . الاستبصار ص 140 . الروض المعطار ص 197 - 198 . ياقوت معجم البلدان . بوجندار : تاريخ رباط الفتح ، طبعة الرباط 1345 هجرية ص 18 - 19 . السائح : النص المهصور (مخطوط)

(4) رباط الفتح أو (المهدية) كما يسمى في العصر الموحدي : يقع على شاطئ المحيط وقد كان في

عبد السلام المذكور في قطعة من قطع البحر إلى جزيرة الأندلس ليتطلع أحوالها في أقرب مدة فوصل إلى إشبيلية ثم إلى قرطبة ثم إلى غرناطة وتطلع أحوال الأندلس كلها وأنهى إلى الطلبة الذين فيها الأوامر العزيزة التي حملها، وانصرف إلى أمير المؤمنين بسلى في خمسة عشر يوماً غاب عنه .

فلما تحرك أمير المؤمنين رضي الله عنه إثر ذلك الى غزوته على ما قدمت ووصل الى مدينة تلمسان أمر ابنه السيد الأعلى أبا حفص أن يصحبه في غزاته وكان والياً عليها فامتثل ذلك .

ولما وصل أيضاً إلى مدينة بجاية كان ابنُه السيد الأجل أبو محمد عبدالله والياً عليها فأمره أيضاً بصحبته والمشي في الغزاة المذكورة ومشيا مع أبيهما في العساكر المنصورة وتغلب عبد السلام على الحال كلها في هذه الغزاة وطال الساقات وضايقهُم ونسب إليهم عند أبيهم قبائح الأفعال، من الراحات والبطالات بالنهار وطول الليال، وقد كان قديماً قبل هذه الحركة المنصورة يقصر بهم رئيسُ العشرة معهم فرفع الى أمير المؤمنين رضي الله عنه أنهم يشربون الخمر [41] المحرمة وقرر ذلك وكرّر السطالبة لهم هنالك ، فأثر الخليفة لقوله وبعث عليهم وبعث شيوخ الموحدين الثقات اليهم ودخلوا موضعهم ومجتمعهم عليهم دون إذن ولا مشورة فوجدوهم يأكلون طعاماً وبين يديهم مشروب مطبوخ من الرُّب[1] الحلال الذي لا مرية فيه ولا ريبة

* القديم يتكوّن من برج للسكنى وكل ما حواليه أرض مراقبة ، وكان هذا البرج متملكاً لثلاثة : بعضه لأهل سلا أهل بني العشرة وبعضه لابن وجاد من أهل إشبيلية ، وطالب المخزن فاشتراه الخلفاء من أربابه وخلص لهم ، وهكذا لما وصل الخليفة إلى سلا سنة 545 بنى القصبة المعروفة الى الآن على فم البحر ، وأجرى لها الماء من عين غبولة بواسطة المهندسين . الاستبصار ص 140 - 141 .

Jean Léon L'africain :

Description de L'afrique 1956 page 164 - 165 .

راجع صفحة 305 - 306 من ابن صاحب الصلاة والتعليقات التي تمس تأسيس (المهدية) .

(1) الرُّب ـ كما في لسان العرب ـ : الطبيخ الخاثر من عصير العنب ، وقد وقفت في رجز مخطوط يوجد

فرجعوا إلى أمير المؤمنين وشهدوا عنده بالحال، وزوّروا عنده كلام كل مطالب وحيلة كل محتال، فتيقن أمير المؤمنين رضي الله عنه مطالبته لهم، ولم يُظهر له شيئاً مما به نحلهم، فلما نازل أمير المؤمنين رضي الله عنه المهدية وأقام عليها المدة الطايلة المذكورة وخاطب أهل مدينة قابس[1] بالتوحيد بعث عبد السلام المذكور من المحلة بعسكر ضخم من الموحدين أعزّهم الله مقدماً عليهم مع جملة طلبة وحفاظ، فلما وصلوا على ثمانية أميال من قابس، بادر أهلها مع قاضيهم بالخروج، الى الموحدين وتلقيهم بالطاعة، والتزام أمر الدين والجماعة[2]، فأعملوا السير في الحين الى المدينة المذكورة فانهزم من

- بمكتبة جامعة غرناطة يقع في نحو 1333 بيتاً من نظم أبي عثمان ابن الشيخ ابي جعفر بن ليون التجيبي على كيفية عمل الرُّب، ومما يقول :

« الرُّب طبيخ عصير ماء العنب	بعد تعدي ثلثه المجتنب
لتشتد في الحطب، أو للربيع	في الحطب الرطب فذا الشيّان ربع
واطبخه مع ماء بسواء وشراك	والسوية مدة طبيخه اشتعال »

وهذا المخطوط تعمل الآن الدكتورة إكرازاس Iguaras على نشره وقد أوقفني - مشكورة - على نصوصه الاصلية وقد ذكر لي ان اسم (الرُّب) معروف الى الآن في إسبانيا لنوع من المشروبات : Arrope ، وقد كان شربه معهوداً ، أول الأمر ، لشدة برد الجبل وثلجه كما نرى . لكن الموحدين لم يلبثوا أن انتبهوا الى أنه مفعول ، لا يختلف في مفعول الخمر الحرام فأصدروا الأوامر بمنعه ، وهكذا نجد ان كان الرُّب يقدم في الاحتفالات الرسمية وبعد ان كان يباع بمكان خاص بمدينة مراكش (باب الرُّب) بعد ذلك شيوعه في سائر أطراف المملكة سنة 580 ورجع الناس الى مبدأ ابن تومرت . الاستبصار ص 211 . بروفنصال : رسائل موحدية ، الرسالة 28 صفحة 164 . الاستقصا ج1 ص 189 . ابن إبراهيم ، تاريخ مراكش أول ، 109 .

Allain et Deverdun :

Les portes anciennes de Marrakche : Hespéris T. 44 - 1957 page 121 - 123

(1) قابس : مدينة كبيرة قديمة أزلية تقع غربي جزيرة جربة جنوب صفاقس وقد كان عليها سور من صخر من بناء الأوائل ، وقد أحاط بها خندق كبير يجرون اليه الماء إذا خافوا من نزول عدو عليهم ، وهي كثيرة الموز والتوت . الاستبصار ص 112 ياقوت معجم البلدان .

(2) قال عبد الله التيجاني :

« فتركهم (عبد المؤمن) إلى تونس ، وكان نزوله عليها يوم السبت العاشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة (سنة 554 هـ / مايه 1159 م) واتصلت الأخبية من الحلية إلى حلق الوادي ..

كان في جوانبها من العرب[1] القاطنين بها وقتلوا واستأصلوا على ما تقدم الشرح به في هذا التاريخ بالرسالة الواصلة[2] من سيدنا أمير المؤمنين في وصف هذا الفتح . واستبدّ عبد السلام بجميع الغنائم والأموال ، وتغيّل ما شاء من الأثقال ، ولم يعلم بما فتح الله من الأموال ، وأدل [42] بقرابته ووزارته غاية الإدلال ، فنسب إليه في الأموال الاحتجان ، والإنكار والكتمان .

وفي مدة مغيبه عن المجلس المذكور تكلم أشياخ الموحدين الناصحون لهذا الأمر العزيز بعضهم مع بعض في حال عبد السلام المذكور واستعلائه عليهم وتقصيره بأولاد أمير المؤمنين السادة ومطالبته لهم وتشكي السادات الى الأشياخ بحالهم وبما دهوا به من عبد السلام من الاذاية ، فقال لهم الشيخ أبو محمد بـرزيجن[3] وكان من أهل الرأي والدهاء والعقل والفضل : « الذي أرى من

= وعاين أهل تونس أمراً عظيماً ، وأيقنوا بالهلاك ، وأقام العسكر ثلاثة أيام لا يقاتلونهم ، فنزل إلى عبد المؤمن أشياخ لطلب السلم من أهل تونس ، منهم بنو عبد السيد : عمر ومعاوية ، وعبد السيد ، ومنهم أبو منصور بن إسماعيل وابن عمه علي ، ومنهم الخارجي محمد ، وحمزة بن حمزة ، وعبد العزيز الصدوري وغيرهم ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، فوصلوا الى عبد المؤمن فطلبوا المغفرة منه ، فسلموا به ، بعد مكابدة شديدة واشتراع عظيم من عبد المؤمن . » الخ .. (من رحلة التجاني ، طبع تونس (المطبعة الرسمية) سنة 1377 - 1958 ص 345) ويذكر من جملة الذين وردوا على عبد المؤمن من طرابلس الغرب الشيخ ابن مطروح مغيراً عن المدينة . أنظر رحلة المقدادي المسماة جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، ص 36 .

(1) يحكي ابن عذاري هنا انه لدى سنة 554 ظهر على العرب من بني سُليم المعتدين على مدينة قابس ما أوجب استئصالهم ، وأن عبد المؤمن خاطبهم بشعر طويل للقاضي أبي عمران منه قوله :

السَّلِمُ دعوة في أعداء مرشد	هاج إلى الحق السَّنن المصحد

كما خاطبهم بشعر ثان لابن طُفيل إلا انه لم يثبت منه شيئاً .

ابن عذاري ، البيان ص 21 .

(2) لم يصل ابن صاحب الصلاة ، كما سلف ، نص الرسالة ولذا اكتفى بوصف بعض العناصر فيها . (أنظر صفحة 5) وليس من شك في أن يكون السفر الأول قد تضمن الحديث كذلك عن فتح أفريقية كما يؤخذ من ابن عذاري الذي أخذ ينقل عن ابن صاحب الصلاة عند أحداث سنة 554 ، البيان المغرب ص 2 .

(3) يظهر من سياق الكلام أن الشيخ أبي محمد هذا مركزاً هاماً في البلاط الموحدي غير أننا لم نعثر على ذكر له بعد هذا ، وربما كان الاسم (برزيجن) أو (برزيكن) ، وهما اسمان وردا في بعض

الرأي والنصيحة لله وللخليفة أن نتكلم اليه بجميعنا معشر الموحدين والطلبة ، وأن يجعل بيننا وبينه من يوصل اليه كلامنا من بيننا واحداً ، فقبلوا رأيه واجتمعوا وتكلموا إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه في أن يكون ابنهُ السيد أبو حفص الذي يوصل كلامهم اليه فأجابهم الى ذلك ، ووزر السيد الأعلى أبو حفص في ذلك اليوم ، وقال أمير المؤمنين رضي الله عنه لأشياخ الموحدين أعزهم الله ولجميع طلبة الحضر : إن الله تبارك وتعالى يقول على لسان نبيه موسى : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ فاستبشر الموحدون أعزهم الله بالأمر الذي أمر ، وكمل لهم الرأي الذي دبر .

فلما انصرف عبد السلام من الحركة المذكورة [43] وفتح الله المهدية، ورحل أمير المؤمنين عنها الى إفريقية وفتحها وهزم العرب واستقاهم على ما ذكر ، كان عبد السلام يماشي على ظهر من حاله فلما انصرف أمير المؤمنين رضي الله عنه ، ووصل مدينة تلمسان ، تشكى أهل العدوة بعمال عبد السلام من حملهم على الرعية وظلمهم وتعديهم ، ومن كومية[1] أصحابه ووصفهم باحتجان الأموال والخيانة للأمر في جميع الأعمال ، وأطنبوا في التشكي بالتبكي وأضافوا ذلك الى الرضى من عبد السلام بجورهم[2] فأمر أمير المؤمنين بجمع المشتكين وحضور أشياخ

* المراجع الموحدية . ابن الزيات ، التشوف الى رجال التصوف نشر الأستاذ أدولف فور طبعة الرباط 1958 ، ص 404 . ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ص 730 .

(1) كومية : معلوم أن البربر جذمان عظيمان : البرانس والبتر ، وأن كلا منها تتفرع عنه قبائل فمن القبائل التي تتفرع عن البتر قبيلة ضرية أو ضريسة ، وتضم فرقتين بني فاتن ، وبني يحيى . فمن بطون بني فاتن مطماطة ومطغرة ، وتضم كومية ومنها الفخ فكومية إذن إحدى بطون بني فاتن من البرابرة البتر . ابن خلدون ، سادس 176 - 178 . الاستقصا أول 64 - 65 .

(2) كان عبد المؤمن ـ وبنوه كذلك ـ يلتفت الى الفتت عثرات الولاة ، ولذلك فقد كان يصيخ بأسماعه لكل شكوى تمت تكشف الجفاء والظلم . ابن عذاري 125 ، تاريخ الأندلس ، ترجمة الأستاذ عنان ص 304 .

محمد المرير : المحاكم الإسلامية طبعة تطوان 1952 ص 35 .

الموحدين وطلبة الحضر والقاضي لسماع أقوالهم ، وتبيين تشكيهم بما كلفوا من حمل أثقالهم ، فبثوا وقالوا وأطنبوا ، ووصل كلامهم الى أمير المؤمنين على أبين التوصل والتفصيل فتغيّر وتأثر وقال : « عجباً من هذا الأمر وسعته ، وعدم المال عند مأمنه ، كانت لمترية[1] إنما يملكون الى تلمسان هذه وكانوا يصنفون أجنادهم ونحن الآن قد ملكنا ذلك وزائداً على ما كان بأيديهم : إفريقية كلها ولا عندنا ما نُعطي للموحدين ، هذا من عجب العجب » وعبد السلام واقفٌ يسمع . فقال له عبد الحق بن وانودين[2] وأخوه تميم بن وانودين[3] : يا أمير المؤمنين : ذلك لتضييع المخازن والـذين قال أمير المؤمنين : والذين يكرر هذه الكلمة . قالا : نعم فقام أمير المؤمنين من مجلسه مغضباً ليدخل [44] موضع مقره ، فبادر عبد السلام بتقديم نعله ، فتركها أمير المؤمنين ولم يلبسها ومشى حافياً إلى موضعه .

قال الشيخ أبو يحيى زكريا بن سنان[4] حدثني الشيخ أبو عبد الله محمد[5] بن يوسف بن وانودين قال : كان عبد السلام من بعض أصحابي

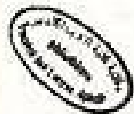
(1) لمترية : من القبائل التي تتفرع من البرانس صنهاجة التي تصل بطونها الى نحو السبعين منهم لمتونة وكدالة ومسوفة ، وقد كانت لهم فرقتان عظيمتان الزيريون بإفريقية والمتلثمون بالجزائر والمغرب وبلاد السودان ، وقد كان موطنهم الأول بالصحراء وسط ممالكهم أعني بين بلاد البربر وبلاد السودان ، وقد استقروا بعد فتح الأندلس ثم كانت لهم صلة وثيقة بأراضي السودان فشنت منذ الأيام الأولى بعثة عبد الله بن ياسين الاستبصار ص 213 . ابن خلدون سادس 176 - 177 . الاستقصا ثان 66 . . .

(2) هذا من أصحاب المهدي المشتركين بعد التمييز وهو أبو محمد عبد الحق بن وانودين الهنتاتي ويظهر أن له صلة بسليمان بن وانودين والي تلمسان . البيذق : أخبار المهدي ص 33-34-35 . الاستقصا ثان ص 98 . محمد المختار السوسي : سوس العالمة ص 20 .

(3) هو الشيخ أبو الطاهر تميم بن وانودين من أصحاب المهدي كذلك . المصادر السابقة .

(4) أحد الرواة الحفاظ الذين تردد ذكرهم عند ابن صاحب الصلاة ، وأبوه هو الشيخ يحيى من أهل خسين ، وقد عهد الى الآن خمسة وستين وخمس مائة بالولاية على طيرة وشترية والعليا ، انظر ورقة 146 من المن بالإمامة .

(5) هو أبو عبد الله محمد بن أبي يعقوب يوسف بن وانودين من أهل هنتاتة البيذق : أخبار المهدي 33 - 34 - 35 .



فرغبت فيه إلى عمي عبد الحق وتميم ابني والودين أن لا يزيدا في الشهادة عليه ، فقالا لي : والله لئن لم تترك يدك عنه لنقتلنَّك ، فسكتُّ فلما كان في ظهر ذلك اليوم قبض على عبد السلام وسجن في موضع مخْبِه ووصل السادة رأيهم والموحدون فيه .

قال الراوية : فلما أقلع أمير المؤمنين من تلمسان تلطف لعبد السلام المذكور في السراح فكانّ أمير المؤمنين رضي الله عنه أنعطف لهُ وعُلِم بذلك فخُوطِب مَن في تلمسان ممن يختص بالأمر أن يُتحيل في موتة عبد السلام فاجتمع الرجل الذي وصل إليه الأمر بالسجان وصنع له السجان ثُردة في فروج جعل فيها سُماً ، ورغب لعبد السلام أن يأكلها وخدعه بأن قال له : قد وصل الأمر بسراحك ورغبتي منك أن تجازيني على حسن تلطُّفي بك . فقدم له الطعام والثردة فأكلها وتشعر في الحين بالسم فيها فرمى باللقمة التي كانت في يده في وجه السجان وقال : خذ ثردتك أهلكك الله ! ومات من ليلته وحدثني أبو العيش الكومي[1] أحد أشياخ كومية قال لي : كان [45] الخديم الذي يعجن له الخبز الذي يأكل كلَّ يوم عبد السلام يجعل له فيه مقداراً من المحمودة[2] فيسهل في كل يوم لحمه وينسل عظمه حتى لم يبق فيه إلا عيناه .

(1) ابن ذهب الى إشبيلية في صائفة أبي عبد الله بن الشيخ أبي إبراهيم لما عين والياً عليها سنة إحدى وستين وخمسمائة . أنظر ص 147 من المن بالإمامة .
راجع كتاب الطبخ في المغرب والأندلس نشر : ويثي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية المجلد 9 و10 سنة 61 - 1962 أنظر هناك أنواع الثردة التي كانت آنذاك خاصة ص 115 - 116 .
(2) المحمودة : نوع من اليتوع : إنه نفس الفول الذي السقمونيا . من خصائصه كثرة الإسهال ، وقد ذكرت بعض المصادر أنه صمغ الفربيون ، كما حمله بعض القواميس مرادفاً لاسم نافوت ، وقد اعتيد الانتقام في القديم بطريق الإسهال كما يحدث التاريخ . وقد ورد ذكر (المحمودة) في كتب الصيدلة والطب كما ورد ذكرها في كتب الحسبة ، وقد ذكروا أن أفضل أنواع المحمودة هو ما يرد من أنطاكية (Scammonée d'Antioche) . دوزي مادة (المحمودة) . محمد النجاري بك . قاموس عربي - فرنسي مادة سقمونيا . الوزير الغساني : حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار . مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 35 ج ص 13 .
Renaud : Trois études de la médecine arabe en occident . Hes 1951 T X II Fas. 2 P. 219

وكان السبب الذي كثر إدلال عبد السلام به على الأمر أن كان والد أمير المؤمنين قد زوج أيام الشورات والدة عبد السلام فولدت له ابنة تسمى بندة[1] فكان يرى لنفسه حقاً ولم يعلم أن الملك عقيم وأن مسراته هموم ، ومرضاته كلوم ، وكانت تلك الأخت (بندة) قد زوجها أمير المؤمنين رضي الله عنه من الشيخ الموحدي أبي حفص فلم تحسن عشرته فطلقها برأي أمير المؤمنين حين أساءت الزوجية معه وهجر أمير المؤمنين بندة وعوضه خيراً منها ، وأعقب عبد السلام من البنين . . . . .[2] .

رجع الخبر إلى تبيين ما قدّمته من حرب قرمونة حتى فتحها الله :

ذكر انصراف السّيّد الأعلى أبي يعقوب رضي الله عنه من جبل طارق إلى إشبيلية وانصراف السّيّد الأسنى أبي سعيد إلى غرناطة بعد إجازة أمير المؤمنين رضي الله عنه البحر منصرفاً إلى حضرة مراكش على ما ذكرته :

[46] ولما انصرف السيد الأعلى أبو يعقوب إلى إشبيلية من مُوادعة أبيه رضي الله عنهما ، وذلك في أوائل عام ستة وخمسين الموافق لشهر[3] فبراير العجمي رتب المقانب والسّرايا على حرب الأشقياء الشرقيين الكافرين أهل قرمونة يغادونهم ويراوحونهم بساحتها فلاذ الأشقياء المرتدون فيها بالجدران والأسوار ، واحتجبوا بحيطانهم راضين بحالة الضيم والحصار ، ظانين بأنهم مانعتهم حصانتها وأنى لهم هذا الامتناع من أمر الله الغالب القهار ، فعم

(1) كتبت في البيذق بالقاف بدل الباء : قندة . انظر صفحة 24 وص 44 من البيان المغرب لابن عذاري .
(2) به الناسخ في الطرة إلى أن هنا بياضاً ، وقد عرفنا من بنيه محمد الذي ظهر في وساطة بين والي المهدية وبين الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص .
التيجاني : الرحلة ص 350 .
(3) أوائل عام ستة وخمسين وخمسمائة توافق يناير العجمي 1161
أنظر جداول الدكتور كاطنو (Cattenoz)

جهتهم الحصار ، وظلوا من ضيقة الإسار ، بحال من لا يسرح له بالصبح مال ولا توقد له بالليل نار ، ويسّر الله تعالى ببركة الأمر العزيز أدامه الله أن مكن الله الغزاة الموحدين من الغادر الشقي الكافر عبد الله بن شراحيل الذي غَدَرَ مدينة قرمونة[1] ومكّن منها بدلسه محمد بن همشك ، وسيق أسيراً مكتوفاً الى السيد الأعلى أبي يعقوب بإشبيلية فغزاه وغزا أصحابه وأتباعه وأشياعه الساقطين .

وفي أثناء هذا الغزو وصل الشيخ المرحوم الفاضل أبو يعقوب يوسف بن سليمان[2] بعسكر ضخم إلى إشبيلية من الموحدين أنجدهم الله وأعانهم من تجهيز سيدنا الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه عند وصوله إلى مراكش من انصرافه المذكور [47] فاتصلت آمالُ الناس ببلاد الموحدين عند وصولهم وحلت المسرات بحلولهم وأدخل الشيخ بهم الميرة والأقوات والآلات إلى قرطبة ، وحيت وقويت وأقام بإشبيلية الى أن ظهر النصر على الأعداء ، واستمر الظفر بالأشقياء وتحصلت صيقة أهل إشبيلية عند أهلها ورعيتها على أرفى الأمن في الجهات والأرجاء . وكان انصراف الشيخ المرحوم المذكور معلماً الحضرة العلية بجهاده واجتهاده . ثم أن السيد الأعلى أبا يعقوب رضي الله عنه مشى من إشبيلية إلى زيارة أبيه الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه حين أندع بحضرة مراكش على ما ذكرته ناظراً في غزوة الروم التي أضمره في نفسه من الاحتفال في ترتيب العساكر للغزو العظيم . واستخلف السيد الأعلى أبو يعقوب رضي الله عنه بإشبيلية لحرب قرمونة الشيخ الحافظ الشهيد أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي[3] ، ومنازلة الأشقياء الذين بها من رجل مجرب ، فارس مقدام في الحروب مجرب ، حافظ فاضل درب بالفتنة سايس

(1) انظر التعليق رقم 3 ص 145 من المن بالإمامة .

(2) يُعد أبو يعقوب هذا من أهل خمسين ، وهو من تنملل كان زعيماً للموحدين ومناصحة أمير المؤمنين . البيذق ـ أخبار المهدي ص 33 - 34 - 35 .

(3) من شيوخ الموحدين البارزين وقد استشهد في موقعة مرج الرقاد انظر التعليق رقم 1 صفحة 93 .

ذي ناب في الفتن ومخلب ، خطيب باللسان الغربي المعرب ، فتجهّز بذلك الجيش الى حرب قرمونة المذكورة ، وسكن قلعة جابر[1] على بُعد أميال منها يغاديها ويراوحها بالغزو كل يوم ، ويسري بالغارات نحوها طول ليلها حتى يصبح صباح [48] النوم ، فخامر الرُّوع لابن همشك في مدينة جيان وفي بلاده ، ولم يغثها ولا أمدّها بعون من استمداده ، وأسلمها وأفردها من نظره عند عجزه الذي عجّزه الله بنيته وفساده . فسار أبو محمد عبد الله بن أبي حفص المذكور من قلعة (جابر) ونزل عليها لصق سورها بالموضع المعروف بحصن ابن سلام[2] بعسكره المؤيد ، وفي صحبته الشيخ أبو العلاء بن عزون نصيح الأمر العزيز ، ومعه أصحابه الجند الأندلسيون المرسومون في زمام الأمر الكريم حتى ضاق حال مَن في داخلها من الرعية والشرذمة بالحصار ، ويئسوا من أصحابهم الأشقياء من الغوث والانتصار ، فقيض الله رجلاً من أهل قرمونة اسمه « شراحيل »[3] ، ليس من أهل قرمونة ، وليس من الغادر الكافر المسمى أولاً ، المذكور الذي غدرها ، المعروف بعبد الله بن شراحيل في حسب ولا نسب إلا اسم اتفق فيهما ، فداخل الموحدين ـ أعزهم الله ـ بالليل سراً في محلتهم وطلب منهم الأمان في نفسه ورعية بلده والإحسان له إن هو أدخلهم المدينة وبشّر الله له الأمنية النبية ، فأنعموا له فيما طلب ورغب فاجتمع بأصحابه وارتبطوا له لما ارتبط ، وضمن لهم الأمان والشرط الذي شرط ، وأدخلوا الموحدين ـ أعزهم الله ـ المدينة من البرج المعروف « بقرن

(1) قلعة جابر (Alcalá de Guadaira) تقع جنوب قرمونة على مقربة منها ولا تبعد كثيراً عن إشبيلية ، وإليها ينسب الشاعر عامر بن خدوش القلعي القائل :

ألا يا سقى الرَّحمن قلعة جابر ... فكم لي فيها من أصائل زواهر

ابن عذاري 171 : ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب أول ص 291 .

Huici : Historia . P . 248 - 253

(2) (حصن ابن سلام) لم نقف على مكان هذا الحصن في « الأندلسيات » التي بين أيدينا وإن كنا نعلم أنه كان على مقربة من قرمونة .

(3) لم نقف على ما يميز شراحيل هذا في الأخبار المتعلقة بقرمونة في المصادر التاريخية .

المعزة »[1] كما فعل أولاً بالغدر من ذلك الموضع .

[49] وفتحوا باب المدينة للموحدين ، وتملكوها في الحين ، وانحصر الشقي القائد الشرقي ابن أبي جعفر[2] بالقصبة مع أصحابه ثم نزل على الحكم فيه وفتحها الله ضحوة يوم الجمعة العاشر من شهر المحرم وبموافقة اليوم[3] السادس والعشرين من ينير العجمي من عام سبعة وخمسين وخمس مائة ، وكان غدرها على ما تقدم في التاريخ به[4] ضحوة يوم الجمعة أيضاً الخامس عشر من ربيع الأول ، وبموافقة اليوم[5] الثاني والعشرين من مارس العجمي عام خمسة وخمسين وخمس مائة على ما ذكرت في التاريخ[6] ، وقبض يوم فتحها على القائد الشرقي ابن أبي جعفر وسير مكبولاً في الحديد إلى سجن إشبيلية وبقي إلى أن نفذ الأمر المطاع أدامه الله من الحضرة العلية بصلبه فصلب في الرملة[7] تحت قصر ابن عباد من إشبيلية وارتفعت فتنة قرمونة على ما ذكرتها في التاريخ .

ولما دخل الشيخ الشهيد أبو محمد بن أبي حفص بن علي قرمونة غسل جامعها بالماء من . . . . . . [8] ولقد مشيت[9] إليه فيها وهنّيته على الفتح وهو

(1) لعل المعزة برج بقرمونة ولم نقف على ذكر له في آثار غرناطة .

(2) ابن أبي جعفر : قائد حامية قرمونة وقد كان مصيره الأسر ثم القتل والتصليب تحت قصر ابن عباد ولعل له صلة بابن أبي جعفر الذي ثار بمرسية وقتل سنة 540 .
الحلة السيراء ص 208 - 209 - 218

(3) الموافق لليوم العاشر من المحرم من عام 557 هو 30 دجنبر 1161 لا 26 من يناير .

(4) راجع ص 20

(5) الموافق كما تقدم ـ حسب جداول الدكتور كالطر 25 مارس 1160 .

(6) انظر ص 20 .

(7) الرملة (Rambla) يظهر أنه ميدان تحت قصر ابن عباد . محمد الفاسي : الأعلام الجغرافية الأندلسية (البينة) يوليوز 62 ص 57 .

(8) هنا بياض في أصل المخطوط ثم إن هذا المسجد هو بدون شك الجامع الذي ورد وصفه عند الحميري صاحب الروض المعطار والذي يحتوي على سبع بلاطات تقوم على أعمدة رخام وقواعد من حجر . الحميري ص 159 .

(9) لأول مرة يظهر ابن صاحب الصلاة بالأماكن بقرمونة ، ويظهر أنه كان في ركب المجاهدين .

في الجامع بنفسه وهو جالس مستندٌ إلى الحائط الشرقي من جامع قرمونة والرجال يغسلون الجامع بمرأى منه ، وأقام فيها حتى أصلحها وأمنها وانصرف إلى إشبيلية ، وأعلم في خبر فتحها حضرة الخليفة [50] بما فتح الله له فشكر وحمد لكن الأيام عدت عليه إثر ذلك حسب ما أذكره من استشهاده[1] رحمه الله .

الخبر[2] عن غدر إبراهيم بن همشك مدينة غرناطة بمداخلة الغوي ابن دهري[3] مع اليهود الإسلاميين الساكنين بها الذين أسلموا على كره وما حدث عليها من الوقائع

قد تقدم التاريخ في قبيح نكاية إبراهيم بن همشك لمدينة قرطبة باصطلامه وصلته في كل صيفة زروعها ، وتغطيته جنباتها وربوعها ، مدة الأعوام التي غاب فيها سيدنا أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى غزوته مدينة المهدية وفتحها وفتح أفريقية ، وأنه استولى بغدره وشرذمته على مدينة قرمونة ، ولم يبق من البلاد المجاورة لإشبيلية إلا القليل ثبّ الله نفوس أهلها

(1) كان ذلك ببونة (مرج الرقاد) انظر صفحة 154 من (المن بالإمامة) وراجع التعليق رقم 3 صفحة 93 .

(2) عني المستشرق الهولاندي الشهير دوزي بترجمة هذه القطعة من كتاب المن بالإمامة التي تبتدئ من هذه الصفحة 50 إلى صفحة 62 وذلك . وقد أزعجه أسلوب ابن صاحب الصلاة . الذي يترجمه المقصود ، وقد كانت مناسبة للحديث عن « الضغط » الذي استهدف له ـ في نظره ـ بعض الأسبانيين وخاصة اليهود منهم الأمر الذي جعلهم يتظاهرون بالإسلام بالرغم من أنهم ليسوا كذلك . . ولم يفته أن يتحامل على ابن صاحب الصلاة الذي يعتبر في نظره مسرفاً مغالياً ومتعصباً . . .

Dozy : (Recherches) sur ce qui passa à Grenade en II 62 page 364 - 372

(3) كان ابن دهري صهراً لابن زيد مشرف غرناطة ، وقد استطاع أن يجمع حوله طائفة من اليهود المتظاهرين بالإسلام ، وعليه اعتمد ابن همشك في الثائر على غرناطة ، وإذا ما اعتبرنا ما ورد في بعض المصادر فإن المسيحيين أسهموا بدورهم في إثارة الأهواء ضد ظهور الموحدين . المصدر السابق ص 361 .

بالتوحيد ، والإقامة بالطاعة على الأمر السعيد ، فلما كان البشر الميمون بإياب سيدنا رضي الله عنه وعبوره البحر الى جبل طارق ، ثم انصرف الى حضرة مراكش على ما ذكرته[1] ، لازمت العساكر من الموحدين أعانهم الله حصار قرمونة على ما شرحته[2] ، حتى فتحها الله تعالى فأسف عليها إبراهيم بن همشك وهو بمدينة جيان ، فاضطرمت الفتنة في قلبه ، وعزمت [51] طويته المنافقة أن يغدر مدينة غرناطة إذْ هي على قربه . وداخل من فيها من اليهود الإسلاميين مع حليفهم المعروف بابن دهري الفاسق المنافق الذي كان صهر[3] ابن زيد مشرفها[4] قبل ، وكان السيد الأسنى أبو سعيد بن الخليفة رضي الله عنهما قد غاب عن غرناطة للزيارة ، فمشى هذا الفاسق ابن دهري سرّاً من ابن همشك في ليلة معينة يصلهم فيها الى باب الرملة[5] بغرناطة ، ويكسرون قفل الباب ويدخلونه فوصلهم في ليلة . . . . . من شهر . . . . .[6] من سبعة وخمسين وخمس مائة ، واتفق من سعد هذا الأمر العزيز وأهله أن كانت القصبة[7] من غرناطة محصنة بالرجال ، مجلوة بالأقوات والآلات واتحاد

(1) انظر صفحة 39 من ابن صاحب الصلاة .

(2) انظر صفحة 46 من المؤلف .

(3) هكذا في أصل المخطوط وهو الصواب، وقد حرفت الكلمة عند دوكايانكوس (De Cayangos) فصارت هكذا صحر بن زيد. Dozy : Recherches page 380 - 382 .

(4) المُشرِف بالاسبانية (Almojarife) كان هو الذي يتوصل بكل الواجبات والحقوق اللازمة عند الإيراد والإصدار للسلع فهو بمثابة المفتش العام للجمارك ، ومن الممكن ان يكون ابن زيد هذا كانت له هذه الوظيفة على عهد المرابطين ، فإن وزيراً للمالية في أيام تاشفين الصغير كان يحمل اسم أبي محمد الحسين بن زيد . Dozy : Page 381 .

(5) باب الرملة : أحد أبواب غرناطة ويقصد دون شك رملة البيازين حيث كانت تقوم سوق العطارة (Alcaicería) التي يقع في شمال المدينة في العدوة الغربية منها .
Dozy : 382. Huici : p . 201 - 200 .

(6) هكذا بياض ، ولعل المؤلف كان ينوي أن يأتي من اليوم والشهر ليملأ الفراغ الذي تركه ، لكنه لم يتمكن من ذلك ، وقد نقل ابن الخطيب أن ذلك كان في شهر جمادى الأولى لكنه ذكر سنة ستة وخمسين وخمسمائة . الاحاطة ص 309 .

(7) القصبة يعني بها القصبة القديمة التي توجد في العدوة الغربية جنوب رملة البيازين .
A Gallego Burin : Grenade . 1954 P. 124 . Huici : P. 201 - 200

الموحدين الأبطال ، فوصل الغادر ابن همشك على ما تروعد معه ، وقد أجمع الكفر مجمعه ، وكسروا القفل والباب ، وتنادوا بالصياح بالأصحاب ، فلما تسامع الناس بالمدينة الصياح والكفاح ، بادر من كان له ولاء ، واعتقاد في الدين واحتماء بالفرار بأنفسهم إلى القصبة ، والمعاونة والمعاضدة الى أخوانهم الموحدين الحَيّة فلما أصبح الله بالصباح من تلك الليلة المرزوءة وقد تملك ابن همشك المدينة ، خاطب المنافق أميرَه ابن مردنيش بمرسية يعلمه بما اتفق له ، وأطمعه أنه إذا وصل بشرذمته وعسكريته ينزل بالطلوع من [52] في القصبة من الموحدين قبله . فاحتشد ابن مردنيش من في بلاده ، من جميع أجناده ، واستدعى النصارى[1] أصحابه ووصلوا اليه وخرج في جمعه اللئيم ، طامعاً فيما ضمن له الغادر ابن همشك من شيطانه الرجيم ، واحتل ابن همشك يوم دخوله غرناطة بالقصبة الحمراء[2] التي في جبل السُّبيكة[3]

(1) كان القواد المسيحيون الذين أسهموا في هذه الوقعة ثلاثة الأول : ألفار رُذْريكث (Alvar Rodriguez) الذي عُرف في المصادر الإسلامية تحت لقب الأقرع ، والثاني أرمنكول السابع .Ermengaud VII الذي سماه ابن صاحب الصلاة القمط أرجال Urgel والثالث هو أخ أرمنكول السابع المسمى كوسبيراند دوصالص Caserand de Sales وسقط على تاريخ مصرع « الأقرع » أما هذان الأخوان فقد توفيا معاً في سنة 579 (1183) .

(2) الحمراء : تقع في العدوة الشرقية من غرناطة يفصلها عن القصبة القديمة نهر (حدارو) ولا تتوفر حول التاريخ القديم للحمراء على معلومات كثيرة ، وكل ما نعرف عنها انه ورد ذكرها أول ما ذكر عند الكلام على وقعة سنة 277 في عهد عبد الله الأموي ، وقد يكون بناؤها تم بعيد بناء القصبة القديمة ، وربما كان قصر ابن باديس لكن تاريخها ازداد وضوحاً بظهور بني نصر عام 689 . هذا ويظهر أن القصبة القديمة لم تكن لتحتمل الجيش المتحدث عنه ، ولذلك فإن الاستعانة برواية ابن الأثير ما يوضح المقام فقد ذكر أن القلعة كانت تحتوي فقط أنصار ابن همشك من الأندلس ، أما المسيحيون - وعددهم الثلث - فقد كانوا يعسكرون بظاهر القلعة الحمراء .
انظر أثر بيت في القصيدة ص 153 .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ المجلد التاسع طبعة القاهرة 1348 ص 78 .
Dozy : Recherches page 385.
A . Schaade : Alhambra : Encyclopédie de L'Islam Tome I page 280 - 281
A . Gallego Burin : Grenade 1859 . page 26 .

(3) كذا رسم بحرف ياء بعد الباء لكن الباء ثبت في كثير من المصادر الأخرى وقد ورد ذكر السبيكة في

الموازية لقصبة غرناطة(1) غرناطة وشرع منها في القتال ، وإقامة المنجنيقات لرمي الحجارة على الموحدين في قصبتهم بأعظم الاحتفال ، وعذب من حصل في يده من الموحدين وعيث فيهم ورماهم في كفة المنجنيق ، واستخف بالخالق في عيثه بالمخلوق ، وهزأ بجهله بكل فريق ، وأمد الله تعالى الموحدين بالقصبة ، وأعانهم وثبتهم بمعونته ونُصرته وكانت عندهم الأقوات والآلات فعدوها مع عون الله عدتهم ، وقطعوا الساباط(2) المتصلة بينهم وبين القصبة الحمراء حذراً من قتال الأعداء فيه إليهم واستغاثوا بأمير المؤمنين رضي الله عنه ، وبالموحدين الذين بإشبيلية : أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي الشهيد ، وشاعت الأخبار ، وسرى الرقاصون بالاستغاثة الليل والنهار .

---

* عن السبيكة فقد قال أبو الحجاج من شعر يعرّض فيه لغرناطة :

وأصلاح تجبير والسبيكة قد علت ... والمشتفق الأعلى تلوح تمرّده

وقال أبو إسحاق النصري وقد اشتاق إلى السبيكة :

لما نزلت من السبيكة صاعداً ... شمسٌ وبدت الذهبية إذ في المنزل
ساعجب لسطي شاة البناء لم يكن ... من قبلها متخبطاً في المنزل

هذا وقد نقلت بعض المصادر الإسلامية أن نزول ابن مردنيش كان على الأكمة التي تحمل اسم « كدية مردنيش » ونقل عن الأستاذ ابكلاز Eculias أن المكان يسمى في بعض الوثائق بكدية ابن سعد ، ويقتصر ابن الأثير على القول بأن ابن مردنيش استقر خارج غرناطة في موضع الشريعة ، ولا أثر عن المصادر المسيحية بعض الأعاريج الشعبية الأسبانية التي تتعلق بهذه الموقعة وتذكر « القصبة » و « الشريعة » .

ابن الأثير : الكامل ، مجلد تاسع صفحة 79 .

ابن الخطيب : الإحاطة ، نشر عبد الله عنان ص 123 - 358 .

Dozy : Recherches, page 381 - 382 - 384 - 385 .

(1) يعني بها القصبة القديمة التي تقدم ذكرها والتي تقع في العدوة الغربية من غرناطة .

(2) الساباط هو - على ما يفهم ابكلاز - Eguilaz الذي يحمل اسم « قنطرة القاضي » التي كانت تجمع بين القصبتين الحمراء ، والقديمة ، وقد ذكر في التاريخ أن قنطرة القاضي هذه شيدت حوالي سنة 447 هـ (1055 - 1056) وأن القاضي الذي تنسب إليه هو علي بن توبة الذي ولي القضاء لباديس بن حبوس ، والذي على يده كذلك شُيّد منبر جامعها . وقد اندثرت معالم هذه

ذكر حركة أمير المؤمنين

وكان أمير المؤمنين رضي الله عنه قد تحرك من حضرة مراكش [53] على عادته وطيب نيته للغزو - رضي الله عنه - وجعل الجنةُ مأواه في عام سبعة وخمسين المذكور وعساكره المؤيدة تابعة له فوصله الخبر بغدر غرناطة وهو بوادي كساس(1) على مرحلتين من مدينة رباط الفتح بسلا فأقلقه ذلك ، وتأثر لما هنالك ، فلما وصل رباط الفتح بسلا المذكورة تقدم السيد أبو سعيد بمن كان معه من أصحاب الخاصين به مسرعاً بالسير ليلاً ونهاراً إلى الأندلس لعله يدخل قصبة غرناطة ويفر ابنُ همشك عن القصبة الحمراء من المدينة بدخوله ، والسيد قد قرر عنده أن ابن همشك إنما هو في جملة الذميمة المشهورة له وإذا ابن مردنيش قد وجه لابن همشك المذكور عسكراً ذميماً من النصارى عليهم العلج الذميم الأقرع حفيد البرهانس(2) لعنهما الله ، في ألفي فارس

---

* القنطرة الآن ، وأكد البحث عنها الذين عثروا الأثر الذي يوجد على مقربة من الحمام القريب هناك .

Provençal : Hes , T.X page 121 - 122 .

Ambrosio Huici Miranda, Historia Politica , Page 200 - 201 .

(1) وادي كساس : لم يعرف موقعه ولا كتابات يعني شيئاً عن ذكر الوادي (Wadi - Kesas, Rio Kesas) وقد ورد ذكره هكذا في ابن عذاري (كسس) كمكان يوجد في منتصف الطريق بين الرباط ومراكش كما ورد ذكره في التشوف كذلك ، وهو كما نرى على بعد مرحلتين من الرباط . فبالمقارنة مع المراحل التي ذكرها الأدريسي وابن صاحب الصلاة نجد أن رأس المرحلتين من الرباط هو تيسيل (Gaisser) فيكون هذا الوادي هو : « وادي الترابي » بالشاوية جنوب مدينة سطات .

الأدريسي ، نزهة المشتاق ص 70 . المن بالإمامة ص 308 ابن عذاري ص 8 . التشوف ص 274 .

Dozy : P. 374

Les Guides Bleus (Maroc) 1925 , Carte, Page 112 - 113 page 120 . Huici P. 248 , C . 4

(2) هو Alvar Rodriguez حفيد ألبار فانيز Alvar Fanez ، هذا الذي لم تتحدث عنه المصادر المسيحية إلا مرة واحدة فيما يذكر ، وذلك سنة 542 (1147) في تاريخ ألفونس السابع ، وقد

ورجالة كثيرة . فلما وصل أبو سعيد الى قصر مصمودة[1] واجاز البحر الزقاق ووصل مالقة[2] استدعى من موضعه الشيخ الحافظ الشهيد أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن الوالي على إشبيلية أن يصله بعسكر إشبيلية وأنظارها أسرع ما يمكنه واستعجله في ذلك بحسب ما نله من حال عدوه ، فنهض أبو محمد عبد الله المذكور والتقى بالسيد أبي سعيد ، وتجمعوا بجمعهم وصَمَدُوا الى غرناطة والنصارى أهلكهم الله قد وصلوا قبل ذلك على ما ذكرته فتقدم السيد [54] بالموحدين والجُنْد الأندلسيين حتى وصل فحص أغرناطة[3] حيث السواقي الجارية بالماء لسقي أرضها في الموضع المعروف

* كانت له مواقف أبان فيها بحجة كثير من الناس فلذلك فإن اسمه قد رسخ ولا يعرف أجداده وحفدته إلا به . . وهو معروف في المصادر الإسلامية بالزرع بل ان القرطاس لم يدعه إلا بلقبه هذا .

ابن أبي زرع : القرطاس ، طبعة سلا . ص 158 جزء ثاني .

Huici : P. 200

(1) قصر مصمودة هو قصر المجاز لا يبعد عن طنجة ، تقابله جزيرة طريف من الأندلس ، أسسه البربر مصمودة أيام ولاية طارق بن زياد الليثي بطنجة ، ومنه كان جوازه بخيل طارق عام تسعين ، ومنه غالباً كان يتم عبور الجيش الى الأندلس ، وهو المسمى بالقصر الصغير . دوكا ستري . فرنسا السلسلة الأولى . المجلد الأول . 174 تعليق3

الأدريسي : نزهة المشتاق طبع ليدن ص 166 . المراكشي : (المعجب) ص 352-367 .

بوجندار : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح 1345 هجرية ص 22 . أحمد المكناسي عريبة المغرب الأركيولوجية طبع تطوان 1961 ص 20 .

Huici : Page 224 - 225

(2) مالقة : مدينة على شاطئ البحر جنوب غرناطة . وفيها استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها وقد كان تينها يحمل الى مصر والشام والعراق وربما وصل الى الهند وهي من تأسيس الأول وجامعها بالمدينة من خمس بلاطات ، وقد كان لها خمسة أبواب : باب الى البحر . . . وبما أنشده الفاضي بن حوط الله فيها :

مالقة حييت يا تينها   الفلك من أجلك يا تينها

نهى طبيبي عنك في علتي   ما لطبيبي عن حياتي نهى

الحميري : الروض المعطار ص 177 - 178 - 179 .

(3) فحص غرناطة (Vega de Granada) يقصد به السهل الأخضر الذي تشرف عليه غرناطة . الإحاطة ص 105 . Dozy : 375 .

بمرج الرقاد[1] على نحو أربعة أميال من أغرناطة المذكورة فخرج إليهم إبراهيم بن همشك بالنصارى وأصحابه ودارت الحرب بينهم في الموضع المذكور ، وظهر عدد النصارى، وراع الناس مددهم وعددهم بظهور الكمين عليهم فانهزم الناس بالموضع المذكور وولوا فارين وقطعت بهم عند فرارهم تلك السواقي فسقطوا فيها بخيلهم، وكانت من أقوى أسباب الانهزام وقتل واستشهد ذلك اليوم الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي المذكور وتخلص السيد أبو سعيد ووصل مدينة مالقة ، واستشهد في ذلك اليوم العصيب كثير من الموحدين رحمهم الله ، ومن الأندلسيين ، وكان هذا الرزء عظيماً ، وخطباً جسيماً ، وثبت الله الموحدين المحصورين في قصبة أغرناطة وفي ضبطها إذ كان هذا الخطب بمرأى منهم من القصبة لأخوانهم بإطلالها على الفحص المذكور وانصرف ابن همشك من هذه الوقيعة مع أصحابه النصارى الى القصبة الحمراء بأغرناطة وأسرى الموحدين بين يديه يقتلهم ويعبث فيهم على مرأى من أخوانهم حسب ما قد ذكرته في تاريخ المريدين[2] قبل .

(1) كان هذا الاسم يطلق على موضع بظاهر غرناطة على بعد بضعة أميال شمالاً من قرية الطرف (Atarfe) في سفح جبل البيرة (Sierra de Elvira) على مقربة من نهر شنيل ، ومقابلها الحديث هو (Majoreal) أو (Merrojal) . البيذق 126 . الحلة السيراء 230 . الإحاطة في أخبار غرناطة ص 308 نشر عبد الله عنان تعليق رقم 5 . أعمال الأعلام ص 261 .

Huici : 201 نقلاً عن دي لرينا Seco de Lucena : Notas Sobre (Al Andalus)

Toponimia Arabigo Granadina 1944 . P. 201

(2) صريح كما ترى في ان لابن صاحب الصلاة كتاباً متقدماً أسماه (تاريخ المريدين) وعندما كان دوزي يترجم هذه القطعة من الكتاب لم يكن قد وقف بعد على ما أورده الحلة السيراء حول كتاب تاريخ المريدين ، هذا الكتاب الذي نشره كما هو معلوم ، ولذلك فقد اكتفى بالإحالة على كتابه :

(Suppl . aux dict . ar). Recherches page 376 .

[55] ذكر وصول الخبر الحادث بمرج الرقاد على الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه

وأنه لما وصل خبر هذه الوقعية الى حضرة الأمير الأعز أدامه الله برباط الفتح بسلى ، وكانت العساكر المؤيدة من الموحدين أعانهم الله والعرب المجلوبين والأجناد المرسومين قد تلاحقت بالمقر الكريم على نية ما تحركوا اليه من الغزو لأهل الشقاء والروم اختار منهم الأمير الكريم أدامه الله عسكراً ضخماً ، فخماً شهماً ، من أعيان كل قبيل من أهل الشهامة والنجدة الذين تعودوا دلج الليل وإبطاء القتيل وجمعهم ووعظهم وعرفهم ما لهم في نصر الحق وقمع الباطل عند الله تعالى من الزلفى والأجر الدائم الكفيل الأوفى ، واجتمع في عدد الفرسان والرجال زهاء عشرين ألفاً عاهدوا الله تعالى وبايعوا الخليفة أمير المؤمنين ، أدام الله أوامره ، وحاز مفاخره ، على مناجزة الأعداء الأشقياء ، والكفار الأعداء والروم الكافرين وحماية لله تعالى في الدين وعوناً لإخوانهم الموحدين الصابرين المحصورين بقصبة غرناطة ، وأمر عليهم أمير المؤمنين رضي الله عنه ابنه الرضي الأمير المرتضى أبا يعقوب يوسف رضي الله عنه وأصحبه الشيخ الفاضل العاقل أبا يعقوب [56] يوسف بن سليمان[1] زعيم الموحدين ، وخالصة أمير المؤمنين ، لتجربته بالحروب ، ودهيه في الخطوب ، ومقارعته قديماً وحديثاً بهم الأبطال المتدرعين بالقلوب ، تيمناً به بما خص في هذا الأمر من النصر العجيب ، والرأي الناصح المصيب ، فتحركوا منه من رباط الفتح بسلى نافرين ، مسارعين بالسير مواصلين ، الى أن وصلوا مجاز[2] البحر الزقاق فاجازوا منه الى الخضراء[3] ونزلوا فيها ، ولم

(1) راجع التعليق رقم 2 ص 88.

(2) لم نعرف هل يقصد قصر مصمودة أو سبتة أو مركزاً ثالثاً ولكنا اعتمدنا أنه عندما يكون النزول في طريف يكون الإبحار من قصر مصمودة .. راجع التعليق رقم 2 ص 101.

(3) يعني الجزيرة الخضراء ، وتقع في الشمال الشرقي من جزيرة طريف غربي جبل طارق .
Huici, P. 224

نزل العساكر تتلاحق ، وتتبادر في الإجازة وتتسابق ، حتى أكملوا إجازتهم ثم تحركوا من «الجزيرة الخضراء» على تعبئة ، وطيب سريرة وقية ، صحبة الأمير والشيخ الفاضل المدبر وأموا على شاطىء البحر في الطريق السالك الى مالقة لاجتمعوا بمالقة مع السيد أبي سعيد .

ذكر الرأي السديد الموفق من الشيخ المرحوم أبي يعقوب إلى عساكر الموحدين

وتحرك السيدان الأجلان أبو يعقوب وأبو سعيد والشيخ المرحوم أبو يعقوب المذكور من مدينة مالقة بالعساكر المظفرة بعد تزودهم من الدقيق والعلوفات ، وأدرار النعم عليهم بالبركات ، ومعونتهم على غزوهم بأكمل الخيرات ، ونهدوا إلى أعدائهم بعون الله تعالى وبرأي الشيخ المرحوم [57] أبي يعقوب ، يرحل بهم كل يوم مرحلة رفيقة ، ويقيم بحسب ما يرى أن الرفق يعين فريقه ، قد سلك الطريق حيث اجتمع رأيه مع رأي الأدلاء من الرفق بالضعفاء ، والنهضة بأهل الحزم والنجدة والوفاء ، الى غرناطة بمحلة الأشقياء ، وابن مردنيش قد وصل بحشده وعسكريته ، وبالنصارى شيعته ، طامعاً فيما اطمعه الشيطان ، واستاله التباب والخسران ، ونزل في الجبل المتصل بقصبة غرناطة ، وابن همشك بجبل السبيكة[1] بالقصبة الحمراء مع النصارى وأميرهم العلج الأقرع حفيد البرهانس لعنه الله ومعه ابن القمط أرجال[2]

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 189.

(2) تذكر المصادر المسيحية أن القمط أرجال (Comte d'Urgel) كان سنة 1162 (557) هو إيرمانكو السابع (Ermengaud VII) الذي خلف أباه إيرمانكو السادس الملقب بدي كاستي (De Castille) سنة 1154 (548) وإيرمانكو السابع هذا مات سنة 578 (1183) وخلفه ولده ايرمانكو الثامن ولكن النص الذي بين أيدينا يؤكد أن المقصود هو إيرمانكو السابع فهو الذي كان سنة 557 قمطاً .. هذا ونرى أن ابن صاحب الصلاة يسميه ابن القمط أرجال عوض القمط أرجال لنفس السبب الذي حمله على أن لا يعطي ألفار ورذاكير مرتبة الحاجبي وانما حفيد البرهانس أي أن مدير الرجلين إيرمانكو السادس المدعو دي كاستي والفار فانيز كانا ـ

النصراني (و)[1] نحوه أيضاً في عدد أكثر من ثمانية آلاف فارس من النصارى أهلكهم الله سوى عسكريته الذميمة. وابن مردنيش في أكثر من هذا العدد وبين العسكرين وادي[2] حدارُه المتصل بغرناطة وقصبتها بفصل ما بينهما من الأرض في الاتصال، كما كان والحمد لله مهلكا لهم بالشرقي فيه يوم الحرب والنضال، وهم ينتظرون كل يوم وصول العساكر، ويظنون ظنوناً سبقت من الله تعالى حتوفهم فيها في ساعة ملاقاتهم بالسيوف البواتر، والموحدون أعانهم الله يمشون في طريقهم على تؤدتهم بعضا طريقهم، ونصر الله تحقق في أعلى الوجهم، حتى وصلوا الموضع المعروف بوادي دلر[3] القريب من قرية الهندان[4] فأقاموا [58] عليه ثم ارتحلوا إلى وادي شنيل[5] على قرب من غرناطة، والكفرة بجميعهم يظنون أنهم لا يقربون إليهم وأنهم على عاداتهم في التبطي من حركتهم. فلما كان يوم الخميس[6] السابع والعشرين من رجب

- معروفين جداً لدى المسلمين ولذلك فإنهم لم يسمعوا الابن والعقيد منهم إلا بهما. راجع التعليق رقم 1 ص 125. Dozy: Recherches page 387.

(1) لا توجد في أصل المخطوط - مع انها اشارة لما ورد في المصادر المسيحية ولشيوع ما يتطلبه النص ضرورية ولذلك أضفناها بين هلالين. أما أمير القمط المشار إليه من قبل ابن صاحب الصلاة فهو كوسران دوصال: (Cassorand de Sales) الذي مات سنة 1183 قريباً من بلنسية. انظر التعليق رقم 1 صفحة 125. Dozy: 387

(2) وادي حدارو (Darro) اسم النهر الذي يخترق مدينة غرناطة وهو فرع صغير من نهر شنيل وقد كان في القديم يحمل اسم نهر القلزم؟
ياقوت: معجم البلدان، المجلد الرابع ص195 - 388 - الاحاطة ص 532.
Dozy: quelques anciennes Localités de L'Andalousie (Recherches) page: 342

(3) وادي دلر (Rio Dilar) قرية ما تزال إلى الآن، وتقع جنوب غرناطة على مقربة من قرية الهندان. الاحاطة: 308 ، Dozy: P. 345 - Huici P. 202.

(4) قرية الهندان (Alhendin) تقع كذلك جنوب غرناطة قريباً من دلر، وقد استعارت هذا الاسم من القبيلة العربية المشهورة همدان وقد حرفت عن ويبي إلى (الهمدان)؟ الاحاطة ص 118.
Dozy: Recherches. page: 345.

(5) وادي شنيل (Rio Genil) يقع جنوب غرناطة وهو متفرع من نهر الوادي الكبير. الاحاطة ص 124. الحلل الموشية أول ص 129. Huici: 202 - 203.

(6) الموافق حسب جداول الدكتور كاطشتر هو 12 يوليه 1162 وهو ما عند دوزي في كتابه (Recherches).

الفرد عام سبعة وخمسين وخمس مائة جمع الشيخ المرحوم أبو يعقوب جميع أشياخ الموحدين أعانهم الله وأشياخ الأجناد والأنجاد من مسوفة[1] ولمتونة والقبائل وأشياخ العرب الجازين ووعظهم وأعاد التكرار بالموعظة بما لهم من الأجر عند الله تعالى في جهاد الكفرة أعدائه وعدوهم وأن الجنة مضمونة لهم عند الله إذا صدقوا، ووفوا بما بايعوا به ونطقوا. فجددوا في الجهاد النية، وأخلصوا لله الطوية. وأطلقوا خيلهم بعد صلاة الظهر من يومهم وعزموا على أن يسروا في الجهاد ليلهم واستلأموا السلاح وركبوا خيلهم بعد صلاة العشاء من ليلة الجمعة الذي كان الفتح في صباحه الثامن والعشرين من رجب المؤرخ وقدموا أمامهم الأدلاء والرجالة المصامدة[2] أهل النجدة المحاشدة، وتسنموا في الجبل[3] من أعلاه الذي على وادي شنيل المتصل بجبل السبكة والقصبة الحمراء حيث النصارى أهلكهم الله وصاحبهم ابن همشك ومشوا طول ليلتهم على تؤدة في الجبل المذكور على شواهقه وأحجاره [59] وقد سهل الله عليهم الطريق، على وعره وقرب لديهم البعيد السحيق، ووعدهم بنصره، وكانت الليلة نيرة في وسطها، مقمرة في آخر نصفها.

فلما فرق ضوء الفجر بالصباح من يوم الجمعة الثامن والعشرين المؤرخ المذكور أطلوا على محلات الكفرة في ذلك الصباح، فبدؤوهم في مضاجعهم بالكفاح، وخلطوا أحشاءهم بالسيوف والرماح، فلم يلحقوا أن يركبوا خيلهم إلا وقد أجاز الله بهم وبأيهم، ثم كانت منهم بعد موافقات وحملات ومدافعات على عادة كفرهم وطغيانهم وعبدتهم لصلبانهم. وضياء النور بالنصر قد انتشر، والصباح قد ميز العدو بصفته والجو بالقتام قد أظلم واغبر، فلا تسمع إلا ضربة سيف يخفق أو صوت غمغمة، أو جر جمجمة. وقد أذهل الله

(1) مسوفة: احدى القبائل القرطبة من صنهاجة التي تنتسب للمرابطين. راجع التعليق رقم 1 صفحة 117.

(2) المصامدة هم الشرفاء لقبيلة مصمودة احدى القبائل السبع التي تفرعت عن المرابطين. راجع التعليق رقم 1 صفحة 116 والتعليق رقم 1 صفحة 117 وكتاب هاملي وما اليه للمحقق.

(3) قد علمت أنه يُسمى كدية مردنيش أو كدية ابن سعد، راجع التعليق رقم 1 صفحة 189.

الكفرة وابن همشك وأنساهم، فظنوا أن الأرض من جبل السبيكة إلى محلة صاحبهم ابن مردنيش متصلة! وأعماهم في بصيرتهم وهي بوادي حدارّه[1] متصلة، فولوا أدبارهم عند الدفاع والانهزام، وتردّوا في وادي حدارّه عند إظلام ذلك القتام، فتقطعت في حافات ذلك الوادي أجسامهم، وحان في ذلك الصباح السعيد حمامهم، وهزمهم الله تعالى ونصر أولياءه الموحدين. وقتل في المعركة الأقرع النصراني حفيد البرهانس[2] وحزّ رأسه وسيق بعد أيام من الهزيمة إلى [60] قرطبة وعلق بباب القنطرة[3]. وتردّى في الوادي المذكور ابن مُحيّه صهر[4] ابن مردنيش وقواده الأكابر وفرسانه المشاهير، وكان ابن مردنيش بالجبل المتصل بغرناطة على ما ذكرته يرى قتل إخوته ويعاين حسرته وينتدب شيعته وكفرته. واتصلت الوقيعة، الساعية المطيعة، في الأشقياء والنصارى من كل جانب. واستولوا[5] الموحدون أعانهم الله عليهم يقتلونهم بتحكيم الرماح والسيوف القواضب، في السهل والجبل بنصر الله الواحد الغالب، ودخلوا مدينة غرناطة وسط النهار، على أتم النصر والأظهار. وخرج الموحدون المحصورون من القصبة في الحين، قاتلين لمن في داخل المدينة من الأشقياء القاطنين، وأقلع ابن مردنيش منهزماً من موضع محلّته

(1) من المظنون أن وادي حدارة ليس إلا مجرى منحدراً، وهذا يعتقد الأستاذ سيمون Simonet أن القشتاليين عندما أرادوا النزول من المكان المسمى (La Cuesta de los muertos) سالكين طريقاً ضيقة ووعرة، سقطوا من أعلى إلى أسفل حيث وادي حدارة الذي يكثر عمقه في هذا المكان بالذات. Recherches: page 379com. 1

(2) عبارة ابن أبي زرع: «وقال ابن صاحب الصلاة: كان فتح غرناطة وقتل الأقرع النصراني عام سبعة وخمسين». القرطاس ثاني طبعة سلا ص 155.

(3) باب القنطرة أحد أبواب قرطبة ومنها باب اليهود والباب الجديد وباب عامر. ويذكر ابن عذاري أنه علق بباب العطر.
البيان المغرب ص 33. المقري: نفح الطيب 1949 ج1 ص 13. الحميري: الروض — 153 156. الغزالي: نتيجة الاجتهاد ص 37 - 36. Haiti: p. 204.

(4) إياه يقصد أبو الحكم بن رقي الملشي ولد الأقرع حفيد البرهانس يشير في الأبيات:
(حسامك حل ابن مُحيّه بعد أقرعه   ضلالتها، وصراحها نحول)
أنظر صفحة 283-287.

(5) كذا من اللغة الضعيفة.

ببالي شرذمته وترك أخبيته وأسلابه، كما انفرد في ذلك أصحابه واقتفى الموحدون أعانهم الله أثره وقتلوا من أدركوه وأخبر خبره، وألحقوا حاله وأثقاله، وسرى فاراً بنفسه في تلك الجبال والأوعار، وإسأله كيف نجا! وكان هذا الفتح من أعظم الفتوح التي بشّر الله لأهل الأندلس، ورفع عنهم الفتنة وردّ بأرحهم إلى الشيح[1] (؟) وأنعم عليهم بخيره ويسره المنسرح، واتسب هذا الفتح بالعدوة والأندلس إلى سعد السيد الأعلى أبي يعقوب واستقر في نفوس [61] الناس ذلك، وعند أشياخ الموحدين أعزهم الله هنالك، وكان ذلك سبباً أن ينال الأمر العزيز والممالك[2]. وأعلم السيدان المذكوران والشيخ المرحوم أبو يعقوب بن سليمان حضرة الخليفة رضي الله عنه في حين ذلك اليوم بالفتح العظيم الذي يسّره الله بيمنه ودعائه وحسن طويته في أهل الكفر، ووصلهم بعد ذلك دعاء رضي الله عنه لهم بالثواب على جهادهم الكريم، ثم تأتّاهم من بركاته وهباته ما أربى على التكميل والتتميم. وما استنسره ووعاه من الإمام المهدي المعصوم[3]، وسر بذلك سروراً تاماً، وشكر الله تعالى شكراً عاماً،

(1) كذا في الأصل، ولعله تحريف لكلمة الشيح، ويكون القصد أن حالهم تغيرت من تباريح إلى تسابيح شكراً لله وحمداً.

(2) كذا في أصل المخطوط، والظن أن هذا النصر كان من البواعث التي مكنت السيد أبا يعقوب وأتاه الأمر والأمر هنا يعني الخلافة والملك لا يعني (الأمير) العزيز كما أثبته الناشر وهكذا حذف حرف الجر قبل اللفظ وأكده كما هو الشائع نحوياً ويؤكد ذلك هنا تصرف ابن عذاري هنا حيث يقول: «وكان ذلك سبباً في نيله الأمر العزيز».
ابن عذاري صفحة 38.

(3) كذا ظل الموحدون الأول يلقبون المهدي بن تومرت، ونحن نرى أن هذا اللقب لم يعد مستساغاً خصوصاً من قبل المنصور بن عبد المؤمن بل إن تلك الهالة من القداسة التي كانت يُضفيها الأوائل على المهدي أصبحت منعدمة للنقمة عليه، فقد روى التاريخ أن المنصور لما دخل مراكش سنة 627 صعد المنبر بجامع المنصور، وكان علامة أديباً بليغاً، فخطب في الناس ولعن المهدي على المنبر وقال: «لا تدعوه بالمهدي المعصوم ولكن ادعوه بالغوي المذموم، ألا لا مهدي إلا عيسى. . . وما نزل عن المنبر أمر بالكتب إلى جميع البلاد بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة وتغيير سنته التي ابتدعها للموحدين. ونص عليه النداء للصلاة باللغة البربرية وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي بل إنه أمر بتغيير الدراهم التي ضربها المهدي مربعة وقال: إن كل ما سنه المهدي . هو بدعة، لا سبيل إلى إقراره».

واجتمع الموحدون أعانهم الله بإخوانهم المحصورين في القصبة خير اجتماع، وشكروا الله تعالى على نصره لأمره المطاع، وإن غلبوا عدوهم فجازوهم صاعاً بصاع.

ولما أكمل الله هذا الفتح بعونه لم تبق بلد في البلاد المجاورة لغرناطة إلا وصل أهله تائبين، وبالطوع راغبين مذعنين متضرعين، فصفح عنهم بالعدل، وتفضل عليهم بما عود الله من الفضل، ونمشت الحال في ضم أموال المنافقين للمخزن، بما وجب عليهم من نفاقهم وارتدادهم إلى الفتن، ثم نظر في صلاح البلدة لمعنى التسكين والعمارة لجوانبها والتوطين، والتفتا[1] أحوال الموحدين المحصورين بالقصبة في ضيقتهم وجبر الله عليهم أموالهم التي انتهبت، ويسر الأمر [62] العزيز إليهم من الخيرات والأعطيات ما استكثرت لديهم واستغربت.

ثم عزم الرأي السديد بعد هذه السياسة، وإكمال فتح الله للرياسة، أن يتحرك العسكر المنصور لحصار ابن همشك بمدينة جيان، وأن يستأصل في جميع جناته من فيها من أهل النفاق والعصيان، وأن يخص هو بالنكاية والانتقام منه بأوفى الخسران، فنزل الموحدون أعانهم الله بساحة قريته المذكورة الظالم أهلها، السابق أخذها بما اقتضاه جهله وجهلها، فلاذ هو ومن فيها من الأشقياء والكفار بالجدران والآطام، وأصبحوا بأسوارهم راضين بحالة الضيم والاهتضام، ظانين بأنهم مانعتهم حصونهم ولات لهم من الامتناع من أمر الله والاعتصام. فانتسف كل ما وجد حواليها من الأموال، وخرب عامرها حتى رجع قفراً تندبه اليوم بسوء الأحوال، وعاين الخاسر الغادر ما عاين من سورة الأبطال، ودام بذلك إلى أن وصل الأمر العزيز باستنهاض قرطبة وإليها بالارتحال، على ما أذكره[2].

• المراكشي: المعجب طبعة القاهرة ص 291.
الاستقصا، الجزء 2، طبعة دار الكتاب بالبيضاء ص 212.
(1) كذا في الأصل ويظهر أن الصواب التفت.
(2) يعني في صفحة 64.

واتصل في أثر هذا الفتح العظيم نظر الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه لمدينة غرناطة وقصبتها سنام الأندلس، فملأ مخازنها في القصبة بها بالقمح والشعير والملح وآلات الحرب من الرماح والدرق والسيوف والقسي والسهام والترسة بما أبهت الناظرين، وقصر عن وصف الواصفين، وأوصل [63] أمره العزيز ذلك كله إليها من العدوة في المراكب في البحر إلى حصن المنكب[1]، وانتقل جميع ذلك من المنكب إلى غرناطة وتحصل في قصبتها مَخْزوناً، فحييت بعد موتها بهذا النظر الجميل والحزم الموصول، والنيل المبذول، واستنقذ مَن كان فيها من الموحدين من علة الحصار، وبعد الانتصار، وأجزل لهم الزيادة في بركاتهم، والنماء لهم في مواساتهم وأنعم عليهم بالإحسان إحساناً، ووالاهم رفقاً وحناناً، ورتّب في غرناطة جماعة من الأجناد الأندلسيين، الموثوقين في التوحيد مع الموحدين، فدافعوا عنها من جاورهم من الأعداء حتى عاد قفرها عامراً، وخرابها ساكناً آمناً، أمراً ظاهراً متظاهراً، فقطع ابن مردنيش أمله عنها وكل ثائر، متقدم أو متأخر في الفتنة من ظالم جائر، وبقيت في أيدي الموحدين، أعانهم الله على الطاعة وصحة اليقين، بعد عظيم الفتنة لأهلها البائسين، واتصل إختزان المخازن المذكورة من جميع الأقوات فيها من عام سبعة وخمسين إلى عام ثلاثة وستين وخمس مائة حتى فني وقسم على الموحدين في مواساتهم، والإحسان إليهم في أعطياتهم. وهذه المدينة ذكر ابن حيان[2] في خبرها أنها لم يملكها أحد من

(1) حصن المنكب (Almunécar) مرسى صغير يقع غربي المرية وشرقي مالقة. له دور هام في البحر المتوسط، وبه نزل الإمام عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس وذلك في ربيع الأول من سنة 138. . . الحميري: الروض المعطار ص 186. Huici: P. 204.
(2) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي سلطان المؤرخين في عصره، وعمدة جل الذين كتبوا عن الأندلس من المتقدمين، ولد سنة 377 وتوفي سنة 469، من كتبه المقتبس، في تاريخ الأندلس يقع في عشر مجلدات ضاع معظمها ولم يبق إلا بعض القطع. نشر منها الأستاذ ملشور انطونية قسماً عثر عليه في البودليان، ويوجد منها في مكتبة جامعة القرويين قطعة تتعلق بتاريخ الأندلس في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وابنه الأمير محمد، يعمل الآن على نشرها وتحقيقها الدكتور مكي والدكتور حسين مؤنس. وهناك منه قطعة ثالثة تتعلق بتاريخ الأندلس في عهد

الصنف الأندلسي من آخر دولة آل محمد بن أبي عامر إلا الصنف العدوي[1].

وفي أثر هذا الفتح أمر أمير المؤمنين رضي الله عنه أن يكون استقرار [64] الأمر بمدينة قرطبة.

ذكر وصول الأمر العزيز باستيطان السيدين الأجلين المذكورين قرطبة واستقرار الأوامر والعساكر بها، والاعتناء بجانبها

ووصلهم الأمر العزيز بسكنى قرطبة، وهم بظاهر جيان محاصرين بها على ما ذكرته، وأن تكون مقرّاً للأمر بالأندلس كفعل بني أمية بها في قديم حقبها، إذ هي موسطة الأندلس، وأن تكون أشغال الأعمال مستقرة فيها، صادرة إلى النواحي من ناحيتها، فوصلها أبو إسحاق براز بن محمد المسوفي[2] بالأمر العزيز واستقر داخلها واستدعى الكتاب والمشارف من اشبيلية وأنظارها، فبادر إليه أبو القاسم بن عساكر[3]، وأبو بكر العراقي[4]، وأبو

ـ عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر يقوم على نشرها الأستاذ فرنسية غوميس. هذا وقد عثر مؤخراً على قطعة فريدة يرجح أنها منه تبتدىء من سنة 299 إلى سنة 330 في خزانة القرويين لجلالة محمد الخامس طيب الله ثراه، ومن المعروف أن جلالة الحسن الثاني أصدر أمره الكريم بفهرسة الخزانة المحمدية والعمل على نشر الفريد منها . . . ومن كتبه كذلك المتين. ويظهر أن نقله هنا من كتابه في أخبار الدولة العامرية.

الحميدي. جذوة المقتبس. نشر ابن تاويت الطنجي رقم 307. ابن الأبار: التكملة، رقم 148. الحلة السيراء ص 119 - 149 - 154. ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 81 - 84. دائرة المعارف الإسلامية أول ص 146.

تاريخ الفكر الأندلسي ـ ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص 208 - 209.

(1) العدوي نسبة إلى العدوة أي المغرب الواقع على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط.

(2) انظر ص 85 تعليق رقم 4.

(3) أحد الكتاب البارزين في البلاط الموحدي ممن كان يُعين الجباة لمحاسبة المتصرفين في أموال المخزن انظر ص 311.

(4) لم نقف على ذكر لأبي بكر هذا في غير هذه المرة.

بكر الحصار[1]، ومشوا إليه راحلين عن اشبيلية، ومعهم من الكتّاب جماعة كبيرة مشهورة من أعيان اشبيلية وأعيان جهاتها، وكنت[2] في جملة من كتب من الكتاب، وعين للاشتغال بذلك الباب، فاستعفيت وامتنعت، والتزم غيري ممن كتب لتقييد أموال المخزن بها وبأنظارها وبالبلاد المفتتحة المرتجعة من أيدي المنافقين، ولقسم الزكوات والفرائض المفروضات، فقربهم عند وصولهم إليه وأدناهم وأنزلهم في الديار للسكنى وسنّى لهم الخيرات [65] وأسناهم، ووالاهم بالمبرات واستعملهم على الأشغال وولّاهم، وعمرت قرطبة بعد قفرها، وأمنت من كربها بالفتنة وذعرها، وتلاحق الناس والكتاب لهذه الآمال، وشغلوا بالتصرف في الأعمال، وأظهر أبو اسحاق عادته في النصح لجميع المخازن، في داخل قرطبة وخارجها وجميع الأقطار التي للموحدين والمواطن، واستعمل على اشبيلية من أصحابه من وثقه، واختصه وصدقه، ولم يزل في عمله من النصح، وشمله البين الوضوح كالصبح، مدة حياته إلى أن توفي بقرطبة بعد ذلك في عام تسعة وخمسين وخمس مائة من علة النقرس[3] المزمنة به.

فلنرجع إلى ذكر قدوم السيدين على قرطبة:

وقدم السيدان الأجلان أبو يعقوب وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين رضي الله

(1) الحصار هو أبو بكر محمد بن علي الحصار الاشبيلي توفي بمراكش سنة 579.
ابن عذاري ص 122 ـ المغرب في حلى المغرب. نشر الدكتور شوقي ضيف 1 ص 279.

(2) يقدم ابن صاحب الصلاة نفسه هنا لأول مرة على أنه كان في عداد الكتاب وإن كان قد استعفى من الوظيف أول الأمر . . . (اقرأ صفحة 85 كذلك).

(3) النقرس: ورم يحدث في مفاصل اليدين والقدمين، وفي الابهام منها بصفة خاصة، يقولون: إنه مرض الملوك ويعزونه للإفراط في المأكل، وهو الذي يعرف بالفرنسية باسم لاكوت. La Goutte
وكتب أيضاً أبو مروان عبد الملك بن زهر يصف هذا الداء يقول: «. . . ويحدث في الأقدام النقرس، وذلك ورم يحدث في القدمين أو إحداهما وحتى ذلك فيما قاما بطبعها أسفل موضعاً من سائر أعضاء البدن . . . وأكثر ما يكون النقرس عن التزام التلذذ من غير احتياط . . .» كتاب التيسير في المداواة والتدبير. لأبي مروان عبد الملك بن زهر. تحقيق ميشال خوري نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. سنة 1983 ص 335-336.

منهم على قرطبة من غزوتهم المنصورة ضحوة يوم الأحد الثاني عشر من شوال سنة سبع وخمسين وخمس مائة، ومعهم الشيخ المرحوم أبو يعقوب على الأمر الكريم الذي ذكرته، فخرج جميع أهل قرطبة إلى لقائهم وكنت أحد من خرج للتبرك بهم مع وفد الكتاب أهل اشبيلية الذين ذكرتهم إلى باب القنطرة[1] المتصل بالفحص إلى طريق جيان وأعيان قرطبة الباقون منهم في الفتنة مع أهل اشبيلية على أقدامهم بادرين إليهم مع النظارة من أهل قرطبة فكان عدد أهل [66] قرطبة اثنين وثمانين رجلاً لجلائهم من الفتنة عن البلاد، وبما كان حل ببلدتهم من القفر بغورها والنجاد، وقد ظهر على عيانهم وصورهم البؤس، واستمر على بلدتهم وعليهم من الفتنة الدروس، قد لبسوا من الثياب اطماراً، واستبشروا على حالهم بذلك اللقاء، ودعوا إلى الله أن يزيدهم في عمرهم أعماراً. فلقد ذاقت قرطبة وأهلها من بؤس هذه الفتنة الأندلسية، ما لم يذقه أحد من أوائلهم في الفتنة الحمودية[2]، بالحاج ابن همشك وقساوته القضية العجمية، فسبحان من أحياهم بعد ذلك من مماتهم، وأعادهم بالنصر والعدل الإمامي إلى حياتهم، واستقر السيدان والشيخ أبو يعقوب بقرطبة فأمروا ببنيان قصورها، وعمارتها وحماية ثغورها، وجلبوا البنائين والعرفاء والفعلة لبنيان القصور والدور من خرائبها، واعادتها على ترقيع ثيابها، وصرف حالها من مشيبها إلى شبابها، وتفرد العريف أحمد بن باسه[3] إلى ذلك، وجدد ما وهى هنالك، وانجلب أهلها إليها في أقرب مدة، وتجددت آمالهم وصلحت أحوالهم أحسن جدة.

ثم انصرف الشيخ المرحوم أبو يعقوب بمن أمر له من العسكر المؤيد من الموحدين والمجاهدين والعرب الجائزين، إلى حضرة أمير المؤمنين،

---

(1) راجع التعليق رقم 3 صفحة 134

(2) نسبة إلى بني حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبد الله بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وحول حوطهم.

انظر ابن الخطيب في أعمال الاعلام ص. 128-137.

(3) انظر التعليق رقم 1 ص 84 والصفحة 322 من نص الكتاب.

لشرح الفتح والظفر [67] المكين، وأقام السيدان بباقي الموحدين من العسكر لالتزام الأمور، وصلاح الجمهور، فوصلتهم من الأقطار الوفود بالتهاني، واتصلت بهم السعود والأماني، وأصبحت بهم قرطبة بعد بؤسها مطمحاً للهمم، ومسرحاً لآمال الأمم، وتراجع أهل قرطبة من البلاد إلى موطنهم، وتسامع الشاسع والقريب منهم بالفتح الذي كان فعادوا إلى مسكنهم، وأحسن السيدان الأجلان للطلبة من أهل قرطبة المذكورة فأثبتوا أسماءهم في زمام العسكرية للمواساة، ورتبوا الأجناد وجلبوهم من كل بلد للسكنى فيها وأظهروا الاغتباط بنواحيها، فظهر العمران، واتصل الأمن وسكنت الأوطان، وكأن الفتنة لم تكن اذ حلّ بدارها النصر والأمان.

وأقام السيد الأعلى أبو يعقوب بها وأخوه أبو سعيد معه فيها من تاريخ قدومهما المذكور إلى أول المحرم من عام ثمانية وخمسين وخمس مائة ووصله الاستدعاء السعيد من الحضرة العلية بالوصول إليها فتحرك من قرطبة وأعمل طريقه على اشبيلية ووصلها يوم الأربعاء العاشر من شهر المحرم من عام ثمانية وخمسين المؤرخ ولم يقم بإشبيلية إلا خمسة أيام ووصل سيره إلى الحضرة على ما وعده الله تعالى أن يكون الأمر أمره ويزيل غيره بخلع المخلوع[1] واتفاق [68] الأمر العلي والموحدين أعزهم الله على إمامته، واصفاقهم على تصويب خلافته، حسبما أذكر ذلك بعد[2] هذا. وأقام السيد أبو سعيد بقرطبة على الحالة المأمور بها فزادها تمصيراً، ومهدها تمهيداً وتبشيراً، ومشى الأوامر العلية بالتسكين والتوطين، والاحسان والتأمين، حسب ما كان مع أخيه من اجتماعهما. والنظر الموفق من تباعهما، ونيل الناس من فضلهما وكرم طباعهما، وانضافت اشبيلية ونظرها في الأشغال السلطانية من الولاية والعزل، والتقديم والتأخير في العقد والحل، إلى نظر السيد الأجل بقرطبة بمن فيها.

---

(1) يشير لأخيه محمد بن عبد المؤمن وسيمر بنا قريباً انه أسقط عن الخلافة من قبل والده لما لوحظ عليه من الاستهتار بمبادئ الدين.

(2) صفحة 79-80.

وكذلك أشغال المخزن أنماه الله إلى نظر أبي إسحاق براز بن محمد المسوفي : فكان بإشبيلية على شغل الموحدين أعزهم الله أبو داود يلول بن جلداسن[1] وكان على شغل المخزن بها محمد بن المعلم الإيلاني[2] يجتمعان كل غدوة على المصالح ، ثم يفترقان إلى التصالح ، داما على هذا من تاريخ مشي السيد الأعلى أبي يعقوب إلى الحضرة بالاستدعاء مدة إلى أن كانت وفاة الخليفة الرضي خليفة المهدي رضي الله عنهما ، وكان الاتفاق والاصفاق بولاية العهد الكريم والمبايعة لأمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين رضي الله عنه فأفرد أمره العالي أبا عبد الله محمد بن أبي [69] سعيد المعروف بابن المعلم الإيلاني بإشراف الأعمال على إشبيلية وبقي أبو داود على نظرة في الأشغال ، وأضاف إليه النظر في الاسهام ، فداما على ذلك إلى وفاتهما على ما أذكره إن شاء الله تعالى[3]. وكان من حديث محمد بن أبي سعيد بن المعلم المذكور ما أذكره أيضاً إن شاء الله تعالى[4]، ووفد الشعراء لتهنئة سيدنا أمير المؤمنين رضي الله عنه على هذا الفتح الذي أحيى جزيرة الأندلس ، ورفع عنها الفتنة المهلكة لها بالنُّكُس ، فقال في ذلك الأستاذ أبو الوليد إسماعيل بن عمر المعروف بالشواش الشبلي[5] وأنشدها بنفسه : (الكامل)

(1) بفتح الجيم وضم السين ، هكذا ضبطت هذه الأسرة في بعض معاجم الموحدين ، وقد ورد في بحث للأستاذ تيراس أن أيت جلداسن (Jelldasen) قبيلة بربرية من قبائل أيت ورايين التي تقع جنوب مدينة تازا المغربية . Hes. 1929 T IX 3 Trim. وقد توفي أبو داود هذا سنة 580 . انظر بالإبانة ص 336 - 337 . ابن عذاري ص 108 . ابن الزيات : التشوف ص 251 .

(2) أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد الإيلاني المعروف بابن المعلم ، وقد استمر بقية حياة عبد المؤمن ومعظم أيام أبي يعقوب مشرفاً على الأعمال بإشبيلية إلى أن كانت سنة 573 فاتهم منه وبما انعقد عليه من أخبار شنيعة وأموال قطيعة ، وأمر بسجنه وصودرت أمواله وضربت بعد عنق طوية عنه . انظر بالإبانة ص 310 - 311 ، 320 ابن عذاري ص 104 .

(3) هذا ما كان عليه أن يذكره في السفر الثالث وانظر مع هذا ص 320 فيما يتعلق بابن المعلم . وص 337 فيما يتعلق بجلداسن .

(4) في السفر الثالث .

(5) سماه السيوطي محمداً ، وقال عنه ابن الزبير : إنه كان أستاذاً جيداً في إقراء القرآن والعربية والأدب ، وإنه كان شاعراً كاتباً ، ونقل أن له كتاباً بعنوان اسم (زهرة الرياض بالاندلس) بتقديمه

عزماتُ منصورِ العزائمِ غالبِ ... ضمنتْ فتوحَ مشارقٍ ومغاربِ

يا سعدَ دينِ الله أفلحَ حزبُه ... وغدتْ عداه في عذابٍ واصبِ

أولى لأشياعِ الغوايةِ والرّدى ... ووراءَ نارِ الحقِّ أنجحُ طالبِ

يشجي لأمرِ الله غيرَ محرَّجٍ ... مشوبُها بالنّصرِ ضربةَ لازبِ

عاذاتُ مخترمِ العداةِ مطفّئٍ ... مختالُ كلِّ مُغاضِبٍ ومحاربِ

امتْ كتائبُ تكيداتِ العدى ... واستصحبتْ للنّصرِ ألزمَ صاحبِ

واستجلتْ بجناحِه ويمينِه ... فقطعنَ عرضَ البيدِ غيرَ لواغبِ

[70] بسوابقٍ كبوارقٍ ، وسواكبٍ ... كالكواكبِ ، وجنائبٍ كجنائبِ[1]

كالمزنِ أعدادَ الخضرِ وتمادلتْ ... منها بقاعُ أجارعٍ وأخاشبِ[2]

طلعتْ على الأعداءِ سحباً للرّدى ... سالتْ فما بأباطحٍ ومذانبِ

تلك المخايلُ أغدقتْ وكافةٌ ... فحذارِ من زجلِ الرّواعدِ صائبِ

تلك الهمولُ تعودُ من تسطو به ... فاطلبْ أماناً من هزبرٍ غالبِ

خلعٌ من البحرِ الطّموحِ هوتْ بهم ... جيّاشةٌ بزواجرٍ وغواربِ

يومَ العروبةِ أضربتْ فتكاتُه ... في الكفرِ عن فتحٍ مبينٍ راتبِ

وتيقّنَ الأعداءُ أنّ جماعَهم ... من بعدِ هذا اليومِ نهبُ الناهبِ!

ما يعقدُها إلا مقادةُ صاغرٍ ... يلقي يداً ، أو توبةً من تائبِ

من لم تبصّرْه بصيرةُ مهتدٍ ... فليهدِه للرّشدِ فضلُ تجاربِ

الحقُّ عندَ إمامِ حقٍّ مجتبى ... يهدي الأنامَ إلى الطّريقِ اللاحبِ

* الراء على الواو حتى لا يلتبس بتورية الريحانين لابن صاحب الصلاة وقد توفي بمراكش في شوال سنة 569 .

السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، طبعة 1326 ص 86 . العباس ابن ابراهيم : الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام جـ 3 ص 24 .

(1) الجنائب : ج جنيبة : الناقة التي تحمل الميرة . قال الحسن بن عزرة :

رعيو الجبال مساحل المطالب ... وركبت في الغيس كالسلائب

والجنائب ج جنيبة : القطعة من السحاب أو الرمل ، يشبه قطار هذه النوق بالطريقة من السحاب أو الرمل . كذا أقدر .

(2) الاجارع ج اجرع : الأرض المستوية من الرمل ، والأخاشب من الجبال : الغليظة الخشنة .

يقضي فيُنجي كلَّ حقٍّ واجبٍ　　إلا إذا أعطى فَفَوْقَ الواجبِ
يغني ويُغني راضياً أو ساخطاً　　ويفي ببَذْلِ مراغبٍ ورغائبِ
ضمن الإله لكفّه ولسيفه　　رزقَ الأنيس وكلِّ وحشٍ سائبِ
لو تعلمُ الوحشُ الغوادي بأسَهُ　　لم تبتعدْ لصيدها بمخالبِ
تحوي نداهُ الطيرُ في وُكناتها　　فتَرِدُ ترجيعاً بشكرٍ دائبِ
عرفتْ عوارفه فشكر فضله　　وتدين إعظاماً بحُكمِ الواجبِ
فتمرُّ يُمْناً بالرضا لمُسالمٍ　　وتمرُّ برحاً بالرَّدى لمحاربِ
نُصِرت كتائبه بمنصور اللّوا　　غلّاب كل قريعِ جيشٍ غالبِ
[71] تلقاهُ آسادُ الوغى وكماتُها　　فكأنما يلقاهُ بسِربِ كواعبِ
والطلُّ جيشُ الليل خافَ مُغارهُ　　عند الصّباح فجدّ عزمةَ هاربِ
أمضى إلى الشرق القصيِّ عزيمةً　　نالتْ قِبابَ أعاجمٍ وأعاربِ
تبدو بها شمسُ النهار سقيمةً　　تشكو الضّنى منها بلونٍ شاحبِ
وكأنَّ جُنحَ الليل خافَ هزبرها　　ولذاك ما أبدى ذوائبَ شائبِ

تعجب الورى من قابعٍ متأسي الدُّوى
فاق المطايا مُدلجٍ أو ساربِ

تدعوه داعيةُ السّعادة والعُلى　　فيخفُّ منه وقارُ طودٍ راسبِ
في الله أعملها على بُعد المدى　　فجززن غُولَ مفاوزٍ وسباسبِ
إن أحوزت وِرداً بقفرٍ مُمْحِلٍ　　وردتْ شمائلَ منه غيرَ نواضبِ
أو أحلقتْها مزنةٌ بشنوفةٍ　　فاضتْ أناملهُ بقَطْرٍ ساكبِ
عش يا أميرَ المؤمنين بغبطةٍ　　ووقاك سعدُك كلَّ خطبٍ نائبِ
وافتْنا بُشرى طالعتْك سُعودها　　تجلو ظلامَ حنادسٍ وغياهبِ

وله فيه تهنئةٌ بعيد الفطر بعد الوقيعة المذكورة وفي عامها: (الوافر)

بمقدمك انتضى الداعي المهيبُ　　وسعدك يُنشرُ الفتحُ القريبُ
وملكك مهّد الدنيا فقرّتْ　　وقد قلقتْ بمضجعها الجنوبُ
وهيبتك ملّكَ الأهواء طرّاً　　فحنّتْ أنفسٌ وصَبَتْ قلوبُ

وعدٌ لك ألف الأشتات حتى　　تعودُ الطيبُ والرضا الرحيبُ!
[72] وحاطك لرُجحِ الشُّمِّ الرَّوابي　　فمنه في شوامخها رسوبُ
وروّضك وارتياحك للمعالي　　تمايل عِتقها الغُصنُ الرطيبُ
ورنقك للعفاة إذا السَّموا　　كمقدرك، إنه أبداً رحيبُ!
تهادتْ من سماحتك المطايا　　وضاقتْ من بشاشتك الحروبُ
فعلتْ شروفُها قدراً فمنها　　على شفق الدُّجا علقٌ صبيبُ
وصافتْ بك ناحيةُ الدراري　　فيلزمُ قلبها ذاك الوجيبُ
وجودُك في الورى شيءٌ عجيبٌ　　يُترجِمُ عنه فيه القلبُ
وما في أمرك الصدقِ امتراءٌ　　ولاكنّي بخُلقك أستريبُ!
أميرَ المؤمنين جزتك عنّا　　جوازي الخيرِ ما جنبتْ جنوبُ
ألا هو منك إمامُ صدقٍ　　تنفّس لا يُليمُ ولا يحوبُ
إمامُ الدين والدنيا بجدٍّ　　وجدٍّ لا يُميلُ ولا يخيبُ
به رُعيتْ رعايلها، وكانتْ　　شدىً وأريجُ سارحها الغريبُ
وضحٌ به الزمانُ فكلُّ داءٍ　　قباءٍ عالةٌ منهُ طبيبُ
ودلّ الخاسرين على تناةٍ　　تحلُّ معضلةٍ لقمٌ[1] رَكوبُ
وعمّ فدو التباعد والتداني　　سواءٌ والحزونةُ والسهوبُ
سقيةٌ أو سبيةٌ مستنجرٌ　　لحالته تحوبُ أو تنوبُ
تنافسُ جودَه السُّحبُ الغوادي　　فيغدو نوءُ أوجهها قطوبُ
ويحشدُ نوره بدرُ الدياجي　　فتعروه الضّمانةُ والشحوبُ
وكيف وبينهم قربى تراضى　　وكلهم حليفٌ أو نسيبُ
[73] أمينَ الله قد وفيتَ عدلاً　　وفضلاً، والإلهُ هو الحسيبُ
وقد وهب الرضا لكم، وإنّي　　أراه إلى إرادتكم يُجيبُ
دعوتُ إلى الإله فعاز فوزاً　　عظيماً سامعٌ لك مستجيبُ

(1) اللقم: وسط الطريق وواضحه، أي أن الأمكنة التي يحل فيها الأمر، لهي [illegible] واضحة مسلوكة.

وعلمت المجهول فليس إلا غليمٌ راشدٌ فطن لبيبٌ
فاوسعت الأنام هدى يريهم معالمَ دينهم وندى يصوب
فانتمُ للجميع اب عطوفٌ وكلٌ في كفالتكم ربيبٌ
نقضي فهز صومك مستديماً وضالك والمقامُ له حبيب
وفارق غير مختار، فخرٌ الهجيرة[1] من جوانحه لهيبُ
وبشر أن يعاودكم، فعندهُ تبسّم للضحى تخرّ شنيب
ووافى العيدُ والأيامُ عيدٌ بروقٌ بكم وأنساكم ضروب
وأتم للشجاعة بخيرٍ جذوى بفيضٍ ولا يلمُّ به نضوب
لهن الدهر والأعياد بقيا زمانك إنه الزمن الخصيب
ستصحبها مداومةً بنفسٍ عزيزٍ ضمنه عمرٌ قشيب
وتُبقي مثل ما تبقى الليالي وقد شمخت ولاح بها المشيب
فذاك يسوك أن تثني بخطب وإن تخذُل عدوكم شعوب
تراءت بي إليك نوى تذوق ورأيي في اعتمادكم مصيب
وما لي أن يقال قصيُّ دار نأى عنها وعزني غريب!
وعدت وعوقني أولي وأجدى وأحمد في حياة استطيب
وما لي زماني في ذراكم وقد سلفت له عندي ذنوب
[74] فابعث خائفاً منا جنة وأقسم أنه منها يتوب
نقوا أيها المولى وصفحاً فكم جانٍ ومجترمٍ يثيب

(1) كان رمضان 557 يوافق غشت 1162 وهو وقت حر كما يشير إلى ذلك الشعر.

ذكر انصراف سيدنا الخليفة أمير المؤمنين - رضي الله عنه - من رباط الفتح بسلى الى حضرته مراكش بعد الفتح في هزيمة ابن مردنيش وابن همشك والنصارى اهلكهم الله على غرناطة والظفر بهم.

قال الراوية: وان أمير المؤمنين رضي الله عنه نظر لله تعالى وجدد عزمه وحزمه وصفى سره لربه، في بعده وفي قربه، في غزو الروم بجزيرة الأندلس واضمر غزوة عظمى براً وبحراً ليلقى الله بها يوم القيامة بالفوز لديه والرجاء، فأمر بانشاء القطائع في سواحل العدوة والأندلس فصنع منها زهاء مائتي[1] قطعة، أعد منها في مرسى المعمورة[2] بحلق البحر على وادي سبو[3] بمقربة سلا مائة وعشرين قطعة[4]، ووقفت عليها وعددتها بالمرسى المذكور، وأعد باقي العدد الذي ذكرته في أرياف العدوة - والأندلس. وأمر بكتب الرجال

(1) شاهد القرن الثاني عشر ثلاث انقلابات في ثلاثة من مراكز القوى البحرية في عالم البحر المتوسط فقد استجمع المسلمون في المغرب قواهم من جديد وأنشأوا دولة أفريقية أندلسية متحدة هي دولة المرابطين ثم دولة الموحدين الذين أعادت أفريقية في أيامهم بناء الأساطيل القاهرة. أرشيبالدلويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط. ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال، طبعة القاهرة 1960 ص 387-399.

(2) المعمورة يقصد بها المدينة التي تحمل اليوم اسم المهدية على الضفة اليسرى لمصب وادي سبو شمال سلا على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً منها على خط مستقيم، ولم يكن هناك وجود لاسم «المهدية» إلا أيام السلطان اسماعيل سنة 1092 هـ (1681) عندما حاصر المرسى ونصب عليه جيش الأسبان المحتل، فقد خرج راغمها مستسلماً وبيده مفاتيح المدينة، جاء بها هدية للمولى إسماعيل فأمه ودخل المدينة وسماها بالمهدية.

Caille: La ville de Rabat: 63 Coindreau: la casbah de Mehdia.

عبد الهادي التازي: مهدية المولى إسماعيل «مجلة المغرب» مايو 1963 ص 7-9.

(3) وادي سبو: منبعه من الأطلس المتوسط، طوله 600 كلم يتراوح عرضه ما بين 150 إلى 300 متر ويصب في المحيط بالمعمورة والمهدية الحالية قرب مدينة القنيطرة.

(4) بعض المصادر تذكر أن عدد القطع المنشأة أربعمائة قطعة: 120 في المعمورة، وبالريف 100 وببلاد أفريقية 100 وبلاد الأندلس 80.

ابن أبي زرع: الأنيس، جزء ثان ص 164 - الناصري، الاستقصا جزء ثان ص 128.

والرؤساء الأبطال لعمارتها، والقيام بحمايتها والنظر في آلاتها، وأعدَّ من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة [75] المذكورة ما عاينته مكدَّسًا كأمثال الجبال، بما لم يتقدم لملك قبله ولا سمعنا به في جيل من الأجيال، بقي في ذلك الموضع معداً من عام سبعة وخمسين إلى عام اثنين وستين وخمس مائة، حتى فني في أكداسه وعاد تراباً ورماداً باحتراقه بعضه في بعض وإفساد الزمان له فساداً. ونظر رضي الله عنه في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة والإفريقية وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة، والرماح الطوال على أجمل الهيئات، والدروع والبيضات والترسة إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس[1] مما استغربته الأذهان ولا تقدم بمثله زمان، وقسم ذلك كلَّه على الموحدين أعانهم الله على أشياخهم وعامتهم وعلى العرب أجمعين بجميع قبائلهم الحاضرين وعلى الأجناد المرسومين المعينين، وكان له رضي الله عنه من النظر الحافل لهذه الغزوة ما لم يتقدم له قبل ولا رئي له مثل، وحرض الناس ووعظهم وذكر ما لهم من جهاد الروم من الأجر عند الله تعالى، وأقام بمراكش ناظراً معداً في الذي وصفته من هذا الاستعداد إلى الجهاد إلى أول عام ثمانية وخمسين المؤرخ. وأخذ في الحركة في إلى الزيارة.

[1] البرانس: كساء يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به وكانت مدينة تول في القديم مركزاً مقصوداً لإنتاء البرانس. الإدريسي، نزهة المشتاق ص 60.

DOZY: Sup: T. I Page 79

[76] ذكر حركة امير المؤمنين رضي الله عنه من مراكش الى زيارة قبر المهدي رضي الله عنه بتينملل[1] ووداعه، لما يؤمله من زماعه من غزو النصارى اهلكهم الله.

قال الراوية: وتحرك أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى الزيارة المذكورة في فصل الشتاء والبرد، واتصال الأمطار بالأنواء والجهد، وقد انبسط على الأرض من جهات الطول والعرض من الصقيع ما ملأ الأصقاع، وغمر البقيع والبقاع، والناس معهم قد أصابهم الجهد والبرد، فلما وصل إلى أحد الأودية[2] التي بين حصن كيك[3] وبين مدينة تنملّل حرسها الله وجده حافلاً قد امتلأ من ضفتيه وعبر به بالماء، والزعبُ فيه السيل الجُحاف الزاعب من الثلج بالجبال ومطر السماء، فرأى رضي الله عنه أن الإقامة عليه إلى أن تخوض تصعُب وتبعد، وربما جادت السماء وتسكب، فاقتحم موضع المخاضة[4] بدليل في ذلك الوادي، فطلع معه الماء في سرجه، وبل ثيابه وآذاه برده وثلجه[5]، وأجاز الناس بعده على اقتحام، وترادف وزحام، ونالهم من

(1) تينملل، وقد تكتب هكذا تينمل أو تانملت، وقد رسمها أحياناً ابن صاحب الصلاة كلمتين: تين ملل وهي فعلاً مؤلفة بالبربرية من تين، بمعنى ذات وإتل بمعنى الحواجز والضرائب التي توضع في سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقي، وهو الجبل الذي كان مهد دولة الموحدين أول الأمر، وبها بنى الإمام داره ومسجده، ودفنها ثم حصنها الخليفة حتى غدت أمنع حصن، هذا إلى وعورة مسالكها الأمر الذي يجعل الوصول إليها من أصعب المحاولات. الإدريسي ص 68 - الاستبصار 208 - الاستقصا، ثان ص 78.

Les Guides Bleus 1925 page 156 - Basset et Terrasse: Tinmel Hespéris 1924 page 15.

عبد الهادي التازي مجلة البينة عدد ماية سنة 1962 ص 50.

(2) يقصد وادي نفيس الذي يصب في وادي تانسيفت، الاستبصار ص 209.

(3) حصن كيك: يقع بين سكتانة ومشانة.

البيذق، أخبار المهدي خرائط بروفنصال. (Provençal).

(4) المخاضة من الوادي المكان الذي يخاض في بحر منه، ومن المعلوم أنه توجد في الأودية أمكنة لا سبيل لاجتيازها نظراً لبعد غورها بينما توجد أمكنة يرتفع سطحه فيها فتلك هي المخاضات.

(5) كان الوقت أول عام 558 وهو يوافق أول يناير 1163 فالوقت وقت شتاء وثلج.

البلل كثير، ثم نزل رضي الله عنه بالمحلة في فسحة من الأرض، وأوقدوا فيها النيرانَ للتدفي، والتداوي بما يشفي. ثم اقلع ووصل المسك الكريم، وزار وودع [77] وانصرف وقد نال الأجر العظيم، وعند الانصراف منها في الطريق ظهر من جرحة محمد المخلوع بما وجب عليه في الر ذالك الخلع، وذهب في جانب الصدع من شرب الخمر المحرمة وظهور السكر عليه[1]، وذلك انه تقياها على ثيابه وأطشابه وسرجه وهو راكب على فرسه في المحلة على مرأى من عظماء الموحدين، وأشياخهم والعالم من المؤمنين الزائرين، فصح عند الخليفة أيه نكره، وتخليطه وسكره. فأسقط[2] هو بفعله من الأمر نفسه، وكشف بالنهار شمسه، على ما أذكره بعد هذا. ولما رجع أمير المؤمنين رضي الله عنه أنفذ العزم في غزوته على نيته.

---

(1) لا نشك أن الوزير عبد السلام الكومي كان وجه نيته في هذا الصدد لبعض أولاد عبد المؤمن. راجع صفحة 41 من المن بالإمامة. وانظر ابن عذاري ص 44.

(2) يفرح من نص ابن صاحب الصلاة بوضوح أن خلع محمد هذا كان في حياة عبد المؤمن نظراً لما ثبت عليه من استهتار وانحلال، الأمر الذي أظهر للخليفة من الآن عجز ولي العهد عن تحمل الأمانة، وهذا ما في القرطاس وابن الأثير. أما ابن خلكان والمراكشي فيذكرون أن الخلع لمحمد كان بعد وفاة والده. فبعد أن تربع على كرسي الامارة ظهرت عليه أشياء لا تليق بأوليات الأمر كتناول الخمور، وفي الرواة من نسب إليه أنه كان مصاباً بضرب من الجذام، ولذلك فان مدة ملكه استمرت خمسة وأربعين يوماً ولكنها لم تزد على ذلك نظراً لمعارضة أخويه أبي يعقوب وأبي حفص.

المراكشي: المعجب تصحيح سعيد العريان 1949 ص 236. ابن أبي زرع جزء ثان 187. تعليق رقم 1 أشباخ: تاريخ الأندلس ص 313. الناصري الاستقصا ثان 128.

ذكر حركته الى رباط الفتح بسلا على النية الصادقة من الغزو والجهاد، والنظر والاستعداد

خرج أمير المؤمنين رضي الله عنه من مراكش إلى ما ذكرته يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول بموافقة[2] التاسع عشر من شهر فبراير العجمي من عام ثمانية وخمسين وخمس مائة واتصل سيره وعزمه، وأمره العزيز وحكمه، على عادته المعلومة الكريمة من المشي الرفيق، ومراحله إلى منازله المبنية في الطريق[3]، والرفق المعوّد [78] منه لكلّ فريق، والعساكر الميمونة المتقدمة معه، قد رأت أن اليمن لهما صحبته ومجمعه، فسارُوا صحبته على الوقور والكمال، والظهور والاقبال، في أحسن حال وأتم آمال، حتى وصل رباط الفتح، ومناط النجح، بسلى المذكورة، فأراح بها منتظراً لاستيفاء المتأخر من العساكر إلى المتقدم، ووفاء عدة الفتى المعتذر المتلوم، واكتفاء الشيخ الطائع المجاهد المنهزم. فتلاحقوا، واستولوا بجمعهم وتسابقوا، مبادرين بحسن الطوع الذي بين ضلوعهم، ونزلوا بمحلاتهم خارج سلى بالفحص المتصل بغبولة[4] فضاقت عنهم الأرض فاتصلوا حتى إلى أرض

---

(1) صفحة 79 - 80 من المن بالإمامة.

(2) الموافق 21 يبراير 1163. ويلاحظ أنه لا تزال الآن في المغرب الاحتفال بالمولد.

(3) لم يذكر ابن صاحب الصلاة المنازل مفصلة كما فعل في مناسبات قادمة لأنه لم يحضر هذه التنقلات بنفسه ولذلك فقد طوى ذكر وادي تانسيفت ودشر الخطابة، ووزون وترفلطن وأم الربيع والجبل أو وادي كساس ومكول.
انظر ابن صاحب الصلاة: 53-303-304.

(4) تقع عين غبولة في الجنوب الغربي لمدينة الرباط على بعد تسعة عشر كيلومتر منها. ابن أبي زرع: القرطاس ثان ص 167. الاستقصا ثان ص 128. Caillé: la ville de Rabat, p. 27.

(يندخل)[1] في عدد أزيد من مائة ألف فارس ومائة ألف راجل[2] فيد عم جميعهم الاحسان، وتم لهم الانعام والامتنان. حدثني أبو محمد سيد رأي بن وزير[3]، قال: لما استوفت العساكر على محل أمير المؤمنين رضي الله عنه، جمع أشياخ الموحدين أعانهم الله وأشياخ العرب وأشياخ القبائل من الأجناد، أهل الحروب ممن تعوّدوا الغزوات من أهل الرأي وأكابر القواد. قال: وكنت ممن اختصني فيهم، وسألني عن جزيرة الأندلس وقال للجميع من الأشياخ: اشيروا علينا كيف تكون هذه الغزوة إلى بلاد الروم فقد عزمنا عليها براً وبحراً، وسرّحنا بها اعلاناً وجهراً، [79] وقال رضي الله عنه: وإن العساكر ـ والحمد لله وحده ـ على ما ترون من وفور الأعداد، وظهور الاستعداد، وطريق واحدٌ ولا يسعهم ولا يحملهم. فقولوا رأيكم، فقال له أشياخ الموحدين ـ أعزهم الله ـ وجميعُ الناس: يا سيدنا يا أمير المؤمنين الرأي السعيد، المنصور السديد، هو رأيكم، فأشار إليّ أن أقول، فقلت له: سيدنا ومولانا رأيكم الموفق أعلى وأجلى، فقال رضي الله عنه: نقسم العساكر على روم جزيرة

(1) إذا ما حاولنا أن نجمع بين روايات المؤرخين في هذا الصدد، فسنجد أن المكان الذي يحمل هذا اسم «يندخل» هو نفس المكان الذي يحمل اسم عين خيس عند القرطاس والاستقصا، وقد حاولت أن أقف على تحديد أرض يندخل لكني لم أجد أثراً لهذا الاسم اللهم فيما يحكى في الشرة السائرة «قسمة بن دخل: واحد أخذ الشكوية وواحد أخذ البلغة!» يضربونها في القسمة الجائرة نهذا الرجل الذي هو «ابن دخل» لا يسوي بين الناس ولذلك فهو يعطي أحدهم جواداً بينما لا ينال الثاني سوى لجام! وحاولت بعد هذا أن أقف على عين خيس لكنها هي الأخرى مجهولة، والمفروض أن يكون موقعها في الشمال الشرقي من عين غبولة، ومن المهم أن نشير إلى أن هذه الأمكنة إنما تعني المواقع التي كان الجيش يعسكر بها. القرطاس ص 167 ـ الاستقصا 128.
Caillé: La ville de Rabat, page: 64.

(2) نرى أن ابن صاحب الصلاة يذكر أن عدد الفرسان زهاء مائة ألف، وأن عدد الرجالة كذلك مائة ألف بينما ذكر صاحب القرطاس ـ وتبعه في ذلك الاستقصا ـ أن عدد الفرسان زهاء ثلاثمائة فارس وأنه علاوة على مائة ألف راجل توجد ثمانون ألف متطوع فالفرق بينهما كبير كما ترى، ولذلك فإننا نرجح أن خطأ في النسخ وقع في المصدرين، والميل إلى أنه في القرطاس.
القرطاس ثالث ص 167 ـ الاستقصا ثان 128.
Caillé: La ville de Rabat, p. 63.

(3) راجع التعليق رقم 3 ص 67.

الأندلس إلى أربع جهات، وقلت له: نعم يا سيدنا ومولانا أدام الله أمركم، تكون جهة ابن الرنك[1] بقلمرية[2] أولاً، وجهة الببوج[3] بالسبطاط[4] ثانية، وجهة أدفونش[5] بطليطلة[6] ثالثة، وجهة برشلونة[7] رابعة، فقال: أحسنت يا

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 96.

(2) قلمرية: (Coimbra) عاصمة بلاد البرتغال القديمة تقع في أقصى غرب الأندلس شمال شنترين تكثر بها فاكهة حب الملوك.
الروض المعطار ص 164 وراجع التعليق 1 ص 96.

(3) هو بالفات «Fernando II de León»، والبيوج «EL Baboso» لقب له ومعناه: الكثير اللعاب كما يفسر ذلك صاحب المعجب، وقد كان هذا اللقب في العصور الوسطى تعبيراً إذا كان مرادفاً للأحمق، وقد دفع هذا النعت بعض الباحثين للتساؤل عن مصدره وهل أنه يستحق حقيقة هذا الوصف الذي ينم عن العته وضعف النظر، وقد أشار المؤرخ اللاتيني لكاس دي تي Lucas des Tuy، الذي كان يعيش على عهد ولده، عندما كان يصفه إلى أنه كان في حركاته على فرسه وبملابسه العسكرية يبدي من ضراوة وشراسة أكثر مما يبديه من الشجاعة والإقدام وأنه ينقلب في الحين لدرجة أن صوته يستحيل إلى زئير أسد، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى حال الرجل الذي يكون مضرب المثل في دماثة الأخلاق ويعتقد الباحثون أن هذا الوصف من «بيكاس» كاف للتعبير عن المعنى الذي يوحي به التلقيب بالبيوج، وقد حضر البيوج هذا وقعة الأرك سنة 592 وغدر بالناصر عام العقاب سنة 609 فقد ورد في ترجمة ابن الحسن بن القطان أنه أي ابن القطان جمع مقالة في «معاملة الكافر» للناصر من بني عبد المؤمن حين وفد عليه البيوج سرع له فيها القيام إلى عند معاينته. . . فلم يرضها العاقل الوحشي الخ . . .
المعجب: طبعة القاهرة ص 320 ابن عذاري ص 95 - 100 ابن عبد الملك الذيل والتكملة عباس مخطوط الخزانة والرباط، D. 1705 ـ ابن خلدون الرابع ص 382 ـ الاستقصا ثان ص 171-197.
Dozy: Recherches page 106 - 107
Huici: 233 - 235 - 370 - 372.
أشباخ: تاريخ الأندلس ص 350 التعليق رقم 1.

(4) يقصد هنا «Ciudad Rodrigo de Leon»، الذي يقع شرقي قلمرية وغربي إيلة، وليس المقصود إلى Ciudad Real الواقع جنوب طليطلة. 364 - 279 - 272 :Huici.

(5) أدفونش الصغير هذا هو ألفونس الثامن «Alfonso VIII de Castilla» ملك قشتالة و-EL REY CHICO، 625 - 263 - 255 - 240 :Huici. وراجع التعليق رقم 1 ص 97.

(6) طليطلة «Toledo»، تقع جنوب مجريط شرقي طلبيرة على نهر تاجة، مركز يجمع بلاد الأندلس. أخذها النصارى كما يقول الحميري في المحرم من سنة 478، وتعتبر عاصمة قشتالة Castilla.
الروض المعطار ص 130-131-135.

(7) برشلونة «Barcelona» مدينة تقع على شاطئ، المتوسط شرقي الأندلس، يتم الدخول إليها

أبا محمدا وقعت وقبلت يده المباركة، وبايعه جميع الأشياخ من جميع القبائل على ذلك وصوّبوا الرأي الذي رآه، وتبركوا بمسراه.

(مرض الخليفة واسقاط محمد عن ولاية العهد)

قال الراوية : ثم بعد هذا المجتمع في المجلس الكريم ، والعزم العظيم ، مرض أمير المؤمنين رضي الله عنه وأخذَهُ وجعُه الذي توفي ودام ذلك به ، والناس مقيمون ينتظرون من الله تعالى شفاءه ، ويرتقبون عافيته ، والأطباء يدخلون كل يوم ، ويسئلون ولا طبيب إلا الله تعالى وحده لا شريك له . ولما تمادى المرض أمرَ[1] أميرُ المؤمنين - رضي الله عنه - بإسقاط محمد الذي كان ولي العهد من الخطبة [80] يوم الجمعة الثاني من جمادى الأخيرة من العام المؤرخ، وفهم الناس أن الجرحة الموصوفة قد لفي بها، وأسقط من الخطبة بسببها، تمادى المرض أياماً ودخل الشيخ المرحوم أبو حفص إليه وتكلم معه وواصاه، ووعى منه السرَّ الذي أوعاه، والسيد الأعلى أبو حفص[2] ابن أمير المؤمنين قد ملك الأمر كله مما جعل له أبوه قديماً وحديثاً[3]، وحكمه تحكيماً، وخصَّه بوزارته خصوصاً للأمر وعموماً، وعلم أنه سيُحيي الحمى ويحمي الحريم[4]، واستوثق وصيته عند السيد الأعلى أبي حفص المذكور

= والخروج عنها إلى الأندلس على باب الفل السمى بهيكل الزهرة، ويعبر ابن الخطيب عن هذه المنطقة بمنطقة أرغون وبرجلونة، كما يعبر عنها بمن بلارغون «Aragon» الروض المعطار ، 42 - 43 . أعمال الأعلام ص 337.

(1) نرى من خلال النص أن أمير المؤمنين هو الذي أمر بخلع ولده وما يزال حول قيد الحياة راجع التعليق رقم 2 ص 150 .

(2) انظر التعليق رقم 2 ص 85 .

(3) في أغلب الظن أن الأصل حديثاً وقديماً حتى ينسجم مع السجع الذي اختاره.

(4) لا يخفى ما في إثبات الألف من مخالفة للسجع فإنه كالقافية، وقد تكرر هذا من ابن صاحب الصلاة، وأمسكنا بالتصاق بينها الأرواح والأجساد . . الأمواج والأجناد . . (ص 219) وهو جار على سنن الأسلوب العربي في الموضوع: راجع ما كتب على الآيتين الشريفتين «وأطعنا الله وأطعنا الرسولا . . . وتظنون بالله الظنونا . . » .

ولم يزل الألم والوجع يشتد به وهو يذكر الله تعالى على ما ذكر النبي والمهدي والصدّيقون والشهداء والصالحون رضي الله عنهم وعنه . فلما كان ليلة الجمعة خُلع[1] وسقط محمد عن العهد وولي أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه حسب ما أقترره في أيامه إن شاء الله تعالى ، وذلك بعد أخوه شقيقه السيد الأعلى أبي حفص إليه وبمحبته وجده هو في نفسه ، وبما ظهر عليه من الفضل في أمره وقهره ، وحمل[2] أمير المؤمنين إلى مدينة تينملل ، ودفن بجانب قبر المهدي رضي الله عنهما . وكان الذي احتمله ابنه أبو الحسن علي ، وكان له من السنّ حين توفي ثلاثة وستون سنة على ما رواه الشيخ الحافظ أبو يحيى زكريا بن سنان . وقال غيره : أربعةٌ [81] وسبعون عاماً[3] .

(بنو الخليفة وبناته وكتابه ووزراؤه وقضاته)

قال الراوية : وخلّف من البنين أميرُ المؤمنين أبو محمّد عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه : الخليفة أبو يعقوب . الخليفةُ بعده . شقيقه أبو حفص ، أبو عبد الله محمد المخلوع . أبو محمد عبد الله صاحب بجاية . أبو سعيد عثمان ، أبو علي الحسن ، أبو علي الحسين شقيقهما ، سليمان المكنيُّ بأبي الربيع . أبو زكريا يحيى . . . أبو إبراهيم إسماعيل . . . أبو إسحاق إبراهيم . .

(1) وبيدنا نسخ عبد المؤمن الرسالة الظافرية التي بعث بها في شأن تنصيب عهد هذا كرل للعهد قبل الثاني عشر من ربيع الأول من سنة 551 . رسائل موحدية، نشر بروفنصال ص 53 - 41 .

(2) لم يفصح ابن صاحب الصلاة عن محل عبد المؤمن، هل كان وهو محتضر أو ميتاً؟ ويصرح صاحب الحلل بأنه توفي بالرباط. ويذكر ابن خلدون أن ميته لمعركته بسلا . الحلل ص 131 - ابن خلدون مجلد 6 ص 486 .

(3) هكذا بخط الناسخ «سبعون» وهو مرجح ذلك خطأ والصواب ستون والذي يؤيد هذا أن ابن أبي زرع نقل عن ابن صاحب الصلاة، في كتابه أنه توفي بالإمامة وأربع وستون سنة . . فالغالب على الظن أن ابن أبي زرع وقف على نسخة أخرى مصححة . ابن عذاري ، البيان ص 58 - ابن أبي زرع ، الثاني طبعة الرباط ص 188 .

أبو يوسف يعقوب ، أبو الحسن علي .. أبو زيد عبد الرحمن .. أبو سليمان داود .. أبو موسى عيسى . أبو العباس أحمد[1] .

البنات: صفية، عائشة .

كتابه أيام خلافته: ميمون الهواري[2]، أبو محمد عبد الله بن جَبَل[3]، أبو جعفر بن عطية[4]، عطية بن عطية[5]، أبو الحسن بن عياش[6] .

الوزراء في خلافته : أبو جعفر بن عطية ، أبو محمد عبد السلام بن

---

(1) يتفق ابن أبي زرع وما يوجد هنا عند ابن صاحب الصلاة من أن لعبد المؤمن سبعة عشر ولداً بينما أن المراكشي صاحب المعجب ـ وهو معاصر لصاحب المن بالإمامة ـ يذكر أن أبناء عبد المؤمن فقط ستة عشر، ويلاحظ أن المراكشي حذف من أبناء عبد المؤمن أبا سليمان داود وأبا العباس أحمد تلك البيان ولداً لم يذكره صاحب المن في هذه اللائحة هنا وهو أبو عمران موسى، لم يذكره هنا وإن كان قد ذكره بعد مرتين في أثناء سرد الحوادث ص 279 و292. وهكذا يتضح أن عدد أولاده ثمانية عشر ولداً. البيان، نشر بروفنصال ص 225 ـ المعجب ص 198 ـ ابن أبي زرع 168 - 169 .

(2) ميمون الهواري من سكان قرطبة كان أديباً فقيهاً وله شعر فيما جرى بين أبي الوليد بن رشد وأبي محمد بن أبي جعفر في التفضيل بين الهيللة والحمدلة أثر فيها قول ابن رشد.
ابن الأبار، التكملة، كوديرا رقم 1136 .

(3) انظر تعليق رقم 2 ص 95 .

(4) ولد بمراكش في سنة 517 وكتب للسلطانين علي بن يوسف وابنه تاشفين، ثم لما انقرضت دولة المرابطين دخل في تكييف الناس وأخفى نفسه إلى أن اشتكى واستوزره بعد حين الخليفة عبد المؤمن في ظروف تحدث عنها مترجموه، وقد كان في كتابته بليغاً سهل المأخذ منقاد القريحة سيال الطبع، وبعد أن أدرك مكانة مرموقة عند عبد المؤمن جرت له محنة، وقتل هو وأخوه أبو عقيل عطية أواخر سنة 553.
ابن عذاري، البيان ص 16. المراكشي، المعجب، طبعة مصر ص198 - 234 ـ ابن الأبار، الحلة السيراء، طبعة دوزي سنة 1847 ـ ص 198 - 199 . ابن الخطيب، الإحاطة طبعة القاهرة جزء أول ص 132 - 139.

(5) هو أبو عقيل عطية بن عطية أخو أبي جعفر القضاعي المراكشي واصله ـ القديم كأخيه ـ من قرية بناحية طرطوشة بشرق الأندلس وقد ترك بعض الآثار النثرية.
رسائل موحدية ـ نشر بروفنصال ص 22 - 31 .

(6) راجع تعليق رقم 3 صفحة 102.

محمد[1]، السيد الأعلى أبو حفص ، أبو العلي إدريس[2] بن يحيى[3] أبي حفص . [82] السيد الأعلى المذكور .

القضاة له : أبو عمران موسى[4] صهره من أهل تينملل ، حجاج بن يوسف[5] .

(ترجمة أبي القاسم أخيل بن إدريس)

ومن الكتاب : أبو القاسم أخيل بن إدريس الرندي هو أحد الكتاب البلغاء والشعراء كتب في فترته لآل الملثمين[6] ثم بعد ذلك في أول الفتنة لابن حمدين[7]، ثم تحول في الفتنة إلى بلده وسكنه على معنى النظر

---

(1) هو عبد السلام الكومي وقد ترجم له بإسهاب ابن صاحب الصلاة ـ راجع صفحات 41 - 42 - 45.

(2) نال حظوة سامية في البلاط الموحدي إلى أن قبض عليه واستصفيت أمواله في شهور سنة 573 أو سنة 577. وقد ترجم ذكره في كتاب المن بالإمامة. المراكشي: المعجب ص 244 ابن عذاري ص 104.

(3) يعني أنه كان وزيراً مسؤولاً لدى السيد أبي حفص (وابن أبي زرع ، جزء ثان ص 174).

(4) الذي اعتمد عليهم عبد المؤمن في استدعاء عرب الرياحية بشعر طويل يقول في أوله:

أسليم دعوة ذي إخاء مرشد ... عنه إلى الحق المبين المسعد

وتذكروا ما كان أسلاف لكم ... فعلوا به أفعال كل مسلم

وهو غير أبي عمران موسى الهنتاتي الذي كان قاضياً للجماعة أيام أبي يعقوب وأيام أبي يوسف كذلك. ابن عذاري، البيان ص 21 ـ المراكشي، المعجب ص 246 - 313، ابن أبي زرع جزء ثان ص 175.

(5) يكنى أبا يوسف، ابن أبي زرع، الأنيس جزء ثان ص 175.

(6) آل الملثمين: يعني دولة المرابطين، وقد كانوا يتلثمون ولا يكشفونه عن وجوههم. قال ابن خلكان توارثوا هذه السنة خلفاً عن سلف، وقد اختلفوا في أصل هذه العادة فمن قائل إن اللثام هو سببها ومن قائل غير ذلك، وفي تلثمهم يقول أبو محمد بن حامد الكاتب:

قومٌ لهم شرفُ العلا من حِميرٍ ... وإذا انتموا صنهاجةً فهُمُ هُمُ

لما حَوَوْا إحرازَ كلِّ فضيلةٍ ... غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثَّموا

الاستقصا ثان ص 3 - 4. وانظر التعليق رقم 1 صفحة 67. حول أخيل الذي نحن هنا بالقاضي.

(7) أبو جعفر حمدين بن محمد بن حمدين. ابن الأبار الحلة السيراء ص 222 ـ ابن الخطيب أعمال الأعلام ص 176.

والاحتياط لأهله وولده فلما تغلب أبو الغَمْر بن عزون[1] على (رندة)[2] تقبض عليه وسجنه ، فاستقر بمالقة مخرجاً عند ابن حسون[3] يبكي سجنه ، ثم إنه رحل الى حضرة مراكش حرسها الله بعد فتحها وقرارها ، واتصال التمكين للموحدين في دارها وجوارها ، فاتصل بالوزير أبي جعفر بن عطية ، وعرف بحديثه مقر الخلافة العلية ، فكتب له عن الأمر العلي الى أبي الغمر بن عزون برندة بصرف ماله والحفاية بأهله وقضا أوطاره وآماله . ولم يزل أبو جعفر يعتني به ، ويحسن جميل مذهبه ، فسكن مراكش وخلط ، وقصر بنفسه فانحطّ عن منزلته وسقط ! فقال فيه إبراهيم بن المسفر[4] الشاعر يهجوه: (متقارب)

[83] تخيّلتُ أخْيَل ذا عفّةٍ	فـبـان النخيـل عـنِ الـغَبَـن
إذا بـالمـخـلُ الـذي اخْتلتُهُ	به المُومساتُ على كلِّ فنّ !
وقـد أكثر القـولَ جيـرانُـه	وعضّـوا بشكْوى ولكن لِمَن؟!

(1) هو أخ لأبي العلاء بن السائب بن عزون وكان صاحب مدينة شريش ورندة فلما أجاز الموحدون إلى الأندلس نزلوا به، فكانت أول بلد فتحوا من الأندلس شريش، خرج اليهم صاحبها أبو الغمر يشن منه من المرابطين ويابعهم لعبد المؤمن، فكان ملوك الموحدين إذا قدم عليهم وفود الأندلس كان أول من ينادي منهم.
البيذق، أخبار المهدي ص 125 ، الحلة السيراء 222 ، ابن خلدون، سادس 486 - 487 ، الناصري، الاستقصاء ثان 104 - 107 .
(2) رندة: (RONDA) مدينة قديمة تقع شمال جبل طارق على نهر ينسب إليها ويقربها عين تعرف بالبراقة.
الروض المعطار ص 79 .
(3) أبو الحكم الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الكلبي بن حسون وقد اشتهر بكنية أبي حسون ولي القضاء بمالقة سنة 538 ثم دعا إلى نفسه ، الحلة السيراء 222 ، ابن الخطيب أعمال الأعلام، ص 254 - 255 .
(4) لم نقف على ترجمة إبراهيم هذا، وقد تكون له صلة بأبي الحسن المسفر الفيلسوف المغربي، عبد الله كنون، فلاسفة الاسلام في المغرب، ص 139 .

(ترجمة أبي بكر بن ميمون القرطبي)

ومن الأساتيذ بمراكش أبو بكر بن ميمون القرطبي[1] وصل الى الحضرة العلية واستوطنها واشتهر بمعرفته عند الخلافة حتى نسي قرطبة ومواطنها وقطينها وقطنها ، وانحلت اليه الطلبة من كل مكان، ودرت أخلاف الأرزاق عليه بالحقيقة والامكان ، فقال يتغزل في أبي القاسم بن تيسيت[2] من أهل فتيان مدينة أغمات[3] : (المتقارب)

أبـا قـاسـمٍ والهـوَى جِنّـةٌ	ومـا أنـا من مَسِّهـا لم أفق
تبـوّأتَ جاحِمَ نـارِ الضلوعِ	كما خضتَ بحر دُمُوع الحَدق
أأنتَ الخليلُ ؟ أأنتَ الكليمُ ؟	أمنَ الحريقِ أمنَ الغَرق[4]

(1) هو محمد بن عبد الله بن ميمون ابن ادريس بن محمد بن عبد الله العبدري وقد كان متقدماً في علم اللسان بليغاً متصرفاً في سائر الفنون حافظاً حافلاً شاعراً تلك المحاضرة ظريف الدعابة خرج من بلده قرطبة في أيام الفتنة فنزل مراكش وأقرأ بها العربية والآداب، وله مقطعات في الغزل شرحها في سفر ضخم، وممن أخذ عنه حسنُ بن محمد الانصاري، وقد روى هو عن أبي بكر بن العربي وأبي الوليد بن رشد، وقد كان يحضر مجلس عبد المؤمن في جلة العلماء ويبدي ما عنده من المعارف إلى أن أنشد في المجلس الأبيات التالية التي نظمها في أبي القاسم عبد المنعم بن محمد بن تيسيت . . . فهجره عبد المؤمن ومنعه من الحضور في مجلسه وصرف بنيه عن القراءة عليه . مات بمراكش يوم الثلاثاء في جمادى الأخيرة سنة 567 عن سن عالية قد ناهز الثمانين.
ابن الأبار، التكملة (كوديرا) رقم 751 ، السيوطي: بغية الوعاة طبعة 326 ص 61-62 .
صفوان بن ادريس: زاد المسافر نشر عبده ص 6 ، 7 . العباس بن ابراهيم المراكشي: الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام، ثالث ص 23 .
(2) راجع التعليق السابق.
(3) أغمات: هي في الواقع مدينتان تقعان جنوب مدينة مراكش، احداهما تسمى أغمات وريكة والأخرى أغمات هيلانة، وبينها نحو من ثمانية أميال، وبأغمات وريكة يسكن الأعيان وينزل التجار لأنها دار التجهيز للصحراء بها نهر يشق بعضه المدينة، يقال له تاقروت، فيها قضى المعتمد ابن عباد أيام منفاه وما قيل فيها قول ابن عباد:

اقض يخلّيك من الدُّنيا وساكنها	والأرض قد أقفرتْ والنّاسُ قد ماتوا
وقُـل لِعالمهـا الأرضي قـد كتمت	سريرةَ العالمِ العلويّ أغمـات

الاستبصار ص 207 ، العباس بن إبراهيم: تاريخ مراكش وأغمات أول ص 110-111-112-114 .
(4) لا يخفى ما في البيت من تلميح لقصة إبراهيم الخليل لما ألقي به في الجحيم ولقصة موسى كليم الله لما ألقي به في اليم. النجار: قصص الأنبياء ص 93-189 .

قال الراوية : وإن هذه الأبيات وصلت إلى الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه فأمر أن يدخل مجلسه قائلها المذكور[1] . وكان الأستاذ يتهاجى مع البكي الفاسي[2] الشاعر ، ومما قال فيه البكي : (البسيط)

قالوا : هجاكَ ابنُ ميمونٍ فقلتُ لهم	يا ليتَ شِعْري مَنِ الهاجي فأدريه
قالوا : الفقيهُ الذي مِنْ أرضِ قرطبةٍ	تلكَ الْعَظيم ؟ فقالوا كلهم : إيه

(ترجمة أبي الحسن بن الإشبيلي)

الفقيه الخطيب أبو الحسن بن الإشبيلي[3] شيخ [84] طلبة الحضر هو الخطيب المصقع بين يدي الخليفة الرضى أمير المؤمنين عند حضور الوفود ، الناطق بالفصاحة والبلاغة المنظومة نظم العقود ، بادر إلى الأمر العالي على قدره وسبق إلى نيل علم الخلافة فناله حين ابتدر ، واستيقظ أن يتشرف بالبساط العالي والناس نيام ، وورد بحرَ العلم فارتوى منه بالسبق وهم خيام ، فقرّبه الخليفة واستدْناه ، ونال من الآمال مُناه ، فتجلّت له من العُلوم بحور ، وتجلّت له منها عِينٌ وحور ، فصار عند الخليفة في العلوم والمذاكرة أول داخل وآخر خارج ، عالم فاضل يتكلم في المجلس العالي مسترسلاً بالمذاكرة متمهلاً على حسن أدبٍ في المناظرة ، فإذا خرج منه تذاكر مع طلبة الحضر بما وعى من الخليفة من علم « المهدي »[4] وبين لهم ما ناله من العلم

---

(1) راجع التعليق رقم 1 صفحة 159.

(2) هو أبو عبد الله بن سهل البكي ، ينتسب إلى بكة بالياء مدينة تحولت إلى الآن بشمال مرسية (YECLA) إلى بكة بالياء . صفوان بن إدريس : زاد المسافر ص 77 ـ Pérès: la poesie à Fes sous les Almoravides - Hes. TXVIII. 1934. P. 33 - 34 الذي ترجم بالتوت جلد رابع ص 231 كلمة (فاس).

(3) علي بن محمد بن خليل اللكي أبو الحسن والمعروف بابن الإشبيلي ، سكن الرية ، وأخذ عن أبي القاسم بن ورد ولازمه وأتقن علم الأصول وبرع فيها وكان خطيباً مفوهاً ، أخذ عنه أبو القاسم بن الملجوم وأبو عمرو عثمان بن عبد الله ، توفي بمراكش سنة 567 ابن الأبار ـ التكملة (نشر كوديرا) ص 668-669 ـ رقم 1862.

(4) كان المهدي على رأي الأشعرية في أكثر مسائل الاعتقاد فقد كان يعتمد القول بتأويل المتشابه من القرآن والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب مقتدين بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت ، ومن أجل

النبوي ، إلى فضل قد طبع عليه في ذاته وحنان ، ووصل لجميع غرباء الناس والطلبة بخيراته ، يوصل عنهم كلّ خير ، ويدفع عنهم كل ضير ، يشفع فيهم عند الأمر العالي فيشفع ، ويتكلم فيصغي لكلامه ويستمع . دام على علوّ مكانته عند الخليفة رضيَ الله عَنْه فاسهمهُ الأسهام والديار ، وقاله الاكرام والاوطار وتزوّج بنت القاضي ابن الملجوم[1] وخدمته في ذلك المطالع السعيدة من بروج النجوم ، ولم يزل [85] على ما ذكرته ، مدة أيام الخلافة إلى أن ولي أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه فمشاه على منزلته ، وولاه جميل رتبته . لقيته[2] بحضرة مراكش حرسها الله سنة ستين وخمس مائة وسمعتُ عليه قراءة عقيدة التوحيد[3] ، والعقيدة المباركة المسماة بالطهارة[4] ،

---

* هذا كان يسمي أصحابه بالموحدين تعريضاً بالمتلثمين في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم في نظره إلى التجسيم ، ولهذا فقد كان يرى أن في نسبة الصفات إلى الله شبهة الشرك فبرء منه هذا إلى قوله بعصمة الإمام . . .

الناصري الاستقصا ، ك2 ص 73 ـ راجع التعليق رقم 1 ص 61 ـ أحمد بلافريج : عبد المؤمن وتأسيس الدولة الموحدية ، مجلة السلام (تطوان) عدد نونبر دجنبر 1933 ص 24 وما يليها .

(1) أسرة ابن الملجوم شهيرة بفاس على عهد المرابطين والموحدين كان منها العالم والأديب والقاضي وقد اشتهر بعضهم بالعناية بالكتب وملك الخزائن العظيمة ، ويكتفي ابن صاحب الصلاة هنا بوصف ابن الملجوم هذا بالقاضي ، والراجح أنه يقصد به أبا الحجاج يوسف بن عيسى بن علي بن يوسف بن عيسى بن الملجوم الملقب بالملجوم الأزدي الفاسي ، فقد تفقه بأبيه ، وروى عن جماعة من الأعلام ، وولي قضاء مدينة القرويين من فاس ثم صرفه عنها يوسف بن تاشفين . . . ثم ولاه بعد قضاء مراكش وكان رئيساً في الفتيا والحديث والأدب حدث عنه ابنه أبو موسى عيسى وقد توفي عن بضع وستين سنة في شهر ذي الحجة سنة 460 ، ولعله أنجب السيدة التي تزوج بها ابن الإشبيلي في آخر حياته بعد أخيها عيسى ، ويحتمل أبو القاسم ابن الملجوم الذي هو صاحب فيل القصور لابن قصر أشترط على حمام عمومي بفاس . ابن عذاري (مخطوط) ص 153 ـ ابن القاضي الجذوة ص 345 . ابن الأبار ، التكملة رقم 1674-1930-2097 .

(2) يلاحظ أن ابن صاحب الصلاة أمس تقيد بمراكش وقد عرفناه قبل بمدينة قرمونة ثم مرشحاً للكتابة بقرطبة ، راجع ترجمته في المقدمة .

(3) هي عقيدة ابن تومرت باللسان العربي : (المرشدة) وهناك عقيدة له أخرى باللسان البربري . بروفنصال ، رسالة موحدية ص 132 ـ أخبار المهدي ص 89 . الاستقصا ك2 ص 73-77 .

(4) عبارة عن مجموعة أحاديث عشرة حسب المهدي كتابه (الطهارة) ـ المراكشي المعجب طبعة مصر 1949 ص 229 .

وكتاب أعز ما يطلب[1] بقراءة الكاتب أبي عبد الله بن عميرة[2] ، وكان إذا قرأ القارىء المذكور فصلاً مما ذكرته من العقائد شرح غامضها وفتح أقفالها على الطلبة وذلل لهم حتى يروض رائضها[3] ، وكان يخصّني مع الطلبة بالسؤال ، ويهتبل بي غاية الاهتبال ، وإذا سمع بذكري نبه عليَّ بأحسن تنبيه ، وننوه فيه غاية التنويه ، مذهباً كريماً من مذهب العلماء ، وغرضاً حليماً من حسن خلق الكرماء ، توفي بحضرة مراكش . ومن فضله وجده أنه قصده أحد الطلبة راجياً منه أن يكلم له صاحب سجلماسة[4] أن يصرفه إذا لقيه فقال لغلامه في الحين : قرب الدابة ! فركب ومشى إلى صاحب[5] سجلماسة الى داره وكلمه فيه وقضى حاجته فيه . وهذه شيم العلماء والفضلاء رضي الله عنه وعنهم .

(1) تبتدىء أول رسالة من هذا الكتاب بقول المؤلف : أعز ما يطلب وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير . . فلذلك سمي الكتاب «أعز ما يطلب» وقد نشر سنة 1903 ، وقدمه الاستاذ المجري جولد زيهر . هذا وكتاب أعز ما يطلب هو غير كتاب الموطأ . الحلل الموشية ص 125 .
GOLD ZIHER: Mohamad IBN TOUMERT - ALGER: 1903.
المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 29 وما بعدها وجيروج مارسي ، أزهار البساتين ، تعليق أحمد بلا فريج ، ومحمد الفاسي ، الرباط سنة 1349 هـ ص 109-110 .
الدكتور أحمد مختار العبادي ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، مجلة تطوان العدد الخامس 1960 ص 157 .
(2) هو محمد بن أبي القاسم بن عميرة الكاتب من أهل المرية يكنى أبا عبد الله ، يروي عن ابن زغبة وأبي بحر الأسدي وأبي محمد ابن السيد وأبي الحسن بن مغيث وغيرهم ، ولم يذكر ابن الأبار تاريخ وفاته ولكنه ذكره بين ترجمة الأستجي المتوفى سنة 577 وترجمة ابن الوزان المتوفى سنة 578 الأمر الذي يشير إلى أنه توفي خلال هذه السنة .
(3) يُعطينا ابن صاحب الصلاة وصفاً طريفاً للمجالس العلمية على عهد الموحدين فهي على نحو ما أدركناه نحن في جامعة القرويين مثلاً : يقرأ السارد فقرات من المتن ليتصدّى الأستاذ للشرح والتعليق . عبد الهادي التازي . جامعة القرويين ، بيروت 1972 . 3 مجلدات .
(4) سجلماسة : مدينة عظيمة من أهم مدن المغرب ، تقع على طرف الصحراء ، يقول صاحب الاستبصار أنها بنيت سنة 140 أسسها مدرار بن عبدالله ولها إثنا عشر باباً وهي كثيرة النخل والأعناب وسائر الفواكه . وتحمل اليوم اسم الريصاني الاستبصار ص 200-201-202-203 .
(5) لم نعرف من كان صاحب سجلماسة على هذا العهد إلا أننا على علم من أن أمير المؤمنين عين سنة 571 أحد أبناء علي كوالٍ على سجلماسة .

ترجمة أبي محمد عبد الله المعروف بابن جبل

الفقيه الخطيب أبو محمد عبد الله المعروف بابن جبل[1] ، كان صاحب أبي الحسن بن الإشبيلي عند الخليفة رضي الله عنه يخطب بعده إذا خطب ، ويحضر إذا حضر ليوري [86] الخطابة والفصاحة من كثب ، وتتعجب الوفود من بلاغته غاية العجب ، دام على التعرف والتنويه للتقريب الى أن توفي رحمه الله .

ذكر خلافة أمير المؤمنين ابي يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين

في الليلة التي توفي فيها أبوه رضي الله عنهما ، وذلك ليلة الجمعة العاشر من جمادى الأخيرة عام ثمانية وخمسين وخمسمائة وما كان من عقد السيد الأعلى أبي حفص شقيقه إليه في ولايته وحمايته وترشيحه لخلافته وشهادته وشهادة الشيخ المرحوم أبي حفص بن يحيى وغيّرهما من أشياخ الموحدين أعزهم الله بما أشهدهم به أمير المؤمنين من تقديمه الأمر العزيز عوضه وخلع محمد عن الأمر ، ورضي محمد بخلعه ، وتسليم الأمر له بجمعه ، وانبساط الآمال في أيامه ، وكثرة الاغتباط من الأحوال بسعادة أعلامه ، وذكر بعوثه وغزواته ، وغزر أفعاله وسيره الكريمة وفضائله العميمة ، واسماء رجال مشاهير من رجاله ، وكثرة البركات منه للموحدين والأجناد في أعطياته واتصال الإحسان بمواساته ، وظفره بكلّ ما عانده في محارباته وتيسير الله له الفتح في فور [87] حالته ، وما كان من توقف الأخوين أبي محمد ، وأبي سعيد عن البدار - إليه ، والعاقبة الجميلة بعد ذلك لديه ، من بلوغ ما وعده الله به من تكميل عدالته وهباته ، طول أيامه وحياته .

قال الراوية : واستبدَّ السيد الأعلى أبو حفص بالأوامر العلية السلطانية على ما كان مع أبيه ووهبها لأخيه هبةً مرضية . . وأعلم الموحدين أعزهم الله

(1) انظر التعليق رقم 3 ص 95 .

هو والشيخ المرحوم أبو حفص بخلافته والقراءة . وممـا كان من الخليفة من تقديمه له باشهاده ، واجتمع الشيخ أبو حفص وجميع الموحدين أعزهم الله والجميع من أشياخ القبائل على الرضى به والتيمّن بمذهبه ، والاستبعاد بفضائله الصادرة عنه ، القاهرة عليه برتبه ، فلفة الأمر منه بكل تأنيس للنّاس ، وهدايات من العدل باديات الأنوار والاقتباس ، ووعظ الشيخ المرحوم أبو حفص الموحدين أجمع على طبقاتهم ومراتبهم وذكّرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح نياتهم وعُرفهم بمـا أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً من الناس بالوفاة[1] واشتدّ عليهم في لُزوم الصلاة وضرب بالسياط أهل الفسق والجَناة ، وشغلهم بأنفسهم من الأحاديث بالخُزعبلات ، وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة [88] الصبح الحزب[2] ، واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم الاشتداد واللزب .

ثم نفذ الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة إلى قبائلهم ومواضعهم وتأخير العرض إلى وقت يأذن الله به من إرساعهم واجتماعهم ، وكملت البيعة بأكمل خلوص السّرائر ، وطيب الوفاء في الضّمائر ، فتسمى نفسه باسم الأمير واستقل بما سار اليه من العهد العزيز والتأمير ، وبعد كمال هذا الترتيب ، والفراغ من الأشغال بما ذكرته من التأديب ، انصرف الأمير الى حضرة مراكش مع أخيه والأشياخ من الموحدين أعزهم الله. فملك دار الخلافة ، وأنافت به السعادة أكرم إنافة ، وحاز المخازن والأموال وأضافها في مقر حقّ الدين والمسلمين أحسن مستقر وإضافة .

(1) تقليد يجري عليه دعاة الحكم قبل أن يعلنوا بتصفية الأمور ، فقد يكون إعلان الوفاة قبل الاستعداد فرصة للفتن والتمرد بل أنت ترى كيف أنه لم يكتف بإخفاء الوفاة ولكنه شغل الناس بأنفسهم عن «القيل والقال» . . .

(2) يعني تلاوة القرآن حزباً حزباً ، وقد عرفت قراءته بالمغرب منذ أيام المهدي . لكن الجزنائي نقل عن ابن صاحب الصلاة أنها كانت بأمر من يوسف بن عبد المؤمن بن علي في سائر البلاد . زهرة الآس ، طبعة الجزائر ، سنة 1923 ص 74 . الحلل ص 89.

الثناء على الأمير أبي يعقوب في شيمه الكريمة العظيمة مدة إمارته ومدة خلافته ملخصاً حتى أفسده في خلافته المستقيمة

قال الراوية : كان[1] الأمير أبو يعقوب يوسف رضي الله عنه كاملاً فاضلاً عدلاً ورعاً جزلاً مستظهراً للقرآن كتاب الله تعالى بشَرْحه في ناسخه ومنسوخه قارئاً لنصه ، حافظاً له على وقته وابتدائه عالماً بحديث رسول الله صلى الله [89] عليه وسلم بصحيحه ومختلفه وحَسَنه وغريبه وبإسناده متقناً في العلوم الشرعية والأصولية متقدماً في علم الإمام المهدي رضي الله عنه محكماً لأفانين علمه الذي أملاه وأخذ منه ، محباً لأهله ضابطاً على الأمر العلي ، باسطاً رعيه ، صادقاً رأيه للموحدين أعزهم الله بالفضل الجلي باتّصال المواساة في كل شهر وبالبركات في ممر الدهر . صليباً على الأعداء ليناً عن الضيم ذائداً عن الأمن دائباً في العمارة ، مثابراً على الجهاد ، مشيعاً للعدل مقسطاً فيه ، يذهب في زهده وورعه ، وبسطه لعدله ، وسداده في فضله ، مذهب أبيه الخليفة رضي الله عنهم . نظر بنور الله تعالى فأصلح المدينة وأمنها ، وأنس شارعها وسكنها ، وقرّب أشياخ طلبة الحضر وأحسن لعاملهم كفعل أبيه ، وأمرّ عليهم فضله المستمر وخصّ جزيرة الأندلس في إمارته وخلافته بحوطه لها بالغزو فشمروا عاصيها وعدوّها ، وافترعوا بالفتح قاصيها من الأرض ودنوها ، وأحسن لأجنادها وسبل عليهم الخيل لغزو الكفرة في أمدادها بالمئين والآلاف في إعدادها ، وهو الذي مصّر إشبيلية وأمر ببناء سورها من جهة الوادي[2] من ماله بعد هدم السيل[3] العظيم له الخارج على جنباتها

(1) نقل ابن عذاري عن ابن صاحب الصلاة ملخصاً لهذه الترجمة ، ولكنه عرض لأبي يوسف مقدمة لحياة الخليفة الخالفة ، بعرض ذلك جعلها فاتحة لأيامه.

راجع مخطوطة ابن عذاري ص 132-133.

(2) يعني به الوادي الكبير (Guadalquivir) وهو ينبع من شقورة من الجبال الوسطى في اسبانيا ويصب جهة قادس غير بعيد عن مصب وادي آنة.

(3) تستهدف إشبيلية على الدوام السيول جارفة حكى عنها تاريخ الأندلس فمنها سيل سنة 574 ، وسيل 597 . ابن عذاري ، البيان المغرب ص 185 ، الروض المعطار ص 21.

وجهاتها في عام أربعة وستين وخمس مائة وبناه بالحصى والجيّار من [90] الأرض إلى أن علاه على حاله الآن على يدي أمثاله الأخيار، فلما عقدت البيعة له بإجماع واصفاق، في النصف(1) من جمادى الأخرة عام ثلاثة وستين وخمس مائة واستوسقت له الآمال، وتحرك غازياً بعسكره الضخم الشهم مردفاً لأخيه السيد الأعلى أبي حفص في غزو ابن مردنيش واستقر بإشبيلية عام ستة وستين وخمس مائة وعقد جسراً على واديها بالقنطرة العظيمة الهندسية، الممسوكة بالمراكز المؤسسة، لعبور الناس عليها من أهلها وأهل الشرف(2) إليها لعمارتهم وحاجاتهم ومرافقهم، ولإجازة العساكر للغزو عليها، تقدم له في ذلك من الأجر الجزيل، والذكر الجليل، ما لم يتقدم قبله لملك في الأندلس منذ فتحها موسى بن نصير وطارق بن زياد ويتحصل له عند الله تعالى في ميزانه من الزلفى الكريمة ما يجده عنده بأوفر الحظ الأوفى فإنه سبّلها على المسلمين للعبور عليها في مصالحهم دون قبالة(3)، ولا إجازة عمالة، وجلب الماء في الساقية لمشرب أهلها ولمقصره، وابتنى فيها الجامع الكبير العتيق لاتساع الناس فيه عن ضيقتهم في جامعها(4) فساوى به جامع قرطبة في الاتساع واستجلب في ابتنائه العُرفاء والفعلة، فكمل في مدة قليلة من الأعوام على عظمه وسعته وجرمه وارتفاع سَمْكه، وابتنى قصبتها [91] إلى نصفها بأسبابها حتى إلى الماء، وابتنى الزلائق(5) لأبواب إشبيلية من جهة الوادي

(1) معلوم أنه تولى كرسي الخلافة منذ الليلة التي توفي والده: ليلة الجمعة العاشر من جمادى الأخيرة من سنة 558 لكن ابن صاحب الصلاة لا يقصد هنا البيعة ابتداء وإنما يقصد تجديد البيعة التي أتت سنة 563 بإعلانه التسمية لأول مرة بأمير المؤمنين.

(2) عن الشرف راجع التعليق رقم 5 ص 67.

(3) القبالة : هي في الأصل الضريبة التي تدفع لبيت المال، وقد أطلق استعمال هذا اللفظ على العشر الضريبة الزائدة على ما يقضي به الشرع، وكانت هذه الكلمة تستخدم في المغرب والأندلس للدلالة على الضرائب التي كان يؤديها أهل الحرف أو بائعو السلع الرئيسية (أنظر دوزي: ملحق القواميس العربية 2 - 305، 306.

(4) يعني به جامع إشبيلية القديم وهو جامع ابن عدبّس الذي يأتي الكلام عنه. أنظر مجلة الأندلس، مجلد 11 سنة 1946 صفحة 425. ومجلد 12 سنة 1947 صفحة 145 .

(5) الزلائق جمع مزلاق: المزلاج يغلق به الباب، وكان القياس أن يكتب هكذا: الزلاليق بالياء.

احتياطاً من السيل الخارج عليها، وابتنى قصبتها الداخلية والبرانية(1) خارج باب الكحل(2) والقصور المكرّمة خارج باب جهور(3) والقناطر حول مدينة إشبيلية من كل جانب، وأسكن الثغور القفرة من كلب النصارى عليها، وابتنى جميع أسوارها وأعادها للإسلام بالعمارة بعد قفارها وفدى من الأسرى من وجد من أهلها عند الرّوم، وأنقذهم من ربقة عبودية الكفر الى حرية الإسلام، وفدى عليّ بن وزير(4)، وغانم بن مردنيش(5) قائدتيه من أسر النصارى بمال كبير وغزا الكفرة بجيوشه وعساكره المؤيدة براً وبحراً، وأذاقهم عيشاً مراً، حتى أذعنوا للصلح معه حسب ما أذكره في محارباته(6). وهو الذي حصن بطليوس(7) من الكفر، وابتنى لها قصبتها الشاهقة السامعة وسرّب الماء اليها من الوادي، فقطع العدو أمله عنها بما أشحنها من الآلات والعدد

(1) يعني الخارجية وهي عبارة معروفة الاستعمال. هذا ويظهر أن القصبتين اللتين كان القصر بناهما في وسط المدينة واللتين تعرفان وبالأخرى، قد درستا. الروض المعطار ص 18.

(2) باب الكحل أحد أبواب إشبيلية، وتوجد أيضاً باب الكحل ضمن الأبواب القديمة لمدينة مراكش بالرغم من أنها لم تذكر في المصادر. 564 - 529 - 500 - 254 - 251 :Huici.
عباس بن ابراهيم المراكشي: الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام 1 ص 109.
Allain et Deverdun: les portes anciennes de Marrakech Hesperis: 1957 P. 85 - 126.

(3) ترده ذكر هذا الباب سيما عند القصور الموحدية. ولقد حاولنا أن نقف على موقعه من مدينة إشبيلية، ومن شواهد أننا نجد المؤرخ الإسباني Ortiz De Zuniga في كتابه الحوليات الكنسية لمدينة إشبيلية (الجزء الأول 32 - 39) يتحدث عن باب يسميه Vib Alhoar كان موجوداً في حي اليهود بإشبيلية ولا يستبعد كما يقول الأب ميلشور - أن يكون هذا الاسمُ تحريفاً لباب جهور الذي يذكره ابنُ صاحب الصلاة.
Melchor Antuna: Sevilla y monumentos arabes P. 61 - 87.

(4) هو أبو الحسن أبي سيد راي بن وزير من شيوخ الثوار بالأندلس الذين استسلموا إلى الحكم الموحدي وقد قلده أمير المؤمنين بأربعة آلاف دينار. ابن عذاري 99.

(5) هو غانم بن محمد الذي أسندت إليه بعد ذلك قيادة الأسطول المرابطي، في سبتة وأسر سنة 576 على ما يذكر ابن عذاري في البيان المغرب. ص 109.
Melchor: Campanas de los Almohades en España P. 43 Note 1.

(6) في السفر الثالث.

(7) بطليوس (Badajoz) مدينة تقع شمال إشبيلية شرقي يابرة، بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي، وهي بقعة جليلة على ضفة نهرها الكبير المسمى الغور، والذي ينتهي إلى حصن مارتلة. الروض المعطار ص 46.

من الأسلحة والرجال المنتخبة ، وهو الذي ابتنى المدينة المتصلة الثانية لمدينة مراكش على ما أذكره[1] في خلافته في موضعه . ونال الناس معه في إمارته وبعد ذلك في خلافته من جميع الطبقات من الكتّاب ، والعمّال ، والطلبة ، والقضاة ، والرعية بصلاح أحوالهم ونماء [92] أموالهم ما لم يُعْقَد مثلها في زمان حتى شبّهها الطلبة وأهل التواريخ بأيام عثمان بن عفان رضي الله عنه[2] وهو الذي غزا بجيوشه مدينة (ويلة)[3] ونازلها وحاصرها وأشرف على فتحها على ما ذكرته[4] .

الوفاء بالعهد

ولما كانت الوفاة للخليفة ظهر الشيخ المرحوم أبو حفص بن يحيى من بطانة النُّصح بالوفاء، والدِّفاع بالحماية على أكمل الاستيفاء ، ما وطد الأحوال ، ومهَّد الآمال ، برأيه الموفق السديد ، وسعيه في الباطن والظاهر الحميد ، ولازم الجلوس والحضور بنفسه في المجلس العالي ، واقتدى الموحدون ـ أعانهم الله ـ به في حسّه فتابروا البكور والالتزام على التوالي ، فاتصلت الحال واستقامت على الطريقة ، وثبتت الأعمال والآمال بالحقيقة ، ولم تزل الوفود من كل جانب يصلون ويرحلون فيرجعون مسرورين ، مقبولين في مسائلهم شاكرين مشكورين . وتوالى استبداد السيد الأعلى أبي حفص

(1) صفحة 143 - 209 - 292.

(2) ذكر المسعودي أن عثمان كان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد وفي أيامه اقتنى جماعة من الصحابة الدور والضياع : فمنهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت بعرصة ... اثنين وثلاثين وثلاثمائة . . . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي . . . إلى أن قال : وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيما تملك من الأموال في أيامه.
مروج الذهب، المجلد الرابع طبعة باريز ص253 - 253 - 254 - 255.

(3) ويلة (Huete) حصن على وادي بقرب القلبش يقع في الشمال الغربي لمدينة قونكة جنوب مدينة شنتمرية.
الحميري : الروض المعطار ص 194.

(4) ابتداء من 342 من المجلد الثاني.

على معنى الوزارة والإمارة بإنفاذ الأوامر السلطانية عن أمره ، على ما كان عليه عند أبيه من الوزارة في سرِّه وجهره ، عن رضى من الأمير أبي يعقوب أخيه والتفاق وإجماع قديم [93] لزيم من شيوخ الموحدين وأصفاق وأخوة موصولة ، ومساكنة في دار أبيهما بدار الحجر[1] على السلامة في النفوس من قيرة الأمر بالقبول مقبولة ، وعلى حب الإخاء مجبولة ، ووزر إدريس بن إبراهيم بن جامع[2] بين أيديهما ورأيهما لرفع المرفوعات والمسائل ، وتوصيل رغبة الوافد ومسئلة السائل ، وكان هذا إدريس نشأة دار أمير المؤمنين ، وابن أمينهم الأمين ، ممّن يؤمن على الحرمة ، وممّن غذته النعمة ، فكان إذا أكمل الخدمة السلطانية في أوقاتها وانفصل الناس ، لازم الدخول على انفراد إليهما فيما يختص بهما ، ويحتاجان من مؤونتهما وأسبابهما ، بتوسط عقلي ، وصمت على السلامة بينهما مبني أصلي ، مع عفاف في طبعه ، وكفاف في إنالة الناس في رفعه ، إذا وفد الوافد رحّب وأرجاه في طلبه وأنزله وأسكنه ، وأنساه أهله ووطنه ، وسعى له في خير ، ووصله بكل خير . وسأذكره[3] وأذكر إخوته على حالهم وتصحيحهم في أشغالهم على ما يجب . فلنرجع الآن إلى ذكر الأخوة .

(1) يعني بها القصبة المعروفة بقصر الحجر أو دار الحجر وهو حصن حصين كما يذكر صاحب الحلل الموشية.
الإدريسي : نزهة المشتاق ص 69، الحلل الموشية نشر علوش 1936 ص 114.
Casan Deverdun: Marrakech des origines à 1912, page 198.

(2) قتل إدريس ابن جامع وأخوه ويحيى على تهمة واحترام طبقة خمس عشرة سنة الكثيرين سنة 573 على رأي ابن عذاري أو 577 على ما يقول المراكشي كانت السطوة بهم وأبعدوا إلى مدينة ماردة (Mérida) ستة أعوام إلى أن مات أبو يعقوب في غزوة شنترين ثم لما استخلف أبو يوسف عفا عنهم.
المعجب طبعة القاهرة 1938 ص 148 طبعة القاهرة 1949 ص 222، ابن عذاري ص 104 ، راجع التعليق رقم 2 ص 157.

(3) ورد ذلك في المجلد الثالث، وقد تولى ابن عذاري تلخيص ما يوجد هناك فانظر التعليق السابق.

(ذكر ما صار اليه أمر أخوة أبي يعقوب)

وكان السيد أبو الحسن علي بن أمير المؤمنين رضي الله عنه حاضراً ليلة الوفاة والبيعة فمشى إلى تيتملل على ما ذكرته للموارات بالجسم الكريم فرجع من عشيته وفي نفسه علة من دخل الحسد، مؤذنة له في العاجل والآجل بطول الكمد، فأقام [94] مكبوداً فريداً بما في نفسه، يظهر إخاء وفي طيه حقوداً فلم تمهله عله، ولا طالت[1] له مدته، حتى فاضت نفسه في تلك الأيام، وغابت شمسه قبل الحمام، وذلك في بقية عام ثمانية وخمسين وخمس مائة.

وأما السيد أبو محمد عبد الله فأقام ببجاية بعد الحال، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ويرى الراي ويكرره مع من يختصه في الذكرى، ويعزم على ما فيه الرضى لله تعالى ولمنصبه الكريم في الدنيا وفي الدار الأخرى، ولم تزل مخاطبة الأمير اليه بالاستلطاف والاستدعاء، والجواب منه بالعدة في النظر بالزماع الى ذلك الإخاء، فمطل نحو سنة ونصف، واعتذر عن الوصول، ثم عزم وتحرك عن بجاية وظاهره إيصال الشمل الموصول، وإن أمله غير مأمول، فلما استقلت به الرواحل، أدركته المنايا بما كانت في غيبها تحاول، فبان عنه الصاحب الأهل، وأفل بشمسه الأمل، وذلك في عام ستين وخمس مائة، فوصل خبر نعيه الى الأمير أبي يعقوب بمراكش فتفجع له، وأوى جملته وأهله، ونظر في تثقيف بجاية وأنظارها، ريثما يوجه لها من[2] اختاره لحماية ديارها وأقطارها، ثم بعد ذلك كان الخبر بصفاء النفوس، وابتهجت وجوه الآمال بعد العبوس، وتنزلت الرحمة بتقليب القلوب، وأجاب المتوقف الى البدار بتعجيل [95] المطلوب المرغوب.

وأما السيد أبو سعيد عثمان فتوجه اليه الى قرطبة عن الأمير الحافظ

(1) كذا بالأصل لا على الفعل الماضي مع أن قصده النفي لا الدعاء. على خلاف القاعدة الأصلية لدى النحاة.
(2) سيكون هو أبا زكرياء يحيى بن عبد المؤمن. انظر صفحة 145.

المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم[1] ومعه الحافظ الأجل أبو يحيى بن الشيخ المرحوم أبي حفص[2]، والحافظ أبو الربيع سليمان بن داود[3]، فتمارض عند وصولهم واعتل، وأطال الالتواء واختل وارتبط لهم ثم انحل، فرجعوا من عنده الى الأمير بمراكش بمواعيد. وقد تكلم الناس المرجفون، وزخرف في حديثه المزخرفون، وثبت الله الحق، ثم أجاب الصدق، ولما التوت حال هذا السيد في الاعتذار، وتلوم له في الانتظار، بعد المدة التي ذكرتها عزم السيد الأعلى أبو حفص بالمشي إليه واستدعائه بالتأنيس والقدوم الى جبل الفتح: جبل طارق عليه. وتسامع الشعراء فوصلوا.

وصول وفد الشعراء عند وصول خبر هذه البيعة السعيدة اليه بقصائدهم المنبهة عليها

فتقدمهم أبو الوليد إسماعيل بن عمر الشَّلْبي[4] وقام منشداً، وقال: (الكامل)

فَهْدٌ أنارَ به الهُدى والدِّين — واستُظهِر التأييدُ والتمكين
بُشرى الخلافة إذ تقلّد عهدها — البرُّ التقيُّ الطاهرُ الميمُون
[96] نجلُ الإمام ونشأةُ الخُلُق الرضى — يبدو عليه هديُه ويبين
الناصرُ المنصورُ أوضَح نهجهُ — في الصالحاتِ فنجحُه مضمُون
يُنمَى إليه ولادةً وسيادةً — وكذاك تنمي للأصول غُصُون
بالمنبت الزاكي تأصّل واعتلى — وسقاه صَوبُ الفضل[5] هَتُون

(1) أنظر التعليق رقم 5 ص 93.
(2) راجع التعليق رقم 6 ص 93.
(3) لم نقف على ذكر لأبي الربيع فيما توفر عليه من مصادر عن العهد الموحدي.
(4) هو بالذات المعروف بالشرابي أنظر التعليق رقم 5 ص 142.
(5) البيت غير موزون كما لا يخفى، وقد حاولت أن أرتبه ببعض الكلمات، وبعد وقوفي على عين المخطوط بالبوليان (اكسفورد) تبين لي أن التصوير لم يلتقط كلمتين على الطرة مقحمتين بين الفضل والقرن وهما: وغر..

ريان من ذاك النعيم هنئنا له   وصفا له الينبوع وهو معين
رضع الخلافة ناشئاً في حجرها   وغذته حافلة الرضاع لبون
وحنت عليه حانيات إلى العلى   بمكانه من غارهن مكين
ضمن السيادة في الطفولة وازدهت   بسعوده الأيام وهو جنين
عز ربيب ، والعلوم لذاته   والمشرفي أخ له وخدين
ترك المهاد لسرج أجرد سابح   وصفا عليه سرده الموضون
قبل غدائه لحوم أساد الوغى   في حيث ملتف الوشيج عرين
وكأنما الهيجاء أم برة   تحنو عليه برفقه وتلين !
يا سيداً أعطى السيادة حقها   واعتضه الترجيح والتبيين !
شهدت بفضلك صادقات وقائع   لم تلتبس بشهودهن ظنون !
وتحدثت بيض الصوارم في الطلى   بحديث مجدك والحديث شجون !
لله درك والفوارس تدعي   والحرب خابرة القتاع زبون !
واليوم مظلم للعيون قتامه   فتشيره لك غرة وجبين !
في مأزق ضنك تزل كماته   وصفاتكم صدق هناك رصين !
ولرب غوال الزئير حطمته   فغدا له بعد الزئير أنين !
[97] هي بيعة رضي الإله عقادها   وأتيح فيها اليمن والتأمين
أسنية للأولياء كريمة   وعلى العداة الأشقياء منون
ثلجت صدور الدين منها قرة   وارتد طرف الكفر وهو سخين
حسدت لنا زهر النجوم سعودها   فنظم عقمة أمرها وتبين
أخذ السماك لها بأقبية حازم   فبنانه متألق مستنون
وسرت إلى الأرماح بشرى يعقبها   فهفت تعاطف لدنة ومتون
وجلت وجوه البيض فاعتقدت لها   حسن الجلاء صياقل وقيون
حنت مطهمة الجياد ليومها   تصهيلها شوق لها وحنين
وحنت موترة القسي سهامها   وغلا لها إثر الرماء رنين
شكراً لمولانا الخليفة إنه   بمقامه الأرضى يحاط الدين
ولي الأمانة أهلها وسنا لها   بمكانه رحب الذراع أمين

لم يغده الرأي السديد وهديه   بجميع أحوال الصلاح ضمين
يعتد التقى وسليل أنوار الهدى   أدنته من غرر الطهور بطون
جار العلا ، فكماله وجلاله   تتلى لهن سعادة وياسين !
اسعد ولي العهد واسعد سامياً   والله ربك ناصر ومعين
واستخلص العلق النفيس فإنكم   علق نفيس للعلاء ثمين !
وتهنأوا الحظ الجسيم ، فضلكم   بوفور خيرات الإله قمين !
الأمر أمر الله وهو مؤيد   والحبل حبل الله وهو متين
برعاك من يرعيك عهد عباده   وصون للأنباء كن فيكون !

وقال الشيخ النبيه أبو بكر المنخل الشلبي[1] وأنشد : (كامل)

[98] تهنى الخلافة أن جلوت صباحها   وصدقت من نور الهدى أوضاحها
وعقدت عقدك في الوفاء وعهدها   ووصلت راحك في العلاء وراحها
ووفرت من حسن السياسة حظها   فحميت جانبها وريشت جناحها
صدقت أمير المؤمنين فراسة   لاحت كضوء الصبح حين الاحها
ولاكنها عين اليقين بأنها   قد أوقدت بك للهدى مصباحها
لم تحوها حتى حويت فضائلا   شدت إليك نطاقها ووشاحها
إن كانت النعماء كن سحابها   أو كانت الهيجاء كن سلاحها
أن لقلك الأعداء ريح عذابها   عنت لأحياء العفاة رياحها
شردت زماناً عن أكف معاشر   نيطت لديك شروقها وجماحها
فانت وقد خصت إليك عقابها   وزكت فلم تطلب إليك سراحها
فانت خلائقك الكرام بوصفها   طرز المديح فأثخنت مداحها
ردت على الخطباء والشعراء في   طرق الكلام فعطلت امداحها
فالبس محاسنها وجر ذيولها   فالله قدرها لكم وأتاحها
حنت الزمان وأعلة بشمائل   ضمنت لغايات الأمور صلاحها

(1) راجع ترجمته في التعليق رقم 5 صفحة 95

إنَّ المعالي مُذْ نشأنَ سحائبٌ ... تسقي ثراكَ غدوَّها ورَواحَها

أخضلْتَ من ماءِ الحياةِ مرادَها ... نفحتْ ثُبوتُه في ثَراكَ سراحَها

[99] ويجري بذاكَ العَذْبِ في شجراتِها ... فتنتْ عليكَ غصونُها أمداحَها

فوضعتْ بُزْنَها وفَتَّتْ زَمانَها ... فتكشّفتْ بكَ بشرُها وسماحُها

والمأثُراتُ إذا اعتبرنَ فإنّما ... طَبعتْ نجوماً كنتُم أرواحَها

سَلْسَلْتُم راحَ المكارمِ بالوَرى ... فتنشّقوه نسيمَها وقراحَها

سرحتْ جيادُك ليس يثنيها السُّرى ... ولأمرِ غَيْبٍ ما تطيلُ سراحَها

ونثرتْ سيوفُك بالعلى أغمادَها ... يومَ الوغى فاستنجزَتْ أرباحَها

تُثني الغداةَ بمائها فكأنّها ... أيدٍ تُصفّقُ للندامى راحَها

بأكفِّ طائفةٍ ترى يومَ الوغى ... بقتالها أن تستحثَّ فلاحَها

هجرتْ لأطرافِ الرِّماحِ سهامَها ... وثنتْ لأشفارِ الظُّبى أرماحَها

تختالُ من بيضِ السيوفِ قلائدَها ... وتقُدُّ من سُمْرِ الرِّماحِ صِحاحَها

وتظلُّ إن سفعَ الحديدُ وجوهَها ... صبغتْ بتامورِ القلوبِ صِفاحَها

وإذا دعاهم صارخٌ لكريهةٍ ... طاروا لها بِيضَ الوجوهِ صِباحَها

متهلّلين كأنّ في قسماتِهم ... سُرُجاً تبين تحتها ؟ أشباحَها

أنتَ الذي إن حلَّ ربعكَ طارقٌ ... ألفتْ لكَ الكُومُ العِتاقُ رِماحَها

وتعاضدتْ ذُلُلاً إليكَ رقابُها ... تُزجي إليكَ هجانَها ولِقاحَها

وإذا امتطى ظهرَ الحصانِ رأيتَه ... بدرَ الكتائبِ إليها يجتاحُها

وإذا اشتريتَ نوالَه ألفيتَه ... سمحَ الخلائقِ جزلَها وصُراحَها

يا روضةً للآملين وجنّةً ... تذعرُ بحرٍ على الندى منّاحَها

إنَّ الأعادي لا تزالُ كعهدِها ... ثوري بثلبِ نِمارِها وكفاحَها

[100] قد غُيّضَت أنهارُها وتحرّقتْ ... أشجارُها وتكشّفتْ أقداحُها

كلفتْ بها أعداؤها حتّى لقد ... أعدَوا عليها تجبتها ويطاحَها

ما ضرّنا إن علقوا ما خوّلها ... إن كانَ سيفكَ بعدها مفتاحَها

وأنا الزعيمُ إذا أشرتَ بلحظةٍ ... أن تستردَّ عدادَها وطماحَها

فعلى سيوفك أنْ تُبيد كماتَها ... وعلى جيوشك أن تروح ساحَها

أشكو إليك من الليالي إنّها ... قد أبرحتْ بظلامتي أبراحَها

كم رُمتُ أن ألقاكُم وتصدُّني ... نُوَبٌ تنيخُ بساحتي أتراحَها

وتعيقُ نفسي ثم أجري ذكركم ... فتظلُّ تسفحني إلى نجاحِها

إن كان دهري يبتغي إفسادَها ... بجميلِ رأيك قد أسوتَ جراحَها

قلقتْ ركابي من مُعاودةِ السُّرى ... وحمدتُ رأيي حين كنتُ صباحَها

وصلتْ إلى ملكِ الهُدى فأعادها ... ممّا تكلّفه من السُّرى وأراحَها

والكهفُ قد يثنتْ عن طاعةٍ ... قصرتْ عليكم محضَها وصُراحَها

وشدتْ بذكرِكم الجميلِ فعطّلتْ ... زهرَ الحدائقِ ورفَها وصباحَها

ووفد مع الشعراء أبو عمر بن حربون[1] فقال مهنئاً على هذه البيعة السعيدة ومادحاً وذاكراً الوقعة التي كانت على ابن همشك وابن مردنيش بجبل الشُّبيكة بغرناطة في عام سبعة وخمسين قبل البيعة : (الطويل)

[101] لكم بعدَ حمد الله تُهدى المحامدُ ... وفي وصفِ علياكم تُضاعُ القلائدُ

فإنَّ لكم حقّاً على كلِّ مُسلمٍ ... رضيّاً تقضي الحقوقَ القصائدُ !

إليكم سرى من ثُلّبٍ ركبٌ كأنّهم ... تطاردُ لو هُمْ للخطوبِ طرائدُ

سروا فوقَ أعناقِ الشدائدِ نحوكم ... وفي طلبِ العليا تهونُ الشدائدُ

لعصرِ علاكم إنّها لمليئةٌ ... بما ضمنتْ عنها العِتاقُ الجلاعدُ

أتته بما ألقتْه منها ، ومنهمُ ... صروفُ الليالي والسُّرى والفدافدُ

تجوبُ بهم جلبابَ كلِّ دُجُنّةٍ ... تكادُ تضلُّ القصدَ فيها الفراقدُ

---

(1) هو أبو عمر بن عبد الله بن حربون كان أولاً في جملة الثائر ابن قسي زعيم المريدين ثم في جملة كتاب السيد أبي حفص وطلبة الحضر إلى أن نفي بالمرطانة، أورد له ابن صاحب الصلاة عدة قصائد في مناسبات مختلفة وممن روى عنه أبو ... وأشعاره عبد الله القيسي وابن حربون هذا غير الشاعر ابن حزمون (بالزاي) المرسي. ابن الأبار، التكملة، عدد 1427، الحلة السيراء لنشر مؤنس ص 200، 201. صفوان بن ادريس، زاد المسافر ص 99 المراكشي، المعجب ص 203- 204- 205 . المن بالامامة 111- 213 ابن عذاري، البيان المغرب ص 46.

ولولا عُطوبُ أمْرتني لم يَجِدْ   على الحضْرةِ العلْياءِ قلبي وافِدْ
وإنْ لم أكنْ من شاهدي بَيْعَةِ الرضا   فإني بإخلاصِ الضميرِ لشاهِدْ
فحسْبُ الليالي أو فحسْبي أنني   على الدَّهرِ ساعٍ في رضاكم مجاهِدْ
رأيتُ العِدى قد أطلقتْهم ظنونُهم   بما أنجزتْ للدِّين خيلي المواعِدْ
فما زلتُمُ ترقَوْنَ حتى اشتهيتُمُ   إلى مُشتوىً لا يرتقي فيه صاعِدْ
فجاءك بُرهانٌ من الله صادِعٌ   يُقرِّبُه من لم يزلْ وهو جاحِدْ
هي البيعةُ الغرّاءُ جاءت بفوقها   إليك من الأمرِ السَّماوي قائِدْ
تسرْبلها من جبرئيلَ[1] محبَّبٌ   إلى النَّاسِ ممدودُ الثِّقةِ زاهِدْ
وأبيضُ فيّاضُ اليدين مُبارَكٌ   على وجْهِه من نورِ ذي العرشِ وافِدْ
فإن قلَّدَ الأمرَ العليَّ فإنَّه   لأفضلُ مَنْ تُلقى إليه المقالِدْ
مليكٌ إذا لاحَ النَّهارُ معظَّمٌ   وأمّا إذا جنَّ الظلامُ فعابِدْ !
يدينُ لهُ مَنْ لم يدِنْ لخليفةٍ   ويقضي له بالفضلِ عامٍ ووافِدْ
[102] ويكتسبُ الرِّعديدُ منه بسالةً   وتَعْرِفُ من جَدْوى يديه الرَّواعِدْ
فما يدفعُ الموهوبَ إلا بنيَّةٍ   ولا تُقتنى إلا لديه الفرائِدْ
فيرجعُ عنه جاهِلٌ وهو عالِمٌ   ويرجعُ عنه مُعْدِمٌ وهو واجِدْ
له راحةٌ لو أنَّ للمُزنِ جودَها   لما سار يبغي الخصبَ في الأرضِ رائِدْ
وطبعٌ تمنَّى الرافدانِ[2] لو أنَّه   يمدُّهما منه مُعينٌ ورافِدْ
إليه انتهى النُّورُ المبينُ الذي به   تبصَّر ضِلّيلٌ وأذعنَ مارِدْ
هو المصطفى من صفوةٍ بعد صفوةٍ   وطيبُ الفروعِ أن تطيبَ المحاتِدْ
سليلُ الإمامِ المجتبى وشبيهُه   فإن خلَّ مولودٌ فقد خلَّ والِدْ !

(1) يعني قيس، وقد علمت أن بعض المؤرخين يرجعون نسب عبد المؤمن - وهو من كومية - إلى قيس عيلان بن مضر وأن المتقدمين على [illegible] انظر المعلق رقم ص 73 ، الاستقصاء 89.

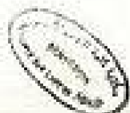
(2) الرافدان: دجلة والفرات، وهي [illegible] انظر: جغرافية العراق للدكتور جاسم محمد الخلف طبعة معهد الدراسات العربية 1961 ص 26 - 28 - 29.

مجالسُهم روضاتُ نجدٍ[1] يزينها   من النَّوْرِ الجنانيِّ توأمٌ وفارِدْ
مجالسُ لو ترقى الكواكبُ نحوَها   لقد باتَ تلميذاً لديهم عُطارِدْ
لقد عَمِرتْ بالعِلْمِ حتى كأنَّها   لكثرةِ ذكرِ الله فيها مساجِدْ
إذا نفدَ الذِّياعُ عالَ بمعشرٍ   فليس لهم إلا الدُّروعُ قلائِدْ
وإن سَرحتْ حربٌ عوانٌ فعندهم   لها من قنا السُّمرِ الطِّوالِ مراوِدْ[2]
بمصقولِ أبي يعقوبَ يأمنُ خائفٌ   ويُجبَرُ متهاضٌ ويصلحُ فاسِدْ
فتى تنجلي الظلماءُ عن نورِ وجهِه   فمنهما بدا لم يفقدِ البدرَ فاقِدْ
وسائلْ به تُخبِرْكَ عن عزماتِه   سوابقُ من ماءِ الحديدِ رواكِدْ
عليها بترقراقِ السَّرابِ غلائلٌ   خُلِقْنَ من ردْعِ الدِّماءِ مجاسِدْ
تجمَّعْنَ من ماءٍ ونارٍ تآلفا   فلا الماءُ منسابٌ ولا الجمرُ خامِدْ
وقُدَّتْ مجامعُ النَّصلِ منها بما لها   وما هو إلا ما تمجُّ الأساوِدْ[3]
[103] وسُمرٌ طوالٌ من رماحٍ ردينيةٍ   تطولُ بها يومَ اللقاءِ السَّواعِدْ
أبتْ أن ترى إلا وريّانَ صادرٌ   بغيرِ دماً منها، وظمآنَ وارِدْ
تبيتُ كما ماتتْ قدودُ نواعمٍ   تثقِّلُ أعلاها نُهودٌ نواهِدْ
تزيَّتْ بزيِّ الحُبِّ فهي سواهمٌ   وأعيُنُها خُضرُ النَّشاقي سواهِدْ
وعوجٌ كأشلاءِ الشَّراحين شُزَّبٌ   قريبٌ لديها النَّازحُ المتباعِدْ
حِسانٌ لو أنَّ الحُسنَ نيلَ بمطلبٍ   لأصبحَ تشغليه منها الخرائِدْ
إذا ألجمتْ لم يعصمِ العُصمَ معقلٌ   ولم يحترمْ في البيدِ منها الأوابِدْ
فما شوَّفتْ من قبلهنَّ بوارقٌ   ولا ملكتْ فرعَ الرِّياحِ مقاوِدْ
إذا شطبةٌ منها بدتْ تحتَ فارسٍ   بدا أسدٌ من فوقِ فتخاءَ قاعِدْ
تراها كما ولّى من الذُّعرِ خائفٌ   وأقبلَ مذعورٌ من الأدْمِ شارِدْ

(1) نجد: البلاد التي تمتد شرقاً من جزيرة العرب بالنسبة للتهامة. ياقوت: معجم البلدان. تاريخ نجد (الشيخ ابن غنام) نشر الدكتور ناصر الدين الأسد 1961.

(2) المرود: ميل المكحلة، ومن كل شيء: حدّ طرفه.

(3) جمع أسود: العظيم من الحيات وفيه سواد.



لقد وردت شبل منها(1) مقانب ... كما انحدرت من رأس رضوى(2) الجلامد

تخلل منها المشرفي غبرية ... تناغى بها بين البيوت الولائد

وولّى بها شوهاء قد فضحتهم ... كما افتضحت بعد الأماني عابد(3)

فريشم سباع الأرض منها فأصبحت ... كأن رباها للغرالي(4) موائد

لقد أيقنوا أن الحتوف مصادر ... غداة رأوا أن الشغار الشوارد!

لحاموا كما حامت أسود بوابل ... وزلوا كما ولت نعام شوارد!

كتائب كالغابات خاضوا، فأصبحوا ... وهم للسيوف المرهفات حصائد

نزلت صحائح الموت ثم تكشفت ... وقد فاز بالنصر الجليد المجالد

ولم يغن عنهم يوم ذلك كيدهم ... وهل يدفع الجبن الشناع المكائد

[104] وما يصنع السيف الصمصام في الوغى ... إذا لم تساعده على الضرب ساعد(5)

إذا كان مصبور الملوك بحكمكم ... فشتان منهم طائع ومعاند

وما المجد إلا من هبات أكفكم ... فمن نال حظا منكم فهو ماجد

ودونكموها من ثنائي قصيدة ... عليها من النظم البديع فرائد

تلاقى عليها من لساني شاكر ... ومن نعم المولى المعظم شاهد

ولي خلدي إذ كان في العمر مهلة ... عجائب يفنى الدهر وهي خوالد!

قصائد أنى سرت يوما فإنها ... إلى ابن أمير المؤمنين قواصد.

---

(1) أنظر التعليق رقم 5 ص 132.

(2) رضوى: اسم جبل بين المدينة والينبع: ومنه المثل العربي: «أثقل من رضوى وعماية»، الريح لشباب وشباب تشاح.

(3) كذا في الأصل ولم نتبين جيداً من معنى الشطر الثاني للبيت.

(4) الغرالي جمع غالي: كل طالب للرزق، وقد قرأت لدى بعض الناس «الغرالي» جمع غرلة: الضبع وذلك لطول عرفها وكثرة شعرها قال الشنفري:

ولي دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

الشنفري: لامية العرب طبعة الرباط، 1953 ص 21.

(5) على إبن هذا البيت طرة باهتة لم نتبينها إلا أن (أستعرونه)، وقد كتب فيها بالخط: وهذا ينظر إلى قول المتنبي: وما السيف إلا مستعار لزينة. وقد حاولت عبثاً أن أجده لدى أبي تمام أو في شعر المتنبي، وقد أفادني الأستاذ العلامة السيد عبد الكريم بن الحسني في رسالة مسهبة أن ذلك هو البحتري وليس المتنبي من قصيدته في مدح الفتح ابن خاقان عبر له عوض (مستعار) بوحده (زينة) والنز: السلاح وليس بعيداً أن يكون يرشد إلى مستعار. أنظر مجلة (الأعلام) العراقية أكتوبر سنة 1964، ص 178.

رجع الخبر

ذكر حركة السيد الأعلى أبي حفص الى أخيه السيد أبي سعيد على معنى التحامل والتعاون، والتواصل والتعاون، واجتماعهما بجبل الفتح جبل طارق

تحرك السيد الأعلى من حضرة مراكش في أول شهر ربيع الأول الموافق لبقية أيام(1) من شهر ينير العجمي من عام ستين وخمس مائة في جملة من أعيان رجال الموحدين - أعانهم الله - وأبناء الجماعة كأبي يحيى بن الشيخ المرحوم أبي حفص(2)، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت(3)، وإسحاق بن أبي إسحاق بن جامع(4). ومن أشياخ ثوار الأندلس المختصين به كأبي محمد سيد راي [105] ابن وزير(5)، وأخيه أبي الحسن(6) علي، وصاحب لبلة(7) علي القطار، وزيد بن محبوب، ومحمد بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي(8)، ومن أشياخ شوقة ولمتونة رجال اجتمع فيهم نخبة من الناس كبيرة القدر، متوسطة العدد والذكر، عددهم نحو الأربع مائة فارس،

---

(1) الموافق 16 يناير 1165.

(2) راجع تعليق رقم 6 صفحة 93.

(3) من أبناء الجماعة، وقد صحب السيد أبا حفص ابن الخليفة عبد المؤمن إلى غزو ابن مردنيش سنة خمس وستين وخمسمائة، وكذلك صحب الخليفة أبا يعقوب يوسف في غزوه لوبذة، وذهب إلى جهة إلى بطليوس... أنظر ص 279 من ابن صاحب الصلاة.

(4) من أعيان رجال الموحدين، وأغلب الظن أنه أخ للوزير أبي العلاء ادريس بن أبي إسحاق ابن جامع راجع التعليق رقم 2 صفحة 169.

(5) هو صاحب يابرة. أنظر التعليق رقم 3 صفحة 67. الاستقصا. الجزء 2. ص 167.

(6) أنظر التعليق رقم 4 ص 167.

(7) لبلة (NIBLA): مدينة قديمة تقع في الجنوب الغربي للأندلس بشمال طريانة قريباً من إشبيلية. الروض المعطار ص 168.

(8) من أسرة ابن سعيد المعروفة أصحاب قلعة يحصب (Alcalá la Real) ويظهر أنه أخ لعبد الرحمن وزير النظام لدى ابن مردنيش والمنضم للموحدين بعد، وقد تولى كل منهما على التوالي الإشراف على أعمال البناء الجارية في المسجد الجامع بإشبيلية. راجع صفحة 325 - 332 - 337 - 338 - 339. ابن الخطيب: الاحاطة، مخطوطة الاسكوريال ورقة 147.

وصحبه بالأمر الكريم للغزو في هذه الحركة السعيدة الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين[1] ، وأبو عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن واسودين[2] بعسكر مختار من أعيان العرب وأنجادهم كعلي بن محرز بن زياد[3] ، وأخوته المبادرين للغزو بالتكاثر والازدياد ، ومن قبله وشيعه رجال فرسان أبطال زهاء أربعة آلاف فارس ليقتدّما بهم بين يدي السيد الأعلى الى إشبيلية وقرطبة لحماية ضيفتهما في مواسطهما وثغورهما ودفع الأعداء الرُّوم والأشقياء المنافقين عن معمورهما ، فوصل السيد المذكور وجمعه الموفور الى مدينة سلى بالجميع ، وأقام فيها نحو شهر للنظر في المصالح ، وتقدم الشيخ أبو سعيد وأبو عبد الله محمد بن يوسف ، بالعرب الى البحر للاجازة على ما توعّد معهما عليه ، وفي أثناء هذه الإقامة خاطب السيد الأعلى أخاه إلى قرطبة يعلمه بالمشي إلى لقائه ، وتسنّم ريح المواصلة من تلقائه ، وأن يكون المجتمع بجبل الفتح جبل طارق ـ عمّره الله ـ فوصل جوابه متعماً بذلك تحت وعد صادق ، [106] وعهد مُوافق ، فأعمل السيد الأعلى حركته الميمونة ، ومشيه المنصورة ، بجملته الخاصة المذكورة المنتخبة من سلى الى طنجة .

قال المؤلف عبد الملك بن صاحب الصلاة : كنت[4] في جملة الواردين قاصداً التبرك بالسيد الأعلى ، ولأحضر مع طلبة الحضر الوافدين ، والصد قصد القاصدين . ولما وصل السيد الأعلى الى طنجة[5] بجملته المباركة ركب منها

(1) يخلف من شيوخ الموحدين الذين استخدمهم البلاط الموحدي في غزواته ضد الثوار سواء في المغرب أو الأندلس ، ولذلك فقد نال تنويهاً من قبل الخليفة يوسف في الرسائل الموحدية ، وقد كان عين من قبل عبد المؤمن بن علي وزيراً لأبي حفص ولده عبد الله لم يحضر يوسف كتائبها الأولى عندما عبروا الزقاق إلى الأندلس سنة 555 . البيذق ص 32 - 33 . الاستقصا ج2 ص 110 .

(2) أنظر التعليق رقم 5 ص 117 .

(3) هو ابن الثائر العربي محرز بن زياد أنظر تعليق رقم 6 ص 72 .

(4) يعني ابن صاحب الصلاة يتحدث عما رآه رؤيا عين وقد نزل بجبل طارق . راجع المقدمة .

(5) طنجة : مدينة أزلية كانت بها آثار كثيرة للأوائل ويعتبرها بعض الجغرافيين آخر حدود افريقية في المغرب ، وكانت على الدوام دار مملكة الأمم الغابرة ، ويذكر التاريخ أنه منها كان يعبر وصيف الاسكندر الذي بناه على بحر الزقاق إلى ساحل الأندلس . وكانت تعبر القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى الأندلس ، ويذكر أنه قبل ـ

البحر الزقاق في الغراب[1] طيار وعبر به إلى مدينة سبتة منفرداً مع خاصته الخاصة به وكاتبه أبي الحسن عبد الملك بن عياش ، وأمر بمشي الناس على خيلهم على البر إلى (قصر مصمودة)[2] ثم إلى سبتة ، فنزلوا بها ، تحت أمره بخير منزل ، وانسابت عليهم الأرزاق والضيافات والمواساة بكل بر مستعجل ، فلما كان في اليوم الثاني من وصوله إلى سبتة ، عبر غراب طيار في البحر من الجزيرة الخضراء يعلم مَن فيه بحلول السيد أبي سعيد مع خاصته وأشياخه بجبل الفتح جبل طارق ، لعبر السيد الأعلى البحر في ذلك اليوم ، ومعه جملة الناس في القطائع المعدة لعبوره في هيئة عظيمة للنظارة من نشر البنود ، وقرع الطبول والسرور بالورود ، وإيصال الشمل بذلك الوصول ، وكان يوماً شهيراً كلّه سرورٌ ، وبرز أيضاً فيه السيد أبو سعيد في قطائعه بجبل الفتح براياته ، وإنجاز عداته ، وبشر ملاقاته ، ما أبهت [107] الحاضرين ، وسرّ العابرين والناظرين ، واجتمعا خير اجتماع ، وارتفع الإرجاف أجمل ارتفاع ، وعمّ الخير والحُبور بجميع الجهات والأصقاع ووفد أهل إشبيلية والفقيه ابن الجد ، وقاضيهم أبو بكر المالقي ، وصاحب المخزن محمد بن المعلم[3] المستناب بإشبيلية ، وأهل الغرب[4] ، وأهل قرطبة وغرناطة والشعراء للتهاني ، باتصال البشارات والأماني ، وجلس السيد الأعلى للناس

ـ الفتح الإسلامي بنحو مائتي سنة طغى ماء البحر المحيط إلى بحر الزقاق فغمرت القنطرة الاسكندرية . الادريسي ص 168 . الاستبصار ص 138 . معجم البلدان . المقري : نفح الطيب 1949 جزء أول ص - 132 - 133 . راجع التعليق رقم 5 ص 72 والتعليق رقم 4 ص 90 .

(1) الغراب : Gurapos كلمة مترادفة لكلمة لاتينية بمعنى السفن القديمة التي تسير بالقلوع والمجاديف ، وقد ورد ذكرها هنا وكذا في البيذق ومصادر أخرى ، واستمر لفظ (الغراب) معروفاً إلى أواسط القرن الثامن عشر ولذلك فإننا نجد له ذكراً في سفارة الغزال لاسبانيا ، بعد أخرى .
ابن صاحب الصلاة ص 108 البيذق ، أخبار المهدي ص 107 النص العربي وص 176 والنص طبعة معهد مولاي الحسن ، تطوان 1941 ص 11 . الاستقصا 6 : 73 .
Dozy Sup. aux dictionnaires Arabe. T. 2. page 204 - 205.

(2) أنظر تعليق رقم 1 صفحة 128

(3) أنظر التعليق رقم 2 صفحة 142

(4) يقصد الغَرْب (AL GARVE) من الأندلس .

للسلام في القصر المشيد في البنيان الرفيع الشأن ، فدخل وفدٌ بعد وفد ، وخطبوا وأطنبوا ، وأُطعموا الطعام ، وأنيلوا المنزل الرحب والأنعام ، وأنشد الشعراء أشعارهم وقضوا فيما وفدوا به أوطارهم ، وحبا السيد الأعلى جميعهم بالأعطيات والبركات والكسا على أتمّ الخيرات ، ودامت الإقامة في الجبل مدة خمسة عشر يوماً في مسرّةٍ متصلة ، وميرةٍ مشتملة ، وأنشد أبو عمر بن حربون قصيدةً حسنة من أولها إلى آخرها : (بسيط)

قدْ حصْحصَ الحقُّ لا ريبٌ ولا فَنَدُ ... هَذي الفتوحُ التي كانُوا بها وُعدوا

خُذوا بحظّكم يا أهلَ أندلُسٍ ... فليس لغاوٍ بنفعها رشد

واستبشروا ببشرى الأمر الذي بَهرتْ ... آياتُه كلَّ من يخلو ويقتفيه

اليومَ ضمَّ صدى الغاوي بلازبكم ... والكلبُ ينبحُ ما لم يزأر الأسدُ !

هذا الذي وَعدَ الله العبادَ به ... قد انجزَ الوعدُ حقاً وانتهى الأمدُ

[108] هذا سَليلُ إمامِ الحقِّ بينكمْ ... لا المالُ مدّخرٌ عنكم ولا الولَدُ

قَدْ طَرّقكم بغياضٍ مواهبُه ... تُحصى الحصى قبل أن يحصى لها عدد

يغشون منه إلى أنوار ذي فِطَنٍ ... يكاد لولا ندى كفّيه يتّقِدُ

لا يقبض العدم كفّاً من أخي أدبٍ ... إلا إذا انبسطت بالعُرف منه يَدُ

لما اعتمدتُم به مستصرخين سُرى ... إليكمُ وهو بالرحمن مُعتضِدُ

وجاء في سرَعان الجيش يقدُمُه ... جِبريلُ والملأُ الأعلى لهُ مَدَدُ

تحفُّه من جُنودِ الله طائفةٌ ... لا يعهد النصرُ إلا أينما شهدُوا

مُجرّبون مراسَ الحربِ دأبُهم ... فكلّما صدروا عن غمرةٍ وردُوا

قد طال ما عجمتْهم كلُّ ملحمةٍ ... لها طرائقُ في هاماتهم قِدَدُ

أنظر إلى مجمع البحرين[1] كيف حوى ... من الفضائل ما لم يحوه بلَدُ

(1) يقصد به جبل طارق، وبه فسر في قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾. (السورة رقم 18 الآية 59) تراجع ما كتب المسرود.

لاقى الكليمُ على الشاطي به خضراً[1] ... وفيه لاقى أخاه السيّدُ السّنَدُ

صنوان ما اجتمعا في أرض أندلس ... إلا ليُحيي فيها دينه الأحَدُ

يا من رأى الفلكَ فوق الموج طافيةً[2] ... كما كفات[3] قباباً وسطها العَمَدُ

يتسابُ منهنّ في أعلى غواربه ... أساودٌ سكنتْ أجوافها أُسُدُ

بحرٌ كأن أبا حفصٍ بمَهْوته ... لقمانُ والمركبُ الجاري به لُبَدُ[4]

تعجّبوا من غُرابٍ[5] فوق غاربه ... ثَهلانُ ذو الهضبات الشمّ أو أُحُدُ

وعاينَ البحرُ منه[6] الجنة ... بحراً خضمّاً له من فضةٍ زَبَدُ

فالآن قُلْ لذوي الإلحاد شأنكم ... فما لكم دونَ هذا الأمر ملتحدُ

وبشّر العُجْمَ أنّ العرب قد ملكت ... على الصراب وأنّ الملتقى صَمَدُ

[109] هاتيك ثانية اليرموك[7] قد رجفتْ ... ما إن لكم صَبَبٌ عنها ولا صَعَدُ

(1) يذكر المسرود - كما قلنا - أن مجمع البحرين عند طنجة حيث تجتمع البحر المحيط وبحر الأندلس، وأن في هذا المكان بالذات تمّ التقاء نبي الله موسى بالخضر عليه السلام. ابن جزي - كتاب التسهيل الأول جزء (3) طبعة 1355 - ص 191 - 192. عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء طبعة 1936 ص 302.

(2) نظراً للمكانة الخاصة التي احتلها الأسطول المغربي على عهد الموحدين. والتي كانت الباعث الأول لصلاح الدين الأيوبي على الاستنجاد بهذا الأسطول. فإن القطع الشعرية التي كانت تقدّم للخلفاء الموحدين، كانت تشير في الغالب إلى هذه الظاهرة الحضارية التي كان المغرب يستأثر بها.

(3) المعنى على (عسست) مثلاً، لكن المخطوط فيه كفات ولم أستقم المعنى على هذا اللفظ.

(4) لعله يقصد لقمان صاحب النسور وتنسبه الشعراء إلى عاد (لسان العرب). وفي حياة الحيوان للدميري ص 301 جزء 2 في أمثال النسر: وقالوا : أتى الأبد على لبد، وهذا اللبد هو آخر نسور لقمان بن عاد، وكان قد سأل الله طول العمر فاختار النسور، فكان يأخذ الفرخ حين خروجه من البيضة فيربيه فيعيش ثمانين سنة، هكذا حتى هلك منها ستة فسمى السابع لبداً، وذكر في لبد قولهم: أعمر من لبد وأنشد:

يا بكر حيواتكم لتعيش وتحتم ... تستصحب قبل المنية يا لبنة

(5) راجع التعليق رقم 5 ص 180.

(6) يظهر أن لفظة (فوق) سقطت هنا.

(7) اليرموك واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة، كانت به حرب بين المسلمين والروم أيام أبي بكر الصديق. ياقوت معجم البلدان. دكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، مجلد أول ص 225.

فالدِّينُ جذلانُ قد عزّتْ جوانبُه — والكُفرُ خزيانُ ما ينفكُّ يُضطَهَدُ
ها إنّها كالدُّبا تنساغُ نحوكُمُ — بها الحِفاظُ وفيها الصَّبْرُ والجَلَدُ
ترى الكُماةَ التي ما شأنُها خَوَرٌ — على الجيادِ التي قد زانَها الجِيَدُ
شيبٌ ومُرْدٌ يُنادي البأسُ إذ ركبوا : — أينَ الغُواةُ الأُولى قدْ طالَ ما بَرِقُوا
ظنُّوا بها قد أتتْ تُزجي مقانبَها — مثلَ الرَّواعِدِ فيها البَرْقُ والبَرَدُ
وللذَّوابلِ في أرجائها نَغَمٌ — كأنَّ كلَّ سنانٍ طائرٌ غَرِدُ
من كلِّ أزرقَ أنسابُ الدّنانِ بهِ — كأنّه شعلةٌ قد شبَّها رَصَدُ
أطلعتُموها بآفاقِ الوغى شُهُباً — منيرةً في دياجي نقْعِها تَقِدُ
فليسَ يقعدُ شيطانُ النّفاقِ بها — إلاّ تلقّاهُ من خرصانِها رَصَدُ
من ذا الذي يتعاطى وصْفَ حالِكمُ — والبحرُ في جنبِ ما تُولونه ثَمَدُ !
فسوّغوا عبْدكم عذراً ، فمجدكم — يقصرُ المرءُ عنه وهو مُجْتَهِدُ
ودونكم من قوافي مدْحِكم خبرا — تُلْهي اللّيالي وهُنّ الغضّةُ الجُرُدُ
صدرْنَ منّي بحكمِ الودّ عن كبدٍ — لولا رجاؤكُمُ قدْ فتّها الكَمَدُ
بعثتُ منهنّ بالسِّحرِ الحلالِ ، فلمْ — تعقدْ على نفْثِ نفّاثٍ بها العُقَدُ !

وقال عنه ما أجاز البحر منصرفاً بمدينة سبتة في تاريخ ذلك : (طويل)

تجشّمتُ هَوْلَ البحرِ في طلبِ البحرِ
ولم أشْكُ ضُرَّ الدّهرِ إلاّ إلى الدّهرِ
[110] فقُلْ للدّياجي أقبلي لم تكشّفي
فها أنا قد أصبحتُ في غُرّةِ البَدْرِ
لتشركَ ما ألقى أبا حفصٍ الرِّضى — وأشكو اللّيالي ما تطاولَ من عُمْرِ
همامٌ إذا ما همَّ نالَ مرادَهُ — ولو أنّه ألقى على قُنّةِ النَّسْرِ
هو ابنُ أميرِ المؤمنين وشبهُه — وحسبُكَ من فرعٍ وحسبُكَ من بحرِ

فاستحسن هذه الأبيات مع تقدم القصيد وما ذكر فيه من المقصود ، ثم نفذ أمره الكريم بالانصراف ، وعبور البحر الى العدوة والانعطاف ، وسرح

أشياخ بلاد الأندلس الوافدين ، والعمال والأجناد القاصدين ، بعد ما ذكرته من الأنعام عليهم على أوفى التمام المقام ، وأجاز السيد الأعلى وأخوه السعيد[1] وأكثر الجملة الخاصّة به ولم تستكمل المراكب ولا القطائع النّاس في الإجازة في ذلك اليوم ، فأقام السيد في سبتة ثلاثة أيام إلى أن عادت المراكب والقطائع بالعبور إليهم بالجبل ، وبالجزيرة الخضراء فأجاز الجميع إليه ، واستقروا في محلته بين يديه ، وكنتُ[2] مع الوافدين أولاً وأخيراً ورفعت شعراً مع الشعراء على رأي عمر بن الخطاب[3] رضي الله عنه استلطف فيه كرمه ، واستعطف به عدله ونعمه ، وأوصله إليه الكاتب أبو الحسن بن عياش وبيّن عند السيد الأعلى مسألة وفودي وقصودي فوعد رضي الله عنه في جانبي بعدة جميلة ، وبآمال كفيلة .

(مرافقة ابن صاحب الصلاة لركب الخليفة ونزوله بالمغرب)

وصحبت [111] خدمته[4] حتى إلى الحضرة العلية المشتملة على العدل وعلى كلِّ فضيلة ، ووصلتها يوم وصوله ، وحللت فيها حين حلوله ، واستسعدت به حيث كان في إقامته ورحيله . وكما قال الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي[5] فخر الأندلس وبحر علم الأنفس في تآليفه في (كتاب

(1) هو بالذات أبو سعيد، ولعل الأصل هكذا أبو سعيد.
(2) يؤكد ابن صاحب الصلاة أنه كان في جملة الحاضرين إلى جبل طارق. وأنه كان ضمن الشعراء الذين أسهموا في تحية هذا اللقاء بل واستمر مرافقاً للركب. راجع المقدمة.
(3) يقصد فيما يظهر أنه لم يتبع في شعره حوشي الكلام ولم يعاظل، وأنه لم يقل إلا ما يعرفه ولم يمدح إلا بما هو موجود، وتلك الصفات، هي التي امتدحها عمر بن الخطاب في الحكم على ابن أبي سلمى بأنه أشعر الشعراء... الأصفهاني الأغاني جزء 9 طبعة بيروت 1955 ص 295.
(4) عوض هذه الورقة رقم 58 نجد في المخطوط المجلد ورقة أصل خطأ رقم 56 بينما هي في الواقع رقم 61 وتبتدىء هكذا : وأبي عبد الله بن يوسف المقدمين بالعرب إلى جزيرة الأندلس، راجع المقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط ص 16.
(5) أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري ترجمه غير واحد في غير ما كتاب، وقد كان على رأس...

الرحلة »[1] له حين دخل بغداد وتعرف بسلطانها : « نعمت المعرفة التعرف بالسلطان ، والتشرف به عند التغرّب من الأوطان ، ونعم العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان » . ونفذ أمر السيد الأعلى أبي حفص إلى أبي عُمَر بن حربون ، وأبي الحسن[2] . . . . الهوزني كاتب محمد بن المعلم أن

---

* الوفد الذي ورد على المغرب لتقديم طاعته للموحدين سنة اثنين وأربعين وخمسمائة ترك عمل مغربة من مدينة فاس عند رجوعه من مراكش سنة 543، وفي عهد السلطان المولى اسماعيل حين وفد عليه للمغرب وفد العاقرة من الصحراء وتزوج منهم بالسيدة خناثة بنت بكار سكنهم فسكنت من قبر ابن العربي وأمرت ببناء قبة عليه بما تزال معروفة مقصودة إلى الآن. الحلل الموشية ص 122 ـ المقري نفح الطيب طبعة 1949 جزء ثالث ص 233 ـ الأعلام، خير الدين الزركلي سابع ص 106 ـ العباس بن إبراهيم، الأعلام ثالث ص 11. الدُّرر الفاخرة . .

(1) كان القاضي أبو بكر بن العربي ذهب صحبة والده في مهمة رسمية إلى بغداد مبعوثاً من طرف يوسف بن تاشفين، فقد خاطب يوسف بواسطة هذا الوفد الخليفة ببغداد على عهده أبا العباس أحمد المستظهر بالله ابن الخليفة العباسي المقتدي بالله في أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس. . . ولكن هذه الرحلة إلى الشرق لم تمر كسائر الرحلات لأنها كانت فرصة لابن العربي كيما يأتي بما لم يأت به أحد، ولذلك فقد ذكر في أبرز مؤلفاته الفريدة (كتاب الرحلة). ويوجد مخطوط بالخزانة العامة بالرباط يظن أنه (ملخص) لكتاب الرحلة، وهو يبتدئ هكذا: قال الإمام الحافظ القدوة المبارك الفاضل أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأندلسي (رض): وقد شاهدت من طلب العلم بافريقية ومصر والشام والساحل والعراق والحجاز وما لا يأتي عليه الاحصاء ولا ينال باستقصاء. . . ولما سبق القضاء برحلتي إلى تلك المشاهد الكريمة، وحلولي في تلك المقامات العظيمة، دخلتها والنشر في عشرك، والغصن مائس بأفنائه، وبنزالة في كتاب ترتيب الرحلة. . . إلى أن يقول: الرتبة الأولى لما وصلنا إلى مدينة السلام كتب أبي برد الله مثواه. . . إلى الخليفة رضوان الله عليه كتاباً في درج طويل على صلة ادراجهم في مخاطباتهم. . . وتختم هذه الأوراق هكذا: انتهى ما لخص من هذه القصة. . . الخ . .
وابن صاحب الصلاة هنا ينقل مقطعاً من الرحلة المعافرية مما لم أجد له نصاً في المخطوط المشار إليه وإن كان قد أشار إلى الاتصال برجال الحكم. المخطوط رقم 1020. الخزانة العامة، الرباط ـ المقري نفح الطيب الجزء الثاني ص 235. أحمد الفرواتي، دليل الحج والسياحة طبعة 1935 ص 293. العباس بن إبراهيم جزء 3 ص 17. ابن خلدون، المجلد السادس ص 386. السيوطي: تاريخ الخلفاء 1959 صفحة 426 ـ الاستقصا ثالث ص 53.

(2) هنا بياض وأغلب الظن أن اسم عليّ سقط للناسخ الذي لم يترك فراغاً عند إيراد الاسم الثلاثي، وأبو الحسن الهوزني هذا هو علي بن أبي حفص عمر بن أبي القاسم بن أبي حفص 380، فيما رواه ابن عذاري ـ من الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة عند سرده لحوادث 575، وقد وردت نكبته عند المراكشي وابن سعيد بأبي الحسن وذكره الأول على أنه من كتّاب الخليفة أبيه

بمصاحبة الكتابة في جملة كتابه ، فأما أبو الحسن الهوزني فرفعت أيامه بتدوينه في المحاسبة وبخطه ، وأما أبو عُمَر بن حربون فطالبته معارفه ، ودنته أفهامها وأقلامه وأشعاره حتى تمكنت من حرمانه وحظه حسبما أذكره في هذا التاريخ[1] .

وتحرك السيد الأعلى من سبتة آخذاً في السير ، بالبِشر العام وبأوفى الخَيْر ، فاجتاز في مسيره على مدينة فاس[2] ، ثم أعمل الطريق إلى حضرة مراكش حرسها الله والسعد يقدمه ، والنصر علمه ، والبشر مبتسمه ، إلى أن وصل فتلقاه السيد المؤيد الأمير أبو يعقوب رضي الله عنه ، ومع السيد أبي حفص [112] أخوه السيد أبو سعيد خارج مراكش على أوفى الاستبشار ، والسرور البادي باجتماعهم ، والاستظهار ، وإقماع المنافقين والكفار ، وعلى أكمل غاية الظهور والبروز من قرع الطبول وخفق البنود ، واجتماع النظارة وحضور الوفود بكمال العهود . ودخل السيد مراكش في أول رجب الفرد من عام ستين وخمس مائة ، وأطعم الموحدين الطعام وجميع الناس ، وظهر السرور في الابشار بأجمل المظاهر والإحساس . وأنشد الشعراء أشعارهم بالتهاني والمدائح فأجادوا وأحسنوا ، وخطب الخطباء فأتوا في ذلك بالسحر الحلال وبيّنوا ، وقال الأستاذ أبو الوليد الشواش الشلبي في ذلك المجلس الكريم مادحاً مهنئاً الأمير أبا يعقوب بالقدوم الميمون المعلى بالسلامة والتسليم : (كامل)

---

* سعيد يعقوب والثاني على أنه من كتّاب منصور بن عبد المؤمن كما يذكر ابن عذاري. المعجب طبعة القاهرة ص 244 ـ ابن عذاري ص 106 و165 ـ المغرب في حلى المغرب أول ص 235.

(1) في السفر الثالث دون شك وانظر التعليق رقم 1 ص 175.

(2) لقد علمنا منذ قليل أن ابن صاحب الصلاة كان في جملة الوافدين على جبل طارق وأنه صحب موكب السيد أبي حفص إلى الحضرة العلية، وهكذا نجد ابن صاحب الصلاة يحل بمدينة فاس، ونحن نرجح أن تكون هذه هي زيارته الأولى لمدينة فاس، ونرجح أن يكون استمتع في هذه المرة إلى الشيخ المسن الذي حدثه عن رحلته لبغداد واتصاله بالإمام الغزالي. ودعاه هنا على أيام بني ثورة بالبوار! الحلل الموشية ـ نشر علوش ص 85.

وضحتْ بأنوارِ الهُدى قسماتُه ... وبآياتِ الهُدى القويمِ سِماتُه(1)
مَلِكُ المُلوكِ مؤيَّدٌ لكُتُبه ... غلَبتْ عليه من التُّقى مَلكاتُه
دانتْ له الدُّنيا وكافّةُ أهلِها ... لُطفاً وعفّتْ وسامحتْ عطفاتُه
أبْدى لنا بشبابِه وشبابِه ... عجباً وظاهرَ حسنِه حسناتُه

[113] فرعٌ من الدَّوحِ الأنفِ تسامقتْ ... أفنانُه وتقابلتْ شُعُباتُه

سامٍ وطاولَ في سماواتِ العُلى ... صُعُداً وعاجلَ غرسَه ثمراتُه
غَرْسٌ ليحيى والعلوم لذاته ... والمعلوات تحرّانها ذاتاتُه
كثرتْ فضائلُه فكاثرتِ الحصى ... عدداً ، وقد قلّتْ به سنواتُه
ومضتْ ببرقِ غُيوبه صفحاتُه ... ومضتْ مضاءَ صفاحِه عزماتُه
وأفادَهُ ذُخراً مُفيداً مُنعماً ... وصِلتْ بماطرِ خيرِه خيراتُه
نجلُ الخليفةِ يقتدي برشادِه ... وسدادِه وتبيّنُ فيه سماتُه
ورِدُ الزُّلالِ العذبِ في ينبوعِه ... صفواً نقياً لم تشبه قذاتُه
فهناك أُسّس بالتُّقى بُنيانُه ... وهناك شُيّد بالهُدى محرابُه
ولاهُ مرتبةَ الفخارِ ولأنه ... وبنى له المجدُ الطموحُ بناتُه
وتقبّلَ الخُلُقَ الرضيَّ فأنجحتْ ... أسخاؤه وتيسّرتْ طلباتُه
حبٌّ بوكّل بالوفى أو بالندى ... لا تُرتَجى من وجده مثلاتُه
إنْ الحروبَ فلم يُخلّ بعهدها ... والجبلُ لا تُثنى له حُرماتُه
وإذا تذكّرها أجدَّ نزاعَه ... وحنينَه وتواصلتْ ذكراتُه
يُلهيه روضٌ والقنى دوحاتُه ... والبيضُ زهرٌ ، والدُّمى ثمراتُه
والسابقاتُ سوابقٌ يشفي بها ... خيرَ الفدى وطلالةُ راياتُه
في حيثُ صوتُ المشرفيّ مرجّعٌ ... يشدو فتطربُ في العُلى نغماتُه
ويهبُّ من ريحِ الجلادِ نسيمُها ... فتنشّره وتهزّه هبّاتُه

---

(1) أورد ابن عذاري عشرين بيتاً من قصيدة الشراتي. البيان المغرب ص 47 - 48.

تحنو عليه الحربُ إذ تحلو لها ... وتُنبّهه من حسِّ الوغى رنّاتُه
[114] فله بادرةُ الغوائلِ والرّدى ... وتطيحُ بالموتِ الزؤامِ عداتُه
يا خيرَ من ملكَ الورى ودعاهمُ ... لله فابتدرتْ له دعواتُه
جُوزيتَ بالحسنى إذا ما تحسنُ ... في فعلِه جوزيتَ له فعلاتُه
من يُضعف حبّك لتحدثَ أحوالُه ... ومثالُه وتقبّلتْ قرباتُه
من يقتدي بك يهتدي ، أو من يرُمْ ... سُبُلَ النجاةِ فأنتمُ منجاتُه
وتهنّأ البُشرى بآيةِ سيّدٍ ... قُرنتْ بالجزلِ تعمُّ أوباتُه
نجلُ الهُدى وأخوك عزّتْ نسبةً ... والمجدُ تقصرُ دونها غاياتُه
في الله أعملَ سعيَه فحوتْ له ... جمعُ الفضائلِ والعُلى نفحاتُه
سيفٌ بكفّك مُصلتٌ تسطو به ... ماضي الشَّبا لا تتّقى نشواتُه
ندبٌ أنتمُ الأنفُ إن تُسَلِ العُلى ... لا يرتضي ثارتْ له أنفاتُه
سهلُ الجوانبِ راضياً ومواتياً ... وإذا تنكّر أحزنتْ جنباتُه !
سامي الأنامِ قابلك نعماؤه ... ونوالُه وتحرّكتْ نفحاتُه
يرمي بجفنٍ كلاءةٍ وحمايةٍ ... موصولةٍ في رغبِه يقظاتُه
أنتم لأهلِ الأرضِ أرفقُ عصمةٍ ... وبأمركم عُطفتْ عليه حُباتُه
لا زلتمُ للمكرماتِ وللعُلى ... شملاً ، ولا يلقى عليه شتاتُه
واستقبلوا في الدهرِ عمراً باقياً ... ما واصلتْ غدواتِه روحاتُه

وقال أبو عمر بن حربون يهنئ بالإياب من جبل الفتح ويمدح الأمير [115] أبا يعقوب والسيد أبا حفص ويغبط الأخوة بينهما : (وافر)

بأيمنِ طائرٍ كان الإيابُ ... وأنجحِ مطلبٍ بلغَ الطِّلابُ
وكانتْ وجهةً كرُمتْ مآباً ... فقد عُكس التوجّهُ والمآبُ
إذا قُضيتْ مآربُكم جميعاً ... فما في سعدِ طالعها ارتيابُ
دلفتُم بالأسودِ إلى بلادٍ ... ثوتْ حِججاً تعيثُ بها الذئابُ
أثبتّموها غداةَ خلفتموها ... بلادَ الجدبِ حلَّ بها السَّحابُ !

فلولاكُمْ لقَدْ أضحَتْ مواتاً — يُمَنُّ على تَرائبها التُّرابُ !
فقد ألقى عصا التسيار فيها — وقوَّضَ رحْلَه عنْها الخَرابُ
جَمعْتم من بَني قيسٍ شُعوباً — تَبيلُ بها المخالي والشِّعابُ
تجانسَ جنسُهُم لفظاً ومعنىً — فهُم عُربٌ وخيلُهُم عِرابُ
تعاهدتُم مواطِنَ خيرِ أرضٍ — مكرَّمةٍ تشدُّ لها الرِّكابُ
هو الجبلُ الذي للفتح فيه — مخايلُ ما لصادقها كِذابُ
به من نورِ سيِّدنا أبيكم — شعاعٌ ما يزال له التهابُ
وشطرُ المغربِ الأقصى شئتُم — أطعتُمها كما زخرَ العُبابُ
وليس سموُّكم كحبابِ ماءٍ — ولكن مثلَ ما يسمو الحبابُ
أتتكُم كُتْبُهم مستصرخاتٍ — فطيَّرَ من كتائبكم جوابُ
يخطُّ من الصفوفِ به سطورٌ — فيصفرُّ رقعةً عنه اليبابُ
فكم من مارقٍ عاجلتموه — كما يقضُّ في الجوِّ الشهابُ
خبيثٌ قاربَ الكفرانَ منه — بأمرٍ لا يطيرُ له غُرابُ
[116] وإنَّ العهدَ أنجحتِ المساعي — بيُمْنِكم وأصحبتِ الصعابُ
وأحكمتِ الأمورُ بما تواصت — به الألبابُ والخُطَبُ اللبابُ
نُصرتم من أبي حفصٍ أخيكم — بماضي الحدِّ تعرفه الرِّقابُ
وقبلكُم اصطفى موسى أخاه — فشأنُهما وشأنكُما عُجابُ !
سَرى عنكم بِبَحْرٍ مكفهرٍّ — يُصبُّ على العِدا به العَذابُ
تسيرُ الشمسُ مُشفقةً إليه — كأنَّ الطيرَ بينهما حجابُ
تغضُّ رؤوسها فترى عُقاباً — من الراياتِ تتبعها عُقابُ
إذا ركعَ الوشيجُ على الهوادي — فقد سجدتْ له الشمُّ الهضابُ
عليه من سَراةِ بني عليٍّ[1] — غلاءٌ لا يُضافُ إليه غابُ
كُسوبُ الحمدِ بتلافٍ وهوبٌ — كمثلِ البحرِ يُرجى أو يُهابُ
كأنَّ الناسَ من غلطٍ وأنتم — أدامَ اللهُ أمركم صوابُ !

(1) يعني به علياً والد الخليفة عبد المؤمن. البيذق، أخبار المهدي ص 21 - 22 ابن عذاري ص 36.

وأنتم[1] في مشاهدكم كهولٌ — وأنتم في مواهبكم شبابُ !
فمن يرجو بوصفكم قياماً — وفضلُكم تضيقُ به الكتابُ
فما يستطيعُ غايتكم حسيبٌ — ولا يحوي فضائلكم حسابُ
أسيِّدنا أبا حفصٍ رضاكم — به يُرجى لدى اللهِ الثوابُ
ولولا ما أؤمِّلُ من رضاكم — لما ساغَ الطعامُ ولا الشرابُ
أنا العبدُ الغريبُ وليس يزري — بحسنِ ولاءِ عبدِكم اغترابُ
بعيدٌ أن يسيءَ إليَّ دهرٌ — ثوابتُه بذكركم تُثابُ

وقال أبو عمر أيضاً مرجعه من الجبل، [117] يمدح السيد الأعلى أبا حفص وقد استكتب على ما تقدم الذكر به[2] ويهنئه بزورة كعبة أخيه ويحثه :

(كامل)

خُذوا المطيَّ فقد قضتْ أوطارها — واحدُوا إلى بابِ الأميرِ قطارها
وإن اشتكت[3] أيناً فلا ترثوا لها — حتى تُحدِّثَ عنده أخبارها
لا تعذروها لو تحلُّ فناءه — فإذا حللتم فاقبلوا أعذارها
واستوصلوا آصالها وكلالها — فالنُّجحُ في أن تشتكي أسفارها
حتى تزوروا كعبةَ الفضلِ التي — قد أحسنتْ بركاتُها زوّارها
فإذا استلمتم بالسلامةِ ركنها — فارموا بأخفافِ المطيِّ جمارها
ها أنتها صورٌ إليكم تنزعُ — قد صارها من حكمكم ما صارها
بلغتْ رباطَ الفتحِ عوجاً ظُلَّعاً — قد كان يستوي السرى أشارها[4]
وستغتدي بعدَ النزورِ جواحظاً — إن صادفتْ بعفاتكم أبصارها
فاستشرفوها كالسهامِ سواهماً — تطوي المهامهَ ليلها ونهارها
تطوي صحائفَ كلِّ أرضٍ صحصحٍ — ورثمُ السرى بحروفها أسطارها

(1) في المخطوط: وأنتم وهو لا يستقيم.
(2) وذلك في صفحة 111 مع أبي الحسن الهوزني.
(3) في المخطوط اشتكت وهو لا يستقيم ولا يسوغ ذلك.
(4) كذا في الأصل ولم نتبين معناه.

ومن شذا الحادي لحُسن تنالكم   طارَتْ بأجنحة السُّرور مَطارَها
صدرت عن الجبل المُبارَك بَعْدَما   حُثّتْ بِبَعْدكم هناك قِصارها
واستخدمتْ للرُّعب كلَّ كتيبة   ثُنِّتْ بأرض المشركين مَغارَها
وتضتْ بأرض العدوَّيْن مشاربها   نستكثرُ الأيامُ لفضلكم آثارَها
[118] تُشري مصالحُها بسنَّة صالح   إن لم تَرِع فرقُ العصاة قدارَها[1]
جهزتُم نحوَ الأعادي فيلقاً   سَحّاب أذيال القَنا جَرّارَها
جاؤوا تقدمها السُّعود طلائعاً   وترى ملائكة العُلى أنصارَها
لبِسَتْ بها شمسُ الظَّهيرة حُلَّةً   خلط العجاج لجينها ونُضارَها
نتطلَّعتْ منه تطلُّع غادةٍ   تبدو وأحياناً تغمُّ خمارَها
فكأنَّ أرض الملحدين لبأسكم   ثكلى تمزّق صدرَها وإزارَها
فتهزُّوها زلزلةً ومهدّيةً   رفعتْ لأبصار العباد منارَها
أبنا وذكركُم نسمة لروعة   قد أضرمتْ بين الجوانح نارَها
والشمل متصل النظام بدعوة   ميمونة نشقتم أنوارَها
فتشقُوا عَبَق التحيّة نحوَكم   تُهدي إليكم وردَها وعرارَها
وارتكم منها محالة قادم   نقلتْ ببشر لقائكم أشعارَها

وقال الكاتب أبو عبد الله الشاطبي[2] مهنئاً بالإياب مادحاً وهو كاتب مجيد، ورجل مجيد، إلا أن سبب توحشه عن الناس وهم استغلب عليه فاستولى عليه بذلك الخمول والقعود : (طويل)

---

(1) قدار: ابن سالف الذي عقر ناقة الله آية صالح عليه السلام.

(2) لم نطمئن لما وجدناه عند البحث عن هذه الشخصية وإن كنا لا نستبعد أن يكون هو محمد بن عبد الرحمن بن ياسين الذي كان معدوداً من الفقهاء والأدباء والذي كان له حظ من قرض الشعر والمتوفى سنة 590 وقد نقل من شعره يهجو بلده شاطبة:

شاطبة قريبة غريبة   ليست لمن أمها بمعيشة
تنفيهم الكتب احتقاراً   وتكتب التعبير لا تعينه
والحيث المحض تستقطب   بعداً لها جنة في المدينة!

زاد المسافر، نشر عبد القادر محداد ص 95.

سلامٌ كعَرْف الرَّوض غِبَّ قِطاره   تحيّة مشتاق الفؤاد مَطاره
وبُشرى كما انشقَّ الدُّجى عن صباحه   ولاح هلالُ الفِطر بعد سِراره
يقرّ بعين الملك مقدم ماجدٍ   يُسَرُّ بمرآهم مَحَلُّ قراره
[119] لتُهن أبا يعقوب غبطةُ أوبةٍ   بمثوبة وافته الحين انتظاره
أميران نَجْلُ الملك سيفيه بينهما   على ثقة يرجوهما لانتصاره
يحث أبو حفص وحفصٌ بحلّة   تلقاهما للبشر جمّ بداره
عميداً نتاج بل شهابا سيادة   وملك أبو يعقوب قُطبُ مداره
نماه الخليل الحسني بن زهو خليلهم   وليس بمنكر مستبدل عن إزاره
وما يرهب الأعداء من حُسْن منتظر   فمن خُلُق الإيمان ترك انتصاره
لقد صدّيت من ناصر الأمر مقلة   لعثمان تشكو منه شحط مزاره
فنادت أبا حفص الفضاء لعزمة   كمثل اليماني حد غرب غراره
تواصل إدلاج السُّرى من طلابه   جلوب شبير في سراب نهاره
وجاداً، كما سوّى جناحيه طائر   إلى منتهى الآمال قصد مطاره
بحيث استقر العلمُ والحلمُ والهدى   وحلّ به للدين حامي ذماره
به السعد ممتدٌّ وحيُّ خلافة   من اللاحب الهادي بضوء مناره
قد اعتاضه الرحمن للخلق رحمة   وأجرى له الأقدار وفق اختياره
حكت بيعة الرضوان[1] بيعته التي   بها تُمرى الإصلاح في عقر داره
ألست ترى في الناكثين وقائعاً   يمين الردى فيها كمثل يساره
تُنسّي هلالاً حربٍ؟ يساره[2]   وينسى ابن مُرّ؟ وقع يوم جفاره[3]
فصابك سيف الحق صرعى بشاهق   به ابن المُغتّر وقع جداره

---

(1) يشير إلى البيعة التي تمت في صدر الإسلام على مقربة من مكة عند الحديبية فراجع ما كتبه المفسرون عن الآية الشريفة: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾. سورة الفتح الآية 18. ابن جزي: كتاب التسهيل، المجلد الرابع.

(2) لا شك أن هنا كلمة سقطت للناسخ توجد أثر كلمة هلال أو حرب.

(3) يعني أن تلك الوقائع تنسي هلالاً وابن مر... لكن من هو هلال؟ وابن مرة؟ فهل هلال بن مرذنيش؟ وهل الأصل ابن مريق؟ لم نجد عملاً للتأكد من قصد الشاعر.

لقد غبنتْ منها البصائر شقْوةً … أحاطتْهم لـلـهـلك دارُ بـواره
ولو قرعوا للصَّفح أبواب توبةٍ … لـهُ لم يخُوضُـوا للرَّدى في غماره

[120] هُوَ الملكُ المُمَنْمُونُ طائرهُ انتمى
إلى الـشَّـرفِ الأعـلى كـريمٌ نجاره
تُناديه للألباب مَوْرد حكمةٍ … بفجْرهِ للفهم منيرِ اختياره

ومنها :

هـو ابنُ أمـير المؤمنين أقـامـهُ … إلى بثُ علم منذُ بـدْءِ انتشاره
لهذا الفراغُ يزكو من أرومة أصله … وللفرع ما يـوفي الجنى من ثماره
بكم حُسْنُ الشِّعر الذي راق نظمه … ولم يـكُ إلا مـنْـكُم من بحاره
له خجلُ التقصير في وصف مجدكم … ولـكنْ عُـلاكم قـابـلٌ لاعتذاره
عسى الجُود يحقبه بصفْو صافي … يشق علي ذي الشَّبْو شق غباره
ودونكها يا بنَ الإمام قصيدةً … من الأدب المنظوم بعد انتشاره
كما قرنَ الآتي الى البيت حجَّه … وشـفـعـه في شَفْعٍ باعتماره
وحيَّتكم هديًا ثناءً عليكُمُ … بعـفـو غـيـر لم يُشَبْ بـشـنـاره
لـه كعبةٌ منكم تـطوفُ بها المُنى … وحيثُ مُنى الإنشاد مرمى جماره !

ذكر العزم المؤيد من السيد الأعلى المجاهد الأسنى المرحوم أبي حفص بن الخليفة رضي الله عنهم بالحركة السعيدة المنصورة الى ابن مردنيش باتفاق ورأي الأمير ابي يعقوب رضي الله عنه ، واجازته البحر بعسكره المظفر ومنازلته بلاد ابن مردنيش مردفاً للشيخ أبي سعيد[1] بن الحسين والشيخ [121] أبي عبد الله[2] بن يوسف المتقدمين بالعرب الى جزيرة الأندلس لحمايتها في ربيع الأخر من عام ستين وخمس مائة قبلي ما تقدم الذكر به في هذا التاريخ[3] وما دار في ذلك من الفتح

قال المؤلف : وأقام السيد الأعلى أبو حفص بمراكش بعد انصرافه من جبل الفتح ومعه أخوه أبو سعيد بقية شهر رجب الفرد وشهر شعبان كله ، وكان أبو سعيد بن الحسين وأبو عبد الله بن يوسف قد تقدما بعسكر العرب المذكور على ما تقدم[4] وبعثوا عند وصولهم إشبيلية منهم جملة مباركة نحو الخمس مائة فارس الى مدينة بطليوس لحماية صيْنتها فيسر الله لهم غزو شرذمة ذميمة

---

(1) يعني أبا سعيد يخلف بن الحسين. راجع التعليق رقم 1 ص 180.
(2) هو نص هذه الورقة رقم 61 نجده في المخطوط المجلد ورقته تحمل رقم 58 بينما هي في الواقع رقم 58، وتبتدئ هكذا وجملة حتى إلى الحضرة العلية المشتملة على العدل وعلى كل فضيلة... راجع التعليق رقم 4 ص 185 والمقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط ثم أن الشيخ أبا عبد الله بن يوسف ممن لم نجد لهم ذكراً في البيدق ولا ضمن الرسائل الموحدية ولا في بقية المصادر الأخرى التي بين أيدينا فلعله من خفي عنا أو لم يوقف على أسمائهم. ابن عذاري ص 48 - 49.
(3) وذلك صفحة 105.
(4) وذلك صفحة 121.

كبيرة من النصارى أهل شنترين[1] أبادها الله وهزموهم وغنموهم واستأصلوهم قتلاً وسبياً ، فكان ذلك عنوان الفتح لما يذكر بعد في هذه الغزوة . ثم أبا سعيد وأبا عبد الله خرجوا من إشبيلية بالعسكر الميمون الى مدينة غرناطة لدفع المحاربين الأشقياء عن جهاتها وحماية ضيقتها فعند خروجهم من قرطبة الى جهاتها التقوا على غير ميعاد ولا معرفة بعسكر مجتمع معد من عسكر ابن مردنيش بحصن لك[2] ، فكانت بينهم مداقعات عميمة ، وكرات في معركة من الحرب عظيمة ، ظهر فيها من إقدام أبي عبد الله بن يوسف ومن أعيان العرب وسائر العسكر ومن صبرهم ودفاعهم وقراعهم [122] ما لم يظهر مثله إلا في زمان الأبرار ، المجاهدين الأخيار . تواصلت الحرب بينهم طولَ يوم على شُرب الماء في وادي[3] لك المذكور ، وانفضت الحرب عن ظهورهم وثباتٍ من الموحدين وحيرة من المنافقين واستغراب منهم ، كيْفَ يوجد مثل هؤلاء في الموحدين ، فوصل كتاب أبي سعيد يخالف بن الحسين وأبي عبد الله بن يوسف الى الأمير بمراكش مستغيثين معرّفين بهيئة حربهم ، ومواقفتهم في طعنهم وضربهم ، وذلك في أول يومٍ من شهر رمضان المعظم من عام ستين وخمس مائة السيد الأعلى أبو حفص رضي الله عنه لله غيرة عظيمة ، وعسكر في يومه ، وأمر بالنفير اليهم والإسراع بالموحدين من الصابرين ، ونخبة الفرسان الأبطال من العرب الرياحيين والأثبجين[4] والزغبين ورجالهم ، والنفرة لديهم وخرج من الحضرة في العشر الأول من شهر رمضان المعظم

(1) شنترين (Santaren)، تقع شمال أشبونة، على جبل شاهق بينها وبين بطليوس كما يقول الحميري أربع مراحل.
الروض المعطار ص 113 - 114.
(2) حصن لك (El castillo luque) يقع جنوب غرناطة على مقربة منها.
ويسي: ص 223.
(3) الذي تقدم هو حصن لك ولعل به واديا يحمل أيضاً اسم وادي لك.
(4) يعتبر الأثبج من الهلاليين ولكنهم أوفر عدداً وأكثر بطوناً وكان منهم الضحاك، والعاصم ابنا مشرف بن أثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر. والموحدون هم الذين نقلوهم من افريقية إلى المغرب.
ابن خلدون المجلد السادس ص 48 فما بعدها.

المؤرخ بالعالم المذكور ، وخرج معه أخوه أبو سعيد عثمان وهي غزوته الأولى إلى ابن مردنيش السعيدة الفاتحة للموحدين أعانهم في عدوهم فأزعج السير حتى أجاز البحر ووصل مدينة إشبيلية بجمعه الظاهر ، واجتمع بالموحدين المذكورين بها وتذاكروا في الرأي ، واتّفقوا وتشاوروا ووقفوا وخرجوا من إشبيلية غازين عازمين مصممين الى بلاد ابن مردنيش في أول ذي[1] القعدة من عام ستين [123] المؤرّخ ، فأول مدينة نازلوها له مدينة (أندوجر)[2] القريبة من قرطبة وأنها شجى في حلقها ومشركة في تربها ، إذ هي من بسائطها ومحارثها . وموضع مستغلاتها من المرافق في قديمها وحديثها ، فتحوها في يوم نزولهم في ساعة قتالها ونزالها عنوة ، وبادر لعل الحصون المجاورون بدخولهم في التوحيد ، القريب منها والبعيد ، وشن العسكر المنصور بأمر الأمير السيد الأعلى خَيْلَه بالغارة على نواحيها فاستاقت المغانم على القرب والبعد ، وامتلأت أيدي الموحدين أعزهم الله من السبي والفيء وازداد نعماً الى نعمهم ، وشفيت قلوبُهم من وجدها وأجسامهم . وعَم بالجميع من النهم وتيقنوا ان ذمة الله موصولة بذممهم . وأتمم السيد الأعلى - أعلى الله أمره، وخلد في الدهور فخره - عند كمال هذا الفتح الميسر على الموحدين أعانهم الله بزاد وبركة زادها لهم أحساناً منه والصافاً ، فتآلفوا في المواخاة على ما كانوا عليه أضعافاً، واستعدوا بعدة القلوب للحروب، وفي العدد آلافاً ، ونهض السيد رضي الله عنه في هذه الغزوة السعيدة النُّهوض الذي لم يتقدم لغيره في هذا الأمر ، ولا سبقه سابقٌ في قديم الزمان من القُمْر فإنه نهض بنية لله صافية وعساكر بالنصر ضافية ، وأجناد من الله معه متلاقية ، ولما كان الفراغ من شغل فتح أندوجر [124] المذكورة وثقف من وجب تثقيفه ، وسبى من سبي وتحكمت في ذلك رماحه وسيوفه ، واصطفى فيها من

(1) موافق 8 شتنبر 1165 - Huici: 226.
(2) أندوجر (Andujar) بلدة من مقاطعة جيان وتقع شمال شرقي قرطبة، مشيدة بشط الوادي الكبير يمر بها على قنطرة في غاية العلو.
الغزال، نتيجة الاجتهاد ص 40 - 41.

رأه ، واستحسن مراده ، أقلع منها قاصداً بلاد ابن مردنيش المذكورة والنصر بين يديه قديماً ، والظفر معه أينما حل ظاعناً ومقيماً ، وتسامع ابن مردنيش أن العزم اليه ، على ما نوى عليه ، فاحتشد جميع أهل شرق الأندلس ومن اليه تحت عطاء ورزق ! وشحنه من معتق ورق ! واستدعى أحلافه النصارى من طليطلة وأنظارها ، والعُصاة والجُناة من أقطارها ، فوصلوا اليه بجمع كبير لديهم حقير عند الله ، فرار عن الحق مهزوم معاند لأمر الله عن العصيان فاجتمع له جمْع ، وطرق لهم من الشيطان سمْع ، تسابقوا لاجابته ، وحماية غوايته ، فخرج بهم من مرسية مقره واعترض الموحدين أعانهم الله وهم بمدينة لورقة[1] واقبل بجمعه اليهم وحبّس مضيقاً في الطريق عليهم لا يمكنهم الجواز فيه إلا بعد مقارعة ، فعدل الموحدون أيدهم الله عن ذلك المضيق الى الفحص المعروف بالفندون[2] في أوسع طريق وأيمن فريق وأتوا لورقة من غربيها ، والشقي بعسكره بقربها ، ثم أنهم أقلعوا من منزلهم المبارك من نحوها ، وتوجهوا على طريقهم قاصدين مرسية ، فاقلع ابن مردنيش من موضعه بجمعه وتماشياً يوهم ذلك ، عسكر الموحدين أيدهم الله في جانب الجبل على ميمنة [125] الطريق ، وعسكر ابن مردنيش على يسرة الطريق في الجبل الأخر دائما على ذلك في يومهم كله . فلما كان يوم الجمعة السابع من ذي الحجة من العام المؤرخ عام ستين وخمس مائة ، ووصلوا الفحص في وقت الزوال من شمس النهار المذكور أول فحص مرسية في الموضع المعروف بحامة بلقوار[3] ، وفحص الجلاب[4] على عشرة أميال من مرسية ،

---

(1) لورقة (Lorca) تقع جنوب مرسية بها يوجد فحص الفندون تحيط بها بعض القرى لكن أهمها قرية (كارا). الحميري: الروض المعطار صفحة 171 - 172.

(2) الفندون، يقع شرقي مدينة لورقة، جنوب قرطاجنة. هذا وقد أعطاها وبنى نفس الاسم: (Al Funduq). الادريسي: نزهة المشتاق ص 194. ويبني: الخريطة بين صفحة 228 - 229.

(3) كذا في الأصل: حامة بلقواره أو بلقوار، ويظهر من ابن صاحب الصلاة انه اسم كان لفحص مرسية الذي يصل أيضاً اسم فحص الجلاب، وقد أخذ ابن عذاري الاسمين معاً واكتفى بالقول بانهم وصلوا أول فحص مرسية على عشرة أميال منها ...».

(4) راجع في هذه الموقعة الحلة السيراء ص 230 والدكتور أشباخ، تاريخ الأندلس ترجمة عبد الله عنان ص 339.

التح عسكر ابن مردنيش بالدفاع وطلب ، فصفّ صفوفاً ، وتميزوا أجناساً وصنوفاً ، وتميزوا[1] بكلّ قبيل من طوائف الموحدين الصابرين الصادقين ، أهل هرغة[2]، وأهل تينملل ، وهنتاتة[3] ، وقدميوه[4] ، وجنفيسة[5] وجميع القبائل على مراتبهم ، ومن قبائل العرب الهلاليين والرياحيين والجشميين والزغبيين ، وجميع العبيد للأمر العالي المرتسمين ، وتيسروا لللقاء ، وتعاهدوا على الثبات والصبر في إقامة طاعة الله تعالى ودفاع اعدائه ، ودخول الجنة بذلك على طول البقاء . فدفع ابن مردنيش بعسكره فيهم بأصحابه النصارى أولاً ثلاث دفعات : أولى في العرب واثنين في الموحدين ، فانجد الله المؤمنين في ذلك وثبتهم ، وقوّى قلوبهم وعزمتهم ، فعظم بينهم خصام القتام ورجع شمس النهار في نهاية الظلام وترادف بالاظلام ، وتماشت الركب بالركب ، وعظم الطعن بالرماح [126] المداعس ؟ والضرب بالسيوف القضب المشارف المجرّبة عند العرب ، الى أن فتح الله للمسلمين ، وولّى الكفرة أدبارهم ، وكان بعون الله تعالى أدبارهم ، ومحا الله تعالى بسيفه آثارهم ، وقتلوا قتلاً ذريعاً ، وخر أكثرهم صريعاً ، وفر ابنُ مردنيش مهزوماً قد عاين مصارع أصحابه وأحزابه الكفرة جميعاً ، واستند الى جبل قريب من المعركة ضرب فيه قبة خباء على معنى خدعة الحرب أقام مع فله المهزوم ، في ذلك ساعة من بقية اليوم ، الى أن ستره الليل ، وقد أحدق به التكل

---

(1) جرت عادة الموحدين على «تمييز الجيش عند كل مناسبة حتى يعرف كل قبيل وصنفه، وهكذا تأخذ القرب بقبائلهم على حدة، وقبائل العرب كذلك، والقوال بدورهم كذلك...». البيذق، أخبار المهدي ص 245 وص 53 (الرحمة)، راجع ص 299 وما بعدها من كتاب المن بالإمامة . .

(2) هرغة: تقع شرقي مدينة تارودانت بين السوس الأدنى والسوس الأقصى (أنظر خريطة بروفنصال في أخبار المهدي).

(3) هنتاتة: تقع جنوب مدينة مراكش بين حصن كيك ومدينة تينملل (أنظر أخبار المهدي).

(4) قدميوه أو جدميوه: تقع غربي هنتاتة وتينملل . .

(5) تقع قبيلة جنفيسة جنوب جدميوه، وتعتبر الطبقة العاشرة من أصحاب المهدي. . . راجع التعليق رقم 5 ص 68 .

والويل ، وركب في حينه وفرّ الى مرسية وانحجز فيها مهزوماً ، مفلولاً ذليلاً ملوماً ، ثم إن الموحدين أيدهم الله أقلعوا في بكرة غدهم من ليلة مبيتهم بموضع المعركة الى مرسية في أتباعه ، فنزلوا بساحتها ، وأقاموا فيها وعيّدوا عيد الأضحى بإبأبطحها وموضع راحتها ، من مقره ، في دار مقره ، على مرأى منهم بظاهر مرسية المذكورة في تخريب بساتينه ، وإباحة الخطوب في مواضع منتزهاته من راحه ورياحينه ، وتتبعوا تلك الأصقاع ، بالتدمير في تدمير ، والغارة على جناتها بالاتساع ، فاستاقوا نعم أهلها وتحكّموا فيما أملوه بالتطاول في سهلها وجبلها مدة أيام كثيرة بالأمن لهم في الإقامة ، والتعقيب بالغارات في كلّ نظر واستجلاب المغانم على [127] أوفى السلامة ، وانتهوا من الانتهاب إلى أقصى غاية ، وبما زاد على الأمل والنّهاية ، وخاطبوا من مضرب محلتهم بظاهر مرسية للخليفة الرضى أبي يعقوب رضي الله عنه بوصف الفتح العظيم ، ونيل النجح الجسيم ، وشرح الحال ، فوردت البشرى بحضرة مراكش أدام الله حراستها صبيحة يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي الحجة من عام ستين المؤرخ ، على تاريخ ستة عشر يوماً من ظاهر مرسية الى مراكش ، وهذا غاية السير .

(وصول خبر الانتصار على ابن مردنيش لمراكش)

ومن عجائب الفأل ، قال المؤلف : كنت صبيحة يوم الأحد الذي وصلت فيه هذه البشرى الفاتحة قد بكّرت على العادة الى « متيقشي »[1] دار الخليفة رضي الله عنه جالساً مع طلبة الحضر وأشياخ أهل الأندلس نتطلع

(1) لم يكن ابن صاحب الصلاة كالبيذق الذي استهلك في «أخبار المهدي» الكلمات البربرية بكثرة، ولكنه استعملها قليلاً في بعض الأحيان ولفظ «متيقشي» أصله «أمي تكشي» Imin - Tgrmmi ومعناه باب الدار، والقصد في الكتاب إلى «السقائف» كما يشرحه هو نفسه بنفسه ص 281 ورقة 141 وإذا ما رجعنا لما حكاه ابن سعيد عن مباني مراكش على عهد الموحدين سنجد أن باب الاسطوان أو باب السقائف منه كان الخليفة يخرج إلى سقائف أهل الجماعة وهي قرية العشرة، وإلى سقائف أهل الخمسين وسقائف الطلبة وسقائف الحفاظ وسقائف أهل الدار الخ. البيذق

الأخبار وقد بعد زمانها وتوقف الواصلون بها ، إذ رأيت قطّاً على سقف دار الخليفة يمشي وفي فمه فرخ حمام قد افترسه فقلت لمن كان معي من أشياخ أهل الأندلس : الله أكبر ! هُزم والله ابنُ مردنيش ! فقالوا لي : بم تقول هذا؟ فقلت لهم : هذا القط شبه الأسد والأسد عدوي[1] ! والحمام عجمي ! فقد غلبت الموحدين العجم ، وافترسوهم كافتراس هذا القط الفرخ ! فما كان مقدار ما أكملنا الكلام في هذا الفال ، ودخل الفرسان الواصلون بالبُشرى في الحين بخيلهم في « مُتيقشي »[128] وبأيديهم علامات[2] ابن مردنيش مستورة ، على غير علم ولا مقدمة من وصولهم ، ففزع الناس أولاً لدخولهم بغير مقدمة ولا إذن، ثم علموا من صحيح صياحهم أنها بشرى بالفتح ، فقام التكبير والتهليل ، وضربت الطبول واتصل السرور ، وأمر الأمير في الحين بإدخال من حضر من الطلبة والناس لسماع الكتاب الواصل بالبشرى والفتح وقرأه الفقيه أبو محمد المالقي على جميع من حضر ، ثم بعد قرئ في الجامع على جميع الكافة من الناس . وهذه نسخته الى حضرة الأمير بمراكش وإلى أهل إشبيلية من إنشاء الكاتب أبي الحسن عبد الملك بن عياش :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم

من عُمَر وعُثمان ابني أمير المؤمنين الى الطّلبة والأشياخ والأعيان والكافة بإشبيلية أدام الله كرامتهم بتقواه ،

سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، أمّا بعد فالحمد لله القاهر الغالب، ناصر جُنْده، ومنجزِ وعْده، في المشارق والمغارب، والصلاة على محمد المُبْتَعَث وسيطاً في ذُؤابة لؤي بن غالب، وعلى آله وأصْحابه والماشين عَلى سنّته وسنّه على

* أخبار المهدي ص 232 Laoust, mots et choses Berbères P. محمد المغربي - المنوني على عهد الموحدين ص 138.

(1) يقصد العجم نسبة لبلاد العدوة: المغرب، ومن المعلوم أن القبائل المغربية كانت ملسنة. راجع التعليق 1 ص 200.

(2) هكذا يجمع العلم أو (العلامة) في لغة المغاربة: علامات.

Colin, Notes de dialectologie arabe Hesp T. X. 1930 page 106.



لوضح السلك الواجب، والرّضا عن الإمام المَعْصُوم، المَهْدِي المَعْلُوم، النّاهض بأمر الله تعالى قياماً بالواجب، للحادّ المحادّ والمجانب، والدُّعا لمولانا وسيِّدنا أمير المؤمنين حامل لوائه [129] والمُلْق على مِنْهاج الحق، النّاسخ لمشرقات المَذَاهب، مُمْشي الدَّعوة الإمامية، والكلمة الموحدية، في شُعَاع نوره الجليّ للغَيَاهِب، ثم لفرعه الأنقى، ونَجْله الأزكى، الأمير الأجل، الملك الأسعد الأعدل، أبو يعقوب ذُو الحَسَب الحلّ بالثاقب، السّامي للنُّجوم الثّواقب، المُخْتار مدعُواً لأمر الله تعالى المخصُوص بغرائب الرَّغائب، فكتبناه - أكرمكم الله بتقواه، وأوزعنا وإياكم شُكْر نُعماه - من تضرب محلات المُوحّدين - أنّجدهم الله - بظاهر مرسية يسّرها الله، وصُنْع الله الجميل، وفتحه الجزيل، قدْ وضح نهاراً، وفهق أنهاراً، وعلتْ كلمتُه العُليا جِهَاراً، وبركةُ الإمام المَهْدي، وسَعادةُ سيِّدنا، ويُمْن الأمير الأجل - أيدهم الله لمدَ يوْلت طائفة الحقّ نصراً وإظْهاراً، واعتضاداً في ذات الله واستظهاراً . والحمد لله ربِّ العَالمين. وقد خاطَبْناكم قبلُ بما كانَ من صُنع الله تعالى في فتح أنّدوجر وتوحيد الحُصون التي تليها عمَّرها الله، وتجدّد بعد ذلك لكم من صُنْع الله وحده من مسطُور الفتح الوعود، المحفوف بالتاجيح والشُّهود، ما جَلّ عن نعت الناعت، وشذّ عن الشاذ القانت، وكَبُر عن وصف الواصف، ونثر الناثر، ورصف الراصف، وأظهر من آيات الله تعالى ما فاق بيانُ ذوي المعارف، من صنيع لم يُرَ مثلُه في كثير من الحِقَب، ويوم كيوم ذي[1] قار انتصف فيه الموحدون والعرب من العجم، ولمن [130] سار لهم في الرَّأي والكلم، ولمسك منهم بسبب.

(فتْحُ الفُتوح تعالى أن يُحيط به نظْمٌ من الشِّعْر أو نثرٌ من الخُطب)[2]

---

(1) ذوقار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس. معجم البلدان، لسان العرب.

(2) البيت من قصيدة لأبي تمام يذكر فيها فتح عمّورية وهي ذات المطلع المشهور:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتُب ... في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعب

ويقول بعد البيت المورد هنا:

فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماءِ له ... وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القشب . .

وذلك أن عساكر الموحدين استقبلت هذه البلاد الشرقية فتحها الله تتوغّل في أرجائها ، وتحُول بحول الله بينها وبين رجالها ، فكلما مرّ الموحدون بمدينة من مدائنه ، أو حصن من حصونه ، انحجر الأشقياء الذين يضبطونها فيها انحجار الثُّعالب ، وانزواء المغلوب بعزة الغالب ، وأجال أولياء الله على الأرزاق الموجودة في نواحيها ، يتصفون رغدها ، ويُلحقون بيومها غدها ، حتى كثُرت نِعَمُ الله بالمحلات المؤيّدة من الأطعمة والأعناب وضروب الفواكه من الرَّطْبة واليابسة وفي كل ذلك لا تعرض لبلدة بقتال ، احتقاراً لها ولمن بها ! وتصميماً لغزو غيرها ! ولأنها الساقط لثرها ، الى أن وصلت العساكر جهات بسطة[1] ، فنزلوا منزلاً يُصاقبها يسمّى وادي القشتالي[2] واقتضى النظر إقامة بعض الأيام هنالك لانتظار العسكر والحشد والرُّماة الواصلين من أغرناطة . وفي خلال مقام تلك الأيام بُعثت خيلٌ مباركة من الموحدين والعرب لشنّ الغارة في المَيْمنة والمَيْسرة من تلك الأقطار والجهات ، فاستالوا من الغنائم من جهة غلْيرة[3] وقرياقة[4] ، وبسطة وجبال

---

* وقد سبق للكاتب ابن عطية أن استشهد بهذا البيت في رسالة موحدية بمناسبة انتصار الشيخ أبي حفص الهنتاتي على ابن همشك في وادي مانة سنة 542 في ذي الحجة. الاستقصا جزء ثالث: ص 99، 100.

(1) بسطة (Baza) مدينة تقع في الشمال الشرقي من غرناطة بالقرب من مدينة وادي آش حسنة الوضع.

الحميري: الروض المعطار ص 44، 43. محمد التازي: الأعلام الجغرافية الأندلسية ص 29.

(2) وادي القشتالي (Rio de Castella - Castil) ولم نستطع تحديده بأكثر من أنه مكان بقرب من بسطة، والحروف في المخطوطة لا تحمل أية نقطة.

Huici Historia Politica, page 226.

(3) غليرة (Galera)، تقع شمال مدينة بسطة جنوب قرياقة غربي (بلش) (Velez) Huici page 226 - 228.

(4) قرياقة (Cieravaca)تقع شمال أُورقة وجنوب شقورة، يقول الحميري أن بها عيناً تولد الحصى ومن أجري عنه.

الروض المعطار 150.

شَقُورة[1] عدداً جمّاً وسوائم كثيرة من الدواب والبقر وعشرات الآلاف من الغنم . [131] فملأت الوادي ، واشتملت على كريمتها الأيادي ، وتقلّب الموحدون في نِعَم لا تحصى عدة تتناسق منها نِعَم فنِعَم ، والشكر لله على ما أولاه . ولما وصل العسكر المنتظر من غرناطة أخذنا في الحركة الى أن انتهينا الى حصن قلية[2] ، فساعة الإطلال عليه نزل أهله من ذروته تائبين آيبين ، موحدين مستنجدين ، نظراً لأنفسهم ، وأخذاً لحظهم ، ثم حللنا بجهة بلش[3] عمّرها الله من مَنقع كثير القرى والعمائر ، ونظر معدوم النظائر ، وفي حصون وقلاع سمتْ مبانيها بالبقاع ، وتناسقت الأعيان في الارتفاع ، فعندما عاينوا من أمر الله وجنوده ما ضرّ عيونهم وملأ قلوبهم تنزل قائدهم الشرقي[4] وأصحابه الرغبة مستأمنين مذعنين ، فأمنوا تأنيباً ، وأصبحوا نذراً لعشائرهم يساراً ويميناً ، وقدم في حصونهم من تقدّم لضبطها ، وتشمّر بحول الله في حوطها وهنالك استُوضح أن الشقي ابن مردنيش وأصحابه النّصارى دمّرهم الله قد خرج بجملته الملعينة من مرسية الى لورقة عاطفاً عليها ، بعد أن استوثق خروج أهل مرسية وشيوخها ، وأهل التعيّن فيها مع كثير من لفيفها ، لمّا أوقع الله في قلبه من الرُّعب الذي تقدّم اليه جيشه ، حتى خفّ به طيشه ، فلم يزد أولياء الله إلا عزماً مجدّاً في التصميم الى جهته ، والتعويل على غزوه في عُقره [132] إذلالاً له ولفيئته ، وأقاربه وحوزته ، الى أنّ قارب الموحدون جانب لورقة ، وأتوا البسيط السهل المعروف بالفندون على مرأى من الأشقياء

---

(1) شقورة (Segura) تقع شمال لربالة ، ومنها أبو بكر بن عمر شاعر دولة بني عبد المؤمن . ابن الخطيب أعمال الأعلام ص 143 . 228 - Huici page 226.

(2) قلية (Cullar) ويرسمه ابن سعيد هكذا قولة يقع في الشمال الشرقي من مدينة بسطة المغرب: ص 370 . المغرب لابن سعيد ج 2 ص 87 . 228 - Huici P. 226.

(3) بلش: (Velez - Rubio) ولا يلتبس هذا ب: (Velez Malaga) فإن المقصود ليس هذا ، وقد ضبط لدى ابن سعيد بكسر اللام وتغليظ الشين: (كتاب الترتيب في حلى مدينة بلش) ، الادريسي ص 186 ـ المعجب ص 670 ـ التكملة (كوديرا) ص 23 . Huici page 226.

(4) لم يحط أسماً صريحاً لهذا القائد الذي استسلم أمام الموحدين ، أما الشرقي فلا نعتقده إلا وصفاً وليس اسماً لأن هذه الناحية تقع فعلاً شرقي مرسية والأندلس.

والكفرة ، وإظهار آيات أمر الله العزيز وأعداء الله لا يُنبس لهم تنابس ، ولا يظهر منهم راجل ولا فارس ، وفي كل ذلك تخونهم آمالهم الخائبة ، وظنونهم الكاذبة ، أن الطريق تتأكب عنهم ليأمَنا الى الساحل[1] ، وتعريجاً بالمراحل والرَّواحل ، الى أن استوضحوا أن القصد مرسيتهم مرسى الوفود والورود ، تُسقط في أيديهم حيْرة وتباراً ، ثم آبدوا قرب بلدهم تجلّداً ، فاقلع الخاسر عن لورقة آخر النهار ، إقلاع الصُّغار ، لاجئاً بحَزن الجبل ، والموحِّدون بسهل البساط[2] . فسار الموحّدين مرحلتين ملاحظاً ما نقع فؤاده ، وحقّر أعداده وأجناده ، وفي كل يوم من مسايرته تنشر مواكب الموحدين على ترتيبهم وتعبيتهم رجاء أن يغره العجب ، والأشر المعطب ، فينجز فيه وعد الله المرتقب . فلما كان يوم السابع من ذي الحجة في حين الزوال استخار الله الموحدون على أن يأخذوا بينه وبين الثنايا التي تحول بينه وبين مرسية ، فتميّزوا شعوباً وقبائل ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه من إخلاص التوبة وإمحاض النيّة ، فرأى الأعداء ما هالهم وأعلمهم وأحال حالهم ، هذا على احتشاد شوكتهم ، وكثرة عددهم ، ورَفْدوا [133] بسفح الجبل[3] زهاء ثمانية آلاف فارس أكثرهم أرغون[4] ، وقفوا يتشاورون ويتنازعون ، ولم يجدوا محيداً عن الطريق التي ضمتهم ، ولا منفذاً إلا في السالكات التي حفّت محيطة بهم

---

(1) لم يذكر أي ساحل يقصد ولعله يقصد ساحل وادي شقورة.

(2) لم يذكر اسم الجبل ولا كذلك اسم البساط . ونعتقد انها معا يقعان في الشمال الشرقي من لورقة في اتجاه مدينة مرسية.

(3) من هنا تبتدي الورقتان الباقيتان من الكراسة السابعة التي تقدمت منها ست أوراق عن خلفها . وهكذا يسترجع المخطوط صوابه ، وأصل الورقة هنا رقم 67 كما هو الواقع . راجع تعليق رقم 4 ص 185 والتعليق رقم 2 ص 195 والمقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط.

(4) أرغون (Aragon) يعرفها الحميري ـ ونقله عنه المقري ـ بأنها بلاد غرسية بن شانجه - (Garcia - Sancho) وأنها تشتمل على بلاد وأعمال ومنازل ، ولا شك أن في ضمن هذه البلاد مدينة برشلونة التي تقع في الناحية الشرقية من أرغون ، ولهذا نرى دوسي يترجم برشلونة في ابن صاحب الصلاة بأرغون . وانظر خريطة بروفنصال في الروض المعطار فقد وضعها شمال سرقسطة وغربي برشلونة . ابن صاحب الصلاة ص 79 ـ الروض المعطار ص 22 وص 55 عند الكلام على تيولة ـ ونجي صفحة 208.

وعشيّهم ، وضربوا قليل أخبية في الجبل الذي به أبادهم ، وهو فيما دبّروا مصادهم ومعادهم ، وعوّلوا أن في مشارعهم أن تكون ملجأ يأوي إليها الفل ، ويجدها منهم البعض إن لم يجدها الكل، فأبدوها بعلوها القتام، ويبدو عليها الذُّل ، وصابحهم جنود الله من ضحى النهار الى أن نُودي للصلاة من يوم الجمعة في أيام يقبل فيها التوب ، ويغفر فيها الذنب ، ويخشع القلب ، ويعبد الرب ، فلما كان وقتُ الصلاة اختار الله للموحدين أن ناشبوهم القتال ، وقد كثر الذكر والإهلال ، فزحفت العساكر إليهم حتى دَنَا السَّواد من السواد ، وتشوّف بالكلم والطراد ، وحملت الرُّوم حملتهم المعلومة المعهودة ، وصمدت حملتهم إذ صمدت قبلُ رياح من الغرب فأقر جوّالهم والتفّت عليهم قبائلُ الموحّدين واحتدمتْ الحرب وحَمِيَ الوطيس وثارت سماء النّقع دون النجم كواكبُ الظُّبا والأسنّة ، وثبّت الله أقدام الموحّدين ، وزلزل الله أقدام الملحدين ، وثبت الساقة التي فيها الأعلام كأنها الجبالُ الراسيات والأعلام وانبرى الموحدون الأول من أهل تينملّل وهنتاتة فصبروا صبر أمثالهم ، [134] وخوّلهم الله آمالاً في استقبالهم ، وأجفل الكفرةُ منهزمين ، وولوا الأدبار مدبرين ، والسيف يأخذ منهم فوق ما يدع ، وحزبُ الله يتقدم غالباً فيصرع ويصدع ، وقتل رجال الشقي[1] ومشاهيره ، والروم أكثر القتلى فيهم فخرّوا كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وعجّل الله بأرواحهم الى ناره الحامية ، وسقطوا من مهواهم الى الهاوية ، ولاذ الشقي الذليل ، في العدد القليل ، إلى الأخبية التي أعدّها للفرار ، لا للقرار ، وقد غيّر من حدّ السيوف وأنيابها ما أغناه عن الأخبار ، وشفى الله صدورَ المؤمنين من أعدائهم الكفار ، وصاروا بين أيديهم جزراً ، قد افترشوا فناء في مقتلهم هذا وعفراً ، ونفّل الله من خيلهم ومطاياهم وأدراعهم وسائر أسلحتهم ما جلّ قدرُه وعمّ كثره ، والحمد لله رب العالمين ، جاعل العاقبة للمتقين . وبعد ما تبعهم الحُسام الى الأصيل ، وصرعهم بكل مسيل ، وقف الخاسر خائفاً يترقب وقوف الذليل ،

(1) يعني ابن مردنيش. . .

وسلب فلاذهم من ملابسهم بكل واد ومسيل ، بادر الموحدون في غدهم على تهلهم الى فناء مرسية ، فضربت بساحتها المضارب والأبنية ، بإزاء حدائقها المعروشة ، وبسائطها وبساتينها المشيّدة المفروشة فكان ميناق الموحدين إياه الى ناحيتها من أشق ما أخزاه الله به . وتقربت الطبول تصك [135] أسماعهم فمكثت الزلازل في جوانبه ، وركب الليل جملاً ، واحتل البلد ـ ولم يكد ـ تسللاً ، وانبسط تبّاع الموحدين على تلك الحدائق محصّلين لأنواع الفواكه ، وعادت مباني تلك البساتين وأعواد الأشجار والرياحين ، محتطباً ومتاعاً للمقوين من الجنود، وصار سعْد الأخبية سعْد السعود[1] وأقام الموحدون للتمهيد، وقد جمع الله لهم الأعياد في عيد، والله تعالى يوزع شكر هذا الفتح العظيم، ويقضي لتابعه بأكرم عواقب التتميم، إنه منعم كريم. وأعلمناكم ـ وصل الله سراءكم ـ بهذه البشارة العظمى التي هي نادرة الأعصار النعمى لتأخذوا بما وفر حظكم من شكر الله عليها، وتشوّفوا آلاء الله السابقة باجتلاء ما لديها، فهو فتح الأندلس وإذلال عدوّها المتمرّد المتصعّب، مسلّط الروم عبدة الأوثان والصلبان، على أهل الإسلام والإيمان، والله يشفع ذلك بأمثاله، ولا يخلي من نصر الحق من عضده وإقباله، وقد بهت هذا العدو الخائن محصوراً، وبُغِش مغموماً مدحوراً، ونظر بعين الحسرة حسيراً. وهلك بعين الحسرة بالمعنى المحسوس إلا يسيراً، عرّف الله للموحدين بركة مقاصدهم، وتولاهم بمعهود إظهارهم في مصادرهم ومواردهم، بعزّته وقدرته وطوله، لا ربّ سواه والسلام عليكم ورحمة الله [136] وبركاته. كتب في العشر الوسط من ذي الحجة عام ستين وخمس مائة .

(1) وصار سعد الأخبية سعد السعود: يعني أن الله يقلب الأحوال من قعوص إلى وضوح ومن شؤم إلى يمن، فقد عرف عند المنجمين أن سعد السعود هو أحد السعود ولذلك أضيف إليها وهو كوكب يمن، كما عرف أن كواكب سعد الأخبية ليست نحسية ولا خيرة وإنه سمي كذلك لأنه إذا طلع خرجت حشرات الأرض وهوامها من جحورها وأخبيتها .

وبعث السيِّدُ الأعلى مع هذه الرسالة مدرجاً فيها قصيدة شعر[1] أولها :

(وافر)

لقد بلغت جيادكم مداها … ونالت ما أرادت من جداها
وما هي فاسألوا الإصباح عنها … بحمد الله قد حمدت سُراها
بحدّ رماحكم حزاً وجاهاً … فما تشكو على حال وجاها
تهيم بحب طاعتكم فتطوي … بساط القفر حتى قد طواها
كأنّ قطا المفاوز حين سارت … تعلّمت الهداية من قطاها
لقد شنّت بأرض الشرق حتى … أباحت بعد منعتها حماها
أتيح بها لمتّصير دمار … فدلّ على ترائبها رُباها
ولمّا لم تلذ بالعفو منكم … تعاورها الردى حتى عفاها
ألا لله أيّ مقام هَوْلٍ … تحلّ الرابيات له حُباها
إذا سمع القنا عنه خطيباً … تثنى اعطافه طرباً وثناها
تراكمت القساطل فيه حتى … جلت أنوار سعدكم دجاها
تركتهم فيه ريح النصر طحناً … غداة أدارت الهيجاء رحاها
فقد نهلت سيوفكم وعلّت … فما تشكو الصدا أبداً ظباها
فإن ينج اللعين لغير منجى … لقد فغرت شعوب عليه فاها
[137] تكنّم في جبال أو غياض … وعين الحرب لم تطرف قذاها
وأنّى يقطع الصحصاح شزراً … على شوهاء ما ونيت شواها
ولو فاتت وميض البرق عدواً … لخطّاها ولم يحمد خطاها
وبات بمصارع الفلماء وقتاً … ويحسد من كواكبها سُهاها[2]
وسائكم أمركم ببني حروب … إذا انتدبوا لها حشدوا لظاها

---

(1) اقتصر ابن عذاري على ذكر بعض الأبيات من الرسالة الشعرية معتذراً عن الإثبات بخصوص الرسالة النثرية ص 51.

(2) السهى والسها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى، ومنه المثل العربي: «أريها السهى وتريني القمر»

صغارهم لهم همم كبار … أبت أن تغتني بسوى قناها
إذا صُوَر الحمام بدت أناخوا … مضرّجة الدماء على دماها
لنُصرة للخليفة في رجال … أطاعوا الله فيمن قد عصاها
فأرضوا ربّهم برضا مليك … يرى الدنيا بالإلّ من قلاها
وربّ سريرة لله فيه … تبدّى في أسرّته سناها
فما ينفكّ يخبط في ضلال … غويّ لا يريح إلى هداها
عن النور الذي بهرت ولاحت … (به)[1] شمس الهداية في ضحاها
حباه به الخليفة عن إمام … قد انتاش البرية من عماها
أبا يعقوب إنّ بنا إلى حكم … كما بالحائمات يُرى صداها
إلى شطط خلفها الريح حتى … غدت زرقاً ترقرق في حصاها
فلو نفخت نواسمكم نفحنا … على حَرّ الجوانح من نداها
غدا بالعيس نحوكم اشتياق … أراها كيف تنفخ في براها
فلولا أن يلمّ خيال … لما التذّت بقربكم كراها
لوت أعناقها طرباً إليكم … فهل يخفى الندامي من صحاها
[138] ستقضي حاجها الربّ الذي لم … يدع من حاجة إلّا قضاها
ودونكم تحيّة مستهام … يطيب الجو من نشرى شذاها
ولا عدمتكم العليا فتنهى … رعاكم ذو الجلال فقد رعاها

وأمر الأميرُ الفقيهَ أبا محمد المالقي أن ينشد هذه القصيدة المدرجة في الكتاب الواصل بمحضر أشياخ الموحدين وشيوخ طلبة الحضر في مجلسه العالي فأنشدها ، فاستبشروا بها واستحسنوا أغراضها بالأخوة الموصولة ومقصدها ، وزادوا استبشاراً إلى البشرى بالكتاب ، ودعوا إلى الله تعالى في تمادي النصر والعافية وتعجيل اللقاء بالإياب ، من الأخوة الأحباب ، وضربت الطبول فيها .

---

(1) هنا في أصل المخطوط شبه كشط ولعل مكانه «به».

(بقية أحداث سنة 560)

وفي هذه السنة سنة ستين المؤرخة بعد مغيب السيد الأعلى في هذه الغزوة توقف أهل جبل صنهاجة[1] ومن جوارهم عن أداء الطاعة فعسكر إليهم الشيخ المرحوم أبو حفص بحزم وقاده ، وصحة إخالته ، ومعه عسكر من الموحدين أنجدهم الله لقتالهم ونزالهم .

وفيها أيضاً اختص الأمير الأجل الأعدل بوزارته أبا العلى ادريس بن جامع وقرّبه وأدناه ، وماشى معه الفقيه أبا محمد المالقي في المسائل ، ولازم رضي الله عنه المذاكرة مع أبي الحسن بن الإشبيلي الخطيب في المحافل [139] عند ورود البشائر ، وكذلك مع أشياخ طلبة الحضر وأُنْدع فيها متوفراً على تمهيد سلطانه وتألف خاصته من رجاله ، والانتهاض الى الاستيلاء على حاله ، وتفرّغ للتحدث في عبادة ربه ، إذ كان نسيج وحده في الزهد والورع ، فظهرت في هذه المدة للناس في أحوالهم منه وبه دلائل اليُمْن ، واتصال العدل والفضل والأمن ، بسير المراكب حيث شاء من بلاد العدوة في طرقها من جبلها وسهلها آمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله أو الذيب ! وأحسن لمن وفد اليه واستغاث به وبفضله من أجناد أهل الأندلس المضامين المأسورين عند النصارى ، فتداعم بماله وحمل عليهم الخيل بسروجها ولجمها وآلات الحرب لها وبجيرهم وكساهم ، وواساهم وحباهم ، وأوصل البركة للموحدين

---

(1) يقع جبل صنهاجة في شمال الغرب وجنوب مدينة سبتة ، وهو ـ كجبل غمارة ـ يجاور مدينة تكلور التي اشتد منها الاسلام إلى أهل صنهاجة وغمارة ، وصنهاجة قسمان : صنهاجة الظل وصنهاجة القبلة . الاستبصار ـ نشر زغلول عبد الحميد ص 129 - 136 - 189 - 213 ـ أخبار المهدي بن تومرت ص 46 .

Léon L'Africain Description de l'Afrique 1956 page 12 - 14.

Henri Terrasse:

Histoire du Maroc Tome I page 22 - 23.

196 - 197

211 - 260

والناس المقيمين معه بحضرته ، ولطلبة الحضر الوافدين في كل شهر على التوالي والاستمرار ، واستبان فضله وعدله نوراً من الأنوار ، وأخذ الزكاة من الماشية والحرث على حكم الكتاب والسُّنة ، ووضعها في مواضع حقها ، وتيمّنت القلوب بدعائه ، وأصغت الأسماع الى ندائه . فحدثني أبو محمد سيد راي بن وزير أنه ذكر له في مجلسه الكريم توقف صنهاجة ومن جاورهم عن الطاعة ، وأنه قيل له ادعُ الله عليهم ! فتوقف ، ثم قال : « الله تعالى يهديهم ، ويصرفهم [140] عن تعذُّبهم » ، فما كان إلا قليل أيام ووصلت البشرى بهزيمة ابن مردنيش وظهور أمر الموحدين ، واتصل خبر البشرى بالفتح في الجبال ، ووجهوا في الحين بالتوبة راغبين ضارعين ، وكفى الله القتال للمؤمنين ، وانصرف الشيخ المرحوم أبو حفص وهم في طوعه وتبعه بأتمّ النجح ، وأُتصل الفتح بالفتح ، وأنشد الشعراء الحاضرون بالحضرة في وصول الفتح البعيد والقريب . وعُبِّد السيدان أبو حفص وأبو سعيد بالمحلة المؤيدة بظاهر مرسية عيد الأضحى على أسرّ التمهيد والظفر والنصر على غلبة عدوّهم ، ثم انعطفا آخذين في الانصراف ، الى الحضرة الإمامية على أتمّ السرور بالنصر والأخوة والائتلاف ، وتركا في البلاد المفتتحة من الموحدين والأمناء من ثقّفها ، وضبطها للأمر العزيز وشرّفها . ولمّا وصلا قرطبة أقام السيد أبو سعيد فيها برأي من الأمر ورأي متقدم واتفاق على حالته الأولى ، وانفصل السيد الأعلى عنه إلى إشبيلية منصرفاً الى الحضرة وهو يجرُّ الدُّنيا خلفه جرّاً ، ويقدمه النصر سراً وجهراً ، وقد سقى أعداءه دهاقاً مرّاً ، ورفع الله له في الأمر والتوحيد ذكراً ، وجاز البحر متصرفاً مستعجلاً ، حتى وصل قرية (مكول)[1] بعد انفصاله من[2] مدينة سلا فكتب الى الأمير أخيه متشوقاً

---

(1) قرية مكول: حصن كبير كانت بها سوق نافقة ـ على عهد الادريسي كما يجلب اليها وبها ازرع كثير ومراتع وأنعام ، وبالمقارنة نجد أن هذه هي المرحلة الأولى في الطريق الساحلية إلى مراكش من مدينة سلا ، وقرية مكول هذه التي تحمل اليوم اسم مكرن (Mrkoun) بين سيدي سليمان والقنيطرة حيث توجد بعض آثار قصبة قديمة . Huici page 248 Com No 5 .

(2) يسوقُ ابن عذاري هذه المقاطع في إحداث سنة إحدى وستين وخمسمائة وهو يتفق مع تاريخ الوصول إلى مراكش ـ انظر صفحة 52 من ابن عذاري وص 141 من المن بالامامة .

بشعر وهو من إنشاء [141] ابن حربون : (خفيف) .

عللوا العيس باقتراب الديار ... وانظروا هل بدا لها من منار
وارفعوا للمدى بأيدي المطايا ... لمة الليل عن جبين النهار
واستطيلوا على طوال الليالي ... واشكروها الى الليالي القصار !
لا تقولوا من بعدها بخليل ... قد دنوتم من البيداء الجزار
هذه كعبة العلى فاجلوا ... واقرنوا بين حجة واعتمار
هذه حضرة الإمام فحطوا ... وأنيخوا بمثلها بدار قرار
في جناب تثني السحاب وتضحي ... ناجيات عليه نفل الإزار
فيها أثغر الصباح عليكم ... وزقيتم وشاه هذا السفار
فاشكروا الركاب أن جمعتكم ... بالأمير الأجل فرع نزار(1)
بمليك عند المليك مكين ... قد كساه ثوب التقى والفخار
نصر الله دينه بين لنتكم ... بجيوش تجانبت جلال الديار
بجيوش تسمو الى كل ثار ... في رداء من القتام المثار
فكأن الآفاق في ليل شف ... حولها من ظبا الرماح مداري
أي برد من الشتاء جميل ... ألبستهم تلك السيوف العواري
قد لقينا بمنكم كل خير ... غير ما كان من نزوح المزار
فشفينا صدى القلوب اليكم ... واطوينا على الضلوع الحرار
فعسى أن يعاد يوم الثلاثاء ... وخلونا بسرة تلك الصحاري
إن يوما تلقاكموه لأهل ... أن ينسي غيبة الأعصار
[142] بلغتنا مكول أنفاسه شهر ... أكلتها القفار بعد القفار
فوصلنا بن ريح يوسف ما لم ... تتوقع عليه تغيبة نار
يكن القطر منكم تحيي ... بنسيم الرياض بعد القطار
كم كتمنا الجوى فلما نثرنا ... باح هذا النسيم بالأسرار

(1) تقدم التحقيق في نسب عبد المؤمن. فراجع التعليق رقم 6 ص 157 ورقم 1 وص 178 وانظر الاستقصا أول ص 62.

فإذا ما ذكرتم في مكان ... نفحته مباسم الأزهار
فسلام يغار من طيب ريا ... هب كل رند وغار(1)
يتقرى الأسوار حتى يحيي ... بشذاهن مطلع الأسوار
مثلها تبرد الحشى بشذاه ... إن تند الأزار ينته لزوار
وقفا على العباد فإنا ... قد أحلنا للبعد منه بدار !

وأعمل السير مشرقاً تلكان وروده حضرة مراكش ضحوة يوم السبت الحادي عشر من ربيع الآخر الموافق للخامس عشر من يناير العجمي(2) من عام واحد وستين وخمس مائة .

(احتفال الامام أبي يعقوب في مراكش بمقدم أخيه السيد أبي حفص)

واحتفل الأمير الإمام أبو يعقوب رضي الله عنه بالبروز واللقاء إليه بنفسه بعد أن كتب كتائبه المنصورة الحاضرة معه بحضرة مراكش ، وكسا العبيد بالثياب المصنّعة الألوان(3) ، وصفف الفرسان الكمّل المدرعين من الموحدين وغيرهم والرجال بالدرق والرماح صفوفاً ، وجعل الرايات والعلامات خلف ركابه ، والطبالين مع خاصة أصحابه ، وهو راكب(4) [143] على جواده

(1) الرند : شجرة طيبة الرائحة موطنها الأصلي أوربا الجنوبية وآسيا الغربية، وجعل منها الأقدمون رمزاً للنصر. أما الغار فهو كذلك شجر طيب الرائحة، وورقه دائم الخضرة كانوا قديماً يضفرون من أوراقه أكاليل للمنتصرين.
(2) الموافقة هنا صحيحة: 15 يناير 1166.
(3) نرى أن ابن صاحب الصلاة أحياناً يستأثر دون سائر المؤرخين بالتعرض لبعض الأشياء ، وهو هنا يتحدث عن أزياء بعض فرق الجيش وأنها كانت مصنعة الألوان، وإن سكت عن إعطاء التفصيلات عن هذه الألوان. وقد قرأها بعض الباحثين (مصنفة) كما قرأها آخرون (مصبغة) Melchor: campanas de los Almohades en Espana P. 6.
(4) وصف دقيق للموكب الخليفي، العبيد بثيابهم الملونة، والصفوف من الفرسان والرجالة وقد حملوا الرماح والدرق والرايات من خلف الامام والموسيقى مع خاصة أصحابه، ووزيره لصق ركابه يمشي على قدميه بينما يحمل أمير المؤمنين على كتفه رمحاً طويلاً قد ثنى سنانه.

العتيق ، ووزيره أبو العلا إدريس بن جامع راجلاً لصق ركابه ماشياً بحذائه ، ويأمر الأمير بالأوامر فينفذ إدريس المذكور فيها ثم يرجع اليه ، وعلى عاتق الأمير رمحٌ طويل قد غشي سنانه . فلما خرج عن الغشاء الذي كان يستره ، والتقى بأخيه السيد الأعلى المنصور المذكور في البراح الذي كان في ذلك التاريخ متسعاً في باب الشريعة[1] المتصل بالشريعة القديمة وهو اليوم مدينة ثانية[2] متصلة بمراكش القديمة ، ووقف العسكر مع السيد القادم أبي حفص

(1) باب الشريعة:

تعتبر باب الشريعة أحد أبواب مراكش التي عرفت منذ التاريخ المبكر، وكانت تنفذ إلى مصلى العيدين، وقد هدم معظمها عندما تقرر بناء ضريح الإمام السهيلي، وكانت تختفي لولا جهود الذين تتبعوا آثارها بالبحث، ومعلوم أن موضع الشريعة في تعابير الفقهاء المسلمين يعني الفضاء، أي مكان إقامة صلاة العيدين، التي تكون عادة ظاهر المدينة، وقد تسوهل هذا الاسم (الشريعة) على المستشرق الكبير دوزي فهنا يفترض بعض الفروض ورد في تعبير لصاحب الاستبصار: «وفي كل عشوا من ناس شريعة لخطبة العيدين».

المن بالإمامة صفحة 291 ، الاستبصار صفحة 181.

مخطوط ابن عذاري صفحة 320 ، ابن القاضي: جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس صفحة 27 سنة 1309 هـ.

Dozy; Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge., Tome Premier. page 383 - 384.

Provençale: Noms de toponomastique P. 223. le Tourneau: Fès avant le protectorat P. 110.

المنوني نقلاً عن ابن سعيد ص 253.

Allain et Deverdun les portes Anciennes de Marrakech. Hespéris 1957 page 114 - 115 - 116. Gaston Deverdun: Marrakech des Origines à 1912. Tomme I page 123.

(2) يدأب الولاة الجدد على طمس آثار الذين سبقوهم، ولم يشذ الموحدون عن القاعدة، ولذلك تراهم يعرضون عن مباني المرابطين بما فيها المساجد، وتراهم يشيدون معالمهم في كل مكان، وها هم هنا يشيدون مراكش جديدة.

الادريسي ص 68 - 69: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار: نشر سعد زغلول عبد الحميد طبعة جامعة الاسكندرية 1958 ص 209 - 210، الحلل ص 105 - 120؛ محمد المنوني: العلوم على عهد الموحدين ص 249 - 250 نقلاً عن مسالك الأبصار لابن فضل العمري، المعجب ص 360، الحلل الموشية ص 113 - 119؛ التازي - الحروف المقروءة بالقرويين في خدمة الآثار: المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية طبعة القاهرة 1961 ص 447.

بإزاء الشريعة ، ووقف عسكرُ الإمام معه في أول البراح المذكور ، وتجاولت الخيل من فرسان العساكر بالجري واللعب والدفاع بالحملات والكرات والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى أذان الظهر من اليوم المذكور ، حتى حمل الأمير بنفسه[1] في تلك الدفعات سروراً فأظهر من ركوبه وفروسيته أمراً عجيباً. ثم نزل الأمير عن فرسه ، ونزل السيد الواصل أيضاً والتقيا وتصافحا وسلما ، ثم سلم الناس الواصلون بعضهم على الأمير ، وعلى من حضر ، وركبوا وعادوا الى العساكر ودخلوا الى القصر العتيق : دار الحجر[2] في أعظم بروز وأحفل تمييز بعد صلاة العصر في أول العشية من اليوم ، واجتمعا خير اجتماع ، وكان من البروز الحافل ما أبهت الناظرين لغاية الإجماع . وفي اليوم الثاني من هذا الوصول [144] السَّعيد ، صُنع للموحدين الواصلين والعرب ولجميع المقيمين من جميع الأصناف الأطعمة الدارة ، والأشربة الحلال المدارة على المسار السارة ، مدة خمسة عشر يوماً في نعيم وسرور مقيم ، ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة من العمائم والغفائر[3] والبرانس والأكسية بأن حصل لكل فارس غفارة ، وعمامة وكسا ، وقبطية[4] وشقة . وأنعم على جميع الناس الغازين والقاطنين بذلك ، وعلى طلبة الحضر ، وأدرت عليهم البركة الحافلة من الذهب والدراهم : لكل فارس عشرون ديناراً[5] ، وللأعيان

(1) نرى أن ابن صاحب الصلاة يسترسل في ذكر طرائفه، فهو يصف هنا «حلات الخيل» التي ما تزال تجري في المغرب إلى الآن وبخاصة عند الأفراح والمواسم . والطريف هنا أن نرى الخليفة نفسه يندمج في شعبه فيأخذ بعنان فرس ليقوم هو كذلك بدور الحملة والمصطفة.

(2) حول دار الحجر راجع التعليق رقم 1 ص 169.

Dozy. Sup T. II p. 218.

(3) جمع غفارة: كساء يلبس فوق آخر. لسان العرب.

(4) نرى كيف يجمل الأكسية التامة تتألف من العمائم والغفائر والبرانس والأكسية، ثم أعطى مفردات لكل هذه الكلمات عمامة، غفارة، كساء، وأضاف القبطية التي هي الثوب الأبيض الرقيق من الكتان، والشقة التي هي عبارة عما شق من الثياب على شكل مستطيل.

(5) يقصد في أغلب الظن الدينار اليعقوبي المنسوب إلى أبي يعقوب وبالرغم من أنه من الصعب اعطاء معادلة مضبوطة لمقدار الدينار، فإنه من المفيد، اعتماداً على ما كتبه الأستاذ «ميليون» ، أن نعلم أن وزن الدينار الموحدي بالذهب 729 ،4 (غرام) (أعني بزيادة 708 على الدينار الشرعي)، ولذا

الموحدين وأشياخهم لكل واحد مائة دينار ، ولأشياخ العرب لكل واحد مائة دينار ، ولسائر عسكر العرب عشرون ديناراً لكل فارس ، فاجتمع لجميع الناس السُّرور ، والمال الحاضر الموفور ، وعادت الطبول بالثغر فيها مدة خمسة عشر يوماً . وبعد هذا الإنعام التام ، والإفضال العام ، رجع الناس الغازون الى قبائلهم للاستقرار ، بعد نيل الغزو السعيد ، والأجر المزيد ، في هذه الأسفار .

وخمدتْ نار الفتنة من ابن مردنيش مدة خمسة أعوام الى أن حدث بينه وبين صهره ابن همشك الشنآن الذي نذكره بعد أن شاء الله تعالى ، فنظر أمير المؤمنين في غزوه على ما يأتي ذكره[1] في هذا التّاريخ مفسراً من تجهيز البعوث والعساكر الى جزيرة الأندلس [145] استعداداً لغزوه إلى أن غزى وحصر بمرسية قاعدته في عام ستة وستين وخمس مائة .

الابتداء بالولايات من الأمير لأخوته السادات . وللحفاظ النبهاء من أبناء شيوخ الجماعات على ما يذكر

قال المؤلف : ولما كمل شغل الأطعام والأنعام ، ميَّز الناس على جميع طبقاتهم ، على ما حضروا به من كساهم وهيئاتهم وخيلهم ورجلهم ، فكتبت

- قيمة بالفرنك الفرنسي كانت أوائل القرن العشرين 14.38، وهكذا تكون قيمة المبلغ المأخوذ مائتين وتسعين فرنكاً يعني فرنك أوائل القرن العشرين. . . ويقدر الفقهاء وزن الدينار بأربعة وعشرين قيراطاً، ويذكرون أن القيراط ثلاث حبات فيكون المجموع 72 حبة. الاستقصا ثلث:

Luis Massignon: Le Maroc dans les premiers années du XVI siècle 1906 page 102 - 103:

Miles: ENCYCLOPEDIE de l'Islam T. II. Livraison 27 p. 308 Edition 1962.

Bréthes: Contrabution a l'histoire du Maroc 1939.

محمد المسيحي: الملاح المجري، من المسالك الفكر، طبعة الرباط، 1940 ص 9 - 18 .

محمد الزغاري: معرض نقود اسلامية وقديمة 1962 ص 16.

التازي: تاريخ جامع القرويين طبع دار الكتاب اللبناني: سنة 1972 الجزء 1 ص 76.

(1) يعني صفحة 260 - 264 - 268 - 270.

أسماؤهم على الاستيفاء ، وتكرار الأسماء ، والسمح لهم في تحبُّلهم للأقوياء منهم والضعفاء ، وخرجتْ لهم البركة على الذي كتبوه ورتَّبوه نظر الأمير أولاً بمشاورة أخيه السيد الأعلى أبي حفص في حديث بجاية وأنظارها إذ كانت دون وال ، وعلى حالة إغفال ، محتاجة للنظر لها بسبب يفتح لهم زهرة الأمال ، فاختاروا لها من الإخوة السيد أبا زكريا يحيى بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه ، فتوجَّه اليها من الحضرة غرة جمادى الأولى من عام واحد وستين وخمس مائة في جملة منتخبة من أبناء الجماعة والحفاظ ، والموحدين أهل الديانة والاحتفاظ ، ومن عسكر أهل بجاية وأنظارها على ما رأوه ، واستخاروا الله عليه ونوره .

(الاحتفال بتنصيب أبي عبد الله بن أبي إبراهيم والياً على إشبيلية)

ثم نظروا [146] أيضاً في حديث إشبيلية إذ كانت أيضاً دون وال ينظر في عسكرها ، وأجنادها وثغرها ، فاختاروا لها من أبناء الجماعة النبهاء الفضلاء الفرسان الأنجاد من أهل الأديان الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم صاحب المهدي رضي الله عنه ، وانفذوا على ولايته عليها ، وأحضروه وأمروه بذلك ، وقدَّموه عليها يوم الجمعة بعد صلاة الظهر الحادي والعشرين من جمادى الأولى بموافقة الخامس عشر من أبريل العجمي[1] من سنة إحدى وستين وخمس مائة المؤرخة . وعقد له الأمير داخلي في مجلسه الكريم وميَّزوا له جملة وافرة منتخبة من الحفاظ من أبناء أهل خمسين من الموحدين أعزهم الله من كل قبيلة من الموحدين ، وعين أن يزر له ، ويسوس أحواله ومسائله ، الشيخ الحافظ أبا يحيى زكريا بن يحيى بن سنان لثبات أبيه في أهل خمسين ، ولحفظه هو كتاب الموطأ وعرضه عليه في مجلس[2] الخليفة أمير المؤمنين ، وظهور النجابة عليه من شبابه الى فتوَّته وما

(1) الموافق هو 25 مارس 1166.

(2) كان اهتمام الموحدين بأمر التعليم عظيماً، وكثيراً ما كان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على مباشرته والحض عليه. التازي، ص 27 - 28.

وصل الأربعين ، ولاختصاصه بالشَّيخ الزاهد المجاهد المرحوم أبي يعقوب يوسف بن سليمان بتصريفه له في الأشغال ، وما جرّ به فيه من الأصالة في الأعمال ، ولعقله الراجح ، وبما حباه الله به من عفاف الجوارح ، والاقتناع بالكفاف وسيادة النظر في المصالح . وممن أصحب معه من الحفّاظ [147] عبد الله بن يعقوب ، وعمر بن تيمصلت ، ويعيش الجدميوي ، وعبد الوهاب ، وأبو العيش من أهل كنومة وزيد بن عبد الرحيم من جدميوه ، وحمزة بن عبد الرحيم من صنهاجة ، ويحيى بن أبي بكر ، ومحمد بن عمران ، ومحمد بن عيسى ، ومحمد بن تيفلت . ووجهوا معه عسكراً من العرب لحماية إشبيلية وأنظارها ، وأمروا بأربعة من الطبول بأربعة فرسان يضربونها له إعلاماً برفعة منزلته من يوم خروجه من الحضرة واحتفلوا به وساووه في رتبه وخلطوه بأنفسهم وجعلوه في أبناء أشياخ الجماعة من أنفسهم رعاية لأبيه وللصهر المتصل بذويه ، فتحرك من حضرة مراكش في غرة جمادى الأخيرة من سنة إحدى وستين المؤرخة وقد عقدت له في مجلس الأمر العزيز رايتان برز بهما من دار الخلافة على وسط أسواق مراكش وديارهم وطرقها الى باب فاس[1] مستقبلاً طريق الأندلس ، أمر له وللجميع من صحبه من عسكر وسائر في جملته بالعلوفات والمواساة في المراحل ، والرفق بالرواحل ، حتى وصل البحر ، ووصل اليه في المجاز بقصر مصمودة الحافظ أبو محمد عبد الله بن أبي إسحاق بن[2] جامع صاحب سبتة في ذلك التاريخ بقطعتين من قطع البحر أجازوه هو فيها وأصحابه وحفاظه الى جزيرة طريف[3] برأيه وبما

---

(1) باب فاس: أحد أبواب مدينة مراكش وهي كما نرى تتجه نحو الأندلس كاشارة إلى أن المتجه للأندلس لا بد أن يأخذ طريقه على مدينة فاس. انظر التعليق رقم 3 ص 90 . ابن الزيات التشوف، ص 223 ، 231 ، 299.

(2) من أسرة ابن جامع الشهيرة، وهو أحد أخوة ادريس ابن جامع وقد علمنا انهم نكبوا في الأخير، وأقاموا مغربين بمدينة ماردة. راجع التعليق رقم 2 ص 157 ورقم 4 صفحة 179.

(3) طريف (TARIFA) أول نقطة من جزيرة الأندلس تسامت قصر مصمودة (القصر الصغير أو قصر المجاز) وجزيرة طريف تقع في الجنوب الغربي من الجزيرة الخضراء.

Huici 224 - 225.

نفذ له به الأمر العالي في حسن رتبة ، ثم صار الى مدينة إشبيلية على ذلك [148] الترتيب ، والظهور المصحوب ، الملتزم بالصلاة والأذان والتثويب ، الى أن بات على مقربة من إشبيلية ، فخرج اليه حفاظُها واجنادها وبرّزوا له ومنهم أبو داود يلول بن جلداسن[1] وأبو عبد الله بن أبي سعيد المعلم ، وأبو العلاء بن عزون شيخ القواد ، وأشياخ إشبيلية وأهلها والتقوا به ودخلوا معه مسرورين بقدومه ، متبركين به في حديثه وفي تقديمه ، شاكرين الله تعالى والأمير الأجل أبا يعقوب أن خصهم به وكرمهم بتكريمه ، وتدافعت الخيل أمامه ، واجتمعوا معه ووفوه سلامه ، ووقروا مجلسه وكلامه ، ودخل إشبيلية ضحوة يوم الخميس مفتتح رجب الفرد من سنة إحدى وستين وخمس مائة المؤرخة، وبعد ثلاثة أيام من وصوله إلى إشبيلية سافر مع الحفاظ الواصلين معه الى قرطبة للقاء السيد الأسنى أبي سعيد بها والسلام عليه ، فكان ما أراده ، وأقام عنده ثمانية أيام تحت بر واكرام ، وودعه وانصرف إلى إشبيلية ، وضربت جملة قحمة من نصارى شنترين ـ أعادها الله ـ على نظر طلياطة[2] فجهز في أتباعهم الحفاظ الواصلين معه وأبا العلاء بن عزون في جند إشبيلية وجملة من العرب الواصلين معه فادركوهم ، وأنقذوا الغنائم منهم وهزموهم وحزروهم واستاقوا من سلبهم مائة فرس وجملة أعلاج ، وعرف الأمير بهذا الفتح فشكر [149] اجتهاده وجهاده .

وصول السيد أبي إبراهيم إسماعيل الى إشبيلية والياً

وأقام على شغله بإشبيلية منفرداً الى أن وصل السيد الأسنى أبو إبراهيم إسماعيل بن الخليفة أمير المؤمنين والياً على إشبيلية في أول ذي الحجة من سنة إحدى وستين وخمس مائة المؤرخة . وأمر السيد الأسنى أبو سعيد بن

---

(1) كتب في المخطوط جلداس باسقاط النون.

(2) طلياطة (Tejada - Talyata) تقع غرب إشبيلية على مقربة من طريانة وفي الجنوب الغربي لمدينة لبلة.

الروض المعطار ص 128 ، 129 . Huici 164.

الخليفة أمير المؤمنين بالارتحال عن قرطبة في هذه الأيام والمشي الى الحضرة العلية مراكش ، فخرج من قرطبة مُبادراً للأمر الذي أمر به ، وخطر على إشبيلية في اليوم العاشر من ذي القعدة من سنة إحدى وستين المؤرخة والتقى بأخيه السيد أبي إبراهيم بقَصر مصمودة ، وخرج الشيخ الحافظ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم من إشبيلية في هذه الأيام للقاء السيد أبي إبراهيم الى جزيرة طريف فالتقى به فيه فانصرف في صُحْبته بها وشغل العسكرية على يديه جارٍ تقييده وتنفيذ الأمور بوساطته لترتسم جنوده ، وهو مؤمل ، والكل بشر ورقعة مؤهل والسيد المذكور يختص به غاية الاختصاص ، ويشتمل عليه بالبرد والود والاخلاص .

(ولاية أبي عبد الله بن إبراهيم بغرناطة وبقية أخباره)

إلى أن وصله الأمر العزيز بولاية مدينة [150] أغرناطة في العشر الأواخر من شعبان من سنة ثنتين وستين فنظر في الحركة إليها مع أصحابه وحفاظه الواصلين معه من الحضرة، فخرج إليها من اشبيلية في اليوم الثاني من شهر رمضان المعظم من سنة ثنتين وستين وخمس مائة المؤرخة وأقام باغرناطة والياً سعيداً مجتهداً. ونازل حصن (لبسة)[1] على قرب من وادي آش[2] وفتحه لي نزوله عليه في يومه، ونزل جميع من كان فيه في داخله من النصارى وانصرف إلى اغرناطة غازياً، وعرف بالفتح حضرة الأمير الأعدل أبي يعقوب رضي الله عنه، فراجعه بالشكر على اجتهاده وجهاده واستمرت إقامته باغرناطة والياً إلى شهر جمادى الأولى الموافق لشهر دجنبر العجمي[3] من عام

(1) لبسة (Labsa) تتوسط بين مدينة غرناطة ومدينة وادي آش كما يقول ابن صاحب الصلاة ص 182 ينسب إليها عدد من العلماء. ابن الأبار التكملة رقم 1597 - 1801 ، Huici page 231.

(2) وادي آش (Guadix): مدينة تقع شمالي مدينة غرناطة قريبة منها تطرد حولها الأنهار والمياه ينحط نهرها من جبل شلير، وهو في شرقها وهي على ضفته.
الروض المعطار ص 193 - 195: شكيب ارسلان: الحلل السندسية أول ص 126.

(3) جمادى الأولى توافق يناير - يبراير 1169.

أربعة وستين وخمس مائة، ونهض بالاستدعاء الكريم هو وجميع الولاة بالأندلس والسيدان أبو ابراهيم وأبو اسحق ابراهيم صاحبا إشبيلية وقرطبة إلى حضرة مراكش حرسها الله وأقام فيها بقية عام أربعة وستين المؤرخة وأتهم إلى السيد الأعلى أبي حفص أدام الله تأييده على ابنته، وتمادت إقامته بمراكش إلى أول شهر ذي القعدة من عام خمسة وستين، وسافر في صحبة السيد الأعلى أبي حفص غازياً في الغزوة المنصورة المعظمة المظفرة إلى ابن مردنيش بمرسية، ثم بعثه السيد المذكور إلى مدينة بسطة مع عسكر [151] موفور من الموحدين أعزهم الله، ففتح الله على يديه بسطة وبهدها وانصرف إلى السيد ظافراً وأقام معه في هذه الغزوة السعيدة إلى أن انصرف السيد الأعلى وانصرف بانصرافه إلى إشبيلية وأمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه كما أجاز إلى الأندلس في عام ستة وستين وخمس مائة واستقر بإشبيلية في حضرة الخليفة أمير المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنه. والغرناطة في هذه المدة كلها تحت حكمه وبيده، فيها رجاله وعماله، وأبو محمد بن بركركان[1] ينظر في أشغال الموحدين بها ويمسك قصبتها بهم على أحسن حال، وحين استقراره بإشبيلية نهض السيد الأسنى أبو سعيد إلى اغرناطة والياً عليها بالأمر عوضه، ووصل رجاله وعماله منها إلى إشبيلية . ثم قدمه أمير المؤمنين رضي الله عنه على تمييز الحفاظ أجمع أول شهر ربيع الأول من عام سبعة وستين وخمس مائة، وحضر الغزوة الكبرى مع أمير المؤمنين إلى وبذة ببلاد النصارى، وحضر غزوة النصراني الطاغي أبي بردع المسمى بشان منرش[2]

(1) لم نجد للتعريف بأبي محمد هذا شيئاً ولم يرد ذكره عند ابن صاحب الصلاة إلا مرة واحدة، وقد يكون أصل الكلمة (بركان) ويكون من أولاد الشيخ أبي عمران بن موسى بن بركان اليلتق ص 109 .

(2) يعرف أحياناً بالفونس الأحدب وأحياناً بأبي بردعة وأحياناً باسم شان منرش، وقد كثر الحديث حول التعريف بهذا القائد، وأحدث بعض المخطوطات المسيحية عن قائد من قادة أيام الموحدين كان يسمى (Sancho Jimeno) كان لقي مصرعه في كركوي، ولقب الأحدب إنما أتى كان كذلك أو من قبيل النبز بالألقاب، ولقب بأبي بردعة لأنه ـ على ما قيل ـ بردعة من الحرير منسوجة بالذهب مكللة بأصناف الجوهر . . .

في صحبة السادات والشيخ المرحوم أبي حفص، وناب في هذه الغزوات كلها المناب الحميد والجدّ السعيد ثم لازمته زمانه من الاعتلال طالت به مدة عام ونصف، فتوفي عفى الله عنه ورحمه في السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم من عام [152] تسعة وستين وخمس مائة، وصلى عليه أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه وشيّع جنازته السادات ودفن بروضة الأمراء خارج باب جهور من إشبيلية وله من السن ستة وثلاثون عاماً، وكان من أحد علية أبناء الجماعة في الرياسة والسياسة، يحفظ القرآن برواياته، وموطأ المهدي)[1]، وعقائده[2]، مع مشاركة في الأدب ومطالعة على كتب التواريخ وهمة عالية في الكتب واقتنائها وانتسافها حتى اجتمعتْ له منها خزانة عظيمة عالية الفنون، إلى ما كان عليه رحمه الله من وقار وهيبة ووفاء لأصحابه في الحضور منهم والغيبة، مع انبساط معهم في طعامه وإنعامه عليهم بجمعهم، ومحافظة والتزامٍ للطهارة والصلاة، ويدار لدفع الواجب من الزكاة في حين وجوبها دون تأخير. قال عبد الملك: وكان هذا الشيخ الحسيب الفاضل أبو عبد الله يخرج في بعض أيام ولايته لغرناطة مع أصحابه الحفاظ النبهاء من الموحدين، أكرمهم الله، وفيّ خاصية، وينزل على ساقية، بقرب قرية بُزُلّر[3]، من نظر غرناطة على ضفة نهر، أحسن من شاذ[4] مهر، تحفها

= ابن صاحب الصلاة، ص 151 - 337 - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب جزء ثالث ص 337 - ابن خلدون، الجلد السادس ص 500 - 501.

(1) كتاب الموطأ الذي صنفه ابن تومرت عبارة عن الأحاديث النبوية التي وردت في موطأ مالك بن أنس برواية أبي زكريا يحيى بن عبد الله المازوني، وذلك بعد حذف معظم الإسناد منها للاختصار. وقد نشرت موطأ المهدي بن تومرت مطبعة بالجزائر سنة 1905، وبالخزانة العامة بالرباط نسختان من هذا الكتاب راجع أيضاً التعليق رقم 1 ص 162.

(2) أنظر التعليق رقم 3 من صفحة 161.

(3) قرية بزلر: من نظر غرناطة، ولم ترد ضمن قرى غرناطة التي ذكرها ابن الخطيب، كما لم ترد عند (Simonet) في كتابه (Desc. Del Reino de GRANADA) وقد ذكر لي الدكتور Luis Seco de LUCENA) أن المكان يقصد به غالباً حي البكر (BUCOR)، الذي يقع شمال غربي غرناطة.

أنظر الاحاطة في أخبار غرناطة ـ نشر عبد الله عنان صفحة 133.

(4) موضع نيسابور أم بلاد خراسان. معجم البلدان، مجلد 3 ص 366.

جداول كالصلال، ولا تكاد ترمقها الشمس من تكاثف الظلال فيستريح فيها وقد أُحضر له من الشراب والطعام، ما كفا جملته وآنسهم بفرط الاكرام والانعام، وبسط نفوسهم بتقريبه لهم في ذلك [153] المقام، ثم ينصرفون معه وقد حازوا منه من المجالسة والمؤانسة غير حُزُنَةٍ ونَدَام، فلما مشى من غرناطة لزيارة أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين على ما ذكرته خرجت إلى ذلك الموضع متطلّعاً، وشيّقاً إلى من كان فيه بالأنس مجتمعاً، وتذكرت حسن المعاهد، والتأنس بتلك المشاهد، فارتجلت[1] فيه: (طويل)

فهذاك يا ذا المنزلُ الرحبُ منزلاً ... لسيّدنا نِلْ أفضلَ العَشْرِ أجمعا

تُحَطُّ بكَ الآمالُ مِنْ كلِّ جانبٍ ... وتَشْرَبُ فيكَ الأنسَ مثنى ومَرْبعا

ويحضُرُكَ الأفضالُ مدَّةَ يومِنا ... فيالكَ ذاكَ اليومُ مرأى ومَسْمعا

فيا أنتَ هذا اليومَ أوحشُ منزلٍ ... رأيتُكَ بيداءً وقفراً وبلقعا

طمحتُ بنفسي ألا أزهُ فروعها ... فلما زجرتُ الحَيْنَ أسبلتا[2] معا

وقالتْ: دعيني أُسْبِلِ الدمعَ ساعةً ... فقيهِ شِفَاءُ القلبِ إذْ كانَ موجعا

فأمهلتُها حتى اشتفتْ من بكائها ... وناجيتُ ربّي معلنا ومُسَمِّعا

بأنْ يَعْطِفَ الأيامَ في وَصْلِ ما مضى ... ويرجع إلى الوالي قديماً وأطمعا

ويصبح مولاي الهُمامُ مُمَلَّكاً ... بقصر ابن باديس[3] صحيحاً مُمتّعا

---

(1) الشعر الوحيد الذي نعرفه ـ في هذا السفر ـ لابن صاحب الصلاة، وقد ذكر أنه كان في جملة من أنشدوا الشعر في جبل طارق وإن كان لم يثبته، هذا وقد ساق له ابن عذاري قطعة شعر لا شك أنها كانت ضمن السفر الثالث. البيان المغرب ورقة 108.

(2) فيه التفات إلى قول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة (باب النسيب)

بكتْ عيني اليُسرى فلما زجرتُها ... عن الجهلِ بعدَ الحِلْمِ أسبلتا معا

وأبيات باقي القصيدة مأخوذة من قول الصمة أيضاً.

(3) هو باديس بن حبوس صاحب غرناطة سابقاً، وقد كان له بها قصر كان السفر به ـ فيما يظهر ـ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم أيام ولايته لغرناطة وفي أثناء زيارتي لغرناطة أوقفني الأستاذ برموديث (BERMUDEZ) مدير آثارها على المكان الذي يظن أنه كان قصر ابن باديس وهو بجوار القصبة الحمراء، وبما أنه في منطقة تقرر الآن القيام فيها بحفائر، فإن الأمل أن يعثروا فيها على بقايا هذا القصر...

وكان بعد ذلك رجوعه إلى غرناطة على ما دعوت وزجرت، وانصرف إليها والياً في سفرة غزوة السيد الأعلى المجاهد المرحوم أبي حفص ابن الخليفة رضي الله عنه في عام خمسة وستين وخمس مائة على ما تقدم في التاريخ في هذا الكتاب. وكان حين وصل مدينة اشبيلية والياً عليها على ما تقدم [154] في التاريخ من هذا الكتاب الذكرُ به وشرحُه قد كتب له الكاتب أبو القاسم[1] المواعيني مهنئاً نثراً ونظماً وهو هذا:

مَحلّ الشيخ الأجل، الحَبيب المبارك الأفضل، في ذُرى السيادة، وفروع البركة المَقْرُونة بالسّعادة، محلٌ لا يداني سموه الأسمق ونشْؤه الأبسق، وكيف لا وشيخ الموحدين، وطائفة الحق المهتدين، الأزهد الأورع، وعلمهم الذي يتلوه النورُ الأسطع، أبو إبراهيم أبوه: أضفى الله عليه ظلاله، وأوسع في منازل الزلفى مراتبه وجلاله، هو قطبُه الشامخ، ومستنده الباذخ وحق لكل ناءٍ بذماله، أن يُهنا بما فتح من استدعائه، فكيف إنه الأنجب الذي[2] تحجب عنه آثار بركاته ولا تحجب، وقد تعيّن على كل متيمّن بتلك المناجح حقها الأوجب. (وافر).

محمدُ يابن اسماعيلَ انْتُم ... لهذا الأمرِ قطبٌ أو عِمادُ

أخٌ لبني الخلافة صنوٌ صدْقٍ ... ولو سكت الوَرى نَطقَ الجَمادُ

وذو الحسب الكريم لهُ فَعالٌ ... يفوقُ البَحْرَ ان نضبت ثِماد

وذو الأصل المهذّب إذ ولمّتم ... أناف لهُ على الأصل اعتماد

---

* ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 230 ـ الإحاطة ص 452.
دائرة المعارف الإسلامية (ط2) ص 287 ثامن 86.
راجع التعليق رقم 2 صفحة 125.

(1) هو محمد بن ابراهيم بن عميرة من أهل قرطبة وسكن اشبيلية يعرف بالمواعيني ويكنى ابا القاسم... وعني بالأدب وكتب للولاة وله تأليف منها الرشاح المفصل، وريحان الشباب وكتاب في الأمثال توفي في نحو السبعين وخمسمائة. ابن الأبار ـ التكملة لكتاب الصلة (نشر كوديرا) رقم 563.

(2) سقطت هنا دون شك كلمة (لا) من النسخة...

ولقد أحييتُمُ سُنَنَ المعالي ... إذا ما كان للمجدِ انتهاءُ

والسّلام الأكرم الأتم على حضرة الشيخ الأجل الموقر المعظم أبي عبد الله ورحمة الله تعالى وبركاته. مِنْ ملتزم تكريمهم، [155] ومعظم حقهم رهين شُكرهم: مُحمّد بن إبراهيم.

الاتفاق على أن يكتب الأمير المرضى أبو يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنهما العلامة المباركة هي:

والحمد لله وحده بخط يده[1]، وتنفذ الأوامر العلية ببركتها عن أمره وجده

ولما كمل هذا الاتفاق المبارك من الموحدين ـ أعزهم الله ـ أمر الأمير المرضى بكتب رسالة إلى جميع البلاد بالعدوة والأندلس يأمر فيها بالعدل والنهي عن المنكر وكتب بها أولاً إلى أخيه السيد أبي سعيد وهو مقيم بقرطبة وتاريخها يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان المعظم من سنة إحدى وستين وخمس مائة، وهذا نصها؛ وأمره أن يبعث منها نسخاً إلى البلاد. فوصلت نسخة منها إلى اشبيلية وهي هذه وهي أوّل[2] أوامره العالية من إنشاء أبي الحسن بن عياش:

بسم الله الرّحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده، من أمير المؤمنين يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدّهم بمعونته إلى الشيخ الأجل أخينا الأعز علينا، الأكرم لدينا، أبي سعيد وأصحابه الطلبة الذين بقرطبة أعزهم الله، وأدام كرامتهم بتقواه. سَلامٌ عليكُمْ [156] ورحْمَةُ الله تعالى وبركاته، أمّا بعد فإنا نحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو،

---

(1) راجع التعليق رقم 3 ص 78.

(2) رسالة عامة إذ تتضمن السيرة التي ينبغي على القضاة والحكام أن يسلكوها في الأحوال الجنائية على عهد يوسف. راجع ص 151 من كتاب ابن القطان. نظم الجمان تحقيق الدكتور محمود علي مكي.

ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على مُحَمَّد نبيه المصطفى ورسوله، ونَرضى عن الامام المَعْصُوم، المهدي المعلوم، نجله وسليله، ونوالي الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والدّاعي إلى سبيله، وانا كتبناه إليكم - أكرمكم الله بتقواه وكلأ جانبكم وحماه - من حضرة مراكش، حرسها الله، والذي نوصيكم به تقْوى الله تعالى والعملُ بطاعته والاستعانة به، والتوكُّلُ عليه، وموالاة شُكْره على ما هدى إليه أولياء أمْره وأنصار دَعْوَته وحُماة كَلِمَتِه من صَرْف أَعِنَّة المحبة والاهْتِمَام، وأحكام مَرَاتِب الأحكام فيما وكَّله إليهم من أُمُور الإسْلام، إلى ألاَّ تَجْرِيَ على الشَّذاذ، وتَسِيق على سَبِيل الرَّشاد وتَسْتقيم على المَهِيع، وتمضي على المنهج، وتُبْصِر في الواضح، وتهتدي على اللاحب، ويسلك بها في الجَدَد الذي مَن سلكه احمدت منه الآثار، وأمن عليه العثار، وارتضى له الايراد والإصدار، فيكون العمل فيها على اليقين الهادي إلى الصراط المستبين، المأمُون في سلوكه من المزلَّة والضلال، المرجوّ في الاهتداء به حُسْن العاقبة وصلاحُ الحال، فنسأله - تعالى جَدُّه - عَوْناً من قبله على هذا الغَرَض العام الجدوى بصاحب، وتَوْفِيقاً من لدنه في هذا النظر الشَّامل المنفعة بجاوز ويصاقب، وإنّه - أدام الله [157] كرامتكم - لما كانَتْ مباني هذا الأمر العزيز - أدامه الله على التقوى مُؤَسَّسة، وأوامره ونواهيه على أمْر الله ورسوله جارية مترتبة، وإليها في الأَخْذ والتَّرْك مستندة، وبمقتضياتها في جميع الأحكام آخذة عاملة، إذ هِيَ نورُ الحقّ وسراجُه، وعَمُود الصّدق ومعراجُه، وسَبِيلُ الفَوْز ومنهاجُه، ورائدُ الثواب وبشيره، وقائدُ العقاب ونذيره، ممَّن ائتمَّ بكتاب الله الذي هو الإمامُ الهادي، والحق الواضح البادي، وسنة[1] رسوله صلى الله عليه وسلم التي جَعَلَ العَمَل بها كالعَمَل

[1] نستشف من الرسالة أن الاعتماد على الكتاب والسنة وحدهما ظل مشغلة الموحدين من الأب إلى الابن إلى الحفيد، ولا نعتقد أن الأمر بتحريق كتب الفرع كان صدر من عبد المؤمن سنة 550 كما يقول صاحب القرطاس، أو من يعقوب المنصور كما يقول صاحب المعجب. ومن خلال هذه العبارة بل ومن ثنايا هذه الرسالة سنرى أن يوسف يهيب بالناس ألا يحكموا برأي من الرأي أو ما يظهر . . . ».
الاستقصا ج2 ص 112.

بكتابه، والوقوف عند حدّها كالوقوف عند حدّه، أمِنَ من الغَوَائل في العاجل والآجل، وبَلَغَ من السّلامة في الحالَيْن إلى أقصى أمَل الآمِل، ولم يُوجد للنّاظر إليه سبيلاً ولم يتمكّن للشيطان أنْ يجدَ في تضليله واستهدائه صرفاً ولا حَوْلاً فتوفَّرت الدّواعي على الدُّعاء إليها، وحَمْل الكافّة عليها، وأخذ الجميع بما يخصهم لديْها وقدْ أمَرَ الله تعالى مَن أمر الناس بطاعته أن يحكُمُوا بالعَدْل، ويضعوا للعباد موازين القِسْط فلم يكُنْ بُدٌّ من امتثال أمْره، والاستناد إلى حُكْمه، وكانت الوُجوه التي تُفْضي إلى الحقّ في فصْل قَضايا العباد متفقة، والطرق المؤدية إلى مَغْنى الصِّدق ومَغْناه ملتبسة متشعِّبة، فَتخرج فيها بنيات تخطئ الصراط المستقيم وتصل الضَّلال البعيد، فَصَارَ [158] إمْضاؤُها عَنْ غير استناد إلى هَذَا الهدي المتَّبَع، والعَلَم المرفوع، خطراً على ممضيها، وإنْفاذُها على غَيْر هذا السنن غَرَراً على منفذيها. ولما كان الأمْرُ كذلك تعيَّن ووجب، ورُتِّبَ وترتَّب، أنْ نخاطب جميعَ عُمّال بلاد الموحدين أعزّهم الله شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، خطاباً يتساوى فيه جميعُهم، ويتوازى في العمل فيه كافَّتُهم، بألا يحكموا في الدماء حكماً من تلقائهم، ولا يهريقوها برأي أو برأي من آرائهم، ولا يقدموا على سفكها بما يظهر إليهم، ويتقرّر فيما يرونه لديهم، إلا بعد أن ترفع إلينا النازلة على وجْهها، ونؤدَّى على كُنْهها وتشرح حسب ما وقعت عليه، وتنهي بالتوثُّق والبيان على ما انتهتْ إليه، وتقيد بالشُّهود العُدُول، المعْرُوفين في مواضيعهم بالعدل والرضى الموجبّين للقبُول، وتكتب أقوال المطلوبين وحُجَجهم وإقرارهم واعترافهم، وحُجَجُ الطالبين في مقالاتهم، واستظهارهم في بيّناتهم، مُعْطي كل جانب حقه، مُوفي كل قائل وقوله، فتكون مخاطبتكم - أعزكم الله - ومخاطبة مَن يتلوَّكُ هذا الكتاب، وتوجَّه إليه هذا القصد، خطابَ من تحمل الشهادة، ويؤدي فيها الأمانة، على ما يجب من البيان الذي لا يعتوره التباس، ولا يطمس وجهه إشكال، ويتوثقون في المطلوبين بالدماء بسجنهم وتثقيفهم، ويشوكُون ما تُصلكم به المخاطبة فتقفون [159] عند مقتضاه، ولا يحيدون عن شيء من معناه، مراقباً كلٌّ منكم الإله ومولاه، عالماً بأنه يعلم سره ونجواه، وأنه يسمعه ويراه،

واعلموا - وفقكم الله وأسعدكم - أن هذا الحكم عامٌ في سائر النوازل التي أطلقت السنّة فيها القتل وسنّته، وحكمت به وشرعته، كمن قتل نفساً وأقرّ بالقتل، أو شهد العدول عليه به، ومن بدّل ديناً وارتدّ عنه، ومن أتى الفاحشة بعد الإحصان باعتراف أو دليل أو شهادة مقبولة، وما شُرّ الأيمة فيه من قتل المحاربين والساعين في الأرض بالفساد، والمتأوّلين أمر الله بالاستهزاء والعناد، سواء من ذلك كله، أو وقع فيه ضرب بشكله، فمجراه واحدٌ في التوقف عن إمضائه، والتأخر عن تنفيذه إلاّ بعد المطالعة، وتعرّف وجه العمل من المجاورة، وكذلكم - وفقكم الله - يكون التوقيف فيما عدا المذكور من النوازل التي تكون أحكاماً دون النفوس من قتل الخطأ وديات الشجاج[1]، وعقول[2] الأعضاء وأروش[3] الجراحات، ووجيه القصاص، والقطع في السرقات، إلى غير ذلك من القضايا المشكلة في الأموال وإطلاقها واستحقاقها، وفي الرقاب وإعتاقها واسترقاقها، وملتبسات المناكحات والمعاملات، وما أشبهها من الأمور التي الإقدامُ على الحكم فيها تهجّم، والعملُ فيها بغير استناد إلى ما يجبُ تسوّر. فتوقّفوا - أعزّكم الله - عن جميع ما قدّر لكم ولواحقه توقّفَ الناجي [160] في نجاته، العامل لدنياه وآخرته، فقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه السلام من الحظر الوكيد، والوعيد الشديد، في إراقة الدماء، واستباحة الأموال، واستحلال المحرّمات، إلا بوجهٍ صحيحٍ لا يسلم إلاّ من طريق العصمة، ولا تهتدي إليه إلا أنوارُ الحكمة، ما يزعُ العقلاء، ويكفّ الألباء، ويحذّرهم من سطو الله تعالى وعقابه، ويخوّفهم من أليم عذابه، فعوّلوا على ما رسم في هذا الكتاب من التعريف بما يطرأ، وإنهاء كل ما ينزل، ليصلكم من التوقيف، والبيان والتعريف، لما يظهر لكم به بركة الاقتداء، وتشرق منه عليكم أنوارُ الإيمان

(1) الشجاج جمع شجة: الجراحة في الوجه أو الرأس.
(2) عقول جمع عقل بمعنى الدية تسمية بالمصدر لأن الإبل كانت تعقل بفناء ولي القتيل ثم كثر الاستعمال فأطلق العقل على الدية إلا كانت أو نقداً.
(3) الأرش: دية الجراحة وجمعها أروش وأصله الفساد يقال أرش بين القوم تأريشا إذا أفسد.

والاقتداء، ويتراءى لكم به الحقُّ في صُوَره الصادقة، ومُثُله المطابقة، ومناظره المونقة، ومطالعه المشرقة، بفضل الله ورحمته، وملاكُ ما يسدّد مقاصدكم في جميع أحوالكم، ويوجبُ لكم الرضا في كافّة أقوالكم وأفعالكم، تقوى الله في السر والجهر، وخيفته في الباطن والظاهر، وقمع النفس عن هواها، وكبحها بلجام النهي عن الركض في ميدان رداها، وطاعة أمره - العظيم، والجري على سنته المستقيم، فذلك عصمة من الزلل، وتوفيق في القول والعمل، بفضل الله، وقد وجب - أكرمكم الله - لهذا الكتاب بما انطوى عليه من الأغراض الشاملة المنفعة، العامة المصلحة، أن يعطى حقّه من الإشاعة والتشهير، وينهض مقتضاه [161] إلى الصغير والكبير، ويجمع الناسُ لقراءته، وتلقي مضمنه، ويساوى فيه بين الغائب والشاهد، والبادي والحاضر، باستماع من حضر، ومخاطبة من غاب، بمن يتعلّق بنظركم، ويدخل تحت عملكم، فوجّهوا نسخ منه إلى كل جهة من جهاتكم، وعمل من أعمالكم، ليأخذ الجميع بقسطه من المسرة به وتعرّف بركته، واستشعار عواقبه، وأنه بما أمر به هذا الأمر العزيز من إقامة العدل، وبسط الدعة والأمن، وإقامة أمر الله تعالى على وجهه المتعين، وسنته الواضح البين إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كُتب في الثالث من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وستين وخمس مائة.

وامتثل السيد أوامر الكتاب الكريم، ورحل عن قرطبة بعد كمال شهرين من تاريخ الكتاب الواصل إلى مراكش على ما ذكرته[1].

وصل الأمير الأجل الأعدل أبو يعقوب رضي الله عنه بأمره الكريم في هذه الرسالة العلية بالأمر والعدل الأمر الذي بداه أولاً أبوه الخليفة الرضي أمير المؤمنين رضي الله عنهم في رسالته المشهورة بالعدل والنهي عن المنكر المؤرخة بالسادس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة[2] التي

(1) [illegible] صفحة 199.
(2) لم تتضمن الرسائل الموحدية التي نشرها الأستاذ بروفنسال نص الرسالة المشار إليها، وكذلك [illegible]

«الرسالة المشهورة»

كثر الحديث عن هذه الرسالة التي تعتبر بمثابة دستور دأب الخلفاء على ترديده وهي في الواقع نموذج لما كانت عليه «الرسائل البرنامج». كما أسميها. مما يزوده به الخلفاء أمراءهم على الأقطار...

وقد حررت هذه الرسالة في الحضرة العلية (تينملل) جنوب المغرب بتاريخ 16 ربيع الأول 543 (3 غشت 1148) وهي الرسالة التي جعل عليها الخليفة الموحدي العلامة بخط يده هكذا:



وتتضمن التحذير من المخالفات ورفع شعار المساواة والعدل بين الناس، وتحرم احتكار المراسي واستغلال ظروف المسافرين وتجعل حدًّا لتلاعب البعض بأمر الأسرى، ثم تتخلص لتحديد واجبات موزعي البريد (الرقاصين)، ما لهم وما عليهم...

«... وتخيّروا لرسائلكم إرسالاً، وانتقوا من أهل المشترة على ذلك والثقة رجالاً، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في المجيء والانصراف ويقطع شأنهم عن التكاليف والإلحاف، وارسموا لهم آياماً معروفة العدد، معلومة الأمد، لينتهوا إليها إلى مواقف رسائلهم، ويوزعوها على مسافات مراحلهم، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة، وأوعدوا من تسبب منهم بمساءة أو مضرة...».

من التاريخ الديبلوماسي للمغرب
تأليف: د. عبد الهادي التازي
المجلد ج 2 ص 232-233-234.
مطبعة فضالة 1406 هـ - 1986 م

كتبها في الحضرة العلية تين ملل[1] حين زيارته قبر المهدي رضي الله عنه إلى جميع الطلبة والأشياخ والعمال من الموحدين [162] ببلاد العدوة والأندلس فاقتفى رضي الله عنه في ذلك أثره، وورث أثره، رضي الله عنهم.

(القضاء على تمرد ابن متخفاد في جبال غمارة)

وفي سنة اثنين وستين وخمس مائة[2] تحركت في جبال العدوة فتنة بضلال جهال من البربر[3] مفسدين ناعقين بالفتنة، وأعظمهم في جبال غمارة[4] المتصلة بسبتة، فإنه نعق فيها مفسد ضال غوى منهم اسمه سبع بن متخفاد[5] الشقي، فإنه شق عصا الطاعة، وفارق الجماعة، وقطع الطريق،

---

* وجدت أن رسالة بتاريخ 27 ربيع الأول تشير إلى «الرسالة ذات الوصايا» فأين هي هذه الرسالة الفريدة؟ من الطريف أن نجدها في نظم الجمان (مخطوط) ولا تكون هي الرسالة الموحدية التي ذكرها ابن القطان في كتابه المذكور وقد كانت من تحرير وإنشاء أبي جعفر أحمد بن عطية في تينملل بتاريخ 16 ربيع الأول سنة 543. أنظر ص 150 إلى 167 من كتاب ابن القطان. نظم الجمان. نشر الدكتور محمود علي مكي وهي الرسالة التي ينعتونها بالرسالة المشهورة.

(1) يكتب هنا ابن صاحب الصلاة تين ملل كلمتين. وقد علمت أن الكلمة بربرية، راجع التعليق رقم 1 ص 149.

(2) ابتداء من هذه السنة سنة اثنين وستين وخمس مائة أخذ ابن صاحب الصلاة يحاول أن يسلك منهج الطبري في سرده للأحداث تحت السنوات.

(3) حول نسب البربر وأصلهم انظر ابن خلدون المجلد السادس طبعة بيروت من صفحة 175 إلى 200 الاستقصا، طبعة البيضاء أول ص 60 - 73: دائرة المعارف الاسلامية، المجلد الثالث (العربي) ص 501: C. YVER.

(4) تقع جبال غمارة في شمال المغرب جنوب تطوان، وتعتبر جبال غمارة من أخصب جبال المغرب ومن الجبال المشهورة، تسكنها قبائل كثيرة من غمارة وبها بسائط كثيرة لا تحصى تستخدم للحرث وكذلك مدن قديمة وآثار كثيرة الخ... كما يحكي صاحب الاستبصار. بأن معادنها قديمة أزلية.
الادريسي ص 170 - الاستبصار 190.

(5) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب جزء ثان ص 188.
Moulieras, le Maroc inconnu Tome I. page 352.

وفرق الفِرَق، وأدخل في قلوب الناس القاطنين بقصر كتامة[1] وشطره الروعَ والفَرَق، وتفاقم أمره، وتعاظم شره، وامتنع في جبل الكواكب[2] المسامتة للسحاب من غمارة. واستفحل فيه بالإدالة. وتمادى على الغواية، في بشر كثير من قبيله، هم من عدم الفهم، كسائمة[3] البُهْم، استصحبتهم الجهالة والضلالة، وفشى ضررهم، وساء أثرهم فاتفق الرأيُ السَّعيد، والنَّظرُ الموفق الحميد، من الموحدين أعزهم الله، أن يحسموا شرَّ هؤلاء المارقين الناعقين في الجبال، وشواهق الأدغال، فنظروا في تجهيز عسكرٍ مبارك سعيد من الموحدين أعزَّهم الله، تجهز به الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين أكرمه الله إلى بلاد صنهاجة[4] من جهة القلعة[5] [163] حرَسها الله. وقد كان الشيخ الأجل المرحوم أبو حفص تقدم قبله بمن كان معه منْ عَساكر الموحدين أعزهم الله في جهة أخرى من بلادهم المذكورة، فلما عظم شر هذا الشقي سبع بن منخفاد أهلكه الله كما فعل، تحرك الأمير الأجل، الرضى الأفضل، أبو يعقوب بنفسه وعساكره المؤيده، ومعه أخوه صفيُّه السيد الأعلى أبو حفص. وأخوهما السيد الأسنى أبو سعيد، رضي الله عن جميعهم، وتهدوا بعساكرهم المنصورة، المظفرة الموفورة إلى جبال غمارة المذكورة، فنازلوا

(1) قصر كتامة: هو الذي يحمل أيضاً اسم قصر صنهاجة أو القصر الكبير وربما عرف بقصر عبد الكريم نسبة له بأحد أشياخ كتامة الذين بنوا هناك قصراً لأول مرة ويعتقد بعض الباحثين أن هذه القرية كانت قاعدة رومانية لكن المصادر العربية تذكر أنه في القرن الثاني للهجرة أسست بها قبائل كتامة. الاستبصار، نشر سعد زغلول ص 189 - 190. أحمد المكناسي: خريطة المغرب الأركيولوجية تطوان 1961 ص 20. دوكاستري. فرنسا السلسلة الأولى. المجلد 1 ص 174، تعليق 3.

(2) يسميه ابن أبي زرع جبل تيزيران، وهو عرف من الزارات يعني جبل النظر الجميل، ويسمى جبل الكواكب لأن قمته تناطح النجوم، يرتفع عن سطح البحر بألفي متر.
الادريسي، نزهة المشتاق ص 64. ابن أبي زرع 184 - 185 الاستقصا، جزء 2 ص 132.
Mouliéras, Le maroc inconnu Page 160.

(3) اقتباس من الرسالة الموحدية الآتية ص 187.

(4) قبائل صنهاجة شمال غمارة مجاورة لها. انظر التعليق رقم 1 ص 210.

(5) حول القلاع الموجودة بغمارة. انظر المصدر السابق ص 292 - 393 - 399.

فيها الشقيُّ الغوي سبع بن منخفاد في أصلابها، وأحاطوا على أعدائهم في ذراها، وسبوهم واستأصلوهم، وأخرجوهم عن صياصيهم بجبالهم وأجلوهم، وغزوهم غزواً شافياً وفتح الله لهم أرضهم، وأملكهم عقارهم ومرفقهم، وقتلوا الشقيّ، وبلغهم الله في أعدائهم الأمانيا[1]، واتصل لهم وبهم الفتح في جبال صنهاجة بالطوع من أهلها والمتاب، وكان الانصراف من الجميع بالنجح وحسن الانقلاب، وسعيد الاياب. ولما كان الإياب من هذه الغزوة المُظفَّرة المذكورة أمر الأمير الأجل، الرضي الأعدل، بإعلام الفتح بها بهذه الرسالة، وخاطب جميع الموحدين والطلبة الأشياخ ببلاد العدوة والأندلس بكيفية الغزوة والفتح الشامل، الآتي بكَتْبه أهل الأصل، ومقتل الشقيّ الغوي [164] سبع بن منخفاد الغماري وصَلْبه وهي من إنشاء[2] أبي الحسن بن عياش:

بِسْم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً والحمد لله وحده.

من الأمير يُوسف بن أمير المؤمنين أيَّدهم الله بنصْره وأمدَّهم بمعونته، إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بمدينة غرناطة، أمدهم الله بتوفيقه، ووصل كرامتهم بتقواه. سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته. أما بعد فإنا نحمدُ الله الذي لا إله إلاَّ هُو إليكم، ونشكره على آلائه ونعمه، ونشري بالمحافظة على ذلك مَزِيَّ عَطَايَاه وجزيلَ قسمه، ونعترف لَهُ بعوارفه الجميلة في إظهار أمره العزيز واعلاء قدمه، ونشْر لوائه في كل مقام ورفع عَلَمه، وإن له مع كل متعرِّض بالمحادة والشقاق، مُنْطوٍ على المداجاة والنفاق، من وَشيك أخذه، وعاجل نقمه، ما يُوكِّله سخطُ الله ومُعتدٌ قِممه، ويقف به مما جَنَى من ثَمَرة غَرْسِه، وحتى يحتله الأثيم على

(1) كذا في الأصل بإثبات الألف.

(2) من أطول الرسائل الموحدية وأدلها وصفاً، وهي سجل لتاريخ حوادث غمارة، تقع في خمس عشرة صفحة.

نفسه ، مواقف حيرته وندمه ، كما أن من صدق في الاعتلاق بحبله والتمسك بعصمه ، وركن إلى قراره وآوى الى حرمه ، فقد أخذ بالوثيق من عهود ذممه ، وارتقى في مرتقى فوزه في سببه المتين وسلمه ، ونصلي على محمد رسوله ونبيه الذي ابتعثه بإمام حكمه ، ومعجز كلمه ، فهدى الى نهج الحق وأممه ، ودل على سمته وأقمه ، وأنار برسالته [165] الجابعة ما غطى من غياهب الضلال وظلمه ، وأبلغها حنيفية سمحة الى عرب الأنام وعجميه ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، شافي النفوس من وصبه وألمه ، ومبريه من علل دائه وسقمه ، وهادي كل حائر وسالم من خبرائه وسدمه ، ونوالي الدعاء لسيدنا ومولانا الخليفة الإمام أمير المؤمنين بمحكم ذلكم المبدأ الشريف ومبرمه، وضام شمله ومنتظمه ، ومكمله بما يجب ومتممه ومنهي دعوته العالية إلى نجد العالم وتهمه ، وواسع البرايا بعلمه وحلمه وكرمه . والحمد لله عوداً بعد بدء ، مولي أوليائه ما وعدهم من نصر وتأييد ، ومولاهم على الظهور والاستيلاء ، في القريب والبعيد ، ومؤويهم من مظاهرته الى الوزر المنيع ، والركن الشديد ، حمداً ينال به من مواهبه كل خير عتيد ، ويوفي على استعداد المستجد ، واستزادة المستزيد ،وله الشكر على أن لم يزل ينهض حماة أمره العزيز متى حاولوا لفضل قضية ، ونهضوا في سداد ثغر وسداد رعية ، بعزم لا يطرف طرفه بدء ، ولا يثني يده يد مشوبة ، تعريفاً بما لأمره العزيز الذي هو ذخيرة الوجود ، وسر البناء المقصود ، ومغنى المقام المحمود ، ومفهوم الخبر المنتظر ، والوعد الموعود ، والذي علم به التوحيد والإيمان ، وعرف منه العدل والاحسان ، وتعلم من تعاليمه في أي جانب الربح ، وفي أي جانب الخسران من الفتح ، [166] في كل مقام ، والظفر بكل مرام ، والتوفيق الى ما يعود بالانتظام والالتئام ، وحفظ دينه من عبث المهج الطغام ، وحماية شرعه من ضعفاء العقول ، وسفهاء الأحلام ، فمن دان بدينه ، واستبصر بيقينه ، واسرى بضوئه ، واستشفى بنوره ، فقد فاز قدحه ، وأورى قدحه ، واهتدى قائده ودليله ، وانقطع صداه وابتل غليله ، ومن ألحد في آياته ، وكذب ببراهينه وبيناته ، فإلى التباب مآله ، وفي الخيبة

والخسار حاله ، ومقاله وفعاله ، أعانكم الله على القيام بما له من واجب الحق ، ووهبكم الإقبال على قبول ما جاء به من الصدق ، بمنه ، وإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم يسراً ونجحا ، وأسمعكم مدى الأيام نصراً لأوليائه أمره العزيز فتحاً ـ من منزل الموحدين أعزهم الله بداخل جبل الكواكب ، والذي نوصيكم به تقوى الله ، والعمل بطاعته ، والإستعانة به ، والتوكل عليه ، وقد كنا ، ـ وفقكم الله الى ما يرضاه ، وأسبغ عليكم نعماه ورحماه ـ بما لله علينا من عهد القيام بحقوق هذا الأمر العزيز ، والحياطة لأرجائه ، والذب عن جوانبه ، وتجديد العناية لتصفية مشارعه من الأقذاء ، وتحلية المحوّمين عليها من أهل الأهواء ، والقصد لما يراه من تذكير الغافل ، وتبصير الجاهل ، وإقالة العاثر ، وهداية الحائر ، ـ توجهنا إليها بالحركة المباركة بنية خلص لله عقدها وصفا له ـ تعالى جده ـ مقصدها ، وارتبط [167] للجهاد في سبيله ميثاقها المذكور ونهضها ، وانبنت على حسم الأدواء النازلة بهذا المغرب من هذه الفرق التي فارقت الجماعة ، فتفرقت بها السبل والأهواء ، وورث بها في مساقط الفتن الأفئدة الهواء ، واستولى عليها بعض البصائر والأبصار التلدد والالتواء ، فظلت من عدم الفهم ، كسائمة البهم ، بشراً بدداً ، لا تميز من غي رشداً ولما صدقت لها العزائم وشدت اليها الحيازيم ، ووقع على قصدها التعويل والتصميم ، فأبنا بين جهة المرتدين من صنهاجة وغمارة ، فرأينا غمارة ، أو في سرابة ، وأبلغ نكاية ، وأفصح عن استصحاب الجهالة والغواية ، وأنهم قد طفا ضررهم ، وساء أثرهم ، وتعدى أذاهم ، وسرت عدواهم ، وأنهم أولى من تقدم إليهم واعترم عليه ، فنظرنا عند ذلكم في تجهيز عسكر مبارك سعيد من الموحدين أعزهم الله صحبة الشيخ أبي سعيد يخلف بن الحسين ، أكرمه الله بتقواه ، يتوجه به إلى بلاد صنهاجة من جهة القلعة حرسها الله وكان الشيخ الأجل أبو حفص ـ أدام الله كرامته ـ بمن معه من عساكر الموحدين ـ أعزهم الله ـ في جهة أخرى من بلادهم ورسم لهم من العمل في تلك الجهات ما تحرج في طيه بمشيئة الله تعالى من النصر والفتح ، والفلج والنجح ، استخرنا الله تعالى على قصد بلاد غمارة المرتقل جبالهم ،

وقوّس [168] منازلهم وحلالهم وبحوّس خلال ديارهم ، فنزلنا بالموحدين - أعزّهم الله وسط بلادهم ، فأجْلَى منه الذين يلونه لائذين بالأوعار ، مستعصمين بقنن الأحجار ، متوقّلين في الشّعاب . وكنّا عند وُصُولنا الى أوائل بلادهم ، قدّمنا اليهم من المكاتبة ما رجونا به هدايتهم ، وأملنا فيه فَيْئَتهم الى الحقّ وإنابتهم ، فلَمْ يعرجوا على نصيحة ، ولا أذعنوا للدعوة ، ولا أرعوا سَمْعاً الى موعظة ، وحين قامتِ الحجة عليهم ، وسقط العذر عنهم ، استخرْنا الله على قصْد الجبل المَعْرُوف بودكة[1] لاحتلال مَن كان احتله من غمارة ، والقين بأنه عصمتهم المنجية ، وذروتهم المؤوية ، فتركنا الحمولة والأثقال في المنزل الذي كنّا فيه وهو المعروف بالمنزال[2] ، وسِرْنا اليهم بالموحدين أعزهم الله متوكلين على الله تعالى ، مستعينين به ، مخلصين له ، فأجْرَى الله أولياءه من النصر والتمكين ، على ما عوّدهم ، وعرفهم من عونه وإنْجاده ما لَمْ يزل يعرفهم ، فاقتحموا عليهم في منعاتهم ، ودخلوا اليهم في موضع اعْتِصامهم ، فلم يكن إلا كلا ولا[3] ، حتى خلصوا في الجبل اليهم ، واقتحموه - بحمد الله تعالى ومشيئته - في جملة واحدة عليهم ، فاشْرَب المرتدون ارتياعاً ، وتفرّقوا

---

(1) جبل ودكة: يقع شمال بني زروال، ويرتفع عن سطح البحر بثمانمائة متر، تبلغ مساحة غابته ثمانمائة ألف هكتار، تسبح به خنازير مديدة وتسكنه مختلف الوحوش تكتسي قممه بالثلوج طيلة الشتاء، ويوجد بالجبل شعبة يخرج من أسفلها دخان يفسره العلم بأنه من آثار بركان غير أن السكان يفسرون ذلك الدخان إلى أن ملكاً جان شاباً في زوجته فهو يحترق داخل قبره.

Moulieras: Le maroc inconnu Page 67 - 68 - 75 - 89.

عبد الرشيد الفاسي الفهري: قبيلة بني زروال: نشر المركز الجامعي للبحث العلمي التابع لكلية الآداب الجزء الثاني والعشرون 1962 صفحة 15 - 16 - 17.

(2) المنزال: لم نهتد إلى تحقيقه من خلال كتب الجغرافية القدامى، ولا يوجد له ذكر عند موليراس.

(3) يقصد: كالنطق بها كناية عن السرعة، أي ما دخلوا معتصمهم حتى وصلوا إليهم في الجبل واقتحموه عليهم، وقد استعملها مهيار في قوله:

يا من رأى بالنقى سرباً تشعع ببرق الجلبوب
كلا ولا بتشتيتا شراه بطلع المعصرات يصيب

وفي قوله:

تشف رأيت الإبلا سراعاً كلا ولا؟

وكذا الحريري في أواسط المقامة التاسعة والثلاثين بقوله «فلم يكن إلا كلا ولا حتى برزنه...»

في تلك الأعيار شعاعاً ، لم تمنعهم حصونُهم ولم تنفعهم معاقلُهم الى أن استولى الموحّدون أعزّهم [169] الله بأقلّ كلفة الحقّ ، وأقبلوا على جَمْع الأنفال ، وقسمّ الغنائم والأموال ، وتسنّى فيه من الفتح المبشّر ، والنصر المؤزر ، وغزوا من غلب عليه الشّقاء واسْتولى عليه الحرمان ، إلى ما نفلهم الله فيه من الغنائم الكثيرة ، والأرزاق الواسعة ، ما عظُم مقدارُه ، وجلت مرافقه وآثاره ، وبشر بأنّ الذي يتلوه منّا في غمن الوعد ، وكفالة السعد ، أبهى مطلعاً وأتم مَرْأى ومَسْمعا ، وأقام الموحدون أعزّهم الله بأعلى ذلك الجبل يومين يتفرُّون بقاياهم ، ويتتّبعُون فلالهم ، ويجمعون أسلابهم ، ويتكوّرون فيهم متنسمين من عوائد الله الجميلة نواسم تكْميل الفتح ، ومستروحين منها استرواح تتميم النصر ، والقين به ومستندين اليه ، لا رَبَّ غيره . وكان ذلك كلّه في الثالث من شهر رمضان المعظم من سنة اثنين[1] وستين وخمس مائة ، ولم نزل - بعدما فتح الله من هذا الفتح المذكور ، الذي أظهر الله فيه آياته المؤذنة بالتأييد ، القاضية باسْتمرار النُّصْر الراهن العتيد ، الموقظة للنّائمين ، والمنبّهة للغافلين - نتأنّى بالضّالين من غمارة مواقيت انتبارهم ، ومحالّ تنبّههم وادكارهم ، وأن يأخذوا النحوب أمثالها ، وترقب احتلالها ، الْفَيْة حذرهم واستشعارهم ، وأن يكونوا ممن اتّعظ بغيرهم ، فكانوا بنجْوة [170] من سبلهم في الهلكة ، وإنْذارهم مع ما أمرناه من راحة الموحدين وأجسامهم ، وتفرغهم لوظائف صيامهم وقيامهم ، وأن يكون غزوُهم بعد الفطر على قوة ووفرة ، ونشاط متمكن ، وتنقل بهم مناقلُ تتخلّل بهم تلك الأوعار بالرّفق والهُوَيْنى ، وتتدرّجُ الى قطعها وتخليقها بالتؤدة والأناة ، ونتقدم الى حيْثُ ألقى الشيطانُ بركه وحطّ رحله . وفي أثناء ذلك كانت قبائل منهم تُظْهِرُ المتاب ، وتبدي التّبة والإياب ، وتلوذ بأكناف العفو ، وتستمسك بأسباب الصفح ، وتمدُّ يد الضراعة الى الاستقالة ، فنقابلهم بعوائد

---

(1) نرى أن الرسالة الرسمية تذكر سنة اثنين وستين وخمسمائة، وهو ما ينقله ابن عذاري وابن أبي زرع وابن خلدون، ويذكر صاحب الاستبصار أن ذلك تم سنة 561 ولا ندري مصدره في ذلك.
البيان المغرب صفحة 27 ـ القرطاس ثان 185 ـ العبر سادس 498.

هذا الأمر العزيز من إقالة العثرة ، وتجاوز الزلة والسقطة ، وتقريب الأسباب المؤدية الى الاستيلاف ، الآخذة بالأيدي بالتلافي عن مقاحم التلاف . قد حلَّ منهم قبائل كثيرة في هذا الأمر العزيز ، وتداركهم من رحمته ما أمَّن خوفهم ، ومكَّن أمنهم ، وكان بتونال[1] وشَونال من قبائل غمارة المختصون بملكة الجبل المشهور بالمنعة ، المعروف بجبل الكواكب الذي هو أشْهَرُها جيلاً ، وأوعرُها مُرتقى ، قد استحكم فيهم الفساد ، وتمكن منهم الارتداد واستشرى ذلك فيهم بغويٍّ منهم يعرف بسُبَيع بن مُنخفاد ، أشرب وتمكن منه الإرتداد ، قلبُه وخالط إيثار الشُورة نفسه ، ثقةً بهذا الجَبَل الصَّعْب المَوالج ، المُبْهم المَناهج المستغلق المداخل والمخارج ، الذي زاحم بمنكبيه [171] وتطاول بأنفه ، فلمنكبه الصم الذي لا يُفرع ، ولأنفه الشَّمم الذي لا يُقرع ولا يُجدع ، قد أغواه هو واخوته ، ولفَّ قومه مَن يليهم ، واستهوَوْا على مقاصدهم الغوية مُتماليهم ومُحالفيهم وحسبوا أن ما اعتصمُوا به يعصمهم ، وما امتنعوا به يمنعهم ، وأن باب الحوادث عنْهم نَاب ، وطَرْف الحوادث في مجال التوصُّل اليهم كاب ، فلجُّوا في طُغْيانهم ، واستمروا على غلوائهم ، وقرعوا مع ذلك أبواب المماكرة ، وسلكوا في سُبُل المُخادعة . ولما تحققوا دُنُوَّنا إليهم ومزاحمتنا لهم ، أقبلوا يحلطون بالكذب الصُّفْر ، ويُسرون في الارتقاء الحسْو، ويتصفون في أقوال يمرون بها حَبْل المُطاولة ، ويرفعون بها أسْباب المراوغة ، ليحوزوا بها مأمولهم من الاسْتبداد ، وغرضهم من الاستزاء بأقوال لا محصول لها ولا فائدة وراءها ، مكشوف فيها سرُّهم ، مُبيَّن فيها مكرُهم ، ويظنُّون أن ذلك يُقنع منهم ، ويصْرف عنان العزيمة عنْهم ، وما عَلِمُوا أن هذا الأمر العزيز لا يجوز على نقْده الزائف ، ولا يستقر على تقويم

[1] تنال (بالنون) وبنال (بالباء) أخوان من غمارة، تفرع بنال إلى بني زيات وبني سلمان وبني منصور... وتفرع تال إلى بني خالد وبني رزين... وإلى تال ينتسب أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الغماري التالي المتوفى سنة 951.
ابن القاضي: الجذوة صفحة 261 ـ محمد العربي الفاسي: مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، الكتاني: السلوة أول صفحة 111.

عقله الجائر الحائف ، وأنه على ثقة من الله تعالى بعقب الأيام ، وتيسير المرام ، وتوفيق النقض والإبرام، وإن من اضطمر له على خبيئة ضغن ، أو انطوى له على كيئة غش ، فالعصمة له من كلِّ ذلك واقية ، والعزة له دائمة باقية ، وسما أعملوه من حِيَل المخاتلة [172] أن سَعى في الوصُول إلينا جملةٌ من أشياخهم مع أخ لغَويِّهم ، وموقد نارهم يعرف بعمران بن منخفاد[1] ، فوصلوا على تأمين يسر لهم مدركه ، وسُهِّل عليهم مسلكُه ، فلقوا من التَّطمين والتسكين ، والتأنيس والتأمين ، وقبول التوبة ، والإغضاء عما فرط من الحوبة ، ما يعقل العقول بعقل وثاقها ، ويوفُر على الفرار مياه حيائها ، وعُرِّفوا بما لهذا الأمر العزيز من إرادة الخَيْر التام ، والبر الشامل العام ، وأن يكون نهجُ البرية قاصداً ، وداعيهم الى النَّجاة والحياة واحداً ، لا تتفرَّقُ بهمُ السُّبل ، ولا تتطرَّق بهم الى تُنَيَّاتها الطُّرُق ، وضمنوا عن مَن وَرَاءَهم من غويِّهم الشقي وأتباعه السلوك على مدارجهم ، والجري على مناهجهم ، وأنهم يقتادونهم بزمام الارتجاع ، الى الانقياد والانطياع ، فمضوا على ذلك ، وقد حُسِّن فيهم التأويل، والظن الجميل، وعزائمهم على النكث مبيَّتة، وضلُوعهم على الغَدْر مطوية محْنية ، وكان انفصالُهم عَلَى أن يحضروا هم وجميعُ من وراءَهم من تابع ومتبوع معنا عيد الفطر بالمحَلاَّت المنصورة ، فكان وعدُهم كذباً وبرقهم خُلّباً، وانكشف بعد ذلك في الغَدْر قناعهم ، وأبدتْ ما تكنه من العداوة جوانحهم وضلاعهم ، وانْفسح عندنا ما كانت تمتدُّ اليه آمالهم ، وتُسرع نحوه أطماعهم ، وعند ذلك ، في توجيه [173] الموحدين الى جهاتهم الجدّ ، ولم يك لنا من فَصْل هذه القضية فيهم بُدّ . فاستخَرْنا الله على أن وجَّهنا لغزوهم أخوينا أبا حفص وأبا سعيد ابني سيدنا أمير المؤمنين ـ أدام الله علاهم ـ مَعَ الموحدين ـ أعزهم الله ـ ، وسألناه جلَّ وعلا أن ينجز لأوليائه ما وعدهم ، ويجنبهم من الظُّفر بأعدائهم على ما

[1] يستأنس ابن صاحب الصلاة بذكر عمران بن منخفاد وكِتابه . القرطاس ثاني صفحة 185 ـ ابن خلدون سادس: 498 - 580 ـ الاستقصا ثان 132.

عوْدهم ، وتوافقْنا مَعَهُم على الارتقاء اليهم لـذلك البـاذخ الشـامخ ، والشـامخ
الشـاهق ، والمرتدُّون قد وثقوا به ، وبرؤوا من حول الله وقـوته اليـه ، وأودعوه
مع نُفوسهم جملة أهْليهم وأمـوالهم ، وبنَوا منه ـ بما بَدا من أحوالهم ـ أنّهم
يُجدُّون في المُحاولة ويصدقون في المكافحة ، ولا يخون جهداً في المكاثرة
والمكابرة ، كـاشفين قنـاع المبـاداة ، ومُبْدين صفحـة المعـاداة ، فـأجمع
الموحدون ـ أعزهم الله ـ أمره ، وأخلَصُوا لله سرّهم وجهرهم لا يجعلون ملجأ
سنَدٍ ، الى كثرة عدد وعدد ، بَلْ فوّضُـوا أمرهم الى الله تعالى الذي وعـدهم
الفتح وعـوّدهم النُصـر ، فـأنهضناهم اليهم يوم الاثنين الخـامس من شـوال
يسلكـون اليهم في مسـالك حرجـة ، لا يسلكهـا السـالك الى[1] بَيْن غَيْضَـة
وحَرجَة ، قـد التفّتْ بشعرائهـا ، واحتفَّت بشُجْرانها ، ذات خـنـبٍ وآكـام ،
لاثبات فيها للحوافر ولا للأقدام ، فـاتصل مَشْيُهم على مـا أخذوا من أهْبَتهم
واعدُّوه من عدّتهم وكتّبوه من كتائبهم ، ورتّبوه من رتبهم ، في هـذا الشـميخ
[174] الموصوف ، والمرتدون قد أخذُوا عَلَيهم أعاليه ، وارتكبُوا دونهم قنّة
سادين لانقابه ، مُتوكّلين لمسالكه مُخلّفين للانصا[2] من قُرّاه ، والانقضاض
من عُلاه ، واستمر بالموحدين أعلاهم الله اليُسْر ونهضت بهم العزيمة ،
واستقل بهم التّصميم ، والتوكل بقُوّدهم ، والثّقَة بالله تحدوهم ، الى أن
شـارفوا حدّ السّنَم ، وأفضُوا الى بـاب التوقل ، وهناك تقف الأقدام عن
الإقدام ، وقد اضطروا الى أوعار لا تمكن من ترقّيها ، ومقابلة أعداء لا يدري
كيف تَوقّيها ، ومشـاهدة أحـوال على الجملة لا عَهْـد بتلقّيهـا ، والأعـداء
يتربصون بهم وقوعهم في مثل هذه الحال ، وحصولهم في مثل هـذا المقام ،
ويرون أنهم بما حَازُوه من عُلُوّ مكانهم ، واستحفُّوه من نُبُوة وعرهم ، وأمْلوه
من التصوب على مَنْ مدّ اليهم يد مُحاولة ، أوراموا منهم تيسير مُنازلة ، أنهم
رابحو الصفقة ، مُرْتفقوا الخطّة ، ولله تعالى من العناية بأمره ما يسهل

(1) هكذا في الأصل والصواب الا.
(2) هنا كلمة لم نهتد لتحقيقها ويشبه أن تكون: «للانصباب».

الصَّعب ، ويذلّل الوَعْر ، ويلين الشديد ، ويقرّبُ البعيد ، ولما انتهى الأمر
الى هذا المَوْقف ، ووصل الى هذا الموصوف ، ورأوا صدقَ العزيمة ، ومضا
الصـريمة ، في الصُّعُـود اليهم ، والتّرقّي نحوهم ، غير مترقب مكرهم ، ولا
متخوف وعدهم ، جهد الأعداء في اللقاء جهدهم ، وبذلوا من المكـافحة
جميعَ ما عِنْدهم ، ولم يُبقوا نكاية إلا أبدوها ، ولا غايةً إلا استوفوها ، من كلّ
[175] فَنّ وعلى كلّ وجه ، فـأفرغ الله على أوليائه الصبـر ، ومكّن لهم
العزم ، وثبت أقدامهم ، وربط على قلوبهم ، وحرّف الفشل والرُّعب عنهم ،
وأيدهم بروح منه أوطأهم به ، مسالك يَبعُدُ في العادة أن تثْبت بها قدم، أو
تسعى فيها رِجْل. وكان من أغرب الآيات أن صارت الخيْل فيها أثبت من
الرجْل بل من الطّير ، فأضحوا قلائد في أجيادها ، وأطواقاً في أجسادها ،
وأهبّ الله لهم ريح النّصر ، ومنحهم أكتاف العدو ، وأخذهم الله هنالك أخذاً
تنوع فيهم العذاب ، وتحقّق به فيهم الانتقام ، فمن بين منصرع بدمه ، ومرتبك
في مزلّة قدمه ، وفارّ الى حيث لا مُعْتصم ولا ملجأ ، الى حيثُ لا وزر ،
واستولى الموحدون ـ أعزهم الله ـ على الجَبَل كلّه ، واستحقّوه على أهله ،
وضربتْ به خيامُهم ، ورُفعتْ في أعلاه أعلامُهم ، واقتفوا أثر الفارين في كلّ
شعب ، يقتلونهم قتلاً ، ويشلونهم شلاً ، لا ناصر لهم ولا مانع منهم ، قد
أسلمتْهم ذنوبُهم ، وأخلفتهم ظنونهم ، وأفضوا الى جميع ما أعدّوه فيه
معهُم ، وكان في العزّة عليهم مثل أنفسهم من حرمهم وفنون أموالهم ، الى ما
كان آوى اليهم من حُرَم غيرهم وأموالهم ، ونفله الله أياهم مغنماً كريماً جليلاً
وعطاءً جسيماً جزيلاً ، رحمة منه وفضلاً ، وإحساناً منه وطولاً . وخلا هذا
الجبل المذكور من أهله ، وأضحى يباباً بلقعاً كأن لم يَغْنَ بالأمس عبرةً
للمعتبرين [176] وذكرى للذاكرين ، وخاطبونا ـ أعزهم الله ـ بهذه البُشرى
لحين وقوعها ، مبادرين الى ذلك لقرب المسافة التي كانت بيننا وبينهم ، فإن
مشيهم الى هذا الغزو وحركتهم له وتصرفهم فيه ، كان مَنّا بمرأى ومطلع ، لم
ينكتم عن عياننا ، كيف كان ارتقاؤهم اليهم ، وتسنّمهم نحوهم ، وعرفوا أنهم
في اليوم الثاني من هذا الفتح الكريم يُوالون تفتيش زواياهم ، والتنقيب عن

خَبَاياهم ، ففعلوا ذلك وحَصَّلوا منه ما وجدوه ، وأضافوه الى ما غنموه ، ولم يسمع بعد هذا التعقيب في التقليب دعاء داع هنالك ولا إجابة مجيب ، وهؤلاء القوم ومَن انضاف إليهم ممن وقعتْ به هذه الواقعة ودارتْ عليه الدَّائرة ، هم مقدّمو غمارة ومستنبعوها ، ومُغووها ومضلوها ، وهم كانوا شوكتُها الشاكية ، وشورتها الشارية[1] ، وكان قطب رحاهم ، ومدبر حربهم ، وقائدهم في يومهم ، والذي انتهى اليه عنوانُ أمرهم ، ذلك الغويّ الشقيّ سُبَع بن منخفاد ، وهذا الجبل هو الذي كان أبلقهم الفرد[2] ، الممتنع على من رَامَه ، المستصعب قديماً على من كاده ، فقد استفتح مَشْنُوعه ، وخلتْ من الظَّالمين ربُوعه ، وهُدّت ـ بفضل الله عزّ وجلّ ، وبركة هذا الأمر العزيز ـ أصُوله وفروعُ ، كان فلهم وقلهم قد انحجزوا الى أحجار لا تستقل بمنعتهم ، ولا تفي بحمايتهم ، وكان هذا الشقيّ [177] المذكور يوم الفتح قد فَرّ بِرَأسِه ، ناجياً من ذلك المأزق بحشاشة نفسه ، وقد استبيح أهله وماله ، فسلك سبيل الانجحار ، وأمعن في زوايا الاختفاء والاستتار ، ولما أتى أمر الله تعالى على هذا الجبل وأهله بما ذكرناه ، تفلَّتنا بالموحدين ـ أعزهم الله ـ من المنزل الذي منه توجُّههم الى الفتح ، ونزلنا بهم المنزل الذي خاطبناكم منه ، واتُّصل تتبع هذا الفل ، وأخذ المراصد عليهم ، وتمادى ذلك وكل الجهات المجاورة لهذا الجَبَل المذكور ممن كانتْ أعيُنهم ناظرة . وألجأتهم الى ما يقع مصيبة ، قد رغبوا في الإقالة . وألحوا في التوبة . وسعوا في إحراز دمائهم وأموالهم ، وتسويغ برد العافية لهم ، وكل من قرع هذا الباب فهو له مفتوح ، ومن استنجحه ، فهو على عوايده مبذول مَمْنُوح . وفي خلال ذلك وافى من

(1) شكى : قتل وجرح يشكي نكاية وثورة شارية ثارت السهام في الرمية: اعتزت فيها، ولعل الصواب: الشارية، أي الوثابة.

(2) حصن السموأل بن عاديا، وهو مشرف على تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب وفيه يقول السموأل:

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره ... يعز على من رامه ويطول

ياقوت، معجم البلدان ـ أنظر دائرة المعارف الإسلامية، أول ص 65.

صُنْع الله الجميل الذي لم يزل يصاحبُ هذا الأمرَ العزيز في كل مقام ، ويتكفل له في كلّ مبدأ من مبادي ظهوره بأفضل خاتمة وأشرف تمام ، ما جَمَله الله لهذا الفتح العظيم كمالاً ، واستوفى به مقاصده العلية استيفاء ، وذلك ان الشقيّ الغوي لمّا لم يجدْ نفقاً يُؤويه ، ولا مدخلاً يجنح اليه ، أوى الى بعض تلك الجبال ، واطمأن الى بطانة له من غمارة وثق بإيوائهم له ، واشتمالهم عليه ، مولياً عن أمر الله تعالى ، مكابداً له ، مصمماً على الأعراض عنه ومتربِّصاً [178] به من الدوائر ما أوقعه الله به ، فلعناية الله بهذا الأمر العزيز وفق الله تلك البطانة ، وأراهم رشدهم بالتقرُّب الى هذا الأمر العزيز ، والتفادي منه ، والتعدي عن شومه ، والانتزاع عن شرِّه ، وما تحققوا من سوء عاقبته ، فوثبوا عليه واستوثقوا منْهُ ووصلوا به مقتاداً برمته ، مشهراً بفضيحته ، مقتفداً بعاره ، آيةً لمن أبصره ، وعبرةً لمن نظره ، ومكّن الله الموحدين منه فتزى عُزْوَاً[1] شفى صدور المؤمنين ، وأقرّ عيون الموحدين ، وبتّ في أعْضَاء المارقين ، وأطفأ الله به نار الفتنة ، وأخمد به ضَرَمَها ، فإنه كان الحاطبُ لها والمسعر لوقودها ، وكمل به هذا الفتح العظيم ، والصنع الجسيم ، ومقدار هذا الفتح المصنف والنصر المفتّن إذا وفر عليه حقُّه وحقّق له قسطه ، وزن بموازنه ما لاتقوم به أقوال القائلين ، ولا يبلغ حقيقتُه إطنابُ المطنبين ، لأنه جاء من نفحاتِ رحمة الله تعالى التي يُصيب بها من يَشاء من عباده ، والحمدُ لله الذي جَعَل أولياءه ممنُوحين من نَفَحاته ، ومعظم عنايَاته ، بما يَعرفهم اختصاصهم بِفَضْله ، وتميُّزهم بتأييده ونصْره ، ولهُ الحمدُ كثيراً . وعرفناكُم بذلك مشروحاً لتحمدوا الله تعالى عليه ، وتأخذوا بحظكم منه ، وتعطوه حقّه من الإشاعة ، وتولوه واجبَه من النشر والإذاعة ، فقد انحسمت به أدواء كانت في حد الإعضال ، [179] وأخمدت نيرانٌ كانت من الفتن في

(1) تذكر بعض المصادر أن رأس سُبَع بن منخفاد حمل إلى مراكش بينما تقول أخرى أنه حمل إلى فاس ، ويظهرُ أن الرواية الثانية تصْدُق على فاس باعتبارها كانت الطريق لمراكش.

ابن أبي زرع : القرطاس جزء ثان ص 185.

Moulièras, le maroc inconnu 352.

اصطدام واشتعال ، وستكون آياتها منبهة ، وعبرها مذكرة ، يصلح بها القاسد ، ويستقيم بها المائل ، ونسأل الله تعالى أن يوزع شكر آلائه ، وينهض بما حمل من أثقال أمره العزيز وأعبائه ، بفضله وكرمه . والذي نفل الله الموحدين أعزّهم الله من ضروب المغانم والأنفال ، وذلك من البقر اثنا عشر ألفاً ، ومن الغنم سبعة وعشرون ألفاً وثلاث مائة ، ومن السبي[1] ثلاثة آلاف وست مائة وسبعة وأربعون ، ومن الدوابّ ستمائة وسبعة[2] عشر وهي الآن متصلة متتابعة ، فلله الحمد على ما أولى أوليائه من الخَيْر السوابغ ، والنصر الكريم المتتابع ، لا رَبَّ غيره ، والسلام العميمُ الكريمُ عليكم ورحمة الله وبركاته . كتب في الرابع عشر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة .

وهذه الرسالة كافيةٌ بتاريخ فتنة غمارة والفتح فيها فاقرأها . وكتب السيد الأعلى أبو حفص عن نفسه ، صحبة هذا الكتاب الكريم ، معرفاً بالفتح أيضاً ، الى الشيخ الحافظ الأجل المرحوم أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بما [180] هذه نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم من عمر بن أمير المؤمنين ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم ، أدام الله كرامته بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة على محمد رسوله وعلى آله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، والدعا لسيّدنا أمير المؤمنين ولوليّ عهده الأمير الأجل الملك الأسعد أبي يعقوب بدوام التمكين ، والفتح المبين ، فالكتابُ إليكم ، كتب الله لكم نعماً ثرّة وأعمالاً برّة ، ـ من منْزل الموحدين أعزّهم الله بجبل الكواكب ، وفتوحُ الله لأوليائه متصلةُ النظام ، مؤيّدة الأعلام ، آخذة بمجامع الكمال والتمام ، فإنه تبارك وتعالى يسر للموحدين هذه الجبال الصعْبة ،

(1) يعني من الأسرى.
(2) يلاحظ أن ابن صاحب الصلاة هنا يبدأ قراءة الاعداد من الأرقام الكبرى، بينما عهدت قراءتها من الأرقام الصغرى حتى تنسجم مع العادة العربية من البدء بالقراءة من اليمين لليسار: ثلاثمائة وسبعة وعشرون ألفاً، وسبعة وأربعون وستمائة وثلاثة آلاف...

والمعاقل الأشِبَة ، التي كان أهلُها قد بطروا وأشروا النّعمة ، وشقُّوا عصا الجماعة ، وأجابونا عن الفتنة ، فوصل الموحدون اليهم واستأنوا بهم آخر الأجل في التّبصرة والتذكرة والاستتابة ، فكان منهم من راجَعَ الحقّ وتلافاه الله واحد بحجزته عن النّار ، فاولئك نجحُوا وأحرزوا أموالهم وعيالهم ، ومن يهد الله فهو المهتدي ، واستمر سايرهم على اللّجاج والعناد ، وظنّوا أن معاقلهم مانعتهم مِنْ أمْرِ الله ، ومن يُضْلِلِ الله فلن تجد له [181] سبيلاً ، وما زال الموحدون يَسْتنزلونهم من هضابهم ، ويستخرجُونهم من شعابهم ، حتى أتوا عليهم قتلاً وسبْياً ، وكان مِنْ آخر ذلك هذا الجبَلُ العظيمُ الشان ، المنيف من هذه الأرض على كلّ مكان ، وكان فيه رأسُ غوايتهم ، وعميدُ ضلالتهم سَبُع بن منخفاد الشقي مدارُ قومه ، ألحق الله به أمثاله ، وكان قد ضم اليه أمّةً عظيمةً من الأشقياء زاعمين أنّهم يتحصّنُون من الموحّدين فيه ، ولا عاصِمَ مِنْ أمْرِ الله إلا مَنْ رحِمَ ، فاستعان الموحدُون بالله وصَمَدوا اليهم وقاتلوهم على نصْفِدة قتالاً شديداً أجْهَضَ الأشقياء عنْه وردّهم منه ، وفرّ الشقي المذكور ، وأفْلَتَ مِنْ ذلك الهوْل ، وأوى الى بَعْض قبائل غمارة ، فشَرّح الله صدورَهم ببركة هذا الأمر العزيز ومَنْعه ، فأعلنوا الشقي وجاءوا به أسيراً موثوقاً ، فنزي فيه ورُفع جذعُه ، وعفي أثرُه وكمل أمر الله في هذه الجهة ، وانجلت عنها غَيَابَةُ الكُفْر ، وفاض عليها نُورُ العَدْل وانسكَبَ فيها غمام الإحسان ، والحمدُ لله ربِّ العالمين ، وهي نِعْمَةٌ عظمى وفتحٌ أعظم يَجب أن يُعرف قدْرُه ، ويوفى شُكْره ، فخُذوا حظّكُم من المسرّة بما مَنَح الله إخوانكم الموحّدين وخوّلهم من الخيرات ، وأفاء عليهم من المغانم التي جَلّ قدرُها ، وعظُم خطرُها ، حسب ما جرتْ به عوائد الله لِهذا الأمْرِ وأهْله . جعلنا الله مِمّن شكر [182] نُعْماه ، ونُصر حزبه بمنّه وكرَمِه ، ووصلَ ـ أعزكم الله ـ كتابكم البر وفّقنا عليه ، وشكرنا اهتبالَكُم ، واستعنّا الله لكم ، واستوهبناه لكم الكرامة والإمداد بالتوفيق ، فكذلك تزالون المُطالعة ، وتشكرون على أعمال الخَيْر والبر ، والله وليُّ عونكم ، والسلامُ الجزيل عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه .
كتب في الرابع عَشَر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة .

(منازلة أبي عبد الله بن أبي إبراهيم لحصن لبسة)

وفي أثناء هذه الغزوة المنصورة غزا الشيخ[1] الحافظ الأجل المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم حصن لَبْسَة المتوسط بين مدينة أغرناطة ووادي آش ، وكان هذا الحصن قد أسكن فيه محمد بن مردنيش جملةً ذميمة منكية من أخلاف النصارى أهلكهم الله ، أمرهم ان يغاثِرُوا بِه تحصن مدينة اغرناطة المذكورة ، يوالوا الإذاية منه عليها ، فكانت شجى في حلقها لما نالها من الإذاية مر فُوقها ، فعزم الشيخ المرحوم في نفسه عزيمةً أعانه الله تعالى عليها وطرق الله بعسكر أغرناطة ورجالها ، ونازله وفتحه غلبةً على النصارى الطاغين في يومه . [183] وغزا جميع مَن كمن في داخله ، ورفع الله بجهاده واجتهاده عظيم عُدوانه ، وغنمه وخرّبه في ساعة من زمانه ، وانصرف الى أغرناطة ظاهراً مجاهداً ، ولله تعالى ناصراً ، فأعلم الحضرة العلية بفعله وغزوه وجدِّه ، فجاوبه الأمير الأجل الرضي الأعدل أبو يعقوب رضي الله بهذه الرسالة الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد رسوله وعلى آله من الأمير يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنَصْره ، وأمدهم بمعونته ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم والطلبة الموحدين بأغرناطة ، أكرمهم الله بتقواه ، ووفَّقهم لما يرضاه ، سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه ، أمّا بعد : فإنا نحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعميه ، ونصلي على محمد نبيّه ورسوله ، ونسترضيه عن الإمام المعصوم ، المهدي المَعلوم ، القائم بأمر الله تعالى والداعي الى سبيله ، ونصِلُ الدُّعاء لخليفة سيدنا أمير المُؤمنين المتهيفي بتتميم أمره تعالى وتكميله ، وكتبناه إليكم - أتمّ الله نعمته عليكم - من حضرة مراكش ، حَرَسها الله ، والذي نُوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته ، والاستعانة به

(1) تحت كلمة الشيخ الحافظ يوجد إلحاق بأحرف صغيرة منمحية يشبه أن تكون: ودامت عصمته، أو دعاء من هذا القبيل.

والتوكل عليه وقد وصلت الينا مكاتباتُكم ووقفنا منها على [184] ما ذكرتُم من استبشاركُم بما منّ الله تعالى لأولياء أمره من الفتح والنصر ، وبمَا شاء الله للموحدين هُنالك من غزو المجسّمين[1] ، واستنقاذ ما كانُوا اغتنموه وانتظام أموركم كلّها على الخيْر والصلاح ، وتمكن أسْباب الأمن والدّعة ، والحمد لله على ما مَنّ من صُنعه الكريم ، وفَضْله العميم ، فجدّدُوا شكرَ الله تعالى على آلائه ، وتوكّلُوا عليه واسْتمرُّوا بالشُّكر المزيد من فضله ، والمعتاد من رحمته ، وهُو الكفيل تعالى بإنجاد أَوليائه ، وإعزاز حِزْبه وجنْده ، والّذي ذكرتُموه من اختلال أحوال المجسّمين الشرقيين وتبدُّد شمْلهم ، فتلكم عادة الله تعالى فيمَن ناوى أمرَه وأعرَض عن جانبه ، والله يُنجِز فيهم وَعْده ، لا ربّ غيرهُ ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله . كتب في التاسع من ذي الحجة سنة ثنتين وستين وخمس مائة .

ولما انصرف الأميرُ الأجل الأعدل من فتح جبال غُمارة غالباً منصوراً الى حضرة مراكش حرسها الله قال أبو عمر بن حربون قصيدةً حسنة يمدحه ويهنئه على استلائه على أعدائه وقتْله لهم وهيَ هَذِه : (كامل)

[185] بَلَغت[2] بكُم مُنجح ، الكتاب المنزل
ونصرتم نصر النبي المرسل
وحلوتم غمرات كل دجنّة ... لو أنّ صُبحاً زالها لم تنجل
وجنبتم هوج الرياح جنائبا ... وسريتم إلّا نيام إبل الهواجل
ونخنخنتم - والله يشكر سعيكم -
في عرصة الأعداء فيل المحفل

(1) كان المهدي يسمي أصحابه بالموحدين ويسمي خصومه المرابطين بالمجسّمة لأنهم لم أخذوا بالعدول عن التأويل للمتشابه من القرآن والحديث فقد صاروا - في نظره - مجسمة وهذا كان يحافظ في ذلك ويصرح بأن جهاد المرابطين أوجب من جهاد الكفار وتلك سفسطة من المهدي لم تلبث أن تكشفت للناس.
الاستقصا ج1 ص 100 . راجع صفحة 216 .

(2) رواه ابن عذاري بلغت أو بلغْتُ: البيان المغرب 57 .

جيش يغص به منادح الفلا … فيحار منها مجهل في مجهل

طابت لكم ريح الجلاد كأنما … يتعرفون هناك عرف المندل

ما زلتم تفترون يوم نزالها … بالعنبر أسياف الخطوب النزل

حتى تجلت في منصة نقعكم … عذراء ترفل في رداء القسطل[1]

شنعاء إن تبع العدو بإثرها … ذئب الضراء لها ذئب الأقزل[2]

حتى الذي هو خلف بحر زاخر … سمعك سمعه بهذا الأرسل

لم تشعرون التجريح على العدى … جيشاً لنا ذي السماك بالعزل

أورثتموهم للمهند لجة … جمعت جواهرها بنان الصيقل

لما أتى الجبل المقدس منكم … عزت لنطوله رواسي الأجبل

من كل تبغض القذال كأنما … ركبوا به متن الحصان الأرحل

نظم النجوم قلادة في نحره … واجتاب إسراء الغمام المسبل

لو قيتم منها مراقي لم تجد … ترقى بها قدم الصبا والشمال

ووطئتم حبل الكواكب وطأة … هدت لصعقتها مناكب يذبل[3]

والتاج نور الله يشرق فوقه … من عزة الملك الأجل الأفضل

[186] فتبركت تلك المعاقل منهم … والمعقل لمن رزقوه أمنع معقل

ما غرهم بخليفة الله الذي … ما لامرئ عن أمره من معدل

ضرب الشقاء وجوههم بضلالة … ساقت بهم في حوز ليل أليل

واستعجلوا أمر الإله فجاءهم … والويل كل الويل للمستعجل

فجنوا لها من فتنة قد سولت … لنفوسهم الآمال صيد الأجدل

بطشت بهم كف الردى لما أبوا … أن يكلوا حضر المقرح المفضل

وغدا غويهم بدار مشيفة … تهوي إلى درك الجحيم الأسفل

(1) القسطل في الأصل الغبار، ويكنى بها عن الحرب: قال الشنفرى:
لئن تبتئس بالشنفرى أم قسطل … لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول
(2) الأقزل: نوع من العرج.
(3) يذبل: جبل في بلاد نجد.

يمسي ويصبح في ذؤابة منبر … يحط العطاة ومناله من مقول

جاءوا به باب الرواق[1] يقادني … ببرد الهوان مقادة المتسربل

لله كيف طوحته بضربة … رفعته عن نجبة الأعز الأنبل

يا ذل شقي الأشقياء وعزهم … إذ خلفوا عن ورد هذا المنهل

نور الهداية بمغرب وبمشرق … لم تعم عنه غير عين مضلل

الأمر أمر الله قد حفت به … في اللوح أقلام القضاء المقبل

صدع الهدى فيه بنص واضح … يقضي نشأة لواحظ المتأمل

رضي الإله عن الإمام المصطفى … وسقته أخلاقه[2] السحاب الهطل

أنى لسيدنا الخليفة جيشها[3] … فزع الشجاع إلى الحسام المفصل

وقضى لخليهم الكريم بحقها … حتى إلى اليوم العماس الأهول

فالآن قد هدأت وقر قرارها … عند التقي الزاهد المتبتل

لم تعبه الدنيا بهجتها وقد … جعلت تغازله بعيني مغزل

[187] قرنت به غبن الخلافة إذ رأت … قسطاً لها بيمين الإمام الأعدل

إن الخليفة إن تأخر عصره … فقد احتوى خلق الزمان الأول

نزع الشباب وقوله قد أقبلت … يا حسنه من مقبل في مقبل

ملك تسح على الورى بركاته … فتعم سائلها ومن لم يسأل

أنى تساجله البحور وإنما … في فيض جدواه كبعض الجدول

هنئت مولانا أبا يعقوب ما … خولت من فتح أغر محجل

قلدت جيد الملك منه تميمة … ما إن يبيت لها بمثل الأرجل

قد جاءت الدنيا إليك بوزرها[4] … واستقبلتك بوجهها المتهلل

والحضرة العلياء يرقب طرفها … منكم سنى البدر المنير الأكمل

(1) ويقصد دون شك باب القبة التي نصبها الأمير الأعدل في جبال غمارة.
(2) الغراء، ابن عذاري ص58.
(3) نفسه، المصدر السابق.
(4) لم نتبين بالضبط هذه الكلمة، ولعلها: يؤزرها، أو بزينتها.



خصر اللسانُ وتاه في أوصافكم … فأبكمها حيرة المتحمل

وكان الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين قد توجه بالأمر العزيز أدامه الله ومعه عسكر مبارك من الموحدين أعزهم الله إلى جهة المرتدين من صنهاجة بجهة القلعة على ما تقدم الذكر به في الرسالة الكريمة المكتوبة في هذا التاريخ[1].

وكان الشيخ الأجل المرحوم أبو حفص بمن معه من العسكر من الموحدين أعزهم الله قد تقدم بجهة أخرى من بلاد صنهاجة المذكورين ورسم لهم من العمل ما وُدعوا عليه فنهضوا واجتمعوا وجدُّوا له في غزوهم وسعدوا ، فلما فتح الله جبال غُمارة ، واستُوصلوا سبياً وقتلاً ، وقتل شقيهم الغوي [188] على ما شرح في الرسالة الكريمة ، واتصل خبر ذلك الفتح العظيم بصنهاجة ومن جاورهم من أهل الجبال سُقِطَ ما في أيديهم ورغبوا بجميعهم ، وتطارحوا على الموحدين أعزهم الله في قبول التوبة ، وتضرعوا في الحَوْبة ، فقبل الشيخ الأجل أبو حفص رغبتهم ، واستقال حوبتهم ، وأعلم الأمر العزيز بذلك ، فصفح عنهم ، فحين انصرف الأمير الرضي الأعدلي إلى مراكش من غمارة انصرف الشيخ الأجل أبو حفص والشيخ أبو سعيد بمن كان معهم من العساكر المؤيدة ، وأعلموا بما اتفق من الطوع والمتاب ، وبما كان من الظفر والبشر وحسن المتاب ، وعرفوا بطوع المتزي[2] بحصن أسمار[3] ونزوله عنه ، وتمكين الموحدين أعزهم الله منه .

(1) راجع صفحة 162 من النص بالإحالة.
(2) كتبت كلمة المتزي في المخطوط على شكل أوهم الأستاذ ويسي فقرأه: المتي (Al Matti) وقد [illegible] إلى قراءة أول الأمر هكذا: بالمتنبيء على أنه منحدر من أسرة حاميم بن من الله الذي ادعى النبوة في جبال غمارة سنة 313. لكن بعد أن وقفت في (الاستبصار) على نص المخطوط تأكدت من أنه بالمتزي، أي الراتب المتعلق إلى الحصن المذكور.
الاستبصار ص 191 . الاستقصا أول ص 192. Huici page 251.
(3) لم نعثر على تحقيق موقع هذا الحصن بالضبط (Asmar) ولم نجد له ذكراً بين الحصون المتصلة بجبال الكواكب التي ذكرها الادريسي من أمثال حصن سطاسة، حصن أسلان . . . ويظهر أن هذا الحصن هو الذي يشير إليه ابن حريرة في شعره:
وتنقل ما أعطى منشاته البادي … أسمر منحدر الفرقدين بمستترا .

فقال أبو عمر بن حربون[1] قصيدة حسنة يمدح بها الأمير الأجل الأعدل ويهنئه وهي هذه : (كامل)

وَجَدَ النَّسِيمُ ثَنَاءَكُمْ فَتَعَطَّرَا … وَرَأَى الوَشِيجُ مَضَاءَكُم فَتَأَطَّرَا[2]

وَتَبَسَّمَتْ أَيامُكُم عَنْ النِّعَمْ … سَبِيعَ الغَمَامِ بِذِكْرِهَا فَاسْتَعْبَرَا

وَجَرَى لَهَا مُلكُ السَّعَادَةِ بِالَّتِي … خَتَمَتْ عَلَى كِسْرَى[3] وَمَلَّكَتْ قَيْصَرَا[4]

سُلْطَانُ وَضَّاحِ الجَبِينِ مُتَوَّجُ … يَطْوِي تَقِيُّ الجَيْبِ أَشْعَثَ أَغْبَرَا

[189] والدِّينُ والدُّنيا معاً قَدْ وَدَّنَا … بِرِدَائِهِ الفَارُوقُ وَالإِسْكَنْدَرَا

جَمَعَ الإِلَهُ بِهِ الوَرَى فِي وَاحِدٍ … فَتَبَارَكَ الرَّحْمَنُ مَاذَا قَدَّرَا

وَأَتَى بِهِ الزَّمَنُ الأَخِيرُ مُقَدَّمَا … فَكَأَنَّمَا الفَلَكُ المُدَارُ تَقَهْقَرَا

مَلِكٌ تَضَعْضَعَتِ الهِضَابُ لِبَأْسِهِ … وَغَدَا لَهُ الزَّمَنُ العَنُودُ مُسَخَّرَا

فَالطَّوْدُ لَيْسَ ثَبَاتُهُ عَنْ جِبِلَّةٍ … لَكِنْ لِهَيْبَتِهِ أَلَمَّ وَوَقَّرَا

لإِمَامِ عَدْلٍ بِالعِبَادَةِ نَاشِئٍ … لَمْ يَصْبُ مُذْ عَقَدَتْ يَدَاهُ المِئْزَرَا

فَالمَاءُ لَوْ أَلْقَى طَهَارَةَ ثَوْبِهِ … فِي مُزْنَةٍ لَغَدَا بِهَا مُتَطَهِّرَا

يَجْلُو الظَّلاَمَ بِنُورِ غُرَّتِهِ الَّتِي … فَضَحَتْ أَشِعَّتُهَا الصَّبَاحَ الأَنْوَرَا

مَلِكٌ تَنَاهَى مَعْشَرٌ لَمْ يَعْبَئُوا … فِيهِمْ لِدَعْوَتِهِ العَلِيَّةِ بَشَّرَا

لَمَّا دَعَاهُ الدِّينُ دَعْوَةَ مُرْهَقٍ … لَبَّاهُ مَنْصُورَ اللِّوَاءِ مُظَفَّرَا

فَالَيْكَ مِنْ صِنْهَاجَةٍ مَا قَدَّرَهَا … فِي مُلْكِ مَنْ يَغْزُو المَسِيحَ الأَعْوَرَا[5]

* وقد يكون أيضاً مقصود ابن عبد الحكم حينا يقول:
أما كمُشْتُهم بسمار وسالمات … ربما ورقها تلك الأماسيل .
انظر ص 189 - 207. Huici page 231.
(1) ابن عذاري في البيان يكنيه بأبي بكر ويذكر أنه حربون بالراي . . . ولا يخفى ما به . . . أنظر التعليق رقم 1 ص 125 - ابن عذاري ص 59.
(2) يرويه في البيان المغرب هكذا: الوشيج . . . فتطرا . صفحة 59.
(3) كسرى Cosroes لقب لكل ملك من ملوك الفرس.
(4) قيصر Cesar لقب لكل ملك من ملوك الروم.
(5) المسيح الأعور هو الدجال الذي سيظهر في آخر الزمان.

صافوا بحِلْمٍ لو عَداهُم أصْبَحُوا ... عِظةً لمن سَمِعَ الحديثَ وأبصرا

وتبرأت منهم ذوي عصبانهم ... وأتى المحيص بعقلهم مُسْتَغْفِرا

صُمُّوا عن الداعي إلى أن أسمعوا ... لوقوع بأسك في غمارة جرجرا

فتقدَّموا مستبْلين ولو أتوا ... لم يستطيعوا عنكمُ متأخرا

ولقلَّ ما اقتفى مشاهدته الذي ... أمسى سمير الفرقدين بسمرا[1]

لم ينجُ من سطواتكم إلا امرؤٌ ... قد جاءكم من ذنبه مستغفرا

أولى لهم من بأس كلِّ غضنفر ... لقضى منه أن يزور غضنفرا

يهوى اللواء من العجاج ممسكاً ... والسابريّ من النجيع مزعفرا

[190] ويخال صفحة كل نهر مرهفاً ... وتودُّ كلُّ قضيب دوحٍ أسمرا

قومٌ إذا سمت النفوس لقتبةٍ ... لم يفتنوا إلا قنا وسنوّرا

ورقوا بأنفسهم مراتب غريبةً ... جعلوا القبيَّ لها الجياد الضُّمَّرا

يا من تواضعت الملوك لأمره ... وكفى لها عزاً بذاك ومفخرا

يُمِنَتْ وجوه[2] الذين منك بعزمةٍ ... لبس الحسام لها الرداء الأحمرا

تلقى لها أثراً بكل ثنيةٍ ... وترى لها في كل أفق عثيرا

أشبهت والملك الرضى في همّه ... فقرنت بالغزو الغزاة والقرى

لولا المحبة في الجهاد وأجره ... لكفاك سعدك أن تجهز عسكرا

أبشر فكل صباح يوم إنما ... يأتيك بالفتح المبين مبشرا

وأصبغ لذكر «اليوسفية»[3] إنها ... نعت معاني الشعب من أن تذكرا

ديباجها من حسن خلقك جنةٌ ... وسقيها من جود كفك كوثرا

(1) يظهر أن المقصود حصن أسمار المتقدم الذكر ص 250 ولعله هو نفس المقصود من (السمار) راجع التعليق رقم 3 ص 250.

(2) كذا في الأصل، ولعل الصواب (وجه) حتى يستقيم الوزن.

(3) في ابن عذاري: واصبغ لذكر اليوسفية. لكن ماذا يقصد باليوسفية هل يعني بها مدينة مراكش وتكون النسبة إلى الخليفة نفسه. هذا ويوجد الآن بالمغرب قرية تحمل اسم «اليوسفية» لكنها حديثة.

فإذا شبيط الظل رفَّ بزخرف ... أقسمت بها كفُّ النسيم الجوهرا

لو أنها مما تقدم عصره ... لقلى الوليدُ الجعفريَّ وجعفرا[1]

كانت كظهر الترس ترباً صحصحاً ... فنسجتها لِلْمجتبى روضاً أخضرا

وتخيل الخطيُّ حسن ثمارها ... فغدا يرى في وجههم قد أثمرا

جاءت قريحتكم بكل عجيبةٍ ... أفنت على الألباب أن تتصورا

فإذا الذي أركضوه بديهةً ... قد تاه فيه الأقصى متفكرا

جلَّت علالكم أن يحاط بوصفها ... حتى تساوى من أطال وقصرا !

فإليكموها إن أعيرت لحظةً ... خجلت فأسدلت القناع تخفرا

[191] حجّتك جاعلة بيتك ركنها[2] ... وجنابك الخضل المريع المشعرا[3]

وكان السيد الأعلى أبو حفص رضي الله عنه قد تحرك من حضرة مراكش الى غزوة المنافقين المرتدين بالجبل سنة اثنين وستين وخمس مائة المؤرخة ففتح الله له شره وقطعه، وسهل له وعره أجمعه، وغزا المنافقين المرتدين وانصرف منصوراً، سالماً موفوراً.

(1) يعني بالجعفري قصر المتوكل العباسي قرب مدينة سر من رأى، وما تزال الى الآن بعض من أطلاله على ما رأيت، كما أنه يعني بجعفر صاحب القصر المذكور الملقب بالمتوكل. أما الوليد فلم أهتد للمقصود منه، وربما كان يعني به الصفة لا العلمية أي الطفل الوليد، والشاعر يهدف دون شك إلى القول بأن «اليوسفية» التي أُنشئت من حسن خلق الخليفة وسقيت من كوثر كفه كانت تحمل معاني الأولين من ملوك بني العباس، ولذلك فإن الفرق بينها وبين تلك المباني واضحة للأطفال بله الرجال الذين يزورونه... فلو رأى الوليد اليوسفية لأبغض قصور جعفر العباسي. إقرأ صفحة 209.

(2) تلميح الركن اليماني أحد أركان الكعبة، ويذكر أن رجلاً من اليمن كان هو الذي بناه، وأنشدوا لبعض أهل اليمن:

لنا الركن من بيت الحرام وراثة ... بقية ما أبقى أبيٌّ بن سالم

(3) يعني المشعر الحرام وهو جبل بآخر المزدلفة واسمه قزح.

فقال أبو عمر أحمد بن حربون الشلبي المذكور يهنئه على ذلك ويمدحه : (وافر)

بسعدكم دنا الأمل القصيّ … ولولاكم لما دان العصيّ
هو الفتح الذي جلّى الدياجي … وطار بذكره الخبر الجليّ
ملأت الخافقين[1] به سروراً … وأنت بمثله أبداً مليّ
فقد ورثت وراثة الذين منكم … بماضي الغرب[2] ليس له كفيّ :
وقرّ خليفة الرحمن عيناً … بما منّاه سعيكم الزكيّ
نضى منكم لنصر الدين سيفاً … بحدّيه الحسام المشرفيّ
البيت بها منهورة تهادى … كما برزت منصتها الهدي
[192] فقدّ من المضاعف لها قميص … وصيغ من الحديد لها حليّ
ولم يبعد عليك مدى منيف … يحلّق دون ذروته الحنيّ
قليل شامت الشعفات أعلى … الى الجوزاء فهو لها نجيّ
سموت الى ذؤابته بعزم … بمثل غراره يفري الفريّ
ولم تشغل بذاك الهول بالاً … كأنّ رماح عاديكم عصيّ !
تثبت وقد تخاذل كل منهم … فما عرف الجبان ولا الكميّ
فما نجموا بساربة بتلك جماعاً … وقد قنيت من العلق الفنيّ
تنادوا يوم مشغلة نادٍ … قلب منك طب الحوذيّ[3]
والتفت بركبها او تحاوله … فجلاّها الهمام الهبرزيّ
رموا بشرّ ثبت الكفين ... … مخالبه السنان السلبيّ
إذا لمح الفريسة لم يجمجم … به عن اخذها إلا شقيّ
ليهنئنا أبا حفص هناكم … ونهنى الذين فتحكم الهنيّ

(1) الخافقان: الشرق والغرب.
(2) غرب كل شيء: حده يعني حد السيف.
(3) سقطت بعض الحروف للناسخ ولذلك نلاحظ اعتلال الوزن ولعل الأصل:
تنادوا يوم مشغلة بناد ....

ولا زالت صوارمك المواضي … وفيها من ضياء عداك ريّ
إذا الهيجا بليلكم ادلهمّت … أنار منوّر بشركم النديّ
تغاير فيكم علي الليالي … فيحمد فيكم الصبح العشيّ
إذا ما رام وصفكم بليغ … انبرّ لسانه حصر وعيّ
وكيف يطول باع الوصف فينا … بقصر عن مداه الأعوجيّ
على ذاكم فدونكم مديحاً … يرفّ بروضه الزهر النديّ

[193] وكتب أبو عمر المذكور الى السيد الأعلى أبي حفص يستأذنه في المشي الى بنيه بشلب ، وكان ملتزماً عنده يكتب له مع الكتاب : (البسيط)

يا خير من عبد الرحمن ، عبدكم … يشكو اليكم فراق الأهل والولد
فإن أذنتم له في ان يطالعهم … فهذه دارهم منه على صدد
وليس ذلك ببدع من مكارمهم … فكم يد قد شفعتم جندها بيد
يا ابن الخليفة قد ألبستني نعماً … أذكت بقلب عدوّي جمرة الحسد
فإن البرّ والرضا منكم يصاحبني … فلست أرهب خطباً آخر الأبد

وكتب إليه أيضاً مع نثر من الكلام : (بسيط)

هبني ثنيت بي الأوطان لبعدكم … أني جواركم بتنسيني الوطن ؟
وليت لي حرمة دنيا أمتّ بها … إلا الذي اوجبته منكم المنن

وفي هذه الغزوة السعيدة غزوة الجبل، أمر السيد الأعلى أبو حفص رضي الله عنه أبا عمر بن حربون أن ينشئ قصيدة شعر على لسانه يتشوق فيها إلى أخيه الأمير الأجل الأعدل أبي يعقوب رضي الله عنهم وذلك في سنة ثنتين وستين وخمس مائة [194] فقال أبو عمر المذكور : (وافر)

سلام أيها الملك الهمام … على ناديك دام له السلام
ولا زالت لك الأيام سلماً … وصبّ على أعاديك الحسام
فأنت إمام هذا الخلق طرّاً … تفنّى ما زال لا زال الإمام

بكم تتكشف الغماء عنهم   وينقع غلة الأرض الغمام
فلولاكم لكان الثغر أورى   جموعاً لا ينهنهه لجام
ولولا دولة أيدتموها   لما عرف الحلال ولا الحرام
ولا خطت على الأرض القوافي   ولا سجعت على الدوح الحمام
سهرت الليل في طلب المعالي   ونام بشبين دعوتك الأنام
بخوة يذكرك الرعية نهضاً   ويمضي بالتمك السيف الكهام
ويكسب حمدك الأفواه طيباً   فتحسده الأراكة والبشام
أرى حجج الأعادي داحضات   وقد أدلى بحجتك الحسام
أدانتم كل جبار عنيد   فقد ذهب التخمط والعرام
ولي الله انتجبت التناهي   بسعدكم وفرطت الشهام
وحكمت الأمور على رضاكم   وتم لكم على الزمن احتكام
وسيم الخسف كل أبي عناد   ودان لأمركم حام وسام[1]
فقد بسمت ثغور عن ثغور   وحق لها بدعوتك ابتسام
جلوناها وجوهاً نيرات   وقد غطى سنى الشمس القتام
وخاضتنا بالبنود العوالي   فكان الفلج وانقطع الخصام

[195] فنحن لمن يواليكم شهاد   ونحن لمن يعاديكم سمام
على الجبل المكرم[2] حيث ضاقت   عباب البحر أعمقك الجسام
تلاقتنا بأشواق إليكم   مشاهد المقدسة العظام
تطلع نحوكم حباً وودّاً   كما تطلع البلد[3] الحرام
جنبناها بيمنكم كراماً   على صهواتها عرب كرام
إذا انتشروا رماحهم تدلى   أحم الشفع وانحط الجسام

---

(1) حام وسام ابنان من بني نوح عليه السلام. ويُعتبر حام أبا السُّود كما يعتبر سام أبا للبيض، فالقصد إذن أن البيض والسود جميعاً دانوا لحكمه!.
ابن خلدون: العبر، سادس ص 185.
(2) يعني بالجبل المكرم: جبل الكواكب المتقدم الذكر.
(3) يعني بالبلد الحرام: مكة، والبلد يذكر ويؤنث كما لا يخفى..

أبى الضيم إن أمروا بأمر   فكل عزيز [?] مستضام
إذا قادتهم أبناء نمير   فلا لخم تعد ولا جذام[1]
لهاميم الخطايا لم يزالوا   يلف عليهم الجيش اللهام
ألا لله منهم كل قرم   بقبل سيفه الموت الزؤام
ينهض إلى لقاء القرن حتى   كأن الطعن بينهما ذمام
يضم إلى العشيرة كل خير   كما تحمي عشيرته [?]
فقلنا تشرقين إلى شناكم   تباري في السموم بنا النعام
إذا الصنبر[2] عم كل قطب   ومال بأنفه بنه رغام
حثثناها يحوث بنا التراجي   لكي تشفى بقربكم الأوام
ولم نذكرك في الظلماء إلا   تكشف عنه ذكركم الظلام
يطول بنا الزمان فكل يوم   بشهر ولا نراكم فهو عام !
نبسم عنكم غر الليالي   كما ابتسمت عن الزهر الكمام

[196] حدثني من حضر في مجلس الأمير الإمام أبي يعقوب رضي الله عنه قال : لما أنشدت هذه القصيدة الفريدة المُنْبِهة عن صفاء الضمائر، وخلوص الإخاء في السرائر، من السيد الأعلى أبي حفص الى الحضرة العلية رأينا وجه الأمير قد انشرح مُحَيّاه، وانصبح عليها، وتهلل سروراً وبشراً، وتخيّلنا وجهه من نوره بدراً، فقام كلّ من كان في مجلسه العالي من الموحّدين أعزهم الله من طلبة الحضر، وقبّلوا يده وبايعوه، وأجزل العطاء لقائلها، واشتملت عليه البركات من شمائلها، وانصرف السيد الأعلى ظافراً سالماً ناصراً.

---

(1) لخم: حي من اليمن، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهلية وهم آل عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، وجذام كذلك قبيلة من اليمن نزلت بجبال حسمى.
عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة أول 1949 ص 174 جزء ثالث ص 1011.
(2) لم نتبين من قراءة هذه الكلمة، فلعلها الصنبر: نوع من الشجر؟

سنة ثلاث وستين وخمس مائة

خبر لتجديد البيعة فيها والاسمية بـأمير المؤمنين[1] لسيدنا الإمام أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم [197] قال المؤلف : في أول هذه السنة جمع الله القلوب بخُلوص الضمائر ، المؤذنة بالسعود والفتوح والبشائر ، من الآراء الموفقة ، والنفوس المصفقة ، بتجديد البيعة والتسريح بالاسمية المستحقة لسيّدنا ، فكمل ذلك بإجماع الموحدين - أعزهم الله - واستعلائهم لديْه ، فنفذ الأمر أدامه الله بكتاب كريم الى السيد الأسنى أبي ابراهيم إسماعيل بن الخليفة رضي الله عنه بمدينة إشبيلية معلماً فيه من البشر والبِشْر ما أوْفى على التّكميل والتّتميم بما اتفق من اجتماع الرأي السعيد ، والفعل السديد ، الذي اجتمعت عليه آراء الموحدين أعزهم الله وكانوا في ذلك من الله تعالى على يقين ، وحق مبين ، من تجديد ما ذكرتهُ من البيعة

---

(1) كان التلقب بأمير المؤمنين في صدر الإسلام خاصاً بالخليفة في المشرق من عمر بن الخطاب الى بني أمية إلى بني العباس من بعدهم، فلما قام عُبَيْد الله المهدي أول ملوك العبيديين بأفريقية تسمى بأمير المؤمنين لأنه كان يرى أنه أحقّ بالخلافة من بني العباس المعاصرين له في المشرق، وتبع صاحبُ الأندلس عبد الرحمن الناصر الأموي عبيدَ الله المهدي ورأى أنه - وسلفه كانا بالمشرق - أحق بالخلافة، وسلّمَ أن كلاً من العبيدي والأموي - قرشي من عبد مناف على ما في قاطعية الأولين وغيرهم من الكلام، ومع هذا لم يجرؤ أحدٌ على أن يستحوذ على هذا اللقب سواء ملوك العجم بالشرق، أو ملوك البربر بالمغرب اعتباراً للحديث: «الخلافة في قريش» فلما ظهر يوسف بن تاشفين وعظم سلطانه واتسعت مملكته بحيث يوفّي البلاد الى الخليفة وتسمّى نفسه بأمير المسلمين، وذلك - رعياً للخليفة - لم يتسوّر على التلقب بأمير المؤمنين، فلما ظهر الموحدون رأوا من حقهم أن يتلقوا هذا اللقب اتباعاً لما فعله الصحابة وكما تقول الرسالة الرسمية، أو لما يستوجبه اعتباراً لشرعه، وسياسته ورغَدِ العيش على أيامهم، وهكذا كان أول من فعل ذلك منهم عبد المؤمن منذ سنة 528 وتبعه على ذلك ابنه أبو يعقوب سنة 563 كما يقول ابن صاحب الصلاة وكما يقول ابن خلدون:

Ambrosio Huici: Un Fragmento inédito de Ibn Idari Hes Tamuda vol II 1961, p 61.

العبر - سادس ص 494 - الاستقصا ص 52 - 98 - 99 - انظر التعليق رقم 1 ص 186.

الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام، المجلد الأول طبعة خامسة ص 438 - 439. وراجع صفحة 202 - 209 من المن بالإمامة.

الرضْوانية ، والاسمية الإمامية ، للإمام أبي يعقوب سيدنا خلّدُ[1] الله ولعقبه السّعْد والتمكين ، ويأمر في الكتاب الكريم أن يأخذ النّاس بإشبيلية وجميع الموحدين من الذين بها وببلاد الأندلس التي تحت طاعة التوحيد أدامه الله كقرطبة وأغرناطة ومالقة وغرب الأندلس لعقْد البيعة الرضوانية التي بها يكمل دينُهم ويصْدُق يقينهم ، وبتجْديدها على أوْفى الشُروط من عُقُودها ، فوجّه السيد أبو إبراهيم إسماعيل نسخة الكتاب الواصل اليه من الحضرة الإمامية الى الشيخ الحافظ المرحوم : [198] أبي عبْد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بأغرناطة فجمع الحافظ أبو عبد الله الناس بها على الاستيفاء والاحتفال ، والوفور والكمال ، وقُرئ عليهم الكتاب الكريم بمحضرة فوق المنابر ، واتصل خبره عند الغائب والحاضر ، فبادروا الى البيعة الرضوانية وقبولها والتّسريح بالاسمية الإمامية ، وتنسموا ريحَ السّعادة من قبولها ، وصادفَ هذا النبأ السارُّ من جوانح الموحدين وجميع جوارح الصّنْف الأندلسي أفئدةً تهوي اليه قبلاً ، وتوجد الى رضا الرحمن في التزامها صدقاً مخلصاً لهم وعملاً ، لمثليتها الواضحة ، وتجارتها الرابحة ، ولمَا يُرْجى عند الله تعالى من الجزاء على الأعمال الصالحة . وكتب أهل إشبيلية ببيعتهم وفيها إشْهادهم على أنفسهم بخُطوط أيديهم وأسمائهم بما هذا نصُّه ، ووجهها السيد أبو إبراهيم إسماعيل صحبة كتابه الى الحضرة العلية مع بعض أشياخ إشبيلية ، ونسخة البيعة هذه من إنشاء أحمد بن[2] محمد :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم ، الحمد لله الذي جعل الإمامة قواماً للحق ، ونظاماً للخلق ، وتمامها على الذي أحسن

---

(1) هنا فضاء وأصل كلمة: (؟) أنسب به.

(2) لم يذكر ابن صاحب الصلاة نعتاً ولا نسباً ولا لقباً لأحمد هذا، ولم يرد اسمه أكثر من هذه المرة، وأظن أنه يعني به أبا العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن مقدام الرعيني الاشبيلي لأن كان صاحب أبا بكر ابن العربي في وِرْده على مراكش لبيعة عبد المؤمن سنة 542، فقد ظل بعد عودته على صلة بالسادة الموحدين وقد توفي أواخر سنة أربع وست مائة. ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص 77.

برعاية العدل والرفق ، وأوجب الاعتصام بطاعتها ، والانتظام بجماعتها والصلاة على محمد نبيه المبعث بنور الحق الساطع الأضواء ، المبلغ [199] عن الله سبحانه بأكمل وجوه التبليغ والإنهاء ، وعلى آله وأصحابه الذين والوه بالنصر والإيواء ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المخصوص بأثرة الاصطفاء والاجتباء ، والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين الخليفة المرتضى ، متمم أنوار الهدى ، ومجلي غياهب الظلماء ، وللإمام الأجل الأهدى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين بدوام النصر والاستيلاء ، واستصحاب الظهور والاعتلاء ، أما بعد فإنه لما اجتمعت طائفة التوحيد ، وهم الذين تحضرهم من الله حاضرة التوفيق وينظر اليهم نظر الاقتداء والاهتداء ، من وراءهم من أهل الحق والتحقيق ، على تجديد البيعة المباركة لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين خلد الله أمرهم ، وأعز نصرهم بالاسم المبارك الكريم الذي أول من دعا به الفاروق رضوان[1] الله تعالى عليه ، فعرف الله من يمنه ما فتح إيالة الإسلام شرقاً وغرباً ، وأحال النكر بيد سالبهم فاستحالت غرباً ، حتى ضرب الدين بجرانه ، والتقى الناس بعطن[2] يمن يمنه وأمانه ، فجددنا من بيعته على الإسبة المباركة فرضاً أوجبه الشرع وجوب الإلزام ، واقتضى الوفاء شروطه المؤكدة على الكمال والتمام ، فبايعنا على السمع والطاعة بيعة إيمان وأمانة ، وعلى [200] وعبادة ، والتزمناها في اليسر والعسر ، والمنشط والمكره ، واعتقدناها عصمة ديننا ، وذخر معادنا ، وتمسكنا منها بالعروة الوثقى والعصمة

(1) روى البلاذري أن بلالاً كان يقف بباب رسول الله ويقول السلام عليك يا رسول الله... فلما ولي أبو بكر كان المؤذن يقف ببابه ويقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله... وفي خلافة عمر بن الخطاب كان المؤذن يقول: السلام عليك يا خليفة خليفة رسول الله لكنه منعاً لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبي بكر أمر عمر بن الخطاب أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة: أمير المؤمنين.

حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ج1 ص 438 - 439.

(2) العطن: مبرك الابل حول الماء. وهنا إشارة إلى حديث الصحيحين عن ابن عمر وأبي هريرة في الرؤيا النبوية: حتى روى الناس وضربوا بعطن، مثل يضرب لاتساع الحال وكثرة الفتوح.

التي من تعلق بحبلها وأوى الى ظلها فقد اعتصم بالجانب الأمنع الأوقى ، علماً أنها البيعة الرضوانية ، والدعوة التي تكفل بنصرها وإعلاء أمرها العناية الربانية . عليّنا بذلك عهد الله الأوكد الالزم وميثاقه الأغلظ الأعظم ، وذمته التي لا ينقطع حبلها على مرور الزمان ولا ينصرم ، مستبصرين في هذه البيعة الكريمة بنور الاهتداء ، سالكين في التزام الطاعة المحجة البيضاء ، عارفين ما أمر الله سبحانه من طاعة الخلفاء ، والله سبحانه يحفظ بها اكناف الإسلام ، ويجعلها كلمة باقية على مرور الأيام ، بفضل الله ويمنه . وعلى تضمن ما نص فوق هذا التزم أهل إشبيلية كافة . وكتبوا على ذلك شهاداتهم في النصف من جمادي الأخيرة سنة ثلاث وستين وخمس مائة .

وكذلك كتب أهل أقرناطة بيعتهم أيضاً وفيها إشهادهم على أنفسهم بخطوط أيديهم وبمحضر الشيخ الأجل الحافظ المرحوم ابي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بما هذا نصه : [201] ووجهها الشيخ المرحوم المذكور مع بعض أشياخ أقرناطة الى الحضرة العالية ، وبكتابه الى أمير المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنه ونسختها ما يذكر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد وآله وسلم الحمد لله الذي جعل الإمامة عصمة للدين ، ونعمة سابغة منه تعالى للمسلمين ، ورحمة أراد بها - جل جلاله - هدي المهتدين ، وقوام المؤمنين ، تنظم بها عقد الأنام ، وتشم بارتباطها عقد الإسلام ، وأظهر بالتزامها ، بركة تمامها وانتظامها . والصلاة على محمد نبيه ورسوله الذي ابتعثه برحمته ، وأيده بقلبه وقدرته ، وأعانه على إعلاء أمره وكلمته ، وعلى آله وصحابته الذين آمنوا به ونصروه ، وآزروه وعززوه ، إذ اصطفوا إمامهم ، وقدموه وأخلصوا لله تعالى في طاعته ومناصحته أفهامهم ، وأعملوا في نصرته وحمايته إنفاذهم وأقدامهم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، الذي أظهر الحق بعد دروسه ، وأطلع للإيمان ساطع أنواره وشموسه ، والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين خليفته المرتضى الذي أشرقت أنواره ، وظهرت على

يديه بركاته المكتوبة وأسراره ، ويمثله لسيدنا ومولانا الإمام الأعدل ، الخليفة الصالح الأتقى لله عزّ وجلّ ، أمير المؤمنين أبو يعقوب بن أمير المؤمنين [202] بنصر تستقبل منه بركاته المضمونة ، وتتمهد بسعده الأسعد حوزته المصونة ، وتنهض عزماته في الزلاء(1) فما دونه .

أما بعد فإنه لما اختص الله تبرك وتعالى طائفة التوحيد ، بما هم عليه من العمل السديد ، والسبيل الحميد ، والسعي السعيد الرشيد ، اجتمعت نفوسهم بعد توفيق الله تعالى لهم ، ومستقبل سعد يدخرون فيه عملهم ، أن يجددوا البيعة المباركة لسيدنا ومولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين جدد الله لهم السعود ، وأمدّ لأمرهم العزيز التأييد الكريم والخلود ، بالاسم المبارك العظيم الذي أول من نطق له فيه عمر بن الخطاب فأقر ذلك لقبه لقباً واسماً ، وسمة لمعنى الخلافة ورسماً ، حين علم تحقيق ما به خوطب وبه كوتب ، فحمد الله تعالى وشكره ، واستحسن لمخاطبه بذلك ما سمّاه به وذكره ، جددنا الآن من بيعة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين أدام الله تأييدهم على الإسمية المباركة العظيمة الموسومة فرضاً أوجبه الدين والإسلام ، وحقاً اقتضاه شرع محمد نبينا عليه السلام ، واتباعاً لما فعله أصحابه البررة الخيار الأعلام الصحابة العشرة ، فبايعنا سيدنا ومولانا على السمع والطاعة ، ومنهج الجماعة ، بيعة إيمان وأمانة ، وعدل وعبادة ، تبركاً بأمرهم [203] واستنجاداً بالله تعالى على ما يجب فيها من طاعتهم ونصرهم ، اقتداء فيها ببيعة الشجرة ، وبأصحاب رسول الله المؤمنين البررة ، التزمناه في كل الأحوال ، وأخلصنا لها الضمائر في كافة الأعمال ، واعتقدناها شرعة وديناً ، وبادرنا إليها حقيقة ويقيناً ، فهي ذخيرتنا في المعاد ، وزادنا إلى يوم التناد ، وسعادتنا ونجاتنا يوم الوعيد والإيعاد ، علينا بالوفاء بعهودها ، وكمال شروطها

(1) لم نتمكن من التأكد من هذه الكلمة ولا من معناها فقد نقرأ الزلاء ، لكنها في أقرب الاحتمالات الزلاء بمعنى الناحية العظيمة .

وعقودها ، عهد الله الأصح ، وعقده الأنصح ، وذمته التي لا تضيع ودائعها ، ولا تبخس بضائعها ، متمسكين فيها بحبل الله الوثيق ، وأمره الحقيق ، سالكين في التزامها ، وإبرامها وتمامها ، ما يجب من شروطها ، وصحة ربوطها ، عارفين بما فيها من منهجها وشروطها ، والله تعالى يعيننا على أداء واجباتها ومفروضاتها بفضل الله تعالى وعلى مضمن معناها ، والتزام مبناها ، التزم الطلبة والشيوخ والكافة من الموحدين بقصبة أغرناطة ومدينتها وكتبوا على ذلك بشهاداتهم وخطوط أيديهم على أنفسهم ، وذلك في النصف من جمادى الآخرة من عام ثلاثة وستين وخمس مائة .

وهذه نسخة الرسالة التي وجهها [204] الشيخ الأجل أبو عبد الله مع البيعة السعيدة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وعلى آله وسلم ، الحضرة السامية الإمامية حضرة سيدنا ومولانا الإمام الأعدل ، الخليفة الصالح المنصور بالله عزّ وجل ، أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدّهم بمعونته ، من ملتزم أوامرهم العلية ، المتبرك بمعاليهم السنية ، الطالع السامع فيما يجب عليه من حقهم في كل ثنية ، محمد بن أبي إبراهيم : سلام على حضرة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد حمد الله على إعلاء هذا الأمر العزيز المكين ، وإجراء سيره القائم على أفضل الأساليب والقوانين ، وإمضاء آراء أهله الموحدين في صوب الإسعاد والتبيين ، والصلاة على محمد رسوله ونبيه الصفي الأمين ، المبلغ الرسالة على أكمل حالات البيان والتبيين ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم لإقامة الحق في المفروض والمسنون ، ولصاحبه وخليفته أمير المؤمنين المؤيد لإظهار أسراره وأنواره بأتم التأييد المضمون ، وللإمام الأعدل ، الخليفة الصالح المنصور بفضل الله عزّ وجل ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبو يعقوب بن أمير المؤمنين بنصر يختصه في كافة الأحوال والشؤون . فكتب خديمكم من أغرناطة حرسها الله عن

[205] التزام أمركم الكريم ، والاعتلاق بحبلكم الذي هو حبل الله العظيم ، شاكراً لله تعالى وحامداً على ما أمضى به من أمره الى سيدنا أمير المؤمنين بخلافته ، واختصه في أرغبه بفضل إمامته وحمل أمانته وخبأه بكرامته ، حين علم فيه الاستيداد بكفايته . فلله قِبَل عبْدِكم في ذلك نعمٌ متظاهرة ، وآلاء مترادفة متكاثرة ، أرغب من الله تعالى أن يُلهمني حمدَها وشكرها ، وأعمالها ونشرها ، بعزَّته ، وأنه وصلني كتاب السيد الأسنى أبي إسراهيم بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه ومعه نسخة الكتاب المبارك العزيز المُبْدي من البشائر ما أربى على التكميل والتتميم مما كان فيه إجماع الرأي السعيد ، والفعل السديد ، الذي اجتمعت[1] ، اراء الموحدين ، وكانوا من الله تعالى في ذلك على توفيق مبين ، من تجديد البيعة الكريمة والأسمية المباركة الموسومة لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، أدام الله لهم السعد والتمكين ، والفتح المبين ، إلى ما أعلموا فيه مما أسبل الله أثرها على الموحدين وطائفة المؤمنين من توالي الفتوح ، واتصال الخير الممنوح وترادف الأمطار ، ورخص الأسعار ، مما يقل لذلك شكر الشاكر ، ووصف الواصف وذكر الذاكر ، وعند وصول الكتاب الكريم الى الخديم الطالع عليه بمجالب الفتوح والسرور ، بادرْنا الى التيمن [206] بعقد البيعة الرضوانية التي هيَ كمالُ ديننا وذُخرُ معادِنا ، فعقدناها على ما يجب من مفروض البيعة لأمير المؤمنين ، على التزام شروطها في الدّين ، وحمدنا الله تعالى على التزامها ، ودعونا الله في التوفيق بالعمل على تطلبها ، إنه القادرُ على ذلك لا إله سواه . وفي حين ذلك وَصلنا أيضاً على الخُصُوص كتابُهم الكريمُ الثاني ، المتسِّم لتلك المَباني ، مِمّا كانَ من أمرهم الجليل ، ونَظرهم لهذه الجزيرة حماها الله على تمّ الرأي الجميل ، بوُصُول العساكر المنصورة والأجناد الموفورة اليها وحمايتها، إلى ما خَصَّصُوا به عبيدهم أدام الله أمرهم ، وأعز نصرهم ، من الأمر المفصل بالبركة التي ما زالت بركاتهم ونعمهم عَلَينا تترادف ، وتتوالى قِبَلنا وتتعارف ،

---

[1] سقطت كلمة (عليه) هنا فيما يظهر.

مَعَ ما عُرفوا به من الخَيْر الذي يصلح بلادهم ، ويخصُّ أجنادهم ، والله تعالى نسأله أن يُعِين الكلَّ من عبيدهم على أداء شُكْرِهم ، والتزام أمرهم ، بعزَّته وقدرته . والسَّلام الأجزل الأحفل ، الأتمُّ الأعمُّ، على الحضرة السامية ، الإمامية العَلية ، ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه . كُتِب في النِّصف من جمادَى الأخيرة عام ثلاثة وستِّين وخمس مائة .

جواب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين على هذه الرسالة الى الشيخ [207] الأجل ابي عبد الله بن أبي إبراهيم وذكر وصول البيعة اليه .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمدَّهُ بمعونته الى الطَّلبة الذين بالغرناطة أكرمهم الله بتقواه ، سلام عليكم ورحْمة الله تعالى وبركاتُه أما بعد فإنا نحمَد إليكم الله الذي لا إله إلاَّ هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلّي على محمَّد نبيّه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأمر الله والدَّاعي الى سبيله ، ونوالي الدُّعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ، مشْبي أمره العزيز الى غاية تتميمه وتكْميله . فإنا كتبناه اليكم أكرمكم الله بتقواه من حَضْرة مراكش حَرَسَها الله . والَّذي نُوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته ، والاسْتعانة به والتوكل عَلَيه . وقدْ وصلنا كتابُكم من عند الشيوخ من غرناطة حَرَسها الله والموحِّدين وفق الله جميعهم ووفقنا عَلَيْهِ ، ورأينا ما تحمَّلوهُ عن المُوحِّدين بغرناطة وجيرانهم من انعقاد إجْماعهم عَلَى ما أجمع عليه شيوخُ أهل التَّوحيد وأصحابهم ، من الأمرِ الَّذي أوْجَبُوا على أنْفُسِهم المُبايعة عَلَيه ، وإعطاء صفقة اليَدِ فيه ، وقد وفقهم الله لمَا رقى إليه أهل أمْره وذوي العصمة من طائفته ، والله تعالى يتقبّل مِنْهُم [208] عَمَلَهُم ، ويعرِّفُهم بركةَ ما التزمُوه ، ويُعينُهم على القيام بواجبه والوفاء بحقِّه ، وقد انْصَرف هؤلاء الأشياخ المذكُورون ،

يعد إقامتهم بهذه الحضرة ونيلهم بركاتها، بما يجدون أثره في أحوالهم، وسريان الانتفاع به في أقوالهم وأعمالهم. فاعرفوا لهم حق وفادتهم، ومكان زيارتهم، واحملوهم وكافة جيرانهم على الرعاية المتصلة، والمبرة الحافلة المشتملة إن شاء الله تعالى. والله ولي عونكم وصونكم لا رب غيره والسلام الكريم العميم عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الثاني عشر من شوال عام ثلاثة وستين وخمس مائة.

العفو والإنعام من أمير المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنه بعد كمال هذه البيعة السعيدة على المسجونين في حقه وماله، وتسريحهم بأفضاله.

لما كملت على ما ذكرته من الإجماع عليها من الموحدين، وسرت البشائر بها في البلاد وتيمن بارتباطها بالعدوة والأندلس جميع العباد، عفا عن المسجونين وحط البقايا عن العمال الخائنين[1]، وأمنهم من المخاوف فيما تقيد عليهم في الدواوين فزاد الانبساط، والنشاط عند الناس بفضله وصفحه وعدله، وزادت المخازن إثر ذلك وفوراً، ونمت الأرزاق، وعمرت [209] الأسواق، بالبيع والتجارة الرابحة ودرت على الناس الخيرات دروراً، واغتبط العالم به وبيمنه، وكثر المال في ايدي بني تووالي تمشيه وبركته، وابتنوا بمراكش القيار العتيقة، واغترسوا خارجها أتبع حديقة[2] وامنوا في كل طريقة، واتصل فضله على من ذكرته في جميع العدوة والأندلس، واشتمل الحب له في جميع القلوب والأنفس، كقول أبي تمام:

وَلَقَدْ أراكَ فَهَلْ أراكَ بِغِبْطَةٍ ... والعَيْشُ غضٌ والزَّمانُ غُلامُ[3]

(1) ابن عذاري: الخاينين، وسقطت في المخطوط نقطة الخاء. انظر ص 60 من البيان المغرب.

(2) تلك مراكش على عناية من الموحدين وهذا في الوقت الذي كانوا يجهزون فيه على آثار المرابطين بما كانوا يؤمنون ذلك بالبحيرات والبساتين والمباني. انظر التعليق رقم 2 ص 214 ورقم 1 ص 253.

(3) من قصيدة لأبي تمام يمدح المأمون، مطلعها:

دِمَنٌ أَلَمَّ بِها فَقالَ سَلامُ ... كَمْ حَلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الإِلْمامُ

أعوامُ وَصْلٍ كانَ يُنْسِي طُولَها ... ذِكْرُ النَّوَى فَكَأَنَّها أَيَّامُ !

وأما من كان عليه دين من المسجونين للغير، أو حق مسلم في قصاص أو غير، فتركه لصاحبه على منهج الشرع وواجبه، فشكر الله والناس عدله وفضله. وقال أبو عمر بن حربون أيضاً يمدحه حين دعي بأمير المؤمنين، وصحت الإمامة له من الموحدين (كامل)[1]

جاءتك تسحب ذيلها للموعد ... زهراء طالعة بسعد الأسعد

فاصدع أمير المؤمنين بدعوة ... لم تسرق صنماً بشنع الجلمد

يهني الخلافة أن لبست رداءها ... وتعدت منها اليوم أشرف مقعد

ومن ارتقى في سلم التقوى رأى ... زهر الكواكب بالحضيض الأوهد

[210] ألقت أزمتها إلى من همه ... في مرغب أو مغضب أو مسجد!

علقته فيقود النجيبة[2] زاهداً ... لم يشتغل بدد ولا هو من دد!

انظر إليه فإن رؤية وجهه ... تجلوا الصدى عن قلب كل موحد

ما تم[3] قيام السموات العلى ... عن شأن قوام له متهجد

الحق حقك ما له من دافع ... واستشهد البيض الصوارم تشهد

لقد اضطلعت بحمل أعباء التي ... حدت الأنام على الطريق الأرشد

إن الذي لما قمت تقصر دونه ... أصحابك مهرات التي تحمد!

لم تغنك الدنيا غداة تبرجت ... وغضت بساقية الغزال[4] الأغيد

لله مشهد بيعة بويعتها ... فالدين والدنيا بذاك المشهد

في حيث ترتد العيون مهابة ... عن ساطع من نورك المتوقد

لا تثبت الأبصار فيك لمجتلى ... لألاء أنوار الهدى والسؤدد

وكأنهم إذ بايعوك تمسحوا ... بالقبلة البيضاء ذات الأسود[5]

(1) اختار ابن عذاري من هذه القصيدة ستة وعشرين بيتاً... ص 61 - 62.

(2) في ابن عذاري ص 61: النجيبة عوض النجبة وهو أدل على المراد.

(3) المصدر السابق ص 61: فأقام قيام...

(4) سقط حرف الألف من المخطوط ويظهر أنه عثرة قلم...

(5) يعني الحجر الأسود...

وكأنما وقفوا بحيث تروقهم   زَهَفاتُ ملتطم الغوارب مُزبِدِ
وكأنما وَلَجوا ولجة ضخم   فأبي الشواهد بالنجيع مُوَرَّدِ
هابوا، فلولا رحمة أدركتهم   لم يستطيعوا أنّم هاتيك اليدا
لتبادروا أمّ العطاء كأنهم   غَضَبَ القضاء تزاحمت بالمورد
إن وقفوا فلرهبة وسكينة   أو أزمعوا فلرغبة وتودُّدِ
اليوم تامّ الدين ملء جفونه   من حزمٍ يقظان الجفون مُسَهَّدِ
وقلا الحبالا الغريبة صارم   والشمسُ ناظرةٌ بعَيْنِ الأرمدِ
[211] ألف الخزائن والقنا فكأنه   يُمْسِي الأزاهرِ والغصون النُّهَّدِ

وإذا اشتكى ابصرت رضوى يلملم[1]   يعتمّ طوراً بالغمام ويرتدي
نطقت بنداه بالأعادي نطقةً   خضعتْ لها عُنُقُ الزمان الأصيَدِ
إنّ الشريعة أيّدت أركانها   بموفّق للصالحات مُؤيَّدِ
يجلو خفيات الأمور بفطنة   قد أيّدته اليوم عنا في الغدِ
عمرت قلوب المؤمنين بحبّه   واستمسكوا بعُرى النبيّ المُحْصَدِ
فاسلم أمير المؤمنين لأمة   ما سِرْبُها[2] إذ سُسْتَها بمُصِرِّه !
أمّنتها أهوال كلّ مخوفة   شرّقن سرب الأمن كلّ مُشَرَّدٍ[3]
لولا مقامك زُلزلت زلزالها   وتقضقضت شُمّ[4] الهضاب الصُّخَّدِ
لولا الذي بسط الإله بفضله   في الأرض من سلطانكم لم يُعبَدِ[5]
حقّ الأنام إلى ذراك وأصبحوا   من ظلّ عدلك في النعيم الأبردِ
للحلم فيك وللأناة مُجمَّعٌ   لمحبّة المعبود والمتعبِّدِ

(1) يلملم: موضع على مرحلتين من مكة وهو ميقات أهل اليمن وقال المرزوقي: هو جبل من الطائف على ليلتين أو ثلاث.
(2) ابن عذاري ص 61: (ما ضرها) وهو خطأ دون شك من الناسخ.
(3) يقصد هنا بلوغ أن العدالة والصرامة المنتشرتين في البلاد جعلتا الأمن يشمل سائر البقاع.
(4) سقطت نقط الشين من المخطوط وفي ابن عذاري (ضم) عوض شُم. انظر ص 61.
(5) ابن عذاري 62 (سلطانهم لم يحمد) ولا يخفى ما فيه.

صبّت القوس إليك حتى أنها   لو شخّصها الأغمار لم تتردد
حارت معطّرة الثناء وأنجدت   فرنت إليك بمُتْهِمٍ ومُنْجِدِ[1]
فأتتنا برضوانه[2] مبثوثة   رنت الأعادي بالنعيم المقعد
فهي المعدّة للمقام زبيبه   وهي العتاد لحسم داء المعتدي
وإليكها تبغي رضاك ذخيرة   شُدّ الودُّ به طوال المُشتد
لم تتهيج سنن المديح، وإنما   كانت بقرضٍ في علاك مؤكّد
أحدثت بأطراف الثناء ولم تُطِق   إحصاء أوصاف الجميع المفرد
[212] أنباء فضلك لا يُقام بحقها   ولو أنها كُتبت بذوب العسجد !

وصنع الصنّاع لأمير المؤمنين، أدام الله تأييدهم، سنان رمح بسنانين اثنين، متصلين في سعة السيف، كلّ واحد منهما، فأعجب بذلك وأمر بالقول في وصفه فقال أبو عمر بن حربون يصفه: (كامل)

طبع الإمام من الأسنّة أهيفاً   لم يعهدوه في أسنّة مقضب
ومنح تمثّل للأعادي شكله   رأسي شجاع أو زُبانا[3] عقرب
إن هزّت الهيجاء ورقي ذابل   يوماً تقلّده العدوّ بأغضب
ماذان إلا ناظران تشوّفا   نحو الجهاد تشوّف المترقّب
أو شمعتان تخشا من نيّة   أوفى لها سعد السعود بمرقب
أو كوكبان قضى على أفقهما   بالسعد من هو كافر بالكوكب
قدعوا القرآن[4] فإنه متأخر   عن سرّ هذا النيّر المتشعّب

(1) ابن عذاري 62: أهلاً وسهلاً بالمغير المنجد.
(2) البيت غير موزون كما لاحظ.
(3) كذا في المخطوط برسم الألف عوض الياء: زباني. وزباني العقرب: ما تضرب به من طرف ذنبها.
(4) كذا في المخطوط ولم تتبين المتن عليه، سيما مع ضبط القاف بالضم ويظهر أنه قِرْن المكسور القاف، وهو عند المنجمين: اجتماع كوكبين سيّارين في نقطة واحدة من فلك البروج، وقد ورد في شعر أبي القاسم الزهري:
عرفت زماني حين أنكرت صرفه   وأيقنت أن لا حقّ في كيد كيوان
وأن لا اعتبار بقِران ...   وأن لا قِران بسلطان الأقران

فما إنّها بعْضُ الخلافات التي ... قد أطْلعُوا أنوارَها بالمَغْرِبِ

نبأ عظيم في الورى وإشارة ... من عِلْمِ مَن جاءت به بُشْرى النّبي

فَسوْ ذاك بعْض مفاتيح الملكو ... ت في كفّ تنوب عن الغمام الصّيّب

للملك فيه سَريرةٌ سيُذيعُها ... بلسانِ كلّ مثقّف ومشطّب

إنّ الخلافة لم تبن أسرارُها ... إلا لِهذا النّجل لو هذا الأب

نُورٌ أرادَ اللهُ ألاّ ينجلي ... إلاّ بغُرّة طيّب عن طيّب

[213] لولاهم لَغدا[1] الورى في حَيْرة ... ترمي بهم بين غيهب في غيهب

والآن قد بان الصّباح لناظر ... وإن تبيّن عاقل لم يرتب

وأمر أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه أن يكتب الصنّاع في سيفه (لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين) .

فكتب ذلك فيه وقال في مجلسه الكريم للشيخ الفقيه أبي محمد المالقي : أخرج الى طلبة الحضر وأمرهم أن يضمن هذا المكتوب في بيتين من الشعر فخرج أبو محمد المالقي وقال للطلبة ذلك واستعجلهم فيه .

فقال ابنُ حربون مرتجلاً على لسان السيف : (رَمَل)

أنا إن جُردتُ يوماً ... كنتُ بالنّصْر قمينا

لأمير المؤمنين ... بْنِ أبي المؤمنين

فاستحسن أميرُ المؤمنين ذلك وأحْسَن إليه وأجزل العطاء لديه .

* ابن خلدون: - التعريف بابن خلدون (نشر ابن تاويت الطنجي) صفحة 23.

[1] كتبت هنا بالياء هكذا: غدى.

البركة العامة النافذ بها الأمر العالي أدامه الله لجميع الموحدين ، والعرب القاطنين والأجناد الأندلسيين بالحضرة والمواسط[1] [214] والثغور .

قال الراوية : ولما كان البشر العام ، واليسر التام ، بتجديد البيعة الميمونة ، الرضوانية المأمونة ، على ما تقدم الذكر لها ، أمر أمير المؤمنين رضي الله عنه ببركة تعمّ الناس بحضرة مراكش إيصالاً للعفو الذي تقدم ، واتصالاً بتتميم منه الذي به أنعم ، ونفذ أمره العزيز بمخاطباته الى السادات إخوته بالبلاد العدوية والأندلسية القاصية والدانية بالإنعام بالبركة على ما ذكرته فعمّ الناس فضله ورفده ، وثبت في القلوب حبّه وعهده ، واستولى بهذا الإنعام المبارك سعده ، وتمت الجبايات والطراجات[2] حين تما كرمه ورفده ، وعزمت النفوس على الغزو وحرب المحاربين في الحضر لهم والبدو ، واتصلت الغبطة بالبيعة الرضوانية والأمان ، وقيل للزمان : « أنت خير زمان » ، وتجدد للعالم من حالهم الجديدان ، وطلب الجبان من طربه الطعن في الميدان ! وابتدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بالنظر لجزيرة الأندلس في بعث السيد الأسنى أبي إسحق أخيه الى قرطبة على ما أذكره .

(1) المواسط جمع موسطة: المدن التي تقع وسط البلاد.

(2) كان عبد المؤمن أول من أحدث الخراج بالمغرب، وكان ذلك سنة 555 حيث أمر بتكسير البلاد من أفريقية والمغرب بالفراسخ والأميال طولاً وعرضاً ثم أسقط من التكسير الثلث في مقابلة الجبال والأنهار والحزون والطرقات وما بقي وظف عليه الخراج والزم كل قبيلة بقسطها من الزرع والورق.

القرطاس (ط) ص 161 - الاستقصا (ط) ص 324.

ذكر بعث السيد الأسنى أبي إسحاق إبراهيم بن الخليفة أمير المؤمنين [215] رضي الله عنه الى قرطبة والياً عليها عوضاً ممن كان فيها بعسكر ضخم من الموحدين أعزهم الله لحمايتها من المحاربين المجاورين لها

قال : ولما كان ما تقدّم بشره من الخير ، اتّفق الرأي المبارك على النظر السعيد ، والاحتيال الحميد ، الى جزيرة الأندلس بصرف عنان الغزو الى أعدائها ، على قُربهم وبعدهم من أرجائها ، فكان أول بعثٍ بعثه هذا السيد المبارك اقتداء من أمير المؤمنين بما فعله أبو بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] حين بعث يزيد بن أبي سفيان الى الشام في غزو الروم[2] أو بعثٍ بعث ، وجهاد منصور للمسلمين حثهم عليه وثانث ، ثُمّ والاه بالبعوث والعساكر كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حسب ما أذكره ، وخاطب الخليفة بهذا الرأي المتفق عليه المصفق ، بعد استخارة الله تعالى لديه ، الى أهل الأندلس .

وخصَّ أمير المؤمنين رضي الله عنه الشيخ الحافظ أبا عبد الله محمد بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بالتّعريف بجميع ما ذكرته ، ومن التنبيه للجهاد ، وبما عزم عليه من النظر والاستعداد ، ونص الرسالة المعروفة له المبشرة هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلّم والحمد لله وحده من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم [216] الله بنَصْره ، وأمدّه

(1) في المخطوط: (حين) وهو موجود ربيب خطأ والصواب (حين).
(2) يكد أبو بكر ينتهي من حروب الردة حتى أخذ يرسل الجيوش إلى مواني الفرس والروم، وكان فيمن أرسلهم لغزو الروم بالشام يزيد. المسعودي، مروج الذهب الرابع ص 186 - 187. ابن خلدون العبر المجلد الثاني ص 898 م . . .

بنصره ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم والموحدين الذين بأغرناطة أدام الله كرامتهم ، ووصل توفيقهم ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته : أما بعد فإنا نحمدُ اليكم الله الذي لا إله إلا هُو ، ونشكُره على الائه ونعمه ، ونصلي على مُحمّد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضى عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله والدّاعي الى سبيله ، وتوالي الدُعا لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ممشي أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله . وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم آمالاً مُبلّغة ، وأماني في صلاح أحوالكم مهنّأة مسوّغة ، من حضرة مراكش حرسها الله ، والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعته والاستعانة به ، والتوكّل عليه والثّقة بأنّه تعالى ناصرُ هذا الأمر العزيز ومؤيّده ، ومعينُه ومنجده ، ومتولّيه بما يظفره بكل جاحدٍ لحقه ، عمٍ عن نُوره ، عادل عن سبيله ، معرض عن داعيه ، لتمضي سنةُ الله في انتشار دعوته ، وامتداد شعبه[1] وظُهور كلمته ، وإنجاز ما وَعدَهُ من الاستيلاء على الأدنى والأبعد ، وضمِنَ له من البقاء الدائم السرمد ، وإنّ أمر تلكم الجزيرة مهّدها الله لَمِنْ آكد ما توجّه اليه نظرُنا ، وتوكل به اهتمامُنا واشتَغل به فكرُنا ، لمُصاقبة الأعداء الرُّوميين والمجَسّمين [217] لبلاد الموحّدين بها والحاحهم على جنباته ، واسترسالهم في سُبُل الاغترار وطرق الاهمال عمّا يخصمهم من أمر الله تعالى الذي يأخذ فيهم لدينه بحقّ الانتصاف ، ويكيل له من إدْراك الثّأر بالكيْل الوافي . وقد اتفقنا في هذه الأيام على أن يتوجه اليها أخونا أبو إسحاق إبراهيم بن سيدنا أمير المؤمنين وفّقه الله في عسكر مبارك من الموحدين والعرب وفّرهم الله ليكون بقرطبة مهّدها الله ورجوْنا من تعاونه مع إخوانه الذين بإشبيلية حرسها الله وتناصحهم جميعاً ، وتوازرهم على الجهاد ، وحماية البلاد ، والنظر في المصالح ، وكافّة ما وصّيناهم به في هذه الأغراض ، وحماية البلاد ، والنظر في المصالح ، وكافّة ما وصّيناهم به في هذه الأغراض ، أن تظهر عليهم بركةُ سيدنا أمير المؤمنين

(1) كذا في المخطوط بالتاء المثناة ولعلّ الأصل شعبه.

وأشياره ، وما أخذنا عليهم من عُهود التقبُّل لها والاقتداء بها ، وأن ينفع الله بهم ، ويعرف من اجتماعهم ، وأن يسعدهم ويسعد بهم ، وعلى ذلك فالنظر مستتب والفتوحُ مطّرد ، وهذه كلّها مقدماتٌ بين يدي ما ينوي من الغزو الأعم ، والجهاد الأتم ، الذي يمحق الله به الباطل ، ويخفي أثره ويعدم عينه ، على ما وعد أنه لا يُخلف الميعاد ، فاشكروا الله على ذلك ، واستبشروا وبشّروا إخوانكم بجميع جهاتكم وأنظاركم بإقبال هذه الخير ، وتوالي النُظر ، وأنسوا به القلوب وسكّنوا به النفوس وثبّتوا به الأقدام ، وأجدّوا في الجهات بنياتٍ خالصة ، [218] وعزماتٍ صادقة ، وكونوا على أتمّ التعاون ، وأوفى التّعاضد ، واستشعروا الإقبال ، وصلاح الأحوال ، إن شاء الله . وقد خاطبنا الطلبة الذين بإشبيلية أن يدفعوا للموحدين الذين بأغرناطة من البركة مثل ما أخذه أهل قُرطبة ، وكذلك خاطبنا كم أن يستيسر لكم النظر في الآلات والأسلحة التي تحتاجون للقصَبة حماها الله ، فاعلموا ذلك ، والله تعالى وليُّ عونكم بمنّه والسَّلام العميم الكريم عليكم ورحمة الله . كتب في الثاني والعشرين من جمادى الآخر عام ثلاثة وستين وخمس مائة .

(اشتباك جيش الموحدين بخيل جرانده بين وادي آش وغرناطة)

وفي تاريخ وصول هذه الرسالة الكريمة إلى الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن أبي ابراهيم خرجت من مدينة وادي آش[1] جملة ذميمة من خيل جرانده[2] من المحاربين وأصحابهم النصارى الكافرين - أهلكهم الله - مختلسين مختطفين الفساد في أنظار الموحدين، فأسَروا ليلهم ونهارهم حتى

(1) راجع تعليق رقم 2 ص 231.

(2) جرانده: (Giraldo) يرسمه ابن صاحب الصلاة هنا بدون ألف بعد الراء. ويظهر أنه هو نفس جرانده الجليقي الذي ينعته ابن صاحب الصلاة أحياناً بالكلب والمعروف تحت اسم (Giralda Sem pavor). هذا وعندما كان الأستاذ ويسي يقابل هنا ما ورد عن ابن صاحب الصلاة أعرض نهائياً عن ذكر (جرانده) وعوض العبارة على النحو التالي: من المسيحيين الذين كانوا في خدمة ابن مردنيش بوادي آش. . . (المن بالإمامة. 233 - Huici P. 232).

وصلوا نظر مدينة رندة - كلأها الله - فغنموا بعضه، واكتسحوا سائمته وماشيته من الغنم والبقر والدواب والمتاع، وعلم الشيخ الحافظ المرحوم أبو عبد الله بذلك بأغرناطة، فتحزم في أمرهم وفي حسْم شرّهم، وبعث في اتباعهم ودفاعهم جملةً مباركة من عسكر أغرناطة من الموحدين والجنْد الأندلسيين مع الرُّماة والرجّالة وفّرهم الله [219] فالتقوا بالأشقياء وهم منصرفون بالغنائم بين نظر وادي آش وبين نظر أغرناطة، لحين عاينوا الموحدين - أنجدهم الله - أوَوا إلى جبل شاهق، فحمل الموحدون - أنجدهم الله - على الكافرين حملة صادقة طاردوهم فيها من أول صلاة الظهر، إلى أن هبّت عليهم ريح النصر خلال وقت العصر، وولى الكافرون أدبارهم، وهزموهم في أعلى الجبل المذكور وأزعجوهم فيه حتى ترقّوا من حافاته، وتكسّرت أعضائهم وتمزّقت أجسامهم، واستولى الموحدون - وفّرهم الله - عليهم بالقتْل والأسر والسبي وانتقذوا الغَنائم، وحازوا أسلابهم ودوابّهم، وسبوا من أعلاج النصارى ثلاثة وخمسين علجاً استاقوهم إلى غرناطة مع جملة الغنائم، فخرج الشيخ الحافظ المرحوم أبو عبد الله بنفسه مع أصحابه المختصين به من الحفاظ، وضربوا رقابهم، وخمّس الشيخ أسلابهم، وكان فتحاً جسيماً للموحدين، ورعباً عظيماً مليماً على الكافرين، انبسطت به آمال أغرناطة في جهاتهم، واتّسعت الأحوال بالأمنة في جنباتهم. وعرّف الشيخ الحافظ المرحوم أبو عبد الله بهذا الفتح حضرة أمير المؤمنين رضي الله عنه فجاوبه بما هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم [220] الله بنَصْره، وأمدهم بمعونته، إلى الطلبة الذين بأغرناطة، أكرمهم الله بتقواه، سلامٌ عليكم ورحمةُ الله تعالى وبركاته. أما بعدُ فإنا نحمدُ إليكم الله الذي لا إلاه إلا هو، ونشكُره على آلائه ونعمه، ونصلّي على محمد نبيّه المصطفى ورسوله. ونسأله الرضى عن الإمام المعصُوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى والداعي إلى سبيله، وبتوالي الدُّعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين، مُنْشِئ أمره

العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله، وإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه من حضرة مراكش حرسها الله. والذي نُوصيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعته والإستعانةُ به، والتوكُّل عليه وإن تشكروه على ما يوالي به هذا الأمر العزيز وأهْلَه من مواهب النَّصْر وموانح التأييد التي يحلي بها كَفَّه، ويظهر به حزبه، إمضاءً لسنته، وطرداً لعادته، والحمدُ لله وقد وصلنا كتابُكم من أغرناطة حماها الله بما سنَّه الله في الأعداء الكفرة الذين كانوا بوادي آش - فتحها الله -، من الفتح الذي عرَّفهم به قدْرَ اغترارهم ومكان جهْلهم، وموضع الإملاء لهم، بما كانوا اعتادوه من التسحُّب على أطراف تلكُم الجهات بالاختلاس والاختطاف على ما ذكرتُم فيسَّر الله لكُم من أسباب العَوْن عليهم، ومكيفات الإنجاد في الأخْذ بالثأر منهم ما شرحتموه في كتابكم، وبشَّرتموه [221] بإعلامكم ممَّا وقفنا به على ما سرَّ موقعه، وحسُن مطلعُه، وجرى على معلوم هذا الأمر في نُصْرته وتأييده، والصُّنْع الجميل له، وإخزاء أعدائه، وانجحار مُعانديه، والذي منح الله الموحِّدين في هذه الغزوة المباركة خيرٌ كثير، وأثرٌ جميل، وله في تمهيد تلكم الجهات وتأنيس أهلها وبسْط آمالهم وتسكين نفوسهم، ومتابعة من فتّ أعضاد الكفرة وتوهين أمرهم، وإشعارهم الأدبار في أحوالهم، والارتكاس في حويلهم مواقعُ ظاهرةُ الآثار، بيّنة المنافع، مع ما خيّر الله في تلك الحال من الغنائم التي اغتصبوها أهلها، واستطرحوها من أربابها، فأحقَّ اللهُ الحق وأبطل الباطل ولو كره المُجرمُون، فاشكروا الله تعالى على توفيقه الذي يمّن قصدكم، وأنهض عزمكم، وسدّد رأيكم، وقابلوا ذلك بما يقتضي له المزيد من فضله والمضاعف من إحسانه. وبشّروا الموحِّدين والغُزاة بنعمة الله عليهم في الظُّهور على أعدائهم، والنَّصْر لدعوتهم، وأن لهم عند الله مع هذه العطية الثواب المدّخر، والأجر الأجْزل الأوفر، وليستديموا ذلك بالأعمال الصالحة، والقلوب الطاهرة، والأحوال المستقيمة، والله وليُّ العَوْن على ما يقرّب منه ويزلف عبده بمنّه، والسلامُ الكريم العميم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وكتب في الثالث من شهر رمضان المعظم سنة ثلاثة وستين وخمس [222] مائة.

وجاوبه السيدُ الأعلى أبو حفص أيضاً في التَّاريخ المذكور بهذا:

بِسْم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم من عُمر بن أمير المؤمنين إلى الشيخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم أدام الله كرامته بتقواه. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمْد الله تعالى، والصلاة على محمّد عبده ورسوله المصطفى، والرِّضا عن الإمام المعصوم، المهْدي المعلوم، المرتضى، والدُّعاء لسيدنا أمير المؤمنين خليفته الأكرم الأهدى، ويمثله لأمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين بدوام النَّصر الأفضل الأحفى، فكتبناه إليكم - أدام الله توفيقكم - من حضرة مراكش - حرسها الله - ولا جديد إلا نعمُ الله المتوالية، وآلاؤه الرائحة والغادية، وتعرف بركة هذا الأمر العزيز في كلّ ظعْن وإقامة، على أتم الأحوال المستدامة، والحمدُ لله، وقد وصلنا كتابُكم المبرور، مضمناً من البشائر بجهادكم في الكفرة، واجتهادكم، ما أجرى الله به عادة هذا الأمر في تيسُّر أسبابها، وافتتاح أبوابها، وإلمامها على الدَّوام واتِّبابها، واستوضحت من إعلامكم جلية، وأتت على وفق الإرادة حميدةً مرضية، فاشكُروا الله على ما سنَّاه لكم منها [223] وفتحكم من الخبر الشريف بها، وامضُوا على ما أنتم بسبيله من الاجتهاد في أموركم، والمحكوف على أشغالكم، ووالُوا الإعلام بما يتجدّد عندكم إن شاء الله. والله وليُّ عونكم والسَّلام الكريمُ العَميم عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه. كُتِبَ في الثَّالث من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وستين وخمس مائة.

(تشغيب أهل جبل تامرورت)

وفي هذه السنة شغَّب قوم من البرابر المرتدين في جهة جبل تامرورت[1] وحين صحّ خبرُهم بتشغيبهم وارتدادهم، وعزمهم على عنادهم، عسكر إليهم

(1) لم نهتد لمعرفة موقع جبل تامرورت (Tamrurt) بالضبط. فقد اختفى من النص كل دليل. ويشاء كلمة بالبرابرة. قد يُرابِط. ولم نعرف أكثر من أن هناك جهة تحمل نفس الاسم تقريبا (Tasrirt) كانت أرضت ... لها بالائلة ... وقد فتحها المهدي سنة 521.
البيذق: أخبار المهدي ص 117 - 118 - ابن عذاري 64، 404 - 76 Hesiri.

السيد الأعلى أبو حفص ـ رضي الله عنه ـ بجَمْع وافر من الموحدين ـ أعزهم الله ـ فغزاهم وأجلاهم عن ذلك الجبل، وقتلهم فيه شرّ مقتل، وأحدث فيهم حدث الزمان المعضل، وطعنهم فيه طعنة البطل الشجاع الحُوَّل، واستأصلهم سبياً ونفياً، ولم يدع لهم في حيّهم حيّاً، وانصرف على عادته التي عوّده الله من النصر والظفر، والسرور ونيل الوطر، فقال أبو عمر بن حَرّيُون يمدحه ويهنئه بغزوته، ونيل بغيته: (متقارب).

بيُمنكم أُنجِحَ المطلبُ ... وأعطى مقادته المصعبُ[1]
[224] وأشرقتِ الأرض عن نوركم ... فلم يبقَ في أفقٍ غيهبُ
فلم تدعوا غايةً تُنتجى ... ولم تتركوا شاغباً يَشغبُ
فحسبُ عزائمكم حسبُها ... فقد ذهبتْ حيثُ لا مذهبُ
لضاحك مفترك في العالمين ... فيرضى متى شئتَ أو يغضبُ
لقِدْحكم فائزٌ بالمنى ... وقِدْحُ أعاديكم الأخيبُ[2]
وماذا تُؤمّلُ هابي الرفاع ... وأنّى لها منكمُ مهربُ؟
سَيّراً إليك[3] منها الشعاب ... ويَنزلُها البازل الأشهبُ
وكيف يفوتكمُ هاربُ.... ... وقد تطلبونكمُ يطلبُ
لقد ركبوا مركبَ الجاهلين ... والجهلُ من شرّ ما يُركبُ
أما علموا أنها طاعةٌ ... بها يَعمُرُ العمرُ أو يُخربُ
ولو أنّهم وُفّقوا للرشاد ... لأعتبتَ عن بعضِ ما استوجبوا
ولم يَحرموا من رضاكم دنو ... ـاً بها يُرتَضى الوِرد المشربُ

(1) اقتصر ابن عذاري على إيراد ستة أبيات منها، ص 44.
(2) يشير البيت لقداح الميسر الفائزة وقداحه العاطلة، ويكثر الحديث عن الميسر وتقاليده وعاداته من أشع الواضح وأطرافها. فإن الأسهم الرابحة: الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى... أما القداح الخائبة: المنيح والسفيح والوغد.
الفاري: لباب لامية العرب (طبعة الرباط).
(3) يظهر أن الأصل تقديم لفظ (منها) على كلمة (إليك): سيّراً منها إليك الشعاب، ليستقيم وزن البيت.

تركتم ديارهم بلقعاً ... تقذّفُ من جانبيها ينضبُ
ولا غرو أن صال ليثُ الشرى ... فراغ مخافته الثعلبُ....
رميتَ بها الهضباتِ العلى ... فخافتك في أوجه الكوكبُ
لمزّقتمُ شملهم في البلاد ... ففلّهمُ جحفلٌ أجربُ[1]
وقد ركدتْ نفحاتُ الحروب ... غداةَ أتت نحوها تجنبُ
جيادٌ لو اختلفتْ بالظباء ... لم يُنفرِ البهمَ الربربُ
جيوشٌ تسير وقدّامها ... جيوشٌ من الرعب لا تحسبُ
[225] طلائعها الملأ الأكرمون ... فلم يخلُ من ملكٍ مرقبُ
إذا أحدثتْ للوغى رنّها ... ولاح لديك بها المذهبُ
رأيتَ سبائبَ روضِ الربا ... يغضّ بها الأبلخ المشربُ
تودّ الكواكبُ لو أنها ... من بعض جنودهم موكبُ
أنت الذي بمقاماته ... يباهي على المشرقِ المغربُ!!
سليلُ الخلافة صنو الإمام ... وسيفهما المفصلُ المقضبُ
فيهني الخلافةَ أن أصبحتْ ... بصارمِ سيفكمُ تضربُ
حميتم حماها فأنّى ترام ... ومن دونها الباسلُ الأغلبُ
ومن سَعدِها أنّها منكمُ ... أُتيح لها الحُوَّلُ القُلّبُ
ألم تر قنبعمر في ملكه ... إلى السلم من بأسكم يهربُ
ولما تنله سوى عصبةٍ ... لها بين أكتافه مخلبُ
لقد عمّت الأرضَ الأزهم ... بكلّ جديدٍ بكم مخصبُ
فلو أطلقتْ دعوةُ المدّعي ... إذاً لأعانك الخبا المعصبُ
رضاك أبا حفص المرتضى ... تراثٌ به الثغرُ يستعذبُ
تحيّر في كنهك الألمعيُّ ... وقصّر في مدحك المسهبُ
فلا زلتَ يرجوك من يرتجي ... ويرهبُ بأسكَ من يرهبُ
أمولاي أخرسني فضلكم ... فما لي لسانٌ به أعربُ

(1) ابن عذاري ص 44: كأنهم جمل أجرب.

ولو الجدتني لم تُشفني ... معدُّ بن عدنان أو يَعْرُبُ![1]
فما لي سوى حزبكم شيعة ... ولا غير مشعبكم مَشْعَبُ
[226] وحسبي به شرفاً أنني ... لآبي إلى مجدكم أُنْسَبُ
لمنتُ بحبكم كل ما أتقي ... ونلتُ بكم فوق ما أرغب

ووصل إلى أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين - رضي الله عنهم - فتح بوقعة كانت على المخالفين المرتدين بالمغرب فأمر أن يبتدئ الشعراء فيها بالحمد لله على طريق الكتابة.

فقال أبو عمر بن حربون في ذلك : (بسيط)

الحمدُ لله مُدْني شاسع الأمل ... وناظم الشمل في بلك من الجذل[2]
ومن أتاح لنصر الدين طائفة ... تضمنت ربي[3] هيم البيض والأسل
تضائل الضيغم العادي لصولتهم ... حتى اهتدى يتمشى مشية الوَجِل
ثم الصلاة مع التسليم يتبعها ... على الرسول الذي أشوقى ندى الرسل
على الذي تُمّمت أحكام ملّته ... مكارماً لم تكن في سالف الملل
ومن رضاه على المهدي أحقَّه ... كما هدى بسناه أرشد السُّبُل
لما اجتباه لنصر الدين أُيِّدَه ... بعصمة أمنته مدحض الزلل
ثم الدعاء لمولانا وسيدنا ... خليفة الله عبد المؤمن بن علي
هو الإمام الذي كانت فضائله ... تجل عن رتبة التشبيه والمثل
هو الجواد الذي جادت مواهبه ... بكل ما لم يقع في خاطر الأمل
[227] هم جددوا من رسوم الدين دارسه ... كان الورى وقفوا منها على طلل

[1] معد بن عدنان رأس قبائل العرب نمن (معد) كان نزار والد مضر وجمة قيس عيلان كما من يعرب فراجع التعليق رقم 1 ص 73 . هذا وتذكرنا هذه المبالغات في ادعاءات المتنبي وأضرابه، وبذلك فقد كتبت طرة يسرة حذين البيتين تقول: «الحشر عظيمة».
عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب ثالث 1121 - 1366.
[2] اقتصر ابن عذاري على أحد عشر بيتاً من هذه اللامية على عادته في الاختصار.
[3] أي أن هذه الطائفة عهد إليها بأرواء ظما البيض والأسل.

وجردوا للأعادي كل غادية ... تُسبي وتصبح منها الدهر في شغل
من معشر كلما انتاشوا عواملهم ... تجرعوا الصاب أو أمضوا إلى العمل
وللإمام أبي يعقوب مشبههم ... ومن تقيلهم في القول والعمل
ملك تظل ملوك الأرض تخشعه ... مستبشرين بأن عدوا من الخول
يسحب الناس من معروفه حُللاً ... وما له غير تقوى الله من حلل
إذا دنت دارهم فاعطف أزمتها ... واحطط رحالك فيها منتهى الرحل
وانزل لدى ساحة ربّا مباركة ... واشكر أيادي أيدي الخيل والإبل
قد يممتكم وحادي الشوق يحفزها ... والرّمل يشكو الذي يشكو من الرمل
وإن غلت شدَّة أزرت به ومنا ... تلقى القلوب بما فيها من الشغل
لم تقرب الدار إلا أرزمت طرباً ... قرب المزار يذكي وقدة الغلل!
لقد براها السُّرى حتى لو انتسبت ... لما عدت متن الخطية الذبل
إن أُسعد الصبح بن بلقائكم سفرت ... رسل الصبابة بين القلب والمقل
وكلما هبّت الأرواح واسية ... سنت لهادي المطايا سنة العجل
يا خير من يدعي الأبطال بأسهم ... والخيل من مستطير النقع في ظلل
ومن لهم راحة سمحاء قد خلقت ... لم يخجل الناس يا لو تحافة الهطل
ومن أبى الله أن تحصى مكارمهم ... إلا إذا ترك التفصيل للجمل
لو أن لبادلهم مما يجاد به ... نفسته ظباء القفر عن كحل
إنا قطعنا إليكم كل مرحلة ... تفسح منها قوات الأذرع الفتل
[228] حتى وردنا ورود الخامسات وفي ... لقائكم ما يفي بالعلّ والنهل
فنال بها خيل الفتح المبين فقد ... أهدى تحيته منكم إلى جبل
فما تعذر من أوطاركم وطر ... ولا بقت لكم حوجاء لم تنل

ولا تفتّق في البرّتين من خلل — إلّا وقد رتقته ربّة الحلل
بشائر عمّت الآفاق قاطبة — يدعو لها هُبَلُ[1] بالويل والهبل
لا شكّ في أنّ أمر الله أمركم — مؤلّف بين بيض الهند والقلل
أمرٌ تظلّ صروف الدهر تخلفه — فهمّا بشر تحدوها بالأمر تمتثل
لو نازعته سيوف الهند ما قطعت — ولو عصته رماح الخطّ[2] لم تطل
هابي فتوحكم بالغرب قد طلعت — على الأنام طلوع الشمس في الحمل[3]
وقائع حدثت بها القرى مُقَلاً — بلا جفون وأجفاناً بلا مُقَل
أنّى عَمُوا عن سبيل الرشد ويحهم — يا ضلّ من ضلّ في مهديّة الدول
سرّوا بعاقبة الإنعام عاقبة — تسومهم بين سهل الأرض والجبل
فأصبحوا عبرة تبدو لمعتبر — محتلّين بما راموه من جدل
لمّا أتتهم جنود الله أسلمهم — شيطانهم، والشمس تمشي على الجبل

(1) هبل: من أبرز الأصنام التي كانت في جوف الكعبة، وقد كان أمامه سبعة من القداح يستقسمون بها أمامه! تاريخ الإسلام ص 69 - 70 - 71.
(2) الخط: انظر التعليق رقم 1 صفحة 101.
(3) أحد البروج الاثني عشر وهو من البروج الربيعية والشمس في إبان الربيع به كما لا يخفى لذلك نرى الشاعر يشبه بها فتوح الخليفة، فإذا حلت الشمس فيه حصل الاعتدال الربيعي كما قال أبو نواس:
أما ترى الشمس في حلّ الحملا — وقام وزن الزمان واعتدلا
وهو أشرف البروج كما قال بعضهم:
يا أوحد الناس قد شيدت واحدة — فحلّ فيها حلول الشمس في الحمل
وقال الطغرائي:
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى — لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل!

لحاهم الله من بُلْهٍ إعاقتهم — راموا كفاح البزاة الشهب بالحجل!
ومن يحد عن سبيل المؤمنين يُحِد — بعدل كلّ أشمّ الكفّ معتدل
لم يبق من بغيها إلا افتراقكم — ثمّ الذي شامت الآمال من نحل
وبونكم قبل هذا من تحبّبنا — ما يفضح الروض غبّ العارض الهطل
لا زال أمركم حتماً وحضرتكم — معمورة الركن بالإقبال والقبل

[229] قال الفقيه الخطيب أبو محمد المالقي رحمه الله: استحسن الأمر - أدامه الله - لأبي عمر هذه القصيدة حين صاغ فيها المذهب المراد، وقصد فيها الاقتصاد، وسبق أصحابه الشعراء القصاد، وتقرب للأمر العزيز - أدامه الله - بأغراضه النبيلة فعلى ذكره وشاد.

(محاصرة الجيش الموحدي لحصن طبيرة)

قال المؤلف: وفي هذه السنة لازم الموحدون أعزهم الله حصن طبيرة[1] بالحصار، وللغادر الثائر فيها عبد الله بن عبيد الله[2] بالضيقة عليها والإسار، برّاً وبحراً، وسكنوا في حصن قسطلة[3] بعسكرهم المؤيد يضربون عليها نهاراً

(1) طبيرة (Tavira) تقع على شاطئ البحر المتوسط في الشرق الجنوبي لمدينة شلب وقد نسب إليها جماعة من الأئمة، منهم أبو محمد عبد العزيز بن الحسين الطبيري المتوفى سنة 487، هذا وطبيرة غير طلبيرة (Talavera) التي تقع في الشمال الغربي لطليطلة، وقد ترجم الحميري في الفرق بينها. المعجب (القاهرة) ص 374 الروض المعطار ص 123 - 127 - 128 - المعجم جزء 4 ص 21.
(2) لم نقف على ذكر لعبد الله بن عبيد الله هذا الذي ثار منذ سنة 546 ولعله كان ضمن الذين ذكروا في كتاب ثورة المريدين بيد أننا لم نجد صداه في القطعة اليسيرة التي تخلفت من هذا الكتاب..
Huici T II page 235.
(3) قسطلة (Cacela) تقع في غرب الأندلس في الشمال الشرقي من طبيرة على مقربة منها على شاطئ المحيط الأطلسي. هذا هو المقصود هنا، وهناك مواضع أخرى من الأندلس تحمل اسم قسطلة.
الروض المعطار صفحة 160: الحلل الموشية أول 86. ديوان ابن دراج القسطلي: نشر محمود علي مكي صفحة 30 - 31 - 32.

وليلاً، وينالون من أعدائهم كل ساعة نيلاً، عزماً منهم عليها في دفع ضررها، ورفع شرها الذي استشرى فيها، من أول عام ستة وأربعين وخمس مائة إلى آخر عام ثلاثة وستين وخمس مائة باجتماع الفسقة في داخلها من أصناف الدايرين من أهل الشرف والسرف بالفسق والعصيان، وإذاية المسلمين في البر والبحر من كل البلدان، فكانت شجىً على أهل العدوة والأندلس في نهب أموال المسافرين والتُّجار في البراري والبحار. وقد كان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أيام إمارته العزيزة بإشبيلية نازلها مرتين فعصت عليه، وامتنعت بفسّاقها لديه، حتى فتحها الله له في خلافته بسعده ويمنه [230] عقب شهر ذي القعدة من السنة المؤرخة بعد ما كان إبعاد النجعة في نيلها، واليأس من إصباح ليلها، فيسرها الله تعالى بيمن أمير المؤمنين إذْ لكل أجل كتاب، وإتمام المواعيد أقدار محتومة وأسباب، فسر أمير المؤمنين بارتفاع شغبها، وانقطاع نفاقها الطائل في السنين وتوبها، وقد شرحت حالها ومن نافق داخلها في (تاريخ المريدين).

(التجاء فرناندة للموحدين ومقامه مكرماً بمدينة مراكش)

وفي هذه السنة أيضاً سنة ثلاث المؤرخة وصل فرنانده [1] رايس النصراني - صاحب ترجالة [2] الشهير النسب والشهامة عند النصارى - أهلكهم الله - صهر أدفونش السليطين [3] صاحب طليطلة - فتحها الله - إلى

(1) فرنانده (Fernando Rodriguez) وقد ثبت في المخطوط بعد اسم فرنانده كلمة رايس ولعلها تحريف عن رودريكز كنية الكلمة الثانية، وقد أغفل رسم الكلمة نهائياً.
Huici p. 234.
(2) ترجالة (Trujillo): تقع غرب طليطلة في الشمال الشرقي من بطليوس وفي الجنوب الشرقي من قاصرش. يقول الحميري إنه حصن منيع ذو أسوار وأسواق.
الروض المعطار ص 63 - الحلل الموشية أول ص 100.
(3) أدفونش السُّلَيْطين صاحب طليطلة هو بالذات الامبراطور ألفونسو السابع صاحب طليطلة عاصمة قشتالة: (Alfonso VII el Emperador) وهو الذي يحمل اسم ريمونديس، وقد نقلت المصادر المسيحية أنه توفي في طريق مورادال (Muradal) في 21 غشت سنة 1157 (13 رجب 552) على إثر اشتباك مع الموحدين إلا أن هذه المصادر تتردد في سبب وفاته هل أنها كانت تأثراً من الجراح -

إشبيلية - حرسها الله - في شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة بنفسه وإخوته راغباً أن يكون خديماً لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيدهم الله - منابذاً لشيعته الكافرين، فاستأذن له الموحدون الذين بإشبيلية حضرة أمير المؤمنين بمراكش - أدام الله علاءها - فأذن له في الوصول، فمشى إليها بأصحابه وإخوته الواصلين معه، وأقام في الحضرة العلية خمسة أشهر تحت إحسان من الأمر العالي وامتنان وعطاء جزيل، وإسكان كفيل، وألّف قلبه بالإنعام الحفيل، حتى كاد أن يسلم، وعاهد الله في نصح الأمر بالخدمة المجتهدة واستسلم، وضمن عن نفسه عن [1] ثغور بلاد الموحدين، وأن يكون [231] رِدْءاً لهم حليفاً للمسلمين، فانصرف تحت هذا الإحسان، والصلح التام منه بالإيمان، وأمر له الأمر العالي - أدامه الله وخلده - بمواساة إخوته وأصحابه مع الموحدين - أعزهم الله - في كل شهر فكان ذلك.

- التي نالته أم أنها موت طبيعي. وتؤكد المصادر العربية وفاة ألفونسو السابع الذي تسميه السُّلَيْطين بهذا التاريخ، فقد احتفظ لنا التاريخ برسالة موحدية بليغة من إنشاء أبي عقيل عطية بن عطية تخبر بفتح المرية وبياسة وأبذة وموت السليطين وحررت هذه الرسالة في العشر الأول من شعبان 552 شتنبر 1157، لكنها في المصادر العربية تؤكد أنه مات متأثراً بجراحه.
ابن عذاري 65 - ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 351 - بروفنصال رسائل موحدية ص 81 - 71. أشباخ: تاريخ الأندلس ترجمة عبد الله عنان ص 231 - 255 - 258.
Huici Historia Politica page 179 - 138 - 234.
راجع التعليق رقم 3 ص 97 وراجع التعليق رقم 3 ص 153.
Dozy: Recherches 115.
Melchor Antuna: una version arabe compendiada de la Estoria de Espana de Alfonso el sabio.

(1) لعل لفظة عن زائدة.

(طلب فرناندو البيوج مهادنة الموحدين)

وفي هذه السنة أيضاً تابعه بالصلح صهره فرناندو البيوج[1] بن أدفونش المعروف بالشُّليطن[2] صاحب السبطاط[3] بعد ابتنائه لها[4]، ورغب في المهادنة وأن يكون مع الموحدين ـ أيدهم الله ـ وعوناً لهم بعسكره على أعدائهم، وذكر أن بينه وبين القمط نونه[5] ظهير[6] ابن أخيه أدفونش الصغير[7]

(1) راجع التعليق رقم 3 ص 97 ورقم 3 ص 153 ورقم 1 صفحة 284.
(2) الشُّليطن نعت لأدفونش، وقد علمت أن السليطن وهو الفونسو السابع توفي في 13 رجب 552.
(3) صاحب السبطاط يعني فرناندو بالرفع نعتاً ثانياً لفرناندو البيوج، وحول السبطاط راجع التعليق رقم 3 ص 153.
(4) انه يريد بعد ابتنائه لمدينة السبطاط.
(5) يعني به القمط نونيه بيرير دولارا (Nuno Perez de Lara)، ويذكر التاريخ أن القيصر الفونسو السابع (ريمندس) خلف من البنين سانشو الثالث وهو أكبر أولاده، وكان ملكاً على طليطلة كما ترك فرناندو الثاني (البيوج) الذي كان ملكاً على ليون، ولقد كان شانجو الثالث رشح في حياته طفله الصغير للحكم، ولكنه عرض أن يسند النيابة في الحكم لنمو الطفل فرناندو (البيوج) جعلها تسلل من أسرة كاسترو، فحقدت أسرة دي لارا، والتجأت إلى عمه ليحمي ابن أخيه، وسالتقل احتل العم معظم قشتالة وأعلن توليه الوصاية على ابن أخيه سنة 554 (1159) لكنه كان شديداً في مساندة آل لارا، إذ كان ـ في الحقيقة ـ يقصد إلى انتزاع الحكم من ابن أخيه . . . وهكذا طلب إليهم تسليم طليطلة عاصمة قشتالة . . . ثم اتفق ـ حفظاً للعهد ـ على تسليم ذلك الطفل لأسرة لارا . . . لكن حرباً جديدة نشبت، هلك في أثنائها الكاريش دي لارا سنة 560 (1164) وعندما أعلن أخوه (القمط) نونيه عن نفسه كوصي على عرش قشتالة واسترجعت أسرة لارا علوة على العاصمة ونادت بالطفل el Rey chico وهو ابن إحدى عشرة سنة، وذلك في عام 562. فالتجأ فرناندو (البيوج) إلى طَرْق أبواب الموحدين وأمير الموحدين من أعداء قشتالة لمحاربة ابن أخيه، وإخضاع نونيه. أشباخ: ص 271.
O L A G U E: Histoire d'Espagne page 160 - 169.
(6) كذا في الأصل وهو نعتٌ للقمط وفي ابن عذاري ظهير. وقد استعمل ابن خلدون هذا اللفظ كذلك والمعنى حليف ونصير. انظر صفحة 303 من ابن عذاري وابن خلدون سادس 781.
(7) لفظ الصغير هنا في محله فنحن نعلم أنه بالفعل كان طفلاً، ولا يلتبسُ وصف الصغير بوصف بالسليطن الذي هو جده: الفونس السابع، هذا وإن هذا الصغير هو الذي سيحمل لقب الفونسو الثامن وهو الذي ملك نحواً من ثلاث وخمسين سنة. ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص 331. راجع التعليق رقم 3 ص 284.
Halci page 178 - 179.

صاحب طليطلة ـ دمّرها الله ـ فتنة ملتحمة على منازعة ملكهم، وأكد الرغبة ـ مع صلحه ـ في عسكر من عساكر الموحدين ـ أعزهم الله ـ يبعث به إليه إلى مدينته بالسبطاط، ليقاتل بهم نونه القمط المنازع له عن ابن أخيه في بلاده، فأمر له أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ بعسكر إشبيلية، فمشى عليه مقدماً الشيخ الناصح الموحد أبو العلا بن عزون، والحافظ أبو علي بن تيمصليت[1]، والحافظ أبو عمران موسى بن حمو، ووصلوا إليه بالعسكر المؤيد إلى بلاده وقاتلوا أعداءه ببلاد قشتيلة[2] ووصلوا إلى أقصى نظره ببلدة أشتريش[3]، وغزوا من حاربه، وسالموا من سالمه، وأقاموا عنده [232] في هذه الغزوة خمسة أشهر، ثم انصرفوا عنه سالمين مأجورين، وقد اغتبط بنصرهم، وارتبط للصلح الذي ربطه بأمرهم، ووادعوه أنه متى سمع بعدو من النصارى يطرق بلاد أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بغدر أو مكر أن يكون لذلك العدو معهم دافعاً، وحامياً لحماهم مانعاً، ويظهر من البدار ما يحوز به في ملة الوفاء في مذاكرة الأخبار، فأجاب إلى ذلك، وحلف في بيعة بلده بالإيمان من دينه هنالك؛ فوفّى بما عاهد، وربط بإيمانه ولسانه وعاقد، ووصل بعسكره إلى مدينة بطليوس وقاتل فيهم صهره ابن الرنك[4] ـ لعنه الله ـ حين تملكها بغدر جرانده[5] اللعين وهزمه في داخلها وأخرجه عنها

(1) الحافظ ابن تيمصليت من كبار قواد الموحدين، وقد ظل متنقلاً بين الأندلس والحضرة العلية في عدوة العدوة، ثم نصب والياً على مدينة باجة سنة 570 بعد أن رفت القديمة، وقد أسر صحبة ابن وزير واستشهد وهو يوسف في ثورة واحلال سنة 574.
(2) قشتيلة (Castilla) وكنا نرسم على نحو ما فعل ابن صاحب الصلاة فإنا نرسم هكذا قشتالة وقشتيلة وربما رسمت قشتلة، ويحددها الحميري قائلاً: ما خلف الجبل المسمى بالشارات (شمال طليطلة وجنوب شقوبية) من جهة الجنوب يسمى إشبانيا، وما خلفه من جهة الشمال يسمى قشتالة. ويفصل بين أجزائها نهر دويرة (Duero). الروض المعطار ص 161 تعليق بروفنصال ص 193 (بالفرنسية) انظر الخريطة.
(3) أشتريش: (Asturias) تقع شمال قشتالة القديمة وشمال ليون. خريطة بروفنصال في الروض المعطار.
(4) انظر التعليق رقم 1 ص 96.
(5) راجع التعليق رقم 2 ص 274.

حسب ما أذكره بعد هذا إن شاء الله، وكان فعله لطفاً من الله تعالى.

ذكر الأحداث من غدر العلج الجليقي جرانده لعنه الله البلاد والحصون بالغرب[1] والجوف[2]

قال المسعودي في كتابه المسمّى بمروج الذهب ومعادن الجوهر، في ذكره لأصناف الروم: «وأشد ما على أهل الأندلس من الأمم المحاربة لهم الجلالقة على أن الافرنج حرب لهم غير أن الجلالقة أشد[3] بأساً». وكان ادفونش بن الرَّنك الغادر الجليقي [233] صاحب قلمرية[4] لعنه الله قد عاين من نجدة هذا الكلب جرانده[5] ونشطه لغدر البلاد والحصون ما أعانه على ذلك برجاله، وسلّطه على المسلمين في الثغور بأرجاله، فكان الكلب يسلك في الليالي الممطرة الحالكة المظلمة الشديدة الريح والثلج إلى البلاد، وقد أعدّ آلات من السلالم من أطول العيدان تعلو سور المدينة التي يؤم ويروم، فإذا نام السامر المسلم في برج المدينة، ألقى تلك السلالم إلى جانب البرج، ورقي عليها بنفسه أولاً إلى البرج وتقبّض على السامر، وقال له: «تكلّم على ما كانت عادتك لئلا يشعُر الناس به» فإذا استوفى طلوع جملته اللعينة في

(1) انظر التعليق رقم 3 صفحة 94. غرب الأندلس البرتغال الحالية.

(2) يعني الأقصون بالجوف الناحية المقابلة للقبلة فهناك شرق وغرب، وهناك جنوب يعبر عنه بالقبلة وشمال يعبر عنه بالجوف.
القرطاس أول طبعة الرباط ص 79 - 84 - 86.
ابن الخطيب: اللمحة البدرية 1347 - 12.

(3) ساق ابن صاحب الصلاة نص المسعودي بالحرف الواحد باستثناء تغيير يسير في بعض الألفاظ. فقد كانت عبارة المسعودي. الأمم المجاورة وليس المحاربة وعوض الافرنج عبر بالافرنجة... المسعودي الباب الخامس والثلاثون. ذكر الافرنجة والجلالقة وملوكها وما يتصل بذلك. نشر دوميتا ردوكورتي ص 72. نفح الطيب. المقري ذكر مادة الجلالقة ص 145 - 147.

(4) راجع التعليق رقم 1 ص 96 والتعليق رقم 2 ص 153.

(5) راجع التعليق رقم 9 ص 436.

أعلى سور المدينة صاحوا بلغاتهم صيحة عظيمة منكرة، ودخلوا المدينة وقتلوا من وجدوه واستلبوه، وأخذوا كل من فيها سبياً ووثيقاً. وقد كان النصارى أهل شنترين - أهلكهم الله - غدروا مدينة باجة[1] ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة الموافقة أول ليلة[2] دجنبر، من عام سبعة وخمسين وخمس مائة، سكنوها أربعة أشهر وثمانية أيام، ثم هدموا أسوارها وأقفروها وغدر جيرانده - لعنه الله - أولاً من غدراته مدينة ترجالة في شهر جمادى الأخيرة عام ستين وخمس مائة، ثم غدر مدينة يابرة[3] في شهر ذي القعدة من عام ستين وخمس مائة وباعها من النصارى - أهلكهم الله -، وغدر مدينة [234] قاصرش[4] في صفر عام واحد وستين وخمس مائة، وغدر أيضاً حصن منتانجش[5] في جمادى الأولى من عام واحد وستين المؤرخ، ثم غدر حصن شربة[6] في عقب جمادى الأول عام واحد وستين المؤرخ أيضاً، ثم غدر حصن جلمانية[7] على مقربة من بطليوس وسكنه بجملته الذميمة يقاتل منه بطليوس، يؤذي

(1) باجة (BEJA) مدينة بالبرتغال تبعد عن اشبونة بـ 154 ك. م جنوباً، وهي من أقدم مدن الأندلس بيتاً وأولها اختطاطاً. منها أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف شارح الموطأ، وإليها ينسب عبد الملك بن صاحب الصلاة أنظر ص 13 من هذا الكتاب الروض المعطار: 36 - 37.
القاضي: البيئة يوليه 1962 صفحة 21.

(2) كان السبت حسب جداول كاظتروز يوم 21 من ذي الحجة وهو فعلاً يوافق فاتح دجنبر 1162.

(3) يابرة (Evora) تقع شمال باجة وهي مدينة قديمة إليها ينسب ابن عبدون اليابري الشاعر، وقد وردت في قصيدة عيسى ابن الوكيل التي مدح بها علياً ابن القاسم بن محمد بن عشرة القاضي سلا في قوله:

ضربت بأرض الغرب أُسرُّق قلبه ... فأرت سلا شرقاً ويابرة غرباً

الروض المعطار 187 - 198.

(4) قاصرش (Caceres) يقع في شمال بطليوس، أنظر الحلل السندسية جزء أول ص 100.
Haici: p. 232.

(5) منتانجش (Montanchez) يقع شمال بطليوس وجنوب قاصرش وإليها ينسب أحمد بن محرز الشانجلي. الصلة: نشر بروفنسال ص 25. التكملة 1955 رقم 74.

(6) حصن شربة (Serpa) ويقع جنوب بطليوس.

(7) (Juramenha) يقع أيضاً جنوب بطليوس ولكنه أقرب من شربة، شمال مدينة يابرة.

المسلمين فيها، حتى مكن الله سيف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين منه على ما أذكره بعد هذا في موضع ذكره. ثم غدر مدينة بطليوس.

ذكر غيرة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه لله وللدين العاجلة بالنظر لحماية المسلمين على العموم بتجهيز عساكر الموحدين أعزهم الله وبعثهم إلى جزيرة الأندلس في حمايتها من صنفي المنافقين المحاربين والكافرين.

قال الراوية: وان أمير المؤمنين خلّد الله أمره، وأبقى على الأيام فخره، تأثّر وغار لله تعالى، وجرد نظره العزيز لغوث الأندلس والاحتواء لنصرتها وحمايتها، وقصد العمل في ذلك من الجهاد لله عزّ وجل في نفسه قصد المباشرة والمشاهدة، إشفاقاً على المسلمين ودفاعاً عن الدّين، حين رأى العدو قد [235] فغر عليها فماً، وأسال دموع أهلها دماً، حسب ما ذكره.

سنة أربع وستين وخمس مائة(1)

في أولها هدأت الفتن في العدوة وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب ورخصت الأسعار، ودانت الأوطار، وانقطعت فتنة الضلاّل الجهّال، أهل الجبال، وتابوا وأنابوا، ودُعوا للجهاد فأجابوا، وعاينوا الآيات البينات من لطائف الله تعالى بنَصْره المبين، ووصول النصارى الكافرين راغبين في الصلح والخدمة بأنفسهم ضارعين طائعين، فصفت لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه مشاربُ هذه الجبال من الفتن، وغسل الأمر العزيز والقهر

(1) بالرغم من أن ابن صاحب الصلاة دأب على تبويب الأحداث مقتفياً على طريقة السنويات فقد ساق بعض الأخبار كما جرى سنة 564 - 565 - 566 - 567 - 568 - 569. قبل هذا التاريخ انظر صفحات 150 - 151 - 152.

يطالعها ثيابها من دنس النفاق والدَّرَن، فنظر ـ خلد الله ذكره في الخلفاء المرضيين الراشدين المهتدين ـ في بعث عسكر مبارك شهم اختاره من الموحدين ـ أعزّهم الله ـ وميزهم، ووجّهه صحبة الشيخ الأجل المرحوم أبي حفص عمر بن يحيى إلى قرطبة لحماية الأندلس، تقدمةً لما أمله في نفسه ـ رضي الله عنه ـ من جواز الموحّدين معه، فكان هذا الجيش أيمنَ جيش، أظهر على قلوب المنافقين والكافرين من الروع أعظم طيش، ونغّص من لذّات عيشهم أسوأ عيش، وتيمّن أهل الأندلس بوصوله [236] وحُلوله، وكتب إلى أهل الأندلس هذه الرسالة الكريمة المعربة عنه بوعد نصره، ونظره العزيز وأمره.

حدّثني أبو محمد سيد راي بن وزير قال: كان السببُ في تعجيل حركة الشيخ المرحوم أبي حفص إلى الأندلس بالعسكر المبارك من حضرة مراكش، وصول الخبر بغدر اللعين جرانده الجليقي بطليوس، وتملّك ابن الرنك الغادر صاحب قلمرية لها، وحصر الموحدين اللذين فيها لقصبتها، مع حافظهم أبي علي عمر بن تيمسليت، وذلك في شهر رجب الفرد من عام أربعة وستين وخمس مائة المؤرخ به، وأنهم في ضيقة من الحصار، وتحت أجل من الكفار، فأمر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بضرب الطبول والخروج، وركب بنفسه من فوره غازياً، وخرج من مراكش ونزل في تانسيفت(1) على مقربة من مراكش عازماً على الغزو إلى الأندلس، وأقام فيها ثلاثة أيام على هذه النية، فاجتمع رأي الموحدين ـ أعزهم الله ـ على أن يتقدم

(1) تانسيفت: نهرٌ عظيم من أنهار المغرب تسقي مياهه حوز مراكش في طريقه إلى مصبه بالمحيط الأطلسي بين أسفي والصويرة يبلغ طوله نحو 250 كلم. ويصف الادريسي هذا النهر بالعبارة الآتية «وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر ثم يسمى تانسيفت وليس بالكبير ولكنه دائم الجري، وإذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقي ولا يذر».
الادريسي: المغرب والسودان ومصر والأندلس ص 69 نشر وترجمة دوزي. دي خويه ليدن 1866.
الصديق ابن العربي: كتاب المغرب ص 80: الطبعة الثانية.

الشيخ المرحوم أبو حفص بالعسكر المبارك، على ما ذكر في الرسالة وشرح فيها من الأحوال، المعربة عن الآمال، فكان انصراف أمير المؤمنين وتقدّم الشيخ على ما ذُكر، وهذا نص الرسالة الكريمة من إنشاء أبي الحسن بن عياش، وكانت الحركة منه في شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين [237] وخمس مائة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على محمّد وآله وسلم والحمد لله وحده مِنْ أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيّده الله بنصره، وأمدّه بمعونته، إلى الطلبة الموحدين من الذين بجزيرة الأندلس، أدام الله توفيقهم وكرامتهم. سلامٌ عليكُم ورحمةُ الله تعالى وبركاته، أمّا بعد، فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلّي على محمد نبيه المصطفى ورسوله، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم القائم بأمر الله تعالى والداعي إلى سبيله، ونوالي الدُّعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين مُمَشّي أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله، وإنّا كتبناه إليكم - وصل الله توفيقكم وكرامتكم بتقواه - من حضرة مراكش - حرسها الله - والذي نُوصيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه. وهذا الأمرُ العزيزُ بما وعده الله من النَّصْر، وضَمِنَ لهُ من التأييد، وتكفّل له من التمكين، وأراد من تبسّطه وامتداد ظلاله، واتصال بضماره، وخُلوصه إلى كافّة الأرجاء، وتغلغله في كلّ الأنحاء، لإكمال دينه، وإتمام نوره، وبثّ دعوته، وتصديق دعوته لا تزالُ شواء...[1] المحافظةُ لصُوَره، المبقيةُ لأثره، المُثَبِّتَةُ لأركانه المحكَمة لقواعده، تُتيح [238] من الأسباب المقويَة واللطائف المتهيئة، والمعاني المبنية على سَرَيانه، المزعجة لسَرَبه وجريانه، بما يُؤذِن له بانجاز موعوداته، وتبليغ مقصوداته، حتى يستولي على مَداه الذي لا غاية بعده، ويقفُ على مُنتهاهُ الذي لا مَطلع وراءه، يقيناً اطمأنت بمقدّمات العلم به القلوب، وقرّت على ظهور براهينه النفوس، وعضّدته الآيات البيّنة، ونطقت

[1] هنا كشط قد يقرأ هكذا (سواء).

به الآثارُ المفصِحة، وتناذت[1] شواهد أحواله لمن ألقى السَّمْعَ وهو شهيد، وما زلنا وفّقكم الله على إتمام العناية بتلكُمُ الجزيرة مهّدها الله، والحِرْص على غوثها، والاحتواء لنُصرتها، والعمل على قصْد ذلك بالمباشرة والمشاهدة، إشفاقاً على ما استضام منها، جيرتها الأعداء، وأبناؤها الأعقّاء، مُجْسمين وروماً وما كانُوها به من التكلُّب والتحيُّف والتنقُّص وفغْر الأفواه، وكثْرِ النيوب والإرصاد لغيض ما فاض فيها من نور التوحيد، وخفض ما نصب من أعلام هذا الأمر، والمناصبة للمتحاشين إليه، المتعلقين بأسبابه، المستظلين بظلّه، ممن مَحَضَ ولاءه، وصدقت طاعته وخلص على السَّبك، ونصَع على النَّشر، ونجعل لها من الفكر حظّاً يستحق الصّدر، على ما سواها[2] من الأفكار، ويأخذ السَّبْق على غيره من مقتضيات الأمور، ونراه مِنَ الأهمّ [239] الأحقّ، والأوّل الأولى، قياماً بحقّ الله في جهاد أعدائها ومكابري مناويها[3]، ومَن لم تنفعه العِبَر على مُرُورها على بَصَره، وتواردها على مشاهدته وإعلانها به، ولم يَقرَعْ سمْعاً دعوة الحقّ التي ملأت الخافقين وقرعَ صَوتُها مسامعَ الثقلين، ونمكّن أسبابَ التفرّغ لذلك، والتوسّع فيه والنظر في أشكاله، فتعترض مِنْ أقلّ هذه المغارب شواغِبُ يُثيرها الجُهّال، وينفخها النّفثة الضُلّال، فلا يَسَعُ إهمالُها ولا يَسُوغ الإضراب عنها، قياماً بحقّ الدّين، وتوقّياً من استشراء الشرّ، وتوفّر أسباب الفتنة، فينصرفُ إليها من الالتفات والقصْد لحَسْم عِلَلها وإبراء أدوائها، ما يُخْمِد غيابَتها ويُظهِر انقداعها، ويُفضي إلى المقصود الأول من التفرّغ للجزيرة - مهّدها الله - والتوطئة لأمرها، وما قبل الاشتغال بهذا القُرْب يلمّ بأرجائه، ويشتمل على جوانبه ويتخلّل زواياه، وينظّم أوعاره وسهوله، حتى صفّى الله مشاربه، وخلّص من الشوب مشارعه، ووقف بأقلّ الانتزاء من أصناف مشاغبيه على تائب أناب بقلبه، ونادم على ما فرط من ذنبه، وعلى شقيّ تمادى في غُلوائه، ولجّ في تمرّده،

[1] كذا في الأصل ويظهر أنه تحريف من (تنادت).

[2] هنا سطر مكرر في أصل المخطوط إبتداء من (ونصع).

[3] يوجد كشط لأول الكلمة، ولعل الأصل مناويها.

فولّى كلَّ ما استحق، وبيّن جِهَةَ ما رضي، ووجد التائبُ برد الأمان، وتبوأ كنف الإحسان، وحقّت على العاصي كلمةُ العذاب، وأشفى به التباب، والصَّيْرورة إلى سُوء المآل وشرّ المُنقلب، وما ربُّك [240] بظلّامٍ للعبيد، ولمّا تولّى الله هذه الجهات منّة التمهيد، وبسط لها بمنّة التسكين والتوطيد، انعطفت النظرُ إلى محلّ مثاره، وسالوا سُبُلَ الاعتناء إلى قراره، وتوجّه حفلُ الاشتغال إلى الجزيرة ـ مهّدها الله ـ وتوفّرت دواعي الاستعداد لنُصرتها وجهاد عدوّها، ورأينا في أثناء ما نُحاوله من مَرُوم هذه الغزوة الميمّنة المباشر أن نقدّم بين أيدينا عسكراً مُباركاً من الموحدين ـ أعانهُم الله ـ صحبة الشيخ الأجلّ أبي حفص ـ أعزه الله ـ يكون طليعةً لجواز جمْهُور الموحدين ومؤذناً بما عزمْنا عليه ـ والله المستعان ـ من التحرك بجملة أهل التوحيد والقصد لهذا الغزو الميمون الذي جعلناه نصب العين، وتجاه الخاطر؛ فتعاونون مع اخوانكم، الواصلين على بركة الله إليكم، على جهاد أعدائكم إلى أن يوافيكم إن شاء الله هذا العزم، ويلمّ بكم هذا القصد، ويعتمدكم هذه الحركة المُحكمة أسبابُها، المبرمة أمراسها التي انعقدتْ بها النيّة، واحتدمت لها في ذات الله الحمية، واستعانتْ بتوفيق الله في تأصيل أصُولها الفكرة الموجّهة والرّوية، وإذا لترْجُوا من المبلّغ لآمال القلوب، المتفضّل بإدراك كلّ مَطْلوب، أن يَهبَ فيها من العوْن ما يتمّم مُبتدأها، ويكمل منشأها، وتُشفى به صُدورُ أوليائه بالنّقمة في أعدائه، وأن فضله تعالى ليَسمح ببلوغ هذه الأمنية، والإطلال بها [241] على كل شرف وثنيّة وَمَا ذَلك على الله بعزيز، وإذا طالعتم ـ وفقكم الله ـ هذه الأنباء واستعلمتُم ما في ضمنها من البشائر وعُنوانات الفُتوح وآثار هذه القصود، وحملتم ذلك على الثّقة بما وَعَد الله هذا الأمر والتلفُّت إلى ما عوّده، رأيتُموها تُغني تخولكم، وتُخفي انتحكم وأنتكم وشرحتم لها صدوركم وعمّرتم بها أحناءكم وشغلتم بها مشاهدكم وسررتم بها غايبكم وشاهدكم، وأذعْتموها إذاعة تثلج بها صُدور الأولياء، وتحرج منها صدورُ الأعداء، ويكونُ للمؤمن منها مطلعُ أمل، وللكافر مطلعُ هَوْل ووَجل، وعرّفكم الله شكرَ النعمة بها، وأعانكم على أداء واجبها، وبلّغكم الفائدة الجميلة منها، بمنّه ويُمنه، وإذا

وصلكم هذا الكتاب فأشيعوه قراءةً على مَن حضركم من أصناف الناس، وإرسالاً بنسخه إلى مَن نأى عنكم، حتى يجد أثرَ الاستبشار به ويترقّب بموقعه الغائب والشاهد، والحاضرُ والبادي إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مائة.

(تحرير بطليوس بمساعدة فرناندو)

وكان من يُمْن هذا العسكر ـ المبارك أنه لما وصل إشبيلية سالماً صحبة الشيخ المرحوم أبي حفص، بينما هو عازم على الحركة لغوث المُسلمين، ودفاع العدو الغادر ابن الرنك ـ لعنه الله ـ [242] عن غلبته على مدينة بطليوس، وحمايته للموحدين المحصورين بقصبتها، وهو قد أخذَ واستعدَّ لذلك، وإذا البشير قد وصل معلماً ـ بلطف الله وتأييده لهذا الأمر العزيز ـ بأن فرناندو المعروف بالببوج بن أذفونش السليطن[1] صاحب مدينة السبطاط وأبلة[2] وليون[3] وسمورة[4] فقد وصل بجمعه وحفله من الخيل والرجل حامياً للمسلمين دافعاً لصنفه الكافرين[5] عن مدينة بطليوس طاعة منه إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، رضي الله عنه بلطف الله تعالى. وقال: إنه لما وصل إلى مقربة من بطليوس وجّه منها رسوله إلى الحافظ أبي علي عمر بن

(1) غير خاف أن (السليطن) نعت الأذفونش لا لفرناندو، وهو فعلاً والده. راجع التعليق رقم 3 ص 284 ورقم 5 ص 286.

(2) أبلة (Avila) وتقع شمالي مدريد الغربي بينها 113 ك.م، وإليها ينسب الأبلي شيخ ابن خلدون المتوفى سنة 757. الفاسي (البينة يوليه 1962).

(3) ليون (Leon) تقع شمال سمورة وهي قاعدة من قواعد قشتالة. الروض المعطار ص 174.

(4) سمورة (Zamora) وتقع أيضاً في شمال الأندلس جنوب مدينة استرقش وهي دار مملكة الجلالقة على ضفة نهر دورو. الروض المعطار ص 98 - 99.

(5) ورد في عبارة المؤرخ الألماني يوسف أشباخ ما نصه: «وأتيح حينئذ للمسلمين المحصورين أن يشهدوا منظراً غريباً هو منظر القتال بين جيشين نصرانيين وملكين نصرانيين من أجل الاستيلاء على المدينة» انظر تاريخ الأندلس لأشباخ ترجمة عبد الله عنان الطبعة الثانية ص 280.

تيمصلت المحصور بالقصبة مع الموحدين، وأهل المدينة من الناس الأندلسيين يقول لهم «أبشروا، فإني واصل لكم صدوكم عنكم، وانتظروا في مدارتي كيف أدخل عليكم» فنقب الحافظ باباً في سور قصبة بطليوس من جهة خفية لا يعلمها النصارى أصحاب ابن الرنك لعنهم الله، فلما تحققوا وصول فرنانده البيوج ومنابذة الحرب بينه وبين ابن الرنك فتحوا ذلك النقب، وخرجوا بجمعهم منه إلى باب قريب من أبواب المدينة وفتحوه، وأدخلوا منه عسكر فرناندة المذكور وهو معهم على ابن الرنك وعسكره، فتقاتلوا في المدينة بداخلها مع النصارى، والموحدون المحصورون يعينون أصحاب فرناندة [243] المذكورين، وهم قد سوّوا صفوفهم ولبسوا الدروع المحكمات، واتلقت على رؤوسهم البَيضات، وحصنت أعضادهم السواعد والساقات، ورأى ابن الرنك - لعنه الله - مع عسكره الذميم من تصميم الموحدين المؤمنين وأصحابهم في قصدهم، والإقدام عليهم وتوطيتهم الأنفس على قراعهم، وصدقهم، ما أيأسه من الحياة ومن بطليوس، وأصحاب فرناندة البيوج مجدون مع المسلمين على عسكر ابن الرنك حتى هزمهم الله تعالى بيُمن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وفرّ ابن الرنك اللعين مدبراً مهزوماً، فلما أراد الخروج من باب مدينة بطليوس وهو منزعج، وفي شدائد الخوف مدروج، كان عمود باب المدينة مصلوداً، وقد أعدّه الله تعالى أن يكون من جنده مملوداً، فانضغط اللعين ابن الرنك في الخروج، والاستعجال بالفرار والهروج، فكسر عمود الباب فخذه اليُمنى، وسقط في الموضع مغشياً عليه، فاحتمله الكفرة أصحابه إلى الموضع المعروف بقاية[1] على قرب من بطليوس، فاتبعه فراد فرناندة البيوج المذكور، واستاقوه أسيراً إليه، وقيّده في الحديد، ثم أطلقه برغبة النصارى وسرّحه إلى قلمرية بلده مهزوماً ذميماً، ولم يركب من ذلك اليوم فرساً أبداً، إلى أن هلك لعنه الله وأدخله الله النار! وفرّ جرالده الجليقي الغادر إلى موضعه [244] حتى مكّن الله منه سيف أمير

---

(1) قاية (Caia) ويقع على مقربة من بطليوس غربيها.

المؤمنين بن أمير المؤمنين، على ما أذكره في موضعه بعد هذا[1] إن شاء الله تعالى، وفتح الله هذا الفتح العظيم الجسيم، وصرف بطليوس إلى الإسلام أحسن صرف، وكان في أمرها عناية من الله تعالى جلّت عن النعت والوصف، ووفّى فرناندة البيوج لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه فيما عاهده عليه وصدق في إيمانه، ورأى بعد ذلك من الإحسان والإنعام جزاءً على حسن عهده ما لم يتخيله في نفسه وما استغربه في زمانه، حسب ما أذكره بعد في موضعه إن شاء الله[2]. وأُسلم مدينة بطليوس للحافظ[3] عمر بن تمصليت المذكور، ورغب له الحافظ أن يدخل القصبة ويراها فأبى له من دخولها، وقال بكلامه العجمي: «إنما هي دار أمير المؤمنين ولا أدخلها إلا بأمره، وقد فعلت ما أوجب عهدي وربطي وودي!» وكان خروج النصارى عنها في الثاني والعشرين من شعبان المبارك من عام أربعة وستين المؤرخ. ونقل الله الموحدين المحصورين وأهل بطليوس إخوانهم أثقال[4] النصارى: ابن الرنك لعنه الله وأزوادهم التي كانوا استكثروا منها لطول ترددهم وإقامتهم في داخل المدينة المذكورة ما اقتاتوه مدة طويلة، وكذلك أمتعتهم [245] وثيابهم، وولّوا أدبارهم وقد أنزل الله بهم النقمة، وأحلّ بهم الدبرة، ووكل بهم الحسرة

---

(1) هذه إحالة من ابن صاحب الصلاة على السفر الثالث المفقود، وينقل (البيان المغرب) خلف على ما يرد به ابن صاحب الصلاة هنا: فلقد ورد جرالده هذا على الشيلة مستقلاً، وقد ساء هذا رتبته ابن الرنك فأرسل إليه سراً في أن يتحيل للغدر. وعلم الموحدون بذلك فبعثوا به مقيداً إلى سلجماسة... ثم ضجت نفسه مرة أخرى للفرار من إصحى الرالي... فقتل وحز رأسه. البيذق، 127 - ابن عذاري ص 94.

(2) كان فيما قدمه الخليفة للبابوج - بمناسبة مساعدته على إنقاذ بطليوس - هدايا ثمينة فيها (منشآت) مطرزة بالجوهر... ولكنه أي البيوج - وهذا ما قد يكون تحدث به في السفر الثالث - نكث عهوده سنة 569 عما وقع بالموحدين لهاجمته في عقر داره... البيان المغرب ص 95.

(3) يذكر المؤرخ اشباخ أن فرناندة هذا أقر - بعد النصر - حاكم القلعة المسلم (ابن حايل) على مدينة بطليوس، وقد ذكر الأستاذ عبد الله عنان أن اسم ابن حايل أو ابن هابيل تحريف لاسم عربي لم تتضح حقيقته، قال والمحتمل لاسم الحقيقي هو ابن الحاج، لكن يتضح من نص ابن صاحب الصلاة ص 242 - 244 أنه تحريف لاسم (أبي حفص) أو تحريف لكلمة «الحافظ» وهذا الأقرب عندي. اشباخ ص 280 - 281.

(4) كذا في الأصل: النصارى ابن الرنك ولعل هنا كلمة ناقصة: أصحاب ابن الرنك.

والحية لا يلوي منهم الأخ على أخيه، ولا يعرج الابن على أبيه، والحمد لله على ذلك، وانصرف فرناندُه بن أدفونش السليطن[1] المذكور إلى بلاده بأجناده سالماً موصوفاً عند المسلمين والنصارى بالوفاء، والانحياش إلى هذا الأمر العزيز والولاء، وقد ألقى الله بينه وبين ابن الرنك صهره العداوة والبغضاء، والفتنة المتصلة الشنعاء، والمقاطعة والشحناء، وأورثها الأبناء منهم الأبناء.

وكتب الشيخ المرحوم أبو حفص إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بوصف هذا الفتح الإلاهي والبشر بالنصر المتناهي، فسر بذلك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين سروراً شكراً لله فيه على صنعه الأجمل، ولطفه الأكمل. وقال أبو عمر[2] بن حربون يمدح[3] أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ويهنئه على صنع الله له في ذلك: (طويل)

(1) راجع تعليق رقم 1 ص 295 والاحالات المذكورة فيه.

(2) يكنيه ابن عذاري أبا بكر ويذكر أنه عزموه بالرأي ثم يسوق الأبيات الثلاثة وقد أثبت من نفس القصيدة أبياتاً أخرى ولكن في مناسبة أنت سنة ثلاثة وستين مائة، ويكنيه في تلك المناسبة بأبي عمرو. ابن عذاري ص 63 - 70.

(3) كان في جملة من امتدح أمير المؤمنين بهذه المناسبة الشاعر أبو العباس الجراوي بقصيدة طويلة مطلعها:

نصر بكل سعادة مقرون ... شالت به الدنيا الفنا والدين
تقديم من شهد الوجود بأنه ... ما زال بالتقديم فيه قمين

وهنا يحق السؤال عن السبب الذي من أجله أعرض ابن صاحب الصلاة عن إيراد القصيدة الجراوية مع أنه حريص فيما نعلم على استقصاء أبرز ما يقال من شعر، ونلاحظ أن هذه ليست المرة الأولى التي يتجاهل فيه شعر الجراوي، فقد أعرض عنه ابن صاحب الصلاة بمناسبة انتصار موحدي سنة ست وخمسين وخمسمائة يقول فيه في جملة ما يقول:

لو زاد مُوسى ما فتحت وطارق ... زوريا بما قدما من الآثار
اعترفت ما أتيا فتحاهم ... من نصر دون الواحد القهار!!

كما أعرض عنه في شعره له بمناسبة تحقق النصر في المهدية يقول فيه في جملة ما يقول:

إنما إمام الهدى فالعدل منبسط ... والدين منتظم والكفر أشتات!

كما لعل أيضاً في مرة رابعة في لامية من جملة ما يقول فيها:

جهل النصارى أنه الملك الذي ... يرث البلاد وملكهم مسلولا!

ولعل ما أثر عن الجراوي من لسان سليط، كان من بواعث تجاهل ابن صاحب الصلاة للاشارة إلا لكيف يفسر عدم اشتمال (المن بالإمامة) على شيء من آثاره، ومن الغريب أن يعد الجراوي -

بسعدك أضحى الدين جذلان باسما ... وباسمك أمسى الشرك للشرك هادما
ألا إنها فيها وعدت لآية ... يبين بها من كان بالله عالما
براهين صدق ما تزال ولم تزل ... تثبت يقظاناً وتوقظ نائما

[246] أليس من الآيات أن يث وادعاً
وينصر قد أمسى لأمرك خادما؟

وما هو إلا أن دعا بشعاركم ... فجدد من قد كان قرناً مُقاوما!
بخلقكم الميمون الزك نارة ... فإن لم يجئكم مُسلماً فمسالما!
وأيده المقدار فيها بآية ... ترشم للأمر العزيز مراسما!
كما وقموا كسرى بفضل محمد ... وكان لهم من قبل ذلك واقما
فشكراً بني إسحاق للملك الذي ... شقيتم به تلك الظماء الحوائما
يمثي أمير المؤمنين رفعتم ... لعزكم تلك الذرى والدعائما

وكيف رأى ابن الرنك مركب بغيه
إذا انقاض من نقم الجياد الأداهما!

وإن يستشها محارم عزة ... فها هو قد لاقى عليها المحارما
لقد رام بنتها شهدة ما اشتاقها
ولا لاكها حتى استحالت علاقما
وبارزها للحين وثبة هاجم ... فصادف وثاباً للمنية هاجما!
فشكراً لك مولانا حمدنا، ولم تكن
لتحمد هذي الحرب تلك الأعاجما!
وكم من عذير رده نيل أمركم
على عقبيه فاغر الفم راغما!

* نفس الأمثال من عبد الواحد الزاكاني الذي لم ينتزل لترديد صدى شعره مع ما اشتمل عليه من آثار أدبية تغير هذا الشاعر المجاد الذي جالس عبد المؤمن وابنه يوسف وولده يعقوب، وألف له كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب المعروف بـ (الحماسة المغربية).

عبد الكريم ابن الحسني: ملحق جريدة المغرب للثقافة المغربية عدد 9 بتاريخ 9 يونيه 1938 - ص 133 وعدد 10 بتاريخ 16. محمد الفاسي، شاعر الخلافة الموحدية، ص 8 - 9. راجع التعليق رقم 1 ص 76.

فأنطقتم بالشكر من كان مفحماً   وجلّيتم بالنور من كان فاحماً!

وإني لأرجو للجزيرة كرّةً   تُبيد عليها عهدها المتقادما!

بطلعة غيران الحقيقة مغضبٍ   إذ انتهك الأعداءُ منها المحارما

ولو أسعف المقدار منكم بزورةٍ   لأحييتم تلك العظام الرمائما

وجلّيتم عن أفقها بسنائكم   غواشيَ كفرٍ قد أكبّت غمائما

ولولا الذي ترجونه من بركاتكم   أنافت على حين التي المتأتيا!

[247] وأنت أمينُ الله تخشى خداعها   وإن قال قومٌ إنه قد تقادما

وتحمي رسوم الشابين بأرضها   فما هي تستدعيك غيراً طوائعا

فقولُ بذاك الثغر ما انفكّ خائفاً   على البعد تستسقي القنا واللهاذما

وعمّا قليلٍ تجلبون لفتحها   شوازبَ أمثال السهام سواهما

كتائبَ ما تنفكّ تبدأ مجاهلاً   من الأرض إلا غادرتها معالما!

إذا ما دعت قيسٌ بدعوة هاشمٍ[1]   ذرتْ من رماح المعتدين هشائما!

بنو الملك المرغوب في الأرض كلها   ومن ملأ الدنيا لُهىً وملاحما!

تلوح عليهم منه آيٌ تشابهٌ   وهل يلد الضرغام إلا ضراغما؟!

كرامٌ لهم في الجود أرفع همّةٍ   فما يعشقون المال إلا كرائما

إذا ما انتحت العيس في عرصاتهم   دنوتَ فصافحت العلا والمكارما!

هم قيسُ غيلان[2] الذين تلبّسوا   بخلع الملوك الشانئات القواصما[3]

---

(1) هاشم بن عبد مناف أبو عبد المطلب جد النبي العربي عليه السلام.

(2) يرجع مؤرخو دولة الموحدين نسب بني عبد المؤمن إلى قيس بن عيلان (غيلان) ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهو ما نجد الشعراء يتواطؤون عليه، بيد أن المحققين من المؤرخين لا يطمئنون إلى انتسابهم لقيس عيلان.
البيذق 21. البيان المغرب 36. القرطاس جزء ثان ص 126 - 127. الحلل الموشية 117. ابن خلدون السادس 187 - 258. الاستقصا ثان ص 89. محمد المنوني، القصر المهجور (مخطوط) ص 5.
راجع تعليق رقم 6 صفحة 73.

(3) لعل المعنى: أن عطاء قيس عيلان تقتصوا بحمل التاج التي تحمل في مقابض السيوف التي تسقي هام المتمردين والعصاة؟

فما بينهم إلا على الهزل مقسمٌ   كذلك عظيمُ القوم يخشى العظائما

تهاليلُ لم يلفوك إلا تهلّلوا   إليك بدوراً واستهلّوا غمائما!

لهم هيم[1] ذلّ الزمان بحكمها   كأنّ على الأيام منها حزائما!

إذا حاربوا قوماً تدلّوا عليهمُ   أجادلَ وانسابوا إليهم أراقما

همُ القومُ جابوا شمس كل ظهيرةٍ   ملاءً، ولاقوا كلّ ليلٍ عمائما

وهم أدّبوا الهيجاء فالسيف قد غدا   بهم ثائراً، والرمحُ قد صار ناظما

إذا صرّحت فيها المنيّة جمجموا   بسمر القنا فاستودعوه الجماجما!

وإن أحجم الأبطال عنها رأيتهم   قد اقتحموا منها إلى الموت جاحما

[248] أليهم عزماتٌ لو بدت فتجسّدت   لكانت سيوفاً ترهفها صوارما؟

ومرهفةٍ كانت لنيلٍ فلم تبلْ   أتيها سالت لكانت غرائما

وقد ألفوا الأرماح حتى لأوشكت   كعوبُ القنا أن يحسبوها مراجما!

مثمّرةٌ أطرافها بدمائها   وقد نقلت قبل الطعان قوادما

يُمثّم لهذا الخلق أمناً ورحمةً   على حين لم يلقوا على الأرض راحما!

وشيّدتم أركان دين محمدٍ   على حين لم تهدم من الكفر هادما

فقمتَ أمير المؤمنين مؤيّداً   على كل من عاداك بالقسط قائما!

ورثتم عن المهديّ نوراً وحكمةً   بها اختارك الرحمنُ للناس حاكما

فلا زالت الآمال من كل معشرٍ   تحثّ إليك الواخدات الرواسما

ولا زلتم تلقون في كل شارقٍ   بشيراً عليكم بالفتوحات قادما

---

(1) كذا في الأصل بالياء، ويظهر أن الصواب همم.

ذكر اقلاع الشيخ المرحوم أبي حفص بعسكره المبارك من اشبيلية الى قرطبة بعد تيسير الله تعالى مدينة بطليوس، واستقراره فيها بمن وصل معه مبتدئاً في معاونة السيد أبي اسحاق ابراهيم بن الخليفة أمير المؤمنين على جهاد المحاربين.

قال الراوية: وإن الشيخ المرحوم لما وصل قرطبة واستقر بها زادت صلاحاً ونجاحاً، واغتباطاً وفلاحاً، وروع الله تعالى قلوب المحاربين المجاورين لقرطبة وندع في نفوسهم من زيادة [249] الغلبة عليهم قداحاً. وتجلى لابراهيم بن همشك في هذه المدة من نور الهدى ما اسرج له مصباحاً، ابصر به التوحيد صراحا.

توحيد[1] ابن همشك

قال المؤلف: وقد كانت الشحناء والعداوة والبغضاء ببركة هذا الأمر العزيز قد نشأت بينه وبين صهره أميره محمد بن سعد بن مردنيش سراً وإعلاناً، وخافه ابراهيم على نفسه فانقطع عن مواصلته وزيارته أزماناً. وزاده روعاً منه وفزعاً، قتله لابني الجذع[2] وزيريه، وبناءهما في الحائط بمرأى منه

(1) يذكر ابن الأبار أن اعلاء أبي إسحاق ابن همشك بالدعوة المهدية ـ وهو ما يعني بالتوحيد هنا ـ كان سنة 562 بعد الوقيعة المعظمى بفحص الجلاب على مقربة من مرسية بينها تدرى ابن صاحب الصلاة يعد هذه الأخبار في أحداث أربع وستين وخمس مائة ولعله كان يعني انتسابه بصفة علنية بالمرة إلى حظيرة الجماعة . الحلة السيراء ص 230.

(2) لم نهتد بعد البحث الطويل لاسم هذين الوزيرين اللذين تعرضا لهذا المصير الرهيب، وكل الذي عرفناه أن أصحاب ابن مردنيش نقمت عليه فاخرج أهل بلنسية منها، وأسكنهم بظاهرها ثم شحنها بالروم والنباهيين، وأنه اعتزم على أن يقوم بنفس العمل في قبر بلنسية، وكان في جملة الذين عاثوا ـ أبو بكر أحمد بن سفيان الذي دعا للموحدين هو كذلك.
الحلة السيراء ص 236.

وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطي[1] بالجوع على ما ذكرته في التاريخ[2ب] وطلق ابن مردنيش في هذه المدة ابنة[2] ابراهيم بن همشك طلاقاً بتلا، وباتت من عصمته بياناً، وطردها إلى أبيها مهانة مستهانة باكية بدموعها إصراره وهجرانه، فغشيه من حديثها الكرب[4]، واتصلت في نفسه له الحرب، وداجاه مداجاة يتراءى فيها كيف يتجلب له الطعن منه والضرب، فعند ذلك تطارح إبراهيم بن همشك المذكور بإرساله إلى الشيخ المرحوم أبي حفص بالتوحيد والتوبة، ورغب أن يصدق متابه بظهور النصح منه بتمكين الموحدين من بلاده بأوثق ود وطاعة ومحبة، وكرّر خطابه بالوصول بنفسه [250] والانتقاذ، من طاعة ابن مردنيش وموالات[5] الكفار، فوصل قرطبة إلى الشيخ المرحوم، وإلى السيد في شهر رمضان المعظم من عام أربعة وستين وخمس مائة والمؤرخ، فقبل في وصوله أحسن القبول، ورحب به، وألف قلبه بكل وعد صادق من الخير مأمول، واجتمع معه أسرّ اجتماع، وساعد الله تعالى بالتزام الأمر العزيز المطاع، والدخول في حكم التوحيد بأكمل الإجماع، وأقر أن الله تعالى هداه إلى المذهب الرشيد، وصحبة أهل التوحيد، وكتب إلى الخليفة

(1) هذا أبو عبد الله ابن صاحب الصلاة الغرناطي الذي كان في جملة العلماء البارزين الذين عوقبت على إجازته في مروياته ومؤلفاته جماعة من أمثال عبد الله بن باديس الذي أخذ عن مشيخة اشبيلية قبل أن يأخذ العلم بمدينة فاس والذي كان في جملة شيوخ ابن الأبار.
التكملة لكتاب الصلة ـ كوديرا ـ صفحة 513 رقم 1445.

(2) يقصد دون شك تاريخه المفقود بثورة المريدين. ونظراً لاختفاء هذا الكتاب الهام فقد حاولنا جهداً أن نجد صدى هذه الأخبار في الحلة السيراء التي اختصت ـ من بين سائر المؤلفات بتعرضها عن ثورة المريدين. الحلة السيراء ص 230 - 236.

(3) يحكى أنها سئلت عن زوجها وأمكانة عشيرها منه، فقالت: حرو كلب بن كلب لا حاجة لي به!. ومن المعلوم أن ابن همشك التجأ أخيراً إلى مكناس وبها توفي.

(4) كان قد ندم على ذلك وأظهراً لغضبه، وانتقاماً من أبي جعفر أحمد الوقشي الشاعر الكاتب، حمله إلى رحى الوقشي بوطة بلنسية تهدمها! ما دفع بالوقشي للقول:

ألا يبلغا عني المشرقي رسالة · بأني لا أنفي هنانة من الحرب!
لأجليهما حرز المسرة صراصراً · وأطيبا اجسادكم بمثل المشرب

الأبيات. الحلة السيراء ص 231.

(5) كثيراً ما نجد الناسخ يتساهل في هذه التاء فيكتبها موالات عوض موالاة. . . .

أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنهم عن نفسه معلماً بمتابه، وأنه دخل في الطاعة رجاء العفو من الله تعالى وحسن ثوابه[1]. فجاوبه الأمر العالي[2] - أدامه الله - بتقريبه واستجلابه، والجزاء الأوفى على حسن متابه، واتصلت البلاد التي كانت بيده ببلاد الموحدين وأمنت من الفتنة الطرق والرفاق، وارتفع في تلك النواحي الفرق والشقاق. وكتب السيد أبو اسحق بن الخليفة - رضي الله عنه - إلى الأشياخ والحفاظ بالبلاد معلماً بحاله وإقباله، فمن ذلك ما خاطب به إلى الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم الوالي بأغرناطة في ذلك التاريخ، وهي من إنشاء ابن مصادق[3]:

[251] بسم الله الرحمن الرّحيم صلّى الله على محمّد وآله وسلم

الشيخُ الأجل الحافظ الأعلى وليُّنا في الله تعالى أبو عبد الله محمد بن أبي إبراهيم أدام الله عزّه وكرامته بتقواه، وليكم في الله تعالى إبراهيم بن أمير المؤمنين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بَعْدُ حَمْدِ الله على ما أولى ومنح، والصلاةُ على محمد نبيه الذي تبيّن به دينُ القيمة ووضح، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مُعيد دين الله بَعْدَ ما عفى رسمه ومصَحّ، والدُعا لسيدنا أمير المؤمنين خليفته الذي طهّر بفَضْله البلاد

---

(1) لا شك أن رسوله إلى مراكش كان هو وزيره الأسنى أبا جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشي، فقد تحدث ابن الابار عن وفادة هذه الشخصية على مدينة مراكش أيام عبد المؤمن من سنة [illegible]، وأنه تقدم بقصيدة ليتيمة طويلة يقول فيها:

[illegible] إليكم [illegible] المواسم ... فهيهات إلى [illegible]

[illegible] القطر جاء [illegible] ... [illegible] الفضل [illegible]

ومن قبله [illegible] الصيام بشهره ... على خير [illegible] وأفضل [illegible]

إلى أن يقول:

[illegible] أخلاق [illegible] ... فلم [illegible]

[illegible] ... [illegible] الملوك الضراغم!

المصدر السابق...

(2) لا ننسى أن نذكر أن الخليفة الموحدي بعث في هذا التاريخ بالذات برسالة لابن مردنيش يطالبه أن يفيء هو كذلك إلى الله... بروفنصال، رسائل موحدية الرسالة رقم 25 ص 141.

(3) ابن مصادق يرد ذكره لأول مرة وآخر مرة في هذا المجلد من كتاب المن بالإمامة.

وقَمَع، ولسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الذي أثمر سعيُه وأنجح، وكمّل يُمْن خلافته الأمور الدينية وأصلح، فكتبناه إليكم أدام الله كرامتكم بتقواه من قرطبة حرسها الله ولا جديد إلاّ ما عوّد الله ببركة هذا الأمر العزيز من فتح لا تزال تُفتح أبوابه، وتتّصل أسبابه، وترفع قبابُه، ويتعرّف مع كلّ حين أنهلالُ مائه وانسكابُه. والحمدُ لله على ذلك حمداً كثيراً يضفو به سربالُ إحسانه وجلبابُه، وإنّ من النعم التي ببركة هذا الأمر العزيز وَالَى تجديدَها، واقتضى بسعادته مزيدَها، واتّبع بطريفها تليدَها، وأنجز فيها لأولياء الأمر العزيز الموعُود، ورافقهم فيها الجد المصحب المسعَد، وإنّ الشيخ أبا اسحاق ابراهيم بن همشك وفّقه الله كُشف له عن وجه هداه، وخُلّي عن مَراوِدِ [252] رداه، وتبيّن له أن هذا الأمرَ العزيزَ هو المَرْكَبُ المُنْجي، السَّائقُ إلى السعادة الباقية المُرجي، الذي لا يؤخّر عِثار من صدف عنه ولا يُرْجي، فبادَرَ إلى التّحوّل فيه بِدارَ من خلُصَتْ سَرائره، وطُويتْ على مودّته ضمائرُه، ورأى أنّ ذلك تُمحَى به خطاياه، وتُغْفَر جرايرُه، وأقام الدَّعوةَ المهدية في جميع بلاده وأعلن بها، وأبدى الاعتلاق بعصمتها، والتّمسُّك بسببها، ولَقِيَ الموحّدين - أيَّدهُم الله بتقواه - ملاقاة اللائِذِ بظلّهم، المُستمسك بحَبْلهم، المُنْتَمي المُنْتَسِب، المنطوي على الولاء الأخلص والودّ الأسلم، والحمدُ لله على ذلك حمْداً تتوالى به فتوحُه، ويتَّصِل به مبذولُ إحسانه ومَمْنُوحُه، وخاطبْناكم بذلك، أدام الله كرامتكم لتجدّدوا شُكر الله تعالى على ما أسْبغ من نعمه وأوْلى، وتسلكوا منه سبيلاً يكون أحْرى بالأدبابها ما مَنّ بها ووالى، والله تعالى يُوالي لديكم الاءه، ويُسبغ عليكم ظاهرةً وباطنةً نُعمه والسلام الأتمّ عليكم ورحمةُ الله تعالى وبركاته. كُتِبَ في شهر رمضانَ المعظّم عام أربعةٍ وستين وخمسْ مائة.

تعيين الحافظ أبي يحيى والياً على مدينة بطليوس وحروبه مع جرالده

وفي هذه السنة، مدة إقامة الشيخ المرحوم أبي حفص بقرطبة، توجه ابنه الحافظ الأسنى أبو يحيى والياً إلى مدينة بطليوس، عن الأمر العالي -

أدامه الله - من حافظ عالي، ناظم لأشتات المعالي، غيث في النّدى، ليث على العدى، حاتم قيله، [253] وأشد الفوارس في قبله، مع انبساط وجه ونفس، وروضة يانعة في المجالسة، وأنس وعفاف ووقار، وحفْظ للحديث والعقائد باستظهار. وأمره الأمر العزيز - أدامه الله - بحفر بئر في داخل قصبة مدينة بطليوس يسرب إليها ماء الوادي، استعداداً لما يخالف من الآفات والمنازلات، فمشى إليها في جملة نبيهة موفورة من الموحدين والأجناد الأندلسيين واستوطنها، وأنس أهلها من وحشتهم المتقدمة وأمنها، وجدّ في حفر البئر المذكورة بالعمّالين والفعلة في ذلك، وهي المعروفة عند العامة بالقورايْجة[1]، وجلب الماء إليها، فحصُنت القصبة وقويت بها النفوس الآمنة.

وفي مدة إقامته فيها واستدامه دارت بينه وبين اللعين العلج جرالده[2] الساكن بشرفته في حصن جلمانية[3] حروبٌ صبر فيها الحافظ الأسنى أبو يحيى وظهر، واستبد بدفاع العلج اللعين وظفر، ودام على جهاده شهوراً، إلى أن تحيل العلج اللعين في خدعة من الحروب صنعها وأوقعها، واستدعى جملة ضخمة كبيرة من أهل شنترين النصارى وأتباعه، ووصل بهم إلى موضع أكمنهم فيه، ومشى هو في جملته المعلومة المذمومة، وأغار على لصق بطليوس فركب الحافظ أبو يحيى وأصحابه والأجناد معه مسارعين في اتباعه، وقدَّ أمامهم العلج مظهراً الروع وطلب النجاة [254] في إسراعه حتى وصل إلى موضع الكمين اللعين، فمال المسلمون وانهزموا، فأسر العلج اللعين من المسلمين جماعة، ومن أصحاب الحافظ الأسنى أقواماً فيهم أبو عبد الله

(1) القوراجة (coracha) بالاسبانية أو القوراسا (Couraça) بالبرتغالية عبارة في الأصل عن ركن في الجدار يبرزُ عن الحصن شبابة منطقة في حالة حصار يوجد فيها بئر يستمد ماءه من واد مجاور لإغاثة اللاجئين الذين قد يدهمهم التطويق، ويشترى أنه عند الاستيلاء على شلب، كان الاستحواذ على القوراجة ما أرغم المطوّقين على الاستسلام تحت ضغط العطش.

Huici: Historia Politica P. 240. Com 1.

(2) يسميه كابانلكوس: فرناندو انظر صفحة 518 - 519.

(3) جلمانية (Jufumena) على مقربة من بطليوس. Huici P. 238 - 242.

محمد بن الشيخ الشهير أبي حفص بن تيقريجين[1]، وعليّ بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي[2] أحد أصحابه المختصين به. ففدى أكثرهم من الأسر الذي كانوا فيه عند النصارى أهلكهم الله من مال نفسه، وأجبرهم إلى الإسلام، وأنقذهم من ربقة الكفرة أهل الأصنام، وأما عليّ بن صاحب الصلاة ففداه بثلاث مائة دينار[3] جشمية[4] في أسرع مدة، وأعطاه كل ما سلب من فرس وآلة وحلية وحالية، فشكر فعله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه، وثبتت له هذه الفضائل المحمودة، والجلالات الموصوفة المسرودة، عند الموحدين أعزهم الله، وحاز أجرها عند الله تعالى، ولم يزل ذكرها بالمحامد

(1) يذكر ابن صاحب الصلاة هنا أن كنية أبي حفص هي أبو عبد الله، وأن اسمه محمد وأظن أنه هو نفسه الذي ذكر بعد في مناسبات كثيرة بكنية (أبي محمد) واسم عبد الله وإن خطأ وقع به الناسخ هنا الرأي، ويعتبر الشيخ أبو حفص من أهل خمسين من أهل تينملل وهو يحمل اسم تفراكين أو تافراجين في مصادر أخرى. ابن صاحب الصلاة ص 441 - 452 - 500 البيذق أخبار المهدي ص 33 - 34 - 35.

(2) لم نقف على ترجمة لابن صاحب الصلاة هنا في معاجم رجال الفترة الموحدية، وليس هو بالتأكيد علياً بن محمد بن عبد الودود الذي ترجم له ابن الابار في تكملته لأن هذا من أهل مرج بطو وصاحب الصلاة والخطبة بها وقد توفي في سن عالية (603) أي سبعين سنة بعد الكمين، نعم يمكن أن تكون لعلي هذا صلة بابن صاحب الصلاة الذي ورد على مراكش ليتظر في فك أسر أهله من أيدي الروم، وقد ذكر كابانلكوس احتمال أنه أخ للمؤلف عبد الملك ابن صاحب الصلاة. ابن الابار. التكملة كوديرا رقم 1904 - ابن الزيات. التشوف، ص 167.

(3) دأب الناسخ على كتابة الدينار بحذف الألف. وانظر التعليق رقم 5 ص 215.

(4) يصف ابن صاحب الصلاة العملة أحياناً بالجشمية، وهو ما نجده كذلك عند ابن عذاري في بعض المقاطع نقلاً عن صاحب المن بالإمامة، وعندما نستظهر كتب اللغة نجد أنها أي الدراهم الجشمية تعني الدراهم الرديئة. ثم عندما يستشير المرء المصادر القليلة التي عنيت بالعملة أيام الموحدين نجد أن بعضها يؤكد أن بعض الخلفاء الموحدين كانوا فعلاً يصنعون من المعادن ما يعتبره - زيفاً - اسم الدينار الذهبي. وقد ترجم كابانلكوس الجشمية (التي ساقها بالخاء بدل الجيم) بالذهبية (Gold Dinars).

راجع التعليق 1 ص 292. لسان العرب مادة جشم. ابن عذاري ص 2 - بروفنصال.

Provençal: Notes d'histoire almohade. hes. TX 1930 P. 51 — 90.

Bel: Contribution à l'etude des dirhems de l'Epoque almohade.

Hes. TXVI 1933 P. 7.

وحسن المشاهد بتوالي. وحمد له أبوه الشيخ المرحوم جهاده واجتهاده، ورعية أصحابه وأجناده، وبعد هذا انصرف عن بطليوس ودام على مكارم الأخلاق، الشايعة له في الآفاق، إلى أن توفي رحمة الله عليه.

رجع الخبر: وعندما اتصل إبراهيم بن همشك بمحمد بن مردنيش أميره قبل، سُقط في يده، وتحقق أن ساعده قد كسر مع عضده، فحملته الأنفة والعجلة أن يأمر [255] قواده وأجناده المجاورين في بلاده لبلاد ابن همشك بالفتنة معهم، وأن يضيقوا عليهم مُشعهم، فامتثلوا ذلك فدامت الفتنة مدة أكثر من سنة كاملة وزادت بينهم الشحناء على الاستدامة، وأُلقي الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ولم يزل ابن همشك يستغيث إلى الموحدين ـ أيدهم الله ـ من عدوه، ويستنصر بهم عليه، ويستصرخهم إلى غزوه. وفي هذه السنة أيضاً استدعى سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أخويه السيدين أبا إبراهيم اسماعيل الوالي بإشبيلية وأبا اسحاق إبراهيم الوالي بقرطبة، واستدعى معهما الشيخ الحافظ أبا عبد الله ابن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم الوالي بالمرتاطة مع حفاظهم وعمال البلاد، ليصلوا إلى الحضرة مراكش حرسها الله، فأسرعوا إلى استدعائه العالي، وتحركوا من الأندلس في أول جمادى الأولى بموافقة شهر دجنبر [1] العجمي من السنة المؤرخة عام أربع وستين وأقاموا في الحضرة إلى أول عام خمسة وستين وخمس مائة.

وانصرف السيدان المذكوران وصحبهما أخوهما السيد أبو علي الحسن والياً على سبتة وأقام الحافظ أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم بالحضرة على ما ذكرته، وبقيت مدينة المرتاطة تحت حكمه وأمره وعماله فيها حتى أجاز [256] في صحبة السيد الأعلى أبي حفص على ما ذكرته [2] وأذكره

(1) أول جمادى من السنة يوافق 31 يناير 1169 حسب جداول الدكتور كاطلوز.
(2) عند ترجمة الشيخ بن أبي ابراهيم ص 152.

إن شاء الله [1]. وفي هذه السنة أيضاً اختلف الهواء بمراكش فمرض [2] أكثر السادات وكثير من الناس [3].

سنة خمس وستين وخمس مائة

(تعيينات جديدة في سلك الولاة)

في أول شهر صفر منها ولّى سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أخاه السيد الأجل الأسنى أبا علي الحسن مدينة سبتة وأنظارها، وجبال غمارة وأقطارها، وتحرك إليها من الحضرة الإمامية وانصرف السيدان الأجلان معه: أخواه أبو ابراهيم اسماعيل إلى إشبيلية وأبو اسحق إلى قرطبة على أولهما [4]. وصحبهم بالأمر العزيز أدامه الله الحافظ الأسنى أبو يحيى زكريا بن يحيى بن سنان أحد أبناء أشياخ خمسين [5] النبهاء، الحافظين المقدمين النجباء الأمناء، والياً عن الأمر العزيز على حصن طبيرة [6] وشنتمرية [7]، والعليا [8]،

(1) يعني بعد قليل.
(2) يستأثر ابن صاحب الصلاة بذكر هذا «الاختلاف» الذي جرى سنة 584، هنا وقد استهدفت مراكش سنة 571 لطاعون ذهب ضحيته عدة سادة فيهم أبو عمران وأبو سعيد وأبو زكريا ثم الشيخ حفص جد الأمراء الحفصيين. ابن عذاري 101 ـ ابن خلدون. السادس ص 501.
(3) لقد كان ابن صاحب الصلاة في هذه الأثناء في الأندلس، ولذلك فإنه لم يتمكن من إعطائنا وصفاً طويلاً عند القطر مثلاً لسنة أربع وستين وخمس مائة، وقد كان في جملة الشعراء الذين وردوا لتقديم التهاني أبو جعفر أحمد الوقشي الذي أنشد صيدة طويلة في الموضوع.
الحلة السيراء نشر مؤنس ص 231 — 230.
(4) يعني على ما كانا عليه في بداية الأمر.
(5) راجع التعليق رقم 3 ص 68.
(6) (Tavira) انظر التعليق رقم 1 ص 283.
(7) شنتمرية (Santa Maria) مدينة تقع على شاطئ البحر الأعظم المحيط وهي المعروفة اليوم باسم (فارو Faro) إليها ينسب الأستاذ أبو الحجاج الشنتمري.
الادريسي 180 ـ الروض المعطار 114 ـ 115 ـ الحلل السندسية أول 77.
(8) العليا: تقع بين اشبيلية ومدينة شلب ومنها الأديب المشهور كثير العلياوي.
المراكشي، المعجب ص 374 ـ المغرب في حلى المغرب أول ص 388 - 398.

بغرب الأندلس، فصلا ذكرُه في الحفاظ وتميز عند أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بحسن النظر والأيقاظ والتحفظ من المشكلات والاحفاظ[1]. فوجهه لحفظ طبيرة المذكورة من كل مقال، وطائر منافق مباين، فتوصلها في صحبة السيد أبي إبراهيم صاحب إشبيلية، واستقلّ بما به فيه تحمّل، وله أهل، وناب فيها المناب الحسن، [257] وعرض أهلها من خوفهم وفتنهم الكرى اللذيذ والوسن، وأقام فيها بحسن سياسة ـ وإن شئت فرياسة ـ مدة اثني عشرة سنة حتّى نقله الأمر العالي منها إلى أشغال مدينة مرسية على ما أشرحه في ذكره إن شاء الله[2]، وإنما اختار أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين هذا الحافظ النبيه لهذا الحصن وخصه به من بعد فتنه وحربه لثقته وحربه لثقته عنده، ويقظته وذكائه، لضبطه وحزامته، ولأنه من أحد الطلبة المتفننين في العلوم المتطلبة على مذاهب الأيمة بالمعقول والمفهوم.

ذكر الأحداث في هذه السنة

(انتظام أذفونش، وانحباس المطر، وزلزال الأندلس)

وفيها خرج العدوّ النصراني القمط تونه ظلّم ادفونش الصغير[3] ابن السُّليطن لعنه الله من طليطلة دمّرها الله بعسكره الذميم، وأغار على فحص رنده وجبالها، وفحص الجزيرة الخضراء وجبالها أيضاً، ووصل إلى البحر وقتل المسلمين في تلك الأقطار والأنظار، وأسرهم فيها واكتسح سائمتهم.

(1) التحفظ: التيقظ، والاحفاظ: الإغضاب لما يلحقه إغضاب الخصم.
(2) ورد ذلك في السفر الثالث.
(3) الأذفونش الصغير (Al. Fonso VII) EL Rey chico. هو في الحقيقة حفيده وليس ابنه وقد جرى المؤرخون على النسبة لأنوى رجل في الأسرة نسبا ووالده ... بعمر لم يعمر أكثر من سنة. Dozy, Recherches page 387 — 388.
راجع التعليق رقم 1 صفحة 96 والتعليق رقم 5 صفحة 153، والتعليق رقم 3 صفحة 284 والتعليق رقم 2 صفحة 286 والتعليق رقم 1 صفحة 295.

وفيها توقف المطر للاحترات بالأندلس حتى إلى شهر دجنبر العجمي ونزل وحرث الناس ـ. وفيها حدثت زلازل عظيمة عند طلوع الشمس وعند زوالها في الظهر من الأيام بتاريخ شهر جمادى الأولى من السنة المؤرخة وتوالت على مدينة [258] التوجير مدّة أيام حتى كادت أن تتحول وتغوص بها الأرض، واتصل بعد ذلك بمدينة قرطبة والغرناطة وإشبيلية، وجميع الأندلس فكان الرائي بعينه يرى حيطان الديار تضطرب وتميل حتى إلى الأرض ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى، وتهدّمت من ذلك مواضع ديار كثيرة في البلاد المذكورة وصوامع مساجد[1].

(تضييق جرانده على بُطليوس)

وفي شهر رجب الفرد من هذه السنة زاد ضعف مدينة بطليوس من عدم القوت فيها بإلحاح العلج اللعين (جرانده[2]) عليها بالفتنة وقطع الداخل بالمرافق إليها، فنظر لها الموحدون الذين كانوا بإشبيلية في ميرة موفورة من الطعام والآلات والمحلات للحمل إليها، فاجتمع في ذلك نحو خمسة آلاف دابّة موفورة بما ذكر، وتقدم عليها للتوصيل الحافظ أبو يحيى زكرياء بن[3] علي بعسكر إشبيلية وجهاتها من الموحدين والأجناد الأندلسيين، فوصل بالميرة المذكورة وبالعسكر معها إلى مقربة من بطليوس فخرج اللعين جرانده بجمعه اللئيم من النصارى وأهل شنترين النصارى معه. فتحاربوا مدة طويلة من النهار، ثم انهزم المسلمون وقتلوا وأسروا وانتهبت الميرة وذهبت بكليتها وكان ذلك في يوم الخميس السادس[4] والعشرين من شعبان المبارك من سنة

(1) لم يتحدث المؤرخون عن هذا الزلزال العظيم الذي وصفه المؤلف وصفاً دقيقاً، نعم اهتم ابن أبي زرع بزلزال سنة 472 الذي كان من أعنف الرجات الأرضية التي عرفها المغرب. القرطاس ثلاث طبعة ص 96.
(2) انظر التعليق 2 صفحة 274.
(3) نفس ما ينقله ابن عذاري في البيان المغرب ص 33.
(4) Huici T.I page 241.

خمس [259] وستين المؤرخة، واستشهد في ذلك اليوم الحافظ زكريا المذكور، ووصل الخبر إلى الشيخ المرحوم أبي حفص بقرطبة وإلى الموحدين بإشبيلية فساءهم ذلك وعرفوا بذلك الحضرة العلية أدام الله تأييدها.

(مرض الخليفة واستصراخ ابن همشك بالموحدين ضد ابن مردنيش)

وفيها مرض أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه، وضعف عن الحركة للغزوة التي وعد بها جميع الموحدين بالأندلس من الوصول إليهم في كتابه الذي وجّهه إليهم في صحبة الشيخ المرحوم أبي حفص على ما ذكرته وقيدته، فتأخرت حركته بسبب ضعفه، لكنه رضي الله عنه لم يزل مع ضعفه في استدعاء العرب من أفريقية والموحدين من كل جهة وأعطاهم وكساهم وحين استقل انجز عدته على ما أذكره بعد هذا إن شاء الله[1]. وفيها أيضاً ألحّ محمد بن مردنيش بفتنته على جهة بلاد إبراهيم بن همشك واستكفى عليه بعسكره الشرقي وبالنصارى حلفائه، فاستغاث ابن همشك بالموحدين وكثر صراخه إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وشكا حاله وأوجاله. وكتب الشيخ المرحوم أبو حفص من قرطبة إلى حضرة الخلافة معيناً لابن همشك بكتابه ومصدقاً له فيما استغاث به من عدوّه، فاجتمع الرأي الموفق السعيد، والنظر الحميد، أن يتقدّم السيد الأعلى أبو حفص رضي الله عنه بالخروج [260] من حضرة مراكش حرسها الله بعسكره الضخم اللّهِمْ، المظفر الشهم، لتلاقي جزيرة الأندلس، وغزوا ابن مردنيش والنصارى معه وحصاره في مرسية قاعدته، ومنازعته في داره وحاضرته، فخرج من حضرة مراكش لذلك حسبما أذكره.

(1) راجع صفحة 272 الآتية وما بعدها...

ذكر الغزوة الثانية من السيد الأعلى أبي حفص بن الخليفة رضي الله عنهم وإيذهم لمحمد بن مردنيش في عقر داره وحصارهم له في داخل مرسية وملازمتهم المنازلة له حتى فتحت اكثر بلاده بعد خمسة أعوام من المنازلة في الغزوة الأولى المذكورة.

وإنه لما كان ما ذكرتُه خرج السيد الأعلى المجاهد السعيد المرحوم أبو حفص من حضرة مراكش في أول شهر ذي القعدة، الموافق لشهر أغشت[1] العجمي من سنة خمس وستين المؤرخة مستعجلاً مسارعاً لنصر جزيرة الأندلس، ولمن استصرخ به ممّن وحّد واستنّد، ولغزو من عاداه من عِدّاه. وصحبه في هذه الغزوة السعيدة على عادته أخوه السيد الأسنى أبو سعيد بن أبي الخليفة رضي الله عنه وجماعة علية من أبناء أشياخ الجماعة رحمهم الله كأبي [261] عبد الله بن أبي إبراهيم، وأبي يعقوب يوسف بن تيجيث ومن يليهم من أمثالهم من نمطهم، ومن حُفّاظ أهل خمسين كذلك. واختص من الصنف الأندلسي العاقل الداهية أبا محمد سيدراي بن وزير، وأخاه أبا الحسن علي بن وزير وأشياخاً فرساناً أبطالاً من الأجناد الساكنين بحضرة مراكش من أهل الأندلس، انتخبهم واستصحبهم مع نفسه لمعرفتهم بالأندلس وحروبها، ولمذاكرتهم في مشاورتهم في محاولة ما يحتاج إليه من الأمور، ومعرفة الثغور، واستخلص الدعاء لله في الاستخارة له في أمره، واستجلاب نصره، على أعداء الله وأعدائه، وصفّى نيته للجهاد في إعلاء دعوة الإيمان وندائه، فنهض والسعد أمامه، يقدم أعلامه، حتى أُجاز بعسكره الشهم البحر إلى الأندلس. ووصل إلى مدينة إشبيلية في أول عام ستة وستين فأراح بها للنظر والاجتماع مع الشيخ المرحوم أبي حفص، فوصل إليه بها من قرطبة

(1) أول ذي القعدة من عام 565 يوافق اليوم 17 يوليه 1170 حسب جدول الدكتور كاظلوز.

وفي صحبته إبراهيم بن همشك بأصحابه المختصِّين به، واجتمعوا خير مجتمع، بأحسن مرأى ومسمع وتشاوروا في الرأي، وتذاكروا إلى ابن يكون أول الغزو بالمشي والسعي، فرأوا أن يتوجه السيد الأسنى أبو سعيد في سنة ست وستين وخمس مائة أولاً إلى مدينة بطليوس لإحياء إنسها بعد ممانها، وإخراج النصارى بالدّفاع [262] عن جهاتها، فتوجَّه إليها بعسكر مبارك من الموحدين - أنجدهم الله - ومن أهل الأندلس والعرب - وفرهم الله -، ومعهم من أشياخ ورؤساء الأندلس أبو محمد سيد راي بن وزير، وأبو العلا بن عزون لمعرفتهما بثغر بطليوس المذكورة، والثقة بهما في نصيحتهما المشهورة، توصلها في أيمن طالع ووقت، وبأيمن حال في كل وجهة وأسعد بخت. وكان من الاتفاق الحسن ببركة هذا الأمر العزيز أن وافق وصوله خروج فرنانده البيوج بن اذفونش السليطين[1] المذكور في هذا التاريخ بعسكره قاصداً بطليوس ليسترجع ملكها وأخذها من أيدي المسلمين. لما رأى ابن الرنك عدوه قد قارب التغلب عليها مرة ثانية بإلحاح جرانده على إضرارها. وقال في نفسه: «إنه أولى بها دفاعاً لعدوه» وصح خروجه عند السيد الأسنى، وإنه قد وصل بعسكره وآلات سكناها بالفحص المعروف بالزلاقة[2] على . . . . .[3] من بطليوس، فوجه إليه السيد الأسنى أبا محمد بن وزير، وأبا العلا بن عزون، وأشياخ الأجناد العقلاء الأولياء للقتاله والتلافه على أوّله، واستفهامه عن خروجه، وهل هو باق على الصلح المربوط معه أم لا؟ فوصلوا إليه ورحّب بهم وتكلموا معه فيما وفدوا فيه فقال: «إنما خرجتُ لحمايتها وإمساكها لأمير

(1) راجع صفحة 230 و 231 مع ما عليها من تعليقات.

(2) الزلاقة (Sagrajas) وتقع في الشمال من بطليوس قريباً منها على ضفاف نهر كير يرّو (Guerrero) وفيه وقعت المركة الشهيرة في الثاني عشر من رجب 479.

الروض المعطار ص 83 — 84 — 85 — 95.

(3) هنا بياض في أصل المخطوط ويظهر أن المؤلف كان يريد أن يحدد بالأميال التي تفصل بطليوس عن الزلاقة، هذا وأن الزلاقة تقع على مسيرة ثمانية أميال تقريباً من بطليوس.

دائرة المعارف الإسلامية (عاشر) ص 370.

المؤمنين بن أمير المؤمنين[1] [263] أيدهم الله، فشكروه وعرضوا عليه الاجتماع مع السيد الأسنى وتجديد الصلح بينهما، فأجاب إلى ذلك فوصل إلى مقربة من بطليوس في جملته الخاصة به من أقماطه، ورجال مدينة سيطاطة، والتقى بالسيد الأسنى: هذا راكب على فرسه، وهذا راكبٌ على فرسه، وتكلم أبو محمد بن وزير[2] وأبو عزون مع ترجمانه بما يصلح من الصلح بينهما حتى كمل الغرض المراد، واتصل العهد والسداد، وانصرف فرنانده البيوج بعسكره إلى بلاده وكان تيسيراً من الله تعالى وفتحاً وتبشيراً من الله توالى. ونهد السيد من موضع اجتماعه بعسكره المبارك إلى حصن جلمانية ونازله وفتحه عنوة، وأجلى الله تعالى جرانده الكافر اللعين منه حتى أخذ بعد ذلك، وهدمه وانصرف وقد أحيا بطليوس وأجلى عنها كل بأس إلى إشبيلية مؤيداً مسدداً سالماً، وبالبشائر قادماً، وذلك في ربيع الأول من سنة ست وستين وخمس مائة، وكان أبو محمد بن وزير يحدث أصحابه بما عاين في هذه الغزوة من مكارم السيد الأسنى أبي سعيد ويطنب في وصفه، ومدحه ووصْفه، ويقول من بعض مكارمه واحتياله برجاله وجلب نفوسهم إلى حبّه: «إنه لما وجهني إلى فرنانده البيوج المذكور مع الإرسال الماشين دخلت على البيوج في خبائه ومعه أقماطه وأشياخه [264] النصارى فتكلم معي بلسانه العجمي، فقلت لترجمانه: «لست أفهم العجمية!» وإنما قلت ذلك كتماناً مني وحيلة، لأفهم من كلامه ما يريده من خير وشر، فترجم له ترجمانه عني الغرض الذي وصلت له على ما تقدم، ولاطفته في الصلح حتى كمل. وفي أثناء الجلوس معه سرق أرذال النصارى المتصرفين في الخباء عمامة رأسي عند غفلة مني! فلما وصلت إلى السيد منصرفاً مع البيوج رأى رأسي دون عمامة، فسألوني عن ذلك فوصفت له الحال وأنا ضاحك من رجال النصارى وسرقاتهم فأخذ بفضله وسيادته عمامة رأسه ودفعها إليّ واستدعى خديمه

(1) راجع ص 264 من الكتاب المخطوط أو صفحة 380 - 381 من المطبوع.

(2) عبد الهادي التازي: تاريخ المغرب الدبلوماسي: المجلد السادس (المغرب في عهد الموحدين).



«حماداً المصري[1] وأمره بسوق صمامة أخرى لرأسه فقبّلت يده وزاد حبه في قلبي وسؤدده».

ذكر حركة السيد الأعلى، المجاهد الاسنى، أبي حفص من اشبيلية إلى غزوته المذكورة لابن مردنيش بعد انصراف السيد الأسنى أبي سعيد من مدينة بطليوس على البشر الذي صنع الله تعالى له.

ولما انصرف السيد المذكور وتجمع مع أخيه السيد الأعلى ومع الشيخ المرحوم أبي حفص أعادوا رأيهم وعزمهم [265] على غزو عدوهم ابن مردنيش، فتحركوا من اشبيلية بجمعهم الموفور المنصور إلى مدينة قرطبة، وفي صحبتهم ابراهيم بن همشك في أول شهر رجب الفرد من سنة ست وستين المؤرخة. فلما وصلوا إلى قرطبة أقاموا فيها أياماً وتهدوا على تصميم الخير بعزمهم في غزوهم فأول مدينة نزلوها من بلاد ابن مردنيش مدينة قيجاطة[2] ففتحها الله تعالى بعد قتال ونزال، وقبض على قائدها الشرقي فضربت رقبته برأي ابن همشك، ثم أقلعوا منها مغيرين على بسائط بلاد مردنيش في طريقهم، مستصحبين الظفر في عدوهم، مواصلين لمن بادر بالتوحيد والطوع وأمن بتصديقهم دون منع حتى وصلوا مدينة مرسية، فنازلوها واستقلبوا حصن الفرج[3] الذي كان متنزه ابن مردنيش واستباحوا المرياضات والبساتين وما اتصل من البسائط والقرى بالبلاد القريبة بتلك الموسطة، وابن همشك مع الموحدين يدل على عورات عدُوّه، وينكيه في رواحه بالغزو وفي

(1) لم نجد ذكراً لحماد هذا في حاشية الخليفة الموحدي عند المراجع الأخرى.

(2) قيجاطة (Quesada) تقع في الشمال الشرقي لمدينا جيان شرقي قرباناة وقد تسمى قيشاطة. الروض المعطار ص 165. والترجمة بالفرنسية ص 198.

(3) حصن الفرج (Amalfaracho) وهو غير الحصن الذي جدده بعقرب على قمة الوادي الكبير بعد عودته من غزاة شلب والذي سماه حصن الفرج. المراكشي ص. 280 ـ 282. ابن عذاري 185 غفرة.

عدوه، وظهرت الغلبة على ابن مردنيش وعلى عسكره بالحصار. وظهر التخور على أحلافه الكفار، وكل ما استدعى النصارى من بلادهم أفردوه وأسلموه وأخلفوا وعده، واستقلوا رفده، فلم يصل إليه منهم إلا نحو أربع مائة فارس وجههم إلى مدينة لورقة لضبط قصبتها مع قائده الأخص به الأمين عنده [266] أبي عثمان بن عيسى[1] فضبطها وحصنها بهم، فلما كانت هذه المنازلة وطالت، وظهر الخلل في حال ابن مردنيش واختلت نفسه بالفكر والمرض، ورأى الناس أن حاله قد حالت وزالت، قامت العامة من أهل مدينة لورقة على النصارى وعلى من معهم من أصحابهم بدعوة الموحدين وقاتلوهم في المدينة، فاعتصموا بجمعهم في قصبتها، ووثقوا بمنعتها، فخاطب الناس أهل لورقة حضرة السيد الأعلى المجاهد أبي حفص بمحلته على مرسية، يعلمونه بقيامهم بدعوة التوحيد، ويستصرخونه بنصره لهم على عدوهم الشديد، فاقلع السيد المؤيد عن مرسية قاصداً عونهم واحتل مدينة لورقة وملكها، واستوطن بعسكره المنصور أرباضها ورياضاتها وبسائطها، وبقيت القصبة بمن فيها من الكفرة وعليهم القائد أبو عثمان بن عيسى ضابطاً لها بهم، فكان من بركة هذا الأمر العزيز العلي أن خرجت سرية من المحلة المؤيدة من أجناد الموحدين للغزو في البسائط على عاداتهم، فاتفق لهم أخذ الإبن محمد بن القائد أبي عثمان بن عيسى في غزوتهم، فاستاقوه برمته ممسوكاً إلى السيد الأعلى أبي حفص، فأمر أن يحمل إلى أبيه بقرب من القصبة وعساه يُراعيه، ويتخلى عن القصبة المضبوطة به، فامتنع من [267] الإجابة إلى[2] ذلك، وطال الحصار على النصارى في القصبة حتى نفد لهم

(1) ابن عذاري: ابن عيسى، انظر صفحة 75 من البيان المغرب.

(2) كثر في التاريخ ترديد أحداث من هذا النوع وخاصة في تاريخ اسبانيا الإسلامية، فقد حكى التاريخ أنه لما ثار دون خوان (Don Juan) شقيق الملك سانشو الرابع Sancho IV على أخيه واتحد بأعدائه عاهل المغرب وحاصر طريف بجيوش المسلمين، تحصن غوسمان Guzman حاكم طريفة من قبل سانشو الرابع في حصنها وامتنع فوقع ابنه في يد ثوار خوان، وكان خارج الحصن فهدده هذا قائلاً: «إما أن تسلم وإما قتلت ولدك» فأبى التسليم وقتل الولد! وقد سجل التاريخ »

الماء والقوت فتغلبوا على أبي عثمان بالقول والكلام حتى أذعن بالخروج لهم في رأيهم وتوسط ابن همشك لأبي عثمان في النزول عن القصبة بمن معه على الأمان والصفح في ذلك، حتى كمُل الحديث فنزل ابن عيسى المذكور عن القصبة مع النصارى وأصحابه وأجلوها على ما ذكر، ودخلها الموحدون أيدهم الله واحتووها، ودفع الابن محمد إلى أبيه مسلماً محفوظاً مكرماً، ورجع أبو عثمان القائد مع أصحابه وابنه إلى مرسية: إلى ابن مردنيش وانصرف النصارى الذين كانوا بلورقة إلى بلادهم طالبين النجاة بنفوسهم بما عاينوه من بؤسه وبؤسهم. ولما كمل فتح لورقة على ما ذكرته ومنازلة مرسية، أعلم السيد الأعلى بذلك حضرة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فوصله الجواب بكتاب كريم من أمير المؤمنين يأمره أن ينصرف بعسكره المؤيد إلى إعادة حصار مرسية وبشكره، فانصرف السيد الأعلى المذكور والموحدون أعزهم الله إليها ولازموا حصارها وحصار جناتها وما قرب منها، واستولى على فتح ما جاورها من البلاد وثقف البلاد بالموحدين، وأمرهم في أعمالهم بإقامة الدين.

[268] الاستيلاء على البلاد التي بيد ابن مردنيش وطوعها للموحدين

أيدهم الله بعد انصراف السيد الأعلى أبي حفص من لورقة إلى حصار مرسية.

ولما انصرف السيد المؤيد المذكور من فتح لورقة إلى حصار مرسية طاع له أهل حصن إلج[1] ووحّدوا، ووصلوا المحلة تائبين، ووصل معهم أكثر

* العرب حديثاً قريب بهذا، عندما أبى السموأل بن عاديا تسليم دروع امرئ القيس إلى الحرث بن أبي شمر الغساني.

(1) حصن إلج (ELCHE) يقع غربي مرسية. الروض المعطار ص 31 أحمد الغزال، نتيجة الاجتهاد ص 72 نشر الفريد البستاني، تطوان 1941 ـ عربية. Huici 256.

أهل الحصون والمجاورين لهم المتخمين إليهم لِتَقي عنهم، وأمنوا وأحسن إليهم، ثم إن السيد الأجل وجّه عسكراً مباركاً من الموحدين أعزهم الله، ومن العرب والجند، وقدم عليهم الشيخ الحافظ أبا عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم إلى مدينة بسطة، ففتحها الله على يده، ودخلت في طاعة الموحدين، وأمنوا أهلها مثل تأمين غيرهم، واتصل عند أهل الشرق هذا الفتح، والأمان لهم والصفح، فبادر أهل جزيرة شوقر[1] بالطاعة والتوحيد، وقاموا على النصارى الذين كانوا عندهم بدعوة التوحيد، وأخرجوهم عن بلدتهم، ووصلوا بجمعهم إلى السيد الأعلى بالمحلة الوئيدة بمرسية، فوجه معهم والياً عليهم فالدهم قبل وكان قد وحّد وبادر: أبو أيوب بن هلال الشرقي[2] فنهض معهم وضبطها للتوحيد، [269] ضبط الحازم الفارس المقدام الصنديد، فلما أقلع السيد عن مرسية على ما أذكره إن شاء الله، نازله ابن مردنيش في جزيرة شوقر بعسكره فما راعه نزاله، ولا هابه قتاله. ولم يزل ابن مردنيش في حصار في عقر داره، ونكبات تترادف عليه من انقلاب الخونة عن طاعته وأصهاره، وهو مكيود مفؤود، قد أسلمه القريب والبعيد، وظهر من يوسف بن مردنيش لأخيه محمد في منازلته جزيرة شُوقر التقصير به وعدم المعونة لمذهبه في قتال ابن هلال عدوه، وتحقق من أخيه الانحراف، والميل إلى الموحدين والانعطاف، فزادت كبده ألماً، واتصلت نفسه سقماً، فرجع إلى مرسية لغير طيبه، ولازمته العلة المزمنة بأسباب المنية، على ما أذكرها بعد هذا. رجع الخبر.

(1) شوقر كذا رسمها الناسخ في كتاب ابن صاحب الصلاة وإن كانت في سائر الكتب التي بين أيدينا، وفيها نزهة المشتاق فيما يليها، تكتب بحذف واو، وتضبط بضم الشين وتسكين القاف، وهي قرية من شاطبة، إذ يحيط بها الوادي، والمداخل إليها في الشتاء على المراكب وفي الصيف على القناطر، وفي إحاطة الوادي بها يشيد ابن خفاجة وأبو المطرف بن عميرة وغيرهم من الأشعار، وقد كانت جزيرة شوقر تطلق أيام الدولة الإسلامية على الجزيرة الواقعة في نهر شوقر Rio Ucar قبل مصبه في البحر المتوسط جنوب بلنسية، وهو الاسم الذي اشتهر فيما بعد ألسيرة (Alcira).

الروض المعطار ص 102 — 103 — 104. الحلل السندسية أرل 109 ـ 110 ـ الإحاطة لابن الخطيب نشر عبد الله عنان 283 ـ دوزي ص 157 ـ بروفنسال.

(2) هو محمد بن هلال، وقد لمه ابن الأبار بذي الوزارتين. انظر الحلة السيراء ص 237.

(فيئة صاحب البسيط إلى الموحدين)

وفي خلال هذه الغزوة المذكورة المنصورة والحصار قام بالمرية[1] محمد بن مردنيش[2] المعروف بابن صاحب البسيط[3] ابن عم محمد بن مردنيش[4] المذكور، تمم وصهره على أخته بدعوة الموحدين أيدهم الله وأعانه على قيامه محمد بن هلال[5] صاحبه، وتقبضا على الوالي بها من قبل ابن مردنيش: ابن مقدام[6] ورحَّلوا، وخاطبوا بذلك إلى السيد الأعلى أبي حفص بالمحلة المؤيدة، فوجه إليهم عسكراً من الموحدين أعزهم الله معيناً لهم، ومنصرلهم والشكر [270] على فعلهم، ونفذ الأمر بقتل ابن مقدام القائد المقبوض عليه فقتل. واتصل هذا الخبر بابن مردنيش فأمر بقتل أخت نفسه[7] زوج محمد بن عمه المعروف بابن صاحب البسيط المذكور، وبقتل بنيه منها، وقطعه رحمه عنها، فأعذبهم ابن الرامي الموكل بالعذاب منه بالناس وحملهم إلى البحيرة[8] المتصلة بالبحر بقرب بلنسية، وأدخلهم في قارب مع نفسه،

(1) المرية (Almeria) أنظر التعليق رقم 3 ص 98 .

(2) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد، صاحب المرية، وقد ذكره ابن الأبار في الحلة السيراء إثناء ترجمة أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي، وذلك عندما استطرد بذكر ضعف أمر أبي عبد الله محمد بن سعد الأندلسي واستلاب ابن همشك صهره بجيان وكذا ابنَ عمه أبي عبد الله بالمرية من طاعته. الحلة السيراء، ص 236.

(3) البسيط (Albacete) مقاطعة أو مدينة تقع في الجانب الشرقي من طليطلة ومدريد، وفيها المدينة القديمة والمدينة الجديدة، وبها يمر الطريق الحديدي الذي يربط بين مدريد والقنت على الساحل الشرقي من المتوسط.
مخطوط ابن عذاري ص 76 ـ الحلل السندسية ثالث ص 48 ـ الغزال: نتيجة الاجتهاد ص 7 ـ 71.
Huici: P. 243 — 257

(4) يضيف ابن عذاري هنا قوله تأكيداً: ابن عم صاحب مرسية.

(5) هو أبو أيوب المتقدم تعليق رقم 2 ص 319.

(6) لم نقف على من ذكر هذا القائد ولعل له صلة ببطن مقدام ابن طريف. ابن خلدون، المجلد السادس ص 183.

(7) لم تنس البيذق الإشارة لقتل أخت ابن مردنيش وتذكر بعض المصادر خطأ أن المقتولة هي إبنته. البيذق، أخبار المهدي ص 126 ـ ابن عذاري ص 76.

(8) يقصد بالبحيرة هنا: المكان المعروف تحت اسم (la Albufera) بمرسية.

فلما توسط بهم البحيرة المذكورة غرقهم في البحر على أبشع حال، وأشنع مقال. واختل نعن ابن مردنيش في أثر ذلك، وقل عونه من الله ومن الناس هنالك، وعاد صبحه كالليل الحالك وفزع من اذايته أهلُه وقرابته، وشيعته وحامته[1] واختلت جبايته وحالته.

وعند اتصال هذا الفتح واليمن الشامل، والنصر والحصار المتواصل، أجاز الخليفة الأرضى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى جزيرة الأندلس عساكره الموفورة المؤيدة، منجزاً عدته التي كتب بها للموحدين ـ أعزهم الله ـ ومردفاً لأخيه في نصره وشد أواخيه على عدوه، وذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان من عام ستة وستين وخمس مائة. ووصل إلى إشبيلية يوم الجمعة الثاني عشر من شوال بعد صلاة الجمعة على ما أذكره بعد[2] هذا مفسراً [271] إن شاء الله تعالى. فاتصل خبر اليمن بوصوله وحلوله بكتابه الكريم، المبشر العظيم، إلى السيد الأعلى بالمحلة المؤيدة، فتمادى على غزوته، وازدادت القلوب حباً في الغزو ثقة بهم من الله تعالى في نصرته، على علاته لأهل هذا الأمر العزيز وبركته، ثم أخذ السيد الأعلى في الانصراف عن هذه الغزوة إلى الحضرة العلية حضرة أخيه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وللقائه بعد الفتح الذي ذكرته. وكان انصرافه في آخر شهر ذي الحجة من عام ستة وستين وخمس مائة. ووصل إلى اشبيلية ظافراً منصوراً على أعدائه، واجتمع بالخليفة فيها على سرور كامل، وظهور حافل، وبروز للنظارة لم يعهد في الأزمان الأوائل، في شهر محرم في الخامس عشر من عام سبعة وستين وخمس مائة المؤرخ.

قال المؤلف لم أعرض لذكر أخبار ابن مردنيش في هذا التاريخ، ولا لذكر الثوار الأندلسيين، إذ قد شرحت ذلك في التاليف المسمى بتأليف (ثورة

(1) يعني أصدقاءه الذين كانوا يحومون حواليه.

(2) صفحة ٣٠٢.

المريدين) فاغنى عن ذكرهم في هذا التاريخ وإنما أرخت غاية الأمر عليه[1].

ولما اجتمع السيد الأعلى أبو حفص باشبيلية مع أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أخيه بعد غزوته المؤيدة، ووصل معه عسكره من الموحدين والأجناد الأندلسيين، فأنعم عليهم أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه [272] ببركة عظيمة العدد، وكسوة كاملة للرأس والجسد، وحفّ بهم التقريب باللسان وبالجود باليد، والإحسان اليهم، وللأهل والولد، وأحسن الأمر لكل من وصل معه من الأجناد الأندلسيين الشرقيين المبادرين لهذا الأمر العزيز وسلموا وبايعوا ورُحب بهم وأنزلوا على ما أشرحه بعد هذا إن شاء الله تعالى.

(1) فعندما كان ابن صاحب الصلاة يعتذر عن هذه الاستطرادات كان يعطينا تعريفاً واضحاً لموضوع كتابه (ثورة المريدين).

الخبر عن اقامة امير المؤمنين ابي يعقوب بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بحضرة مراكش بنية الغزو مريضاً بعد تقدم السيد الأعلى اخيه ابي حفص بالعسكر المؤيد الى الأندلس، ونظره - مع ضعفه - فيما قلده الله تعالى من أمور المسلمين، وذكر ما اندرج في المدة المذكورة من استدعاءه[2] العرب من الريفية والولاة بها ووصولهم اليه وفضائله وصدقاته واعطياته ومقدماته لهذه الغزوة الحافلة التي استولى فيها على ابن مردنيش واحيى الأندلس وامنها. وحمى مواسطها وثغورها واسكنها، وقصّر اشبيلية واستوطنها.

قال الرّاوية: وإن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه لم يزل ينظر في الغزوة التي وعد بها الموحدين على ما تقدم [273] ذكرها مع ضعفه، فإن مرضه كان من أول سنة خمس وستين، واستقلّ وخرج إلى الصلاة يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول عام ستة وستين وخمس مائة، فكان غيبه[2] أربعة عشر شهراً وخمسة عشر يوماً، لكنه كان يدخل إليه وزيره أبو العلا ادريس بن أبي اسحاق بن جامع بعلمه بالمخاطبات الواصلة، والأخبار المسلية السارة المتجاملة، ويحضر معه الأطباء الأولياء أبو مروان بن قاسم[3]،

(1) راجع التعليق رقم 3 ص 172.
(2) في ابن عذاري ص 77: كانت علته الخ.
(3) هو الوزير أبو مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي من أهل التبريز في صناعة الطب وقد توفي سنة خمس وستين وخمسمائة. ابن أبي زرع، القرطاس ثاني ص 76.

وأبو بكر بن طفيل[1] وغيرهما[2]، ينظرون فيما يصلح به من الشراب والغذاء وجميع الأشياء، وكذلك يدخل معهم الفقيه أبو محمد عبد الله المالقي إذ كان عنده في مسلاخ[3] وزير وأمين، يتشيّخ على طلبة الحضر، بل أمانه بعلمه منه حسن النصح والتدبير، ويتابعهم أشياخ الموحدين كالشيخ أبي محمد عبد الواحد بن عمر[4]، وأصحابه أعزهم الله يحققون الدُّعاء له بالشفاية[5] إذا جلسوا، ويتوسمون إلى الخروج وقد اقتبسوا اليمن في عيادته منه واجتلوا، لمتى طرأت مخاطبة من السيد الأعلى على أخيه في معنى الغزو أمر على حاله بالجواب عليها، وإذا وصلت شرح له ما اتّصل لديها وغير ذلك عليه السكوت سائل[6] لعل الوفود يوعدون عليها اللطف من الله والرقوت[7]، وفي هذه المرة استدعى العرب [274] وخاطبهم بهذه القصيدة على حالته المذكورة، يحرضهم فيها إلى الجهاد ويستدعيهم إلى الغزوة العظمى التي في نيته بأوفر الاستعداد، ويصفهم فيها بما هُم فيه من الشهامة والزعامة، ويستدنيهم غاية الاستدناء[8]، ويناديهم غاية النداء، ويستقربهم بالقربى التي تجمعهم في قيس عيلان وأنهم السيف الماضي في نصر الدين وحمايته،

(1) من وادي آش، وهو من مشاهير الأطباء وأهل الحذق والنظر في العمليات الجراحية وقد توفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وهو مؤلف الكتاب الأشهر: «رسالة حي بن يقظان...» المصدر السابق.

(2) كان في جملة الأطباء يوسف بالإضافة إلى علي بن قاسم وابن طفيل، الوزير أبو بكر بن زهر الذي كان ينفرد بعمل الحضرة، كما كان من أطبائه جد أبو الوليد بن رشد. القرطاس ص 176 ـ 177 ـ 178 ـ 179 ـ 180.

(3) يعني في رتبة وزير، وقد ورد في حديث عائشة: «ما رأيت امرأة أحبّ إليّ أن أكون في مسلاخها من سودة» كأنها تمنت أن تكون في مثل هديها وطريقتها. (لسان العرب)

(4) أظن أن هذا الذي يعنيه البيذق بالشرقي ويعتبر من أهل دار الهدى وقد أشار ـ من خلال الكتاب ـ بأنه الخطيب الفصيح الذي يتحدث في الأوقات الصعبة، سواء باللسان المصري أو باللسان الغربي (بالمتين). أنظر الإمامة 388.

(5) كذا في الأصل، ولم نقف على مصدر هكذا الشفى، فيظهر أن الصواب الشفاء.

(6) هنا كشط لم تتبين حروفه في المخطوط ولعله: (وسائل).

(7) كذا في الأصل ولم نجد لمعناه كما يجب.

(8) راجع التعليق رقم 3 ص 111.

وقمع المارقين، ودفع الكافرين، وهي من قول ابن طفيل[1]: (طويل).

أقيموا صدورَ الخيلِ نحوَ المغاربِ
لغزوِ الأعادي واقتناءِ الرغائبِ
وأذكوا المذاكي العادياتِ على العِدى
فقد عرضت للحربِ جُرْدُ السلاهبِ

فلا تُقتنى الآمالُ إلا من القنا ... ولا تُكتبُ العَليا بغيرِ الكتائبِ
ولا يَبلغُ الغاياتِ إلا مصمِّمٌ ... على الهوْلِ ركّابُ ظهورِ المصاعبِ

يرى غمرةَ الهيجاءِ أعذبَ مشربِ
وإن أعرضت زُرقاً جِمامُ المشاربِ

وما لك إلا مكتفاً من حسامه ... ويَعرضُ عزّاً من جميعِ النكائبِ
ألا فابتغوها همّةً عربيةً ... تحفُّ بأطرافِ القنا والقواضبِ

(1) عرف الناس بصورة تاريخ أبي بكر بن طفيل طائفة من آثاره الشعرية في الغزل والحكمة والزهد والرثاء منثورة في بعض أو بعض معاجم الأدب الموحدي، كما عرفوا أرجوزته الخالدة في الأمراض وعوارضها وعلاجها، ولكن المصادر ظلت دائماً صامتة عندما يريد المرء أن يستقصي سائر شعره، والذكرة ما قوي الاهتمام بآثار ابن طفيل الأدبية، حرصت على إرسال هذه القصيدة للمهرجان الذي أقيم ببيروت عن ابن طفيل في دجنبر 1961 ولقيت أشتاتاً وأيا ظلت ـ فيما نعلم ـ سجينة القلاع بيد أن الزميل الدكتور عبد العزيز الأهواني كتبه تعريفي عمل القاهرة في حديث عن الدكتور غرسية غومس ذكر أن قصيدة ابن طفيل هذه كان ظفر بها الدكتور غرسيس عندما كان ينوي أن يقوم بنشر كتاب ابن صاحب الصلاة وأنه قام بنشرها في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية وقد نقل كذلك الآن كازيري (Casiri) تكلم عن شعر لابن الطفيل في الطب وقال أنه يوجد بالاسكوريال، هذا وتوجد هذه الأرجوزة في خزانة جامع القرويين المراكشي بالعجب، ص 240 ـ 241 ـ 242 ـ ابن عبد الملك، الذيل والتكملة عند ترجمة أبي العباس الصقر ـ أرجوزة ابن طفيل في الطب، مسجلة بخزانة جامعة القرويين بفاس تحت رقم 3158/50.

مخطوط ابن عذاري ص 107.

Leon Gauthier; IBN Tufail sa vie ses Oeuvres P. 24 — 25.

مجلة المعهد المصري عدد 1953 ص 23 ـ 26 ـ ٢٧ ـ 28 ـ 29 ـ 32 راجع التعليق رقم 3 صفحة 433.

حي بن يقظان لابن طفيل دراسة وتحليل جميل صليبا وكامل عياد 1962 صفحة 18.

فرسانُ قيسٍ مِنْ هلالِ بْنِ عامرٍ
وما جَمَعَتْ من طاعنٍ ومُضاربِ

لكُم قُبّةٌ للمَجْدِ، شُدُّوا عِمادَها   بطاعةِ أمرِ اللهِ من كلِّ جانبِ

وقُوموا لنَصْرِ الدِّينِ قومةَ ثائرٍ   وفِيئُوا إلى التَّحقيقِ فيئةَ راغبِ

دَعَوناكُمُ نَبْغي خَلاصَ جميعِكم   دُعاةً بَريئاً مِنْ جميعِ الشّوائبِ

نُريدُ لكُم ما نَبتغي لنُفوسِنا   ونُؤثِرُكم زُلفَى بأعلى المَراتبِ

[275] فلا تَزهَدُوا في نَيْلِ حظِّكم الّذي
لكُم فيهِ فوزٌ مِن جميعِ المَعاطبِ

بِكُم نُصِرَ الإسلامُ بَدْءاً، فنَصْرُهُ
عليكُم وهذا عَوْدُهُ جِدُّ واجبِ

فقُوموا بما قامَتْ أوائلُكم بهِ   ولا تَغفُلوا إحياءَ تلكَ المَناقبِ!

وقَدْ جَعَلَ اللهُ النّبيَّ وآلَهُ   ومَهديَّهُ مِنكُم بلا عَيْبِ عائبِ

وقَرَّتُم بتَخصيصِ الخَليفةِ بَعدَهُ   ونَيْلِ الدُّنيا بزُلْفَى الأقاربِ

وطائفةُ المَهديِّ مِنكُم، وإنَّها   لتَحْنُو عليكُم باتّصالِ المَناسبِ

ومَن ذا الّذي يَسْمُو ليَبلُغَ شأوَكُم
إذا كُنتُمُ فوقَ النُّجومِ الثَّواقبِ

نَصَحْناكُم والنُّصحُ في الدِّينِ واجبٌ
بما لكُمُ فيهِ صَلاحُ العَواقبِ

وخاطبَكُم عنّا بَيانٌ مُخَلَّصٌ(1)   يَشُقُّ سَناهُ داجياتِ الغَياهبِ

هُوَ الأمرُ أمرُ اللهِ مُتَّبَعٌ ونَبَّهَ   لكُلِّ مُنيبٍ ناصِحِ الجَيْبِ تائبِ

وفيهِ دُعاءٌ للعُداةِ إذا انتَحَى   لتَمَكَّنَ ما بَينَ اللُّهى والتَّرائبِ

والسَّمُّ على التَّخصيصِ أجدَرُ مَن بَنَى
بجُرْزَتِهِ بَيتاً رفيعَ الذَّوائبِ

فأنتُم قَيسٌ، وفُرسانُ رَبِّنا   على الأرضِ مِن قَيسٍ بخَيرِ تَغالبِ

(1) قرأها غومس: مخصص، مجلة المعهد المصري ص 51.

خَلُّوا حظَّكُم فالأمرُ جِدٌّ، وإنّما   يَكونُ بقَدْرِ الجِدِّ قَدْرُ المَناصبِ

وقَدْ فازَ بالتَّقديمِ مِنكُم مَعاشِرٌ
بما قَدَّموهُ مِن حَميدِ المَذاهبِ

تَحُثُّ بهِم نَحوَ البِدارِ إلى الهُدى   عِتاقُ جِيادٍ أو عِتاقُ نَجائبِ

فطارُوا إلى الدّاعي سِراعاً كأنَّهُم   قَوادِمُ تُلقي القَوْزَ مِنْ رَمْيِ غاربِ

فخُصُّوا مِنَ التَّكريمِ والبِرِّ بالّذي   يَكونُ جَديراً بالوَليِّ المُصاقبِ

فنالُوا مَحَلَّ الشّيءِ فانفَسَحَتْ لهُم   رِياضُ الأماني سائحاتِ المَذانبِ

[276] وقَدْ شاهَدوا مِن حُرمةِ الأمرِ ما قَضى
لهُم بأمانٍ مِن جَميعِ النَّوائبِ

فما لكُم والنَّومَ عَن خَيرِ هِمّةٍ   تُقَلِّصُ أفياءَ الشُّكوكِ الخَوالبِ

وتَضْبِطُكم(1) بالمَشرَفيّةِ والقَنا   مَناوِحُ عِزٍّ سامياتُ المَطالبِ

وما هِيَ إلّا دَعوةٌ عَزَّ ذِكرُها   فعِزُّ بها في اللهِ كُلُّ مُصاحبِ

حَذاراً لإعراضِ الفَتى عَن نَجابةٍ   وتَضْييعِهِ للحَزْمِ إحدى المَعايبِ

وما الحَزمُ إلّا طاعةُ اللهِ إنَّها   هِيَ الحَزمُ الشّائعُ مِن كُلِّ طالبِ

تَعُدُّكُمُ السَّيفَ الّذي لَمْ يَنثَني
إذا ما نَبا سَيفٌ براحةِ ضاربِ

ونَجعَلُكُم صَدْرَ القَناةِ إذا غَدَتْ
تُطاعِنُ ما بَينَ الحَشى والتَّرائبِ

وقَدْ كانَ مِن أقوالِكُم ما عَلِمتُمُ
فإنْ كانَ يَفعَلُ فالرِّضا غَيرُ غائبِ!

ولَيسَ خَطيبُ الصِّدقِ مَن قالَ فانبَرى
ولكِنْ بفِعلِ الحُرِّ أصدَقُ خاطبِ

وما خُلُقُ الأعرابِ إخلافُ مَوعِدٍ
ولكِنْ صِدقُ الوَعدِ خُلْقُ الأعاربِ

(1) كذا في الأصل وقد قرأها غومس (وتضطلكم) عطفاً على تقلص، وضبط مناوح (مفاوز) فتح الحاء.

سَتَعْلَمُ مَنِ الوَفِيُّ وَمَنْ خَائِنٌ عَهْدَهُ
وَمَنْ كَانَ مِن آتٍ إِلَيْنَا وَذَاهِبِ
وَتَطْهُرُ الصَّوَالُ بِرُوقِ شِمَالِهَا   فَتَرْغَبُ فِي أَمْثَالِهَا كُلُّ رَاغِبِ

وإن العرب تأخروا قليلاً، فخاطبهم يستعجلهم، ويذكر لهم نية العلامة على الجهاد ويستزحلهم، بهذه القصيدة أيضاً وهي من قول ابن عياش[1]: (طويل).

أَقِيمُوا إِلَى العَلْيَاءِ هُوجَ[2] الرَّوَاحِلِ
وَقُودُوا إِلَى الهَيْجَاءِ جُرْدَ الصَّوَاهِلِ
وَقُومُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمَةَ ثَائِرٍ   وَشُدُّوا عَلَى الأَعْدَاءِ شَدَّةَ صَائِلِ
[277] وَأَسْرُوا بَنِي قَيْسٍ إِلَى نَيْلِ غَايَةٍ
مِنَ المَجْدِ تُجْنَى عِنْدَ بَرْدِ الأَصَائِلِ
فَمَا العِزُّ إِلَّا ظَهْرُ أَجْرَدَ سَابِحٍ   تَمُوتُ[3] الصَّبَا فِي شَدِّهِ المُتَوَاصِلِ
وَأَبْيَضَ مَأْثُورٍ كَأَنَّ فِرِنْدَهُ   عَلَى المَاءِ مَنْحُوتٌ[4] وَلَيْسَ بِسَائِلِ
بَنِي العَمِّ مِنْ عَلْيَا هِلَالِ بْنِ عَامِرٍ   وَمَا جَمَعَتْ مِنْ بَاسِلٍ وَابْنِ بَاسِلِ

(1) نسب المراكشي في المعجب هذه القصيدة للخليفة عبد المؤمن نفسه، وتبعه في هذه النسبة بعض الأدباء والمؤرخين من كتبوا عن الحياة الأدبية على عهد الموحدين، وهي كما ترى ـ حسب قول ابن صاحب الصلاة المؤرخ المعاصر ـ لابن عياش، وليست بهذا تلغي شاعرية عبد المؤمن فقد تضافرت النقول على ذلك، ولكنا نشك في نسبة المراكشي هذه المقطوعة له.
أنظر المن بالإمامة صفحة 5.
المراكشي، المعجب، ص 225 — 226 ـ الحلل الموشية 151 ـ عبد الله كنون، النبوغ المغربي الطبعة الثانية، تطوان ـ جزء ثالث ص 266 ـ محمد المنوني ـ الآداب على عهد الموحدين نشر معهد مولاي الحسن ـ تطوان ص 159.
Provençal: Notes D'histoire Almohade Hesp. X 1930 p. 66.
(2) كذا في المخطوط جمع هوجاء، وفي المعجب (هوج) جمع هوجاء.
(3) في المعجب تموت الصبا، ويعني ذلك أن السابح يفوق ويطغى على ريح الصبا بعدوه المتواصل.
(4) في المعجب: منسوج.

تَعَالَوْا فَقَدْ شُدَّتْ إِلَى الغَزْوِ نِيَّةٌ   عَوَاقِبُهَا مَقْصُورَةٌ[1] بِالأَوَائِلِ
هِيَ الغَزْوَةُ الغَرَّاءُ وَالمَوْعِدُ الَّذِي   تَنَجَّزَ فِي أُفْقِ[2] النَّدَى المُتَطَاوِلِ
بِهَا تُفْتَحُ الدُّنْيَا بِهَا نَبْلُغُ المُنَى   بِهَا يُنْصِفُ التَّحْقِيقُ مِنْ كُلِّ بَاطِلِ
عَزَمْنَا وَأَمْرُ اللهِ لَا بُدَّ وَاقِعٌ   عَلَى وَقْعَةٍ تُودِي بِدِينِ القَبَائِلِ!
بِجَيْشٍ يَضِلُّ الطَّيْرُ فِي حَجَرَاتِهِ   وَتَحْجُبُ عَنْهُ الشَّمْسَ سُحْبُ القَسَاطِلِ
وَيَحْسِرُ فِيهِ الطَّرْفُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ   يَمُورُ دِلَاصٌ عَائِمَاتُ الرَّوَاجِلِ
وَيَطْلُعُ لَيْلَ النَّقْعِ فِيهِ كَوَاكِبًا   مِنَ البِيضِ أَوْ بِيضٍ مُرْهَفَاتِ المَنَاصِلِ
وَيُضْحِي بِهِ بَحْرُ الدِّمَاءِ مُفَجَّرًا   بِأَسْمَرَ عَسَّالٍ وَأَبْيَضَ نَاحِلِ
بِأَيْدِي رِجَالٍ قَدْ وَفَوْا بِعُهُودِهِمْ   وَخَاضُوا لِنَصْرِ الدِّينِ أَمْوَاجَ هَائِلِ
فَمَا وَهَنُوا يَوْمًا وَلَا فَلَّ عَزْمَهُمْ   وَلَا غَيَّرَتْهُمْ مُعْضِلَاتُ النَّوَازِلِ
فَطِيرُوا إِلَيْهَا يَا هِلَالَ بْنَ عَامِرٍ   ثِقَالًا خِفَافًا بَيْنَ حَافٍ وَنَاعِلِ
وَلَا تَخْذُلُوا عَنْ حَظِّكُمْ مِنْ إِجَابَةٍ   تُبَوِّئُكُمْ فِي المَجْدِ أَسْنَى المَنَازِلِ
وَتُطْلِعُكُمْ صَدْرَ النَّدَى[3] إِذَا نَبَتْ
بِمَنْ لَمْ يُجِبْ مِنْكُمْ صُدُورُ المَحَافِلِ
لَعِبْنَا بِكُمْ لِلْخَيْرِ وَاللهُ حَسْبُنَا   وَحَسْبُكُمُ وَاللهُ أَفْضَلُ عَادِلِ
فَمَا هَمُّنَا إِلَّا صَلَاحُ جَمِيعِكُمْ   وَتَسْرِيحُكُمْ فِي ظِلِّ أَخْضَرَ هَاطِلِ
[278] وَتَسْرِيحُكُمْ تُغْنِي بِسَرْفِ تَيْسِيرِهَا[4]
عَلَيْكُمْ بِخَيْرٍ عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلِ
فَلَا تَتَوَانَوْا فَالبِدَارُ غَنِيمَةٌ   وَلِلْمُدْلِجِ السَّارِي صَفَاءُ المَنَاهِلِ!

(1) كذا في الأصل وفي المعجب: مقصورة، والظاهر أن الصواب مقرونة.
(2) في المعجب (تنجز من بعد الندى).
(3) الندى: مجلس القوم، ويعني أن هذه الاستجابة ستمكن الضعاف منكم من احتلال صدور المجالس.
(4) في المعجب: ترى طلاقها. أنظر ص 226.

الاجابة من العرب الى الامر العزيز بالوصول

ولما وصلت الى العرب بشطر افريقية والزاب[1] والقيروان هاتان القصيدتان واوضحوا قرائنهما، وتبيّنت لهم معانيهما وفصاحتهما، وما فيهما من التحريض على جهاد الكفار، ودفاع المنافقين الفجار، وطهّر الله قلوبهم ونوّر أفئدتهم وعيونهم إلى فهم ما دُعوا إليه من الدخول في مسالك الابرار الأخيار، أجابوا إلى الطاعة، على حكم الاستطاعة، بأكمل البدار، وكان من التيسّر في هذا الاستدعاء، والبشر الموافق لهذا النداء، أن شيخ بني رياح وزعيمهم[2] جبارة بن أبي العينين كان قد قرّ بنفسه قديماً عن هذا الأمر العزيز إلى بلاد مصر والحجاز واليمن وجال في تلك الأسقاع، وطاف في تلك البلاد طمعاً في مُعين - بزعمه - على الامتناع، وسعد هذا الأمر العزيز يرده عن ردّته وأمثاله، ويفتل أقباله، ويقيل به منكوصاً على عقبه، راغباً إقباله، ولما لم يجد عن هذا الأمر العزيز بدّاً، ولم يرَ في تلك الأسقاع من يرفده رفداً، ولا من عنده عضداً، أبعد مذهب ردّته [279] وقرّب القياد راحلته إلى بلدته، ميمّماً هذا المغرب الأقصى الذي ظهر فيه نور العدل، وزكى فيه أهل الهدى والفضل، بهدي الإمام المهدي، ونور خليفته أمير المؤمنين الأعدل، سيدنا الإمام أبي يعقوب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنهم. وحين وصل بلاد افريقية المذكورة، وجد أكثر بني عمه قد بادروا إلى طاعة هذا الأمر العظيم، والحركة الى الجهاد الكريم، أسرع بنفسه وإخوته قبل إسراعهم، وجَمّع قبله الأخص قبل اجتماعهم، ولحق بهم أولاً الى السيد الأسنى أبي زكريا يحيى بن

(1) الزاب على طرف الصحراء الجزائرية وعاصمتها طبنة، وهو ثلاث مناطق: الشرقي والصحراوي والقبلي وفيها المياه والأنهار والعيون: الإدريسي صفحة 93 الاستبصار صفحة 171.

YVR: Ency. TIVp. 1246 — 47.

(2) يستأثر ابن صاحب الصلاة بذكر محاولات زعيم بني رياح جبارة هذا في الشرق من أجل الحصول على عون الحكام هناك، وهذا لا نجد ذكراً له في الكتب التي عنيت - بصفة جدية - بهذه الحقبة من تاريخ الشرق.

ابن واصل: مفرج الكروب، أول نشر الدكتور جمال الدين الشيال 1953 ص 197 — 126.

الخليفة بمدينة بجاية مستظلاً عليه، مستعفياً لذنبه، فلقي عنده من الصّفح والعفو ما يوجد عند سيّد كريم، على الصراط المستقيم. وأقام عنده إلى أن وصل قدّاح[1] وأبوه وإخوته وأشياخ العرب بجمعهم، وتحرك السيد الأسنى أبو زكرياء المذكور إلى الحضرة العلية مراكش، فأقبلوا تحت لوائه، متبركين بصحبته ودعائه، ووصل أيضاً العمال والأمناء بافريقية: أبو محمد عبد الواحد ابوسفور[2] صاحب تونس وأنظارها، وأبو زكرياء يحيى أقصور الهنتاتيان[3] ومعهم[4] ... النعمان بن ......[5] بهؤلاء العرب والأموال والخيل العراب، العتاق الأحساب، المذرّبة عند الأعراب، ولما وصلوا مدينة تلمسان صحبهم السيد أبو عمران موسى بن الخليفة[6] أيضاً بمن عنده من العساكر والعمال بالأموال مع عاملهم أبي الربيع بن عبد النور[7] وبالخيل المسوّمة [280] الكثيرة الأعداد العوالي المعوّدة المقدمة القوادم، الرجّح الأكفال، واجتمع الجميع، وصحبهم السامع المطيع، فلما قاربوا الحضرة العلية أُمِروا بخطاب بر أن يأخذوا أنفسهم ومن معهم بالرفق في المشي واللحاق، والتؤدة في الوصول والارتفاق، والمحافظة على الخيل العتاق، فامتثلوا الأمر الواصل، وعملوا الرّتل المتواصل. وكان عدد الخَيْل الواصلة من افريقية أربعة آلاف فرس، ومائة وخمسين حملاً من المال الصامت، وكان الذي وصل من تلمسان ونظرها ألف فرس، وخمسين حملاً من المال الصامت.

(1) لم نجد صدى لقداح هذا بالرغم من أن السياق يفيد أنه كان ذا منزلة مرموقة.

(2) يختلف ابن عذاري اسم ابوسفور. أنظر ص 80 من البيان المغرب.

(3) ذكر البيذق قليلاً من أهل هنتاتة ولكنه اختلط عن ذكر من لم يقف على اسمائهم، ويظهر أن عبد الواحد ابوسفور ويحيى أقصور كانا في جملة من ناصر حركة الموحدين من أول الأمر.

(4) هنا بياض صغير... لكن ابن عذاري لم يأت به. أنظر صفحة 80 من المخطوط ابن عذاري.

(5) هنا بياض لكنه أوسع من الأول، ويظهر أن المؤلف كان يريد أن يثبت من والد النعمان لكنه لم يتمكن من ذلك أما ابن عذاري فلم يكلف نفسه التعلق بذكر الوالد...

(6) لم يذكره ابن صاحب الصلاة ضمن أولاد الخليفة عندما كان يعددهم. راجع التعليق رقم 1. ص 156.

(7) اختصر ابن عذاري هنا فعدل عن ذكر أبي الربيع سليمان بن عبد النور. ابن عذاري ص 80.

لحاق الخبر السار بوفود السيدين والعرب

وكان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه قد استقلَّ قبل وُصول الخبر، فتمكّن سروره واستقلالُه، وتضمن بفضل الله ولُطفه حبوره واستبلاله، وعزم أن يكون خروجه أولاً الى المسجد الجامع، وأن يؤدي فيه الفريضة يومَ الجمعة على أداء الراكع السَّاجد الخاشع.

الخروج الى المسجد الجامع

[281] وخَرج إلى المسجد بعد اتصال مرضه المشهور يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول عام ستة وستين وخمس مائة لحضور الصلاة الفريضة فيه. وخطب الفقيه ابو محمد المالقي الخطبة المعلومة، وأُسرع فيها وفي الصلاة بالتخفيف على أُمير المؤمنين، ففهم الناس من ذلك خروجه الى الصلاة، فاستبشروا وشكروا الله تعالى على شفايته[1] وتيقَّنوا اليُمْن وانتظروا، ودعوا إلى الله تعالى في دوام أيامه، ونصر أعلامه، وظهرت البشرى في تلك الساعة عند افتتاحه الصلاة وسلامه، وبعد فراغ الفريضة صاح الناس بالجامع بظلاماتهم[2] وأبدوا الشكوى بطول مدتهم واقامتهم، فانصرف بعد الدعاء وقد أمر بكتب مسائلهم وقُوِّم من عدله قضاءُ وسائلهم.

فلما كان يوم السبت الثاني من خروجه، وهو السابع عشر من الشهر المذكور قدم النظر في إقامة الحدود على أهل التعدي، وأمر القاضي أبا يوسف حجاج بن يوسف[3] يطلع أحوال المسجونين، وإنصاف المظلومين، ولما كان يوم الاثنين التاسع عشر من الشهر المذكور أمر بفتح الباب المغلق المعروف بباب الأسطوان[4] الذي كان من عادته الجلوس في داخله، والجمع

(1) مرة أخرى يكتب الناسخ شفاية بدل شفاء. أنظر التعليق رقم 5 صفحة 324.
(2) عادة معروفة وما تزال إلى الآن.
(3) كان في أبرز قضاة الخليفة، ابن أبي زرع، جزء ثالث ص 175.
(4) يستذكر ابن صاحب الصلاة بذكر هذا الباب. المرزوق؛ ص 250.

الموحدون أعزهم الله لمشاهدة فتحه، ففتح وبُسط موضع الجلوس فيه. وقد كان أعد كسوة للسَّقايف المسماة بمتيقمي[1]. [282] من الحصور، فبسطت فيها أحمال الحصى والرمل، وفرشت في وسط صحن الدار التي يمشي فيها الناس، وطبع الموضع على أتقن ما كان، وعلى أرتب هيئة تقدمت. وجلس رضي الله عنه ودخل عليه أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضر والوزير أبو العلا ادريس بن أبي اسحق وأخوه أبو محمد عبد الله قائمان بترتيب الدخول بالناس، وسلَّموا عليه ودعوا له وهنّوه على عافيته وشفايته. ثم إن الوزير استدعى أشياخ الناس من الأجناد وأهل الاعتقاد والخاصة من أهل الوفود والقُصَّاد، وأُدخلهم للسلام، دون كلام. وقام الشيخ الزاهد المرحوم أبو محمد عبد الواحد بن عمر وخطب خطبةً فصيحةً باللسان الغربي للموحدين بشكر الله تعالى على العافية والشفاية، وخطب القاضي أبو يوسف خطبة بليغة في معنى الشكر لله تعالى والدعاء بالنصر والتأييد لأمير المؤمنين، وتلاه الفقيه أبو محمد المالقي بمثل ذلك على أوضح البيان والتبين، من وصف خيرات الله تعالى ونعمه بكمال الدين، وتخلَّفت الحال في الجلوس، وكان هذا اليوم من أسْعَد الأيام في التأنيس.

الصدقة والحنان، والانعام والاحسان.

[283] وعندما كان الخير والبشر بما ذكرته تصدَّق أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه على الضعفاء، والوافدين الغرباء، وجاد عليهم بجوده كالسحابة الوطفاء، وحاز بصدقته الأجر من الله وعند الناس بجميل الثناء، فمن رجل نرى بيده ثلاثين ديناراً صدقة! وأمر كذلك، إلى جميع من كتب اسمه من الصنف المسكين، الملحوظ بعين الدين، لم يعتقد ذلك في زمانه، بل صانه فضل الله تعالى بحسن صيانه، وسبق إليه الإنعام قبل رهانه، فهو مُبتهلٌ بالدعاء إلى الله تعالى في دوام الأمر العزيز بالنصر والعافية الشاملة على

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 200. 246 — Hišši.

أوفى المزيد بالتمهيد، نعم الفضل والانعام، ورحل عن الضعفاء الفقر والإعْدام، وتخيّلوا الصدقة كأنها أحلام. وكان بحضرة مراكش حرسها الله في جملة الوافدين القاصدين الشاعر المسن أبو الحكم بن رضى البلنسي[1] ممن صحب أشياخ السيرات، ثم أخرجته الفتن والمحن من بلده وتردد في البلاد، لوصُل الحضرة العلية مسترفداً فضلها وعدلها، وأقام فيها مدة سنتين على حالة ضيقة، ونية لوطنه وأهله شيقة، ويتعرض للوزير أبي العلى بن جامع، وللفقيه أبي محمد المالقي في كلّ يوم يُصِف لهما قصده، ويرغب من الله تعالى توسُّطهما رفده، فيعدانه ويسليانه، فلما منُّ الله الخير والبشر باستقلال الخليفة وجلوسه، وابتسام [284] وجه الزمان بعد عبوسه، رفعا مسئلته، ووصفا حاله وحيثه، وذكرا أنه من أهل الشعر وأنّه صنع قصيدة يرغب وصولها إلى الموضع العالي، ليتشرف بقبولها على ممر الليالي، فأذن له بذلك للدخول للسلام والانشاد، وسعيا له في الاسترفاد، فدخل وقبّل اليد المباركة، وأنشد قصيدة ذكر فيها ما تقدم من الفتوح، والبوح بحاجته وشوقه إلى بلده أكثر التلويح، وهي طويلة ليست في الغرض مقولة[2]: (بسيط).

مُسامري وخيرُ القوم مسؤولُ ... حدِّثْ فقولُك مسموعٌ ومقبولُ
حدِّثْ فإنك قد أسمعتنا حسَناً ... وعطّرَ الأفقَ ذاك القالُ والقيلُ
ألستَ عن خبر المهديّ تخبرُنا ... ومَن عن الله تنبي عنه جبريلُ!
وعن خوارِقه الأسنى وصفوته ... وسيفه حين سيفُ المدَّعين مفلولُ
وعن بنيه مصابيح الهدى ظهرت ... في كلّ داجيةٍ منهم قناديلُ
وسُقْ حديث أبي يعقوب بنْ طُرقي ... فقي سياقته المأمولُ والسُّولُ
اعاد والقومَ قد ملّوا السُّرى فهُمُ ... بين المقرّوب على أكوارهم ميلُ

(1) هو الشاعر بن رضى من أهل سرقسطة وسكن بلنسية يكنى أبا الحكم، وكان أديباً شاعراً. ابن الأبار، التكملة الأول رقم 1307 ص 389.
(2) نلاحظ ابن صاحب الصلاة هنا ينتقد قصيدة أبي الحكم بأنها خارجة عن الموضوع وطويلة، وكأنه سئم بقراءة أكثر من هذا وأنت تقرأ القصيدة ستشعر أن نسيجها مهلهل وأصل التحريف أيضاً والتصحيف دخلاً في هذا.

فخلّتهم من عقال أنشطوا[1] طرباً ... والنفسُ تبعثُها قَصْوى العَقابيلُ
وعلمتُ أنّ الحيا لما أعادَهما ... فالماءُ مطرةٌ والزهرُ مطلولُ
ملكٌ تردُّ ملوكُ الأرض لو قُبِلتْ ... وحظُّها بنيةٌ في بشاتِه تقبيلُ
قادَ الجيوشَ بغضّ المشرقان بها ... والمغربان كما غصّت غلاليلُ[2]
[285] من كُلّ مُختَفِلٍ شَقراء لَهْذمها ... أروجهُه في ظلام الخطب قنديلُ[3]
أو مُرتَدٍ لِحُسامٍ مثلِه ذَرِبٍ ... وغايةُ النَّبْتِ مسنونٌ ومصقولُ
أو مُختَضِبٍ فوق بشكل الشمس سابغة ... وعضده تحتَ ثني الدرع مشكولُ[4]
أو راكبٍ فوقَ متن الماء مرتفقٍ ... كأنه قيصرٌ والقلعُ إكليلُ[5]
فالبرُّ كالبحرِ إذ تشتدُّ ارقُعُها ... والبحرُ كالبرّ إذ ينعطف أسطولُ[6]
ولم يُفِدْهما[7] لمن ناوى مظاهرةٌ ... حيثان بالنصر تكبيرٌ وتهليلُ
لكنّها منه أولت على رجل ... ومقتضى الملك ترهيبٌ وتهويلُ
وقام بالأمر منه حاذقٌ طبنٌ ... مستجمعٌ حابسٌ الكفّين مَجْدُولُ

(1) أنشط العقال حله وفك أنشوطته.
(2) يقصد به في الظاهر جمع غل بفتح الغاء، أي أنه غص المشرقين والمغربين كما يغص المرء بشرب الخل، ولا يخفى ما فيه من خرجة!
(3) يعني أن الملك قاد الجيوش الكاثفة من الأبطال الذين يمتطون الخيل الشقراء تخالهم وكأنها في ظلام الخطب قناديل مسرجة!!
(4) الثني: الخصر، أي . . . والكاثفة من الذين يحترون فوق دروع سابغة تحاكي في صفائها صفحة الشمس بينما سواعدهم تحمل عضلها من تحت ثنايا الدروع . . .
(5) ومن الذين يركبون القطائع البحرية متكئين على مرافقهم كأنما هم قياصرة توجتهم قلاع المراكب.
(6) اشتد الفرس: عدا إقبالاً وإدباراً أي إنه لا فرق لدى الجيش بين بر وبحر، فيأتي البر بحراً إذا تحركت الجياد، والبحر يغدو براً إذا انطلقت الأساطيل ترتيها . . .
(7) يعني - فيما يظهر - أن الجيوش لا تؤثر فيها مظاهرة المناوئين، وحيثان لديها أكانت جحافلهم قليلة أو كثيرة . . .

نبيتُ الجَنانِ وسيفُ الحقِّ ذو رَعَةٍ إذا تعارضَ تأويلٌ وتأويلُ

علماً بأنّ الرعايا في كفالته وأنه عنهمُ لا بُدَّ مسؤولُ

من قيسِ عيلانَ حيثُ المُلكُ مُتَّسِقٌ وحيثُ كلُّ فعالِ الخيرِ مفعولُ

وحيثُ للأمرِ تُستطاعُ دعائمُه قبَّ لبدادٍ وأشياعٌ مقاحيلُ

قومٌ إذا ما رضوا فالروضُ حوزتُهم وإنْ هُمُ غضبوا فالحوزةُ الغيلُ

يتنافرون من البؤسى بشدّتها فيخلون وما للقومِ تبجيلُ

ويؤثرون من النُّعمى بحليتها فتثري فاضلٌ فيها ومفضولُ

لا يطمعون سوى ما أضحكت لهمُ نارُ الوغى وصفايا الزادِ مبذولُ(1)

القائمين بأمرِ اللهِ لا رهقٌ ولا تخاذلَ ولا عُسْرٌ تهاويلُ

والصابرين على البأساءِ ما علموا والناصرين ودينُ اللهِ مخذولُ

راهُ الملا أميرُ المؤمنين لها والرأيُ منه على التوفيقِ مجبولُ

[286] من بعدِ شورى وتبييتٍ لرأيهمُ وصيقلُ الرأيِ تخميرٌ وتنخيلُ

ومن تكونُ بنورِ اللهِ نظرتُه رأى الصوابَ وسترُ الغيبِ مسدولُ

ما اختارَ إلّا حسنَ اختارَ الإلهُ لها وليس عمّا أرادَ اللهُ تحويلُ

تكفيه فوقَ ما استكفاك مضطلعاً ومنتهى السهمِ قبلَ النزعِ مجهولُ(2)

---

(1) الصفايا: ما اختاره الرئيس لنفسه من الغنيمة يعني أن الصفايا مبذولة للناس.

(2) لا يخفى ما في هذا الشطر من بركات!

وحمّلتك الليالي فوق ما احتملت ثبوتَ والعبءُ تخفيفٌ وتثقيلُ

فانهض إلى حيثُ لا الأوهامُ تدركُه فمركبُ الشعبِ بالإدراكِ مرجولُ(1)

والناكم(2) من كلِّ أوبٍ وفدُه عنقاً عجلى يبادرُه من حبِّه جيلُ

حتى تلاثت على أبوابِ سدّتكم شتّى الوفودِ فتعظيمٌ وتبجيلُ

بالقسرِ خلعت منها ضوامرَها فكلُّ صدرٍ من الشحناءِ مغسولُ

مستمسكين على عدلٍ بطاعتكم وحبلُ طاعتكم باللهِ موصولُ

من كلِّ موفٍ على قوداءَ ضامرةٍ من الرجاءِ لها نصٌّ وتبغيلُ(3)

إلى إمامِ الهدى أسرت بأرحلنا ريحُ الشمالِ وإلّا فالشماليلُ(4)

ولا خلاةَ سوى ذكراكمُ ومنى كالأخذِ بالكفِّ للراجي وتأميلُ

وغيرِ شوقٍ إلى لقياكمُ سدِكٍ يمضيه هو قلبُ الصبِّ متبولُ(5)

حتى نفوزَ بذكراكم ونجعلَها لقاءةً من تشريفٍ وتفضيلُ

وبالفوقاءِ مقترين في جبلٍ بناهضٍ شأنُه في الناسِ تفضيلُ

يرى الغنيمةَ في يومٍ يكونُ له عليكمُ فيه أهلُ الأمرِ تطفيلُ

والملكُ ليس بشيءٍ يستقلُّ به إلّا ذوو الصناديدُ البهاليلُ

[287] ولو رضي بنبذِ الإدغالِ من كذبٍ قبلتُه، فإنّ الثوبَ مقبولُ

أولى لهم ثمَّ أولى أن تحلَّ بهم لولا تغمّدُكم صمّاءُ دؤلولُ(6)

---

(1) مرجول: مقصود بالأرجل لعله يقصد أن مركب الإمام لا يبلغ . . . !

(2) كذا في المخطوط ولو حذفت من لاستقام الوزن.

(3) كثيراً ما تذكر بعض الفواصل بقصيدة كعب بن زهير:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول . . .

(4) كذا في المخطوط ويظهر لي أن الأصل: كان هكذا: ورائف شمالية يعني جمال مؤنثة سريعة.

(5) سدك بالأمر أولع به ولم يفارقه ثم لا يخفى ما في قوله: يمضيه هو الخ من ركاكة واضحة.

(6) الصماء: الداهية والدؤلول: بالدال المهملة: البائقة.

لم تحركوهم وقد أعيت مذاهبكم   وإنما هو إنذار وتأجيل
وكان فيما مضى ردع ومزدجر   لو كان للقوم تفكير وتحصيل
أما كفتهم بستار[1] وتابلة[2]   وما وراءهما تلك الأقاويل
أما أتتهم الأحاديث بأندلس   وفي الأحاديث تجبيل وتفصيل!
إن الأولى ناصبوا جهلا بقدرهم   وقدر ذا الأمر قد غالتهم غول
حالت على ابن عبيد[3] بعد الربعة[4]
بها، فأردتهما زجراجة جول[5]
ولم تدع مردنيشا عند جولتها   يوم العروبة إلا وهو مخذول
سائل بقرناطة عنهم ومرسية   تعلمهم خبر في الناس منقول
يجيبك هام وأشلاء ممزقة   في كل قاع ومخزوة ومشكول
كأن أنصارهم أنصار أبرهة   ومن رجالاتكم طير أبابيل[6]
لا تشغلن بهم بالا فإنهم   لجائع الموت مشروب ومأكول

(1) لم نعثر على موقع هذا المكان من خلال كتب الأقدمين ويظهر أنه هو (حصن استار) الذي حاول أن إليه ابن مشتقة في جبال غمارة، وهو الذي يشير ابن حربون في شعره:
وأقل ما أعطى مقادته الذي   أنشى صخر الفرقدين ستارا
انظر تعليقنا رقم 3 ص 239 ورقم 1 ص 252.
(2) تابلة: مدينة قديمة كثيرة الخيرات والأرزاق، وقد بنى فيها العاملون حصنا عظيما أنشأ ثم كان الموحدون الذين اعتنوا بالمدينة. ويظهر أن الشاعر يشير إلى غزوة تابلة التي تمت سنة 530 من طرف عبد المؤمن، وقد نقل ابن القطان عن ابن صاحب الصلاة أنها أول غزوة غزاها الخليفة بعد الإعلان بالبيعة.
الاستبصار ص 200 ـ نظم الجمان (مخطوط) معجم البلدان، جزء ثان ص 5.
(3) ابن عبيد الله صهر ابن مردنيش راجع التعليق رقم 4 ص 234.
(4) هو حفيد الرحالي ـ انظر التعليق رقم 2 ص 127.
(5) الزجراجة الجماعة الكثيرة في الحرب، والجول الكثيف من الخيل...
(6) تلميح لقصة أبرهة ملك الحبشة الذي بنى بيتا باليمن، وأراد أن يحج الناس إليه كما يحجون إلى الكعبة فذهب أعرابي وأحدث في البيت فغضب أبرهة وحلف أن يهدم الكعبة فاحتفل في جموعه وركب فيله (محمود) وقصد مكة فلما وصل قريبا منها فر أهلها إلى الجبال واستولى على إبل وأخذ لعبد المطلب مائتي بعير، فكلمه فيها فقال له كيف تكلمني في الإبل ولا تكلمني في الكعبة وقد جئت لهدمها وهي شرفك وشرف قومك؟ فقال له أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيحميه؟ فبرك الفيل ولم يتوجه إلى مكة... فبينما هم،

وسوف يأتيك عن قرب زعيمهم[1]   قسرا على كل حال وهو مذهول
ليهنكم أن هذا العيد عادكم   وخصه بكم للناس تفضيل
برزتم للمصلى ناسكين له   شعاركم فيه تكبير وتهليل
فكل قولكم أو كل فعلكم   في كتاب مع المقبول مقبول
مولاي كم لي أمني النفس من سنة
بذا المقام وجدي فيه مشغول!
هجرت بالشوق داري في محبتكم
لا الخيل ضنك ولا المحبوب مملول
[288] وجيرة لم يزالوا مهطعين إلى   داعيكم وحسام الخوف مسلول
يستبطئون (غدا) أو يرقبون (متى)
وفي (غد) و(متى) أنس وتعليل!
والآن والله قد تم لقاؤكم   فقد تأتى بحمد الله مأمول
وقد وهبت لتغري ما جنا وجنى[2]
الجرح مندمل والذنب مغسول
والله يدنيني ـ وهذا الأمر عن كثب ـ
من داره الحزن ممن داره صول[3]

وحين أكمل إنشادها حسن أشياخ المجلس العالي فصولها ومعانيها، وصوبوا أغراضها ومبانيها، فأمر ـ رضي الله عنه ـ بإسهام بمدينة مالقة وزاد،

* كذلك أرسل الله عليهم طيورا أبابيل مجتمعة تحمل الحجر وترمي به أنصار أبرهة. انظر كتب التفسير عند سورة الفيل.
(1) يعني به الفونش الصغير فهو أبرز من كان ـ في الظروف الحالية ـ خصما للموحدين.
(2) كذا في أصل المخطوط.
(3) اقتباس من قول جذيع المري الحماسي في باب السير والنعاس من ديوان الحماسة:
في ليل صول تناهى العرض والطول
إلى أن يقول:
ما أقدر الله أن يدني على شحط   من داره الحزن ممن داره صول

والتصرف مملوءة الحقائب، بيده ظهير كريم بالتنويه به في البلاد، وبمواساة مستمرة له في ديوان العمل بالخير المتاد [1].

(الإنعام بظهير الولاء على ابن صاحب الصلاة)

وأنعم في إثر ذلك بالدخول عليه والسلام، والمثول بين يديه والكلام، على أبي العباس الجريطي القرطبي [2] من طلبة الحضر، وعلى أبي الأصبغ عبد العزيز بن عبد العزيز الإشبيلي [3] من الطلبة أيضاً. وعليّ معهم [4] فاستدعانا الوزير ابو العلا إدريس بن أبي اسحاق بن جامع والفقيه ابو محمد عبد الله المالقي، وأدخلانا على أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو متّكئ عند استقلاله من ضعفه، متكئ على مخاد كثيرة وثيرة، قد فرشت تحته وحواليه في مجلسه العالي، تُنبيه على القعود، وتُمَهِّدُ له موضعه المطلع له بالسعود، فسلمنا عليه بالخلافة، [289] وأنافت بنا فضائله وصدقته أكرم إنافة، وسألنا ـ بعدله ـ عن أحوالنا، وفهمنا منه الحنان واستقبال آمالنا، فدعونا له بالنّصر والظفر، والتمكين بطول العمر، وقبّلنا المباركة يده، واستنشقنا مشربه العذب ومورده، وارتوينا غُمْره الدافق وثمده [5]، وخرجنا من مجلسه العالي وتشريفه قد حف بنا من كل جانب، والتقينا على أعلى المراتب، وبلغنا ما أملناه من الرغائب، وأمر رضي الله عنه لكل واحد منا بما أمله من

(1) يظهر أن الأصل «بالخير المعتاد».
(2) لم نقف على ترجمة لأبي العباس هذا فيما بين أيدينا من معاجم الأعلام الموحدين هذا إلى أنه لم يرد ذكره مع ابن صاحب الصلاة سوى في هذه المناسبة.
(3) ترجم ابن الأبار في تكملته لرجال يحملون اسم عبد العزيز بن عبد العزيز ... ويحملون لقب أبي الأصبغ لكني لم أستطع الجزم بأنهم كان صحبة ابن صاحب الصلاة في دخوله على الداخل الموحدي. انظر الترجمة رقم 1770.
(4) نلاحظ أن ابن صاحب الصلاة يمشي في مراكش فتملك ورده حسن ولونه المهتين بالشفاء ...
(5) الماء المحتفظ به، واستعاره لما ناله في رحاب الخليفة من عطاء.

إنعام، وخصني منهم [1] بظهير [2] كريم بإسهام، ومواساة معها أعانتني على الزمان المذمّم وأغنتني عن اللئام، ووسمتني بميسم الأولياء للأمر العزيز المنصور الأعلام، جازاه الله تعالى أحسن ما جُوزي به الأيمة المهتدون والخلفاء الراشدون، وخلد الأمر العزيز في عقبه، كما اثبت النسب الشريف في نسبه ومنصبه، وأوضح الدين الحنيفيّ بمذهبه، فحُقَّ على العبد تدوين [3] سعد أيامه، وتبيين الزمان بعصر أعلامه وإمامته، فقد قال رسول الله ﷺ (جبلت القلوب على حب من أحسن اليها، وبغض من أساء إليها) [4]، خلّد الله ملكه وجعل الأرض ـ بما وعده ـ ملكه فانه ألبس الدنيا جمالاً وجدد لأهلها بخلافته آمالاً.

الأمر بالنظر للتبريز للقاء السيدين [290] والعرب الوافدين من الإفريقية

ونفذ إليهم الأمر العزيز بموضع تبريهم واستيذانهم أن يصلوا إلى الحضرة مراكش في ضحوة يوم السبت الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مائة المؤرخة. وكان الأمر قد تقدم لجميع الموحدين والعسكر البالين بالحضرة المذكورة أن يستعدوا وينظروا لأنفسهم في مراكبهم وهيآتهم، فقسمت عليهم الدروع والبيضات والرماح والدرق والأسلحة والكسوات والعلامات والرايات. فلما كان في صبيحة يوم السبت المذكور المؤرخ بكّر جميع الناس من الحفاظ والطلبة من الموحدين وجميع القبائل من العسكر

(1) يظهر أن ابن صاحب الصلاة كان يمتاز عن طلبة الحضر، وهي الفئة من الخليفة لما كان يتوفر عليه المؤلف من مزايا ومؤهلات.
(2) ظلت كلمة «الظهير» مستعملة إلى الآن في العرف المغربي بمعنى المرسوم الملكي.
(3) يتأكد من هذا الكلام أن الكتاب خصص أولاً وبالذات لتاريخ أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وأن الباعث كان هو هذا الاستقبال السعيد الذي أحفى فيه الخليفة على المؤلف من غير انه ومنح فيه ظهير الولاء.
(4) رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود.

المبارك إلى باب السدة[1] العظمى: سدة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين والوزير أبو العلا ادريس بن جامع مدير لهذه الحال الشريفة، الطالعة بالنصر المنيفة، لا يصدر شيء إلا عن رأيه، ولا تنتجز عدة من أمر الخليفة إلا عن شفاعته وسعيه، وقد أحضرت الطبول السعيدة التي من أيام الإمام المهدي المربعة[2] الأشكال، السعيدة الأحوال، بالنصر والإقبال، وأضيف إليها من غيرها ما اكتمل فيها مائة طبل، والموحدون يترادفون جُمَلاً جُمَلاً وزمراً زمراً حتى كمل الاجتماع، على ما أمر به الأمر المطاع، وأمير المؤمنين [291] ابن أمير المؤمنين رضي الله عنه جالسٌ في موضع جلوسه منتظرٌ اعلام أبي العلا الوزير بكمال ترتيب الحال الموصوفة، حتى وصل إليه أبو العلا المذكور وأعلمه بكمال الأشغال، وحضور جميع الناس، على أكمل الإيناس، فاستوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأشقر الأغر، وخرج راكباً عليه وهي أول ركبة خرج فيها للقاء أحد أو تشييعه من حين مرضه المؤرخ المذكور، والوزير أبو العلا راجلاً على قدميه بين يديه لصق ركابه، على حجابه، مهما أراد أحد من الرافعين أو المشتكين أو من أهل الحاجات وذوي اللبانات كلاماً أو إشارة خرج إليهم مستفهماً كلامه، موصلاً أعلامه، وفي ساقة أمير المؤمنين على قرب منه تابعاً له السيد أبو عبد الله محمد المخلوع، وإلى جانب سائر الإخوة الصغار، وبني النبيين أيدهم الله[3]، وفي ساقته أمام العسكرية ستة عشر علاماً

(1) باب السدة لعله يقصد (باب السادة) الذي كان مخصوصاً بسكنى عبد المؤمن والذي يتحولون إليه على خيلهم لكن الأقرب حسب سياق الكلام أنه يعني باب السقائف حيث مجلس الجماعة.
المنوني: ص 230.
(2) لم تتحدث المصادر التاريخية الموحدية - التي بين أيدينا - عن الطبول المهدية المربعة، ولكنها مع ذلك تحدثت عن تربيع السكة ولا يخفى أن المهدي كان معروفاً عند المؤرخين بصاحب الدينار المربع . . .
ابن خلدون العبر، طبعة بيروت المجلد الأول ص 470. المنوني، العلوم على عهد الموحدين ص 239.
(3) يلاحظ التعبير الدقيق الذي يختاره ابن صاحب الصلاة عند وصف الشخصيات الخليفية بعد الاتي أوطلت الجديدة وبال ظهور الأمالة راجع ص 147.

كباراً من البنود المصنوعة المعدة لهذا الشأن، وبيد كل رجل من أعيان الموحدين علام، وعليه درع سابغة، تلمع لمعان اللجين الخالص في شعاع الشمس، ومن معه يلبس درعاً سابغة وكذلك سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد والجميع من الناس. فلما جاوز سيدنا أمير المؤمنين باب الشريعة[1] وقف ينظر بعينه ويفكر في رأيه السعيد، الموفق السديد، [292] في أي موضع يكون اللقاء والاجتماع، إذ كانت المواضع المتصلة بالمدينة قد ضاقت أفنيتها بسبب البحاير والجنات المغروسات، فاتفق رأيه المبارك أن يتجاوز الشريعة إلى الفحص العريض هناك، فلما وصل الفحص المذكور وهو على هيئته المؤيدة والطبول قاصفة، والجيوش البارزة معه متكاثفة، أمر بقبة عياد فضربت له فيه ونزل فيها مع إخوته وبنيه، وأقبلت عساكر العرب من أهل افريقية والسيدين المذكورين، فأشار إليهم أن تحمل العساكر الوافدة والبارزة بعضها على بعض جرياً ولعباً، وفرحاً وطرباً[3]، ورأى الحاضرون والناظرون فيهم عجباً، ودام ذلك اللعب والطرب والطبول تضرب إلى أن مضى أكثر النهار، ثم أمر رضي الله عنه للوافدين بالنزول والسلام، فتقدم الأخوان السيدان: أبو زكريا وأبو عمران ثم أشياخ الموحدين ثم أشياخ العرب وجميع الوافدين من الناس، وفيهم علي بن منتصر[2] شيخ بجاية وأنظارها، وفي هذه الغزوة بدأ ظهوره إلى أن أدى به ذلك إلى مقتله حسبما أذكره، فلما أكمل الجميع السلام أمرهم بالانصراف إلى المدينة والدخول فيها، كل واحد إلى منزله قد نظر له، وانصرفت عامة العرب إلى مضرب محلتهم الذي حُدّ لهم النزول فيه، وكان في انصراف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين [293] رضي الله عنه إلى داره بداخل الحضرة للناظرين من المرأى الغريب العجيب ما

(1) حول باب الشريعة بمراكش، راجع التعليق رقم 1 صفحة 214.
(2) لقد سلف له أن ذكر صاحب تونس عبد الواحد الهنتاتي، وعامل المسلمان سليمان بن عبد النور يضيف هنا إلى المسؤولين عليا بن منتصر شيخ بجاية، راجع صفحة 269.
(3) يعني في السفر الثالث وذلك سنة ست وستين وخمسمائة، انظر ابن عذاري ص رقم 107.

أبهت الناس، وضيق الغبار على الناظرين الأنفاس، وأذهب عن قلوبهم البأس، ورأوا في حالتهم عُرساً قد فاق الأعراس.

مبايعة أشياخ العرب الوافدين وعامتهم

ولما كان في اليوم الثاني من البروز المذكور وهو ثالث شهر ربيع الآخر المؤرخ أمر رضي الله عنه بدخول أشياخ العرب والوفود للمبايعة وأخذ العهد عليهم في ذلك، فدخلوا في يوم الاثنين الرابع من ربيع الآخر المذكور وتمادت بيعتهم المذكورة إلى يوم الأربعاء الموفي عشرين من ربيع الآخر المؤرخ وكملوا بالمبايعة.

خروج أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى البحيرة[1] لمعنى اطعامهم، والترحيب بالمامهم.

وخرج أمير المؤمنين رضي الله عنه يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع المؤرخ بعد صلاة الجمعة إلى البحيرة خارج حضرة مراكش فأطعم العرب والنّاس الوافدين [294] وغيرهم مدة خمسة عشر يوماً، يدخل كل يوم في البحيرة أزيد من ثلاثة آلاف رجل وقد صنع ما تقدمت العادة به: ثهر من رُبٍّ[2] ممزوج بالماء، كل ما أكلت طائفة وقامت مشت إلى موضع الخليفة رضي الله عنه وسلمت عليه ودعا لها ونهضت إلى ساقية الرب تشرب وتطرب،

(1) عرفت «البحيرة» في مراكش منذ أواخر أيام المرابطين فكانت ملتقى لمعركة بين عبد المؤمن والمرابطين لكن الموحدين عنوا بها كباقي العناية واتخذوا منها مكاناً لتجمعهم وهي تعني نسيجاً يحتوي على بركة مائية واسعة تحيط بها الخضرة بالإضافة إلى أروقة يأوي إليها رجال الحكم، والبحيرة اليوم هي - فيما يقال - المكان المعروف بالمنارة في مراكش والذي كان (قصر المسرة) عهد الموحدين. روجيه لوتورنو - البيذق ص 199 - تعليق رقم 3 صفحة 232 - 233 - المعجب ص 192 _ 204. Deverdun; Marrakech p.

(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 113.

وأرى الناس في هذا الاطعام، ما أربى على ما تقدم من الانعام والاهتمام، وتمادى ذلك مدة الأيام المذكورة المعدودة. ولما كان في أحد الأيام حدث بين صبيان الموحدين الذين يمسكون دوابهم خارج البحيرة وبين أتباع العرب كلام ونزاع ودفاع بهوشة وقعت بين الفريقين أدت إلى اختطاف الثياب، واستلاب الجلباب، وتحزب الجهال من الاعراب[1] بالأحزاب، حتى وصل ذلك إلى الأمر بباب الدار عند الحجاب، فخرج إليهم طلبتهم من الموحدين أعزهم الله وأشياخهم من العرب وفرّقوا جمعهم، وأزالوا روعهم، وانجلت الحال عن سلب كثير أخذوه للناس في الطريق، ومن كل فريق، ومات فيها أربعة أشخاص من عبيد للناس، وبعض أحرار من سائر الأجناس، واتصل الخبر بسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله فأقلقه التعدي في باب سدته، ولصق حضرته، فأمر برفع الطعام مدة ثلاثة أيام، عتباً على العرب، بسبب جرأتهم على سوء الأدب. ثم إن العرب تطارحوا [295] على العفو من الأمر الكريم، من قبيح ما جناه أتباعهم وعبيدهم وأشياعهم، واعتذروا من فعل من لا خلاق له، فقبل سيدنا ومولانا الإمام توبتهم، وصفح جرائمهم، وأمر رضي الله عنه بصرف اطعامهم والتمادي على إكرامهم حناناً منه بسبب قصودهم والمامهم، وتمادى ذلك الى اليوم الخامس من جمادى الأولى من سنة ست وستين وخمس مائة المؤرخة. ثم أمر سيدنا بكتب أسماء كل من سلب له شيء، وما سلب لكل رجل من الثياب والأسباب[2]، وبكتب أسماء العبيد الذين ماتوا، وأسماء الأحرار الذين ذهبت أرواحهم بالتعدي وفاتوا، وأمر بجبر كل ما مضى للناس من ثيابهم، وقيمة عبيدهم ودوابهم، وودي الأحرار بدياتهم إلى قبائلهم، وهذه غاية العدل والكرم، الذي لم يتقدم لغيره في الزمان بالقدم، رضي الله عنه وجعل الجنة مأواه.

(1) يخرج من بعض النصوص شبه «موريسك»، مثل أعراب أفريقية. راجع صفحة 297 _ 304 _ 307 _ من المن بالإمامة.

(2) كذا في أصل المخطوط ولعل الأصل الأسلاب.

ذكر تمييز[1] العرب الوافدين ومن وصل معهم

ولما كان يوم الأحد الثامن من جمادى الأولى أمر سيدنا بتمييز العرب المذكورين، وأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره العتيق بدار الحجر[2] داخل حضرة مراكش، وأن يكون دخولهم إليه بحيث يراهم ويطلع هيئاتهم، ليكون احزم له في النظر لعساكره [296] واصلاح حالتهم لمطالعته ذلك، فابتدأوا بالدخول عليه في يوم الأحد المؤرخ على ترتيب توحيدهم أولاً في قبائلهم السابقة لهذا الأمر العزيز وعشائرهم، فكان الذي ابتدأ أول يوم قبيلة زغبة لتقدمهم في التوحيد، وأمروا أن يدخلوا في كل يوم بعدد معلوم من القبيل المأمور له، فتمادى تمييزهم على هذا الترتيب الغريب مدة خمسة عشر يوماً يدخلون غدوة حتى صلاة الظهر، ثم يرجعون بطائفة أخرى من بعد صلاة الظهر إلى آخر النهار، على ترتيب القبائل المذكورة والعشائر. وسيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه جالسٌ في مجلسه الكريم مع أشياخ الموحدين أعزهم الله، وأشياخ طلبة الحضر، وأشياخ العرب: يحرض العرب والناس على الجهاد، ويأمرهم بالجد والاجتهاد، ويعلمهم من أمره الديني الكريم بحيث يرونه هيبة وتعظيماً، وتوقيراً وتكريماً. ولما كان يوم الأحد الثاني والعشرين من جمادى الأولى المؤرخ المذكور أحضر سيدنا أشياخهم وكبراءهم وطلبتهم: أبا محمد عبد الواحد أفوسجور[3] الهنتاتي، وأبا زكريا يحيى بن[4]. . . . المعروف بالعصري،

(1) تمييز الجيش عملية وعادة عرفت من أيام المهدي سنة 515 وكان يقصد به علاوة على ما فيه من تنظيم ضروري لسير الأمور، الحرص على انسجام الكتائب وتسليحها، وقد كان للتمييز ـ بلا شك من جهة ـ ديوان خاص.

البيذق 29 — 32 — 33 — 35، راجع التعليق رقم 1 ص 199 إقرأ صفحة 297.

(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 169 ـ النويري ص 331

(3) أفوسجور هذا هو نفسه الذي رسمه الناسخ في صفحة 331 أفوسقر.

(4) لعل المؤلف هنا كان يحاول أن يذكر والد يحيى هذا وقد سلف له صفحة 331 أن نعت يحيى هذا بالعنتري.

والتمعن بن[1]. . . . واحضروا زمام تمييزهم في الطريق قبل وصولهم إلى حضرة مراكش حرسها الله فوجد بين تمييزهم الأول، وهذا التمييز [297] المشرف لهم زيادة كثيرة في العدد على ما سمح لهم، رفقاً بهم، فلقد رأيتهم في أيام التمييز المذكور يترك الخارج من الدار المعظمة من تمييزه عن فرسه ويركبه آخر من الرجالة لهم ويدخل عليه ويغير بعض ثيابه وآلته، وكان العربي إذا دخل يأخذ عمامة صاحبه فيبدأ بتعميمها وهي في رأس الخارج، فلا يزال يعممها في رأسه وهي تنحل من رأس صاحبه حتى تتم بأعجل الاستعجال بمرأى يضحك الحاضرين، وكذلك في إعارة الثياب وآلات الركوب يجيرة بعضهم بعضاً على مرأى من الناس، لا يهابون أحداً ولا أمراً. وفضّل سيدنا الخليفة رضي الله عنه يغضي لهم على هذا كله لمعرفته بحاجتهم وضروراتهم وابتدارهم إلى طاعته وانقيادهم لخلافته ولما في نفسه من إرادة الجهاد بهم لأعداء الله تعالى فيتألف قلوبهم بذلك!

حدثني الكاتب أبو عبد الله بن محسن[2] كاتب ديوان التمييز لجميع العساكر المتقدم ـ بتجميله ـ البركات للموحدين ولسائر الناس من الأجناد المرتزقين قال: «دخلت على سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه وفي يدي تلخيص زمام تمييز العساكر. فقلت له: يا سيدنا ومولانا وقفت على هذا التمييز ووجدت فيه زيادةً كثيرة على ما تقدم. فقال لي رضي الله عنه: نفذ لهم البركة على ذلك، إنما غرضنا الاحسان لأجنادنا وأن تظهر عليهم [298] الخيرات والبركات فامتثلت ذلك فجعل الله تبارك وتعالى البركة في جباياته، في جميع طاعاته وجهاته، بسمحه في ذلك واحسانه وجزيل هباته، واتصال صدقاته.

[1] نص البياض الذي سلف صفحة 331 لكنه هناك ترك أيضاً بياضاً قبل التمعن.

[2] نعت ابن صاحب الصلاة وظيفة ابن محسن هذا بكاتب ديوان التمييز وسترى صفحة 311 نعته بكاتب العسكرية، فهل التمييز يعني العسكرية؟ نحن نرى فعلاً أن التمييز تمّحا إليه عند العمليات الحربية.

ذكر تمييز الموحدين أعزهم الله لهذه الغزوة العظمى

ولما كان غرة جمادى الأخيرة من السنة المؤرخة أمر سيدنا الخليفة بتمييز للموحدين على عدد قبائلهم، ومنتهى منازلهم، وترتيب صفاتهم، فاشتغل ذلك وتمادى تمييزهم مدة خمسة عشر يوماً، وقسم عليهم الخيل المسومة الجياد الروقة على أعدادها المذكورة، وكذلك على العرب الوافدين وأعطى للجميع الرّماح والدروع، والبيض والسيوف، وأنعم على الجميع بما استعد به لهذه الغزوة الحافلة، من الآلات المذكورة الكاملة، على أتم النظر المبارك حتى كمل على أتم العزم والحزم، ثم أمر لهم بإعطاء البركة، عن الزاد لهذه الغزاة المكلة.

الإنعام بالبركة وإخراجها إلى العرب الوافدين وجميع عسكرية الموحدين أعزهم الله وأنجدهم.

وجلس أمير المؤمنين [299] في مجلسه العالي وأشياخ الموحدين معه وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب وأمر لوزيره أبي العلى ادريس المذكور أن يأمر الخزائن بإحضار الأموال بين يديه من الدنانير والدراهم فأحضرت أمامه وعلت أكداساً. وجنّسها من الذهب والفضة أجناساً، وقدّم الموحدين في تنفيذ البركة لهم، فخرج للفارس الكامل منهم عشرة دنانير، ولغير الكامل ثمانية دنانير، وللراجل الكامل خمسة دنانير، ولغير الكامل ثلاثة دنانير. وأمر للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً، ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً، والراجل سبعة دنانير. وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائتا دينار، وكسا جميعهم بالقباطي[1] والقمص والغفاير والعمائم، وأعطاهم السيوف المحلاّة، والدروع السابغات، والبيض والقنا، من الرماح الطوال، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس قسّموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم، وظهر على العرب والموحدين وعلى

(1) جمع قبطية، أنظر التعليق رقم 4 صفحة 215.

جميع العساكر السرور وتمكن لهم الاستبشار والنشاط، وتضاعف لديهم الاغتباط والارتباط، وأمر للموحدين أعزهم الله بحظهم من الخيل المسومة المجلوبة المذكورة فقسّموها على قبائلهم ورجالهم، وهذا كله من [300] سيدنا نظرٌ إلى جزيرة الأندلس في هذه الغزوة الحافلة خلّد الله أمره، وأعزّ نصره.

خبر حركة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه من حضرته مراكش في سنة ست وستين وخمس مائة التي كانت أول غزواته الى جزيرة الأندلس لاحياء رسمها، وضبط اسمها، ودفع النصارى الكافرين عن جهاتها والمنافقين المحاربين من جنباتها.

قال المؤلف عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة: قد ذكرت فيما تقدم احتفال أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين لهذه الغزوة العظيمة الحافلة واستدعاءه العرب من أرض إفريقية والزاب، وجمعه للموحدين والناس من أرض العدوة واستنهاضه فيها صنوف الأجناد والمطوعة، وإعداده لها ضروب الآلات والعدة، واستظهاره عليها بأبلغ العتاد والقوة، واستعماله لها غرايب الجُنَن والأسلحة، أخذاً بالحزم واستطالةً على المنافقين من آل مردنيش، والنصارى الكافرين. فلنذكر الآن حركته السعيدة.

كانت من الحضرة مراكش [301] صبيحة يوم السبت الرابع من شهر رجب الفرد، بموافقة اليوم الثالث عشر[1] من شهر مارس العجمي، من سنة ست وستين وخمس مائة، وخرج على باب دكالة[2] من المدينة المذكورة وقد

(1) الموافقة مضبوطة هنا.

(2) باب دكالة من أقدم أبواب مراكش.

ALLAIN et DEVERDUN: Les portes Anciennes de Marrakech Hesperis. Tome. WLIV 1957 page 105

اجتمع الناس لرؤيته، فكان في أحسن تعبية، قد ملأت العساكر الأرض كثرة، فسار أمامهم والعلام الأبيض قدامه مع الرجالة، على عادة الأمر العزيز من الترتيب في المشي، والعلامات والساقات والطبول وراءه، متربصاً في المشي وملتوياً فيه ليلحق الجمهور، ويتصل به من عسكره المنصور الصغير والكبير، وقد تقدم أمامه مصحف صاحب[1] رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه على جمل مرتفع، وقدام هذا المصحف مصحف الإمام المهدي [2] رضي الله

(1) يعتبر ابن صاحب الصلاة من أبرز المصادر وأدقها وصفاً لمصحف عثمان بن عفان، وقد تحدث الشريف الإدريسي عن مصحف موجود بمسجد قرطبة فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضي الله عنه وفيه نقاط من دمه، وذكر ابن بشكوال أنه نقل من قرطبة أيام عبد المؤمن بن علي وبأمره وأكد ابن مرزوق أنه مصحف عثمان بن عفان باتفاق أهل الأندلس، هذا وقد كان من خبر نقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش بعد أن كان أولاً بمسجد دمشق ما ذكره ابن رشيد في رحلته عن أبي زكرياء يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي عن كتاب جده الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور قال: وصل إلى عبد المؤمن ابناه السيدان: أبو سعيد وأبو يعقوب من الأندلس وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان فتلقى وصوله بالإجلال والإعظام، ولقد تمنى عبد المؤمن في أعماق نفسه أن لو كان يملك هذا المصحف الكنز - وهو يقدر شعور القرطبيين إزاء المصحف - كان لا يفصح بذلك لكن الذي حدث أن أهل قرطبة قرروا بعد أن يقدموا به هدية لعبد المؤمن.. وهكذا جمع الخليفة الصناع والمتقنين من سائر بلاد المغرب والأندلس من المهندسين والصواغين والنظامين، والحلائين النقاشين والرواقين والرسامين والنجارين والرسامين المجلدين وعرفاء البنائين... وصنع له القشبة بعضها من السندس وبعضها من الذهب والفضة، وحلاه بأنواع اليواقيت وأصناف الأحجار الغريبة النوع، وقد حمله معه لأول مرة لزيارة قبر المهدي سنة 553، وقد استمر عند الموحدين إلى أيام المعتضد بالله: علي بن ادريس بن يعقوب المنصور حين توجه لتلمسان سنة 645 حيث قتل ثم عثر بنو عبد الواد على المصحف وملكه بعد أبو الحسن المريني إلى أن كانت حادثة البحر سنة 750 فضاع في جملة ما ضاع من فوائد. ويقول الاستقصاء أن مصحف عثمان خلص لابن الأحمر الذي أعاده للسلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 692.
الإدريسي: نزهة المشتاق ص 210، العمري: مسالك الأبصار، تحقيق أحمد زكي باشا ص 195 - ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن مخطوط بالاسكوريال تحت رقم 1666 ورقة 115 - 116 (ب). النفح 2 - ص 135. الاستقصا ثاني 112 - 113 - 115 ثالث. هـ 75. كلمة للفقيه محمد التطواني بمناسبة عيد العرش 1947 ص 11 - 12 - 13.

(2) تقول بعض المصادر أنه كتب بخط ابن تومرت وأنه دون مصحف عثمان في الحجم محلى بصفحة مزينة بالذهب. المعجب ص 253.

عنه وعلى مصحف عثمان كلة حمراء تصونه، والمصحف المكرم منظم حول حفافه بالجوهر النفيس والياقوت الأحمر، والأصفر، والأخضر الغريب، والزمرد الأخضر النفيس العجيب، قد جلبت أحجار الياقوت والزمرد والجوهر إلى الخليفة الأول الرضي خليفة المهدي، ثم لابنه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، ونظم بها حفافه هذا المصحف المكرم، وكلّل بها جوانبه إكليلاً، واتخذه من عثمان صاحباً وخليلاً، يتبرك به بكرة وأصيلاً، لم يتقدم إلى هذا الأمر الكريم أحدٌ قبله من الملوك، ولا انتهض أن يدخل نفسه في هذا الفن المسلوك. [302] فلقد حدثني عمر بن مرجي الإشبيلي[1] أحد الناظمين له أن فيه جوهرة تشبه حافر الفرس، وذكر لي أنه حدث أنها الجوهرة التي كانت عند أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون[2] صاحب مصر ودمشق والرقة والزاب[3]، وأن الأيام وانتقال أحوالها وعجائب اقبالها لهذا الأمر العزيز، جلبتْ ذلك إلى ملك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين. وقال: إن الذي حوالي جوانب حفاظ هذا المصحف المكرم من الذخائر لا يأتي عليها في القيمة عدد، ولا يأخذها عدد، وحين رأى الناس والنظارة ما ذكرته رأوا عجيباً، وأمراً مطرباً، تيقنوا في ذلك دين الخليفة ويقينه من اعتنائه، بكتاب الله تعالى واهتمامه به وعظيم اقباله، وكان مع الرايات والطبول التي تقدم ذكرها وزيره أبو العلى ادريس بن أبي اسحاق بن جامع، والشيخ الزاهد ابو محمد عبد

(1) لم أقف على ترجمته لكن ابن الأبار في التكملة (نشر العطار) ترجم لأبيه رقم 1847.

(2) هو الأمير خمارويه محمد ابن أحمد ابن طولون الثالثة والثلاثين كان ملكاً لمصر والشام بعد موت أبيه بمبايعة الجند له يوم الأحد العاشر من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين، وقد توفي سنة اثنين وثمانين ومائتين وقد كان معروفاً بتحفه النادرة سيما الجواهر التي خلفتها زوجته بوران.
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ثالث طبعة دار الكتب المصرية صفحة 50 - 64.

(3) لم تذكر المصادر التي بين أيدينا أن ولاية أبي الجيش خمارويه ابن أحمد ابن طولون امتدت غرباً إلى الزاب، وإنْ كنّا نعرف أن أحمد العباس له مواقف بمدينة (لبدة Leptis) التي توجد بين مدينة طرابلس ومدينة مصراته على الطريق الساحلي.
ابن تغري: - النجوم الزاهرة ثالث، صفحة 21. ابن خلدون، المجلد الرابع صفحة 645، الزاوي: - تاريخ الفتح في ليبيا.

الواحد بن عمر صاحب المهدي[1] رضي الله عنه، والشيخ ابو سعيد يخلف بن الحسين[2]، وأبو محمد عبد الله بن ابي حفص بن تفريجين[3]، ومن أولاد الجماعة أبو عبد الله[4] محمد بن أبي علي أزناق وأخوه ابو يحيى[5] وأبو محمد عبد الله المالقي شيخ طلبة الحضر، والقاضي أبو موسى عيسى بن عمران[6] قاضي المحلة والجماعة. وعلى هذا الترتيب الشريف في الحركة السعيدة، نزل في ذلك اليوم أولاً [303] في إحدى دوره المتخذة له على رسم والده في النزول فيها بوادي تانسفت[7]، على نحو ثلاثة أميال من حضرة مراكش، وعساكره محدقة به من كل جانب، وكان السعر[8] في هذه الأيام المحلّة المؤيدة في هذا اليوم رخيصاً على تكامل الخلق فيها، فالدقيق: الربع[9] الواحد منه بدرهمين، والشعير خمسة وعشرون مداً[10] بدرهم! واللحم ستون

(1) راجع التعليق رقم 4 صفحة 324.
(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 180.
(3) الشيخ أبو حفص هذا من أهل تينمل، وتفريجين تكتب في (أخبار المهدي) هكذا (تفراكين).
أنظر البيذق 33 — 34 — 35.
(4) نجد هذا الإسم هنا كاملاً باسمه وكنيته ولقبه، ولذا نرجع أن ذكره في صفحة 22 تحت اسم عبد الله وكنيته محمد خطأ مصدره النساخ الذي وقع للناسخ بين هذا الشخص الذي استمر ذكره مع ابنه إلى هذا التاريخ 566، وبين الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي الذي استشهد منذ سنة 557 بمرج الرقاد.
راجع التعليق رقم 3 صفحة 93 والتعليق رقم 3 صفحة 120.
(5) راجع التعليق رقم 4 صفحة 93.
(6) كان قاضياً للجماعة بحضرة مراكش، وقد كان فريد زمانه ديناً وعلماً وأدباً، توفي في الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وسبعين، ابن عذاري مخطوط 119.
(7) راجع التعليق رقم 1 صفحة 291.
(8) رابع ابن صاحب الصلاة يتتبع الأسعار طيلة تنقل الجيش، وهو اتجاه هام منه لناحية من نواحي الحياة الاقتصادية في تلك الظروف التعبية، وكما فعل هذا هنا كان كذلك في قرية ونَشْفة، وكذا في قرية شترين كما ينقل عنه ابن عذاري، انظر البيان المغرب ص 328.
(9) "الرُّبع (ج أرباع)" كما ورد في الكتب التي تناولت الحديث عن الحسبة، يزن 25 رطلاً، والرطل يساوي تقريباً 504 كرام بالوزن الحالي فالربع إذن يزن أثني عشر كيلو وستمائة كرام.
Colin et Lévi Provençal: un Hispanique de Hisba. Paris. page 27.
(10) لم يعين ابن صاحب الصلاة هل القصد إلى المد النبوي أو إلى مد اصطلاحي، وتتبع كلامه الآتي =

أوقية[1] بدرهم، وأمر لأهل المسائل بقضاء حاجاتهم، والافضال عليهم، وكتب الظهائر لهم، واتصلت المسار، وارتفعت المضار، والحمد لله على ذلك، ورحل أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين في جنوده من وادي تانسفت يوم الأحد الخامس من رجب الفرد المؤرخ، اليوم الثاني من حركته، سائراً وجهته، متنقلاً في محلاته، فنزل في داره بدشر الحطابة[2]، واحتلّ فيها بمن حمل من عياله على رسم والده الخليفة رضي الله عنهم، ثم ارتحل يوم الاثنين إلى داره بتونين[3]، ثم الثلاثاء إلى توقطين[4]، ينزل في كل منزل في داره وعساكره محدقةٌ به، ثم تابع الحركة والانتقال على هذا الترتيب حتى

= نجد انه دائماً يتحدث الله بالمراكشي فلذلك نرجح أن القصد هنا كذلك إلى الله المراكشي، ومعلوم أن الله النبوي يعادل 400 كرام إذا كان من الشعير، و: 525 إذا كان من القمح، أما الله المراكشي فهو بالتقطيع شيء غير الله النبوي.
راجع صفحة 354 — 387 — 269 — 511
العبيدي: إصلاح الفجر، عن المسائل العشر، الرباط 1960 ص 24.
(1) ست عشرة أوقية تعادل رطلاً، وهكذا فإن ستين أوقية تعني تعني أربعة أرطال إلا ربعاً وأي كيلو و890 غرام).
Colin et Lévi Provençal. un manuel Hispanique Page 27.
(2) دشر الحطابة: اسم لمكان اندثرت معالمه الآن، ويظهر إنه كان للخليفة هنا قصر، وإن والده عبد المؤمن كان يعتاد كذلك النزول في هذا المكان، وقد نقل رسمي اللفظ بالحرف إلى الأحرف اللاتينية. (Daral — Hataba).
(3) تونين (Tunin) يذكر الإدريسي في نزهة المشتاق أن "من مدينة مراكش إلى مدينة سلا على ساحل البحر مراحل أولها تونين. . . ومن تونين إلى قرية تيقطين مرحلة ثم مرحلة ثم قرية غفسيق ثم قرية أم ربيع. . . ومن قرية أم ربيع إلى قرية إفسيسل. . . ومن هذه إلى قرية إنقال ويقال لها مقر المرابطين ومن انقال إلى قرية مكول. . . ومن مكول إلى قرية ايكسيس، ومن قرية ايكسيس إلى مدينة سلا ومرسيها على ضفة نهر السحر. . . ولم نستطع معرفة موقع تونين إلا أن رسمي يرجح أن تكون هي المكان المعروف حالياً باسم سيدي بو عثمان على بعد 35 كيلو متراً من شمال مراكش.
نزهة المشتاق ص 70.
(4) يذكر الإدريسي كما سلف أن المسافة بين تونين وتوقطين مرحلة. وهو يرسمها كذا (تيقطين) ويرسمها مخطوط ابن عذاري ص 124 (توقطين) ويعتقد رسمي أن توقطين هي البقعة المعروفة تحت اسم منزلات العظم، على بعد 23 كيلو متراً شمال تونين.

وصل وادي أم ربيع[1] وقد عقد عليه جسر[2] بقنطرة وثيقة من القوارب وآلات الخشب الماسكة لها في عباب الماء، فنزل في داره[3] المكرمة أيضاً على قرب من القنطرة المذكورة، وأمر لكلٍّ من الموحدين بيوم من الأيام، يجوزون فيه حذراً من الزحام، [304] فتخرق القنطرة المذكورة، فأجازوا عليها في أيام، وتزاحم العرب في الإجازة حتى تقاتلوا وقتل واحد منهم آخر، فعزموا على الفتنة بينهم، فارتفع الخبر إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فوداه من ماله، وسكنت فتنهم، وارتحل رضي الله عنه بداره بالجبيل[4]، فأمر بالمواساة من الشعير والدقيق واللحم عن زادٍ لجميع العساكر إلى أيام معلومة. ثم رحل عن هذا الموضع على الترتيب المذكور من المراحل المعلومة لأبيه رضي الله عنه حتى وصل داره بوادي وسنات[5] على مقربة من مكول[6] فأمر مرة ثانية بالمواساة من الشعير للعلف والدقيق واللحم للزاد لجميع العساكر، وتمادى

---

(1) يصف الشريف الإدريسي وادي أم الربيع على وقته بأنه كان كبيراً وإنه كان يجاز بالمراكب. ولكنه لم يرد صدى الدار المكرمة التي نزل بها الموحدون فلعلها لم تكن قبلهم. نزهة المشتاق ص 70.

(2) قد يوجد فرقٌ بين الجسر والقنطرة لدى الموحدين، فالجسر متنقل وفي الاستطاعة تفكيكه عند الحاجة وعلى العكس من ذلك القنطرة التي تظل ثابتة . . . ويقصد هنا بالجسر - كما يلوح من ثنايا النص - القنطرة المؤقتة.

(3) لم نعثر على أثر موحدي في هذه الناحية اللهم رباط تيطه الذي يبعد عن مدينة الجديدة بنحو إثني عشر كيلو متراً، فهل كانت الدار المكرمة في ناحية هذا الرباط؟

Basset et Terrasse: Le Ribat de tit: Fes. TVII 1927p. 117.

العبدي الكانوني: آسفي وما إليه قديماً وحديثاً 1953 ص 44 — 45.

(4) ورد ذكرها لدى الشريف الإدريسي أيضاً وقد ترجم الأستاذ دوزي ناشر النزهة في ترجمة اسمها بين كلمة الجبيل أو الجبل أو لجبيل، وهذا المكان هو الذي يعرف اليوم بالجيشير (Guisser) بالشاوية.

Ricard: Maroc. Guide Bleu 112 — 113. Haici page 248.

(5) ذكر هذا الوادي إلى جانب بعض الأمكنة التي ظلت هي الأخرى مجهولة، وكل ما نعلم عنه أن الإدريسي كما سلف ذكر بين قرية مكول مكاناً أسماه (القائل) ويقال لها دار المرابطين وإنه ذكر بعد مقيلة وادياً أسماه وادي وسنات.

(6) أنظر التعليق رقم 1 صفحة 211.

مشيه على ترتيبه حتى قرب من المهدية[1] المجاورة لمدينة سلى[2]، فنزل في موضع فسيح[3] من الأرض مع من تقدم ذكره من الوزراء والأشياخ من الموحدين والطلبة الكبراء، وأمر بإحضار أربع رايات صغار، في أربعة رماح صغار، وفي أعلى كل رمح تفاحة من ذهب تتلألأ ضياء وشعاعاً، والرايات ملونات بالخلدي[4] الأحمر، والأصفر والأبيض[5]، وجعل تلك الرايات الأربع

---

(1) مدينة المهدية يراد بها المدينة التي بناها عبد المؤمن منذ الأيام الأولى على مقربة من سلا وهي مدينة الرباط الحالية أو قصبة الوداية، وقد تنوسي هذا الإسم التاريخي: (المهدية) اليوم كما تنوسي اسم المهدية وصنائع ابن مليح، وقد سماها عبد المؤمن هكذا تيمناً باسم المهدي بن تومرت ولا يبعد أن يكون قصد إلى تقليد الفاطميين في تسميتهم للمهدية الشرقية، ولا ينبغي أن تلتبس المهدية هذه بالمعمورة التي تحمل هذا اللقب منذ أواخر القرن الحادي عشر الهجري فقط. هذا و(المهدية) أو رباط الفتح من أبرز آثار الموحدين التي صمدت إلى الآن وقد يكون في المؤرخين من أعطاها اسم قصبة تاشفين (؟) هذا وليس من (المهدية) بالمدرسة التي يحاليها فإنها من مؤسسات المولى الرشيد العلوي. البيان ص 94 - 113.

معجم البلدان، صبح الأعشى جزء 5 ص 169 - الحلل الموشية ص 112.

Caillé la ville de Rabat 46.

Terrasse: L'art Hispano — Mauresque, page 280 — 281 — 287 — 288.

Pérès: la poesie à fes Sous les Almoravides et les Almohades.

Hespéris 1934 page 30.

وانظر التعليق رقم 1 ص 70.

راجع التعليق رقم 3 صفحة 312 والتعليق رقم 2 صفحة 147.

(2) راجع التعليق رقم 3 صفحة 112.

(3) كذا في الأصل ويظهر أنه تحريف لكلمة فسيح.

(4) لم نعثر لهذه الكلمة على معنى في قواميسنا القديمة لكنه اسم معروف في بعض الكتب الأندلسية ومعناه النسيج الحريري الدقيق، وهكذا تكون الصفات الثلاثة الآتية كلها نعتاً للخلدي، أي أن هذه الراية الموحدية تتألف من نسيج أحمر وأصفر وأبيض.

Dozy: Sup T. I. page 390.

(5) يعطي ابن صاحب الصلاة هنا وصفاً دقيقاً لألوان الرايات الموحدية، فهي تشتمل - كما تقدم - على الأبيض والأصفر والأحمر، ونحن نعرف أن العلم الأبيض الخالص كان هو علم المهدي بن تومرت وعبد المؤمن أو بالحرى هو علم الامبراطورية الموحدية، كما نعلم أن اللون الأحمر كان هو اللون المحبب عند أشراف العرب هذا إلى أن اللون الأصفر يرمز عند الذين يشيرون بخصائص الألوان إلى الأرض وثرواتها . . . فهل يكون هذا العلم الموحدي الإضافي يشير لوحدة البربر - ولون رايتهم بيضاء - مع العرب وشعارهم هو الحمراء، كما يشير في اللون الثالث إلى -

في أركان تابوت المصحف المكرم: مصحف عثمان رضي الله عنه ثم استوى على صهوة فرسه، ومشى على الهيئة المتقدمة، والعساكر وراءه من الموحدين والعرب [305] قد ملأوا بسيط الأرض، واتسعوا فيها بالطول والعرض، فلما قرب من المدينة أمر بتقديم الطبول والرايات الكبار أمامه مع المصحفين[1] المذكورين مع الساقة، على خلاف العادة في المشي[2]، تنويهاً وتعظيماً للتبريز والترتيب، وهو رضي الله عنه متقدم والأشياخ من الموحدين، والوزير والكتاب والطلبة وراءه، حتى وصل باب مدينة المهدية، فرد وجهه إلى الناس واستقبلهم وهو راكب على فرسه وعالهم، وأمرهم بالنزول في تلك الأرض العريضة، ودخل إلى داره[3] بالمهدية المذكورة. وكان هذا التبريز للنظارة من احدى العجائب، واتخم الظهور والوقور للعساكر والكتائب، وكان دخوله المهدية المذكورة يوم الاثنين الموفي عشرين من رجب الفرد من سنة ست وستين المؤرخة. فالذي مشى في الطريق سبعة عشر يوماً.

= ترى الأرض؟ لسنا ندري، لكن الملاحظ أن معظم هذه الألوان ظل معروفاً إلى الآن في جل بلاد أفريقيا وقد حاول بعض المنتمين لدراسة العلم العربي أن يجد أثراً مضبوطاً لألوان الرايات المستعملة في المغرب قديماً لكن المصادر كانت أقلل رجال البحث.

الجزائري: الغاية من رفع الراية ص 12.

Debreuil: Les pavillons des états Musulmans.

Hespéris Tamuda 1960 T. I. page 548.

(1) في الأصل المصحف بالإفراد وهو خطأ من الناسخ بدليل السياق.

(2) لقد كانت العادة أن الطبول تقصف وراءه، وكانت الراية البيضاء وحدها هي التي تتقدم الموكب. راجع ص 301.

(3) هذه الدار لا تزال آثارها - فيما يعتقد - داخل القصبة، ويظهر لي أن هذه الدار صلة بالمنزل الذي يوجد في أقصى طريق الجامع في الزاوية التي تؤدي إلى الساحة المشرفة على المحيط، فذلك المنزل يحمل اليوم اسم (دار البركة) هذا الاسم المنحوس دون شك من لفظ (البركة) المعروف استعمالها لدى الموحدين. CAILLE: la ville de Rabat P. 255.

(تاريخ مدينة الرباط)

وموضع[1] هذه المدينة المسماة الآن بالمهدية ورباط الفتح كان في أيام المبرات فيه برج[2] للسكنى، وما حواليه أرض محرثة براح ومسرح، متملك للمخزن ولأهل سلى[3] ولابن وجاد[4] من أهل إشبيلية، فاشتراه الخلفاء من

---

(1) يفصل هذا الاستطراد الذي يذكره ابن صاحب الصلاة هنا اكتشفنا صفحة جديدة من تاريخ الرباط ظلت إلى الآن مجهولة من طرف الذين كتبوا عن الرباط فيما نعلم. راجع التعليق رقم 4 ص 112.

(2) في المؤرخين الأرجح من يرى أن هذا البرج كان أول الأمر من بناء الرومان لغرض الدفاع عن مدينة شالة العتيقة، وفي المؤرخين من يرى أنها قصبة للشاوين...

بوجندار: مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح، الرباط 1345 ص 39 — 40.

Caille: la ville de Rabat. p. 35

أنظر التعليق رقم 1 ص 355.

(3) لم يذكر ابن صاحب الصلاة لمن في كل سلا كان هذا النصيب؟ والواقع أنه كان ملكاً لبني القاسم والمعروفين بني العشرة، ولعله كان ملكاً بالذات للقاضي علي بن القاسم بن محمد بن عشرة قاضي سلا الذي مدحه عيسى بن الوكيل مستجدياً بقصيدته التي يقول فيها:

سل البرق إذ يلتاح من جانبه البرقا   أشرطي شمتني أم لواتي خلى خفقا

غريب بأرض الغرب أسرق قلبه   فأورت سلا شرقاً ومالسرأ شرقا

خشية بغض الطرف إلا عن القبل   ومرض كره الشراد في الخزد بل التقى
يملكنا بشمائله الأسباني كلها   فما بقيت أمنية لحبي أن تشقى

وكان عيسى بن الوكيل مستعملاً في الدولة المنصورية فحكى أنه انكسر عليه مال جليل يبلغ عشرة الاف دينار فقبض عليه، وأشخص منكوباً إلى مراكش، فلما بلغ الوكلون به مدينة سلا وبها يومئذ بنو العشرة رباب السماح وأرباب الامتداح، قال هذه القصيدة يمدح القاضي أبا الحسن منهم... فلما وقف عليها قاضي سلا بادر إلى الخلافة بتضمين المال وحمله... فأسعف طلبه وعاد ابن الوكيل إلى غرباطة.

البيذق: أخبار المهدي ص 66.

الحميري: الروض المعطار، نشر بروفنصال ص 197 - 198 - راجع صفحة 273.

السائح: التمسن المهصور (مخطوط)...

(4) يظهر أن ابن وجاد هذا كان من أعيان إشبيلية على ذلك العهد، وأنه اتق لسكنى المدينة فملك نصيباً من الأرض على مقربة من سلا، وأن وجاد هذا هو بدون شك، الذي ترجم ابن الأبار =

أربابه وخلص لهم، وكان أهل الأثر يقولون في ذلك التاريخ: سيكون في هذا الموضع مدينة عظيمة لخليفة! فلما وصل أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه إلى سلى في عام[1] خمسة وأربعين وخمس [306] مائة لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس، واستدعاء شيوخها وطلبتها من الموحدين وثوارها الأندلسيين، على ما تقدم الذكر به في[2] هذا التاريخ، أمرَ ببناء قصبة حصينة في ذلك الموضع على فم البحر الداخل إلى سلا، وأقام بمحلاته المؤدية على عين غبولة[3]، والفعلة معه والمهندسون، فأجروا لها الماء من عين غبولة المذكورة في سَرب تحت[4] الأرض حتى إلى قصبة المهدية المذكورة، ودام اشتغال الأمر بذلك شهوراً وهو مقيم بعسكره حتى وصل الماء المذكور إليها، فصنع له سقاية[5] لشرب الناس والخيل وسقي الأرض حواليها، فصارت فيها البحائر والجنات المغروسات، ثم اتصل الأمر العزيز بسكناها بالناس وبناء الديار

* لطيفه، وقد ورد في ترجمة هذا الفقيه أنه رشاد ابن أحمد بن أحمد بن رشاد الأزدي من أهل اشبيلية ويكنى أبا الحسن، وقد سمع من أبي عبد الله الفخار وغيره، وكان أديباً له حظ من قرض الشعر، وسَمّاه أبو الربيع بن سالم في مشيخته وعرفي عداد أصحابه، وقد ترجم له أيضاً ابن الزبير في صلة الصلة.
ابن الأبار: التكملة: نشر كوديرا رقم 836، ورقم 1991، ونشر جونثاليث رقم 2733. ابن الزبير: صلة الصلة نشر بروفنصال الرباط 1938 رقم 335.

(1) البيذق ص 113، القرطاس ثاني ص 145 — 146
(2) يعني في السفر الأول، وقد فقدنا ابن عذاري هنا فلم يرده صدى هذه الأخبار. . .
(3) انظر التعليق رقم 1 ص 151. استقصاء 2. ص 193، القرطاس 4. ص 162.
(4) امتاز المهندسون المغاربة بمقدرة فائقة في عمليات تسريب المياه في أجواف الأرض حسب أصول حسابية مدققة، وأن الذي يطالع ما ورد هنا أو ما يرد عندما تقرر إجراء الماء لسقي البحيرة بداخل اشبيلية. وكذا ما ورد في كتاب الاستبصار، عندما أمر الخليفة أبو يعقوب سنة 580 بجلب الماء إلى مدينة سبتة من قرية بليونش، وكذا ما ورد في القرطاس عندما تقرر جلب الماء لجامع القرويين من مدينة فاس، أواخر القرن السادس ليشهد بالهولاء العرفاء المغاربة من باع في هذا الصدد.
الاستبصار نشر زغلول صفحة 137، 138، كتاب المن بالإمامة صفحة 323 القرطاس طبعة الرباط صفحة 99، 100، 101.
(5) ما تزال إلى الآن آثار السقايا التي يتحدث عنها ابن صاحب الصلاة.

حواليها والأسواق، ولم يزل الخلفاء يخصونها بالاهتمام، وإذا خرجوا في الغزوات يلمون بها غاية الإلمام، ويجعلون لها حظاً وافراً من التشريف لها بالاختصاص فيها والمقام، حتى غدت عراقا[1] وتلاحق الناس بها لحاقاً، وأشرقت الآمال فيها إشراقاً، وأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين هذا هو الذي مصّرها ومهدها، وابتدأ بناء أسوارها من جهة الجوف والغرب.

فلنرجع الآن إلى ما كان من الأوامر العزيزة بعد الوصول إلى المهدية. ولما كان في ظهر يوم وصوله أمر بتتميم الصلاة إشعاراً بأن الإقامة[2] أياماً، [307] وفي اليوم الثاني من وصوله أمر بتمييز العساكر المؤيدة مرة ثانية من التمييز الأول بحضرة مراكش وحضر على تمييز العرب السيد أبو زكريا، وأبو محمد عبد الله المالقي، لمعرفته بهم وبأنسابهم وأمائنه، وسياسته وزكانته، فكمل تمييزهم على أصح عمل، وكذلك تمييز الموحدون، فصح عددهم. وعند احتلاله بها ألفى الماء الجاري المسرب الذي جلبه أبوه رضي الله عنه في عام خمسة وأربعين المؤرخ، فسد جريه، وأسن ماؤه، وتعطّل في البطاح والبحاير سقيه، فأمر بإعادته[3] إلى حالته الأولى، وزاد فيه بناء صهريج عظيم متسع يجتمع فيه الماء، ثم يجري من ذلك الصهريج إلى السقاية المذكورة

(1) أصل كلمة عراق أيراه أي ساحل البحر، وقد عربته العرب، ولذا قال الخليل: العراق شاطئ البحر، وسمي كذلك لوقوعه على شاطئ دجلة، وقد ورد ذكره مقروناً بمفهوم الثروة والرخاء:
(فتغلل لكم مـا لا تُغلّ لأهلهـا   قُـرى بـالعـراق من قفيـز ودرهـم)
هذا وقد جاء في ابن خلكان أن بناء الرباط على هيئة الاسكندرية، وهم كانوا يعنون دون شك أن تصبح إحدى عواصم الإسلام في الجناح الغربي، ولم يفت البروفيسور طيراس أن يتساءل عن وجود إسم الاسكندرية هنا دون وجود اسم بغداد أو دمشق؟ وأنت ترى هنا أن ابن صاحب الصلاة ظهر له أن يشبهها بالعراق أي ببغداد عاصمة العراق، لوقوعها على شاطئ، وادي أبي رقراق وما كان للعراق من مكانة. . .
المعجب صفحة 265. Terrasse: L'Art Hispano — mauresque.
جاسم الخلف: جغرافية العراق صفحة 434.
(2) يظهر أن هنا كلمة سقطت للناسخ: (تطول) أو (تتم).
(3) من هنا يتأكد أن المنصور، ولو أن أباه صاحب الرباط، يعيد للمهدية حياتها ويجعل منها مدينة حقيقية. ابن القاضي، الجذوة ص 349.

حيث شرب خيل العساكر ومواشيهم ومواشي الناس وشربهم، وكذلك ألفى الجسر الذي كان قد نصبه أبوه رضي الله عنه ما بين سلا وبين المهدية المذكورة على البحر[1] لإجازة الناس عليه، قد خرّقته البحور، وهدمته الدهور، فأمر بنصب[2] جسر آخر إلى جانبه أعظم منه بناء، وأساساً واعتلاء، من الحجر العادي والجيار الثابت لأمواج البحار، فصنع في أقرب مدة، بأعظم آلة وعدة، ووصله بالقوارب[3] والخشب، حتى جاء في أمن له من الأزمان والحقب، ثم تمّم رضي الله عنه إعطاء الكسوات للموحدين والأشياخ من كل قبيل ولطلبة الحضر والعرب، بأن أعطى كل واحد [308] ستة أثواب: عمامة وغفارة، وقبطية مبطنة، ومقطعين مهدويين[4] وكساء، وخص كثيراً منهم بأخبية

(1) يسمي بعض المؤرخين الوادي الذي يفصل بين سلا والرباط بحراً كما تسميه بذلك العامة الآن، وذلك على سبيل التجوز بيد أن فيهم من أعطاه اسماً خاصاً. لكنهم كانوا يختلفون في الاسم فبينما نجده عند البكري وادي والسيلي نجده عند الإدريسي والقزويني يحمل وادي أسمير، ونجده عند المراكشي يحمل اسم وادي الرمان. ونجده عند ابن حوقل يسمى بوادي سلا وعند ابن عذاري (بحر سلا)، وسمعنا بتسميته بورقراق عند ليون الأفريقي والناصري كذلك. وقد حاولت أن أجد أصلاً لهذا الاسم الطاري، ويمكن أن يكون الوادي منسوباً إلى قبيلة لاله زكراكة التي توجد بأطلال مدينة شالة المشرفة على الوادي وقد أشار بعض الأنباء المغاربة إلى أن أصل التسمية من رقراقة ماء وصفائه. ولا ننسى أن نذكر أن صاحب الاستبصار يحمل وادي والسيلي هو أم ربيع، كما لا ننسى أن نذكر أنه توجد قرب مدينة سلا إلى الآن عيون تحمل اسم أسمير وهي تصب في بورقراق. هذا وإن وادي بورقراق ينحدر من الأطلس المتوسط ويصب في المحيط بين سلا والرباط وطوله 250 ك. م.

الإدريسي ـ نزهة المشتاق ابتداء من صفحة 7 ـ الاستبصار 141 ـ 183 ـ المراكشي ص 358 ـ الناصري، الاستبصار جزء 6 ص 32 ـ ابن عذاري ص 26.

Leon l'Africain: Description de l'Afrique Traduits par A. EPAULARD — page 543.
BASSET — Provençal. challa. Hes. 1922 T. II. P. 415.

(2) لعل هذا الجسر هو الذي كان ينتهي عند منحدر سيدي مغيث، وقد أدرك القاضي السالح قرقات منه عارياً في الوادي قبل أن يقوض لتوسعة ساحل النهر. النعس الجمهور مخطوط ورقة 16.

(3) ذكر صاحب الاستبصار صفحة 141 أن القنطرة مركبة من 23 معدية.

(4) لم أتأكد من صفة المقطع المهدوي، بيد أن أغلب ظني أنه يعني بالمقطع القميص، فإن هذه الأنواع من الثياب كلها كما ترى تكون ـ عادة ـ فوق الثوب الذي يلي الجسد وهو القميص.

وخيل عتاق، إحساناً وإنعاماً وامتناناً. وتمم قضاء حوائج الناس ومسائلهم، وتصدّق على الضعفاء المأسورين. فلقد رأيت[1] شيخاً من بني الموصلي من أهل بطليوس رأسه كالنعامة بياضاً، قد تعرض له في هذه الغزوة السعيدة في طريقه وقال له: إنه أسر يوم دخول النصارى مدينة بطليوس وأن له ثلاث بنات، ليس له إليهن حيلة بما يسترهن! فأمر له بمائتي دينار في فديته، وبثلاث مائة مثقال من جهاز لبناته! ولما كمل الشطر المذكور، والفصل المأثور، أمر بالحركة وعبور البحر على الجسر إلى سلى، إلى الغزوة الميمونة، وذلك في عشية يوم الجمعة التاسع من شهر شعبان المبارك من سنة ست وستين المؤرخة، ولمّا كان صبيحة يوم السبت ـ الثاني من يوم الجمعة والعاشر من شعبان المؤرخ ـ تقدم الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين بالموحدين أعزهم الله وأُجازوا، ثم تلاهم السيد أبو زكريا بالعرب، ودام هذا الجواز خمسة أيام، ثم تحرك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه من المهدية يوم الخميس الخامس عشر من شعبان المؤرخ، وأجاز بالجميع الباقي: بالشيخ أبي محمد عبد الواحد بن عمر، ووزيره، وبني الجماعة، [309] والحفّاظ والطلبة من أهل الحضر والعبيد على ما تقدّم من ترتيب المشي والحركة، ونزل بالموضع المعروف بالحمّام[2] على مقربة من وادي سبو بالمعمورة، فاجتمع في عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس، وفي عسكر العرب عشرة آلاف فارس، دون المتطوعة من الناس والمجاهدين. وقد كان تقدم مع السيد الأعلى، المجاهد الأسنى، أبي حفص، وقبل ذلك مع الشيخ المرحوم أبي حفص أيضاً ـ من العساكر ما قد ذكرتهم، فاجتمع في الأندلس من العساكر عددٌ عظيم، وظهر بهم الفتح الجسيم، واتصل سير أمير المؤمنين

(1) الموصلي نسبة إلى موصل قرية بأشبونة، وإليها ينسب عبد الله بن خليفة الذي ولي قضاء أشبيلية على عهد المتوحدين. . . ونعتقد أن للشيخ هنا صلة بابن الموصل القاضي. .

ابن الأبار التكملة وكوديرا رقم 1511.

(2) الحمّام بتشديد الميم (EL — Hamim) هو المكان المعروف بهذا الإسم إلى الآن على بعد أحد عشر كيلومتراً جنوب شرقي (مدينة القنيطرة). Huici page 249.

حتى إلى البحر بقصر مصمودة[1]، وابتدأت العساكر بالإجازة من أول شهر رمضان من السنة المؤرخة، وأجاز البحر هو مع خاصته في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم المذكور، وتلقاه أشياخ أهل إشبيلية وقرطبة وجميع أشياخ الأندلس بجزيرة طريف[2]، ثم تحرك رضي الله عنه بالوصول إلى حضرة إشبيلية، فدخلها يوم الجمعة الثاني عشر من شوال بعد صلاة الجمعة من سنة ست وستين وخمس مائة المؤرخة، على مثل ما ذكرته من التبريز الحفيل، وخروج الناس إليه للتبرك به بالإسراع والتعجيل، بما دلّ على طاعتهم له وسرورهم به أدل دليل، وأقام فيها عشرة أيام، ثم رحل إلى قرطبة في الثالث [310] والعشرين من شوال، ووصل قرطبة في غرة ذي القعدة، ووجه عسكراً مباركاً منها إلى طليطلة قدم عليه أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن تفريجين، وأشياخاً من الموحدين، فأجاز وادي تاجه[3]، وغنم بطاحها وما حواليها وانصرف إلى قرطبة سالماً غانماً، واستقر العسكر بقرطبة في داخلها وفي خارجها على ضفتي الوادي مدة إقامة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بها إلى آخر ذي الحجة من سنة ست وستين حين انصرافه إلى إشبيلية، ولم ينزل بإشبيلية من دورها إلا نحو ستين داراً لأشياخ الموحدين خاصة، واشترى فيها مائة دار من مال نفسه لمَن وفد إليه، رفقاً منه بأهل إشبيلية رضيَ الله عنه، وقسّم الموحدين على البلاد وعلى الأنظار بالسكنى مدة إقامته بجزيرة الأندلس إلى أن انصرف عنها.

(1) أنظر التعليق رقم 1 صفحة 128.
(2) أنظر التعليق رقم 3 ص 218.
(3) وادي تاجة (Tajo) أحد الأنهار الأربعة التي تنحدر إلى المحيط: مينيو، دويرو، يانة وهو ينبع من الجبل الذي يقع شمال شرقي قونكة ويصب عند مدينة لشبونة وقد ورد في الروض المعطار عند وصفه أنه نهر عظيم يشق طليطلة، وأنه يخرج من بلاد الجلالقة ويصب في البحر الرومي. الحميري ص 62.

ذكر أوامره العزيزة عند احتلاله إشبيلية ووصوله من مراكش إليها

وعندما احتل بها أخّر محمد بن أبي سعيد المعروف بابن المعلم[1] عن أعمال المخزن بإشبيلية والأندلس وعزله عنها، وأمره بالمشي إلى قرطبة لمحاسبته والوقوف على عمله، وقدّم على أعمال إشبيلية أبا داود يلول بن[2] جلداسن، وهذا التأخير له [311] والعزل لنقد في أفعاله وأعماله منذ أعوام، لم يزل يتكرر عليه الفكر فيه، إلى أن أدى به إلى مقتله ومبيته حسبما أذكره في هذا التاريخ[3] بعد هذا، وعندما وصل إلى قرطبة جُعل لمحاسبته أبو القاسم بن عساكر[4]، وأبو عبدالله بن محسن[5] كاتب العسكرية، وأُمر بالحضور على تسطير عمله الفقيه أبو محمد المالقي والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز[6] يشهدان على كل ما يسطره، دام ذلك إلى آخر شهر ذي الحجة من عام ستة وستين وخمس مائة عند انفصال أمير المؤمنين من قرطبة إلى إشبيلية، ولما دخل أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى إشبيلية على الهيئة الحافلة من السرور والتبريز العظيم الكريم، الذي لم يرَ الناس مثله في الأندلس في الحديث ولا في القديم، قال الأستاذ ابن سيد[7] يمدحه ويهنئه

(1) راجع التعليق رقم 2 ص 142.
(2) راجع التعليق 1 ص 142.
(3) يعني في السفر الثالث وقد أفادنا هنا ابن عذاري نقلاً عن السفر الضائع أن ابن المعلم هذا انعقدت عليه أخبار شنيعة فأمر بسجنه وأخذ ما بيده فلم يبق له سبد ولا لبد وتفرقت جميع أمواله شذراً بذراً وضربت بعد محنة طويلة عنقه سنة ثلاث وستين وخمس مائة. راجع التعليق رقم 2 ص 142.
(4) راجع التعليق رقم 3 صفحة 138.
(5) ورد نعته أحياناً بكاتب ديوان الجيش. أنظر التعليق رقم 2 ص 347.
(6) لم نقف على الترجمة لهذا الكاتب في معاجم الأدباء الموحدين التي بين أيدينا.
(7) يذكر ابن صاحب الصلاة هنا (ابن سيد) دون أن يميز على ما إذا كان يعني ابن سيد المالقي أو ابن سيد الأشبيلي اللص. وقد عرفنا أن الأول توفي بعد سنة 560 بيسير، وأن الثاني لم يعرف إلا سنة 576 ترجح أنه قصد إلى ابن سيد الأشبيلي المعروف باللص. هذا وقد كان في من تحدث من الشعراء بهذه الناحية الشاعر أبو العباس الجراوي الذي قال في إحدى قصائده يشير إلى الطوائف المشرقة:
[illegible]

ويذكر حال ابن مردنيش، ويصف بروز الناس إليه يوم وصوله : (كامل)

السَّعْدُ يقْدُم والعزائمُ تصدُقُ ... والنَّصْرُ بينهما يحثُّ ويخفقُ
وأمامها ملكُ أغَرُّ يحفُّهُ ... جَيْشٌ تغصُّ به البلادُ وتشرقُ
مَلأَ البسيطةَ مِنْهُ بحْرٌ زاخرٌ ... في لُجَّتيهِ كلُّ بحْرٍ يغْرَقُ
وجلا رياضاً للنواظر أطلعَتْ ... فيها الدِّمَاءُ أزاهراً لا تُخْنَقُ
راع المَمَالِك فاتَّقتْ بملوكِها ... حتَّى كأنَّ بها خُيالي تُطْلِقُ
[312] حَتَّى ابنُ سَعْدٍ[1] بالنفاقِ جريرُهُ
وطغى إلى أن بات فيه الأولَقُ[2]
سُفِهت له جرد العتاق تمائماً ... لُبِّسْتُ على الفَلِّ المَجْنُونِ تُعلَّقُ
فَنَفى خصيراً[3] إذ تَيَقَّنَ أنَّهُ ... إمَّا فمُجملٌ أو أسيرٌ مُرْهَقُ
غَرَّ الشَّقي بملكِكُم عن أرْبِه ... جهلاً وظنَّ بأنَّهُ لا يُلْحَقُ
أوَمَا رأى شَمْسَ الضُّحَى في جوِّها ... والمغربُ الأقصى لها والمشرقُ
وإلى الذنوبِ فأوبقته كثرةً ... إنَّ الذنوبَ إذا توالتْ تُوبِقُ
ولعلَّهُ قد كان يحتقُّ رقَّةً[4] ... مَلِكٌ إذا مَلَكَ البريَّةَ يُشْفِقُ
مَلِكُ الناسِ على الجزيرةِ رحمةً ... أحْيَا الرجاءَ بها حياةَ المُفْرِقِ

* ويقول في قصيدة أخرى هزية:

لو كانتِ الخيرزا من التمائمِ ... لم تنسخْ عن عزائمِ الخيرزا!

ولعل علة ابن صاحب الصلاة قوله في بأنه يشعر الجراوي الذي - لولا صاحب البيان المغرب - لظلّ في عداد المفقودات.

راجع التعليق رقم 1 صفحة 35 والتعليق رقم 1 صفحة 99 والتعليق رقم 3 صفحة 298 ابن عذاري: البيان المغرب (مخطوط) ص 83 ـ 84.

(1) يعني سعد ابن مردنيش، وفيه يقول الجراوي أيضاً بهذه القافية من قصيدة مرت الإشارة إليها:
سطوتُ أَذلتْ هقل ابن سَعْدٍ ... وزادت عن لواحظ كراها!

(2) الأولق: المس من الجنون أي الدرجة أنه أمسى ملتبساً بالجنون! هكذا يظهر لي.

(3) من معاني الحصير السجين، ولا يبعد أن يكون الناسخ أبدل السين بالصاد كما فعل بالنسخ حيث جعله نصيباً. أنظر التعليق رقم 3 صفحة 355.

(4) لم نجد لصلة البيت هذا بالبيت قبله ولعل هنا بتراً لبيت رابط.

وأتى لمرسيةَ فنفَّضها لمَّا رأى ... أن لا سواءَ يسدُّه أو يرتقُ
ولقد تيقَّنَ أنْ ستقْتحم فارسٌ ... بحُنُوده قسراً وتفتح جلِّقُ[1]
وأتى الخلافةَ فاستقلَّ بعيْنِها ... ولقد تهدُّ بها الجبالُ وتقلقُ
حتَّى وضاقت حُبُّها فكأنَّه ... تاجٌ تحلُّى وهْيَ فيه مُفْرَقُ
ما زالت الأيام غرساً فيهِ ... فترجعن فصحاً عن علاه تنطق
مَنْ للملوكِ بأنْ ينالوا شأوَهُ ... ولهُمْ إذا جاراه باعٌ ضيِّقُ
إنْ كانَ قصَّر كلُّ مَلْكٍ دونه ... فالرخُّ قصَّرَ عن مداهِ البَيْدَقُ[2]
عمَّ البريَّةَ رفقُه فكأنَّه ... لهُمُ ابنُ حلاج أو ابنٌ مُشْفِقُ
يُعطي الجزيلَ ووجهُهُ متهلِّلٌ ... وكذا السحابُ إذا تجُبُّ يبرقُ
أبداً يسحُّ بما تسحُّ بنانُه ... ويمرُّها فوقَ الهشيمِ فيورقُ
كَرَمٌ يزيدُهُ ذو الغِنَى فيه غنًى ... أبداً ويثرى إذ غراه المملقُ
[313] فغنِي الجدى منه بمُطْفِئةٍ محدقٍ
عجباً وكل بمثله ما يُحْدِقُ؟
وأتى قبرةً على الزمان شبابُهُ ... وكسا بلاه جِدَّةً لا تخلقُ
وجلا شراء الدهر من صدأ بها ... فاعتبة فيها ماؤها والرونق!

(1) جلّق اسم لدمشق، وقيل اسم لموضع بقرية من قراها... قال حسان بن ثابت الأنصاري:
لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلّق في الزمان الأول!

هذا وقد كان الموحدون - كما يتأكد من خلال آثارهم - يتوقون لأبعد من الرقعة التي عرفت لهم، فقد كان هؤلاء المغاربة يطمحون إلى (وحدة إسلامية) تربط بين سائر أجزاء العالم الإسلامي. وترى الشعراء - وهم لسان حال الدولة - يتحدثون عن فتح فارس ودمشق، أو عن الشرق والغرب.
الدكتور أحمد مختار العبادي، الموحدون والوحدة الإسلامية، مجلة التربية الوطنية - مارس 1980 ص 16 ـ 22، عدد ابريل ص 21 أ ـ 31. راجع أشعار ص 9 و 13 من الآن بالإضافة وص 108 من ابن عذاري.

(2) يعتبر الرخ في اصطلاح أهل الشطرنج برجاً من الأبراج وهو يتحرك أماماً وخلفاً بينما يعتبر البيدق جندياً يقتصر اتجاهه على الأمام.

أَوَ مَا تَرَى الأَيَّامَ تَبْدُو نَضْرَةً
مُذْ حَلَّ حِمْصاً[1] وَاللَّيَالِي تُشْرِقُ!

وَقَفُوا عَلَى شَوْقٍ لِرُؤْيَةِ وَجْهِهِ ... وَيَوَدُّهُمْ أَنَّ الرُّؤُوسَ الأَسْوُقُ!
رَمَقُوا بِأَبْصَارٍ إِلَيْهِ، وَعِنْدَهُ ... أَنَّ القُلُوبَ لَهَا عُيُونٌ تَرْمُقُ
سُرُّوا لِيَوْمٍ سُرُورُهُ فِي عَارِضٍ ... يَعْيَى اللِّسَانُ لِوَصْفِهِ وَالمَنْطِقُ
مِنْ كُلِّ بَدْرٍ كُلَّ مَا حَضَرَ الوَغَى ... سَلَّتْ[2] بِهِ حَوْمَاتُهَا وَالمَأْزِقُ
يَمْشِي إِلَى المَوْتِ الزُّؤَامِ، وَوَجْهُهُ ... طَلْقٌ وَفِي دِرْعِهِ أَلْفَى مُطْرِقُ
وَلَطَالَمَا تَهْدِي الدُّنَاةُ لأَنْعُمٍ ... زَهْرَ الرَّبِيعِ فَمَا بَنِي يَتَشَقَّقُ
شَقِيَتْ بِعَزْمَتِهِ فَلاةٌ وَحْشَةٌ ... وَسِطْهُم تَيْهَةٌ وَعَسٌّ خَيْفَقُ

حضور أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (رض) عيد الأضحى بمدينة قرطبة وعسكره معه

ولما كان صبيحة يوم العيد خرج على عادته من الوقار والسكينة إلى الصلاة بموضع الشريعة[3]، وصلى الخطيب أبو محمد المالقي به، وخطب الخطبة المعلومة، ثم دعا أمير المؤمنين للناس بدعائه المبارك، وسلم عليه أشياخ الموحدين الكبراء وأبناء الجماعة ومن يليهم، وذبح [314] الكبش بين يديه، وانصرف إلى دار الإمارة بقرطبة، وانصرفت العساكر والناس إلى منازلهم لترتيب عيدهم على مجرى السنة بانصرافه. وجلس في اليوم الثاني من عيد الأضحى المذكور عند الشروق في مجلس اليمن من قصره بقرطبة مجلس السلام عليه والتهنئة إليه في أبهته الشريفة، المنصورة المعظمة المنيفة. وأدخل الوزير أبو العلى إدريس بن أبي إسحاق بن جامع إلى المجلس العالي

(1) حمص: اشبيلية.
(2) يوجد في الأصل غموض عند قراءة هذه الكلمة إذ أنها كتبت هكذا (سلت) لكن الظاهر أن الصواب (سلّت).
(3) أنظر التعليق رقم 1 صفحة 214.

من تقدمت عادته بالدخول من أشياخ الموحدين الكبراء وأبناء الجماعة ومن يليهم على عادتهم بحسب منازلهم، وطلبة الحضر والفقهاء والقضاة والكتاب والأولياء وأهل الوفود ووجوه أهل قرطبة من ذوي الطلبة والتعين من أرباضهم، وسلم جميعهم واحد بعد واحد يعرّف باسمه، وإن كان ممن يتميز يعرّف الوزير والفقيه أبو محمد المالقي باسمه ونسبه وبلده، ويبايع ويقبّل اليد المباركة للبيعة له ويخرج.

ودخل معهم الشعراء والأدباء بما صاغوه من أشعارهم في المديح والتهنئة. فقام عبدالله بن الشيخ الشاعر محمد بن إبراهيم بن المنخل الشلبي[1] منشداً هذه القصيدة والوزير أبو العلى واقف، والكاتب أبو الحسن بن عياش كذلك يحسن أبياتها، وقال: (كامل)

شَرُفَ الخِلاَفَةِ أَنْ مَلَكْتَ زِمَامَهَا ... وَغَدَوْتَ بِنْ عَقِبِ الإِمَامِ أَمَامَهَا!
وَأَتَتْكَ تَبْتَدِرُ (وَا)[2] الرِّضَى إِذْ رُمْتَهَا
وَلَقَدْ نَمَا امْتَنَعَتْ عَلَى مَنْ رَامَهَا!
[315] طَبَعَ الإِلاهُ لَهَا حُسَاماً صَارِماً
يَحْمِي جَوَانِبَهَا فَكُنْتَ حُسَامَهَا
وَرِثَتْ عُبَادَةُ الله أَنْ جِنَانَهَا ... بِنْ قَيْسِ عَيْلاَنٍ[3] فَكُنْتَ جِنَانَهَا
فَعَلَى رِمَاحِكَ أَنْ تَشُقَّ جُيُوبَهَا ... وَعَلَى سُيُوفِكَ أَنْ تَفُلَّ هَامَهَا

(1) يكنيه ابن عذاري أبا محمد، ويتفق معه ابن صاحب الصلاة في أن أباه هو محمد. وقد ترجم ابن الأبار لشاعر قد تكون له صلة بهذا: فهو أبو محمد عبد الله من أهل شلب صحب أبا بكر بن المنخل وأبا عمر بن حربون، وكان أديباً نبيهاً من أهل الذكاء والحفظ يقرض أبياتاً من الشعر. التكملة ـ كوديرا ـ رقم 1427.
(2) كذا في الأصل وواضح أن زيادة الواو في غير محلها.
(3) يحمل الناسخ هنا نقطة واضحة فوق العين في أصل المخطوط ولم تكن لتعبر هذا المسح الخط لولا ما وجدناه في البيان المغرب من نصه على ضبطه (بالغين المعجمة) مما يدعو إلى الشك في الناسخ. أنظر صفحة 35 من مخطوط ابن عذاري. أنظر التعليق رقم 2 صفحة 300 ـ البيذق 22 ـ لسان العرب.

وعلى جُيُوشِكَ أنْ تُفتّحَ أرضَها   وتدوسَ في عرصاتِها أفنانَها

وعلى الخِلافةِ أن تلوذَ بسيّدٍ   يُجْري على مُثُلِ الهُدى أحكامَها

ملكٍ يجيرُ على الزمانِ، فإن تُقِم   حرزاً بواديه الليالي، ضمانَها!

فسطاسُ عدلٍ لا يميلُ، فإنْ رأى   ميلَ الشريعةِ أنّها فالاتُها

يُطفي الحروبَ إذا توهّجَ جمرُها   ولرُبّما خمدتْ فشبَّ ضرامُها

وإذا أسودُ الحربِ هاجَ غرامُها   عالى بحدِّ المشرفيّ غرامَها

وإذا المخايلُ أخلفتْ أنواؤها   أجرى عوارفَه فكنَّ غمامَها

وإذا بُروقُ المُزْنِ لُحْنَ كواذباً   صدقتْ بُروقُ نوالِه مَن شامَها

ما الجُودُ إلاّ ما تُفيضُ بنانُه   لا ما تفيضُ الغُرْبُ فيه سهامَها

ما البأسُ إلا ما تخضّبَ سيفُه   لا يحمي(1) بعضَها صمصامُها

ما الزُخْرُفُ إلا ما يجرُّ غلافُه   لِبُنَى النّدى وسمتْ به أيامُها

ما السُّؤددُ إلا ما يشادُ وسُوقُه   وثرى الثمودِ فقد عزتْ خُدّامُها

تتهلّلُ بالآلاءِ منه راحةٌ   لا يشرفونَ على السؤالِ جُسامَها

طلقٌ إذا برقتْ أسرّةُ وجهِه   نبتتْ الأزاهرُ والحياةُ كمامُها

طلقٌ كما اختارَ الندى، وشمائلٌ   تركتْ لها أُسْدُ الشرى آجامَها!

حازَ المكارمَ قنيةً ووراثةً   وأرى المحامدَ حليةً فاقتناها

[316] للهِ رعيُك في رعايةِ أمّةٍ   ذُعرتْ ديانات(2) المشركين سوامُها

لمكنتها أرضى محلٍّ بعدَنا   كانتْ تقوّضُ للجلاءِ خيامَها!

لمّا رأيتَ الدّينَ أقتمَ جوُّه   والحربُ قد سلكتْ عليه قتامَها

أقبلتَها شُعْثَ النواصي ضُمَّراً   خُزُراً تُباري في الفلاةِ نعامَها(3)

من كلِّ مُشرفةِ التليلِ(4)، كأنّما   عقدوا بسابقةِ الخيلِ لجامَها

(1) كذا في الأصل ويظهر أن هنا كلمة (ما) محذوفة أي (لا ما يحمي بعضها صمصامها) وقد روى البيت في ابن عذاري بصورة مشوهة. أنظر صفحة 183 من المخطوط.

(2) يعني أن الصاعق أكثر ما يخاف من ديانات المشركين - إعزازاً لرعيته - فيراد السوام - والمديات كثيرة - يحملها الفزع... لأن على حساب ديانها يكون الأداء.

(3) النعامها: جعلها في قالتك، والنعام: ضَرْبٌ من الطير دون العقاب في الخلقة.

(4) التليل: العنق، يعني طويلة العنق.

وأغرَّ وضّاحِ الحجولِ مطهّمٍ   يخلو إذا خاضَ الغمارَ ظلامَها

تشري بخيرِ عصابةٍ قرشيّةٍ   تشري القروحَ مشيحةً قدّامَها

من القيسيّ ضوامراً فإذا رنى   عن نزعِها الأغمادَ كنّ بهامِها

يلقى العداةَ الرعبُ دونَ لقائِها   فيزلُّ قبلَ لقائِها أقدامُها

فلأنتمُ منها الأعاجيبُ جليّةٌ   كانتْ تخالطُ في الفروعِ خصامَها

هي نعمةٌ لا تستقلُّ بشكرِها   إلا لسانٌ ألهمتْ إلهامَها

فإذا تمطّى بالقريحةِ وصفُها   فضحَ النطقَ نثرُها ونظامُها

فاقنا أميرَ المؤمنينَ بدولةٍ   عقدتْ الآلاءَ منكم ودوامَها

ورمتْ بسرّتِها إليك، وإنّما   شرفتْ الكرائمُ أن تخصَّ كرامَها

قاربْ نواحيهِ الشامِ مشيحةٍ   ذلّلتَها حتى وطئتَ سنامَها

ومنيفةٍ صعبتْ وعزَّ مرامُها   سهّلتَ بالبيضِ الرقاقِ مرامَها

قلْ للأعاصرةِ الذين تمرّدوا   وأتى مُشَمَّ المارقينَ رغامُها

أخذَ الشبابَ على الشحوبِ فإن غدتْ   سُبُلُ الهدى سدَّ الشعابِ أمامَها

وأرى الشقيَّ بنَ الشقيِّ تغرُّه   فئةٌ أضلَّ ضلالَها إسلامُها

[317] لئنِ ابنُ سعدٍ خالفَ سعداً إذ غدا   حلفَ النصارى عاقداً أحكامَها

فلسوفَ يُصبحُ بالفضاءِ مُجدّلاً   إنْ لم تُطهّرْ نفسَه آثامُها

ويمدُّ للتوحيدِ كفَّ ضراعةٍ   بمثابِ نفسٍ راحضاً(1) أجرامَها

أنّى يفوتُك خائنٌ ولو اعتلى   ذاتَ المجرّةِ(2) وارتقى أعلامَها

هيهاتَ تُفلتُ عزمَكم ولو امتطى   زُهرَ الكواكبِ واحتذى بهرامَها(3)

وإليكمُ وفدُ العبيدِ تشوقُهم   هممٌ شغفتمْ جمَّها وغمامَها

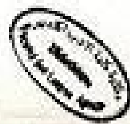
يتقلّدونَ محبّةً وتحفّزُهم   فإنْ تعوّقَ عن الجهودِ سنامُها

(1) راحض الثوب: غسله، ومنه المرحاض.

(2) المجرة في السماء، قوامها نجوم كثيرة لا يدركها البصر فتراها كقطعة بيضاء.

(3) البهرام اسم المريخ، ويرد في حبيب بن أوس:

لـه كبرياء المشتري وسعوده   وسورة بهرام وظرف عطارد



وتَمْلُوْ الأزمانَ أعياداً كَمَا حلَيْتُم بِشباتكم أيامها
وتقبَّلوا قَصْدَ الخَميس بقصدكم عَمَلٌ يُطابق حَذْبها وطِعَانها
وتكفَّلَ الرَّحْمنُ نصرةَ مُلْكِكم وأمدَّ مدَّةَ عُمْرِكم وأدامها

سنة سبع وستين وخمس مائة

انصراف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين من قرطبة إلى إشبيلية واستيطانه فيها وذكر أوامر العزيزة في مصالحها ونواحيها

وأنه لما صح عنده أن أخاه السيد الأعلى المؤيد المجاهد الأسنى أبا حفص قد أخذ في الانصراف من غزوته، ومن حصار ابن مردنيش في مرسية واستيلائه على أكثر بلاده، وأن انصرافه إنما هو للتبرك بالاجتماع وللمذاكرة فيما فتح الله في غزوته من البلاد [318] والأسقاع، واستعجل هو بالانصراف فدخلها يوم الأحد الثاني من شهر المحرم من أول السنة المؤرخة، وقد كان أمره الكريم نفذ بعمل القنطرة[1] على الوادي[2] لمصالح الناس وإجازة العساكر عليها ومرافق أهل إشبيلية وأهل الشرف[3] والأنظار، فابتدأ العرفاء والصناع العمل فيها والنجارة والهندسة لوضعها على الوادي يوم السبت أول يوم من المحرم سنة سبع وستين المؤرخة ـ أثر وصول سيدنا أمير المؤمنين ـ فاتصل العمل فيها وزاد بحضوره الاجتهاد، والنصح والاقتصاد، فكملت في اليوم السابع من صفر من سنة سبع وستين المؤرخة وحضر أمير المؤمنين يوم كمالها حتى عُقد الجسر منها ووضع على الوادي وكان يوماً حفيلاً من فرع

(1) أورد الأستاذ ميلشور أنطونيا وصفاً دقيقاً لهذه القنطرة مأخوذة من كتاب تاريخ اشبيلية للمؤرخ الشيخي موريجاتو (ص 29) وهو وصف يتفق تماماً مع ما سيذكره ابن صاحب الصلاة وقد تحدثت عن هذه القنطرة (حوليات تاريخ اسبانيا) التي أمر بإلحاقها الملك الفونسو العاشر المعروف بالحكيم (ص 760 ـ 762).

Melchor Antona: Sevilla y sus monumentos arabes. 1930 p. 61 — 83.

(2) هو وادي اشبيلية (Guadalquivir) راجع التعليق رقم 2 ص 168.

(3) أنظر التعليق رقم 5 صفحة 67.

الطبول، وكمال ما أمر فيها من المأمول، من حضور الكتائب والجنود، وعقد الألوية والبنود، وفي الخامس عشر من المحرم من هذه السنة كان وصول السيد الأعلى المؤيد أبي حَفْص بن الخليفة أمير المؤمنين من غزوته من مرسية إلى إشبيلية بجميع عساكره، وتلقاه أخوه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عن جميعهم على ميلين من إشبيلية ببروز عظيم، وسُرُور جسيم ودخلوا إشبيلية خير دخول، وحلوا بها أسعد حلول، وانفردا في السلام والكلام والرأي أياماً، واتفقا على الخير الذي نظم الأمر العزيز نظاماً، [319] وأسكنا بالتصافي بينهما الأرواح والأجسام[1]، وعزما أن يكون أمرهما في النظر لحماية جزيرة الأندلس الإسراع والإلجاما. فأول ما نظروا فيه تعجيل ميرة كبيرة إلى بطليوس من القمح والشعير والآلات المعينات والأقوات المقتوتات على أربعة آلاف بغل إليها في صحبة عسكر مبارك من الموحدين أنجدهم الله، والعرب يسيرون بالميرة والمرافق والمصالح إلى بطليوس المذكورة حماها الله فحضر العسكر المبارك عند الأمر العزيز إليهم، وجازوا على القنطرة المصنوعة الموضوعة على الوادي إلى اطريانة[2]، وذلك في اليوم الثالث من إكمال عملها الثامن من صفر سنة سبع وستين وخمس مائة المؤرخة، وهذا العسكر أول عسكر جاز عليها، فأوصل الميرة إليها على أوفى الأمن وأحياها، وخصها بالنظر المتدارك من الأمر العزيز وحياها، وانصرف بعد توصيل الميرة سالماً وغانماً ظافراً، وذلك أن أبا العلا بن عزون بنصيحة للموحدين وجبه أمير المؤمنين حرّضهم أن يجعلوا طريقهم على حصن لبيرن[3]

(1) راجع التعليق رقم 4 ص 354.

(2) الطريانة أو طريانة (Triana) حاضرة من حواضر اشبيلية ينسب إليها الفقيه عبد العزيز الطرياني والشاعر الأديب أبو عمران موسى الطرياني، وجاء في دليل بيديكر أن إليها ينسب الفخار الطرياني الشهير وكان يصنع بها أحسن الزليج الأشبيلي، ويوجد إلى الآن زقاق بمدينة فاس يحمل اسم طريانة قرب المدرسة العنانية.

Baedeker: Espagne et portugal P. 441.

الحلل السندسية (أول) ص 219.

(3) حصن لبيرن (Castillo de Lobon) يقع شرقي مدينة بطليوس قريباً منها، وقد سقط حرف الباء

المجاور لبطليوس، وكان فيه جملة ضخمة باقية من النصارى أصحاب جيرانده اللعين[1] فنازلوا الحصن، وتغلبوا عليه في الحين، وعلى من كان باقياً فيه من الكافرين، فاجتمع لهم خيرات وميرات وتصرات. وأن القنطرة المصنوعة مما تمضّرت بها إشبيلية وأطرياتة وحصل للناس بتسهيل العبور عليها غبطة واتّصال [320] وأمنة وأل، كما حصل لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه فيها من الأثر الجميل، والأجر الجزيل، على اتصال الأزمان، ومرور الحدثان، ما لم يتقدم قبله لملك من أهل الطوائف، ولا من الخلائف[2]، إذ سبق إلى هذه المثلبة الكريمة في مرافق جواز الناس عليها والعساكر بتيسير الإيناس إلى ما أنعم به، وتمم من عدله وفضله، بتسهيل المرور عليها للسابلة دون قبالة[3] تؤخذ منهم فيها، أو جعل يستوفيها، فجعل الله هذه الحسنة الباقية إلى يوم القيامة في ميزانه، وأثبتها في الدنيا والآخرة في ديوانه، ورفع الله عن الجائزين قبل من أهل إشبيلية إلى الشرف وإلى الأنظار مشقة عظمى، وأنالهم بهذا النظر الدقيق الرحمة والرحمى. وفي هذا الشهر أيضاً من هذه السنة المؤرخة أمر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيضاً ببناء قصوره المكرمة السعيدة المعروفة بالبحيرة[4] خارج باب جهور[5] من إشبيلية، في الموضع المعروف

* من المخطوط فالنص لبورد بلبون مع أن القصد إلى الأول لأن منطقة ليون في شمال اسبانيا
Huici page 232-233-282 T. 1.

(1) أنظر التعليق رقم 2 صفحة 274.

(2) اعتدنا من ابن صاحب الصلاة في أغلب أحاديثه عدم التعرض للسابقين، ولكنه لم يسلم أحياناً، تحت تأثير ظروفه، من أن يتخطى هذه العادة.

(3) أنظر التعليق رقم 3 ص 166.

(4) عرف الموحدون بالبحيرات سواء بمدينة مراكش، أو بمدينة اشبيلية ويقول المؤرخ المسيحي Morgado في كتابه «تاريخ اشبيلية» ص 48: أنه في الموضع الذي كانت فيه قصور الملوك المسلمين بضواحي المدينة يوجد هناك ميدان واسع كانت توجد فيه على أيامهم «بحيرة» أطلقوا عليها هذا الاسم لكثرة مياهها التي كانت تنصب إلى الوادي الكبير.
راجع التعليق رقم 4 صفحة 293.

(5) راجع التعليق رقم 3 ص 167.

عند الناس قديماً بلقم فرعون[1]، واختط بحيرة منه في الجنان المنسوب لابن مسلمة القرطبي[2]، بعد أن عوض عقبه منها بعوض صحيح من الجنات مثلها، فحل له البناء في الموضع المذكور، فابتنى فيه قصوراً[3] وعوراً للأمر

(1) (لقم فرعون) لم نستطع تحديد موقع هذا المكان والمقرئ ميلتشور يترجمه هكذا:
Bacado de Faron.

(2) لم يرد ذكر مسلمة القرطبي أكثر من هذه المرة، ولذا لم نعرفه بغير هذا سيما ومعاجم رجال الموحدين تخلوا أيضاً في الموضوع.

(3) اهتم المؤرخون والأثريون على السواء بقصور اشبيلية القديمة، وإن المعلومات القيمة التي تضمنها تاريخ (المن بالإمامة) والتي انفرد بها سائر المصادر لن شأنها أن تلقي الضوء على كثير من الجوانب الغامضة حول قصور اشبيلية، ومعلوم أنه كان في اشبيلية أواخر عصر الخلافة الأموية قصر كبير، وإنه عندما بدأ عصر ملوك الطوائف اتخذ من ذلك القصر مقر الاجتماع رجال الحكم وابتداء سنة 414 كان يسكن في هذا القصر الخليفة الذي أقامه القاضي ابن عباد، ويتحصل كذلك من خلال المصادر المختلفة أن المعتمد بن عباد أنشأ في اشبيلية عدة قصور رفيعة:
(القصر المبارك) و(القصر المكرم)، وقصر الثريا والقصر الزاهي... وقد ظل شاخصاً إلى سنة 621 كما يقول المراكشي (ص 125)، الأمر الذي يؤكد أن قصور الموحدين لم تكن في نفس الموضع الذي كان يقوم قصر ابن عباد كما يرى بعض المؤرخين. وقد ورد أيضاً في من ابن صاحب الصلاة (136 — 161) أن الخليفة أنزل ابن مردنيش في قصر المعتمد بن عباد (صفحة 328) هذا إلى ما يخرج من خلال تاريخ المن بالإمامة مما يفيد أن قصر الخليفة الموحدي في اشبيلية هو الذي كان يجاور مباشرة المسجد الجامع لا يفصل بينهما إلا الساباط (صفحة 332). هذا القصر الذي يحتفظ بمحل معلمه حتى اليوم. أما قصور البحيرة التي يتحدث عنها ابن صاحب الصلاة فإنها كانت خارج اشبيلية محفة بالبساتين والجنات، وكان الداخل الموحدي يختلف إليهما من القصر المجاور للمسجد. (ص 322) ولم يشر مؤرخ عربي كما فهم ابن صاحب الصلاة إلى أن مثنى، ذلك القصر هو يوسف بن عبد المؤمن والظاهر أن هذا القصر أحد قصور المعتمد بن عباد ولعله (قصر المكرم)، ويفرق ابن صاحب الصلاة بين قصر يوسف داخل القصبة الحنفة من اشبيلية الذي كان تجري فيه الاستقبالات الرسمية (ص 383)، وبين قصر المعتمد الذي قد يكون (قصر المبارك) والذي كان قصراً للضيافة، ويتلخص من كل هذا أن القصر المجاور للمسجد هو للمعتمد مع القصر المنسوب إليه صراحة في من ابن صاحب الصلاة، وأن قصور البحيرة خارج باب جهور هي التي كانت للموحدين، هذه القصور التي لم يبق منها أثر الآن، هذا ولا ينبغي أن نخلط بين القصر المباشر للمسجد وبين الحصن الذي جدده يعقوب على لبنة الوادي بعد عبوره من قنطرة تيلب والذي يعرف بحصن الفرج. والمراكشي ص 280 — 292). ومع كل هذا فإن قصر اشبيلية ما يزال عنصراً لمزيد بحث يشترطي من عاملين اثنين: العامل التاريخي والعامل الفني.
المراكشي، المعجب ص 125 — 280 — 292، مخطوط ابن عذاري ص 185.

تُربي على مباني أخيه السيد الأعلى أبي حفص التي ابتناها محمد بن المعلم المشرف له، على وادي إشبيلية خارج باب الكحل منها، التي أوجبت النقد على محمد [321] بن المعلم المذكور، وأمر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أبا القاسم أحمد بن محمد الحوفي القاضي[1] وأبا بكر محمد بن يحيى بن الجد[2] الإمام بمسجده الموثق، لأمانتهما وديانتهما ومعرفتهما بالمساحة، والتكسير والفلاحة، أن يخطا له ما يتصل بهذه القصور والمباني من الأرض البيضا حواليها من مال المخزن ما يحسّن مسكنها لغرس الزيتون والأشجار والأعناب ولغرس الفواكه العجيبة من كلّ الأنواع المستغربة العِجاب، فاختطا ما أُمِرا به من ذلك، ودخل للناس من أهل إشبيلية في هذا الاختطاط أرضٌ من أملاكهم وجنات ومواضع مُغتبطات عوّضهم أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين منها أرضاً بأرض، وبقيمة وافية من العين القرقي، حتى رضُوا واغتبطوا، وأشهدوا برضاهم على أنفسهم وارتبطوا، وجرى أمرها على العدل التام، والنظر العام، وكان لمحمد بن منظور[3] في هذه الأرض

---

* ابن صاحب الصلاة صفحة 320 و 322 و 328 و 332 و 333.

Melchor Antona: Sevile y sus monumen, tos árabes (publiqados en Religion y cultura, El Escorial 1930, page 61-83.

راجع التعليق رقم 2 ص 40.

(1) هو أحمد بن محمد بن خلف بن عبد العزيز القيسي المعروف بالحوفي، الفقيه الأشبيلي المشهور وقد كان تلميذاً لابن العربي، تولى قضاء اشبيلية بعد أبي بكر الشافعي مرتين واختص في العقود والمواريث وكتب فيها كتاباً ممتازاً، توفي في شعبان سنة 588هـ.

التكملة (نشر ابن شنب) رقم 227 ـ التكملة نشر العطار رقم 592. ابن فرحون: الديباج المذهب ص 54. أنظر التعليق رقم 2 ص 40.

(2) هو محمد بن يحيى بن محمد بن متوكل التميمي من أهل اشبيلية وأصله من قرطبة ويعرف بابن الجداء وهو من بيت أبي عمر القاضي يكنى أبا بكر. روى عن أبي محمد بن عتاب وكان موثقاً أخذ عنه أبو علي الشلوبين توفي سنة 600.

التكملة (كوديرا) رقم 881 ـ ابن فرحون ـ الديباج ص 302-303.

(3) لم نجد شيئاً عن ابن منظور هذا فيما تتوفر عليه من مصادر غير أن بيت بني منظور مشهور بالنباهة، أثيل المجد المشهور بالأندلس، معروف بالعلم في اشبيلية ثم مالقة وغيرهما، وقد خصص بكتاب (الروض المنظور في أخبار بني منظور) ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد أبي عيسى قاضي الجماعة

المحوزة أرض عند مراجعها[1] نحو الثمان مائة مرجع قدْرا قيمتها له، فعوضه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين منها أرضاً فسيطة بالموضع المعروف بجزيرة السباع[2] المتصل بجزيرة قبطيل[3] ، على ضفّة الوادي من جهة الشرف فباعها من إبراهيم بن رواحة[4] بثلاثة آلاف مثقال سكية[5]. ونفذ الأمر العالي إلى أهل الأنظار بالشرف بقلع أصول الزيتون المختارة من الألوان بمال المخزن أنماه الله واستجلابها إلى [322] البحيرة المذكورة للاغتراس، فجلبوا منها عشرات الآلاف، وتعاون في ذلك أشياخ البوادي بالنظر بينهم: الآلاف منهم مع الآلاف، فغرست على نسق عاماً بعد عام، على خير وإنعام. وكان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين يخرج من قصره بإشبيلية راكباً مع أعيان الموحدين أعزهم الله للتطلع على الخدمة فيها وغرسها، وللتأنس برؤية تلك من أنسها. وتفرّد العريف أحمد بن باسه[6] عريف البنائين بالأندلس في ابتناء

---

* ابن عبد ربه علي قرطبة (د 464) وأما الجمال أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأفريقي قاضي طرابلس (المصري، الوفاة 630 ـ 711) مختصر الكتب المطولة المشهور بكتابه (لسان العرب) فهو أنصاري ينتسب لرويفع بن ثابت.

عبد الكريم بن الحسن: بيُوت العلم (مخطوط).

(1) جمع مرجع اسم مقياس زراعي اختلف تقديره باختلاف النواحي، فقد نجده عبارة عن خمس عشرات وثمن الخطوة أو ثمانية الربع وثلث الذراع، وقد يقدر بخمسمائة وعشرين متراً مربعاً، ومن هذه الكلمة وردت العبارة الغرناطية مرجال الذي يعني الجزء التاسع من (Fanega) في أرض، وفي غرناطة كان هناك مقياس يسمى المرجع المسقي. Dozy T. I. page 503.

(2) (isla de los leones) هكذا فقط ترجمها الأب ميلشور.

(3) لم يضف ميلشور شيئاً على ترجمة الكلمة: (isla de captil) وهذا المكان غير المعروف في التاريخ تحت اسم (Captel). . .

(4) لم نقف على التعريف بابن رواحة الذي لم يرد ذكره أكثر من هذه المرة في هذا السفر.

Dozy. T. I. page 665 — 666.

(5) نسبة إلى السكة بمعنى العُملة.

(6) نقل هذا المهندس الكبير عمدة الموحدين في مشاريعهم العمرانية سواء في جبل طارق أو قرطبة أو قصور البحيرة، ويضبط في المصادر الاسبانية بضم السين، وهذا الاسم ما تزال بعض الأسر أصله مغربية فاس وهي مشهورة بخبرتها في البناء، راجع التعليق رقم 1 ص 86.

راجع التعليق رقم 5 ص 85.

القصور المذكورة من البحيرة حتى كملت فجاءت من الحسن بحال تبهر الوصف، ويشتغل بها عن الغرض المطرف! أربت على مباني الخورنق والسدير، وطلعت بباب جهور كالبدر المنير، وواصل بالبناء حواليها بالحيطان المبنية بالجيار والرمل والحصى من جهاتها، وجميع جنباتها. وكان الملتزم للحفر في غرس البحيرة المذكورة الشيخ أبو داود يلول بن جلداسن مُشرف إشبيلية وأعمالها وأمين أمير المؤمنين، وتحت نظره وعمله تقييد الإنفاق في الاغتراس والبناء بالشهادة على ذلك في كل يوم، ودواب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وعبيده ينقلون عليها الأحجار والآجر والجيار، والثمار والأشجار. وقد تقدم الأمر العالي إلى العمال بأغرناطة ووادي آش أن يجلبوا إلى هذه البُحيرة ضروب الإجاص المسمى عند الأطباء بالكمثرى، والإجاص المسمى بالعنبر، والأزرة[1] والتفاح، فكانت [323] تصل بذلك القطار إِثر القطار، بجميع الثمار المختارة للاغتراس والإثمار، وأبو العلا إدريس الوزير وابنه يحيى ملتزمان للخدمة بالجلوس على ذلك من وقت شروق الشمس إلى المساء، حتى كمل البناء والعمل وانتهى غاية الانتهاء، وأحدق البناء من جهاتها الأربع بالحيطان تحميها، وتكنفها من الإذاية في نواحيها، بحيطان عالية، ومبان سامية.

(1) يذكر ابن صاحب الصلاة ثلاثة أنواع من أنواع الإجاص الكمثرى والعنبر والأزرة. وقد ذكر ابن العوام الأشبيلي أن الكمثرى نوعان جبلي وبستاني قال: وهو أنواع منه السكري والكافوري والشرمي والمراجي، وغير ذلك. ويقول ابن الحشاء أن الإجاص هو المعروف بالمغرب بعين البقر ويسميه صاحب الاستبصار ص 212 بالعنبر بالشين ويترجم ميلشور الأزرة بكلمة: Perusco وقد عثرت في بعض المصادر على أن الإجاص عند الأطباء يشمل البرقوق، هذا وليس يبعد أن تكون كلمة العنبر محرفة عن عين البقر. ابن ليون التجيبي: أصول الفلاحة (أرجوزة تعمل على شرحها الدكتورة أكوارلس من جامعة غرناطة). Dozy: Sup T. I. p. 19. راجع التعليق رقم 4 ص 87.

النظر في اجراء الماء لسقي البحيرة ثم توصيله الى داخل اشبيلية لشرب الخاصي والعامي

وإن أمير المؤمنين لما أحكم له بناء ما أسسه، نظر في إجراء الماء لسقي ما غرسه، وكان خارج باب قرمونة في الفحص، على الطريق المسلوكة إلى قرمونة، أثر قديم قد غبر من بنيان ساقية قد علت الأرض عليها وصارت خبطاً في الأرض من حجارة لا يفهم أثره، فخرج إليها الحاج المهندس يعيش وحفر حوالي الأثر المذكور، فإذا به أثر سرب قد جلب فيه الماء قديماً إلى اشبيلية من عمل الأوائل الملوك من الروم السالفة، والقرون الخالية، والطوائف البائدة، والأجيال السالفة، فما زال المهندس يعيش يتبعه بالحفر بالمداثين والفعلة بالجيشين من الرجال والخدام معه حتى أوقعه الحَفْرُ في العين القديمة [324] المسماة عند أهل اشبيلية وأهل أنظارها بعين الغُبار[1]، مضت الدهور بهذه الاسمية لها، وإذا بالماء في تلك العين ليست بعين، إنما كانت موضع فتق في طريق السَّرب القديم، فانقطع الماء عند وصول الحفر إلى العين المذكورة عند الناس، وعلم يعيش عند ذلك أن السرب قد تحققه، فتمادى في العمل حتى وجد السرب من الوادي بقرب قلعة جابر[2]. . . فوزن الأرض في ذلك الموضع وساقه على ما وزنه من الأرض حتى إلى البحيرة المذكورة، فسر أمير المؤمنين بذلك، ثم أمر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بإجرائه وجلبه إلى داخل اشبيلية الى القصور[3]، ولشرب الناس

(1) الثقب ميلشور يترجمها النقا: (La barre Al qapar).

(2) قلعة جابر - (Alcalá de Guadaira) تقع جنوب إشبيلية، على مقربة من قرمونة، وإليها ينسب الشاعر عامر بن خدوش القلعي القائل:

ألا يا سقى الرحمان قلعة جابر ... فكم لي فيها من ليال أزاهر!

هذا وتوجد في الأصل على طرة الكتاب كلمة (هنا بياض) ويلاحظ أن مكان البياض بقرب من السطر فيظهر أن ابن صاحب الصلاة كان يريد تحديد قلعة جابر كأن يقول على بعد كذا من إشبيلية. ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب نشر الدكتور شوقي ضيف أول ص 291.

(3) هل القصور التي كانت للمعتمد بن عباد؟ أنظر التعليق رقم 3 صفحة 373.

ومرافقهم على أوفى التفضل منه بكمال الهندسة والتدبير. وأمر ببناء محبس[1] للماء بداخل اشبيلية في حارة ميوريها[2] وجلب إليها الماء المذكور في يوم السبت الخامس عشر من جمادى الأخرة سنة سبع وستين وخمس مائة، وحضر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه في عسكر من كبار الموحدين والفقهاء والطلبة. وضربت الطبول على إجرائه والسرور بوصوله إلى محبسه، وانتهائه بداخل اشبيلية بحارة ميور المذكورة.

وجع الخبر

وفي شهر المحرم أيضاً من هذه السنة المؤرخة وصل في عسكر السيد الأعلى أبي حفص بأمره أعيان [325] وفرسان من مرسية مهاجرين راغبين في البيعة والتوبة، فذكر حديثهم للسيد الأعلى، فأذن لهم في الدخول إلى المجلس العالي والسلام للمبايعة، فالتزموها على أتم حقوقها، وأمر لهم بظهائر كتبت لهم بتحرير أموالهم، وتقرير آمالهم، لتشهد لهم بهجرتهم، وبدارهم إلى هذا الأمر العزيز وارتحالهم، فتسامع أهل الشرق بما فعل معهم فجاءوا عند ذلك أفواجاً أفواجاً، وأفراداً وأزواجاً، حتى أفرد صاحبهم ابن سعد وتمادى به فكر إلى القبر واللحد!

(1) اتفق مع الأستاذ سالم هنا بالدولاب الذي أقامه الحاج يعيش. ينقل المؤرخ الإسباني موركادو في كتابه (تاريخ إشبيلية) ص 95 عن أن مسجد اشبيلية كان يتمتع بنظام داخلي لإجراء الماء وتوزيعه عليه في قنوات تجري تحت أرضه وأن الذي يشاهد هذا النظام العجيب المختفي تحت الأرض ليتعجب منه. هذا ولا يفوتنا أن نعلق على كلام موركادو هنا تعليقاً صغيراً، ذلك أنه نقل هذا الكلام عن ليون الأفريقي، ولعله نقله من غير كتابه (وصف أفريقيا)، فإن هذا الكتاب لا يتضمن شيئاً من هذا الوصف.

(2) يترجمها مليشور بأسم (Mayor) وليس يبعد في نظري أن يكون الأصل مأخوذاً من اسم سانشو الملقب بالمور (الكبير) Sancho el Mayor.

Olague: Histoire d'Espagne page 158.

ذكر العلة الملازمة له

قال الراوية: لما طال الحصار على محمد بن مردنيش من السيد الأعلى أبي حفص وقلّ من أصحابه عونه، اختلّ ذهنه، وأوقع بوزيريه ابني الجذع بمطالبة عبد الرحمن بن سعيد الغرناطي[1] صاحب المظالم له، عذّبه[2] وجعله في برج دون طعام ولا ماء حتى أكل ثيابه التي كانت عليه ومات! فأفرده أخوه وأصهاره، ومن ظن أنهم أنصاره، وخرج على علته من مرسية زاعماً أنه سيغلب جزيرة شُقْر، ويأخذ ابن هلال[3] القائم بدعوة الموحدين فيها، فوصلها، واستدعى أخاه أبا الحجاج[4] ليعينه في منازلتها، فوصله وقصّر به، وعجزا جميعاً وأقلعا منها خاسرين خائبَيْن [326] ثم إن أبا الحجاج أخاه المذكور أظهر الإنابة والمبادرة إلى التوحيد، وتحقق محمد بذلك فزادت عِلّته بالذهول، وتوقف أخوه عن عيادته ومخاطبته، فاشتدت علته، وحضرت منيته، فتوفي في العاشر من رجب الفرد من سنة سبع وستين وخمس مائة المؤرخة، وله ثمانية وأربعون سنة، فانقرضت أيامه، وبادر قواده وأشياخه بالطاعة إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وعزموا على ابنه هلال[5] بالمخاطبة بالطاعة، والبدار إلى التزام التوحيد مع الجماعة، فخاطب بذلك وقَبِل أحسن قبول، وهبّت عليه من الأمر العزيز ريح الصبا والقبول، وأخذ في الحركة إلى إشبيلية بالوصول.

(1) من أسرة بني سعيد المعروفة أصحاب قلعة يحصب (Alcala la Real)، وقد كان يشرف على أعمال البناء في المسجد الجامع هو وأخوه محمد. وكان ينتمي إلى حزب ابن مردنيش فلما مات ابن مردنيش انضم إلى الموحدين وقد ولد في سنة 518 وتوفي سنة 577.
ابن الخطيب الإحاطة مخطوطة الأسكوريال ـ ورقة 47، راجع التعليق رقم 6 صفحة 179.

(2) كذا في الأصل وهو تساهل من الناسخ لأن الصواب عذبهما أو عذب ابني الجذع... حتى أكلا ثيابهما الخ وهو كذلك في ابن عذاري ص 86. راجع الصفحة 388.

(3) راجع التعليق رقم 2 صفحة 349.

(4) هو أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش وقد تقدم في صفحة 295 حديث في هذا الموضوع.

(5) من الآن يظهر في الأفق السياسي هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش.

اتفاق الرأي المبارك أن يسير الشيخ الأجل المرحوم أبو حفص إلى مدينة مرسية لثقافها وتأنيس اهلها عند طاعة هلال المذكور.

ونهض الشيخ الأجل المرحوم أبو حفص بعسكر مبارك من الموحدين إليها، فبادروا إلى الخروج إليه والتبرك به ودخلها، وأنسهم ووعدهم بالخيرات، ورفع المضرات، وأمّن لهم أنفسهم، وغسل ثيابهم من المآثم وأزال دنسهم، فاستقبلوه بالاقتداء لمذهبه ووعظهم في مجلسه معهم بخطبه وكلامه، [327] وأعلمهم أن تقوى الله تعالى وطاعة الخليفة جل ذمامه.

ذكر توحيد هلال بن مردنيش بعد موت أبيه مضطرا ووصوله إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين باشبيلية.

وإنه لما مات ابن مردنيش المذكور بادر ابنه هلال بالوصول إلى الخليفة بعد استقرار الشيخ المرحوم أبي حفص بمرسية وتملكه لها، فوصل مع جميع اخوانه وأصحاب أبيه من القواد والكبراء من أهل الثغور الاجناد عقب شهر رمضان[1] المبارك من هذه السنة، فأخرج أمير المؤمنين الخليفة إلى لقائه أخاه السيد الأجل أبا زكرياء يحيا بن الخليفة رضي الله عنه صاحب بجاية وأخاه أيضاً أبا ابراهيم اسماعيل. مع علية أبناء أشياخ الجماعة من الموحدين أعزهم الله. وتلقوه على أميال من اشبيلية على تبريز جم، وجميع من عسكر الموحدين فخم، ودخل في صحبتهم إلى القصبة المتيقة إلى مجلس الخليفة رضي الله عنه قرب صلاة المغرب من يوم وصوله، فطلع في الحين هلال رمضان المعظم من عام سبعة وستين المؤرخ، وسلم على الخليفة أبي يعقوب وبايعه وجميع السادات حضور: السيد الأعلى أبو حفص والأخوة كلهم وأشياخ الموحدين وطلبة الحضر [328] فقال القاضي أبو موسى عيسى بن عمران[2]

(1) كذا في الأصل والصواب شعبان كما يبدو في القرائن الآتية.
(2) راجع التعليق رقم 6 صفحة 352.

بعد أن خطب وهنا الحضرة العلية بما وجب لها: يا سيدنا أمير المؤمنين طلع علينا في هذه الليلة هلالان: هلال شهر رمضان، وهلال هذا بالطاعة! فاستحسن أمير المؤمنين كلامه وتبسم له، وانفصل هلال بن مردنيش في ذلك الوقت مع أصحابه، وقد كان النظر له في موضع لنزوله ونزول أصحابه، فأنزل في قصر[1] محمد بن عباد أمير اشبيلية الرفيع الشأن، العظيم البنيان، وأنزل أصحابه في الدور المتصلة به، وقد أعدت لهم الفرش والبُسُط والمطاعم والمكارم والمشارب والمثارب، وألهموا أنهم الأقارب والأصاحب، ورحبت بهم المملكة الخلافية، والدولة الإمامية.

ذكر بيعة أجناد شرق الأندلس أصحاب ابن مردنيش الواصلين مع ابنه هلال.

ولما كان صبيحة أول يوم من شهر رمضان المؤرخ المذكور بكر أشياخ الموحدين أعزهم الله وجميع الناس وطلبة الحضر لحضور بيعة أهل الشرق المذكورين، فحين جلس الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه في مجلسه العالي الكريم خرج الوزير أبو العلا إدريس بن جامع، وأمرهم بالدخول عليه والمثول بين يديْه، فدخلوا وسلموا [329] سلام جماعة، ثم بايعوا واحداً بعد آخر وتقدَّمهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى[2] كبير الأجناد المذكورين وصاحب الثغر، والتزموا الطاعة. وواصلوا الجماعة، فلما أكملوا بيعتهم واطمأنوا[3] مجلسهم، رَغِبُوا إلى الخليفة في غزو من جاورهم من بلاد النصارى وبينوا أن مدينة (وبذة)[4] أيسر البلاد للفتح، إذ هي حديثة البنيان قريبة الإسكان، وقالوا: إن سورها غير ممتنع. وإنها دون باب ولا حجاب،

(1) راجع التعليق رقم 3 صفحة 373.
(2) راجع التعليق رقم 3 صفحة 45.
(3) كذا في الأصل ولعل كلمة (في) محذوفة: اطمأنوا في مجلسهم.
(4) راجع التعليق رقم 3 ص 368.

فعزم رضي الله عنه في نفسه على قبول رأيهم ورغبتهم، ووعدهم في هذا المجلس العالي عند انقضاء شهر رمضان المعظم بالصوم بانجاز عدتهم ورأيهم. وقد كان هلال بن محمد النزل البارحة من هذا اليوم في مقر ابن عباد، وأنزلوا بقربه في الديار، فتوالت عليهم البركات مدة غاية الإدوار، حتى نسوا ما كانوا عهدوه في رياستهم، وابهتوا بما عاينوه لأهل هذا الأمر العزيز من إحسانهم وسياستهم، فاغتبطوا غاية الاغتباط وظهر على وجوههم وعياتهم آية النشاط، واشرح الغزوة أثر هذا إن شاء الله تعالى[1].

خبر ابتداء بناء الجامع الكبير الجديد باشبيلية[2] ومساق الخبر على [330] اختلاف السنين.

وفي هذه السنة في شهر رمضان ابتدأ أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين باختطاط موضع هذا الجامع العتيق الأنيق، فهدمت الديار في داخل القصبة له، وحضر على ذلك شيخ العرفاء أحمد بن باسه[3] وأصحابه العرفاء البناؤون من أهل اشبيلية، وجميع عرفاء أهل الأندلس، ومعهم عرفاء البنائين من أهل

---

(1) ابتداء من صفحة 380.

(2) أراد الموحدون أن ينافسوا بهذا المسجد مسجد قرطبة العظيم الذي شيده عبد الرحمن الداخل. دكتور أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها 1961 ص 242 ـ 244.

(3) اشتهر في كتب التاريخ الأسباني الحديث أن اسم المهندس الذي قام ببناء الجيرالدا باشبيلية مجهول تماماً وظن بعض المؤرخين أن الذي اضطلع بمهمة بناء المسجد هو جابر بن أفلح الاشبيلي، ولكن ابن صاحب الصلاة وهو شاهد عيان يكشف النقاب عن المهندس العربي الكبير الذي قام ببناء جامع إشبيلية وإقامة الصومعة. إنه أحمد بن باسه الذي لم نر له ذكراً في غير ابن صاحب الصلاة، ونحن نعلم أن هذا المهندس كان مقيماً في اشبيلية وربما توجه لجبل طارق سنة 555 ثم إلى قرطبة. هذا وإن التشابه الكبير الذي يوجد بين منار اشبيلية ومنارتي حسان في مدينة الرباط والكتبية في مدينة مراكش ليحملنا على الاعتقاد بأن المهندس الذي أشرف على بناء كل تلك الصوامع شخص واحد وإن كان هذا الحكم يحتاج إلى كثير من البحث. وإن في أبرز العناصر التي يجب الارتكاز عليه للحكم الأخير هو الوقوف على ترجمة وافية لأحمد بن باسه.
شكيب أرسلان: الحلل السندسية أول ص 240.
Melchor Antona: Sevilla y Sus monumentos arabes, 1930.



جامع اشبيلية

حضرة مراكش[1] ومدينة فاس وأهل العدوة، فاجتمع بإشبيلية منهم ومن أصناف النجارين والنشارين والفعلة لأصناف البناء أعداد، من كل صنف صناع مهرة في كل فن من الأعمال أفراد وكان الذي دعا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين لبنائه ما خصصه الله به من الدين والورع، وأن يخص اشبيلية بالتمصير والتسكين بأشرف مرأى ومسمع، ولأن كان قد قطعها في مصيف ومربع، وكان الموحدون الناشئون لها قد اتخذوا في قصبتهم بداخل اشبيلية جامعاً صغيراً لصلاتهم في أيامهم وجمعهم، فضاق عند استيطانهم عنهم لتناسلهم وترادف وفود الموحدين إليهم بالعساكر، وكان أيضاً جامع مدينة اشبيلية المعروفة بجامع العَدَبَّس[2] قد ضاق بأهلها، فيصلون في رحابه وأفنيته، وفي جوانب الأسواق المتصلة به فيبعد عنهم التكبير بالفريضة، فربما فسدت صلاتهم، ولم تمتد قط فيما سلف من الأزمنة همم [331] ملوكهم وأمرائهم في السيرات إلى توسعته والزيادة فيه، للذي كانوا عليه عاكفين من

(1) نرى كيف أن الفن الأندلسي كان لا يستغني بحال عن الفنانين والخبراء من أهل العدوة، ولذلك فقد أسهم هؤلاء بنصيبهم في الفترة المغربية بالأندلس، وليست تصح الفكرة بأن الأندلس هي وحدها التي كانت لها اليد . . . وإلا فكيف نفسر استنفار عمال مدينتي مراكش وفاس؟

(2) جامع العدبس ينسب إلى القاضي عمر بن عدبس الذي كان يتولى قضاء إشبيلية في أيام عبد الرحمن بن الحكم، وقد انتقلت منه الخطبة إلى المسجد الكبير الذي بناه الموحدون، وقد ظل المؤرخون متعلقين أشد التعلق بجامع ابن عدبس نظراً لما له من تاريخ يذكر، فقد نقل أن المجوس هاجموا (مسجد إشبيلية) وحاولوا إحراقه سنة 230 لكن لم تخرج عليهم من ناحية المحراب فحال بين النورمانديين وبين ما كانوا يريدون، وبالرغم من أن النقول لا تنص على أن المسجد الذي استهدف لهذا الهجوم هو بالذات جامع ابن عدبس لكن القرائن تدل على أنهما شيء واحد، وقد زعم بعض المؤرخين ورجال الآثار ممن تحدثوا عن جامع أشبيلية فذكروا أن هذا الجامع أقيم في نفس الموضع الذي كان فيه الجامع الأموي القديم ومع أن ابن صاحب الصلاة صريح ـ كما سنرى ـ في خلاف هذا، هذا وقد حرف عدبس عند بروفنصال إلى العباس. ابن الأبار ـ التكملة رقم 777 ورقم 1908 ـ ابن الزبير صلة الصلة رقم 275 . المقري ـ نفح الطيب سادس ص 40.
وانظر: مجلة الأندلس مجلد 11 سنة 1946 صفحة 423 ومجلد 12 سنة 1947 صفحة 145.
Terrasse La Grande mosquée Almohade de Seville (memorial Henri Basset) page 251.
Provençal: conferences sur l'Espagne Musulmane p. 110.
ميلشور ص 53 — 60.

تهالكهم في الإمارة وهويهم في ضلال الفتنة بينهم، وإهمال المسلمين بغير حماية، لعمارة في دار قراره إلى أن جمع الله تعالى الإسلام بهذا الأمر العزيز بالتوحيد بعد فترة، وبهذا الخليفة الإمام أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم الذي سمت به الخلافة، وأنافت به المعالم والديانة أعظم إنافة، ووصل لنصر جزيرة الأندلس بعساكره المنصورة، فحاز الذخر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس فأسسه من الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار، على أعظم البناء والاقتدار، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطاته تحت الأرض أطول مما فوق الأرض، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام وإحضار الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدوة، بما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله، فأعلى بنيته وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثيقه، وأنفذ أمره العالي ببنائه في شهر رمضان من سنة سبع وستين وخمس مائة[1] المؤرخة، لم يرفع البناء عنه قط في فصل من فصول السنين مدة إقامته بإشبيلية إلى أن كمل بالتسقيف، وجاء في أبهى المنظر الشريف، وأعجز في بنائه مَن تقدمه، وبقي في ميزانه ذخيرة ورحمة له [332] مقدمة، قارب به جامع قرطبة في السعة، وليس في الأندلس جامع على قدره وسعته، وعدد بلاطاته . . .[2] وكان الناظر أبو داود يلول بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ومشرفه على الأعمال، ومن

(1) هو نفس التاريخ الذي يذكره ابن أبي زرع في القرطاس (جزء ثان) طبعة الرباط ص 186 والغريب أن صاحب الحلل الموشية يذكر أن ذلك تم سنة 572 . أنظر الحلل ص 131 ـ 132 .

(2) هنا بياض في الأصل، ويظهر أن ابن صاحب الصلاة كان يريد أن يعدد البلاطات لكنه لم يتمكن، وقد ضبط دال (عدد) بالضم الأمر الذي يدل على أنه استأنف وليس بعطف على (قدره وسعته) كما فهم الأب ميلشور، ويعطينا رجال الآثار عدد هذه البلاطات وأنها سبعة عشر بلاطة نفس العدد الذي يوجد في الكتبية، وقريباً مما يوجد في منار حسان بالرباط.
Melchor: Sevilla y sus monumentos arabes p. 104.
Terrasse: la grande mosquée de seville page 250.
Caillé: ville de Rabat p. 156.

الحفار[1] على هذا البناء من أهل إشبيلية أبو بكر بن زهر[2]، وأبو بكر

---

(1) كذا بالزاي وهو ما يوجد في الأصل، وقد قرأه ميلشور (حفاظ).

(2) أسرة (ابن زهر) بالأندلس والمغرب أسرة وافرة تضم عدداً كبيراً من الأطباء والطبيبات علاوة على الفقه والأدب.

أولهم، أبو مروان عبد الملك (الأكبر) بن الفقيه محمد بن مروان بن زهر الأيادي، وهذا هو الذي ترأس الطب في بغداد.

ثانيهم، أبو العلاء زهر بن أبي مروان السابق وقد كان في دولة الملثمين

ثالثهم، أبو مروان عبد الملك (الكبير) بن أبي العلاء، خدم الملثمين، وألف لعبد المؤمن بن علي.

رابعهم، (الحفيد) أبو بكر بن زهر، هو الذي ذكره ابن صاحب الصلاة. . . خدم الملثمين ثم الموحدين وقد كان يلعب الشطرنج، وكانت أخته وابنة أخته طبيبتين، وقد توفي سنة 595.

ويروى أنه توفي بشكل غريب إثر مفاجأة سارة، وقد أورد صاحب نفح الطيب قصة وفاته وفق ما يلي: . . .

ولي واحد مثل فرخ القطاة	صغير تخلفت قلبي لديه
وأفردت عنه فيا وحشتا	لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته	فيبكي علي وأبكي عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا	فمنه إلي ومني إليه

واخبرني الطبيب الماهر الثقة العلامة سيدي أبو القاسم ابن محمد الوزير الغساني الأندلسي الأصل الفاسي المولد والنشأة، حكيم حضرة السلطان المنصور بالله الحسني صاحب رضي الله تعالى عنه أن ابن زهر لما قال هذه الأبيات سمعها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب والأندلس أواخر المائة السادسة أرسل المهندسين إلى اشبيلية وأمرهم أن يحتاطوا علماً ببيوت ابن زهر وحارته ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش، ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدة، وفرشها بمثل فرشه، وجعل فيها مثل آلاته، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع، فرآه أشبه شيء بيته وحارته، فاحتار لذلك، وظن أنه نائم، وأن ذلك أحلام، فقيل له: ادخل البيت الذي يشبه بيتك فدخله، فإذا ولده الذي تشوق إليه يلعب في البيت فحصل له من السرور ما لا [مزيد عليه، ولا] يعبر عنه. . . وقد توفي من جراء هذا الحدث السار. . . أنظر نفح الطيب للمقري. الجزء 2 ص 248 ـ 249.

(3) هو محمد بن عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي Avenzoar من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر أخذ عن أبيه وعن جده علم الطب والفقه والأدب والإمامة فيه مع حظ وافر في الأدب واللغة وحفظ الشعر والمشاركة في سائر العلوم، وقد كان له بمراكش قصر وبها توفي في ذي الحجة سنة 595. ابن الأبار، التكملة رقم 855. راجع التعليق رقم 2 صفحة 324. أشباخ ص 501.

الباني[1]، ثم شركهم في النظر عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد العنسي الغرناطي[2] فظهرت على كتابه وأصحابه خيانة، فعزل وعزلوا واستبدلوا، ورجع النظر إلى أبي داود واستبد به مع خاصته تحت أمره ابراهيم الدباغ[3] مع مشاركة ابن زهر المذكور، وكانت شُرُب المدينة تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع فنُكِّبت عنه، وأخرجت بطريقها منه وصرفت إلى جهة الجوف منه على أوسع مجرى ووثق مُسْرَى على شُرُب واسع وعمل بأعداد من الرجال على أوثق البناء تحت الأرض جارٍ إلى الوادي تحت الأرض قاطع[4]. واحتفل العرفاء واستمرفوا، وتحذقوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الاحتفال، في العمل بصنعة الجبس[5] والاقباء بالبناء ونجارة الخشب بغاية الاحتفال، وأتوا يسار المحراب ساباطاً في الحائط يمشي في سعةٍ فيه الماشي معداً لخروج الخليفة غلّبه من [333] القصر إلى هذا الجامع لشهود صلاة الجمعة يُبدر منه المنبر[6] على بابه الخاص الرفيع، وعلى يمين المحراب إلباء في حائط الجامع معقود بالبناء لكون المنبر فيه عند إخراجه للخطبة وإدخاله فيه، وصنع هذا المنبر من أغرب ما قدر عليه النعلة من غرابة الصنعة، اتخذ من أكرم الخشب مفصّلاً منقوشاً مرقشاً محكماً بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك، من غريب العمل، وعجيب الشكل والمثل، مرصعاً بالصندل، مجزعاً بالعاج والآبنوس، يتلألأ كالجمر بالشعل، وبصفائح من الذهب والفضة، وأشكال في عمله من الذهب الإبريز يتألق نوراً، ويحسبها

---

(1) لم نقف على ترجمة أبي بكر هذا ولم نجد لمعلومات أكثر عنه سوى أول ما ذكر أكثر من هذه المرة في كتاب ابن صاحب الصلاة.

(2) أفرد ابن الخطيب في الإحاطة لابن سعيد هذا ترجمة حدد فيها مدة اشتغاله في بناء جامع إشبيلية. نسخة الاسكوريال رقم 1674 ورقة 147 . راجع التعليق رقم 1 صفحة 379.

(3) يرجح أن الدباغ اسم للعائلة لكن ميلشور ترجمه بالشخص الذي يقوم بعملية الدبغ.

(4) لا يخفى ما في هذا السجع المتصل من ركاكة واضحة.

(5) صناعة الجبس تعني القرنص أو المقرنص في اصطلاح المغاربة «Les stalactites». التازي: مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية 1960 ص 65.

(6) يعني من هذا الساباط تنطلق الإشارات بخروج الخليفة، وقد قرأه ميلشور هكذا (المنبر).

الناظر لها في الليل البهيم بدوراً، ثم أردفت له بالعمل المقصورة[1] من أحسن الخشب مختصرة من قضبه، رقيقة لحجبه، وكان الخليفة يتطلع بناءه في أكثر الأيام بنفسه، فيصل لرؤيته ومعه أخوه السيد الأعلى أبو حفص، مع أعلام اخوته وأشياخ مملكته، ووزيره ووجوه رجاله من طلبته وأهل دولته، ويشير لهم بالجد في البناء، والوثاقة فيه والاستعلاء، والعكوف بعمل الأمانة والديانة وترك الأهواء، ويعطيهم البركات، ويمدحهم على ذلك العمل بالصِّلات، حتى اكتملت جهاته الأربع بالبناء، وعقد الأقواس منه بالأكباء، وكمل السقف، ثم حان انصراف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى حضرته مراكش في الرابع عشر [334] من شهر شعبان المبارك من عام أحد وسبعين وخمس مائة، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصباغ[2] إلى مواطنهم، فكانت المدة في بنائه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً قمرية وتحرك أمير المؤمنين إلى حركته المذكورة.

قال المؤلف: وفي المثل «والحديث شجون»[3] ولما ذكرت بناء هذا الجامع الكبير اندرج مع ذكره جامع إشبيلية المعروف بجامع عدَبْس عند أهل إشبيلية فدامت الخطبة فيه على ما كانت في مدة إقامة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بالأندلس إلى ما أذكره.

ذكر الأمر بالخطبة يوم الجمعة في الجامع الجديد الكبير بالقصبة وانتقال الخطبة من الجامع المنسوب لعمر بن عدبّس بإشبيلية.

قال المؤلف ولما انصرف السيد الوالي على اشبيلية: أبو اسحاق ابراهيم[4] بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله

(1) الحاجز الخشبي الذي اتخذ تحت على باب المحراب لصلاة الخلفاء.
(2) كذا في الأصل وقد قرأه ميلشور الصباغ.
(3) يشير ابن صاحب الصلاة لتعقيبات بالموضوعية، ولذلك فهو يعتذر عن هذه الاستطرادات التي كانت بالنسبة إلينا جد مفيدة.
(4) ذكر أبي اسحاق ابراهيم والياً على اشبيلية تصرف من الناسخ فقد ظل أبو ابراهيم اسماعيل والي *

عنهم من زيارة أبيه من حضرة مراكش إلى اشبيلية يوم السبت الثامن عشر من ذي الحجة، بموافقه[1] الرابع والعشرين من ابريل العجمي، من عام سبعة وسبعين وخمس مائة أنفذ [335] أمر أبيه الذي أمّر به من الزام الناس حضور صلاة الجمعة والخطبة في الجامع المذكور، فكانت أول خطبة خطب فيها على منبره الرفيع يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي الحجة، والموفي ثلاثين من ابريل العجمي[2] المؤرخ، من عام سبعة وسبعين وخمس مائة، وكان أولُ خطيب خطب فيه السيد المذكُور وأقام الصلاة للناس فيه أبا القاسم عبد الرحمن بن غفير الليلي[3] أحد خدام السيد الناسخين له كتبه، وارتفعت في هذا اليوم الخطبة والجمعة من جامع عمر بن عدبّس المذكور باشبيلية وأزيل منبره من موضعه ونُحّيَ إلى جانب الحائط الغربي من الجامع المذكور. وكانت المقصورة قد أزيلت أيضاً من موضعها عنه قبل ذلك، وفرقت في بلاطات السقائف الجوفية والشرقية، وذلك يوم الجمعة التاسع عشر من شعبان سنة سبعين وخمسمائة، وكان القاضي عمر بن عدبّس قد ابتناه عام أربعة عشر ومائتين للهجرة. والحديث شجون يوجب ادخال ما تقدم مع ما تأخر: ووجد الناس في السارية التي في البلاط الثاني من جهة الشرق المقابل لمحراب الجامع: جامع بن عدبّس مكتوباً في السارية المذكورة بخط قديم: يرحم الله الامام عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدي الأمر ببناء هذا المسجد على يدي عمر بن عدبّس [336] قاضي أشبيلية سنة أربع عشر ومائتين.

* أشبيلية منذ سنة إحدى وستين وخمسمائة، أما أبو اسحاق ابراهيم فهو والي قرطبة.
انظر بالإحاطة صفحة 139.
ابن خلدون، المجلد السادس ص 497.
(1) يوافق الرابع والعشرين من ابريل بالضبط.
(2) الموافقة مضبوطة تماماً.
(3) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن غفير الأموي من أهل اشبيلية وأصله من لبلة أخذ عن عمه وجده أبي الوليد، وابن بشكوال وابن خير بقرطبة وسمع قبل هذا بمدينة فاس من أبي الحسن بن حنين في سنة 546 أخذ عنه الشهاب وخطب بجامع إشبيلية القديم توفي قبل الثمانين وخمسمائة.
ابن الأبار، التكملة رقم 1608.

وكتب عبد البر بن[1] عمرون. ووصل الأمر[2] أمير المؤمنين أبي يوسف بقراءة سورة إذا جاءك المنافقون في الركعة الثانية من صلاة الجمعة. فصلى بها الخطيب يوم الجمعة الحادي عشر من ربيع الأول عام أحد وتسعين مائة.

ذكر بناء صومعة هذا الجامع

قال المؤلف: وهذه الصومعة الثابت وصفها للناطقين، السابق حديثها إلى المخبرين لا صُوَيْمَعَة[3] تعدلها في جميع مساجد الأندلس: سمو شخص وسمو أصل، ووثاقة عمل، وبنيان بالآجر، وغرابة صنعة، وبدائع ظاهرة، قد ارتفعت في الجو، وعلت في السماء، تظهر للعين على مرحلة[4] من اشبيلية مع كواكب الجوزاء، أمر ببنائها أمير المؤمنين أبو يعقوب بن أمير المؤمنين رضي الله عنه عند وصوله إلى اشبيلية في غزوته إلى شنترين في الثالث عشر من صفر من عام ثمانين وخمسمائة. ونزل خارج إشبيلية في البحيرة بمجشر ميلين[5]. فعندما تحرك من اشبيلية إلى الغزوة المذكورة أمر عامله أبا داود يلول بن جلداسن أن يشتغل مدة مغيبه في الغزوة ببناء سور حصين على قصبة إشبيلية يمر من مبدأ بنائه [337] أمام رحبة ابن خلدون[6] داخل اشبيلية وبناء

(1) عبد البر بن عمرون يظهر أنه عامل من عمال البناء.

(2) هنا كلمة أو ساقطة وكان الأصل هكذا: الأمر: أمر أمير المؤمنين.

(3) يوجد بالأصل (بالأصومعة) ويظهر أن (با) زائدة من الناسخ.

(4) المرحلة: المسافة التي يقطعها المسافر في يوم، وقد دأب المستشرقون على ترجمتها باليوم، وهو ما فعله هنا ميلشور. ويعدله دوزي، ثم أن تعبير ابن صاحب الصلاة: «تظهر للعين على مرحلة. . .» هو نفس التعبير الذي ورد في حولية سالار فرنانده وسلسلة 1500 الفصل 53.

راجع التعليق رقم 1 ص 127.

(5) مجشر ميلين (Machar milayn) ويظهر هذا الاسم في مجموع الوثائق الاسبانية حيث يبيع فيه ألفونسو العاشر إلى مجلس المدينة عدة قرى بكرومها وأراضيها.

Memorial historico Espagnol I: 13 — 17.

(6) يكتفي ميلشور بترجمة هذا المكان ترجمة حرفية La Esplanada de Aben jaldun وهو اسم ـ بالرغم من أننا لم نتمكن من تحديده بالضبط لكنه يدل على المحلة الموموقة التي كانت ليبت ـ

صومعة للجامع تكون في اتصال السور مع الجامع المذكور، وبناء دار صنعة[1] للقطائع تتصل من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع[2] إلى الرجل السفلي المتصلة بباب الكحل فابتدأ أبو داود بهدم الديار وحفر أساس السور أمام الرحبة المذكورة فلم ترم[3] الحال إلا نحو شهر ونصف وتوفي أبو داود، ثم توفي أثر ذلك الخليفة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين في الغزوة المذكورة على حسب ما أشرحه[4] رضي الله عنه، فلما بويع أمير المؤمنين أبو يوسف باشبيلية بعده أعرض عن بناء السور للقصبة وأمر العامل الذي ولي باشبيلية عوضاً من أبي داود: محمد بن أبي مروان الغرناطي[5] ببناء الصومعة المذكورة وامضاء أمر أبيه في بنائها والجد في عملها، وقد كان العريف أحمد بن باسه فتح أساسها لصق الجامع فوافق فيه بئراً معينة الماء فردمها بالأحجار والجيار، وبلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس المذكور. ونظر في تقييد الانفاق على بنائها العامل المشرف محمد بن سعيد المذكور. فابتدأ بناءها فبناها العريف بالحجر المسمى بالطجون[6] العادي المنقول من سور قصر ابن عباد! وصنعها بغير ادراج، انما يصعد إليها في طريق واسعة للدواب والناس والسدنة[7] [338] ثم عزل ابن سعيد عن العمل بإشبيلية بعد شهور، وتعطل بناؤها إلى

• ابن خلدون في إشبيلية حيث أعطت الساحات تحمل باسمه وقد قال ابن حيان: إن بيت ابن خلدون لم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية. . .

ابن خلدون، المجلد السابع ص 799.

(1) حول (دار الصناعة) راجع التعليق رقم 4 ص 90.

(2) باب القطائع أحد أبواب اشبيلية كباب قرمونة وباب جهور وباب الكحل.

(3) كذا في الأصل وهو وإن كان ساقطاً لكن الأرجح تدم بالحال.

(4) يعني السفر الثالث، وإنه ـ حقيقة ـ لولا هذا الاستطراد لضاعت علينا فوائد جمة.

(5) راجع التعليق رقم 8 ص 176 والتعليق رقم 1 ص 379.

(6) لم نقف على مدلول لكلمة الطاجون، ويشك الأب ميلشور في وجود تصحيف في الكلمة التي في الأصل ربما كان الطحون بالحاء ويترجمها بأضراس السبع معاملاً العادي بمعنى العتاري! ولا يظهر، فقد استعمل ابن صاحب الصلاة كلمة الحجر العادي كثيراً وكان يقصد فيها أحقاد الحجر المتاد للناس، هذا وقد تكون الكلمة مترجمة عن اللفظ اسباني بمعنى الحجر الصلد.

(7) نفس التصميم اتبع في منار حسان برباط الفتح والكتبية بمدينة مراكش.

لأن وصل أبو بكر بن زهر من حضرة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين في عام أربعة وثمانين وقد أمر بإعادة بناء الصومعة المذكورة، وبناء ما اختل في الجامع، فشرع فيها بعمل العريف علي الغماري[1] بالآجر الذي هو من بناء الحجر المذكور، وأصلح ما اختل في الثلاثة بلاطات في الجامع من جهة الشرق وجهة الغرب والجوف وأتقنها، وحصن بناءها، وعدّل الجامع بالأدراج من جهة الغرب، وسطح حوائه بالحجر الكذان[2]، وصنع في داخل المسقّف شسيات من زجاج وسطحه بالآجر وفي خارجه. ودام في ذلك أعواماً يعمل في الصومعة أحياناً، ويسافر من إشبيلية إلى الحضرة فيتعطل، ثم يعود البناء في الصومعة وفيه لازم الجلوس بنفسه على البنائين في المُدد التي كان يعاود فيها البناء، فلما وصل أمير المؤمنين وهزم الله الأذفونش الطاغية[3] أهلكه الله على ما ذكرته أمَرَ رضي الله عنه في مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح[4] الذهبية الصّنعة، العظيمة الرفعة، الكبيرة الجرم، المذهبة الرسم، الرفيعة الإسم والجسم، فرفعت في منازلها بمحضره، وحضر المهندسون في إعلائها

---

(1) العريف علي الغماري هو الذي ناب هذه المرة عن المهندس أحمد بن باسه ولو أننا عثرنا على ترجمة وافية لحياة علي الغماري الذي قام بإكمال بناء صومعة إشبيلية لكان في إمكاننا أن نحكم بصفة قاطعة على باني صومعة حسان. هذا ولا يبعد أن تكون هناك صلة بين هذا المهندس وبين الطبيب سعيد الغماري الاستقصا ثان ص 141.

(2) نوع من الحجر وسط بين الطوب والآجر، وقد اعتيد استعمال هذه الكلمة في تواريخ المغرب القديمة وبقاس إلى الآن من يعرفه بحجر الكذان. القرطاس الأول ص 77 ـ دوزي المجلد الثاني ص 450.

(3) يعني بعد غزوة الأرك (Alarcos) الشهيرة التي جرت في شعبان 591.
المراجع: تاريخ الأندلس ص 33 — 335 — 338.

(4) يقول ابن أبي زرع: «بلغت التفافيح من العظم ما لا يعرف قدره إلا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المنار حتى قلعت الرخامة من أسفله... قال ورفعها في أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلي، والعجيب من ابن صاحب الصلاة حيث لم يذكر شيئاً عن أبي الليث هنا، ونحن لا نعرف عن ترجمته إلا ما نقله ميلشور م. فرانتيز في كتابه (الموحدون في الشمال) من أن أبا الليث هذا هو الذي قام بترجمة كتاب والشواهد من اللاتينية إلى العربية وهو الكتاب الذي أمر ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم بترجمته إلى الإسبانية عن العربية... الناصري الاستقصا ثاني 174.

على رأيه وبلوغ وطره مَرْكبه في عمود عظيم من الحديد مُرسى [339] أصله في بنيان أعلى صومعة الصومعة أعلاها، زنة العمود مائة وأربعون[1]، ربعاً من حديد، موثقاً هناك في تلاحك[2] البُنيان بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء، يكابد من زعازع الرياح وصدمات الأمطار ما يطول التعجب منه من مقاومته وثباته، وكان عدد الذهب الذي طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى سبعة آلاف مثقالاً كباراً يعقوبية[3] عملها الصناع بين يدي أمين أمير المؤمنين وحضوره، ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان لئلا ينالها الدنس من الأيدي والغُبار، وحملت على العجل مجرورة إلى الصومعة بالتكبير عليها والتهليل حتى وصلت، ورفعت[4] بالهندسة حتى إلى أعلى صومعة الصومعة المذكورة ووضعت في العمود وحصلت فيه وحصنت بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضي الله عنه، وبمحضر ابنه ولي عهده أبي عبد الله السعيد الناصر[5] لدين الله، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضي وطلبة الحضر وأهل الوجاهة من

---

(1) يذكر صاحب القرطاس أن زنة العمود أربعون ربعاً من الحديد وأنت ترى أن ابن صاحب الصلاة يقول مائة وأربعون.

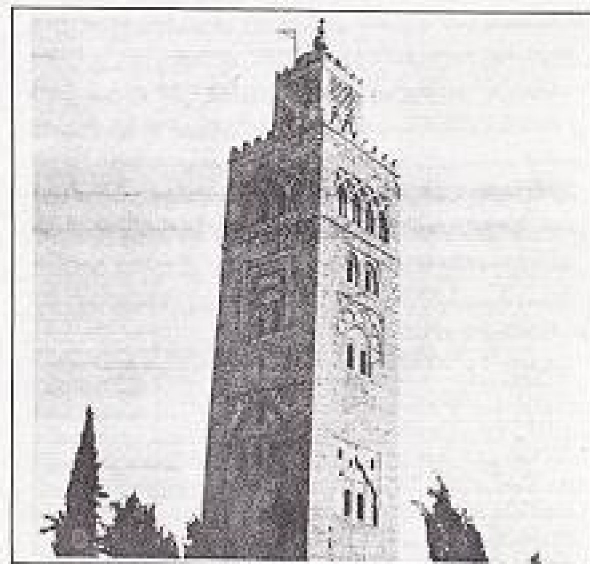
(2) تلاحك البناء: تلاؤم.

(3) نسبة فيما يظهر إلى يعقوب المنصور كما اصطلح بعدُ على نسبة الدنانير إلى يوسف. هذا وإن زنة المثقال المتعامل به كما يخبر ابن منظور هي درهم واحد وثلاثة أسباع الدرهم، وإذا عرفنا أن زنة الدرهم بالكرام تساوي 2/95 عرفنا أن وزن الذهب الذي طليت به هذه التفافيح (7000 مثقال) هو بالتقدير الحالي 29 كيلو 505 كرام. ويبقى بعد هذا أن نتساءل هل أن ابن صاحب الصلاة يقصد بالتأكيد بالمثقال المعهود الذي حدده ابن منظور أم ليعني مثقالاً من نوع آخر؟ إذا لاحظنا التأكيد بأنها كبار وبأنها يعقوبية؟ لا نجزم لكن المعروف أن وزن المثقال هو أربعة كرامات و 215... راجع التعليق رقم 5 ص 235.
ابن منظور: لسان العرب مادة مثقال. الناصري، الاستقصا ثان ص 141.
المسيحي: البلاغ الفجر ص 13 ـ 22.

(4) ورفعت، قد تقتضي أنها رفعت في الهواء بآلة لكن نص ابن أبي زرع يؤكد أنها أدخلت من الباب.

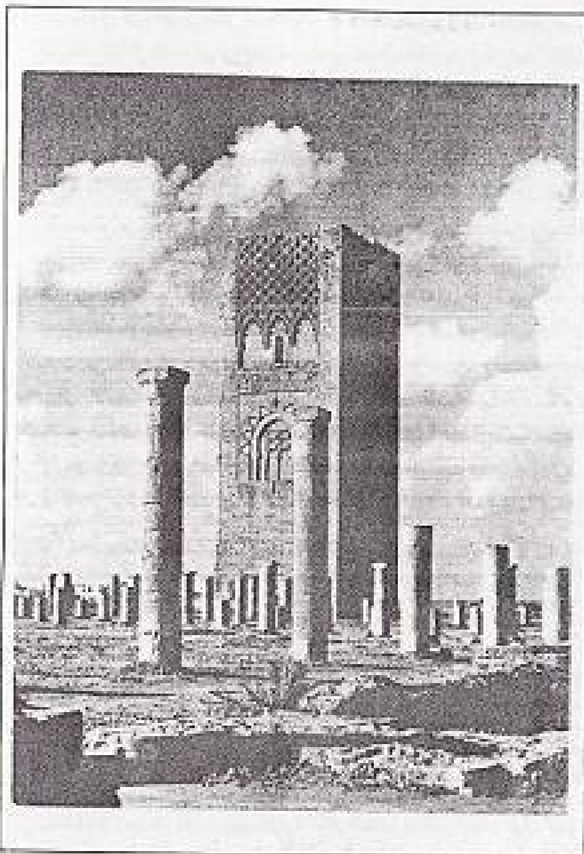
(5) هو أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور جددت له البيعة أثر وفاة والده سنة خمس وتسعين وخمسمائة وتوفي سنة عشر وستمائة.

الناس، وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر[1]، بموافقة التاسع عشر من مارس العجمي، من عام أربعة وتسعين وخمس مائة، ثم كشفت عن أغشيتها فكادت تغشي الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز [340] وشعاع نقفا، ويتداخل الخبر مع الخبر..



جامع الكُتْبية بمدينة مراكش
ثالث ثلاثة من مساجد الموحدين الكبرى؛ بنوها شكراً لله
على انتصارهم في وقعة الأرك

(1) آخر ربيع الآخر يوافق عاشر مارس 1198.



جامع حسان بالرباط

ذكر بنيان الأسواق حوالي الجامع المذكور وانتقالها من جانب جامع ابن عديْس اليه.

أمر أمير المؤمنين أبو يوسف رضي الله عنه بتوسعة رحاب للجامع حيث يصلي الناس ان احتاجوا إلى ذلك. فهدمت الديار والحوانيت والفنادق المضيقة عليه من السويقة المعروفة عند الناس باشبيلية بسويقة المسمار[1] قديماً، وابتدأ الهدم فيها يوم السبت السابع من ربيع الأول عام اثنين وتسعين وخمس مائة وأمر بتقدير قيم الدور المهدومة والرباع التي للناس فيها، فحضر المقدرون عن الأمر العالي من أهل اشبيلية للذلك، فمنهم من قدر بحسب دياناته وأماناته، ومنهم من قدر بشهواته، فأمضى الأمر تقديرهم، ودفع أمين المخزن عن الأمير القيم فيها لأصحابها على حسب ما ذكرته واتصل الهدم حتى إلى الروضات المتصلة بمسجد اليتيم[2]، فابتنيت الأسواق والحوانيت في المواضع المذكورة بأوثق البنيان، وأحسن نوع في ذلك الشأن، عجيبة غريبة في الزمان، وجعل لها أربعة أبواب كبار تحوطها من جوانبها الأربع: أكبرها الباب القبلي والجوفي تقابلان باب الجامع الجوفي [341] منه، فلما كملت هذه الأسواق بحوانيتها بالبناء نقلت اليها سوق العطارين[3] وسوق التجار من البزازين وسوق المركطيين[4] والخياطين، وتزاحم الناس باغتباطهم في المزايدة في كرائها ونما الخراج في ذلك نمواً غالياً، واغتباطاً متمادياً. وعمر

(1) ترجمها مليشور حرفياً هكذا: (placeta del clavo).
(2) (مسجد اليتيم) ذكر هذا المسجد ضمن ما يقرب من العشرين مسجداً كانت في اشبيلية.
(3) ترجم مليشور العطارين بالمعنى المتطور مع أن الجاري عند المغاربة أن العطارين سوق لبائعي الأفاوي.
(4) سوق تباع فيه الثياب المستعملة، وأصل الكلمة بالأجنبية: Mercatellum وما يزال معروفاً بمدينة فاس سوق المركطال الذي ورد أيضاً في الوثائق الوقفية بجامع القرويين وقد ورد في بعض المصادر بالنون في الآخر عوض اللام.

Provençal: journal asiatique avril — juin 1934 page 294.
Provençal: conference sur l'Espagne Musulmane caire 1951 p. 108
Le tourneau: Fès Avant le Protectorat, page 230 — 274.

الجامع بالصلوات الخمس فيه لزاماً، واستبق الناس إليه ركعاً وسجداً وقياماً، فضخم شأنه، وعظم مكانه، ومر أمير المؤمنين على هذه الأسواق عند انفتاله من صلاة إحدى الجمعات فسر بما رآه من عمارته، وبدار الناس إلى طاعة الله وطاعته، وشكر الله تعالى وحمده، واغتبط بما بناه لله تعالى وحده.

والخبر يذكر بالخبر[1]، وفي أثر هذا البناء في مصالح الجامع، واتصال المنافع، رفع إلى أمير المؤمنين الرجل الصالح المريد أبو العباس العري[2] أن جامع إشبيلية القديم جامع ابن عُدَبْس قد اختل واعتل من داخله وخارجه، وان

وثيقة التأسيس لجامع عمر بن عدبس:

يرحم الله عبد الرحمان بن الحكم الأمير العدل المهتدي . الأمر ببنيان هذا المسجد على يد عمر بن عدبس قاضي إشبيلية في سنة أربع عشرة ومائتين، وكتب عبد البر بن مرون.

جوائز المسقف منه قد عفنت أطرافها الثابتة على بلاطاته في الحيطان وان حيطانه من جهة الغرب قد مالت ويخاف على الجامع الهدم، فأشفق لذلك رضي الله عنه، وأمر البنائين والفعلة من أهل الصناع في تلافيه، فحضر العرفاء له وأدخلوا تحت أطراف الجوائز ركائز وكموبة من الخشب، وطبقوا عليها بألواح الخشب حتى قويت أصول الجوائز المذكورة، وبنوا له أبراجاً [342] من الحجر العادي من جهة حائطه الغربي، وقاية له من الميل المرئي فيه من الاندفاع، ونكون له أنفع انتفاع، سطحوا صحنه بالآجر المحكوك الحسن الصنعة، وتابعوا أقواسه بالجبس والجيار، وكشفوا عن سقفه وبنوا ما وهى فيها حتى ظهر للعيان الصلاح في أحواله، وجميع أعماله، وكان هذا النظر الفاضل من أمير المؤمنين رضي الله عنه في شهر جمادى الأولى من عام اثنين وتسعين وخمس مائة.

(1) يشير بها ابن صاحب الصلاة ويعتذر كلما حدث مناسبة للاستطراد.
(2) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الملك بن المطرف التميمي من أهالي المرية، توفي سنة في صفر سنة 627.
المعجب ص 291. ابن الابار التكملة (نشر ابن شنب) رقم 290 ص 296.
راجع التعليق رقم 2 ص 384.

رجع الخبر :

خبر غزوة امير المؤمنين بن أمير المؤمنين الغزوة الأولى[1] من غزواته بجزيرة الأندلس الى مدينة ويذة[2] في السنة المذكورة سنة سبع وستين وخمس مائة وفتحه في مسيره المعقل الاشب حصن بلج القشيري[3] وحصن الكرس[4] وتدويخه نظر اقليس[5] وسرته[6]، ومنازلته ويذة المذكورة على ترتيب المراحل والحلول في المنازل.

خرج[7] سيدنا أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه من حضرته

(1) تحدث عن هذه الحملة كثير من المؤرخين المسلمين كالمراكشي في المعجب، وابن عذاري في البيان، وابن خلدون في العبر والناصري نقلاً عنهما في الاستقصا، ولكن في شيء من الإيجاز، وقد تعرضت لها كذلك المصادر المسيحية التي كان منها كتاب الحوليات الطليطلية فيما نقله عنها كوديرا في كتابه «انحلال دولة المرابطين» ص 323، والمدونة التاريخية الأولى:
(Primera Cronica General) وكتاب لويس دي مارمول (Luis de Marmol) وكتاب ويسي ميراندا (Huici miranda) وقبله ميلشور أنطونيا، وإن الروايات العربية وإن كانت تختلف أحياناً عن الروايات المسيحية، ولكنها لا تتعارض معها كل التعارض، بيد أن ابن صاحب الصلاة له القدح المعلى في وصف هذه الرقعة سيما وقد كان شاهد عيان.
المعجب نشر محمد الفاسي ص 152 ـ 153 ـ العبر: المجلد السادس ص 500 ـ الاستقصا ثاني 134 ـ 135.

Melshor Antona: campanos de los Almohades en Espana (Religion y Cultura p. 1-60
Ambrosio Huici Miranda, Historia politica del imperio AL. — Mohdade 1957 - I. p. 255 - 9.

(2) (Huete) وهو حصن قديم، سماه الرومان Opta ثم استولوا عليه الباساس Julia - وقد حذف العرب صدر الكلمة، ويوجد في مقاطعة كوينكة البرتغالية، وكان أول استيلاء المسيحيين عليه ـ بعد الفتح الإسلامي ـ في نحو سنة 472 (1080 م) عهد الفونسو السادس الذي فتحه قهراً ولم يكن في جملة القلاع التي يقول بعض المؤرخين إنها منحت للملك المسيحي مهراً عن الأميرة المسلمة زايدة، هذا واعتماداً ويذة منحها الملك اسم مدينة الفونس، وقد خلط بعض المؤرخين بين ويذة وابذة (Ubeda) ـ الحلل السندسية أول ص 404.

- Provençal: la mora Zaida Hesp TXVIII 1934 page 1-8.

اشبيلية قبل يوم الاثنين الحادي عشر من شوال، الموافق للخامس عشر[1] مايه العجمي من السنة المؤرخة، وهي [343] سنة سبع وستين وخمس مائة. ووصل إلى قرطبة ودخلها يوم الأحد السابع عشر من شوال المذكور أو تنزل بمحلاته المؤيدة في جبل فحص السرادق[2] المطل على أبراج أرض الزاهرة[3]، وبات في ذلك الموضع ليلة الاثنين، ودخل في اليوم الثاني من وصوله إلى قصر قرطبة العتيق لما أمله من ترتيب أشغال الغزوة المباكرة وأقام فيها إلى ظهر يوم الاثنين الخامس والعشرون من شوال المذكور، وخرج في ذلك الحين مؤملاً جهاده، وقاصداً لله مراده، فبات على أميال من قرطبة،

مراجع التعليق رقم 3 ص 168 ورقم 1 ص 251 ـ محمد الفاسي ـ الأعلام الجغرافية الأندلسية ـ مجلة البينة عدد يوليه 1962 ص 19.
(3) يذكر دوزي في كتابه تاريخ المسلمين في إسبانيا إنه الحصن الذي يسمى الآن Velez Rubio بين بسطة ولورقة. ولكن ميلشور يعتقد أنه الحصن الذي يحمل اليوم اسم (Vilches) من أعمال جيان فهو الذي كان ينسب إلى بلج بن بشر القشيري.
أنظر ميلشور ص 13 التعليق رقم 4.
(4) الكرس (Alcaraz).
(5) أقليس (Uclés).
(6) كذا ضبطها الناسخ، وهي كذلك في نزهة المشتاق، وقد أثبت الأمير شكيب ارسلان كترجمة لها: (Zarzuela) بينما وجدتها في كتاب Huici : (Zorita).
الإدريسي ص 180 ـ الحلل السندسية أول 77 Huici ص 257 (تعليق) رقم 1.
(7) كان ذلك استجابة لاقتراح أصحاب هلال بن مردنيش لما وردوا مستسلمين. راجع ص 329 يعني من النص.

(1) الموافق الحادي عشر من شوال السادس من شهر يونيه، لا الخامس عشر من مايه، ولم يفت الأستاذ Huici أن يصلح ابن صاحب الصلاة ـ Huici p. 256.
(2) فحص السرادق: سهل يقع في شرق قرطبة، وفي شمال نهر الوادي الكبير وكان مركز تجمع الجيوش الإسلامية في عهد الخلافة الأموية عند توجه حملاتهم إلى الشمال:
Provençal: l'Espagne musulmane au xem siècle p. 141 — 225 — 234.
(3) هي المدينة المتصلة بقرطبة والتي بناها المنصور بن أبي عامر حاجب هشام بن الحكم.
الروض المعطار ص 80 ـ 81 ـ 82 ـ دائرة المعارف الإسلامية المجلد 3 ص 95.
Provençal: l'Espagne musulmane 230-231 ـ الحلل السندسية أول ص 300.

وسلك الطريق إلى القصير[1]، إلى أندوجر[2] حتى وصل إلى مقربة من بياسة[3]، فتلقاه أبو اسحاق ابراهيم بن همشك وهو متصرف من حصار حصن بلج[4] العظيم الامتناع والشأن، الشامخ البنيان، وقد كان ابن مردنيش أعطاه للنصارى أهلكهم الله وكان السبب في إعطائه ابن مردنيش للنصارى الفتنة الواقعة بين ابن همشك وبين ابن مردنيش بسبب توحيد ابن همشك وطاعته للموحدين أيدهم الله، فأراد ابن مردنيش التضييق على ابن همشك بذلك، وعندما اجتمع ابن همشك بأمير المؤمنين حرَّضه على المحظور[5] على هذا الحصن وعلى حصاره، وأن الرأي الرحيل إليه في بقية اليوم الذي تلقاه فيه، فأمر سيدنا بالرحيل إليه في الحين. ووصل إليه عشية يوم الجمعة الخامس من خروجه من قرطبة، فعاين الناس من [344] منعة الحصن أكثر مما وصف، ونزل أمير المؤمنين بمحلاته على مقربة منه، وعاين الكفرة الذين كانوا فيه من كثرة أعداد المسلمين وعددهم ما هالهم، وقطع آمالهم، فلما كان صبيحة يوم السبت الموفي ثلاثين من شوال المذكور استعد الناس للقتال، ونظروا كيف يكون التوصُّل إلى ذلك المعقل بالطعن والنزال، فإذا بالأعداد الكفرة قد استدعوا أبا إسحاق ابراهيم بن همشك، ورغبوا منه أن يأخذ لهم الأمان من سيدنا في نفوسهم وما عندهم ويتركوا الحصن المذكور فوصل ابراهيم برغبتهم، وتوسط في طلبتهم، فرأى أمير المؤمنين رضي الله عنه ذلك رأياً

---

(1) القصير (Alcocer) يقع في الشمال الشرقي لاشبيلية، Huici page 256.

(2) راجع التعليق رقم 2 ص 397.

(3) بياسة (Baeza)، والظاهر أن الموحدين نزلوها، وإن كان مطخور لم يجزم بذلك، فإن ابن الخطيب في أعمال الأعلام ذكر أنها دخلت في طاعة ابن مردنيش سنة 544 ومعلوم أن هذا قد انتهى أمره، هذا وقد ذكر في الإحاطة أنه في سنة 553 كان في بياسة عالم قرشاطي ويدعى عبد الله بن سهل كان يحضر دروسه جمع كبير من المسلمين والنصارى واليهود، وهناك يوسف البياسي الأندلسي (ت 653) الذي جمع بتونس سنة 646 كتاب الحماسة التونسية. أعمال الإعلام ص 261 ـ الإحاطة، مخطوط الاسكوريال رقم 1673 ورقة 232 عبد الكريم بن الحسن. الحماسة المغربية: ملحق جريدة المغرب للثقافة المغربية، 10 ـ 151 أحمد القاضي، الأعلام الجغرافية الأندلسية ص 24.

(4) راجع التعليق رقم 3 ص 399.

(5) كذا في الأصل والصواب حصور.

وفتحاً، وصنعاً جميلاً للمسلمين في أول حركتهم ونجحاً، فنزلوا عن الحصن المذكور ضحوة يوم السبت المؤرخ، فلما كان بعد صلاة الظهر والفراغ من أداء فرضها ركب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وطلع إلى الحصن المذكور وقد طهَّره الله من نجس الكفر، فأعجبه ما عاين فيه من المنعة الغريبة، وأمر في الحين بالنظر إليه في رجال من الموحدين يثقفونه ويسكونه، وصرف أمره إلى أبي إسحاق بن همشك، وأقام يوم الأحد غرة ذي القعدة على معنى النظر للحصن المذكور. فلما كان يوم الاثنين من ذي القعدة رحل عنه قاصداً حصن الكرس[1] ليطهره أيضاً من [345] الكفر، إذ كان ابن مردنيش قد أعطاه للنصارى على حسب فعله بحصن بلج المذكور، فوصل إلى حصن الكرس[1] ضحوة يوم الجمعة السادس من ذي القعدة المذكور ونزل بعساكره المؤيدة قريباً منه، فعاين الناسُ منه حصناً مرتفعاً على بطاح كثير المنافع، كثير المياه لسَقْي المزارع، ينعطف حوله الوادي المسمى بوادي الأحمر[2]، فلما كان عشية اليوم المذكور رغب الكفار الذين كانوا فيه أن ينزلوا عنه على حَسب نزول اخوانهم ببلج المتقدم الذكر، فأجيبوا إلى ذلك ونزلوا منه عند صلاة المغرب من يوم الجمعة المؤرخ، وأمر أبو إسحاق بن همشك بالنظر في الحصن المذكور على حسب فعله فيما تقدم. فلما كان يوم السبت السابع من ذي القعدة رحل سيدنا أمير المؤمنين وقد أظهره الله وأظفره بالحصنين المذكورين، وسلك الجادة إلى الموضع المعروف ببلاط الصوف[3] المتَّصل ببطاح مدينة جنجالة[4] في أول اللج[5] الفاصل بين بلاد المسلمين الآن[6]،

---

(1) راجع التعليق رقم 4 ص 399.

(2) لم نجد تعريفاً لهذا الوادي فيما بين أيدينا من مصادر، وكلُّ ما وقفت عليه أن هناك وادياً يدعى: Huici T. II page 455. Guadalbimar

(3) بلاط الصوف (Balazote) ويقع غربي شاطبة.

(4) جنجالة (Chinchilla) وتقع شمال الكرس تشتهر بصنع الزرابي.
الروض المعطار ص 63 ـ 257-70 — Huici page 256.
القاضي: الأعلام الجغرافية الأندلسية 26.

(5) اللج قريب من جنجالة وفيه كان استشهد ابن هود سنة 540. أنظر الحلة السيراء ص 226.

(6) تحدث ابن صاحب الصلاة عن فتح حصن بلج وحصن الكرس ولكنه لم يعط إشارات كتابية *

وبين بلاد النصارى أهلكهم الله، حتى وصل الموضع المعروف بالقنذر[1] يوم السبت المذكور. وهذا الموضع هو رأس وادي آنة[2] الجاري إلى بطليوس وإلى ميرتلة[3] ونظر باجة، ونزل في بلاط صوف يوم الأحد وبات فيه وأقام فيه إلى الظهر من يوم الاثنين، وتزود الناس الماء من ذلك الموضع إلى مرج [346] البسيط المذكور، وأقام يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة فيه ووصل وادي جزيرة شوقر[4]، فشرب الناس منه ودوابهم ومواشيهم وارتووا منه وأراحوا فيه يوم الأربعاء بعده، ولما كان يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة رحل ونزل على وادي شُوقر بسبب الماء المذكور لشرب العساكر، وفي هذا المنزل بالوادي المذكور أمر أخاه السيد الأسنى أبا سعيد بن سيدنا الخليفة رضي الله عنه بالتقدم بعسكر ضخم من الموحدين ومن العرب والأجناد والرجالة والرماة، في نحو اثني عشر ألف فارس، ليغيروا على أول بلاد النصارى أهلكهم الله بجهة (ويذة) المذكورة، فتحرّك على ما نفذ له الأمر العزيز أدامه الله، وأخذ السير بقية يومه وأسرى ليلة الجمعة، وفي صحبته أبو العلاء بن عزون ناصح الدولة المهدية بجملته، وأبو اسحاق بن همشك بجملته أيضاً، فأصبح الله لهم بالصباح وقد أطلوا على أول عمائر بلاد النصارى دمّرهم الله بموضع بمرج خمل[5]، وفيه حصن ساكن بالنّصارى فلتحوه في حين إطلالهم عليه،

* للأمكنة الباقية: أقليس وسرتة. . .
(1) القنذر Alpendor ويقع قرب بلاط صوف.
(2) وادي آنة (Guadiana) وهو أحد الأنهر الأربعة التي تصب في المحيط، ينبع من قلعة رباح ويصب في المحيط بقسطلة فراح، ويفيد ابن صاحب الصلاة هنا أن القنذر هو رأس وادي آنة. راجع التعليق رقم 3 ص 302.
(3) ميرتلة (Mértola) قال عنها ياقوت: إنها أمنع حصون الغرب وأمنعها من الأبنية القديمة على نهر آنة، وإليها ينسب الأديب الشاعر محمد بن منتلة المتوفى سنة 533. المعجم.
(4) راجع التعليق رقم 1 ص 318.
(5) (مرج خمل) وضع عليه رسم علامة استفهام ويظهر لي أن خمل تحت فرع أي مرج كثير الخمائل أي ذي شجر ملتف، على حد قول شوقي في دمشق:
خميلة الله وشّتها يداه لكم ... فهل لنا فيم منكم وجناة

ووصولهم إليه، وغزى جميع من كان فيه من الرجال وسبى نساؤهم وأبناؤهم، وهدم الحصن وأضحى قفراً يباباً، واتّصل سير السيد والموحدين أنجدهم الله يوم الجمعة المذكور وأعلم حضرة أمير المؤمنين بما اتفق [347] من الإسراء والفتح. فلما كان يوم السبت وصل إلى ويذة مدينة الكفرة فتحها الله، فعبى عسكره تعبئة خامرت نفوس الكفار رعباً، فخرج الكفار إليهم بشرذمتهم وخيلهم ورجلهم، فكانت بين الموحدين وبينهم حرب عند عقر دارهم ومحل قرارهم أذلهم الله فيه، إلا أن بعض العرب ظهر منهم رواح وميل عند التصرف في الحرب فنفذ الأمر عليهم ذلك، وانفصلت الحرب عن ظهور الإسلام، وبات العسكر والسيد في موضع نزولهم بالجبل المطل على مدينة ويذة فتحها الله. واتصل سير سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين حتى وصلها يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة.

منازلة ويذة فتحها الله

ولما وصل[1] على مقربة منها أمر الموحدين والعرب وجميع القبائل بالتأهب للحرب، والترتب لهيئة الطعن والضرب، فانحاز كل قبيل إلى قبيله، وتميز الناس على رتبهم وتقدمهم، وحضر الجميع، فأمروا بالمشي والصعود إلى الجبل المطل عليها، حيث نزل السيد أبو سعيد بعسكره، ليكون جمع العساكر واحداً، والأخذ للكفار قاصداً، فطلع الجميع على الترتيب المذكور بالرماح الطوال وغلائل الدروع والبيض [348] والدّرق والرايات والعلامات[2] على أتم السلام وأعم الصلاح. وسيدنا أمير المؤمنين في ساقتهم في كتيبته المنصورة معه أبناء الجماعة، وأبناء أهل خمسين وأهل الدار[3]. والعبيد

(1) يعني السيد أبا سعيد.
(2) هكذا جميع العلم (العلام) في لغة المغاربة.
Colin Notes Espards T. 10. 1930. page 106.
(3) نقل ابن القطان في نظم الجمان عن ابن صاحب الصلاة: «وكان له أي للمهدي رضي الله عنه رجال يقدمونه في داره يسمون أهل الدار من أصحابه يختصون به في ليله ونهاره وهم المعروفون»

أنجدهم الله وأعزهم، وخلفه السيد الأعلى أبو حفص أخوه وسائر السادات الأخوة، والرايات تتبعهم على عاداتهم، ومن الطبول مائة طبل تضرب، وارتشحوا بجمعهم العظيم، وفرشهم العميم، في الجبل المذكور وكبّر المسلمون على المدينة بأصواتهم، رافعين أعلى ما يقدرون عليه بالتوحيد والتكبير والطبول مع ذلك تضرب، واتصل الحرب في ذلك الحين بين الكفرة والمسلمين، فغلبوا على ما كان لصق سورهم، وداخل أرباضهم ودورهم، وحرقت وهدمت، وكان هذا التبريز حافلاً، ومنظر الكفار هائلاً، ونزل الموحدون أيدهم الله بأخبيتهم داخل جناتهم، وكرومهم المتصلة بمدينتهم، ومنعوا في الحين شرب الماء من واديهم، وقطعت عنهم حياتهم في ناديهم، ونزل سيدنا أمير المؤمنين في رأس الجبل المذكور وضربت له قبته الحمراء[1] وجميع العساكر حوله، ولما كان عشية اليوم يوم الثلاثاء السابع عشر المذكور جمع سيدنا أشياخ الموحدين أعزهم الله، وتذاكر معهم كيف يكون قتالهم في مدينتهم، فركب السيد الأعلى [349] أبو حفص ومعه أخوته وبنو الجماعة، وأشياخ الموحدين، وأشياخ أهل الأندلس أبو العلا بن عزون وأبو اسحق بن همشك، وتقدمهم السيد الأعلى أبو حفص في عسكر ضخم، وطاف بالمدينة من جميع جوانبها الأربع، وقسم الجهات منها على العساكر[2]، ومع كل عسكر سيد من الإخوة، فأمر السيد أبو سعيد أن يكون في جهة مع قبيل

= يأمل القارئ أخصهم به عبد الواحد بن عمر، وأبو محمد وسار بن محمد، وأبو محمد عبد العزيز وأبو موسى عيسى وعبد الكريم القنوه.
مخطوط يستعد لنشره محمود علي مكي. راجع التعليق رقم 3 ص 96.

(1) حرص الموحدون على استعمال القبة الحمراء في سائر المناسبات العظيمة ونرى أنهم لم يتركوها أيضاً في غزوة شنترين. ولا شك أن منهم تقليد لفعل الرسول عليه السلام فقد ورد أنه نصب قبة لاستقبال وفد ثقيف في السنة التاسعة من الهجرة وتشير بعض المصادر إلى أن القبة كانت من أدم أحمر، هذا ولا يخفى ما في اللون الأحمر من البهجة ومن الرمز من السلطة الدنيوية.
البيذق 102 ـ ابن عذاري ص 127 ـ السيرة الحلبية جزء ثالث ص 338 ـ 339. ابن الحسني عبد الكريم: التعريف بقبة وفد ثقيف (مخطوط).

(2) يتألف الجند عند الموحدين من مرتزقة ويقيمون بمراكش ومصموع وهم يدعون عند النفير العام. المعجب ص 341.

هنتانة، والسيد أبو زكرياء صاحب بجاية مع قبيل كومية، والسيد أبو علي الحسن مع غمارة، والسيد أبو اسحاق مع قبيل جدميوه، والسيد أبو ابراهيم مع قبيل جنفيسة، وكذلك أشياخ الموحدين أعزهم الله كل شيخ مع قبيلة في موضعه المرسوم له أن يقاتل منه ويدفع، والعرب بجميعهم في جانب متصل بالمدينة المذكورة. وكمل هذا التقسيم في تلك العشية على ما ذكرته. وكان النّصارى دمّرهم الله قد صنعوا حفيراً خارج ربض مدينتهم استعجلوا حفره في يومين، وصنعوا عليه زرباً من الخشب أضافوا إليه أبواب ديارهم وبيوتهم، وظنّوا بسوء تدبيرهم أن ذلك الحفير والزرب يمنعهم من أمر الله تعالى، فكان ذلك الحفير لهم قبراً، واستوصلوا فيه قتلاً وعقراً. وبات أمير المؤمنين ليلة الأربعاء الثاني عشر من ذي القعدة المذكور على النية الموصوفة، الخالصة بالجهاد لأعداء الله تعالى وبات الناس كذلك، فلما أصبح الله بصباح يوم الأربعاء المذكور وقضيت الفريضة وقرئ الحزب[1] [350] على حسب العادة من السُّنّة أخذ الناس في الاستعداد، والتأهب للجهاد، وركب سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، واستوى على صهوة فرسه الميمون في جحفل جرّار، كتائبه كالجبال إلا أنها سائرة! قد ملأ الملا خَيْلاً ورجلا، وطبّق الفضاء وعْراً وسهْلاً، تخفق راياته أسنته، وترعد طبوله، وتتوقّد نصُوله، وتتجاوب بالصّهيل خيوله، وتضم أقطاره من مساعير الرجال، ومشاهير الأبطال، كل نزّال، وحربيّ مِرْقال، قد لبسوا على ما تقدم لهم السوابغ والأبدان، وتقلدوا الصفائح والقضبان، وتنكبوا القسي والشُّرّاق، ومعه أخوه السيد الأعلى أبو حفص وأشياخ الموحدين، فاستدعى الفقيه الحافظ أبا بكر بن الجد، والفقيه أبا محمد المالقي والقاضي أبا موسى عيسى بن عمران والقاضي أبا محمد بن الصفار[2] والقاضي أبا الوليد بن رشد[3]، ومشى في ترتيب جحفله الجرار

(1) أنظر التعليق رقم 1 ص 104.
(2) ترجم ابن الأبار لأبي محمد عبد الله بن مغيث بن يونس بن محمد بن مغيث الأنصاري القرطبي المعروف بابن الصفار (338 — 576) وقال إنه أخذ عن جده وأبيه وعمه محمد وآخرين، وقد نقل النباهي ترجمته في نيل الابتهاج من الأبار. راجع ص 61.
(3) محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي الحفيد الطبيب الفقيه الفيلسوف (Averroes) غني بكلام ـ

حتى وصل إلى مقربة من الحفير الذي صنع عليه الزرب المذكور، ونزل على ربوة من الأرض مرتفعة، وضربت له فيها قبة خباء جلس فيها مع من ذكرته، ووصلت العساكر على رتبها، وعلى ما أمروا به من التزام كل عسكر في موضعه، وقد قسمت السهام على الرّماة، وأحضرت بين يديه جميع الآلات. ووصل من أبرّ بين الأخوة والأشياخ للمبايعة فبايع [351] الجميع منهم، وأخذوا يد أمير المؤمنين تقبيلاً وتسليماً، وتيمناً وتعظيماً، وثبوتاً على الجهاد نصيحة وعزيمة، ودعا لهم أمير المؤمنين وركبوا خيلهم، وقدموا رجلهم أمامهم، والتحم القتال والنزال، وقد أمرهم أمير المؤمنين أن لا يدفعوا على النصارى إلا عند ضرب الطبول وخفقها، وقد صفف منها مائة طبل، فعندما ضربت الطبول ودفعت العساكر صار النهار ليلاً، وحل بالكافرين ويلاً، انهزم في الحين جميعهم، وساء بهم صنيعهم. وقتلوا حتى إلى لصق سورهم، وفي داخل بيوتهم ودورهم، وكانت مدينتهم دون أبواب[1] ولا من يحميها، ويحتوا، ولم يبق على أسوارهم منهم كافر، واشتغلوا عن حمايتها بالتحصن في تحصينهم، ولم يبق من سورهم موضع فيه قتال إلا الركن من جهة الغرب[2]، قاتل فيه أبو العلاء بن عزون حتى عجز، ومشى إلى أمير المؤمنين وطلب منه العون، فلم يجاوبه لاشتغاله مع الطلبة[3] في المذاكرة. وهدمت بيعهم وأخذ

- أرسطو، وترجمه إلى العربية وزاد عليه زيادات كثيرة، وصنف نحو الخمسين كتاباً، هذا وإن معاصره في هذه الحملة جديد لم يكن معروفاً من قبل لدى سائر المؤرخين، وقد توفي ابن رشد هذا في ربيع الأول سنة 595.
المعجب ص 242 ـ 243 ـ التكملة كوديرا رقم 853 ـ Melchor: campanas p. 20.

(1) على نحو ما وصفه لصاحب ابن مردنيش. راجع صفحة 250.

(2) لم نستطع أن نعرف هل أن هذه الجهة كانت تحت مسؤولية هنتاتة، أو كومية أو جنفيسة انظر ص 349.

(3) يعطي بعض المستشرقين من الذين اتهموا ابن صاحب الصلاة بالتملق للموحدين والتزلف لهم، فإنك ترى كيف ينتقد على الخليفة موقفه من عدم الاستجابة لإشارة القائد ابن عزون، هذا ويعلوم أن المجلس الذي أخذ بلب الخليفة كان يتألف من شخصيات فذة، علاوة على أخيه أبي حفص يوجد أبو بكر بن الجد، وعبد الله المالقي ووجه السلام عيسى بن عمران والقاضي ابن الصقار والفيلسوف ابن رشد.

فيها تسعة نواقيس[1] فقاتل عليها الكفرة حتى قتلوا عند كنائسهم، وأخلوا أسوارهم من كل جهة، وظهر الفتح ظهوراً غريباً بعدد المؤمنين، والاستيلاء في ذلك اليوم على الكافرين، لكن عند ذلك كفّ الله أيدي المسلمين عن الغلبة على المدينة، ووصلوا إلى السور ووقفوا عنده [352] وقوف العاجز المقصر قد توركوا للراحة من الفشل والكسل، وبما فهموا أن المراد تعجيز الحال في ذلك النضال، وأما الرماة فرأيت الشيخ المقدم عليهم محمد بن تيفورت[2] يمنعهم من رمي النّصارى بالسهام فلم تقع الآلات ولا الرماح ولا الدروع السابغات ولا البيضات. حدثني أبو العلاء بن عزون قال لي: لما قاتلت النصارى في البرج الذي كان عمدة امتناعهم فيه بمدينة ويذة وأشرفتُ على الفتح والغلبة لهم، ولم أر أحداً من أهل الأجناد الأنجاد، ولا من الشيوخ والقواد من يعينني، مشيت بنفسي إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وهو جالس مع أخيه السيد الأعلى أبي حفص ومع طلبة الحضر يتكلم معهم في

---

(1) من حقنا أن نتساءل عن مصير هذه النواقيس التسعة التي حرص الخليفة أشد الحرص ـ كما سنرى ص 358 على حملها إلى حضرته ما حظه؟
إن جامع القرويين بمدينة فاس ظل كعبة لكل الذين حكموا في المغرب، ولذلك فقد كانوا يبادرون في تأثيثها بكل المتاع النفائس، وكانت فيها تحفة فيها إلى الآن، علاوة على الثريا الكبرى الموحدية ـ ستة نواقيس غنمها المسلمون في غزواتهم الأولى بالأندلس، وفيها ناقوس كبير يحمل إلى الآن جملة بالأحرف اللاتينية مؤداها: «على البروج العطية أن ترعى الشكر لله الذي أنقذها من الضلال» والمشكل كتب التاريخ أنه كان بها عشرة... وجموعها استعمال ـ بعد الصنعة ـ إلى ثريات، لكنها مع هذا واضحة المعالم، فهل هذه النواقيس الموجودة في القرويين وردت كلها ـ أو بعضها على الأقل ـ من حصن ويذة؟ أن بعض المؤرخين يذكرون أن بعضها أتى بجبل طارق حين افتتحه عبد الواحد الربيبي. لكنا ـ ونحن لم نعثر فيها على الجمل المنقوشة التي تشعر أنها ترجع على تقادمها ـ نرجح أن تكون هذه النواقيس وبقية حلي بيا الموحدون جامع القرويين في نفس التاريخ الذي صنعوا فيه الثريا الكبرى بها وهو سنة ستمائة.
ابن القاضي، جذوة الاقتباس 42 ـ 43 ـ 48 ـ عبد الهادي التازي: الحروف المنقوشة بجامع القرويين (مجلة كلية الآداب المجلد 18 سنة 1968 ـ الإسكندرية) ص 66 ـ 68 ـ 69 ـ نفس المؤلف: أحد عشر قرناً في جامعة القرويين طبعة مدينة المحمدية 1960 ص 18 ـ 19 ـ 20.

(2) لم نقف على تعريف ما بقائد الرماة هذا، ولم يرد ذكره أكثر من هذه المرة في كتاب ابن صاحب الصلاة.

المسائل، فقلت يا سيدنا أمير المؤمنين دعني عون فقد أشرفت على الفتح!، وإنما كنت طامعاً أن يركب فيراه الناس وجميع العساكر، فيدخلون المدينة في حينهم فلم يجاوبني، واشتغل عني بما كان فيه! ولا جاوبني السيد الأعلى أبو حفص فعلمت أن النية في الجهاد قد فسدت[1] وإن الغزوة قد تنكدت! ورجعت يائساً من النصر، في غاية الهم والفكر! ودام القتال على انحلال، وضعف وملال، إلى بعد ثلاث الظهر وارتفع، وما نفع الجيش الكثير عديده ولا نجع، إذ كان في نحو مائة ألف بين فارس وراجل، وانصرف أمير المؤمنين من أمير المؤمنين وانصرف [353] الناس إلى أخبيتهم وقد فهم الحال من فهمها، وسر بالتعجيز فيها من دبرها وعملها، وأمر أمير المؤمنين ليلة الخميس التاسع عشر من ذي القعدة من تحرس[2] الكفرة عن شرب الماء، ويسهرهم لئلا يخرجوا في تلك الأرجاء، فلما أصبح الله بصباح يوم الخميس المذكور، وقضيت صلاة الصبح دعي أشياخ الموحدين ومزاورهم[3] وأشياخ القواد من أهل الأندلس وتذوكر معهم فيما يصنعون، فكان رأي أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أن يخرج ربع الناس من جميع العساكر والقبائل لحمل الزرع وسوقه واختزان العلف والقوت لحصار هذه المدينة. فخرج الناس لذلك ورتبت العساكر على جهات المدينة لحصارهم ومنعهم شرب الماء من الوادي، وفيه أمر أمير المؤمنين بعمل آلات من الخشب من سلالم[4] وأبراج لقتال الكفرة في جوانب مدينتهم. ووصل فيه علج من النصارى راغباً في الأمان عن اخوته، وينزلون عن المدينة ويملكونها للمسلمين، فصرف بغير جواب ولم يلتفت، ثم انصرف في عشية اليوم المذكور متكرراً بالرغبة في

(1) نؤكد ما قلناه سلفاً عن صراحة ابن صاحب الصلاة وانه لا يتردد في النقد متى ما رأى ذلك ضرورياً راجع التعليق رقم 2 ص 406.

(2) كذا في الأصل والأصوب يحرس كما قال بعد (ويسهرهم).

(3) جمع مزوار وهو لفظ بربري ومعناه رئيس فرقة وقد كان المهدي جعل على كل عشرة من أصحابه نقيباً DOZY: sup TIP. 613 وبروفنصال، أخبار المهدي تعليق ص 244 المقال ص 89.

(4) جمع لسلم ويقال للمفرد في المغرب سلوم Colin Wines de dialectologie arabe Hespes Fas I — 1930 Page 107.

الأمان فلم يجاوب[1] وبات الموحدون تلك الليلة على حذر وترتيب في منع الكفرة من الماء فلما كان في صبيحة يوم الجمعة الموفي عشرين من ذي القعدة المؤرخ هبت ريح عاصف اكفأت القدور وقطعت الأخبية وكدرت النفوس بأذايتها والصدور، [354] وصنع لأمير المؤمنين حول قبته من التمار زرب[2] يقيه من إذاية الريح، وصنع الناس كذلك حول أخبيتهم، وبات الناس في المحلة ليلة السبت الحادي والعشرين على حالهم ورخص السعر في تلك الليلة: الشعير مدان[3] ونصف بدرهم، والقمح خمسة أمداد بدرهم، وانصرف الموحدون بزاد وعلف. وفي يوم السبت المذكور سيق ستة أعلاج من النصارى وأحضروا بين يدي أمير المؤمنين واستنطقهم عن أخبار طاغيتهم لعنه الله فلم يخبروا بشيء فتزى منهم خمسة وأسلم واحد!

وصول الشيخ المرحوم أبي حفص الى المحلة المذكورة من مرسية بعسكر أهل الشرق، وفي صحبته ابو الحجاج يوسف بن مردنيش مع أهل اشبيلية وأهل الثغر.

ولما قرب الشيخ المرحوم بمن معه خرج إليه أمير المؤمنين وأخوه السيد الأعلى أبو حفص وجميع السادات الإخوة وأشياخ الموحدين أعزهم الله والأشياخ أجناد أهل الأندلس والطلبة أجمع في جمع كبير والتقوا به في الفحص المتصل بمدينة وبذة في أوفر الهيئات، فلما قربوا نزل أمير المؤمنين عن فرسه واخوته كذلك، فلما رآهم الشيخ أبو [355] حفص قد نزلوا نزل إليهم، والتقوا لقاء مباركاً، ودام وقوفهم طويلاً في سلام وكلام، ثم دعا لهم أمير المؤمنين على حسب العادة وركب، وركبوا وانصرفوا إلى مضرب

(1) يظهر من النص أن الموحدين كانوا يعتمدون على نجاح الحصار لاقتحام المدينة عنوة لكن العاصفة أفسدت برنامجهم.

(2) يعني فيما يظهر أعدالاً وأكياساً من التمر نصبت حاجزاً به وبين إذاية الريح . . .

(3) راجع التعليق رقم 10 ص 352.

المحلة، وأمر أبو الحجاج بن مردنيش بالنزول بمحلة أهل الشرق بالجبل المجاور لوبذة، والنصارى أهلكهم الله ينظرون من أعلى مدينتهم فزاد روعهم وجزعهم، وزاد الاشتداد عليهم في الحصار. وضاقت حالهم وطلبوا الأمان فلم يجاوبوا! ولما كان المساء من يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي القعدة هبت ريح عاصف أشد ممّا هبت قبل ذلك، مزقت أيضاً الأخبية أكثر من تمزيقها قبل، ثم جاءت بمطر وابل ورعد قاصف وبرق خاطف، وذلك في شهر يونيه[1] العجمي من السنة المؤرخة في أشد ما يكون من الحر، فكان للنصارى أهلكهم الله سقي «وإملاء» شربوا منه وشربت مواشيهم[2]. فلما كان صبيحة يوم الاثنين عزم أمير المؤمنين على قتالهم في سورهم، وركب وركبت العساكر وكل من كان في المحلة، وترتبت القبائل والرجال. والرماة للقتال والنزال، فبدأ المطر والرعد والبرق وجادت السماء بماء كأفواه القرب. ففزع الناس وتعجبوا، ورغبوا في التوبة من الله تعالى![3] وانقلبوا. ولم يبق ثوب على أحد إلا رجع ماء وأسلم الناسُ الأمر [356] لله الواحد الصمد. وعجزوا عن القتال على كثرة العدة والعدد، وانصرف أمير المؤمنين والناس أجمع وقد حملت الأرض سيلاً، ودام ذلك إلى الظهر من اليوم المذكور، ثم انقشعت السماء، وارتفع الماء. فلما صلى الظهر من ذلك اليوم أمر أمير المؤمنين بالركوب والعودة إلى قتال الكفرة على مثل ما كان، فركبت الناس واصطف كل قبيل في موضعه المرتب فيه، ودام القتال من صلاة الظهر إلى عشية اليوم المذكور، وانصرف الناس وباتوا ليلة الثلاثاء الرابع والعشرين على حالهم، فلما أصبح الله بالصباح لم يخرج أمير المؤمنين من منزله ولا رآه أحد من وزرائه وخواصه مفكراً شغل البال بما عاينه من عدم الاجتهاد، والعجز عن

(1) يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي القعدة يوافق 16 من يوليه 1172.
(2) راجع الاستقصاء ص 155.
(3) تذكر المصادر المسيحية أن مدينة وبذة أوشكت على السقوط في يد سلطان المغرب إذ كاد أهلها يهلكون عطشاً حتى كان يوم القديسة جوستا (Justa – Santa) فأرسل الله من السماء مطراً غزيراً أتلف خيام السلطان وهدم معسكره.

الجهاد! ولما كان ليلة الأربعاء الخامس والعشرون من الشهر كانت بالليل حركة مفزعة من خروج النصارى على الموضع الذي كان فيه قبيل هسكورة[1] يحرسونه، ففروا منه وأدبروا عنه، فأمر أمير المؤمنين عند الصباح بضربهم بالسياط وعقابهم، وبات الناس ليلة الخميس السادس والعشرين من ذي القعدة المؤرخ على حالهم من الحذر والترتيب، وعند الصباح أمروا بالخروج عن العلف من الشعير والزاد، وأن يخرج الثلث من كل قبيل، وتقدم عليهم الحافظ أبو محمد[2] عبد الله بن أبي [357] الفريجون، وأبو إسحاق ابراهيم بن همشك، فخرجوا وباتوا ليلة واحدة وانصرفوا خائبين دون علف ولا زاد، فاشتد السعر وكاد أن يعدم، ولمّا كان يوم الجمعة السابع والعشرين من ذي القعدة جمعَ الناس على كثرتهم ووفورهم من كل قبيل، وقام فيهم الشيخ الزاهد المرحوم أبو محمد عبد الواحد بن عمر خطيباً باللسان العربي تارة، وباللسان الغربي[3] أخرى يحرضهم على قتال النصارى، ويعرفهم بما أوجب الله عليهم من الجهاد، وقال في كلامه لهم باللسان الغربي: قد كنتم بمراكش تقولون: لو كنا غزونا النصارى لجاهدنا الله عزّ وجل واجتهدنا، فلما حضرتم معهم قصّرتم وجبنتم الله عزّ وجلّ ونكلتم وما نصحتم! ما أنتم بمؤمنين ولا بموحّدين إن تسمعوا النواقيس تضرب وتعاينوا الكفر ولا تدفعوا المنكر، إن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم في حق الله تعالى من الجهاد، على كثرتكم من الأعداد، لم توبّهم فقالوا: تبنا! وفي هذا اليوم وجه عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد القرطاجني[4] إلى العلج ولد

(1) هسكورة تقع في السوس الأدنى جنوب تارودانت (المحمدية) القديمة. وقد ظلت في التشريفات الرسمية تحتل المرتبة الأولى ولكن القبيلة مع ذلك لم يتأخر عن عظمتها. التازي: دعوة الحق، يوليه 1960 ص 91.
(2) أظن أن هذا هو الذي ذكر (ص 254) تحت كنية أبي عبد الله واسم محمد. ولا أدري لماذا يغير Huici لقبه ابن صاحب الصلاة عندما يعبر عن هذا الحافظ بعبد الله، ولعله خطأ مطبعي وربما كان قصده أن يقول أبا عبد الله. Huici ص 260.
(3) يعني بالبربري. وقد يفسَّر هنا باللغة الرابطة.
(4) راجع التعليق رقم 1 ص 379.

مريق[1] ـ لعنه الله ـ الذي كان يملك مدينة وبذة، وقال له: كنت رغبت في الأمان فانزل على ما رغبت، واخرج أنت وجميع مَن في المدينة معك على ما طلبت! «فكان من جوابه أن قال: ليس عندي ثياب تصلح للباس [358] فألقى بها ملككم!!» ففهم منه الخداع، والجواب المضاع، وانصرف عنه، ولما كان بعد ذلك الوقت أعاد الرجوع إلى العلج المذكور وقال له: إنما جئتك لصحبة كانت بيني وبين أبيك، فأنا الذي أخرجته من سجن يحيى بن[2] غانية وأريد الآن أن أخرجك مما أنت فيه، فقلق ولدُ مريق العلج من كلامه وردَّ عليه جواباً جافياً! ثم قال له: «لست أمشي معك فإن النصارى والأمير ادفونش الصغير[3] قد خاطبوني باجتماعهم[4] واحتشادهم ووصولهم إلي وليرفعوكم أو يقاتلوكم!» «وانصرف ابنُ سعيد عن غير ما تمنَّى فيه وبهذا الخبر، وعرف بذلك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، فلما كان بعد صلاة العصر من هذا اليوم أمر أمير المؤمنين بحضور الشيوخ من كلِّ صنف من الموحدين والأندلسيين والعرب، ودخلوا عنده في القبة الحمراء، وتكلموا معه بقية عشية اليوم المذكور فيما يصلح من الرأي لهذا الخبر الطارئ، وانفصلوا عنه عند صلاة المغرب، فلما كان بعد مضي جزء من الليل ليلة الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة

(1) يقصد به أحد أبناء ما نريك دي لارا (Manrique de Lara) التي كانت مربياً لتلك الشاكلة الفونسو الثامن والتي احتلته فرناند رويث دي كاسترو. ونحن نعلم أن هناك فرنساً من عائلة مريق كان يسمى: Pedro Manrique de Lara قام بفتح حصن الصخرة Zafara ... من الفونسو الثامن. ولعل يكون هذا هو نفسه الذي يشير إليه ابن صاحب الصلاة. انظر: تاريخ المغرب الديبلوماسي. Meknas — P. 33.

(2) كان يعني هنا اعتصامها للمرابطين بدار ملكهم اشبيلية ثم خالف الموحدين بعد. المراكشي المعجب ص 267 — 273 — 275 — 276 أعمال الأعلام، ص 253 ـ 284.

(3) أذفونش الصغير El REY chico هو الفونسو الثامن (Alfonso VIII). راجع التعليقات رقم 3 ص 97 ورقم 3 ص 153 ورقم 3 ص 284 ورقم 2 ص 286 ورقم 3 ص 286 ورقم 1 ص 293 ورقم 3 ص 302.

(4) لقد نقلت بعض المصادر المسيحية أن كارديال روما كان في هذا الوقت بطليطلة ودعا الناس إلى جهاد المسلمين وتقاطر المحاربون من كل صوب لنجدة الرئيسين...

Codera: Decadencia y desaparicion des los Almoravides En Espagne p.321.

الموزع أمَرَ بحرق البرج المصنوع لقتال الكفرة، وبحرق الآلات كلها المصنوعة مع البرج! وليس عند أحد من الناس خبر، وأُمِرَ في الحين أبو الأصبع بن حكم القبطلي[1] المقدم على الدوابّ أن يسوق دوابٌ في ذلك الوقت على ما تحصل النَّواقيس التي أخذت في الكنائس [359] وبات الناس بقية الليلة على روع وحذر والخواطر مرجفة.

قلوع أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه عن مدينة ويذة

ولما أصبح الصباح من يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة عام سبعة وستين الموزع تكلم بعض الناس بالرحيل أنه يكون في هذا اليوم، وضرب الطبل الكبير[2] اشعاراً للناس بذلك فكأن القيامة قد قامت! فمن وجل حائر لا يدري ما يصنع، وآخر حازم قد أخذ بما كان يسمع ويتوقع، وحين ما عاين النصارى حركة الناس وسمعوا الطبل وفهموا القلوع عنهم خرجوا في حينهم بخيلهم ورجلهم، ووصلوا إلى الوادي الذي كانوا قد منعوا الشرب منه من يوم حصارهم، وابتدأوا مع الناس بالقتال، واشعلت في البيوت والزروب النيران، وصار الناس في حرب وانزعاج إلى الرحيل، ولا أخ يسأل عن أخيه من حال الذهول، ووصل النصارى إلى السوق على قرب من المحلة، وقتلوا الضعفاء والمرضى، والتحم القتال بين النصارى وبين المسلمين، وأمر أمير المؤمنين لجميع العساكر بالوقوف حتى ترفع الأخبية فرفعت وتقدمت، وبقيت قبته واقفة [360] على حالها حتى رفع جميع الناس، والسيد الأعلى أبو حفص قد لبس درعه وهو راكب في قبيل لعل تبتمل أنجدهم الله وأشياخ الموحدين مع قبائلهم وأشياخ أهل الأندلس مع أصحابهم، والعرب مع قبائلهم مستعدون في الجميع. ثم إن أمير المؤمنين أمر بقلع قبته الكريمة وهو راكب

(1) لم نقف على أثر هذا القائد ويظهر أن الأصل أبو الأصبع بالعين.
(2) يحكي المؤرخون أن من بين الطبول واحداً هو أكبرها إذا ضربت فيه ثلاث ضربات علم إنه طبل الرحيل ويسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع في يوم لا ريح فيه!!

والعساكر معه، وأمر بضرب الطبول والحركة والناس على ترتيبهم، والنصارى يقربون ثم يهربون، وتقدمت الرايات على طريق قونكة[1] أعادها الله على رفق ورفق، ومشى ثلاثة أميال، ونزل بالناس في موضع الماء الجاري المتصل بجبل مدينة وبذة المذكورة على ثلاثة أميال منها، وكانت حركته في هذا القلوع بعد أن ترك إخوته السادات بجميع كثير من العساكر في الساقة على مدينة النصارى يدفعونهم من اتباع الضعفاء من المجاهدين والمرضى، وفي صحبتهم يوسف بن مردنيش وابراهيم بن همشك وأبو العلا بن عزون بعسكر الأجناد الأندلسيين، فكان بين الموحدين المذكورين وبين الكفرة دفاع، وحرب ونزاع، على وادي المدينة المذكورة قتل فيه من النصارى ستون علجاً وأسر منهم عشرة. وظهر المسلمون في ذلك اليوم بنصر الله لهم، ثم أنهم وصلوا إلى المحلة في عشية اليوم وعرفوا بما كان من غزوهم وجهادهم وبات [361] الجميع في موضع النزول على حذر، وحُسْن نظر، ولَّما أصبح الله يوم الأثنين عقب ذي القعدة رحل أمير المؤمنين بالمحلات من الماء المذكور رَحيلاً جزلاً بترتيب العساكر والرجال والرماة في القدمة[2] والساقة ومشى بهم عشرة أميال ونزل بقرية كثيرة الزروع، خاوية الربوع، فامتلأت الأيدي من القمح والشعير، وعاثوا فيها وعفوا آثارها وثمارها، وأهل في تلك الليلة بهلال شهر ذي الحجة من العام المؤرخ، وبات الناس على خير عادة، ولما أصبح الله يوم الثلاثاء غرة ذي الحجة رحل أمير المؤمنين من القرية المذموعة على الطريق الى مدينة قونكة على مثل الترتيب في اليوم المتقدم والطبول تضرب على كل شرف من الأرض، والعساكر قد ملأت ما بين الطول والعرض، حتى وصل الى وادي شُوقر على ميلين من قونكة المذكورة بالجبل الغربي منها، ونزل بالناس وخرجوا الى زروع النصارى بها بإباحة محمد بن مردنيش للنصارى أرض المسلمين وصلحه معهم بالجزية لهم منه، ولما كان بعد صلاة

(1) قونكة (Cuenca) مدينة تقع في الشمال الغربي من مدينة بلنسية بينهما 322 ك. م.
(2) كذا في الأصل والصواب المقدمة.

العصر من هذا اليوم ركب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وركب معه أخوه السيد الأعلى أبو حفص وجميع إخوته السادات ووزيره ادريس بن أبي إسحاق ووجوه الموحدين أعزهم الله والحافظ الفقيه، أبو بكر بن الجد وقاضيه عيسى بن عمران والفقيه أبو محمد المالقي [362] شيخ طلبة الحضر ووجوه الناس من الأجناد والعرب ومن كل صنف ووصلوا في صحبته إلى مدينة قونكة ليعاينها.

(وصف مدينة قونكة)

وكنت في جملة من حضر في هذا الركب العظيم. فمشى أمير المؤمنين حتى داخل المدينة المذكورة وقصبتها الشهيقة المنيعة الرفيعة المتصل علوّها بالجو، تدل على آثار من الغبطة بها عند ملوك الإسلام، واحتيالهم للاحتصان فيها بحوادث الأيام، وقد أحدق بها من جهة[1] الغرب وادي شوقر المذكور بأجراف وحافات لا يُمكن منها الوصول، ومن شرقها وادٍ آخر على مثاله في المنعة لها، يصبان الماء في بحيرة عظيمة لشربهم وهي لصق السور، ويدخل إلى المدينة على قنطرة عظيمة، في جانبيها برجان عظيمان مانعان على الواديين في حكم المدينة المذكورة، ومن جهة الجوف من المدينة حفير قد حفر في الحجر الصلد في عمقه نحو قامتين، عليه ستارة منيعة، وفي الحفير أدراج قد حفرت تحت الأرض ينزل فيها إلى الوادي لشرب الماء ولطحين القوت في الأرحى التي على الوادي، ويرجع في الأدراج على أمن، وعلى الستارة التي على الحفير برج عظيم من بناء الأوائل، وفي أسفل الأدراج عند الماء في الوادي باب مصفح بالحديد تملك من القصبة المذكورة، وليس لهذه المدينة موضع يقاتل منه إلا من جهة الحفير المذكور. وفي هذه

(1) يعترف المؤرخون الإسبانيون بأن أقدم وصف لمدينة قونكة هو الذي يورده ابن صاحب الصلاة هنا . . .
Melchor: Campanas de los Almohades en España, page 7.

البحيرة[1] هي كرومهم وشجرهم من الجوز [363] وغير ذلك، والجوز أكثرها، تحت حماية المشيخة كله، ومزارعها وأرضها متسعة في البطاح، والأرض الفساح، وعندما وصل أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى المدينة والقصبة التي ذكرها خرج أهلها الضعفاء الغرباء إليه بجميعهم وعيالاتهم وبنيهم كبارهم وصغارهم إليه، وكان العدو قد حصرهم قبل ذلك بخمسة أشهر إلى أن سمع بحركة العساكر المؤيدة، فقلع عنهم وتركهم كأنهم قد نشروا من كفن وخرجوا من جدث، فسلموا على أمير المؤمنين وسألهم عن حالهم ودعا لهم ووعدهم بخير، ونظر جميل ونصر كفيل ويُسر، وأمر في الحين للحافظ الناصح الأمين أبي موسى عيسى بن مخلوف الجد[2] ميوي[?] أن يكتب أسماء جميع من فيها من الرجال والنساء والصبيان والأطفال ويحصي عددهم، فأحصاهم، وكان عددهم سبعة مائة تسعة بين رجل مقاتل وامرأة وصبي وطفل، فأمر للفارس منهم باثني عشر مثقالاً[3]، وللراجل بثمانية مثاقيل، وللمرأة بأربعة مثاقيل، وللطفل بأربعة مثاقيل، وأعطاهم سبعين بقرة لم يكن عنده في المحلة سواها، وكثيراً من الرماح والقسي والسهام والترسة والأسلحة وفرض لهم على العساكر مدا[4] غير ربع من زرع قمح أو شعير صدقة عليهم فبادر الناس إلى ذلك. [364] فاجتمع لهم زرع وضرع، وكذلك وجوه الموحدين أعزهم الله ووجوه الناس بادروا إلى الصدقة عليهم، فأعطاهم الشيخ المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم وقر حمل من قمح، وكذلك الحافظ ابو يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت[5]، وأما الوزير ادريس بن أبي اسحاق فاشترى لهم زرعاً بمائة دينار وكذلك ابنه

(1) كذا ويظهر أن الأصل «وجدت» عوض كلمة هي.
(2) لم نقف على اسم هذا الحافظ ضمن لائحة الكدميويين في البيذق وقد يكون من أهل الدار راجع التعليق رقم 3 ص 403.
(3) راجع التعليق رقم 3 ص 391.
(4) راجع التعليق رقم 10 ص 352.
(5) راجع التعليق رقم 3 ص 379.

يحيى اشترى لهم زرعاً بمائة دينار، وتتابعت لهم من أعيان الناس الصدقات والعطيات والهبات وانصرف أمير المؤمنين تلك العشية بعد هذا النظر والعطية وبات الجميع من النّاس في موضع نزولهم. ولما أصبح يوم الأربعاء الثاني من ذي الحجة امر الناس بالخروج لدرس الزرع وسوقه من عمارة النصارى أهلكهم الله فامتثلوا ذلك وخرجوا، فحين وصولهم إلى البُورت[1] القريب من قونكة اجتمعوا بالنصارى في الشَّعْراء المتصلة بذلك الموضع، وهم في عدد كبير ذميم[2] زعَمَ المخبر عنهم أنه أذفونش الصغير[3] اللعين وقمطة نونة[4]، فرجعوا وأخبروا بذلك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فرأى من النظر للحرب القلرع بالمحلة من موضعه، وبجوز وداي شُوقر، فركب هو وأخوه في الحين وجاز الوادي المذكور ونزل في الجبل المتصل بمدينة قونكة لحصانته ومنعته، وأمر الناس [365] بالرُّحيل والقلرع، فكانت على العساكر قيامة أخرى مثل قلوعهم من وبذة وأخذ الناس في الازعاج الى الوادي فلم يجدوا فيه إلا مخاضة[5] واحدة وهو عظيم الانحدار بسَيْل وتيار، فكثر صياح الناس من حمله، وعظيم هوله، وهم قد ملئوا عبرَيْه وسلب أكثر ثياب الجائزين ولا أخ يقف على أخيه! ولا أب يصبر على بنيه، ودام هذا الهول في الجواز حتى إلى العصر من اليوم المذكور، واجتمعت العساكر في الموضع التي ذكرتُه، واتصل وصول النصارى حتى نزلوا على مقربة من موضع المحلة أمس هذا اليوم بجبل يعرف بجبل تونيس[6] ملتف بالشعراء والوعورة وتراءت المحلتان للعين

(1) البورت: لا يوجد موضع بهذا الاسم الذي يظن أنه تعريب لكلمة Puerto الاسبانية اللهم إلا كان في مكان يبعد كثيراً عن قونكة، ولهذا يعتقد أنه قد يكون اسماً لموضع مندثر المعالم.
(2) راجع التعليق رقم 4 ص 412.
(3) راجع التعليق رقم 4 ص 412.
(4) يعني النمط نونيو دي لارا: Nuño de lara. راجع التعليق رقم 5 ص 286 Huici p. 263.
(5) المخاضة من النهر: الموضع الذي ينخفض ماؤه عند العبور عليه أي المكان الذي يمكن العبور منه.
(6) جبل تونيس، ربما كانت هذه الكلمة تعريباً للكلمة الاسبانية Tembos أو Tumbos ويعتقد أن ـ

والوادي[1] بينهما حاجز، وكلا العسكرين عاجز، وبات الناس ليلة الخميس على ما تقدم من الاحتراس والأخذ بالحذر من مكر الوسواس. فلما أصبح الصباح جمع أمير المؤمنين أشياخ الموحدين، وأهل الرأي الناصحين في الدين، على طبقاتهم من كل قبيل، وذاكرهم ما يرون من الرأي، فاجتمع رأي الموحدين أعزهم الله على مقابلة الكفرة غداً يوم الجمعة، وأما العرب فكعوا وجبنوا عن[2] اللقاء! وقالوا: إن حربهم تحتاج إلى انفساح في الأرض حيث يروحون ويتصرفون[3] [366] في الطول والعرض، وظهر الخور عليهم، واستبان الجبن لديهم، وقالوا: إن النصارى قد نزلوا في جبل وعر، ونظروا لأنفسهم في احتصان ومكرا وازدادت نيات الموحدين[4] والأجناد الأندلسيين صفاءً، ووفوا لله تعالى في جهاد الكفرة وفاء، وباتوا على هذه النية، وخلوص الطوية، ولما أصبح يوم الجمعة تأهب الموحدون لما باتوا عليه، ونظروا نظر ما تواعدوا إليه من الاستعداد للجهاد، فنهض منهم جمع مبارك ومن العساكر، وأبو العلا بن عزون بجملته معهم، ووصلوا إلى موضع محلّة النصارى فكانت بينهم وبين المسلمين مدافعات ومحاملات ظهر الإسلام فيها وتبيّن للكفرة أهلكهم الله ما خالطوا نفوسهم من تلاقيها، ورجع الجمع المبارك عشية النهار سالماً ظافراً، وبات الناس على أوليهم، فلما أصبح يوم السبت الخامس من ذي الحجة أمر أمير المؤمنين بالتأهب للحرب، وأن يكون كل رجل من الموحدين ومع جميع القبائل مع قبيله متأهباً للطعن والضرب، وركب الناس

* الموضع المقصود هو Torres الذي كان يسمى قديماً Monte de los Palancares
Melchor: Page 34. Huici page 263.

(1) لعله يعني نهر موسكاس Moscas الذي يتفق في وضعه الجغرافي مع الوصف المذكور.

(2) راجع التعليق رقم 1 ص 365.

(3) يذكر ابن خلدون: «أن العرب لا يغلبون إلا على البسائط ....» عبد العزيز الدوري: ابن خلدون والعرب مجلة الكتاب ص 9 عدد إبريل 1962.

(4) لا يخفى في هذه العبارات من تحامل على عرب أفريقية الذين كانوا فعلاً غير متمرنين للحروب في الجبال. راجع التعليق رقم 1 ص 365.

وتدرعوا، واستلأموا الأسلحة وتصففوا للقاء وانتظروا ما يكون من العدو واستعدوا. وقد كان أمير المؤمنين رضي الله عنه وجّه أبا العلا بن عزون في مقنب من الأجناد عند انصداع الفجر من اليوم المذكور [367] ليطلع أمر النصارى في موضعهم على عادته، وأقام الناس في مواضعهم على مراتبهم وقبائلهم حتى إلى ضحوة النهار، فرجع أبو العلاء مع مقنبه، وأعلم أن النصارى قد قلعوا من محلتهم منصرفين إلى بلادهم، راحلين بأعدادهم فأخذ أمير المؤمنين في الرحيل وقرع الطبول، وتقدم أهل التقديم، على ما تعود من النظر العميم، فكأن القلوع بين الفريقين كان على ميعاد، مع عداوة بينهما في الدين وبعاد. واتّصل سيْر العساكر المؤيدة على التأهب المذكور والترتيب حتى وصلوا إلى الجبل المعروف بجبل الصومعة[1]، على عشرة أميال من قرنكة، ونزلوا فيه على ماء طيب ومرج خصيب، واشتد السعر في هذه الليلة، فبلغ المد المراكشي[2] من الشعير درهمين، وكذلك من القمح، ورطل الدقيق بدرهم[3] واحد، وبات الناس على خير. ثم أقلع يوم الأحد السادس، ومشى

(1) Los Zonas، ويمكن تسمية ترجمته هكذا (Monte del Alminar).

(2) يتحدث ابن صاحب الصلاة عن المد بالمراكشي، وكذا في صفحات 370 — 367 — 369 — وقد حاولنا أن نصل إلى نتيجة في تقويم المد المراكشي وكان في الإمكان أن نحصل على معيار، له لو أن الظروف التي يتحدث عنها المؤلف كانت عادية، ومع هذا فإنني على مثل اليقين من أنه غير المد النبوي الذي يزن 400 غرام إذا كان من الشعير و525 غرام إذا كان من القمح (ليس من المعقول أن يلتبه المؤلف بشرح الخليفة على المحتاجين عند الأرخاء - (ص 363) كما أنه غير المد الكبير المصطلح عليه الآن عندنا في سوق المغرب والذي يصل تقريباً إلى ثلاثة وثلاثين كيلو... ولكن أي المد المراكشي شيء ثالث فوق المد النبوي بقليل ودون المد الكبير بكثير وحسب الباحث في هذا الموضوع أنه لا يغيب عن ذهنه أن أسعار الأسفار والحروب لا يمكن أن تؤدي إلى حكم قد يتخذ قاعدة كما أشرنا إلى ذلك، وهكذا لا يستغرب أن يكون ثمن 25 رطلاً من الدقيق درهمين، وثمن 25 مداً من الشعير بدرهم فإنه من الجائز أن تكون الرغبة تعلقت بالحصول على الدقيق دون الشعير (ص 303) كما لا يستغرب أن يكون مدان ونصف مد من الشعير بدرهم بينما خمسة أمداد من القمح بدرهم (ص 354) لأن الحاجة قد تكون أيامئذ دعت للاحتفاظ بالشعير الذي يصلح للدواب أكثر من الاحتفاظ بالقمح الذي تتوفر الحبوب فيه على كمية أكبر. انظر التعليق رقم 10 ص 382.

(3) الدرهم جزء من عشرة تكون الدينار على العهد الموحدي وهو يعادل 60 سنتيماً تقريباً.

نحو ثمانية عشر ميلاً إلى وادي ناصطة[1]، ونزل في جبل حصين والناس معه دون حمولات ولا أخبية، لأن الناس ضعفوا عن المشي، وتأخرت الحمولات ومشت على طريق، ومشى الناس على طريق أخرى، فبات أكثر الناس دون علف ولا قوت، وعدم الشعير حتى بيع المد المراكشي بثلاثة دراهم. ولما أصبح يوم الاثنين أمر بالرّحيل بسبب افتراق الناس والحُمُولات. ومشى نحو اثني [368] عشر ميلاً ونزلوا على وطاي برج[2] قبلة على طريق مدينة بلنسية، فمالت دواب الناس من التعب والنصب، وجاع الناس وكثر فيهم الموت، واجتمعوا بحمولاتهم في هذا الموضع عشية اليوم ولا قوت يوجد إلا لحم جمل بؤذي، وشحم منه يردي، ولما صلّى الظهر من هذا اليوم أمر بجميع أشياخ الموحدين أعزهم الله وأشياخ القبائل والأجناد من كل صنف، وأمروا عند اجتماعهم والالتقاء بهم أن ينظروا في التمييز، وأن يتميّزوا عشية يوم الثلاثاء الثامن من ذي الحجة. وبات الناس فلما أصبح الله بيوم الأربعاء التاسع من ذي الحجة أمر الناس بالتكبير والرّحيل بسبب العقبة الكؤود التي في الطريق المعروفة بعقبة الأبالس[3]، فتعجل الناس بسبب الصعود في العقبة المذكورة إلى أن وصلوا إلى القنطرة المعروفة بقنطرة اغريالة[4] على الوادي الجاري تحتها، فنال الناس الضعف والجوع من عدم القوت والعلف، ومات كثير من الخيل والبغال والجمال في العقبة المذكورة ونزل أمير المؤمنين بالناس في القنطرة المذكورة. ولما صلى الظهر أخرج البركة لجميع العساكر

- Massignon: Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle

1906 page 102. _202 ص vol I [illegible]

(1) [illegible] الشطاط المشتق من النهر الذي يقابل هذا الاسم وقد ترجم ويسي اللفظ كما هو: Rio — Tamata. P. 263.

(2) برج [illegible] يعني به المعروف اليوم باسم (Cambalia) واكتفى Huici بالاسم: (Biry — Qaballa)

(3) عقبة الأبالس (Al — ameda de los Diablos) لعلها القائمة اليوم بين: Villagor — del Gabriel وبين Minglanilla.

(4) قنطرة أغريالة: (Al Puente de Gabriel) أنظر خريطة Huici ص 226.

على تمييزهم، خمسة مثاقيل للفارس الكامل ولغيره كذلك، ومثقالين للراجل الكامل ولغيره كذلك، وكان الإنعام بهذه [369] البركة على تاريخ شهرين اثنين من أول حركاتهم. ووصل السعر في هذا اليوم ثلاثة دراهم في المد الواحد المراكشي من الشعير، وكذلك من القمح، ورطل الدقيق الواحد بثلاثة دراهم[1]، وبات أمير المؤمنين بموضع القنطرة المذكور بسبب العيد.

عيد الأضحى في هذه الغزوة

ولما أصبح يوم الخميس العاشر وهو اليوم العيد أمَرَ أمير المؤمنين بالصلاة في الموضع، فاجتمع الناس، وخطب الخطيب أبو زيد بن عبدون[2] قاضي تلمسان الخطبة المعلومة، وصلّى بالناس ثم دعاه أمير المؤمنين، وسلّم عليه إخوته وأشياخ الموحدين ووجوه دولته، وقسم عليهم كباشاً من ضحايا لهم. ولما توسط النهار أقلع الناس، ورحل خمسة عشر ميلاً ونزل بهم في مرج القبداق[3] على مقربة من حصن ركانة[4] من بطن بلنسية للمسلمين. ولما أصبح يوم الجمعة الحادي عشر رحل ونزل بحصن ركانة المذكور والمجاعة عظيمة، والشدة من عدم القوت عميمة، وأخطأ الأدلاء الطريق، فافترقتْ العساكر في الجبال والمضايق، والأوعار والشواهق، وبات أمير المؤمنين في موضع، وبات أخوه السيد الأعلى أبو حفص في موضع [370] دون حمولة، وزاد بالناس الجوع والعدم، والضعف والألم، ثم رحل ونزل بموضع يعرف بمجمع الأودية[5]، واجتمع الناس بهذا الموضع وقد وصل الدقيق أربعة

(1) كذا كتب عوض دراهم. وقد علمت أن السعر في وقت الرخاء كان درهماً واحداً.

(2) لم نقف على ترجمة لابن عبدون هذا، ويظهر أنه من أسرا أندلسية، وأنه من الأندلس عين قاضياً على تلمسان.

(3) القبداق: هو المرج الذي يسمى الآن Caudete في مقاطعة بلنسية جنوب قونكة. أنظر Huici ص 256.

(4) الاكتفى بأن دعاه: Requena.

(5) مجمع الأودية أو ملتقى نهر (el Gabriel) ونهر (Jucar). وليس هو الموضع المعروف (بالمياه السبعة) كما يقول ميلشور. أنظر Huici ص 264 التعليق رقم 2.

درهم[1] الرطل الواحد منه، ومد الشعير المراكشي أربعة دراهم، وكذلك القمح غير موجود. ثم رحل يوم الأحد الثالث عشر من ذي الحجة على طريق صعبة المسالك، ومشى سبعة أميال ونزل قريباً من حصن بنيول[2] من نظر بلنسية. وفي هذا اليوم سرح الحشود من أهل الشرق وجميع بلاد الأندلس إلى أوطانهم وافترق أكثر الناس إلى بلنسية وغيرها من الناس المجاهدين.

وفي هذا اليوم وصلت رفقة كبيرة من بلنسية بالدقيق والشعير والفواكه هدية من قبل أبي الحجاج يوسف بن مردنيش إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، فاختصت بالخاصة منه والعامة، وعندما وصل الناس حصن بنيول المذكور تقدّم مَن لم يكن له اسم في زمام ولا رَسْمٌ إلى مدينة بلنسية لطلب القوت والحياة بعد هذه الشدة، وكنت[3] فيمن تقدم إلى حصن بنيول فما وجد أحدٌ فيه شيئاً من قوت، إلا بعض حبات من تين أخضر في أول زمانه: الحبة الواحدة من ذلك بدرهم[4]! فاشتراها من اضطر إليها، وكنت واحداً من ممن اشتراها تقوَّت بها ثم وجدتُ فقدها إلى أن وصلتُ مدينة [371] بلنسية ودخلتها، فرأيتها فوق وصفها مطيب بساتين وروضة، مياهها جارية مطردة، ورياضها زاهية في الحسن متفردة، وراقتها والصبح قد ألبسها قميصه، والحسن قد نشر فيها وبيضه، لكن الضعف عليها باد، والخوف بالفتن متماد! وتزودتُ منها ثم تلاحقت بعد ثلاثة أيام بالمحلة المؤيدة. وأقلع أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين من منزله بقرب حصن بنيول المذكور مرحلة بعد مرحلة على ترتيب حركته، فوصل مدينة شاطبة[5] يوم الخميس السابع عشر

(1) كذا في الأصل عوض دراهم.
(2) حصن بنيول: (Bunol).
(3) نستفيد من النص أن ابن صاحب الصلاة كان له اسم ورسم في الزمام.
(4) لم يفلت ابن صاحب الصلاة دائماً تسجيل هذه الانطباعات، وقد تحدث إلينا في غزوة قشترين من بعد أنه اشترى بقرة سمينة بثلاثة دراهم!
ابن عذاري (مخطوط) ص 128.
(5) شاطبة (Jativa). وتقع في الجنوب الغربي لبلنسية قريبة من الشاطئ، وكانت تسمى عند الرومان Setabis ينتسب إليها علماء وأدباء مشهورون وكان يصنع بها أجود الورق. التازي: الأعلام الجغرافية الأندلسية مجلة «البيان» عدد يوليه 1962 ص 34.

من ذي الحجة ودخلها: قصابها الشاهقة السامية، وأبراجها الشامخة، وأقام فيها يوم الخميس ويوم الجمعة، ولما كان بعد الصلاة من يوم الجمعة حضر أشياخ الموحدين أعزهم الله في الجامع ومعهم أبو محمد المالقي والقاضي أبو موسى، وجمعوا الناس من أهل شاطبة ووعظوهم وأنسوهم وبشروهم بالخير المتصل من هذا الأمر العزيز، ثم بعد ذلك ضربت الطبول في القصاب[1] المذكورة ورفعت في أعلاها الرايات المنصورة، فلما كان بعد الصلاة من يوم الجمعة حضر أشياخ الموحدين أعزهم الله في الجامع، فلما كان صبيحة يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة رحل عنها ونزل على مقربة منها ولفقاً بالعساكر ثم أقلع [372] يوم الأحد الموفي عشرين ونزل بحصن بِلْيانة[2]. ثم رحل يوم الاثنين ونزل بحصن عَصْف[3]. ثم رحل يوم الثلاثاء ونزل بحصن إلج[4]، ثم رحل يوم الأربعاء ونزل بحصن[5] أوريولة.

دخول أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين لمرسية

ولما كان يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة المؤرخة رحل من أوريولة ونزل ضحوة النهار بحصن منت[6] أقوط على مقربة منها. ولما صلى الظهر تحرك في عسكره الهام وكتيبه التي حارت فيها من الضخامة خواطر الأوهام، وخرج إليه أهل مرسية بالتبرك به والابتسام، ودخل قصرها بنصر دائم وتحية وسلام، والطبول تضرب، والرايات بالسعود تخفق وتطرب، بأحسن الطلاقة والابتسام، وجميع أهل مرسية من خاصتهم وعامتهم وكبيرهم

(1) جمع قصبة: ... الحصن والبرج.
(2) يسمى اليوم هذا المكان: (Villena) ويقع شمال ألش.
(3) حصن عصف يسمى اليوم Aspe في مقاطعة ألقنت Alicante.
(4) ألج (Alche) وهي قرية من مدينة ألقنت، وكانت أيام العرب تعتبر من أقليم تدمير (التازي: المصدر السابق ص 20.
(5) حصن أوريولة (Orihuela) بينه وبين ألش 28 ميلاً، وهي مدينة أزلية قديمة سماها بالأقليس (الحميري، الروض المعطار ص 34. التازي: المصدر السابق ص 21.
(6) حصن منت أقوط هي المسماة اليوم Monteagudo وهي تقع بقرب حصن مرسية.

وصغيرهم يتكلمون لأنفسهم بالتيسير والتبشير، ويقولون بأعلى أصواتهم: والحمد لله الذي جمع بيننا وبينكم على أحسن حال وأنعم حال، ورفع عنا الظلم والكفر. وتساؤهم يخدين أصواتهن بالفرح[1] وينطقن بألسنتهن بكل لفظ متشرح. ودخل أمير المؤمنين بن أمير [373] المؤمنين بقصر مرسية، وقد كان الأمر العزيز نفذ لهلال بن محمد[2] أن ينظر في إنزال الموحدين في الديار، والاشتغال ببرهم على أكمل الأوطار، فوجدوها معدة، مملوءة كسى وأرزاقاً عدة، وأهدى من الجواري الكعاب، والسراري ذوات الحسن والشباب، ما كان عند أبيه معدة لهذا الباب، وأضاف بأكمل التضييف، وعكف على الجود بما قدر عليه أحسن المكوف، وانجز ما وعد به دون مطل ولا تسويف، وقبل الخليفة رضي الله عنه هداياه، وحباه بالعطايا الجزيلة أكثر من عطاياه، وفي خلال هذه الأيام أهل هلال المحرم من سنة ثمان وستين وخمس مائة.

سنة ثمان وستين وخمس مائة

في أول يوم من شهر المحرم منها رغب أكثر الموحدين والعساكر من المرتزقين في السراح إلى بلادهم وأوطانهم عند ضيقة مرسية بهم، وغلاء السعر فيها بسببهم، فأذن لهم في ذلك، وارتحل أكثرهم، وأقام أشياخهم وكبراؤهم ومزاورهم، ودامت الإقامة حتى أهلّ بشهر صفر، فخرجت البركة لجميع الموحدين والعساكر المرتزقين على عدد خروجها في الغزوة المذكورة للفارس الكامل خمسة [374] مثاقيل[3]، ولغيره أربعة مثاقيل وللراجل الكامل مثقالان ولغيره مثقال ونصف، وقبض كل شيخ قبيلة وافترق الناس طلباً للرفق والرزق وفي هذا الشهر عند استقرار أمير المؤمنين بمرسية من غزوته واستيلائه

(1)لا بس أن نلاحظ أن تعاليم المهدي مؤسس الدولة كانت لا ترتاح لظهور النساء ولا لسماع أصواتهن.

(2)هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش.

(3)وزن المثقال الموحدي أربعة قراطات و120 من الذهب.

راجع التعليق رقم5 ص 215.

عليها في حضرته، نظر في تثقيف معاقلها، وتوجيه الولاة إلى منازلها وحصونها، والمكنوف لكتب نائليها، وفيه أحضر هلال بن مردنيش واخوته وعمهم أبا الحجاج يوسف في مجلسه الكريم وأنسهم، وبسط لهم وجهه وعدله وفضله، وأولاهم من ذلك كل مستحسن سهل، ووعدهم من بشره وبره ما لم يلقه مع المأمون الحسن بن سهل[1] وأشار إليهم أنهم سيكونون من جملة الموحدين مع أهل الحظوة والأهل وأمرهم بالنظر في الارتحال معه وأن يسيروا بجميعهم إلى حضرته: مقره ومجتمعه، فأخذوا في النظر لذلك، والعزم إلى هنالك، وأقر العم أبا الحجاج يوسف بن مردنيش ببلنسية وأنظارها، وكتب له بالأمر على أقطارها، لما علم من صفاء طاعته وخلوصه، وولاه وخصوصه. وكذلك أبقى أبا عثمان بن[2] عيسى القائد على ما كان بيديه من حصن جنجالة وما إليه من الثغر وأبقى من رآه من القواد بالثغور وعمهم [375] بالخير والفضل منه حتى أنساهم ما تقدم لهم مع أميرهم، وعند ذلك أخذ في الانصراف.

ذكر انصرافه من مرسية إلى اشبيلية بعد كمال بغيته، في غزوته

وفي أول شهر ربيع الأول من هذه السنة تحرك منها على ما ذكرته واجتاز في طريقه على مدينة الغرناطة، وترك فيها والياً أخاه السيد الأسنى أبا سعيد ووصل إلى اشبيلية يوم الخميس الثامن من ربيع الأول المذكور سنة ثمان وستين المؤرخة، ووصل معه أخوه السيد الأعلى أبو حفص، وبجملة أشياخ الموحدين المتطلعين في هذا الأمر، ووجوه دولته وساير اخوته، فخرج

(1)ولاه المأمون منصباً بريع ديوان الخراج، ثم بعثه إلى العراق وولاه على ما كان افتتحه طاهر بن الحسين بن مصعب ونال حظوة كبرى لدى المأمون.

ابن خلدون. العبر، الثالث طبعة دار الكتاب اللبناني ص 499 والتي تليها.

(2)هو القائد أبو عثمان سعيد بن عيسى الذي كان في أبرز قواد محمد بن سعد بن مردنيش، وكان من قدم الطاعة بعد انقراض ابن مردنيش وهو الآن يكافأ من قبل الخليفة.

راجع التعليق رقم 1 ص 317.

أهل اشبيلية إلى لقائه، والتبرك بدعائه، ومعهم الفقيه الحافظ أبو[1] بكر بن الجد فلقيهم مبتسماً ودعا لهم على عادته، وسأل الفقيه ابن الجد قبله من جميع صنفه، ودخل إشبيلية أوْفَر دُخُول، على أتم سلامة ومأمول، ووصل معه في هذا اليوم جميع أولاد محمد بن سعد بن مردنيش بعيالاتهم، وعيال أبيهم واخوتهم، على ما أمر به أحفل وصول، فأنزلهم في قصر ابن عباد وفي الدور المتصلة به [376] واشترى لهم دوراً باشبيلية من أربابها لسكناهم، وبسطها لهم وملأها أرزاقاً وإرفاقاً. وخص منهم غانم[2] بن محمد بجميع جماعة من الجند الأندلسيين ومن أصحاب أبيه ومن أهل الثغور والأجناد بإشبيلية وأنظارها يكونون تحت تمييزه وتجويزه للغزو بهم وحماية الأنظار من العدو، في الحضر والبدو، والحق هلال أخا غانم والكبار من اخوته في جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة لحضور مجلسه العالي ومباشرة الأمر وما يدور من الآراء، تشريفاً لهم وتقريباً، وتأنيساً وتأديباً، فكان غانم يخرج بجمعه الذي جمع، واختاره من الأجناد يغزو مع الموحدين أعزهم الله جهات طليطلة وطلبيرة[3] وأنظارها، فظهرت منه في ذلك كفاية، وعلى العدو نكاية، يخرج بعدده غازياً ويرجع غانماً، وقد جعل على عسكره في مسلاخ أمير يميز ويصدق، ويستام[4] اليه ويوثق، والأموال تدفع إليه وإلى إخوته فيقسمونها على أتباعهم وفرسانهم، فظهرت عليهم النعمة والتقريب بأكمل الحرمة، ونال الأجناد معهم بركة منّتهم وخصّتهم، وترتب غانم بهذا الترتيب على غزو بلاد النصارى مجتهداً، ناصحاً للأمر متجرداً وسلك مسلكه غزاة من الأجناد العرب حتى أقلق ذلك

(1) كان الحافظ ابن الجد من أسهم في حلة وبلد لك سبق الوكب الخليفي إلى أشبيلية عندما تقرر الاقلاع عن محاصرة وبلد، ولذلك نراه يخرج في أشبيلية لاستقبال الخليفة.

(2) غانم بن مردنيش هذا هو الذي أسندت إليه بعد هذا قيادة الأسطول المرابط في سبتة على ما يذكره ابن عذاري في البيان المغرب ص 105.

(3) طلبيرة (Talavera) تقع في الشمال الغربي لطليطلة على نهر تاجة تشتهر بزليجها الأزرق والأصفر وهي طبيرة. والعجب أن الحميري يدرجها في الفرق بينها. الروض المعطار ص 127 ـ 128. القاضي الأعلام الجغرافية الأندلسية ص 28.

(4) كذا في الأصل والصواب (يستأمن).

النصارى بأيلة[1] خربها الله، فاجتمع فيها جمع ذميم خرجوا مع زعيمهم [377] الضال المبين شانت منوس[2] الذليل لعنه الله إلى جهة اشبيلية وقرطبة حسب ما أذكره بعد هذا. وعند وصوله إلى إشبيلية تأكد أمره العالي في بناء الجامع المذكور وكذلك في ابتناء البحيرة خارج باب جهور والقصور.

(وفد القيروان وتونس باشبيلية للتهنئة)

وفي هذه السنة المؤرخة وصل وفد أهل القيروان وفقهاء مدينة تونس وإفريقية إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بإشبيلية مهنئين على غزوته المذكورة وفيهم الفقيه عمر بن عبد السيد[3] من أهل تونس، فرحب بهم وأنزلهم وأكرمهم حتى انصرفوا إلى مواضعهم مسرورين، وكان الفقيه أبو بكر بن الجد، يثني على عمر بن السيد المذكور ويقول عنه: إنه فقيه القيروان!

(1) راجع التعليق رقم 2 ص 285.

(2) راجع التعليق رقم 2 ص 221 حول شانت منوس وانظر هيلشور ص 54 — 55 — 56 — 57.

(3) يعتبر بيت بني عبد السيد من أعرق الأسرات بتونس في القرنين الخامس والسادس الهجري، وقد ورد في المصادر التاريخية التونسية أن الخليفة لما نازل مدينة تونس في وجهه الانتكاك الافريقية من النورمانديين المحتلين لسواحلها يوم السبت العاشر من جمادى الأول من سنة 554 (مايه 1159)، وعاين التونسيون ما عاينوا نزل منهم إلى عبد المؤمن أكثر عشر شيخاً لطلب السلم منهم بشر عبد السيد، وفي صدر هؤلاء عمر الذي نعته ابن الجد هنا بفقيه القيروان... وقد أسلمهم عبد المؤمن بعد مكابدة شديدة...

التيجاني عبد الله: الرحلة تقديم حسن حسني عبد الوهاب طبعة تونس 1959.

الزركشي التونسي: تاريخ الدولتين تونس 1289هـ حسن حسني عبد الوهاب: كتاب العمر الرابع (مخطوط). التازي. تاريخ المغرب الدبلوماسي: قسم الموحدين.

(تحرش صاحب أبلة للموحدين ومصيره)

وفي شهر شعبان المبارك من هذه السنة[1] خرج من مدينة أبلة عربها الله القومس المسن الضال شان منوس المذكور المعروف عند أهل الثغور والمسلمين بالأحدب عظيم النصارى بأبلة، ومدبر الحرب في الفتنة على المسلمين بالأندلس، فكم من فتكة له في أيام السيرات مع الحشم وبعدها، في أيام فتوته وكهولته وشيوخته لعنه الله في شن غارات على المسلمين غرباً وشرقاً وقبلة [378] وجوفاً بجموع من الكفرة إخوته أهلكهم الله، يصل بهم إلى جزيرة طريف والجزيرة الخضراء[2]، ويسقي المسلمين من إذايته كأساً مراً، ولم يمنعه قط نزول مطر، ولا اتصال قر ولا حر، يناله من ذلك بعض ضرر، فكان يهزم عساكر من تقدم من المسلمين، ويفتر بغاراته عمارة المؤمنين، إلى أن أذن الله تعالى بهلاكه وفنائه شرعت أهل أبلة في هذا التاريخ بسعد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، فخرج من أبلة يريد نظر إشبيلية على ما عهد في زمانه وحالة طغيانه في الشهر المؤرخ ووصل بجمعه الذميم إلى الوادي الكبير، وأجازه مع كفرته وشرذمته في المخاضة التي بين حصن بلمة[3] وحصن الجرف[4] فوق القبر المعروف بقبر الشهيد الغريب[5]،

(1) نرى أن خروج شان منوس زعيم أبلة كان سنة 568، وقد سجل بروفنصال رسالة موحدية حول موضوع هذه الحملة ضد شان منوس غير أنها مجهولة التاريخ الأمر الذي أوقع الأستاذ المذكور في الخلط فسألها ضمن الرسائل الموحدية فيما بين تاريخ 555 و 556 فليصحح الخطأ رسائل موحدية 121 ـ 122 ـ 123 ـ 124 ـ 125.

(2) Huici, Historia: page 269 — 270.
Huici, T. I. page 269 — 270.

(3) هي المعروفة اليوم باسم Palma del Rio وتقع في شمال استجة على الوادي الكبير...

(4) الجرف (Jarf — Al) هو الذي يشير إليه الإدريسي في نزهة المشتاق ص 206 في الطريق بين إشبيلية وقرطبة.

(5) لا يعرف موقع هذا القبر.

وشن غاراته على جهات استجة[1] ماراً بها إلى قبلة قرطبة إلى القنبانية[2] فغنم في تلك الجهة من سائمة الغنم نحو خمسين ألف رأس، ومن البقر نحو مائتي رأس، وأسر من المسلمين فوق مائة وخمسين رجلاً، وقصد في طريقه بعجيبه إلى المخاضة التي فوق قرطبة المعروفة ببلبارش[3] عند القصير[4] وأجاز غنائمه فيها، والأسرى من المسلمين في ثقافه مكتوفين مستغيثين إلى الله تعالى في نواحيها، وكان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين [379] قد تقدم عنده خبر هذا الطاغية وخروجه واستعداده، وأمر عساكره المنصورة بالتأهب إليه وانتظاره بما يكون لديه، فلما كان ما ذكرته خرج إليه العسكر المنصور من إشبيلية يوم الخميس الثالث عشر من شعبان المبارك المؤرخ، وقدم عليهم أمير المؤمنين أخاه السيد الأسنى أبا زكريا يحيى بن الخليفة رضي الله عنهم، ومعه أخوه أبو إبراهيم إسماعيل، وبنو الجماعة كالحافظ المرحوم أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن ليجيت وأشياخ الموحدين أعزهم الله، وأشياخ العرب بنخبة قبائلهم، وأنجاد فرسانهم ورجالهم، فجدّوا بالإسراع إلى الجهاد، والاتباع لأعداء الله الكفار على وعد من الله ومرصاد. وجازوا الوادي الكبير في مخاضة حصن قطنيانة[5]، وأخذوا في طريقهم عدوة الوادي إلى قرطبة، فوصلوها ضحوة يوم الأحد السادس عشر من الشهر المذكور، والنصارى أهلكهم الله قد جازوا أمس وصول الموحدين أعزهم الله في مخاضة القُصَير على ما ذكرته، فاجتمع الموحدون بالشيخ

(1) استجة (Ecija) مدينة قديمة وتقع جنوب شرقي أشبيلية قريبة منها. الروض المعطار ص 14 ـ 15. القاضي: المصدر السابق.

(2) هي الكنبانية المعروف باسم (La campina) وتسلبه رسائل موحدية: الكتاب. الإدريسي: النزهة ص 173. بروفنصال: رسائل موحدية ص 113.

(3) اكتفى وبيسي بنقلها هكذا Balparis ولكن من غير أن يحدد موقعها، وقد ورد ذكرها في كتاب أخبار مجموعة أقدم كتاب في تاريخ الأندلس. الحلل السندسية (2) ص 132.

(4) راجع التعليق رقم 1 ص 400.

(5) لم يهتد مباشرة إلى تحديد الموضع، أما ويبسي فقد نقله هكذا Cantinana.

المرحوم أبي حفص عمر بن يحيى، وتذاكروا معه في الرأي، فاتفق رأي الجميع على إتباع النصارى حيث انتهوا ولما وصلوا مدينة [380] آبلة في ذلك، وصفت نفوس الناس للغزو وخلصت لله نياتهم، وطابت في طاعة الله مغيباتهم، وعزموا عزمة جد وجد وتحرك معهم في أولهم الشيخ المرحوم أبي حفص بجميع من كان معه من الموحدين بقرطبة، وتهدوا إلى أعداء الله عشية يوم الأحد المذكور، بعد أن استعدوا من الزاد لعلوفتهم وأكلهم ما يكفيهم في سفرتهم المنصورة، فمشوا على استعدادهم حتى وصلوا حصن بطروج[1] وهو ثغر لا أنيس فيه، ولحق بعض الناس الضعف من الإسراع في الاتباع، فاتفق الرأي على أن يقيم كل من ناله ضعف بالحصن المذكور، ويتجرد لهذا الاتباع أهل القوة والنجدة من الموحدين أعزهم الله ومن الأجناد والعرب فكان ذلك وتقدموا، وقدموا أمامهم طليعة في جملة من الأدلاء الحافظ أبا عمران موسى بن حمو الصنهاجي[2] صاحب يابرة قبل هذا، لشهامته بأخبار الثغور، لتُعلِم كل ساعة برحيل النصارى ونزولهم ومبيتهم وترتيب مشيهم، ويطلع على أسرارهم، فكل ما مشوا مرحلة تطلع عليهم، وأعلم الشيخ المرحوم والموحدين بما لديهم.

فلما كان صبيحة يوم الأربعاء التاسع عشر من شعبان المؤرخ تأخر النصارى وشيخهم الضال الطاغية عن الرحيل [381] من موضع مبيتهم، وذلك بموضع يعرف بفحص كركوى[3] على مقربة من قلعة رباح[4]، فأعلم

---

(1) حصن بطروج: (Pedroche) ويسميه الحميري بطروش ويقع شمال قرطبة.
الروض المعطار ص 45.
(2) كان هذا الحافظ في جملة الجند الذي أنجد به أمير المؤمنين قرابته البرج لا حالف الموحدين ضد ابن أخيه أذفونش الصغير... راجع ص 271 من النص.
(3) فحص كركوى هو الذي يسمى الآن بـ: (Caracuel) ويقع جنوب السبطا (ريال) Caidad Réal جنوب طليطلة.
(4) قلعة رباح (Calatrava la vieja) وتقع جنوبي طليطلة على وادي آنة، وقد ملكها النصارى بعد أن كانت بيد المسلمين إلى أن كانت وقعة الأرك فسلكها بعقوب.
الروض المعطار ص 163. بروفنصال ص ٦٩١.

الحافظ أبو عمران بن حَمُّو بما عاين من تأخرهم عن الرحيل في هذا اليوم فاعتقد الموحدون أيدهم الله أن تأخرهم لأنهم قد علموا باتباع الموحدين، وأنهم يريدون اللقاء في هذا الموضع المتسع، فتأهب الناس بأجمعهم ولبسوا غلائل الدروع، والبيض في رؤوسهم كالشمس في الشروق واللموع وأخذوا أسلحتهم في أيديهم، وإذا بالعدو الكافر في بلهينة[1] من اعتزازه، وعجب منه بكفاره، يظن أن لا مقارع له ولا من يقف قبله على ما تعود قديماً، ولم يعتقد أن الله تعالى قد أحاط به وهشمه هشيماً. وأعلم الحافظ أبو عمران بن حمو جميع العساكر بحاله، فعزموا في الحين على مقارعته، والبروز إليه في منازعته، فاستعجل الكافر حين ذلك بالرحيل، وقد تراءى الجمعان بكل فج وسبيل، فسلَّ الله عليهم سيفه، وحل بهم قلوبهم روعه وخوفه، وأخاتهم في الحين حتفه، وانحازوا إلى جبل شاهق لا يصعد إليه إلا من طريق واحدة، في شعراء ملتفة غدقة اعتقدوا أنها منجاتهم، ولم يعلموا أن بها مضاجعهم ومصارعهم ومماتهم، تتخذ الولائم من لحومهم السباع، والطيور الجياع، فطلعوا[2] في ذلك الأسر والغنائم، والموحدون أيدهم الله قد رتبوا [382] عساكرهم، وتقدموا أمام راياتهم، فانقضوا إليهم، وصعدوا في الجبل غلبة عليهم، والعدو الأحدب أبو بردع لعنه الله قد قسم شرذمته حوله، يحرضهم على القتال وقال لهم: وأنا قاعد في خبائي في رأس هذا الجبل بحيث أراكم وأنظر فعلكم، فتدافع الموحدون أيدهم الله مع النصارى المذكورين في ذلك الجبل الوعر الملتف بالشعراء والحجارة، في حيث لا ينفذ لفارس جري ولا مشي، فبعد نصف النهار في طعن وضرب، ومقارعة وحرب، هزم الله المشركين، وقطع دابر الكافرين، والحمد لله رب العالمين. ووصل الموحدون إلى اللعين الأحدب الكافر وهو على سريره في خبائه، وقتل عليه، واحتز رأسه[3] من جسده لحينه، وقتل جميع من كان معه. واتصلت الهزيمة على

---

(1) بلهنية العيش: رغده.
(2) كذا ولعل الأصل: فطلعوا.
(3) هكذا يعبر نص بالاسباني La cabeza del Gibso fué le - vada.

النصارى في ذلك الجبل وفي الفحص المتصل به حتى حال الليل بين الموحدين وبينهم، ولم ينج من النصارى إلا قليل قدروا بنحو مائتي فارس. اختفوا في الشعارى[1] بالليل رجاله، دون فرس ولا درع ولا ترس، وفني في هذه الهزيمة ادلاء النصارى وشرارهم من أهل آبلة دمرها الله، ولم يكن لهم بعد هذه الهزيمة رأس يخرجون معه ولا قام لهم علام أبداً إلى هذا التاريخ[2]، ونفل الله تعالى المسلمين أثقالهم وأزوادهم التي كانوا استعدوا بها [383] لطول ترددهم على أرض المسلمين بزعمهم ما أعجلوا[3] عنها. وصار ذلك في أيدي المسلمين، وولى أعداء الله أدبارهم، وقد أنزل الله تعالى بهم النقمة، وأحل بهم الدبرة، ووكل بهم حسرة الخيبة، لا يلوي الأخ على أخيه، ولا الابن على أبيه، والحمد لله رب العالمين، وانتقذ الأسرى من المسلمين بأجمعهم، والغنائم كلها من البقر والغنم، وانصرفت بالأمر الكريم إلى أصحابها وأربابها، وامتلأت أيدي الموحدين من الدروع والبيض والخيل والبغال والحمر، ونالوا في ذلك الجهاد المبرور، والغنيمة والأجور، وجمعت رؤوس النصارى وسيقت إلى الشيخ المرحوم أبي حفص والسيدين الأجلين أبي زكريا، وأبي ابراهيم، وأحضر من أسرى النصارى من يميز الرؤوس المذكورة، فعين رأس اللعين الطاغية والأحدب فيهم، فأمروا بحمله في الحين إلى حضرة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بإشبيلية. وخص بحمله إلى الحضرة المذكورة يحيى بن الشيخ الوزير أبي العلى بن أبي اسحاق بن جامع، فخرج من المحلة المؤيدة من ساعته في اليوم المذكور، وأسرى بقية يومه وليلته وأصبح في قرطبة، وألفى فيها السيد الأسنى أبا سعيد عثمان بن الخليفة قد وصل من الغرناطة بعسكره، تابعاً في هذه الغزوة

(1) جمع شعراء: الأرض الكثيرة الشجر.
(2) تسمى هذه الوقعة في بعض المصادر العربية بغزوة السبطاط [illegible] في هذه المصادر خطأ، إذ تذكر أنها كانت في سنة 568 وأنت ترى أنها كانت في شعبان 569.
التكملة (كوديرا)، الترجمة رقم 66.
(3) كذا في النص ولعله [illegible].

السعيدة، فاجتمع به ولم يعلمه بشيء [384] وخرج من قرطبة من فوره، وأسرى يومه كله، ووصل إشبيلية عشية يومه، وهذا غريب في السير[1]. ولقد رأيته[2] حين وصوله وهو من التعب حيران، يتمايل من عدم النوم كالنشوان، هو وأصحابه الواصلون معه. ودخلوا في الحين على أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وانفرد يحيى بن أبي العلى بوصف الفتح على حاله، وشرح نصر الله على أوفى كماله. فكان في وصف هذه الوقيعة أفصح من عرار[3] حين بعثه الحجاج إلى عبد الملك بن مروان برأس عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وضربت الطبول واجتمع الناس للتهنئة إلى الخليفة رضي الله عنه ومبايعته وتقبيل يده المباركة على ذلك، وكان يوماً سعيداً مباركاً، وقام فيه الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد خطيباً فأجاد، وتكلم القاضي أبو موسى بن عمران تابعاً له أو كاد. وانتسب هذا الفتح العظيم، والبشر العميم، إلى الشيخ المرحوم أبي حفص فبحضوره كان هذا الفتح في الكفار، وبرأيه أعلى الله دينه

(1) ست وثلاثون ساعة من كركوى جنوب طليطلة إلى مدينة اشبيلية.
(2) مرة أخرى نجد ابن صاحب الصلاة في البلاط الموحدي بل إنه يصف هذه المرة المقابلة التي تمت بين أمير المؤمنين وبين يحيى بن أبي جامع.
(3) عرار هذا هو ابن أبي عمرو بن شأس عبيد بن ثعلبة ابن ذؤيبة بن مالك بن الحرث بن سعد بن ثعلب ابن دودان بن أسد بن خزيمة، وقد روت الرواة أن الحجاج لما أخذ برأس بن الأشعث وجه به إلى عبد الملك بن مروان مع عرار الأسدي وكان أسود دميماً، فلما ورد عليه جعل عبد الملك لا يسأل عن شيء من أمر الوقعة إلا أنبأه به عرار في أصح لفظ وأشبع قول وأجزل اختصار فشفاه من الخبر وملأه أذنه صواباً وعبد الملك لا يعرفه وقد احتقرته عينه حين رآه فقال عبد الملك متمثلاً:

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد ... لعمري عراراً بالهوان فقد ظلم
وإن عراراً إن يكن غير واضح ... فإني أحب الجون ذا المنكب العمم

فقال له عرار: أتعرفني يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، قال: فأنا والله عرار! فزاده سروره وأضعف له الجائزة.
والبيتان من قصيدة لوالده عمرو بن شأس من كلمة يعاتب بها زوجه أم حسان وكانت تؤذي ابنه عرار وتعيّره بالسواد يقول في مطلعها:

ديار ابنة السعدي هيه تكلمي ... بدافقة الحومان فالسفح من رقم

الكامل للمبرد، سيد بن علي المرصفي - جزء ثالث طبعة القاهرة 1928 ص 126.

بهذا القرار، بالسمر الطوال والسيوف الماضية الأشفار، فكم من دمي سفك دمه! وكم من شقي أباح حمله وأعدمه! وهو الذي تصبح الأمر قديماً، وأقام أمره قويماً. وكان وصول هذه المسرة العظمى [385] يوم الجمعة الحادي والعشرين من شعبان المبارك، على ثلاثة أيام من تاريخ الوقيعة المذكورة، وجلس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وأخوه السيد الأعلى أبو حفص معه يوم السبت الثاني والعشرين من شعبان المؤرخ عند السيد الأعلى أبو حفص معه يوم السبت الثاني والعشرين من شعبان المؤرخ عند شروق الشمس بمجلس اليمن من قصره بداخل قصبة إشبيلية مجلس التهنئة، وقد ترتب الموحدون أعزهم الله والأشياخ من طلبة الحضر والفقهاء والكتاب والخطباء فحضروا، وأذن لمن حضر بالباب من المهنئين بالدخول على مراتبهم من الأدباء والشعراء[1]، فأدخلهم الوزير أبو العلى ادريس بن جامع والفقيه أبو محمد المالقي شيخ الطلبة معه، فخطب الشيخ الزاهد أبو محمد عبد الواحد بن عمر أولاً باللسان الغربي فأعرب فيه للموحدين في لسانهم وبيانهم، ثم شرح ذلك باللسان العربي لأهل شأنهم. ثم قام الفقيه أبو بكر بن الجد خطيباً وتلاه القاضي أبو موسى عيسى بن عمران، ثم قام الفقيه المذكور أبو محمد المالقي على مثالهم، وأنشد الشعراء ما صاغوه من أشعارهم فكان أولهم الكاتب أبو علي بن الأشيري[2] فاستحسن شعره، وحمد ذكره، ثم تلاه غيره من شعراء

(1) لم يحفظ لنا التاريخ مع الأسف الشديد تسجيل ما قيل في هذه الاحتفالات من شعر ونثر وإن كنا على يقين من أنها كانت مناسبة انطلق فيها الأدباء انطلاقاتهم المعهودة، والعجب من ابن صاحب الصلاة فلقد احتذانا منه استقصاء جل الأشعار، ولست أعتقد أن هذه الأشعار كانت من نصيب السفر الثاني فإن الحديث عن هذا الموضوع انتهى بانتهاء هذا السفر، وقد اهتدينا من خلمها السفر في آخر المجلد الذي بين أيدينا.

(2) هو حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب المعروف بابن الأشيري، ويكنى أبا علي وهو من أهل تلمسان نشأ بها وأخذ عن الأستاذ أبي الحزاق، وأخذ بالمرية عن أبي الحجاج بن يسعون 540 وكان من أهل العلم بالقراءات واللغة وقد غلبت عليه صناعة الأدب، وكان ناقلاً ناثراً في الوقت ذاته، وله مختصر في التاريخ سماه نظم اللآلي، وله قصيدة مستجادة في غزوة السبطاط التي كانت سنة 569، على ما يقول ابن الأبار في التكملة نشر كوديرا رقم 66.

أهل العدوة وأهل إشبيلية، وطال الإنشاد فقام أبو محمد [386] المالقي المذكور، وقبض من سائر الشعراء بطائقهم بما صاغوه، ووضعها بين يدي أمير المؤمنين، وأمر رضي الله عنه بتعجيل جوائزهم؛ فخرج للطبقة الأولى خمسون ديناراً إلى أربعين إلى ثلاثين[1]. ثم بويع أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين على ذلك وقبل جميع الحاضرين يده المباركة، وكملت المسرة بذلك وترادفت الفتوح هنالك، ولما كانت هذه الوقيعة في الكفرة النصارى أهل آبلة أهلكهم الله، وقتل فيها زعيمهم الأحدب لعنه الله، سرى الخبر في بلادهم سرى الشمس، وتحدثوا في كنائسهم مع الستهم وقواميسهم بما عاينوه من قتل أحزابهم بالأمس فخامرهم الروع والجزع، وظلت قلوبهم من مقتلهم تتصدع، ثم توالت عليهم في أثر ذلك البعوث من العساكر بالسرايا والقنائب فكان ما أذكره:

ذكر بعث أبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت وأبي محمد عبد الله بن أبي اسحاق بن جامع بالميرة الى بطليوس، والأمر الكريم لهما بغزو النصارى أهلكهم الله.

وانهما لما تحركا من إشبيلية في أربعة آلاف فارس من [387] الموحدين أعزهم الله ومن الأجناد الأندلسيين ومن العرب، ومعهم الميرة المذكورة على ثلاثة آلاف دابة من القمح والشعير والدقيق والزيت والملح والآلات والمرافق، واستعداد الأرزاق لأهلها رفقاً بهم في المضايق، ووصلوا بها إلى بطليوس المذكورة، ودفعوها إلى شيخها القائد أبي غالب بن أبي الحسين بن المرصلي[2] واختزنها على ما أمر به، تحركوا إثر ذلك عاقدين

* وأنت خبير بأن هذه الوقيعة جرت في شعبان سنة 568. هذا وقد ذكر ابن عبد الملك في الذيل والتكملة أن أبا علي هذا كان من جلة رواة ابن صاحب الصلاة.

(1) كانت بالفعل من أهم المناسبات وبذلك تقسيم الإنتاج الى طبقات ومراتب.

(2) انفرد اسم بني المرصلي ببطليوس نظراً ـ فيما يظهر ـ لصدارتهم فيها وقيادتهم. راجع صفحة 308.

ووصلوا نظر طليرة، فأغاروا عليها وعلى بسائطها فغنموا من سائمة البقر والغنم أكثر من ثلاثين[1] ألفاً مع ما وجدوه من سبي، وامتلأت أيدي المسلمين من ذلك، وقتلوا من رجال النصارى من حاربهم، وأسروا من ضارعهم، وانصرفوا موفورين سالمين، ثم تمادى الأمر الكريم إلى الأجناد مثل ذلك، فغزوا أنظار طليطلة وما يليها واستاقوا منها الغنائم وأذاقوا الكفار شراً، وسقوهم من الغنيمة والإسار كأساً مراً، وترامَوا بإرسالهم إلى السلم جانحين، ولأبواب الصلح فاتحين، وللمهادنة طالبين، ولأسبابها راغبين.

(استسلام صاحب طليطلة وصاحب قلمرية)

فأول من أرسل القومس نونه[2] صاحب طليطلة، ثغر الأذفونش الصغير[3] لعنه الله، ثم تابعه الأذفونش بن الرنك[4] صاحب قلمرية، وبعث إرساله راغباً بأعظم مما رغب فيه نونه، وذلك في ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمس مائة [388] فأسعفهم الأمر العزيز في رغباتهم وطلباتهم، لما كان في نفس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه من إسكان البلاد الثغرية في هذه الجزيرة، وما كان من غدر جرالده[5] اللعين العلج لها من ثغورها المثغورة،

(1) ينقل وسي هذه المعلومات في كتابه بالحرف أنظر ص 270.

(2) نونه Nuno. راجع التعليق رقم 5 ص 286.

(3) هو المعروف كذلك في المصادر المسيحية تحت اسم Chico — El Rey أنظر التعليق رقم 3 ص 97.

(4) هو الملك القومس هنريكز ملك قلمرية أي البرتغال (Alfonso Enriquez). راجع التعليق رقم 1 ص 96.

(5) يعني به جرالده الذي كان قائداً لابن الرنك، وصاحب جيوشه وقد كان غدر بمدينة باجة وبكثير من الحصون والمدن، وصل إلى أشبيلية مستسلماً طائعاً... وقد قبلت منه فيئته، ويقال ابن الرنك لم يزل يراسله مظهرت على جرالده إرادة في الانحراف... فبعث إلى سجلماسة... ثم حاول أن يفر، ولكنه قتل. وكذا في ابن عذاري ص 94 ولا بد لنا هنا أن نقف قليلاً لنذكر بما ورد عن البيذق من أن أمير المؤمنين أجاز النصراني المسمى بجرالده إلى مراكش ثم صرفه إلى السوس فأرسل الكتب من السوس إلى الأشبونة إلى ابن الرنك يعلمه بمكانه من السوس في ساحل البحر، وقال له: بالملك تعمر القطائع لأختلي... وعثر على هذه الكتب فوجه أمير المؤمنين لدرعة ليوسف

فأقاموا بإشبيلية نحو شهرين حتى كمل السلم المذكور على اختيار أمير المؤمنين، وبأوفى الربوط في حماية الدين، وأعطوا الكفرة صفقة الذل بأيديهم على إخوتهم الكافرين، وصرفوا على حد مرسوم، وإلى أجل معلوم.

كمل السفر الثاني من كتاب «تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أيمة وجعلهم الوارثين». وصلى الله على محمد وآله، يتلوه في الثالث بحول الله: سنة تسع وستين وخمس مائة خبر وصول العلج الطاغي.

= بن عبد الصمد بذكره بما اكتشف من أسرار ويأمر لجرالده بالمشي إلى درعة مع أصحابه. وكانوا ثلاثمائة وخمسين فلما وصلوا عمل بهم سوسي ما أمر به من قتلهم وذلك سنة خمس وستين وخمسمائة. هذا النص بكامله تتميز به الأخبار المتعلقة بالعلج الطاغي والتي نقلناها من ابن عذاري ولنذكر أن بروفنصال لم يطلع على ابن عذاري حينما علق بأن البيذق المصدر الوحيد الذي يتحدث عن تمرد جرالده (البيذق: 218)

النصوص التي نقلت عن

ابن صاحب الصلاة

في المؤلفات القديمة

ابن القطان في كتابه نظم الجمان

1

في معرض الحديث عن طبقات الموحدين

10 (ب) 11 (ب)

«... وأما الخمسون فهم: أما من قبيل هرغة فستة رجال: أبو مروان عبد الملك بن يحيى، وأبو زيد عبد الرحمن بن سليمان، وإسحاق ولم أجد اسم أبيه، وأبو زكريا يحيى بن يومور، ويحزى بن مخلوف، وأبو زيد عبد الرحمن بن داود.

وأما من قبيلة تينملل فأربعة عشر وهم: أبو عمران موسى بن سليمان القاضي، وأبو عبد الرحمن، وصواجات بن يحيى، وأبو بكر بن يزامارن، وأبو محمد عبد العزيز - لا أدري ابن من -، وعلي بن يامفل، والحاج موسى، ويحيى الغوات، وعبدالله بن ينساك، والقاسم بن محمد، ويوسف بن مخلوف وأبو علي يونس.

وأما من قبيلة هنتاتة فثلاثة: أبو يعقوب يوسف بن واسودين، وداود بن عاصم، وأبو محمد بن واحدان.

وأما من جدميوة فرجلان: أبو محمد يعيش، وأبو حرب.

وأما من جنفيسة فأربعة: أبو إسماعيل، وأبو زيد عبد الرحمن بن زجو، وعبدالله بن الحاج، وأبو سعيد يخلف بن الحسين. وأما من القبائل فرجل واحد: وهو عبد الرحمن بن يتوس.

وأما من هكسورة فثلاثة: إسحاق بن يونس، وعبدالله بن عبدالله وأبو عبدالله بن أبي بكر المعروف بابن يغمور.

وأما من صنهاجة فثلاثة: أبو محمد الجراوي، ويحيى بن وسنار، وإسحاق بن محمد.

وأما من الغرباء فخمسة: أبو يعقوب اللمطي، وأبو زكريا يحيى الدرعي، وعبدالله بن يوسف الزناتي، وسليمان الجزولي، وإبراهيم بن جامع.

هكذا عدّهم ابن صاحب الصلاة في كتابه.

2

ورقة 12 (أ) وقال ابن صاحب الصلاة:

وكان له (أي للمهدي ابن تومرت) رضي الله تعالى عنه رجال يخدمونه في داره، يُسمون أهل الدار من أصحابه، يختصون به في ليله ونهاره، وهم المعروفون بأهل الدار، أخصهم به: عبد الواحد بن عمر، وأبو محمد وسنار بن محمد، وأبو محمد عبد العزيز، وأبو موسى عيسى، وعبد الكريم الغنو.

3

ورقة 44 (ب) - في معرض الكلام عن عبد المؤمن بن علي -:

قال ابن صاحب الصلاة:

وإنه ما لبس قط إلا ثياب الصوف من قميص ومن سراويل ومن جبة تواضعاً لله تعالى وزهداً.

4

ورقة 78 (ب) (في الحديث عن غزوات عبد المؤمن بن علي في سنة 530 هـ.)

وغزوة تادلا.

قال ابن صاحب الصلاة:

إنها أول غزوات سيدنا ومولانا الخليفة رضي الله تعالى عنه بعد الإعلان

(يقصد الإعلان ببيعته) في عام ثلاثين، فميز الجيش بتينملل، وقسم البركة، وتشاور مع الموحدين أعزهم الله تعالى في أي وجهة يقصد فأشاروا بتادلا، فأضمر ذلك في نفسه سراً، ثم نهض مورياً بوجهته حتى صبح تادلا وجهاتها، فقتل وسبى، وامتلأت أيدي الموحدين أعزهم الله تعالى، ففر عنه أصحابه وتركوه[1]، فكرّ منصرفاً، فكبا به فرسه وسقط عنه، فأدركه الموحدون أعزهم الله تعالى وقتلوه.

ابن الأبار: الحلة السيراء ص 14 : (القرن السادس)

1

ترجمة أبي الوليد محمد بن عمر بن المنذر:

وذلك لما ذكر الصراع الذي نشب بين ابن المنذر وبين ابن وزير وأن هذا الأخير هزم الأول وسجنه بمدينة باجة وأوعز بسمل عينيه، وبقي هذا رهن السجن إلى أن أنقذه الموحدون لما افتتحوا باجة فعاد إلى شلب. . . وكان من أمره أن أمسى والياً على شلب قائماً بالدعوة المهدية وذلك في جمادى سنة 49 ، ثم نقل إلى إشبيلية. قال ابن الأبار: في خبر ذكره ابن صاحب الصلاة في كتابه ثورة المريدين من تأليفه.

2

ص 208 - 209 من الحلة السيراء

«وذكر أبو محمد بن صاحب الصلاة: أن الذي قام عليه ابن أضحى من الملثمين هو علي بن أبي بكر المعروف بابن فنُّو. وهي (أي فنو) أخت علي بن يوسف بن تاشفين كان أميراً عليها (أي غرناطة) بعد أبي زكرياء يحيى بن غانية قال: واستصرخ بعني ابن أضحى بابن حمدين بقرطبة وبابن جزي قاضي جيّان فوجه إليه ابن حمدين ابن أخيه عليّ بن أبي القاسم أحمد المعروف بابن أم العماد في عسكر قرطبة وعلم بذلك سيف الدولة أحمد بن هود فعجل ودخل مدينة غرناطة وانصرف

(1) كذا في الأصل، ويبدو أن الناسخ من النص سقطت قبل هذه الجملة إذ لم يسبق ذكر للقائد المرابطي الذي يعلم أن الضمير هنا يعود عليه.

ابن أم العماد غائباً وتعاون ابن هود مع ابن أضحى على قتال الملثمين وحصارهم بالقصبة أشهراً، وفي أثناء ذلك جرحوا ولد ابن هود وأسروه وأدخلوه القصبة فمات من جراحه فغسلوه وكفنوه وجعلوه في نعش ودفعوه إلى أبيه فدفنه، قال: ثم سار القاضي ابن جعفر قاضي مرسية الثائر بها جيش لمعونة أهل غرناطة فلما وصل إلى ما يقرب منها وهو في ألفي فارس من أهل الشرق، خرج الملثمون إليه فهزموه وقتلوه وكثيراً ممن كان معه، ودفن هو بغرناطة، وعجز ابن هود ففر إلى جيان وكان قد ترك بها ابن عمه نائباً عنه وابن مشرف البراجلي توقياً له وتغلب الملثمون على مدينته غرناطة، وفر محمد بن أضحى إلى المنكب ثم منها إلى حصن بني بشير.

3

ص 214 من الحلة السيراء

. . . فلم يرع ابن عبد العزيز إلا إحداق الجند بقصره يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر جمادى الأولى المذكور (يعني سنة 40) ويحكي ابن صاحب الصلاة «إن ذلك كان في الخامس والعشرين منه».

4

ص 217 - 218 من الحلة السيراء

وذكر ابن صاحب الصلاة أن عبدالله الثغري كان قائداً بكونكة، فلما سمع بقيام ابن حمدين خرج إليه وقام لديه واتفق أن وصلت مخاطبة أهل مرسية يذكرون تقديمهم أبا محمد بن الحاج وأنه استعفى من ذلك فأنفذ إليهم الثغري والياً وقدم أبا جعفر بن أبي جعفر قاضياً. قال: فوره يوم الثلاثاء منتصف شوال سنة 39 وظهر من أبي جعفر حب الرياسة فحشد الناس لقتال الملثمين بأوريولة وغدر بهم عند نزولهم على الأمان فقتلهم ثم داخل أهل بلده مرسية في أن يأمّروه ويقدّم للقضاء أبو العباس بن الحلال ولقيادة الخيل عبدالله الثغري فلم يخالفوه، وبعد انعقاد البيعة له نبذ طاعة ابن حمدين ودعا لنفسه واقتصر في لقبه على الأمير الناصر لدين الله وأسقط منه الداعي لأمير المسلمين وقبض على الثغري فسجنه وصهريه ابني مسلولة وصيّر قيادة الخيل لزعنون أحد وجوه الجند ثم توجه إلى شاطبة معيناً لابن عبد العزيز في

حصار الملثمين الممتنعين بقصبتها ورئيسهم إذ ذاك عبدالله بن محمد بن غانية فثارت العامة بمرسية عند مغيب ابن أبي جعفر عنها وسرّحوا الثغري وصهريه من معتقلهم فلحق بها وأطفأ تلك الثائرة وهرب الثغري إلى كونكة وعاد هو إلى حصار شاطبة إلى أن هرب عبدالله بن غانية منها فاتبعه ابن أبي جعفر خيلاً سلبت ما تحمّل من المال وأفلت هو فلحق بالمرية ولما تغلب ابن عبد العزيز على شاطبة عاد ابن أبي جعفر إلى مرسية وذلك في صفر سنة 40 ثم توجه بعد ذلك إلى غرناطة مغيثاً أهلها فلقيه الملثمون بخارجها فهزموا جموعه وقتلوه وعند انصراف الفلّ إلى مرسية أجمع أهلها على تأمير أبي عبد الرحمن بن طاهر هذا وذلك في أواخر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة فانتقل إلى القصر ودعا لابن هود ثم لنفسه بعده وقدم أخاه أبا بكر على الخيل وكان ابن حمدين قد وجه ابن أخيه وهو المعروف بابن أم العماد بعسكر، فردّ خائباً ثم أعاد توجيه عسكر آخر مع ابن عمه المعروف بالفلفلي صحبة أبي محمد بن الحاج وابن سوار وغيرهما من الواصلين من أهل مرسية إليه فصُدّ عن دخولها وطلب المائلون إليه، وأقام ابن طاهر في إمارته أياماً ريثما خوطب أبو محمد بن عياض بتعجيل الوصول إليهم فعجل المسير نحوهم وتلقاه زعنون وهو وال على أوريولة فرمى بها إليه وملكه إياها ولحق به الذين عاطوه من مرسية يحرضونه على قصدها ولا علم لابن طاهر بذلك بل تمادى على تحسين الظن بالذين قدموا من لقاء ابن عياض وقد برز الناس إلى لقائه ثم دخل القصر الكبير لا يدافعه عنه أحد وذلك في العاشر من جمادى الأولى من السنة وانتقل ابن طاهر إلى الدار الصغرى ثم . . . فتركها وانتقل إلى داره وعف ابن عياض عن تتبعه لعلمه بضعفه وكان مع شهامته حسن السيرة. وفي هذا الشهر خلع الجند مروان بن عبد العزيز ببلنسية واستدعوا ابن عياض فأمّروه وأقام على شرق الأندلس داعياً لابن هود إلى أن قتل بالبسيط، وداعياً بعد ذلك لنفسه وخالفه عبدالله الثغري إلى مرسية في بعض أسفاره منها فدخلها وانتزى فيها وكان قد أنفذه رسولاً إلى الطاغية ادفونش ليعقد معه السلم ويمالئه على صاحب برشلونة فعاد من سفارته هذه وزعم أن ادفونش أمّره على مرسية واستعان على دخولها بطائفة من أهل الفساد كانوا يشايعونه فتم ذلك وهرب محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض فيها، فلحق بالقنت وذلك في أوائل ذي الحجة من سنة ٤٠ ثم قتل الثغري سابع رجب سنة 41 واستولى ابن عياض ثانية على مرسية وسائر بلاد الشرق إلى أن قضى نحبه من سهم رُمي به في بعض حروبه مع الروم يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة 42

فكانت ولايته عاماً وتسعة أشهر وعشرين يوماً وحمل إلى بلنسية فلحق بها ومحمد بن سعد إذ ذاك وال عليها فقام بموازاته وعلم أهلها بعهد ابن عياض إليه بالإمارة من بعده فبايعوا له ويقال بل نصّبه أهلها لذلك دون عهد، وأما أهل مرسية فأمضوا نيابة علي بن عبيد عن ابن عياض بعد وفاته إلى أن تخلى هو في أواخر جمادى الأولى من السنة عما بيده لأبي عبدالله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامي ابن مردنيش وجده هو المعروف بذلك فقوي سلطانه وعظم شأنه واشتد حذر ابن طاهر هذا منه لما كان يسمع ويبصر من شهاماته وصرامته وربما عرض له ابن سعد بما يزيده حذراً منه وانقباضاً عنه فأخذ في التلون وأقبل على الانهماك والإدمان. . . . طلب السلامة من غائلتها وقطع معه مدته. . . . إلى أن توفي ابن سعد منسلخ رجب سنة 567 فأفرج روعه ورسخ بالدخول في الدعوة المهدية أمنه، وتوفي بمراكش سنة 574 أكثر هذا الخبر المسوق عن ابن صاحب الصلاة.

5

ص 229 من الحلة السيراء

. . . ثم سكن ابن حذين هذا مراكش مجاوراً لأبي عبد الملك بن عبد العزيز وبني . . ابن وزير رؤساء المغرب قاله « ابن صاحب الصلاة وحكي أنهم باتوا ليلة في أنس جمعهم فيها انقلاب الزمان وابن حذين غائب عنهم فلما حضر كتبوا إليه معرفين بذلك فجاوب ابن وزير منهم بأبيات منها :

يا واحد الفضل والسماح … ويا فتى الجد والمزاح
سألت تشفيعنا رسولاً … فهز مني عطف ارتياح
وليلة الأنس لو أبيدت … أسمح عندي من الصباح
شربت فيها السرور صرفاً … وأنت ريحانتي وراحي
فهاج شجني ولذ شربي … بغير إثم ولا جناح
أنه وقلتم في وصف عتبي … بمبسم عن ورد وعن أقاح
جديب عصر خصيب رقف … ينهض عن مثقل رداحي
شكوت منه وزنت شكوى … البيضة من قوى الملاح
ومن رأى الليث في محل … يضوه جلاجل الوشاح

يا فارس الخيل إذ تلاقى … في مأزق البأس والكفاح
إن صفاح البيان أنكى … في القلب جرحاً من الصفاح
أقفر أطلالها بقفر … تشق منها صدور الرماح
إن القلوب الصحاح ينفي … عن جفون مرضى صحاح
أنديك من غائبتي عطيفي … غير فسيح سوى المباح
ينهلة للبر والمراضي … وهو غني الشكر ذو جناح
فاتهم هنيئاً قرير العين … ما اهتزت القضب بالرياح

6

ص 238 من الحلة السيراء

في معرض الحديث عن بيتين من الشعر لأبي جعفر الوقشي هما :

وزنجي أتى بغصن نور … وقد زفت لنا بنت الكروم
فقال فتى من الندماء : صفه … فقلت : الليل أقبل بالنجوم

« وغلط أبو مروان بن صاحب الصلاة الإشبيلي فنسبها في تاريخه إلى بعض الأمراء وزعم أنه قالها في حبشي بيده شمعة . . . »

7

ابن الأبار التكملة (كوديرا) رقم 1394

« وقال ابن صاحب الصلاة : توفي (يعني عبد الله المالقي : سنة ثلاث وسبعين . . . »

8

ابن الأبار التكملة (العطار) رقم 162

عند ترجمة أبي مروان أحمد بن عبد الملك الأنصاري. .

وقال أبو مروان ابن صاحب الصلاة: كان ذلك (يعني استشهاد أحمد ابن عبد الملك بلبلة) يوم الخميس الرابع عشر من شعبان المذكور (يعني سنة تسع وأربعين وخمسمائة).

9

ابن الأبار التكملة (كوديرا) رقم 1394

عند ترجمة نُجبة بن يحيى الرعيني .

وقال ابن صاحب الصلاة : «توفي ليلة الخميس السابع والعشرين من جمادى الأخيرة، وكانت وفاته بالموضع المعروف بعطف جزيرة قبطيل ، وهو واصل صحبة المنصور مقدمة لغزو الروم . وسيق الى اشبيلية فدفن بمقبرة الفخارين لصلاة الظهر من يوم الخميس المذكور (يعني سنة 591)

ابن عذاري : البيان المغرب ص12 (نشر ويسي)

1

صفحة 12:

الموضوع: الخبر عن حركة عبد المؤمن الطويلة الاعوام ومقتل تاشفين امير اهل اللثام، من سنة أربع وثلاثين الى سنة أربعين.

في معرض الحديث عما أصاب تاشفين من برد وقر حتى الجأه الضرورة لحرق أوتاد الأخبية للاستدفاء بها.

« . . ولقد أخبر ابن صاحب الصلاة بسند ذكره عمن أخبره أن امرأة بعثت لتاشفين بطبق كبير عليه سَبنيَّة فظن أنه فاكهة وإذا فيه فحم فسر به . . . »

2

صفحة 16

الموضوع : ذكر مقتل الروبرتير (Roverter) وأكثر أصحابه :

قال ابن صاحب الصلاة : وكان هذا الرومي الروبرتير من أكبر الطغاة بالأندلس نجدة وظهوراً متصلة . . فتردى في حالة عظيمة . . . . وتغلب الموحدون على . . . من قدر الله بوفاته من اللمتونيين، فلما أصبح الله بالصباح هبطوا في

الخافة المذكورة فوجدوا تاشفين بها على تلك الصورة في ليلة سبع وعشرين من رمضان من عام تسعة وثلاثين وخمسمائة فقطعوا رأسه ووجهه الأمير عبد المؤمن إلى تينمال فعلق في غصن الشجرة التي عند مسجد المهدي».

3

صفحة 19

الموضوع : ذكر منازلة تلمسان وفتح تاجرارت وما اتصل بذلك . . .

وقال ابن صاحب الصلاة : « لما استقر عبد المؤمن بتلمسان بعد استشهاد من استشهد امتنعت قصبتها منه بمن فيها من خاف على نفسه ، فأقام مدة عليها ثم رحل الى فاس وترك عسكراً يحاصرها » .

4

صفحة 20

الموضوع : فتح مدينة فاس .

وذكر ابن صاحب الصلاة أن الصحراوي كان تعرس بامرأة من قبيلة في ليلة الثاني عشر لذي القعدة فتمكن الجياني من ماله وبعث اليه بطعام وشراب ليشغله به تلك (الليلة) فلما كان صبيحة اليوم المذكور أدخل الموحدين المدينة وفر الصحراوي الى طنجة ثم جاز الى الأندلس واتصل فتح فاس بالأمير عبد المؤمن وهو بمكناسة فوصل اليها وأقر أهلها إبقاء الجياني على أشرافها وذلك سنة أربعين .

5

صفحة 22

الموضوع : منازلة عبد المؤمن لمدينة مراكش سنة 541 .

« . . . وكان اللمتونيون بداخل مراكش في عدة من كبارهم وطبقة من أحشادهم

وأميرهم إسحاق بن علي بن يوسف وكان صبياً فأمرهم بالخروج الى حرب النازلين عليهم فعزموا على قتالهم وخرجوا اليهم بخيلهم ورجلهم في نحو خمسة آلاف وخمسمائة من الفرسان ومن الرجال ما لا يحصى عددهم كثرة ، ووصلوا بجمعهم الى محلة الموحدين وكان عبد المؤمن أمر أصحابه ان يكمنوا لهم ولا يظهر احد منهم فلما استحر النهار وعم عسكر اللمتونيين الاغترار خرجت الكمائن فانهزموا في الحين وولوا أدبارهم والسيف يصفع رقابهم ويمحو آثارهم وأتبعهم عسكر الموحدين الى باب دكالة وأمتنوا من خيلهم نحو ثلاثة آلاف وقتلوا من فرسانهم ورجالهم ما لا يحصى كثرة ، هكذا ذكر ابن صاحب الصلاة ، وقال : فلما ضاق عليهم الحصار تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً هلكوا جوعاً طول هذه المدة وضاقوا حتى أكلوا الجيف وأكل أهل السجن بعضهم بعضاً وعدمت الحيوانات وعدمت الحنطة بأسرها وطلب إسحاق خازن أبيه فلم يجد فيه شيئاً . . . »

6

صفحة 25

الموضوع : فتح مراكش .

قال ابن صاحب الصلاة : « لما كان فتح مراكش ودخلها أبو محمد عبد المؤمن رجع منها الى محله وجعل الأمناء على أبوابها مدة شهرين اثنين فاجتمع فيها سالفا ثم قسم ديارها على الموحدين وتوالت الفتوح إثر ذلك من كل مكان ، منها دخول قصبة تلمسان وذلك في الخامس عشر لشوال من السنة المؤرخة في الشهر الذي دخلت فيه مراكش ، كان بينهما ثلاثة أيام . . . »

7

صفحة 109 - 110

الموضوع : الوباء الذي أستهدفت له مراكش سنة 571 .

« . . . وأما ما كان في دورهم وقصورهم (أي السادة) من الخدم والعبيد

وغيرهم فأخبر أبو مروان ابن صاحب الصلاة قال : حدثني الشيخ الحافظ أبو بكر بن الجد قال : حدثني السيد أبو علي الحسين ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله أنه كان يموت في كل يوم في دورهم ثلاثون شخصاً حتى فني أكثر من كان في قصورهم ودورهم . . . » .

8

صفحة 112

الموضوع : وفيات .

« . . . وفيها (أي في سنة 574) توفي أبو محمد المالقي شيخ طلبة الحضرة بمراكش وكان من أهل العلم والدين والحفظ لحديث رسول الله (ص) ولم يزل عند الخليفة أبي محمد عبد المؤمن في حظوة مكينة ، وكذلك عند الخليفة أبي يعقوب ، وكان يرفع له المسائل ويتناول توصيل الرسائل ، ويرفع أشعار الشعراء وإخراج الجزاء وتقلد للخطابة والصلاة بأمير المؤمنين وإذا وصل كتاب فتح أو غيره قرأه الى غير ذلك ، وكان له أدب فطن وشعر في الزهد ومكفرات ولم يزل في عز وتمكين الى أن توفي رحمه الله . . . » .

ملاحظة : « سقت هذا النص من ابن عذاري بالرغم من أنه لم يرد فيه ذكراً لابن صاحب الصلاة ، وذلك لأن هذا الثناء على أبي محمد المالقي منقول عن ابن صاحب الصلاة في التكملة لابن الأبار (كوديرا رقم 1394) » . وفي العطار رقم 1879) .

9

صفحة 113 - 114

الموضوع : حركة الخليفة الى أفريقية وغزوته مدينة قفصة سنة 575 .

« . . . وذكر ابن صاحب الصلاة قال : حدثني أبو الحسن القنوزي أنه (أي الخليفة) كان يعطي البركة لعساكره في غزوته الى قفصة ألف ألف دينار تمادى ذلك

مدة غزوته إلى أن انصرف ، سوى العلوفات والمواساة والمرافق في كل منزل » .

10

صفحة 115

الموضوع : قصيدة قالها بمناسبة فتح الخليفة لمدينة قفصة سنة 575 .

« . . . وأنشد أبو مروان عبد الملك بن محمد في معنى قصيدة أولها :

فتحٌ يفوتُ مدارك الأوهام	ويعجزُ الإحصاء بالأقلام
صدعَ الدجى صدْعَ الرداء بنوره	فأرى الغفوات تقضي الأحلام ؟
خبرُ البشائر صوّتت خيل التي	ستقول خيرُ خليفة وإمام
وافتْ كما ابتسم الأمانُ لخائف	وأبانَ أثر المحل سكبُ غمام
لما طوى طيّ السجل مشارقاً	أمّ المغارب ناصرُ الإسلام
يا أيها الملك الذي في ظله	أمن المروّع حوادث الأيام
بسطا وجاه وما لباطلة شأوهُ	أسد العرين ولا الحسام الحام ؟
وجرى على نهج الخلافة تابعاً	آثارها في النقض والإبرام
مستشفياً تمحيص مجيل عن التي	قدراً و... التي كالأنعام »

11

صفحة 112 - 121

الموضوع : حركة الخليفة لبلاد السوس لحماية المعدن سنة 578 .

« فلما أكمل غرضه أقلع بمحلاته وسلك على مسالك المهدي وزار قبره وقبر أبيه عبد المؤمن . .

وأمر وفود الأندلس أن يسيروا من مراكش إلى زيارتها . . قال أبو مروان عبد الملك بن محمد في تاريخه :

وكنت في وفد إشبيلية فزرت القبرين الملازمين بتنملل مع أبي بكر بن زهر وأبي

الوليد بن رشد ، وأمر طلبة الحضر أن يرثوهما ويذكروا من فضائلهما ومآثرهما فنال الناس في ذلك وأطنبوا فحباهم عليه بالعطاء الكثير . . . »

12

صفحة 132

الموضوع : وصول الخليفة أبي يعقوب لإشبيلية وغزوته لشنترين سنة 580 .

« . . . ثم سار من جبل الفتح إلى جزيرة الخضراء إلى أن برز بعساكره على إشبيلية في يوم الجمعة الثالث عشر لصفر وخرج جميع أهل إشبيلية إلى لقائه . . قال أبو مروان بن صاحب الصلاة : وكنت حاضراً في يوم هذا اللقاء فسلمت عليه مع من تقدم من الطلبة إليه وتزاحم الناس للسلام فلم أقدر على الكلام ونزل رضي الله عنه داخل البحيرة التي له بخارج باب قرمونة . . فلما كان في اليوم الثاني أمر بتمييز العساكر والعدد ، وقسم عليهم جميع الأسلحة المذكورة وقسّم ألف فرس من العتاق الجياد على أشياخ الموحدين والعرب الأجناد . . . »

13

صفحة 134

الموضوع : غزوة شنترين 580 .

« . . . وضربت له القبة الحمراء (على أبواب شنترين) والخيرات كثيرة بكل جهة ومكان . . وقال أبو مروان بن صاحب الصلاة : لقد رأيت في هذا اليوم ثوراً بيد عربي باعه بدرهم واحد ، ولقد اشتريت مع أصحابي بقرا سمينة بثلاثة دراهم وامتلأت المحلات على كثرتها وكبرها من البقر والغنم . . . »

ابن عبد الملك : الذيل والتكملة :

الموضوع : وفاة ابن عياش .

قال عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة في تاريخه « إن وفاة ابن عياش كانت

بإشبيلية في ليلة الأربعاء غرة جمادى الأخيرة من سنة ثمان المذكورة ، وزعم أنه قال البيتين المذكورين . لولا لما كبر وصار يشرب الرُّب ويطرب ، وأنه كان قبل ذلك في فتوته لا يشرب ولا يطرب ، والله تعالى أعلم ، وقال : أنه صلى عليه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ، وإن جنازته كانت مشهورة رحمه الله .

السفر الرابع من المخطوط ، الخزانة العامة ـ الرباط 2646 طرة الورقة رقم 15 .

راجع النقل الثامن عن ابن عذاري المنقول في هذا الباب .

(ملاحظة) : يشير هذا النقل الى البيتين ـ

عصيتُ هوى نفسي صغيراً فعندما ... رمتني الليالي بالشيب وبالكبر
أطعتُ الهوى عكس القضية ليتني ... خلقت كبيراً وانتقلت الى الصغر !

أنظر التعليق رقم 4 ص 30

الجزنائي : زهرة الآس (طبعة الجزائر) ص 24 :

(نقل عن ابن صاحب الصلاة « إن قراءة الحزب بعد صلاة الصبح والمغرب كانت بأمر من يوسف بن عبد المؤمن بن علي في سائر بلاده ») .

ابن أبي زرع : الأنيس المطرب طبعة فاس صفحة ١٢٧ :

والصحيح في بيعته ووفاته (أي المهدي) ما ذكره ابن صاحب الصلاة في كتاب المن بالإمامة « أنه بويع يوم السبت غرة محرم مفتتح عام ست عشرة وخمسمائة وتوفي يوم الأربعاء الثالث عشر لشهر رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة » .

صفحة 138

. . . وقال ابن صاحب الصلاة : « كان فتح غرناطة وقتل الأقرع النصراني عام سبعة وخمسين » (يعني وخمسمائة) .

• • •

1

صفحة 84 عند الكلام على نسب المهدي

وقال : أثبت هذا النسب أبو علي بن رشيق ، وحققه ابن القطان واختصره ابن صاحب الصلاة .

2

صفحة 85 عند الكلام على ابتداء أمر المهدي

حكى ابن صاحب الصلاة عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقي شيخ مسن من سكان فاس قال : كنت ببغداد بمدرسة الشيخ الإمام أبي حامد الغزالي فجاءه رجل كث اللحية على رأسه كرزية صوف فدخل المدرسة وأقبل على الشيخ أبي حامد مسلماً عليه فقال : ممن الرجل ؟ فقال من أهل المغرب ، فقال : أدخلت قرطبة ؟ قال نعم . قال كيف فقهاؤها ؟ قال بخير ، قال : هل بلغهم كتاب الأحياء ؟ قال نعم ، قال فماذا قالوا فيه ؟ فصمت الرجل حياءً فعزم عليه لَيَقُولَنَّ ! فأطرق رأسه وأخبره بإحراقه وبالقصة كما جرت ، قال فتغير وجهه ومد يده للدعاء والطلبة يؤمنون عليه ، مزق الله ملكهم كما مزقوه وأذهب دولتهم كما أحرقوه! فقال أبو عبد الله بن تومرت السوسي الملقب بالمهدي : أيها الإمام : أدع الله أن يجعل ذلك على يدي ، فتغافل عنه فلما كانت بعد أيام إلى الحلقة شيخ آخر على شكل الأول فسأله الشيخ أبو حامد فأخبره بصحة الخبر المتقدم فدعا بمثل دعائه الأول فقال له المهدي : على يدي إن شاء الله فقال : « اللهم اجعله على يده » فتقبل الله دعاءه فخرج أبو عبد الله بن تومرت من بغداد وصار إلى المغرب وقد علم أن دعوة الشيخ لا ترد فكان من أمره ما يأتي ذكره إن شاء الله .

صفحة 95 في معرض حديثه عن حصار الموحدين لمدينة مراكش :

« . . . وقتل منهم (الموحدين) في ذلك اليوم أزيد من أربعين ألفاً ولم يسلم منهم إلا نحو أربعمائة ما بين فارس وراجل ، وقتل المقدم على العسكر من الموحدين وهو الشيخ أبو محمد البشير أحد العشرة من أصحاب المهدي ، وكان لعبد المؤمن بن علي في ذلك اليوم ظهور ذب به على المهزمين وحمى حوزة المقاتلين . . ولما وصل الفل إلى المهدي وفيهم أربعة من أصحابه وعبد المؤمن معهم وجدوه يتمثل مريضاً فقال لهم : أسلم عبد المؤمن ؟ قالوا : نعم قال : « منذ عاش عبد المؤمن بقي الأمر » .

ذكر ذلك ابن صاحب الصلاة وغيره وذكر أنه كان لطائفة المهدي من الموحدين على المرابطين في الحروب التي كانت بينهم نحو أربعين هزيمة حتى كانت هذه عليهم قتلوا فيها أجمعين ولم ينج منهم إلا نفر يسير ، غزا المهدي منها بنفسه أربع غزوات فتح الله فيها عليه وعلى الموحدين الذي كانوا معه ولم يزل يرجع إلى مستقره بتمثل ظاهراً ظافراً من غزوه » .

ابن الخطيب : الأحاطة مخطوط الأسكوريال رقم 1673 ورقة 158 :

سمي محمد بن عبد الملك بن سعيد وقال : ذكره ابن صاحب الصلاة في تاريخه في الموحدين » .

المقري : نفح الطيب (ثالث) 1949 ص 100

وذكره - (أي أبا عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد صاحب المغرب) - ابن صاحب الصلاة في كتابه (تاريخ الموحدين) ونبه على مكانته منهم في الخطوة والأخذ في أمور الناس وأثنى عليه .

المراجع العربية

الكتب المطبوعة :

- ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلاة ، نشر كوديرا - طبع مجريط 1887 ونشر ماكسيميليانو الأركون ، وجو نثالث بالنثيا ، مدريد 1915 ونشر بل وابن أبي شنب الجزائر 1920 ، ونشر العطار - القاهرة 1955 .
- ابن الأبار : الحلة السيراء - نشر دوزي - ليدن 1851 .
- ابن الأبار : أعتاب الكتاب - نشر صالح الأشتر - دمشق سنة 1961 .
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ - بيروت 1955 .
- الادريسي : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) طبعة ليدن 1894 .
- ارسلان شكيب : الحلل السندسية ، في الأخبار والآثار الأندلسية ، نشر محمد المهدي الحبابي ، مصر 1936 .
- ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، تعريب أحمد عيسى - القاهرة 1960 .
- اسماعيل أبو الفداء : المختصر ، في أخبار البشر ، مصر 1325 .
- أشباخ يوسف : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، تعريب محمد عبد الله عنان - القاهرة 1158 .
- الأصبهاني أبو الفرج : كتاب الأغاني - بيروت 1955 .
- أنخل جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، تعريب حسين مؤنس - القاهرة 1955 .

- أ. لافي بروفنصال : مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المؤمنية - رباط الفتح 1941 .
- بروكلمان (كارل) : تاريخ الأدب العربي ، تعريب عبد الحليم النجار - نشر دار المعارف - مصر 1961 .
- البستاني (أفرام) : دائرة المعارف - بيروت 1956 .
- ابن بشكوال : كتاب الصلة - نشري السيد عزت العطار الحسيني - القاهرة 1955 .
- البكري : المغرب ، في ذكر بلاد أفريقية والمغرب - نشر البارون دوسلان - الجزائر 1857 .
- البلاذري : فتوح البلدان - مصر 1319 .
- بلافريج أحمد وعبد الجليل خليفة : الأدب الأندلسي - تطوان 1941 .
- بوجندار محمد : مقدمة الفتح ، من تاريخ رباط الفتح - الرباط 1345 هـ .
- البيذق أبو بكر الصنهاجي : كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين - نشر ليفي بروفنصال باريز 1928 .
- التازي عبد الهادي : تاريخ جامع القرويين ، 3 مجلدات ، بيروت 1972 .
- التجيبي أبو بحر صفوان بن أدريس - زاد المسافر وغرة الأدب السافر . نشر عبد القادر محداد - بيروت 1939 .
- التطواني محمد : الذكرى العشرينية لجلوس صاحب الجلالة سيدي محمد بن يوسف على عرش أسلافه المقدسين - الرباط - 1947 .
- أبو تمام : ديوان الحماسة (شرح التبريزي) 8 القاهرة 1296 .
- التنبكتي أحمد بابا : نيل الابتهاج - طبعة 1330 .
- ابن تومرت محمد : كتاب أعز ما يطلب ، تقديم جولد زيهر - الجزائر 1903 .
- التيجاني عبد الله : رحلة التيجاني - تونس 1885 .
- ابن تغري بردي أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
- جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق - القاهرة 1959 .
- الجزنائي : زهرة الآس في بناء مدينة فاس - نشر الفريد بيل - الجزائر 1922 .

- ابن جزي : كتاب التسهيل ، لعلوم التنزيل - مصر 1355 .
- جودت الركابي : في الأدب الاندلسي - مصر 1960 .
- حاجي خليفة : كشف الظنون - استانبول 1942 .
- حاجي ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام - القاهرة 1959 .
- حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين - القاهرة 1957 .
- حسين بن غنام : تاريخ نجد - نشر ناصر الدين الأسد - القاهرة 1961 .
- ابن الخشاء : مفيد العلوم ومبيد الهموم - نشر جورج كولان ورونو - الرباط 1941 .
- الحلبي برهان الدين : السيرة الحلبية - مصر 1349 .
- ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد - الجزائر 1927 .
- الحموي ياقوت : معجم البلدان - بيروت 1955 .
- الحميدي : جذوة المقتبس ، في ذكر ولاة الأندلس - نشر محمد بن تاويت الطنجي - القاهرة 1592 .
- الحميري : الروض المعطار - نشر بروفنصال - القاهرة 1937 .
- ابن حوقل : المسالك والممالك - ليدن 1873 .
- ابن حيان : المقتبس ، في تاريخ الأندلس - نشر ميلشور انطونيا - باريز 1937 .
- ابن الخطيب : الإحاطة - نشره محمد عبد الله عنان - القاهرة .
- ابن الخطيب : أعمال الأعلام - نشر بروفنصال - بيروت 1956 .
- ابن الخطيب : اللمحة البدرية في الدولة النصرية - نشر محب الدين الخطيب .
- ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - بيروت 1956 .
- ابن خلدون : التعريف بابن خلدون شرقاً وغرباً - نشر ابن تاويت الطنجي .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان - امستردام 1845 .
- ابن دراج القسطلي : الديوان - نشر محمود علي مكي - دمشق 1961 .
- الدميري كمال الدين : حياة الحيوان الكبرى .
- الزاوي الطرابلسي الطاهر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا - مصر 1954 .

- ابن الزبير : صلة الصلة ـ نشر بروفنصال ـ الرباط 1938 .
- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ـ نشر محمد الهاشمي الفيلالي ـ الرباط 1936 .
- الزركشي التونسي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ـ تونس 1289 هـ .
- الزركلي خير الدين : الأعلام ـ القاهرة 1959 .
- الزطاري محمد : معرض نقود قديمة ـ الدار البيضاء 1926 .
- الزقاق : الزقاقية .
- ابن الزيات : التشوف الى رجال التصوف ـ نشر ادولف فور ـ الرباط 1958 .
- ابن زيدان : العز والصولة في معالم نظام الدولة ـ نشر عبد الوهاب بن منصور ـ الرباط 1961 .
- ابن سعيد وآخرون : المغرب ، في حلى المغرب ـ نشر شوقي ضيف ـ القاهرة 1953 .
- ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الأرض في الطول والعرض ـ تحقيق جوان فرنيط جينس ـ تطوان 1958 .
- سكيرج : أرشاد المتعلم والناسي ، في أشكال القلم الفاسي ـ فاس 1316 .
- ابن سودة عبد السلام : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ـ طبعة دار الكتاب (البيضاء).
- السوسي محمد المختار : سوس العالمة فضالة 1379 .
- السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ مصر 1326 هـ .
- السيوطي : أخبار الخلفاء ـ طبعة 1959 .
- الشبيبي محمد رضا : أدب المغاربة والأندلسيين ـ القاهرة 1916.
- الصبحي محمد : انبلاج الفجر ، عن المسائل العشر ـ الرباط 1940 .
- طشاروجان وجيبروم : أزهار البساتين ، في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين ـ تعريب أحمد بلا فريج ومحمد الفاسي ـ الرباط 1340 .
- الطباع عبد الله : كتاب الحلة السيراء لابن الأبار ـ بيروت 1962 .
- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ـ ليدن 1800 .

- ابن طفيل : حي بن يقظان تقديم جميل صليبا وكامل عواد ـ دمشق 1963 .
- العباس بن إبراهيم : الأعلام ، بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ـ فاس 1936 .
- ابن عبد الله عبد العزيز : الطب والأطباء بالمغرب ـ الرباط 1959 .
- عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ـ مصر 1936 .
- العقيلي : سلك فرائد اليواقيت .
- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ـ دمشق 1949 .
- العمري بن فضل الله : مسالك الأبصار ، في ممالك الأمصار ـ مصر 1943 .
- ابن العوام الإشبيلي : كتاب الفلاحة ـ مدريد 1802 .
- الغزال أحمد بن المهدي :نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد ـ نشر الفريد البستاني ـ تطوان 1941 .
- الفاسي محمد : شاعر الخلافة الموحدية ـ الرباط 1958 .
- الفاسي الفهري محمد البشير : قبيلة بني زوروال ـ الرباط 1962 .
- الفاسي محمد العابد : الخزانة العلمية بالمغرب ـ الرباط 1960 .
- ابن فرحون : الديباج المذهّب ، في معرفة أعيان علماء المذهب ـ فاس 1316 .
- ابن الفرضي : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ـ نشر السيد عزت العطار الحسيني ـ القاهرة 1954 .
فكري أحمد : مساجد القاهرة ومدارسها ـ القاهرة 1961 .
- ابن القاضي : جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس ـ فاس 1309 .
- القلقشندي : صبح الأعشى ـ مصر 1918 .
- الكانوني العبدي محمد : أسفي وما إليه قديماً وحديثاً ـ مصر 1353 .
- الكتاني محمد بن جعفر : سلوة الأنفاس ـ فاس 1316 .
- كنون عبد الله : النبوغ المغربي ، في الأدب العربي ـ طبعة تطوان 1357 .
- كنون عبد الله : أبو الحسن المستتر ـ بحث ظهر ضمن كتاب (فلاسفة الإسلام في المغرب العربي) الذي أصدرته جمعية نبراس الفكر ـ تطوان 1916 .

ـ المبرد : الكامل : القاهرة ـ 1928 .

ـ المراكشي عبد الواحد : المعجب ، في تلخيص أخبار المغرب ـ نشر محمد الفاسي ـ سلا 1938 ، ثم نشر محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ـ القاهرة 1949 .

ـ المريني محمد : الأبحاث السامية ، في المحاكم الإسلامية ـ تطوان 1953 .

ـ المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ نشر وترجمة دي منيار ودي كورتيل ـ باريس 1909 .

ـ المقري : نفح الطيب ـ نشر محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة 1949 .

ـ المكناسي أحمد : خريطة المغرب الأركيولوجية ـ تطوان 1961 .

ـ ملين محمد الرشيد : عصر المنصور الموحدي ـ الرباط 1946 .

ـ ابن منظور : لسان العرب ـ بيروت 1955 .

ـ المنوني محمد : العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين ـ تطوان 1950

ـ مارتينو ماريوموريتو : : المسلمون في صقلية ـ بيروت 1957 .

ـ محمد بن الموقت : الانبساط ، بتلخيص الاغتباط ـ مصر 1347 .

ـ مؤلف مجهول الأسم : الحلل الوشية في ذكر الأخبار المراكشية ـ نشر ي . س علوش ـ الرباط 1936 .

ـ مؤلف مجهول الأسم : الاستبصار في عجائب الأمصار ـ نشر سعد زغلول عبد الحميد ـ مصر 1958 .

ـ الناصري أحمد أبو العباس : الاستقصاء ، لأخبار المغرب الأقصى ـ تحقيق ولدي المؤلف جعفر ومحمد ـ الدار البيضاء ـ 1954 .

ـ النجاري محمد بك : قاموس فرنساوي عربي ـ الاسكندرية 1903 .

ـ الهواري أحمد : دليل الحج والسياحة ـ الرباط 1935 .

ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، في أخبار بني أيوب ـ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ الاسكندرية 1960 .

ـ وزارة التهذيب الوطني والشبيبة والرياضة : قائمة لنوادر المخطوطات العربية المعروضة في مكتبة جامعة القرويين بفاس بمناسبة مرور مائة وألف سنة على تأسيس هذه الجامعة ـ الرباط 1960 .

ـ اليازجي : العرف الطيب ، في شرح ديوان أبي الطيب ـ بيروت 1955 .

ـ المجلات ـ

ـ امبرتوريزيتانو : بعض المصادر العربية غير المعروفة عن تاريخ مسلمي صقلية ـ مجلة المشرق (روما) شتنبر 1961 .

ـ بلا فريج أحمد : عبد المؤمن وتأسيس الدولة الموحدية ـ مجلة السلام (تطوان) نونبر ـ دجنبر 1933 .

ـ التازي عبد الهادي : الأرقام العربية ـ مجلة التربية الوطنية (الرباط) ـ ابريل 1961 .

ـ التازي عبد الهادي : الحروف المنقوشة في خدمة الآثار ـ مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية 1960 .

ـ التازي عبد الهادي : المحمدية القديمة والمحمدية الحديثة ـ مجلة دعوة الحق ـ الرباط يوليه 1960 .

ـ الجراري عباس : ابن حبوس ـ مجلة دعوة الحق ـ مارس 1961 .

ـ ابن الحسني عبد الكريم : الحماسة المغربية ـ ملحق جريدة المغرب للثقافة المغربية ـ 9 يونيه 1938 .

ـ الدوري عبد العزيز : ابن خلدون والعرب ـ مجلة الكتاب ـ ابريل 1962 .

ـ العبادي أحمد مختار : الموحدون والوحدة الإسلامية ـ مجلة التربية الوطنية ـ مارس ـ ابريل 1961 .

ـ العبادي أحمد مختار : دراسة حول كتاب الحلل الوشية ـ مجلة تطوان ـ عدد 1960 .

ـ غرسية جوميس : قصيدة لابن طفيل ـ مجلة المعهد المصري ـ عدد 1953 .

ـ الفاسي محمد : الشاعر الكبير ابن حبوس ـ مجلة الثقافة المغربية ـ عدد نونبر ـ دجنبر 1941 .

ـ الفاسي محمد : أصول الأعلام الجغرافية المغربية ـ مجلة البينة ـ مايه 1962 .

ـ الفاسي محمد : الأعلام الجغرافية الأندلسية ـ مجلة البينة ـ يوليه 1962 .

الكتب المخطوطة

- بوجندار : الاغتباط (مخطوط) بالخزانة العامة رقم 1287 / د .
- التجيبي ابن ليون : كتاب إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول الفلاحة (مخطوط) بمكتبة جامعة غرناطة .
- ابن الحسني عبد الكريم : التعريف ، بقية وفد ثقيف (مخطوط) خزانة مؤلفه .
- ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة (مخطوط) بالاسكوريال رقم 1673 .
- الزهراوي : تقويم الأدوية فيما اشتهر من الأعشاب والعقاقير والأغذية (مخطوط) بالخزانة العامة ـ الرباط رقم 449 / د .
- السائح محمد بن عبد السلام : الغصن المهصور في تاريخ مدينة المنصور (مخطوط) بمكتبة المرحوم القاضي السائح
- الصمادحي حسن حسني عبد الوهاب : كتاب العمر (مخطوط) مكتبة حسن حسني عبد الوهاب .
- ابن طفيل : الأرجوزة في الطب (مخطوط) بخزانة جامعة القرويين تحت رقم 3158 / 50 ل .
- ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (مخطوط) بالخزانة العامة ـ الرباط رقم 2646 / د .
- ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار ملوك المغرب (مخطوط) بالخزانة العامة رقم 200 / ق .
- ابن العربي : جزء من تلخيص الرحلة (مخطوط) بالخزانة العامة رقم 1020 / د .

ـ عياض : الغنية ، مكتبة الأستاذ أبي الحسني ، الرباط .

ـ الغسالي الوزير : حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار (مخطوط) بالخزانة العامة رقم 1654 / د .

ـ الفاسي محمد العربي : مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (المخطوط) بخزانة سيدي مُحمد السراج .

ـ ابن القطان : نظم الجمان ، نسخة (مخطوطة) في ملك الدكتور محمود علي مكي وكيل معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

ـ ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن في آثر مولانا ابي الحسن (مخطوط) بالاسكوريال رقم 1666 .

ـ نظارة الأحباس : حوالة أحباس القرويين بفاس (مخطوط) الكتبة العامة رقم 23 .

المراجع غير العربية

ـ الكتب ـ

Alfonso El Sabio : Primera Cronica general - Madrid 1943 .

Ambrosio Huici Miranda : Historica politica del imperio Almohade Tetuan 1956 .

Asin Palacios : Aben Massarra y su escuela - Madrid .

Baedeker : Espagne et portugal - 1900 .

Brethes : Contribution a l'histoire du Maroc 1939 .

Brockelmen : G . A. L. Suppl . I .

Caillé : La ville de Rabat - Paris 1945 .

Cattenoz : Tables de concordance des éres chretiennes et hegiriennes - Rabat 1954 .

Codera : Decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana 1899 .

Colandreau : La casbah de Mehdia - Rabat 1946 .

Colin et Levi : As - Sakati de Málaga (un manuel hispanique de

Provençal : hisba) ' Paris .

Deverdun : Marrakech - Rabat 1959 .

Dozy : Sup . aux dictionnaires arabes . Leyde 1881 .

Dozy : Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen age - Paris 1881 .

Galiego Burin : Grenade , Granada 1954 .

Gauthier Léon : Ibn Thofail , sa vie et ses oeuvres - Paris 1909 .

Gayangos (Pascuale De) : The History of the Mohammedan dynasty in Spain (Nafhu T Tib) - Londres 1840 - 43 .

G . Yvr : Az - Zab (Encyclopedie T IX P . 1246 - 147) .

Kasimirski : Description de l'Afrique - Paris 1956 .

Laoust : Mots et choses berbères - Paris 1920 .

Léon l'Africain

Le Tourneau : Fes avant le protectorat - Casablanca 1949 .

Marmol : L'afrique - Paris 1667 .

Massignon : Le Maroc dans les premières années du XVI siecles Alger 1906 .

Miles : Dinar (Encyclopédie de l'Islam - Paris 1960) .

Moulieras : Le Maroc inconu - Paris 1895 .

Olagué : Histoire d'espagne - Paris 1957 .

Provençal : Documents inédits d'histoire Almohade - Paris 1928 .

Provençal : L'Espagne Musulmane - Paris 1932 .

Provencal : La fondation de Marrakech (Melange d'histoire et d'archéologie de l'Occident Musulman) II - Alger 1957 .

Provençal : Conferences sur l'espagne Musulman . Caire 1950 .

Pons Boingues : Ensayo biobibliografio sobre los historia dores y geografos arabigo-espanoles - Madride 1898 .

Ficard : Le Maroc - Paris 1925 .

Richard Bagwell : Marsh (Dictionary of national biography) .

Schaade : Alhambra (Encyclopédie de L'islam) .

Simonet : Description del reino de granada .

Seybold : Gibraltar (Encyclopédie de L'islam P. 1137)

Terrasse : La grande mosquée Almohade de sevilla - Paris 1928 .

Terrasse : La grande mosquée de TAZA - Paris 1943 .

Terrasse : L'Art hispagno marocique - Paris 1932 .

Terrasse : Histoire du Maroc .

S . Monteu : Meunerie (La grande Encyclopédie T 23) .

Viala : La Mécanisme du parage des successions en droit muslman - Algar 1917 .

W . M . C . Juynboll : Zeventiende - Eeuwse Beoefenaars Arabish in Nederland .

Alain et Deverdun : Les portes anciennes de Marrakech (hésperis T XLIV 1957) .

Ambrosio Huici Miranda : (Un Fragmento inédito de Ibn idari sobre los Almoravides) . (Hes . Tamuda vol . II 1 fas 1961 p. 43 - 111) .

Balbas Le - Opoldo Torres : Gibraltar llave y guada de Espana . (Al - Andalus vol . VII 1942) .

Basset et Provençal : Chella (Hes 1922 T II 4 Tri p. 415) .

Basset et Terrasse : Tinmel (Hes T. IV 1924) .

Basset et Terrasse : Sancturaires à l'étude des dirhams de l'éoque Al Mohade (Hes T XVI 1933) .

Celeries : L'Atlas et la circulation au Maroc (Hes . 1927 T. VII p. 447) .

Colin : Notes de dialectologie arabe (Hes . T. X 1930) .

Debreuil : Les pavillions des états musulmans (Hes Tamuda vol . I 1960) .

Di Giacomo : Une poetesse andalouse du temps almohade (Hes, T. XXIV 1947) .

Marcy : Les ait Jellidasen (Hes 1929 T IX Tri I) .

Melchor Antuna : Campanas de los almohades en Espana Sevilla y sus monumentos arabes « Religion y cultural » El Escroial 1930) .

Norris : The early islamic settlement in Gibraltar 1960 .

Peres : La poésie à Fes sous les almoravides et les Almohades (Hesperis T XVIII 1934) .

Provençal Provencal : La « Moro Zaida » (Hes . T XVIII 1934) .

Provençal : Le traité d'ibn Abdun (Journal asiatique Avril Juin 1934) .

Renaud : Trois études de la medecine arabe en occident (Hes . 1931) . T X II Fas 2 p. 219) .

Renaud : L'Enseignemet des Sciences exactes au Maroc (Hes . XIV 1932) .

Seco De Lucene : Notas Sobre toponimia arabigo - Granadina (Al Andalus 1944) .

الفهـــارس

فهرس الآيات القرآنية

الآيــة	الصفحة	الســورة	رقم الآيــة
واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري	196	طه	29
صدقوا ما عاهدوا الله عليه	205	الأحزاب	23
كأنهم أعجاز نخل خاوية	206	الحاقة	7
من يضلل الله فلن تجد له سبيلاً	245	النساء	88
لكل أجل كتاب	284	الرعـد	38
وما ربك بظلام للعبيد	294	فصلت	46
وما ذلك على الله بعزيز	294	إبراهيم	20
إذا جاءك المنافقون	300	المنافقون	1

فهرس الأحاديث النبوية

جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. صفحة 341 يروى مرفوعاً وموقوفاً عن ابن مسعود، ابن الديبع: تمييز الطيب من الخبيث فيما يروى على ألسنة الناس من الحديث. الطبعة الثالثة ـ مصر. حرف الجيم.

فهرس أسماء الأعلام

تنبيه: ١ ـ رتبت هذه الفهارس وفقاً لحروف الهجاء.

٢ ـ هذا ولم تراع ألفاظ ابن أو أبو أو عبد عند الترتيب.

٣ ـ حرف الحاء (ح) يرمز إلى الحاشية.

حرف الألف

حـرف البـاء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حـرف النـون

حـرف الهـاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس أسماء القبائل والعشائر والأجناس

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأعلام الجغرافية

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

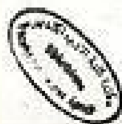
حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين



حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس للقصائد والقطع الشعرية الواردة في المخطوط

الصفحة	موضوع الشعر
	موقعة السبكة، وهي تتألف من ثمانية وثلاثين بيتاً هذا مطلعها (بحر الكامل)
	عــزمــات مــنــصــور الــعــزائــم غــالــب
	ضــمــنــت فــتــوح مــشــارق ومــغــارب
146 - 144	قصيدة أخرى لأبي الوليد هذا يهنئه بحية النظر من سنة 557 بعد الوقيعة المذكورة، من أربعة وأربعين بيتاً هذا مطلعها (بحر الوافر)
	بــأمــرك أســمــع الــداعــي الــمــجــيــب
	وســعــدك بــشّــر الــفــتــح الــقــريــب
158	قطعة من ثلاثة أبيات لإبراهيم بن المنقر يهجو أخيل بن إدريس يقول في أولها: (المتقارب)
	تــثــبــت أخــيــل ذا عــفــة فــبــان الــتــخــيــل عــين الــيــقــين
159	ثلاثة أبيات لأبي بكر بن ميمون متغزلاً في فتى من الغمات يقول في أولها: (بحر المتقارب)
	أبــا قــاســم والــهــوى جــنــة ومــا أنــا من مــسـهــا لم أفق!
160	بيتان للشاعر البكي في هجاء ابن ميمون مطلعها: (بحر البسيط)
	قــالــوا: هــجــاك ابن مــيــمــون؟ فــقــلــت لــهــم
	يــا لــيــت شــعــري من الــهــاجــي؟ فــأدريــه
173 - 171	قصيدة أيضاً لأبي الوليد إسماعيل مهنئاً ببيعة أبي يعقوب بعد وفاة عبد المؤمن، من أربعين بيتاً، وقد قال في مطلعها (بحر الكامل)
	عــهــد أنــار بــه الــهــدى والــديــن
	واســتــظــهــر الــتــأيــيــد والــتــمــكــين
175 - 173	قصيدة للشيخ المسن أبي بكر بن المنخل الشلبي في موضوع التهنئة بالبيعة، من ثمانية وأربعين بيتاً، هذا مطلعها (بحر الكامل)
	أبــن الــخــلافــة إن جــلــوت صــبــاحــهــا
	ومــددت من نــور الــهــدى أوضــاحــهــا
178 - 175	قصيدة للشاعر أبي عمر بن حربون في موضوع التهنئة كذلك وقد تعرض فيها للنصر الذي حصل عليه الموحدون في موقعة جبل

الصفحة	موضوع الشعر
	السبكة، من أربعة وستين بيتاً، هذا مطلعها (بحر الطويل)
	لــكــم بــعــد حــمــد الله تــهــدى الــمــحــامــد
	وفي وصــف عــليــاكــم تــصــاغ الــقــلائــد
184 - 182	قصيدة أخرى لأبي عمر بن حربون بمناسبة اجتماع الأخوين أبي حفص وأبي سعيد بجبل طارق تشتمل على تسعة وثلاثين بيتاً يقول في مطلعها: (بحر البسيط)
	قــد حــصــحــص الــحــق لا ريــب ولا فــنــد
	هــذي الــفــتــوح الــتي كــانــوا بــهــا وعــدوا
184	قطعة أيضاً لابن حربون يمدح أبا حفص عندما كان منصرفاً لمدينة سبتة من جبل طارق، من خمسة أبيات، هذا مطلعها: (بحر الطويل)
	تجشمت هــول الــبــحــر في طــلــب الــبــحــر
	ولم أشــك صــرف الــدهــر إلا إلى الــدهــر
189 - 188	قصيدة لأبي الوليد إسماعيل الشلبي الشواش يهنىء الأمير أبا يعقوب بمقدم أخويه أبي حفص وأبي سعيد إلى مراكش من جبل طارق، من تسعة وثلاثين بيتاً، هذا مطلعها: (بحر الكامل)
	وضحت بأنوار الهدى قسماته وتلألأت الهدى القويم سماته
191 - 189	قصيدة لأبي عمر بن حربون يهنىء كذلك بالإياب من جبل الفتح ويمدح الأمير أبا يعقوب والسيد أبا حفص ويغبط بالأخوة بينهما من ستة وثلاثين بيتاً، هذا مطلعها (بحر الوافر)
	بــأيــمــن طــائــر كــان الإيــاب وأنــجــح مــطــلــب بــلــغ الــطــلاب
192 - 191	قصيدة أخرى لابن حربون عند مرجع السيد أبي حفص من الجبل يمدحه، وقد أصبح كاتباً له، من ستة وعشرين بيتاً هذا مطلعها: (بحر الكامل)
	حــثــوا الــمــطي فــقــد قــضــت أوطــارهــا
	واحــدوا إلى بــاب الأمــيــر قــطــارهــا

فهرس للرسائل الموحدية التي يتضمنها الكتاب

الأمثال الواردة ذكرها في الكتاب

فهرس الكلمات الأجنبية أو التي لها دلالة خاصة مما يحتويها المخطوط

فهرس للكتب الوارد ذكرها ضمن المخطوط

فهرس الموضوعات التي احتوى عليها الكتاب

(العناوين الموجودة بين هلالين في المتن هي عناوين إضافية)

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

كتب للمحقق

1 ـ آداب لامية العرب طبع بالرباط 1953

2 ـ أحد عشر قرناً في جامعة القرويين (بالعربية والفرنسية والانجليزية) طبعة فضالة 1960 .

3 ـ أعراس فاس، مطبعة فضالة 1961 .

4 ـ معرض لتاريخ المغرب الديلوماسي، طرابلس 1967 .

5 ـ تاريخ المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة (تحقيق) طبع بيروت 1964 وبغداد 1979 وبيروت 1986 .

6 ـ جولة في تاريخ المغرب الديلوماسي، مطبعة فضالة 1967 .

7 ـ تاريخ العلاقات الأمريكية المغربية (بالانجليزية) مطبعة فضالة 1967 .

8 ـ جامع القرويين المسجد الجامعة بمدينة فاس، ثلاث مجلدات، مطبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1972

9 ـ ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقي (تحقيق) مطبعة فضالة 1976 .

10 ـ قصر البديع بمراكش من عجائب الدنيا، مطبعة المحمدية (فضالة 1976).

11 ـ في ظلال العقيدة، دار الثقافة، البيضاء 1397 — 1977 .

12 ـ صقلية في مذكرات السفير ابن عثمان، المحمدية (فضالة) 1977 .

13 ـ التعليم في الدول العربية (طبعة اليونيسكو)في ثلاثة لغات 1977 .

14 ـ رسائل مخزنية (القسم الأول) مطبعة الكدال، الرباط 1979 .

15 ـ العلاقات المغربية الإيرانية ـ مطبعة أكدال، الرباط 1979 .

16 ـ القنص بالصقر بين المشرق والمغرب، مطبعة الرباط 1980 .
17 ـ الحماية الفرنسية بدءها ـ نهايتها، طبع الدار البيضاء 1980 .
18 ـ أوقاف المغاربة في القدس، طبع المحمدية 1981 .
19 ـ النصوص الظاهرة في إجلاء اليهود الفاجرة لابن أبي الرجال (تحقيق) صنعاء اليمن، نشر مركز الدراسات والبحوث اليمني 1400 — 1980 .
20 ـ دفاعاً عن الوحدة الترابية، مطبعة أكدال 1982 .
21 ـ الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ، مطبعة المعارف، الرباط 1983 .
22 ـ الفريدة في تقييد الشريدة لأبي القاسم الفجيجي (تحقيق) طبع الدار البيضاء 1983 .
23 ـ إيران بين الأمس واليوم، طبع الدار البيضاء 1983 .
24 ـ تفسير سورة النور 1984 الرباط .
25 ـ الموجز في تاريخ العلاقات الدولية الرباط 1985 .
26 ـ تاريخ المغرب الدبلوماسي (في عشر مجلدات) تحت الطبع .

د . عبد الهادي التازي

- من مواليد مدينة فاس (المغرب) 7 شوال 1339 = 15 — 6 — 1921 .
- اسهم منذ صغره في الحركة الوطنية للاستقلال، فاستهدف للنفي والاعتقال.
- نال شهادة العالمية من جامعة القرويين 1947 وأحرز دبلوم الدراسات العليا من جامعة محمد الخامس ودكتوراه في الآداب من جامعة الاسكندرية.
- بروفي في اللغة الفرنسية من معهد الدراسات العليا، وشهادة في الإنجليزية من معهد اللغات.
- مارس الأستاذية بجامعة القرويين (فاس) وجامعة محمد الخامس (الرباط) والمدرسة الإدارية.
- وعضو المجمع العلمي ببغداد، 1966، ومجمع اللغة بالقاهرة، 1976، ومجمع اللغة العربية بالأردن، 1980، وعضو أكاديمية المملكة المغربية 1980 .
- نشر عدة بحوث وحقق بعض المخطوطات، وألف مجموعة من الكتب وترجم عن الفرنسية والانجليزية طائفةً من الدراسات والمقالات.
- أشرف بعد استقلال المغرب على قسم الشؤون الثقافية بالعاصمة وعمل كاتباً عاماً لمركز التنسيق بين اللجان الوطنية لليونيسكو.
- شارك في عدة مؤتمرات دولية كان منها مؤتمرات القمة . .
- سفير للمملكة المغربية منذ 13 — 5 — 1963 لدى عدد من الدول العربية والاسلامية.
- مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي . . .
- محرز على وسام العرش (المغرب) والاستقلال (ليبيا) والرافدين (العراق).
- قلادة الكفاءة الفكرية من الدرجة الممتازة (المغرب).
- عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL- GHARB AL-ISLAMI - B.P. 113 - 5787 - Beyrouth - Liban

الترقيم 1987/1/2000/96

التنضيد : دار قدموس - بيروت

الطباعة : مؤسسة جواد للطباعة والتصوير - بيروت